نجيب صالح

تاريخ العرب السياسي

١٨٥٦ - ١٩٥٦

دار اقرأ

تمهيد

من الصعب أن أسرد أسماء الذين ساعدوني في هذا الكتاب بالإيحاء أو بالمعلومات ، ولو فعلت ذلك لكان علي أن أسرد مئات الأسماء .

وأنا هنا لا أكتب قصة حياتي كتمهيد . بل أسماء الدين لهم فضل علي ، وسأبدأ لا بترتيب خاص أو إنطلاقاً من موقع سياسي أو شخصي أو تاريخي بل وفق ما تمليه الذاكرة ، ولن أكتب أسماء الذين يعرفون معلومات قد تنسف بعض الهياكل السياسية القديمة . قد تكون هناك أسماء غير مشهورة ولكن لها موقعها في نفسي وحياتي وكتابتي »

أبدأ بالدكتور حليم أو عز الدين الذي كتب « مذكرات » الحياة السياسية العربية المعاصرة لا مذكراته فحسب وكانت خير مساعد لي . وانتهي بالمناضل سعيد أحمد الجناحي الذي تعرفت عليه في أواخر الستينات وكان خير مرشد لمعرفة تاريخ اليمن وبلاد أفريقيا العربية .

وتتضمن القائمة أسماء أساتذتي الذين تعلمت على أيديهم في القاهرة وبيروت ما بين ١٩٥٠ و١٩٦٥ ، كما تتضمن أولئك الذين رحلوا : د . طه حسين، عباسّ محمود العقاد ، محمد مندور ، غسان كنفاني . وحتى لا تكون ورقة نعي ، أضم إليها كتّاباً وصحفيين مصريين ولبنانيين وعرب رافقتهم وزاملتهم : نجيب محفوظ ، توفيق الحكيم ، لويس عوض ، أحمد بهاء الدين ، لطفي الخولي ، أحمد حمروش ، مصطفى الحسيني ، مصطفى نبيل ، مكرم محمد أحمد ، إحسان بكر ، كامل زهيري . . .

وشهداء أموات و« أحياء »: سعيد فريحة ، رياض طه ، ميشال أبو جودة ، طلال سلمان ، محسن إبراهيم ، بلال الحسن رفيق خوري ، وليد الحسيني ، نبيل خوري ، إبراهيم سلامة ، ذو الفقار قبيسي . . . . وشعراء ومغنّين ومفكرين من أهل اليمين وأهل اليسار الذين عرفتهم ونهلت من قصائدهم : الفيتوري ، البياتي ، أدونيس ، قباني ، سعيد عقل ، البردّوني ، المقالح ، درويش ، الماغوط . . . ويقودني هذا كله إلى أستاذنا منح الصلح ، ولن أنسى أخي فرج الله والطبيب عاطف سعد وأصدقاء تعلمت منهم أشياء كثيرة . أشياء لا يعرفها الكثيرون . ويجب أن لا أنسى أولئك الذين يظهرون كممثلين في هذا التاريخ . على أنني لا أستطيع أن أنسى أصدقاء ساعدوني ببصائرهم : في المكتب العربي للمعلومات ومكتبة الجامعة الأميركية والعربية . أرشيف « الكفاح العربي » و« الشراع » و« الأهرام » و« دار الهلال » و« البعث » و« ٢٦ سبتمبر » و« ١٤ اكتوبر » و« القبس » و« الرأي العام » و« مركز الأبحاث الفلسطيني ». . . وآخرون سمحوا لي بالاقتباس من كتبهم ، أو بقراءة ما كتبت . . إلى كل هؤلاء الذين ذكرت أو لم أذكر شكري وتقديري لأنني استفدت منهم أكثر مما استفادوا مني .

نجيب صالح - ١٩٨٥

المقدمة

بين أهم الأحداث تأثيراً في تطور البشرية ، خصوصاً في تطور افريقيا وآسيا ، عملية شق قناة السويس ، فقد نتجت عنها تأثيرات اقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية وحضارية هي من مكونات ملامح عالمنا الحديث ، بما فيه من تبادل وتفاعل وتشابك وسيطرة في آن واحد .

ودراسة الفترة الممتدة من العام ١٨٥٦ إلى ١٩٥٦ تكشف كيف أن تنشيط دورة الحياة الذي أطلقه فتح قناة السويس ، حمل معه تصاعد الهيمنة الاستعمارية وبلوغها الذروة ثم انحدارها ثم ذوبانها في هجمة الاستعمار الجديد في واحدة من أهم البقاع في العالم .

ويمكن النظر إلى هذه الفترة (١٨٥٦ ـ ١٩٥٦) على أنها فترة دخول الحداثة إلى المنطقة العربية بخاصة ، انطلاقاً من دور أكبر دولة عربية في هذا العالم الصغير، وهي مصر ، عبر حلول القوى الغربية الجديدة محل دولة الخلافة العثمانية ، وما كانت تمثل من قيم اسلامية وسلفية . كما يمكن تتبع نمو عوامل الجمع والتفريق في العالم العربي كله ، والصراع الحاد الذي كان بين هذه العوامل . فتارة يكون النصر حليفاً لعوامل الجمع ، وحيناً حليفاً لعوامل التفريق .

فالخارطة في التحولات التي رسمها فتح قناة السويس هي الخلفية لما نعيش فيه الآن من احداث تبرز فيها ظاهرة النهضة التي بدأت من لبنان ، وانطلقت من مصر

أولاً ، ثم تجاوبت معها نخب عربية بعامة ، تبرز هذه الظاهرة وكأنها نبع لنهر سار مسافة طويلة في أعماق تراب الأرض ، وانتهى بأن يجف مع الزمن. لذا لا بد من انطلاقة جديدة على صعيد التنوير والابداع الثقافيين .

لقد اخترت هذه الفترة لما تمثله من ثروة وغنى ، وهي مرحلة التصادم بين النهضة الحقيقية وسطوة الاستعمارِ الحقيقية ، ولا شك في أنها مرحلة حرة وكثيبة ، حيث كان الشغف الحقيقي للتحرر من براثن الانحطاط ، والسطوة الاستعمارية المريرة .

كذلك فإن ثورة الوحدة العربية التي تمكنت عام ١٩٥٨ من أن تتجسد في صورة الجمهورية العربية المتحدة وتبسط ذراعيها على مصر وسوريا ، تبدو الآن وقد تحولت إلى مجرد حبة من القمح ، مدفونة في مكان ما من « الصحراء » العربية التي تعاند النزوع إلى الوحدة بقدر ما تفيض بالبركات والنعم المادية .

اما الغلبة الاستعمارية فتجد أجلى صورها في تمكن الصهيونية بالتحالف مع الغرب من انشاء دولة متناقضة مع المنطقة كلياً (اسرائيل) في موقع القلب من العالم العربي ، وهذه الدولة تقوى وتتسع وتفصل في سياسات المنطقة أكثر مما تفصل أي دولة عربية بمفردها .

ولم يسبق للغرب أن حقق في أي مكان آخر من العالم انجازاً مشابهاً للانجاز الاسرائيلي ، الذي يشكل علامة قصور في تطور القوة والحياة العربيتين معاً .

إن المائة عام الفاصلة بين شق قناة السويس وتأميمها هي فصل من التاريخ العربي ، أشبه بشجرة نبتت ونمت وشاخت . إنها شجرة أعطت فيها أعطت الثمار والورق الأخضر ، غير أنها تقف الآن شجرة شاحبة لم يعد عندها ما تعطيه ، لأنها أعطت كل ثمارها .

وفي كل مكان من الوطن العربي الكبير تخرج أصوات تتساءل بتلهف عمن يزرع الشجر الأخضر من جديد ، فالنهضة الحضارية العربية كانت مرحلة لفظت ثقافتها مع حدة الصراع ضد الغرب ، ثم جاءت مرحلة مقاومة « التتريك » وصمود الشخصية العربية ، ثم جاءت مرحلة الاحتلال الانجليزي والفرنسي والايطالي والاسباني وأخيراً ، وبخاصة ولادة الاستعمار الجديد متمثلاً بالسيطرة الأميركية .

لكن القوة العربية كانت تنمو باستمرار ، وكانت التحديات التي تواجهها تقوى هي أيضاً ، وإذا لم تكن الأمة العربية قوية في يوم من الأيام بامكاناتها كما هي الآن ، فإنها كذلك لم تواجه عدواً بقوة العدو الذي تواجهه الآن .

والمأساوية في صراع هذه الأمة هي في أنه عليها أن تقهر الاستعمار في كل مكان لتقهره في وطنها ، فمعركة المستعمر مع العرب هي آخر خطوط دفاعه ، فإذا انهزم فيها ، انهزم في غيرها أيضاً .

إن العالم الغربي لا يستطيع استيعاب انتصار عربي عليه كما استطاع أن يستوعب هزائم متعددة في أمكنة متعددة ، لأن الموت مكتوب بالضرورة لواحد من المتصارعين ، فاما أن ينتصر العرب ويزول الاستعمار بأشكاله القديمة والجديدة ، واما أن يزول العرب ، وهو أثقل عبء يمكن أن يقع على كتف حركة التحرير .

وأعود لأبادر إلى القول إن التاريخ الذي اخترته (١٨٥٦ - ١٩٥٦) هو تاريخ افتعال حروب على ضفاف قناة السويس ستظل مستمرة ما دام الاستعمار موجوداً في المنطقة ، وما دامت اسرائيل قائمة ، لأنه لولا شق هذه القناة لما كانت اسرائيل .

لقد اكتسب هذا التاريخ أهميته نظراً لخصوصيته وتعقيداته ومسالكه المتشعبة حيث شهد أهم المحطات الفاصلة في تاريخنا المعاصر ، ومنها ولادة النهضة العربية التي جاءت مع البدايات الاستعمارية . وكانت حصيلتها انبعاث الأمة العربية بكينونتها الحاضرة ، ولا شك في أن شق قناة السويس هو المفصل الحاد في هذا التحول الكبير .

في كلمة ألقاها في حفل استقبال فرديناند دي ليسبس في مجمع اللغة الفرنسية عام ١٨٥٩ ، قال ارنست رينان « لقد كان بوسفور واحد كافياً لإثقال العالم بالهموم ، حتى أتيت أنت فصنعت بوسفوراً ثانياً أشد خطراً من البوسفور الأول ، لأنه سوف يكون سبيل الاتصال بين جميع البحار الكبرى على هذا الكوكب . فإذا نشب نزاع هنا أو هناك ، فسوف يكون هذا البوسفور الجديد هدفاً تتصارع جميع دول العالم في سبيل السيطرة عليه . لقد حددت بعملك هذا مواقع المعارك الكبرى في المستقبل ! . . . » .

وكان ناحوم غولدمن رئيس المؤتمر اليهودي العالمي قد طلب من بيفن وزير خارجية بريطانيا أن يسلم فلسطين إلى الصهاينة . وقد ورد الطلب في مذكرة المؤتمر

الصادرة في مونتريال بتاريخ ٣١ أيار (مايو) عام ١٩٤٧ على النحو التالي :

« لعل منطقة الشرق الأوسط الواقعة بين قارات ثلاث ، والتي هي وسيلة الاتصال بين أوروبا وآسيا وافريقيا ، هي أعظم المناطق الاستراتيجية خطراً في العالم كله .

« ولقد جرت بيني وبين السيد بيفن محادثات بهذا الشأن خلال الصيف المنصرم ، قال لي فيها بصراحة تامة :

« هل تعلم يا دكتور أي شيء تطلب مني ، حين ترغب إلي أن أقيم دولة يهودية ؟ . . انك تطلب مني أن أسلمك مفاتيح أخطر منطقة استراتيجية في العالم . فأرجو أن تسمح لي بأن أفكر ملياً في هذا الأمر ، قبل أن أدفع إليك بهذه المفاتيح ! . . . » .

« إن فلسطين اليوم هي المركز العالمي للقوى الاستراتيجية والسياسية ، وذلك هو ما يراه رجال الحكم الذين يعنون بأمر الصهيونية في هذه الأيام . فأرجو أن يفهم الصهاينة ذلك جيداً ، إذ ليس ما يستند إلى العدالة والشرف هو ما يعتد به دائماً في هذا العالم . . . والأمم والحكومات ، إنما تقرر مواقفها وفقاً لواقع مصالحها التي يكون لها دائماً الاعتبار الحاسم . وقد يكون للجوانب الانسانية في هذا الموضوع دورها ، ولكنها لن تكون هي العامل الحاسم ، فعلينا أن نوائم سياستنا مع الجوانب (الواقعية) في هذه المشكلة .

« إن رجال الحكم والسياسة لا يفكرون بالصهيونية اليوم ، على طريقة الأنبياء والرسل أو المثاليين والشعراء ، بل بأسلوب واقعي جداً ، إنهم يفكرون بالبترول وبالدولة اليهودية في فلسطين وبالشرق الأوسط وبروسيا وأميركا » .

. . . .

ولأن التاريخ لا يعرف من الحقوق إلا التي تكتسب عنوة ، وأنه مهما يكن هذا الواقع مدعاة للتشاؤم ، فإنه ليس موهناً للعزيمة أبداً ، بل أنه بكل تأكيد على عكس ذلك ، إذ ليس في وسعه إلا أن يحررنا من الأوهام الرخيصة التي خلقت لنا منها

دعاوى هذا العصر الكاذبة طمأنينة وراحة ! إن الدول التي تحوم حول العالم العربي لا تقتات أبداً بهذا السراب الذي تجود علينا به وكالات الأنباء التابعة لها ! . . .

. . . .

مائة عام من تاريخ العرب ليست كافية للتعرف عليهم ، وقد يتسنى لي الكتابة عن مفصل آخر من هذا التاريخ ، خصوصاً المعاصر منه الذي عشته كمراقب في عالم الصحافة على امتداد الفترة التي عملت فيها في هذا الحقل .

إن معرفة التاريخ المعاصر والحقيقي صعبة للغاية فهو تاريخ في معظمه من صنع الهوى وأصدق ما فيه ما هو موثّق ، أو مكتوب وممهور باختام وتواقيع ، وهذا غير متوافر حتى الآن مع الأسف ، خصوصاً في هذه المرحلة ، لذلك أثرت التوقف عند حدود مائة سنة من تاريخ العرب السياسي (١٨٥٦ - ١٩٥٦) على أمل أن أكمل المرحلة فيما بعد .

نجيب صالح - ١٩٨٥

الفصل الأول

الانهيار الكبير، وولادة الاستعمار

أسرة محمد علي :

كان في لعبة الشطرنج الخطرة التي لعبها الخديوي اسماعيل والي مصر « البيدق » فيها مزدرى ، و« الرّخ » هو رب الأسرة ، محمد علي باشا يقهر الافيال والافراس ، ولكنها لوحة لا يزال فيها السلطان العثماني الملك الاسمي بينما تقوم أوروبا (فرنسا وبريطانيا) بدور الوزير الذي يدعوه لاعبو الشطرنج في المشرق العربي بالملكة ـ القادر على الضرب بسرعة في كل مكان وكل اتجاه .

ويرجع أساس الأسطورة ، أو القصة ، إلى الامبراطورية العثمانية ، آخر دولة اسلامية كبيرة . كانت هذه الامبراطورية في أوجها ، في القرن السابع عشر . أحسن ادارة ، وأشد حيوية في اندفاعها ، وأكثر تسامحاً مع الأقليات من أية مملكة أوروبية في ذلك الحين ، وكان جنودها « الانكشارية » الذين جمعوا من صبيان العائلات المسيحية في البلقان العثماني خير محاربين في العالم . ثم أن الهاربين من ضروب التعصب في أوروبا المسيحية ، من يهود وبروتستانت ومختلف المنشقين ، كانوا يلجأون إلى مدن مثل سلانيك وأزمير والقسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية[1] .

ولكن هذه الامبراطورية سرعان ما أصابها الوهن شيئاً فشيئاً بفضل جنودها « الانكشارية » الأقوياء ، وبالتحديد عندما بدأ محمد الفاتح غزو أوروبا تحت شعار مكافحة الالحاد في العالم ، وكان هذا التحول بداية عصر النهضة الحقيقية هناك .

وحين نزل نابليون وهو دون الثلاثين من عمره قرب الاسكندرية حدث انخفاض كبير في ممتلكات الامبراطورية سنة ١٧٩٨ . وكانت مصر آنذاك ولاية عثمانية بالاسم لا بالفعل ، وكانت تحت حكم المماليك الذين انهزمت جيوشهم أمام نابليون في معَركة قرب القاهرة ، فأرسل إليهم سلطان القسطنطينية نجدة دعمتها قوة بريطانية بَحرية ، وكان ثاني قواد هذه النجدة شاب مكدوني يدعى محمد علي لا يتجاوز عمره عمر نابليون . وبعد هزيمة هذه القوة هرب محمد علي سباحة ، وأنقذته بارجة بريطانية .

ويتابع نابليون حملته باتجاه فلسطين وسوريا إلى أن يحطم البريطانيون أسطوله في ميناء أبو قير ويعود بعدها نابليون إلى بلاده حاملاً معه أفكاراً فرعونية كان يحلم بها . وكان انتصار نابليون هو بداية طريق التغيير .

وحين خرج نابليون من مصر (١٨٠١) عاد محمد علي إليها بأمر من السلطان متأثراً بالقائد الفرنسي وبالمطامح التي بدا أنه قد جسدها . وأول ما فعله بعدما ثبت حكمه (١٨٠٥) أنه أكمل ما فعله نابليون بالمماليك وقضى عليهم مقتلعاً جذورهم من مصر التي تحولت بعد ذلك بخمسين سنة إلى دولة قوية وغنية ، أرقى وأغنى من الامبراطورية العثمانية التي كانت مصر تابعة لها اسمياً .

ولم يتأثر محمد علي بمبادىء الحرية والعدل والمساواة التي كانت سائدة في فرنسا ، بل رأى تقدم مصر على أسس عسكرية ، لذا سارع ولأول مرة بتجنيد الفلاحين المصريين في الجيش وأرسل ابنه الثاني إلى الحجاز لقمع ثورة الوهابيين ، وابنه ابراهيم لاحتلال سوريا وفلسطين وجزء من الأناضول الجنوبي من ١٨٣١ إلى ١٨٤١ ، وقد سمح ابراهيم باشا للارساليات المسيحية بأن تزرع الأفكار الغربية في البلاد التي كانت خاضعة لحكمه[٢] ، وبذلك يكون ابراهيم باشا أول من أسهم ببناء عصر النهضة العربية المعاصرة التي استفادت منها مصر بعد ذلك .

وكما كان المماليك يتحكمون بكل حاكم لمصر ، كان « الانكشارية » يتحكمون بكل السلاطين العثمانيين ، ويعارضون أي اصلاح جذري في الامبراطورية ، وقد قرر السلطان محمود القضاء عليهم كما قضى محمد علي على المماليك . فبينما كان الصراع ضد اليونان يبلغ ذروته عام ١٨٢٦ قلب « الانكشارية » أوعية الحساء الحديدية الثقيلة

اشارة مألوفة يأتون بها في كل شغب دوري يقومون به ، وكان الشعب عادة يكسبهم ما يريدون . اما هذا اليوم فقد كان مفاجأة قاسية ، ذلك بأن المدافع وجهت إلى ثكناتهم ، وحين تجمعوا فتحت عليهم النيران فأبادتهم

ولكن محمد علي قضى على المماليك قبل خمسة عشر عاماً ، وأصبحت القاهرة في هذه الفترة بعد ازدهار الزراعة وخاصة زراعة القطن المستحدثة ، وانتصارات ابراهيم باشا في بر الشام ، عاصمة لامبراطورية جديدة في الشرق تجدد الشرق الأوسط كله وبسرعة . ولكن هذا الحلم لم يجبطه السلطان العثماني الضعيف والمريض في حكمه بل الغرب الذي كان محمد علي وولده ابراهيم معجبين به ، وخاصة فرنسا .

وأوروبا التي كانت تباعد بينها الاحقاد في القرن التاسع عشر وحدتها لأول مرة الامبراطورية العثمانية المحتضرة . وقد بدا لبريطانيا التي كانت حروبها متصلة مع فرنسا ، وآخرها انتصارها على نابليون في « أبي قير » ونقل المعارك إلى خارج حدودهما . . . بدا لها أن مصر أفضل لمصالحها من الامبراطورية العثمانية كلها ، ولكن كيف الوصول إلى بلاط محمد علي وجميع المستشارين حوله من الفرنسيين ؟

لقد لاحظ لورد بالمرستون مخطط السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر على أن فلسطين معضلة الامبراطورية المصرية الجديدة ولكنها لا تحوي أقلية تتخذ بريطانيا من حمايتها ذريعة لاخراج المصريين منها ، كما فعلت فرنسا في لبنان بحجة حماية الأقليات المسيحية فيه . وبما أنه لا توجد في فلسطين أقلية فلماذا لا نوجدها ؟ كان هذا سؤال بالمرستون . أيمكن استعمال حنين اليهود إلى الأراضي المقدسة في مصلحة بريطانيا ؟ وعندما علم من نائب القنصل البريطاني أن في فلسطين عشرة آلاف يهودي كتب إلى السفير البريطاني في القسطنطينية يقول : « سيكون من المهم كثيراً للسلطان أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين والاستقرار فيها . ذلك بأن الثروة التي سيأتون بها معهم ستزيد واردات مملكته . وإذا عاد الشعب اليهودي بموافقة السلطان وحمايته ودعوته كان ذلك كافياً لمواجهة أي خطط شريرة يصنعها في المستقبل محمد علي وخلفاؤه »[٣] .

وقد رفض السلطان العثماني هذا العرض باعتباره حامٍ للشريعة الاسلامية . ومنذ ذلك الوقت خططت بريطانيا بدلاً من ذلك لهزيمتين للباشا الطامح ، اعتمدت كلتاهما على النفوذ البريطاني في القسطنطينية . كانت الضربة الأولى اقتصادية فقد

عقدت الحكومة العثمانية مع بريطانيا سنة ١٨٣٨ اتفاقية تجارية بدأ تنفيذها عام ١٨٤٢ . منحت بريطانيا بموجبها حرية مزدوجة : حرية شراء المواد الخام أو البضائع المنجزة في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وحرية بيع بضائعها في هذه السوق الواسعة نفسها على أن تدفع بريطانيا ضريبة قدرها ١٢ بالمئة على البضائع العثمانية التي تشتريها و ٥ بالمئة على بضائعها الخاصة التي تدخلها وتبيعها ! . وبما أن مصر جزء من الامبراطورية العثمانية ، فقد انهارت سياسة محمد علي في ادارة الزراعة والصناعة كاحتكار تحت سيطرته، وأخطر من هذا أن المصنوعات البريطانية التي تتمتع بحرية الدخول إلى مصر ستتفوق بالجودة والرخص على منتوجات الصناعة والزراعة المصرية التي لم تنضج بعد .

اما الضربة الثانية فقد كانت سياسية ، وكان الغرض منها جعل الضربة الاقتصادية فعالة . وبحجة المحافظة على الاتفاقية الاقتصادية ، خاصة بعد موت السلطان محمود في القسطنطينية ومجيء ابنه عبدالمجيد رافعاً راية الاصلاح وضرب الفساد واستعادة أملاك الامبراطورية . . . باسم هذه الشعارات ساعد أسطول انكليزي ونمساوي العثمانيين على استعادة سوريا وفلسطين ومن ضمنها لبنان ، اما أسطوله الذي كان يتفوق على الأسطول البريطاني آنذاك فقد كان عرضة للتلف لاستمرار رسوه في الميناء .

ولم يكن هدف البريطانيين اسداء خدمة لمحمد علي بل جره ليكون خاضعاً لنفوذهم ، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تعيد مصر إلى احضان الامبراطورية المريضة ، بل تريد أن تنفرد فيها وبخيراتها خاصة وأن مشروع فكرة شق القناة كان يراود كل من بريطانيا وفرنسا[٤] . لكن محمد علي كان راغباً باستئناف العمل بالمشروع الفرنسي لحسابه ، مقدراً أن بامكانه الاعتماد على مساندة فرنسا وبريطانيا ، وقد بلغ عدد الوكالات التجارية في الاسكندرية عام ١٨٣٦ ثلاث عشرة وكالة مقابل سبع وكالات بريطانية فقط . وكانت الصحافة الفرنسية تؤكد بأسلوب ذلك العصر الطنان : « بأنه ينبغي أن يكون لفرنسا اشراف على مصر والمناطق المجاورة كتركة اناطت أمرها العناية الالهية وآمال الانسانية بعبقرية فرنسا الحضارية »[٥] .

وإلى هذا ، فلقد كانت تساور محمد علي بعض المخاوف والهواجس ، فإن مصر التي كانت تحوم حولها المطامع ، سوف تصبح عرضة لمزيد من هذه المطامع إذا شقت

على أرضها طريق دولية لم تكن لديها القدرة العسكرية الكافية لحمايتها . وعلى هذا فإن محمد علي أوجب على الدول ذات الشأن أن تتعهد تعهداً رسمياً وقاطعاً بأنها لن تحاول فيها بعد أن تستحوذ على هذه الطريق المائية لتشقها لمصلحتها الخاصة متناسية سيادة مصر على هذه الطريق ومصالحها فيها . ولما لم يستطع محمد علي الحصول على هذا التعهد ، فقد استمر الشعب المصري ينعم بالراحة والطمأنينة قرابة عشرين سنة أخرى . وكان في مخيلة محمد علي حكمة منقوشة على صخور من آثار الفراعنة التي تقول : « لا تشق القناة أيها الفرعون إذ أنك بشقها لن تخدم مصر إنما تخدم الغزاة الجشعين » .

كانت حركة محمد علي في زحف ولده على سوريا وفلسطين حادثاً جللاً أيقظ في نفوس أبناء البلاد العربية روحاً جديدة . وأخذ البارزون يتطلعون إلى إعادة أمجادهم الأولى . فقد كان إبراهيم باشا لا يتوانى عن التصريح في تكوين امبراطورية عربية مستقلة ، وعزز ذلك بوضع برنامج شامل لتأسيس المدارس الأميرية على غرار المدارس الأزهرية . وشجع بكل قواه انتشار المدارس الأجنبية وكان يريد أن تعم المعرفة وأن يرضع التلاميذ القومية مع دروسهم ، وبالرغم من قصر أيامه في سوريا وفلسطين فقد كان تأثيره قوياً في هذه الناحية خاصة بين المسلمين ، فإن المسيحيين من العرب كان يكفيهم انتشار مدارس المبشرين من الارساليات الأجنبية ، كان برنامج إبراهيم يرمي إلى تأسيس المدارس الابتدائية في انحاء البلاد جميعها ، وتأسيس المدارس الثانوية في المدن الرئيسية ، لأن البلاد العربية التي خضعت للامبراطورية التركية قد حرمت طوال ٥٠٠ سنة من التعليم والمدارس بما في ذلك الارساليات الأجنبية ، وذلك الزمن يسمى « بعصر الانحطاط » في العهد الامبراطوري العثماني . وكان ابراهيم باشا يبغي من اعادة التعليم إلى سد حاجته من الناحيتين العسكرية والسياسية ، وكان يُعنى عناية خاصة في بذر الوعي القومي في نفوس الناشئة . لقد تبلورت الفكرة في رأسه حتى أصبح يعوّل على سوريا وفلسطين في تنفيذ مقاصده أكثر مما كان أبوه يعوّل على مصر . فأنشأ كليات عالية في دمشق وحلب وانطاكيا . وكان جل طلابها من المسلمين . وكانت الحكومة تعنى بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومنامهم وتمنحهم الرواتب . وقد كان عددهم في كلية دمشق يزيد على الـ « ٦٠٠ » وفي كلية حلب يربو على « ٤٠٠ طالب » . وكانوا يرتدون الملابس العسكرية .

اما دخول الجيوش المصرية إلى بلاد الشام فقد أحدث يقظة شاملة وبعث روحاً جديدة ، وقد انصرف إبراهيم إلى تنظيم شؤون الادارة وكوّن جهازاً حكومياً عادلاً ، واتجه في نشر المعرفة والثقافة اتجاهاً قومياً عربياً . ولكن الأيام لم تمهله . لقد استعجل في فرض الضرائب العالية وشرع في تنفيذ التجنيد الاجباري وأخذ ينزع السلاح من الأهلين ، فأثار حفيظة أهل البلاد ، فثاروا ضده بتشجيع من القناصل البريطانيين والفرنسيين في القسطنطينية وغيرها من الدول المحيطة .

بعد عودة ابراهيم إلى مصر ألقى محمد علي عصا التيار بمصر ،وشرع في تنظيمها فأنشأ جهازاً ادارياً محكماً يليق بدولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها وقوتها . وتوارى حلمه اللذيذ في تكوين الامبراطورية العربية بسبب بريطانيا أولاً وأخيراً التي لم يُرق لها أن تقوم دولة عربية فتية على طريق الهند حيث لبريطانيا تجارتها الهائلة ومصالحها الكبيرة هناك ، ولأن من مصلحتها أيضاً أن تبقى تركيا الضعيفة مالكة زمام الأمر ، لأن هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل في شؤونها وتملي عليها ما هو في صالح طريق الهند ، وأن ترثها عندما تلفظ نفسها الأخير وهي الآن على فراش الموت ، وفعلاً قد تم ذلك . وحذت روسيا حذو بريطانيا في التدخل خوفاً من زوال تركيا الضعيفة ونشوء دولة فتية تمنعها من الاستيلاء على المضائق التي لم تهدأ مطامعها يوماً عن الاستيلاء عليها .

طرح محمد علي هذا الخيال ، وانصرف إلى تدبير شؤون مملكته الصغيرة بحزم وقوة . وحول حراب جيشه إلى محاريث تحرث وتبذر . ولم يهمل أمر الجيش اهمالاً تاماً ، فأنشأ له المصانع ومعامل الأسلحة والذخائر ، وشيد الثكنات ونظم المستشفيات ، فصار المحراث يخرج رغيف الخبز والحربة تحرس هذا الرغيف من اطماع الطامعين .

إن الموجة العارمة من اليقظة التي عمت العالم أجمع في القرن التاسع عشر مرت بالعالم العربي الذي كان جزءاً من أملاك الامبراطورية العثمانية . وكانت الدولة العثمانية نفسها هدف اطماع الغرب ، وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها . وما حملة نابليون ليس إلا طرف من هذا الصراع ، فلما جلا الفرنسيون عن مصر تفتحت الآفاق امام مصر الفتية لتنهض نهضة شاملة ، وقد أسهم محمد علي بالقسط

الآخر في هذه النهضة التي اتجهت إلى ناحيتين : نشر المعرفة وتوفير القوة . فأرسل البعثات إلى أوروبا لتحقيقها ، واتخذ من الأزهر مُعيناً لتكوين الرجال ، ومن استعارة العلماء من أوروبا مورداً يهيىء وسائل العلم والتخصص ، وأنشأ المدارس العالية فكانت موطناً للمتخصصين الوافدين من الغرب والمتعلمين من أبناء مصر ، وكانت هذه المعاهد العالية متمثلة في كلية الطب والصيدلة والهندسة ومدرسة الولادة والتمريض . وقد توالى عدد البعثات فكانت البعثة الأولى مكونة من أربعين طالباً موزعين على مختلف موضوعات العلوم والفنون ، وقد أحصيت هذه البعثات فكانت احدى عشرة بعثة ، ولا ريب في أنها كانت نواة النهضة الحديثة في مصر وعاملاً قوياً في يقظة العالم العربي . وأهم مظهر لهذه اليقظة الاتجاه العام من الاهلين وولاة الأمر إلى معرفة علوم الغرب الحية والشروع في نقل آثار الغرب إلى اللغتين العربية والتركية في مصر .

ولهذا اسست مدرسة «الالسن»، وقد أشرف عليها شاب نابغ هو السيد رفاعة الطهطاوي امام البعثة التي اوفدها محمد علي الى باريس، وكانت مهمته الاولى ان يتولى الوعظ والارشاد والامامة لاعضاء البعثة، بيد ان حرصه الشديد على معرفة اصول الحضارة الغربية اغراه فانكب على دراسة اللغة الفرنسية فبرع فيها، واخذ ينقل وهو في باريس عن امهات الكتب الادبية والفنية ما يراه نافعاً لبلاده، وحين اشرف على مدرسة الالسن كان يتعاون مع تلاميذه على نقل مآثر الغرب إلى اللغة العربية. ويكاد يكون رفاعة في عهد محمد علي طليعة المترجمين واولهم واكثرهم انتاجاً.

ومهما يكن فإن الترجمة ازدهرت في اواخر القرن التاسع عشر ازدهاراً عظيماً ونقل الى العربية منها أثاراً قيمة في الصحة والصيدلية واسعاف المرضى وفي الولادة واصول العلوم الطبية والتشريح العام، وكتب التشخيص ومعالجة الامراض، وامراض الاطفال، . . . الخ واللوائح والتشريعات الخاصة بالادارة والمالية، والمرافعات وكتب الهندسة . وكتب كثيرة في التاريخ والسياسة والتراجم، ومن ذلك تاريخ نابليون وكتاب «الامير» في علم التاريخ والسياسة والتدبير لميكيافيللي .

في هذه الاجواء التي اصبح فيها الحكم متوارثاً كما هي الحال في تركيا، نشأ الخديوي محمد سعيد الابن الرابع لمحمد علي وهو في نعيم الانتصارات والخيرات. وكان مثل والده واخيه ابراهيم محباً لفرنسا، خلافاً لاخيه عباس الذي كان محباً ومتقرباً

من بريطانيا، والذي رفض اعطاء أي امتياز لشق قناة السويس، بل آثر على ذلك اقامة المواصلات الحديدية داخل مصر. لكن سعيد وبعد اسابيع قليلة من تنصيبه والياً لمصر اتخذ القرار الخطير. ففي ٣ تشرين-الثاني /نوفمبر عام ١٨٥٤ أصدر الخديوي سعيد مرسوماً اعطى بموجبه صديقه فرديناند دي ليسبس قنصل فرنسا في الاسكندرية، وابن احد قناصلها العامين في القاهرة في عهد محمد علي ترخيصاً بانشاء شركة تعمل على ربط البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط بطريق مائية. ولقد كان ذلك امراً منكرا في نظر بريطانيا التي عمدت الى إبلاغ حكومات القسطنطينية وباريس والقاهرة بأنها سوف تقاوم هذا المشروع بشدة لانها لم تحصل هي على الامتياز، كذلك فقد عمدت الى بعض المحاولات التهديدية لاضعاف موقف الخديوي، وبلغ بها الامر إلى دراسة مخطط لمد خط حديدي مصري، وكذلك حفر قناة لربط حيفا بالعقبة مروراً ببرج ابن عامر بمحاذاة منخفض ـ الغور ـ على طول وادي عربه. وهكذا فإن فكرة منافسة قناة السويس وتهديدها عن طريق منفذ العقبة، تلك الفكرة التي كادت ان تنفذها الولايات المتحدة فيما بعد، هي في اصلها فكرة بريطانية. ولم تكتف بريطانيا بهذا الحد حتى انها فكرت بأن تقيم حول موقع القناة التي ستنشئها دولة تحكمها قبائل الدروز المستقلة تحت حمايتها وهي التي استخدمت هؤلاء الدروز ضد محمد علي وعزمت على استخدامهم ضد مصر والعمل على منحهم كياناً دولياً. . . وقد كان محتملاً، لو ان الدولة الدرزية تحققت، ان لا تقوم دولة اسرائيل فيما بعد. وفي كل حال فإن ما يهم بريطانيا العظمى هو ان لا تترك لمصر التي لم تكن تطمئن إليها، الانفراد بحراسة شبه جزيرة سيناء[٦].

يمكننا من ذلك ان ندرك مدى الوهن والقنوط الذي المّ بهمة فرديناند دي ليسبي امام هذه المقاومة البريطانية. وقد كان نابليون الثالث نفسه متردداً في مؤازرته، كذلك فإن الفاتيكان اصمّ اذانه امام ندائه. اما في نهاية الامر فإن مصر هي التي انقذت مشروعه . فقد تجاوز الخديوي العقبات التي قذفتها تركيا في طريقه مدفوعة من بريطانيا، وتجاهل التأنيب الذي وجهته اليه، فأصدر مرسوماً ثانياً بتاريخ ٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٦ أكد فيه المرسوم الاول واخذ على عاتقه شراء ٤٤ بالمائة من اسهم شركة القناة الجديدة تشجيعاً لدي ليسبس ودعماً له. ثم انه تكفل بفرض السخرة على المصريين مما وفر له اكثر من مائة الف عامل منهم. وكذلك فإن الفضل في انقاذ دي ليسبس من المصاعب المالية التي اشرفت به على الافلاس ومن الصد الذي جابهته به المراكز المصرفية الدولية امام حملات التشكيك والتشهير التي شنتها عليه المصارف

واوساط رجال الاعمال فقد قدمت له مصر مبالغ ضخمة جداً في حساب ذلك العصر ، فإن الخديوي الذي كان يملك ٤٤ بالمئة من الاسهم التي لم تجد من يشتريها في الاسواق الدولية، قد منح شركة القناة اضافة الى ذلك، مليوناً وربع المليون من الجنيهات، أي ما يساوي ثلاثين مليوناً من الفرنكات الذهبية. ولما لم يكن ذلك كافياً، فقد دفعت الخزانة المصرية فوق هذا ثلاثة ملايين ونصف المليون من الجنيهات كتعويض للشركة، على اثر القرار الذي اصدره نابليون الثالث بموازنة اسعار الصرف. وخلاصة القول، فإن مجموع نفقات شق القناة السويس التي بلغت ١٧٣٠٠٠٠٠ جنيه ذهبي، قد دفعت منها خزانة خديوي مصر ١٦٨٠٠٠٠٠ أي المبلغ كله تقريباً. فإذا اضفنا ذلك للأيدي العاملة المصرية التي قدمت لهذا المشروع وقضى اصحابها فترة عملهم هذه في ظروف صحية سيئة جداً، والهلاك المريع الذي تعرضوا له من جراء الكد المضني والتغذية السيئة والوهن الذي رمتهم به الامراض المستوطنة في هذه المنطقة، لتبين لنا ان الاتاوة التي قدمها شعب وادي النيل الى هذا المشروع كانت عبئاً يصعب تقديره.

إن قناة السويس كانت بحق انجازا من انجازات مصر، انجازاً كان مجيداً بقدر ما كان باهظاً، فالسلطات المصرية تقدر عدد الذين هلكوا من شق القناة بمائة وعشرين الفا. . . . ولكن في الوقت نفسه كان كارثة على مصر وعلى الامة العربية فيما بعد. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال بديهي.

هل فازت مصر من ذلك كله بربح معنوي على الاقل؟ لقد كان الامر كذلك من الناحية النظرية ففي مقابل العون الذي قدمته، تخلت الشركة لها عن بعض المنشآت، وعن اعفائها من بعض الرسوم الجمركية، وقد نص الاتفاق المعقود في ١٦ شباط/ فبراير سنة ١٨٦٦ في مادته السادسة عشرة على ان الشركة البحرية العالمية لقناة السويس هي شركة مصرية، فهي بذلك تخضع للقوانين والانظمة المعمول بها في مصر، اما في الواقع فقد كان الامر يجري عكس ذلك، لان ضعف حكومة الخديوي سياسياً ومالياً كان يحول بينها وبين الزام الشركة بتطبيق الاتفاقات المعقودة. وعندما احتفل بافتتاح القناة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٨٦٩ من خلال مهرجانات بالغة الفخامة والبذخ وبحضور الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة اوجيني كان ظل التعاسة يحوم فوق الخديوي الذي كان فوق ذلك كله مديناً بكل ما يملك، بينما كانت

بريطانيا لا تخفي سخطها على الرغم من ان الملكة فكتوريا كرمت فرديناند دي ليسبس بمنحه وسام الصليب من طبقة نجمة الهند. . . .

كذلك فقد اشارت حكومة صاحبة الجلالة على السفن البريطانية بعدم المرور في قناة السويس في رحلاتها من الغرب الى الشرق، راجية بذلك ان يفشل المشروع، وتدل الاحصاءات انه لم يعبر قناة السويس من السفن البريطانية بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٤ إلاّ عدد يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ سفينة في كل عام.

على ان هذا لم يحل دون ارتياح المسافرين لحسن سير العمل في القناة، وأشد ما كانت دهشة هؤلاء ان يعلموا ان الرحلة من مرسيليا إلى هونغ كونغ تحتاج إلى زمن يقل ٥٩ يوماً عن الزمن الذي تحتاج اليه عن طريق رأس الرجاء الصالح. ولم يكن هنالك من يحس بالحاجة الى عقد اتفاقية دولية بشأن القناة وكان واضحاً ان سيادة مصر على القناة لم تكن مصدر خطر على احد(٨).

* * *

لقد كان على اسماعيل بن ابراهيم باشا في المرتبة الثانية بالنسبة إلى ارتقاء العرش ولكنه اصبح في المرتبة الاولى بسبب «حادث» امكن ان يقتل فيه الخديوي سعيد كما قتل اخوه الاكبر احمد. ذلك بأن سعيد باشا دعا في يوم عطلة في سنة ١٨٥٩ الشباب من امراء العائلة لزيارته في الاسكندرية، وأمر من أجل الراحة والسرعة ان ينقلهم قطار خاص عبر دلتا نهر النيل. وفيما كان القطار عائداً بالضيوف إلى القاهرة كان عليه ان يعبر جسراً متحركاً اقامه الانكليز على النيل قرب كفر الزيات، ولم يلاحظ سائق القطار الا متأخراً ان الجسر مفتوح فقفز الامير حليم احد الباقين من ابناء محمد علي الى النيل ونجا بنفسه، اما احمد اخو اسماعيل فقد قفز هو الآخر ولكنه غرق. واما اسماعيل فقد كان متوعك الصحة فبقي بالقاهرة ونجا من الكارثة ليصبح وليا للعهد.

وكانت الصلة بين سعيد وولي عهده اسماعيل جيدة خاصة عندما ابرز هذا الاخير نفسه لقيادة ثورة في السودان، البلد المضطرب التابع لمصر، وعلى الرغم من ذلك حصر إسماعيل جل اهتمامه الرئيسي في الزراعة، وتمشى اشتهاؤه لمزيد من الأرض مع العناية الدقيقة بالمحافظة عليها، فاشتهر بأنه مالك ارض بخيل لديه اجود انواع القطن في مصر. وان نجاحه في زراعة القطن الذي اتى به محمد علي إلى مصر

جاء في الوقت الملائم، ذلك بأن الحرب الاهلية الاميركية ادت إلى ازمة اقتصادية امتدت طوال سنوات سعيد الاخيرة (توفي عام ١٨٦٣) وبداية حكم اسماعيل، لكن إذا تعدت الحرب الاهلية السنة الأولى بدأت اسوأ مجاعة اقتصادية عرفها القرن التاسع عشر، وارتفع سعر القطن لأن الحصول على هذه السلعة اصبح عسيراً، فاغتنى اسماعيل وانتعشت مصر.

ونسي اسماعيل ان مصر لا تزال فقيرة وغير نامية، وعجز عن تصور توقف ازدهار القطن بانتهاء الحرب الاهلية الاميركية. ان جذور التلهف في احلامه والتبذير في اعماله قائمة في موقف شرقي من المال لا يفيد الا قليلا في القرن التاسع عشر[٩].

وكان اسماعيل مثل خلفه سعيد متصلاً بالفرنسيين، وقد استاء كثيراً عندما عاد من باريس ليجد سعيد اول حاكم مصري يأخذ قرضا من المرابين الغربيين (وقد اورثه هذا الدين فيما بعد ـ ١٦ مليون جنيه). وكتب احد معاصريه ليقول له: «اراد بجرة قلم واحدة ان يحول اكثر الشعوب محافظة على وجه الأرض إلى مثال حي للحضارة المتقدمة والمستنيرة. لم يطق التحول البطيء لشعب متبلد ثابت كأهرامه، بل عمد إلى تغيير نظامه كله بانقلاب مسرحي». وكي يضع اسماعيل مصر في مستوى اوروبا ويوفر لها الطرق المعبدة والخطوط الحديدية، والموانيء ومكاتب البريد، والمنارات والمدارس احتاج الى المال، وكي يحافظ على سمعته بحيث يستطيع طلب المزيد من المال دون خجل، ويكون كل قرض جديد ضخماً يسدد منه قرضا سابقاً وتبقى لديه فضلة لمشاريعه الجديدة بذل جهده في تزيين عاصمته. ان القاهرة المتلألئة، سواء كانت أوروبية أو أوروبية زائفة، ستجذب اليها الدائنين كما يجتذب المصباح الفراشة... «في المساء، تستطيع ان تستمع الى اوبرا فرنسية أو تشاهد الباليه الفرنسية في مسرح يشبه تماماً ما تشاهده تماماً في الغرب الآن. وإذا زرت وزيراً تجده في فيلا على النسق الغالي تحيط به مئات الفيلات. حيثما تذهب تجد قصور الخليفة أو أفراد اسرته. ان عابدين، أو قصر النيل هما القصران الرئيسان في القاهرة نفسها، ولكن هناك قصور أخرى واسماء هذه القصور الرائعة فيما وراء حدود العاصمة خرافية ففي قصر النيل وعلى صفتي النيل وفي الروضة والجزيرة وسط النيل، وفي الجيزة والعباسية وشبرا، ترتفع «قصور قبيحة المنظر سيئة البناء وجد فيها التبذير والتباهي منفذاً لهما».

إن هذا الحاكم المسرف، والمبذر المتباهي، هو الذي فتح قناة السويس. انه

كشرقي يحب الغرب. وعثماني تربى في باريس، رعى مطامحه الشديـدة المتهورة!. أراد ان يرى مصر متحررة من السلطات ما امكن ، ثم عن طريق توازن المعاهدات والنفوذ أن يراها آمنة كأي دولة ثابتة في اوروبا.

ولم يتصـور اسماعيـل ان السنـة التي عينت لافتتـاح القنـاة ستكـون السنـة التي سيختل فيها التوازن في اوروبا نفسها ويترك في ضيوفه الـذين شاركـوا في افتتاح القنـاة اثاراً يصعب التكهن بها. كذلك لم يفهم القوى الخفية التي سيطرت على القرن التاسع عشر والتي بدأت تتحرك الان لتحطيمه.

لقد اسرف اسمـاعيل كثيـراً في تكريم ضيـوفه الـذين جاءوا في تشـرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٩ للمشاركة في افتتاح القناة، وكان لاسرافه المبالغ فيه لدرجة مذهلة ضربة كبيرة للديون المترتبة على مصر أنـذاك، فقد دعـا للحفل ملوك ورؤسـاء العالم الغـربي وأشاد لذلك المدن والقصور، وكأن العالم قد «جاء لينهش لحم مصر ويلفظها بعد ذلك لقمة سائغـة من فمه». ولم يكن مـا يقنع اسمـاعيل عن حقـه في جمع المـال بعد حفلة الافتتاح التاريخية متى شاء ومن حيث شاء. بيد ان الصدر الاعظم المصلح، علي باشا، منعه من ذلك، وزاد عداءه لاسماعيل انه كـان يرفض الـرشوة. امـا وقد اصبـح علي باشا الامبراطور العثماني هرماً ومريضـاً فإن انفتـاح اسماعيـل على الاجـانب، وتحديـه للسلطات، وفساده في استعمال المال، كل ذلك مثّل في نظره مرض الامبراطورية.

ويموت علي باشا في ايلول /سبتمبـر ١٨٧١، وتذهب معـه دوافع اسمـاعيل الى تحالف روسي. اما محمود باشاالدي حل محلة فقد كانت الرشوة تسترضيه . ومن هنا بدأ انهيـار الامبراطـورية العثمـانية الكبيـرة وبالتـالي انهيار مصـر إلى جانبهـا. فقـد منحـه السلطان الجـديد فـرمانـاً يسمح لـه فيه بعقـد «القـروض في سبيـل خـير البلد، وثبت تفـويضه بـاقتراض مبـالغ من المـال باسم الحكـومة المصـرية دون ان يعـود بذلـك الى استشارة السلطان. . . وبذلك زادت مشاكل اسماعيـل الماديـة في الوقت الـذي كانت فيـه الامبراطـورية العثمـانية غـارقة في الـديون التي كـانت من نوع آخـر، حتى بلغت الامور ذروتها في ١٨٧٥ حيث اعترف الامبراطور العثماني محمود باشا بافـلاس الدولـة العثمانية، واضطر الدائنون ان يمنحوها قرضـا جديـدا طويـل الامد بـاعتماد مشكـوك بامره. وعندما عجزت تركيا عن سداد هـذه الديـون عرض الـدائنون في فـرانكفورت شراء سكة الحديد في البلقان. وتنازل السلطان عن حزام من الأرض عرضه عدة اميال

على جانبي السكة الحديدية يخصص «للاستعمار» وهـذا ما سيحـدث في مصر في هـذه الفترة. ولكن تركيا رفضت ذلك، إلا ان الانهيار المالي وحـوادث العنف التي جرت في تلك الفترة ذاتها كان لهما الأثر البالغ في تصدع السلطة العثمانية الذي مهد لانهيارهـا. اما افتقار مصر إلى مثل هـذا الموقف التـركي، ومثل الاعتـزاز بسيادتهـا والاذلال الذي قهر اسماعيل كما قهر من قبل جده محمد علي، فقد اعـطى اوروبا فـرصة للتـدخل في شؤونها المالية ثم من بعد في مصيرها كدولة مستقلة.

وتطلع اسماعيل حوله يائساً فلم يجد سوى الشيء الذي كان عليه ان يحتفظ بـه احتفاظه بحياته. كانت أمامه أسهم مصر في قناة السويس التي بدأ يفكر ببيعها حتى لا يعلن الدائنون افلاس بلده وكانت لهفة بريطانيا لدخول مصر والسيطرة عليها في ذروتها فكيف إذا دخلت إلى قلب أرض الكنانة كصاحبة حق ومال ومصلحة؟

عندما فشلت بريطانيا بالـدخول الى مصـر عبر استغـلالها لقنـاة السويس، وإلى فلسطين لعدم وجود اقلية تدعي الدفاع عنها وعن مصالحها، وبعدما فشلت في تعطيل مسيرة شق القناة التي قادها الفرنسيون... فكرت بدورها في وسيلة جديـدة وهي شق قناة منافسة للسويس وهي قناة البحرين تـربط خليج حيفـا بوادي الاردن، ثم البحـر الميت ومنه إلى خليج العقبة، ثم الى شرم الشيخ فالمحيط الهندي(١٠).

وتعود الفكرة الى الاوقـات التي كانت فيهـا الامبراطـورية البـريطانيـة تمتد فـوق المسـاحة الاكبـر من الكرة الأرضيـة، حيث راودتها فكـرة شق القناة بعـدما يئست من السيـطرة على قنـاة السويس. واتجـه تفكيرهـا إلى فلسطين لسببـين: اولهما قـوة النفـوذ الفرنسي في مصر وثانيهما وقوع العديد من الاضطرابـات في الهند التي كـانت بريـطانيا تعتبرها العمود الفقري لممتلكاتها. لذلك ارسلت بريطانيا بعثة لدراسة المشروع في عام ١٨٥٠ وقـدم رئيس البعثة وليم ألن تقـريره الى المحكمـة البريـطانيـة. وفي الفتـرة من ١٨٧٣ حتى ١٨٧٥ أعاد البريطاني تشارلز غوردون دراسة المشروع المقترح على الطبيعة حيث ادخل عليه بعض التعديلات تضمنت رفع منسوب مياه البحر الميت الى مستـوى منسوب مياه البحر المتوسط كي يسمح للمياة بالتدفق جنوباً في خليج العقبة.

غير ان بريطانيا وقد علمت تمام العلم بما يدور حول الخديوي اسماعيـل عدلت عن متابعة دراسة مشـروع قناة البحرين عام ١٨٧٥. فقد عرف رفائيل بورج المسـاعد القانوني للقنصل البريطاني بالحالة المادية التي يعاني منها اسماعيل الـذي بدأ يفكـر علنا

ببيع اسهم مصر في قناة السويس، فأبرق الى حكومته ينبئها بذلك. وبسرعة بدأت عملية الشراء وفي غفلة من فرنسا حيث اتصل رئيس وزراء بريطانيا دزرائيلي بآل روتشيلد ليعرض عليهم شراء الاسهم لصالح الحكومة البريطانية، وبالفعل تمت الصفقة بمبلغ اربعة ملايين جنيه اي ما يساوي مائة مليون من الفرنكات الفرنسية، واصبحت بريطانيا بذلك تملك ثلث مجموع اصوات مجلس ادارة شركة القناة. كذلك فقد تنازل الخديوي للشركة عن حصته من ارباحها التي كانت تقدر بخمسة بالمئة منها وعندما تبين ان كل ما فعله الخديوي لم يكن كافياً لاقامة الموازنة المصرية من عثارها، فقد ابدت بريطانيا استعدادها للعطف على هذه المعضلة شريطة الا تستحوذ هي على هذه الخمسة بالمئة ايضاً. وسرعان ما بلغت حصيلة بريطانيا من ذلك اربع ملايين جنيه وهو المبلغ الذي كانت قد دفعته الى الخديوي الذي وجد نفسه بذلك قد رد الى بريطانيا باليد اليسرى ما كان قد أخذه منها باليمنى، وتكون بريطانيا بذلك قد استحوذت على ٤٤ بالمئة من اسهم الشركة في القناة دون مقابل. فكانت عملية ابتزاز بقيت في التاريخ شاهداً على مهارة اصحاب المصارف اللندنية، وعلى سذاجة الاسرة المالكية المصرية، تلك السذاجة التي سوف تودي باستقلال الشعب المصري وبسلامة وطنه(١١).

ولقد أدى استسلام خديوي مصر للبريطانيين الى ردود فعل وطنية وقومية اقلقت هؤلاء ودفعتهم الى التدخل. وكان ذلك رغم إرادة فرنسا، وفي جزء كبير منه دون علم منها. فلقدُ كانت سياسة نابليون الثالث وسياسة الجمهورية الثالثة ـ تلك السياسة التي عرف عنها التمسك بهذه المنطقة ـ تعتبر ان مصر حليفة دائمة للنزعة التوسعية الفرنسية. وقد كان عام ١٨٦٩ الذي دشنت فيه قناة السويس بمثابة عاقبة وحصيلة لسياسة فرنسا حيال الشرق الاقصى، فتميز ذلك العام بالاحداث التالية: الاستحواذ على اوبوك على ساحل عام ١٨٦٢، واحتلال سيغون عام ١٨٥٩، ثم جنوب الهند الصينية بأكمله عام ١٨٦٧ وقبل ذلك فرض الحماية على كمبوديا عام ١٨٦٣. وفيما بين عامي ١٨٦٦ و١٨٦٨، اكتشف فرنسيس غارنييه المسمى سونغ كوي كطريق إلى الصين. فتأكد بذلك ارتباط قدر السويس بقارة آسيا. وهكذا ربح اسماعيل مبلغاً من المال ولكنه خسر مصر، وبالتالي العالم العربي من ورائها، علما بأن حيازته على المال لم تحل المشكلة بل عقدتها فقد نفذت الملايين الأربعة بسرعة ليعلن اسماعيل في ٨ نيسان/ ابريل ١٨٧٦ ايقاف دفع الفواتير المسحوبة على الخزينة، والف مرسوم خديوي في ٢

آيار /مايو ١٨٧٦ لجنة للدين العام، ثم وحد مرسوم اخر الديون فبلغت ٩١ مليون جنيه.

اما اوروبا التي ادركت يومها مدى اهمية الغنيمة التي حصلت عليها فقد كانت مقتنعة بأنها تقدم الى العالم كل شيء، ومن ضمن ذلك الدساتير. وإذا ازداد تصنيعها، واصبح عندها فائض من الثروه والايدي العاملة، اقتنعت ايضاً بصورة جماعية بأن عليها أن تستعمل ذلك الفائض في استغلال المجتمعات المتخلفة، ورأت الدول الحديثة كالمانيا وايطاليا كما رأت بريطانيا وفرنسا، ان محك الدولة حيازة المستعمرات في الخارج. كذلك اخذت روسيا حصتها على الشعوب المجاورة لها في شبه جزيرة القرم والقفقاس وفي وسط آسيا وشرقها.

وفي هذا الزمن بالذات كان اسماعيل مشغولاً جداً مع الخبراء الماليين لايجاد وسيلة لسد الديون، اما هم فكانوا يفكرون بالتدخل نيابة عن الدائنين ليحلوا محلهم. وقد كان اسماعيل مقيّداً في هذا التحدي بنشأته ولو انه تصرف في الوقت المناسب لربما استطاع ان يوحد البلد ويقاوم الاجانب خاصة وانه كان يفترض ان يعامل المصريين كشعب لا عبيد اقطاع. وقد حاول ذلك ولكنه لم يستطع لأنه قد فات الأوان، وبخاصة بعد ان وقعت المجاعة في مصر العليا في عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨. ومات عدد كبير من الجوع. لذلك اجبر اسماعيل في ١٨٧٨ على قبول قرارات المندوبين الاجانب والخضوع للحكم بواسطة الاوصياء. فرهنت عزبه الخاصة الواسعة، ودفع افراد عائلته ضريبة الدخل عن املاكهم، وعينت حكومة على رأسها نوبار باشا، وكان يسيطر عليها فعلياً وزيران اوروبيان احدهما بريطاني والاخر فرنسي، وصدرت عن اسماعيل اخر ايماءة محزنة الى التعاون بقوله للوزير الفرنسي: (لم تعد مصر في افريقيا. انما هي جزء من اوروبا. لذلك فإن من الملائم اهمال الطرق القديمة واتباع نظام جديد اكثر انسجاماً مع تقدمنا الاجتماعي). لكن الشعب والجيش لم يكونا بعيدين عما يجري فقد ضغطا على اسماعيل ليغير الحكومة ففعل لكنه لم يقدر شعور الشعب والجيش حق قدره، وعبثا تكلم اسماعيل عن ادخال حكم دستوري، عبثا ناشد آل روتشيلد لتمويل القروض القائمة لدفع ديونه العائمة، عبثا اهدى الحكومة الاميركية مسلة كليوبترا الثانية القائمة في الاسكندرية لتنصب في نيويورك[١٢].

وكان السلطان عبد الحميد، آخر امل له. ولكن هذا السلطان فقد قبل عام

اجزاء من امبراطوريته ومنها جزيرة قبرص. . . اما ان يؤيد اسماعيل ويتحدى اوروبا او يتركه يغرق. (هنا تنتشر الشائعات بكل انواعها. ان كلمات التنازل والخلع والتدخل على كل لسان، وسعر السندات في ارتفاع نقطة فنقطة على امل ان يحدث تغيير ما. ادهشني في القاهرة ان أجد كل واحد لا يزال اكثر نشاطاً على الرغم من الحر. كان داخل البيوت كالفرن وخارجها كالموقد، والمجتمع الاوروبي بأسره يتذمر من الشمس ما عدا زمرة قليلة من الانجليز الذين كانت مهمتهم المحافظة على العالم المصري مستقيماً والذين ظنوا انهم لن يستطيعوا اداء هذه المهمة الا بمباراة تنس عنيفة يومياً)

قدرت «التايمس» انذاك الوضع بحذر قائم على الفهم. ان اسماعيل يستحق الاحترام من أجل منجزاته، والشفقة (كضحية للظروف والمحيط الفاسد). ولكنه كان مسؤولاً في نظر العالم عن الفشل، (والدبلوماسية التي لا قلب لها لا تصغي للظروف المخففة). ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ (إن توفيق باشا الذي يتحدثون عنه الان كخلف لابيه يوصف بأنه شاب لطيف، وملاك ناجح يميل الى الاقتصاد ويحب المدارس. ولكن اسماعيل باشا، الحاكم الحالي، كان كذلك تماماً قبل ان يرتقي العرش) واجهت الدول تحدياً اكبر من مجرد تغيير الحكم. (ستكون مصر كما هي الان هبة مشؤومة لأي انسان. على الدولتين بريطانيا وفرنسا اما الا تتقدما ابدا او يكون تقدمهما بسرعة شديدة). وإذا كانت انجلترا غير راغبة في تحمل العبء كله(فخير لها ان تكتفي بالطريق المائي المفتوح بين بور سعيد والسويس وتترك لاصحاب البنوك الفرنسيين وبقية حملة السندات حلّ مشكلتهم المالية بالطريقة التي يتبعها الناس حين يقومون بمغامرة فاشلة)

بيد ان الدولتين توصلتا الى قرار ففي ١٩ حزيران / يونيو، زار القنصل العام البريطاني والقنصل العام الفرنسي في القاهرة الخديوي اسماعيل ونصحاه بالتنازل عن العرش، وقالا له انهما لا يستطيعان إذا رفض ان يضمنا له معاش التقاعد ولابنائه العرش. راجت الشائعات حول هذا التهديد وكان للامير عبد الحليم مؤيدون اقوياء، فإذا ألغى السلطان الفرمان ١٨٦٦ حلّ محل توفيق في وراثة العرش بصفته ابن محمد علي باشا.

طلب اسماعيل مهلة ثمان واربعين ساعة للتفكير في جواب، لكن ضاع امله في

معجزة من القسطنطينية تنقذه في آخر لحظة، فقد سر السلطان عبد الحميد ان يتخلص منه آملاً اعادة مصر الى وضع تكون فيه اكثر اعتماداً عليه، والشيء الوحيد الذي كان يخشاه ان يبدو تصرفه نتيجة ضغط اجنبي. حالما وصلت الى قصر عابدين برقية السلطان بخلع اسماعيل وتنصيب توفيق، حزم اسماعيل حقائبه، وأعد حريمه أو من أراد منهن، ورحل عن مصرفي في ٣٠ حزيران /يونيو ١٨٧٩.

كان اسماعيل يحلم ليس بمجرد وصل بحرين مختلفين بل بالتسوية بينهما. رأى في حلمه ان المسيحيين الاوروبيين سيلتقون مع مسلمي الوطن العربي، لكن القدر قضى على هذا الحلم في القرن التالي إذ عملت الدول الاوروبية وكيلة لاصحاب البنوك الذين اصروا على استيفاء ديونهم، فانتزعت من الامبراطورية العثمانية ولاية بعد اخرى، ولم يبق بعد الحرب العالمية الاولى سوى الاناضول وقسم من تركيا فكونا دولة قومية لها قوانين اوروبية وتستعمل القبعات والحروف الاوروبية، لكن دون سلطان أو خليفة. أما ولايات الامبراطورية التي يتكلم اهلها العربية فلم يبق منها مستقلاً سوى اليمن المتخلف والصحراء العربية بينما اصبح المشرق العربي والمغرب العربي دولاً تابعة، أما فلسطين فقد اعطيت لليهود الذين وعدتهم بريطانيا ودعمتهم الولايات المتحدة، وساعدتهم فرنسا على ان تكون وطنا قومياً لهم. . . تلك كانت خارطة الوطن العربي في اواخر القرن التاسع عشر، وهي الخارطة التي فرضت عليهم فيما بعد التجزئة والضياع اللذين يهددان الآن وفي مطلع الثمانينات بالمزيد من التقسيم والتقاسيم.

الصراع على قناة السويس

اوروبا تأكل لحم مصر !

ازداد الاهتمام في اوروبا في القرن الثامن عشر بايجاد طريق قصير سريع سهل يربط الدول الاوروبية بالهند والصين وغيرهما ويكون بديلا لطريق رأس الرجاء الصالح . ومكان مبعث هذا الاهتمام ظهور نظام الصناعة الحديث في اوروبا الغربية وما صحبه من تطور عميق في التكنولوجيا الصناعية ، حمل المؤرخين على تسمية هذا النظام « بالانقلاب الصناعي » .

وقد نجم عنه تسابق الدول الاوروبية على الحصول من بقاع الشرق على المواد الخام اللازمة لقيام صناعاتها ، ورغبتها في مزيد من المستعمرات لتسويق سلعها ، الامر الذي ادى إلى ازدياد حدة التنافس الاستعماري بينها . يضاف إلى ذلك ، زيادة عدد السكان في كثير من الدول الاوروبية والرغبة في استثمار رؤوس الاموال ، وظهور منظمات رأسمالية اسهمت في تمويل التجارة الخارجية الاوروبية . وقد صحب الانقلاب الصناعي تطور كبير في وسائل المواصلات البرية والبحرية نتيجة استخدام البخار، فأنشئت السكك الحديدية ، وزيد استخدام البخار في تسيير السفن ، واستعمل الصلب في بنائها بدلا من الاخشاب ، وتوالى ظهور المخترعات في شتى المجالات(١٣) .

وفي غمرة هذا الانقلاب الصناعي وتلك النزعة الاستعمارية العنيفة التي سيطرت على معظم دول اوروبا واستهدفت السيطرة السياسية والاقتصادية على انحاء

شتى من العالم ، وبخاصة في افريقيا وآسيا ، تطلعت الانظار إلى احياء طريق التجارة القديم الذي كان يمر بالبحر الاحمر ومصر . وساعد على هذا التطلع زوال معظم العقبات التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل انشاء وتنظيم خطوط ملاحة بحرية اوروبية في البحر الاحمر .

كانت الدولة العثمانية عقب استيلائها على اليمن ، قد جعلت البحر الاحمر بحرا اسلاميا مغلقا في وجه السفن غير الاسلامية يحظر الابحار فيه فيما وراء ثغر « مخا » باليمن ، بحجة أن هذا البحر يطل على الاماكن الاسلامية المقدسة ويهدد سلامتها . وظل هذا التشريع العثماني قائما حتى نهاية القرن السابع عشر ، ثم سمح للسفن غير الاسلامية بأن تمد رحلاتها في البحر حتى جدة ، وبقيت المنطقة الواقعة بين جدة والسويس منطقة محرمة على السفن غير الاسلامية ، وبذلك تغلغلت سفن شركة الهند الشرقية البريطانية في البحر الاحمر حتى جدة .

ولما قام علي بك الكبير بحركته في مصر[١٤] اهتم، بناء على توجيه من احد تجار البندقية[١٥] بفتح البحر الاحمر للسفن الاجنبية حتى السويس لتفرغ في هذا الميناء شحناتها من التجارة الهندية . وكان هذا السبب في مقدمة أسباب حملة الحجاز التي نفذها علي بك الكبير سنة ١٧٦٩ ، ونجحت الحملة ، وجعل علي بك جدة تحت ادارة مملوكه حسن بك الجداوي[١٦] ، وعهد بادارة جمرك جدة إلى احد اخوة روستي (Rossetti)[١٧]، ثم بقيت الحلقة التالية لاستكمال المشروع وهي الاتفاق مع احدى الشركات الاوروبية لفتح طريق مباشر للتجارة بين الهند وميناء السويس .

وفي سنة ١٧٧٥ ظهر جورج بلدوين (George Baldwin) [١٨] والذي كان يعتقد اعتقادا راسخا في وجوب استخدام الطريق البري في مصر ، وسيلة للاتصال بين انكلترا وبين ممتلكاتها في الهند . ولما لم يكن لانكلترا تمثيل قنصلي في مصر في تلك السنوات [١٩] ، فقد نال سنة ١٧٧٥ من شركة الليفانت (Levant) الانكليزية ومن شركة الهند الشرقية التجارية تصريحا بالاشراف على مصالح هاتين الشركتين في مصر وغيرهما من انحاء الشرق الادنى [٢٠] . ومنذ سنة ١٧٧٥ بذل بلدوين مساعيه لتنظيم خط مواصلات من الهند إلى السويس ، ثم من القاهرة إلى انكلترا ، وقد تكللت جهوده كلها بالنجاح ، واصبحت السلطات الهندية والانكليزية في سنة ١٧٧٧ تعتمد على الطريق البري اعتمادا كليا في نقل بريدها .

وكانت هناك محاولات يبذلها في نفس الوقت سفير النمسا في الاستانة لتنظيم نقل التجارة الشرقية بين الهند وثغر « تريستا » عن طريق الاراضي المصرية . وكانت الحكومة النمساوية شديدة الاهتمام بهذا الطريق رغبة في بعث الازدهار الاقتصادي في شبه الجزيرة الايطالية والذي خبا عقب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

ودخلت فرنسا في ميدان المنافسة ضد انكلترا من اجل فتح الطريق البري عبر الاراضي المصرية للتجارة الفرنسية . ولكن يجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة هي أنه إذا كان اهتمام فرنسا بفتح الطريق البري عبر مصر في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر يغلب عليه الطابع التجاري ، فأنه لم يكن يخلو من دوافع سياسية بعيدة مردها إلى اخفاق فرنسا في منافسة الهولنديين والانكليز في مياه المحيطين الاطلسي والهندي ، فأرادت تحويل طريق التجارة الشرقية إلى طريق آخر غير طريق رأس الرجاء الصالح ، تستطيع أن تسيطر عليه بسهولة وتستطيع أن تحرم هولندا وانكلترا من التجارة الشرقية باعتبارها مصدرا اساسيا لقوة هاتين الدولتين ، وتستطيع ايضاً أن تستأثر لنفسها بطريق التجارة عبر مصر . وقد تلقت الحكومة الفرنسية العديد من المذكرات والمشروعات تتضمن تحبيذا لشق قناة بين البحرين المتوسط والاحمر [٢١] . نذكر على سبيل المثال مذكرة قدمها لوي دي لونجيه (Louis de langier) إلى الحكومة الفرنسية في كانون الاول/ ديسمبر ١٧٧٤ جاء فيها .

«هناك موضوع هام للغاية يجذب انتُباهي ، هو قناة الاتصال بين البحرين المتوسط والاحمر . ان هذه القناة هامة جدا لمصر وضرورية للتجارة الفرنسية مع الشرق . وفي خلال سنوات ذات عدد ستجعلنا القناة في مركز نستطيع منه املاء رغباتنا على الشعوب التي تنافسنا . إن هذه القناة ليست حلما »[٢٢] . وفي نفس هذه الفترة اقترح البارون دي توت (De tott) الذي كان بمثابة مستشار وخبير عسكري للجيش العثماني ابان الحرب الروسية ـ التركية (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) على السلطان مصطفى الثالث اعادة حفر قناة أمير المؤمنين التي كانت تصل البحر الاحمر بنهر النيل . وراقت الفكرة للسلطان مصطفى ، وطلب من البارون (De Tott) اعداد بحث واف عن هذا المشروع لتنفيذه بعد انتهاء الحرب . ولكن لم يلبث أن توفي السلطان مصطفى سنة ١٧٧٣ فعاد البارون (دي توت) يجدد هذا الاقتراح للحكومة الفرنسية ، كما حذا حذوه الكثير من اعلام السياسة والاقتصاد الفرنسيين الذين تقدموا باقتراحات مماثلة . ووقفت الحكومة الفرنسية من هذه الاقتراحات موقفا فاترا ، إذ كانت فرنسا

مثخنة بالجراح بعد هزائمها وضياع مستعمراتها في اميركا الشمالية والهند ابان حرب السبع سنوات وابرام صلح باريس عام ١٧٦٣ ، ولم تلبث أن زجت بنفسها في حرب الاستقلال الاميركي انتقاما من الانكليز . واسفرت هذه الحرب عن اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة في معاهدة فرساي أو معاهدة باريس سنة ١٧٨٣ . وبعودة السلام عادت الحكومة الفرنسية تولي ذلك الموضوع عنايتها .

واهتم بهذا الموضوع فرجين(vergennes) وزير خارجية فرنسا الذي عهد إلى شوازيل جوفيه (Choiseul Gouffier) السفير الفرنسي الجديد في الاستانة بأن يحصل بادىء ذي بدء على موافقة الباب العالي على فتح ميناء السويس للسفن الفرنسية . ولكن نجاح السفير الفرنسي كان محدودا في هذا الصدد على الرغم من تفوق نفوذ فرنسا في الاستانة وقتذاك . واستطاع السفير أن يرسل إلى مصر في اواخر سنة ١٧٨٤ احد الضباط واسمه تروغيه (Truguet) يحمل خطابا من قبطان باشا إلى ابراهيم بك ومراد بك يوصيهما خيرا بالتجار الفرنسيين في مصر ، ويحمل ايضا هدايا قيمة للاميرين ، وقد عهد السفير إلى هذا الضابط - تروغيه - عقد معاهدة تجارية مع هذين الاميرين المملوكين .

ولقي الضابط الفرنسي معاونة من شارل ماجالون (Charles Magallon) احد التجار الفرنسيين الذين اقاموا في مصر اكثر من عشرين سنة ، وكان هذا التاجر يشرف على المصالح الفرنسية في القاهرة منذ أن انتقلت القنصلية الفرنسية إلى الاسكندرية سنة ١٧٧٧ . واستفاد الضابط من علاقات صداقة كانت قائمة بين زوجة ماجالون وبين زوجة مراد بك . وبفضل هذه الصداقة ، وبفضل مساعي ماجالون ، نجح الضابط الفرنسي (تروغيه) في عقد ثلاث معاهدات :

الاولى مع مراد بك ووقعها بعد ذلك ابراهيم بك وتاريخها ٩ كانون الثاني/ يناير ١٧٨٥ ، تعهدا فيها بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها بمصر ، وحددت بها الرسوم الجمركية . وكانت المعاهدة الثانية وتاريخها ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٧٨٥ مع يوسف كاسيس ملتزم الجمارك العام . وابرمت المعاهدة الثالثة في نفس الشهر ايضا مع الحاج ناصر شديد احد شيوخ العربان الذي تعهد بنقل المتاجر الفرنسية عبر الطريق الصحراوي بين السويس والقاهرة ، كما تكفل بحماية القوافل مقابل رسم معين على كل حمل .

كان هذا النجاح الذي احرزته الدبلوماسية الفرنسية يمثل ذروة التنافس الدولي لتنظيم طريق للمواصلات العالمية عبر الاراضي المصرية . وكانت له اصداء بعيدة في العلاقات الدولية ، وأثار جواً من النشاط الدبلوماسي المحموم ، بما حفل به من دسائس ومؤامرات لافساد اثر المعاهدات الفرنسية الثلاث .

ومع ذلك ، فأن نجاح فرنسا في عقد المعاهدات التجارية الثلاث ، كان حافزا للانكليز على استئناف جهودهم لبعث ودعم الطريق البري عبر مصر للمواصلات البريطانية مع الهند واحباط المشروعات الفرنسية وبخاصة بعد الرحلة التي كانت قد نظمتها البحرية الفرنسية للبارون دي توت (De Tott) لزيارة مصر . وقد تمت هذه الزيارة سنة ١٧٧٧ وزار الاسكندرية ورشيد والقاهرة ودمياط . وتواترت الانباء بأن فرنسا قد استهدفت من تنظيم الرحلة جمع المعلومات واعداد دراسة على الطبيعة تمهيدا لغزو مصر . وكان أن اهتمت الحكومة البريطانية بالامر وأعادت فتح القنصلية في مصر سنة ١٧٨٦ بعد أن استمرت بريطانيا بدون تمثيل قنصلي مدة قاربت الثلاثين عاما ، ووقع الاختيار على جورج بلدوين قنصلا عاما لبريطانيا ، وكان يحمل تعليمات مؤداها أن يراقب نشاط الفرنسيين في مصر ، وأن يعقد اتفاقية تجارية مع مراد بك أو أي فرد يكون على رأس الحكومة المصرية ، على أن تكون هذه الاتفاقية على غرار المعاهدات التجارية الثلاث التي عقدتها فرنسا مع مصر سنة ١٧٨٥ بحيث يكون للتجار الانكليز نفس الامتيازات المقررة للتجار الفرنسيين ، وأن يتخذ بلدوين التدابير لتيسير نقل البريد بين انكلترا والهند عبر طريق السويس البري ، وأن يوضح للسلطات الحاكمة في القاهرة أن لانكلترا حقا ثابتا بمقتضى نظام الامتيازات الاجنبية مع الباب العالي في مباشرة النشاط التجاري في البحر الاحمر .

وكانت اعادة فتح القنصلية البريطانية العامة في مصر سنة ١٧٨٦ من ناحية ، ومحاولة انكلترا عقد معاهدة تجارية مع مصر من ناحية ثانية ، وتنظيم وتسهيل نقل البريد عبر الاراضي المصرية من ناحية ثالثة ، دلالة على رغبة انكلترا في مواجهة النشاط الفرنسي في مصر في اواخر القرن الثامن عشر ، وعلى أنها كانت تنظر إلى الامراء المماليك على أنهم حكام مصر من الناحية الفعلية . وقد وصل بلدوين إلى الاسكندرية في ١٩ كانون الاول/ ديسمبر ١٧٨٦ في ظروف غير مناسبة . إذ كانت في مصر حملة عسكرية عثمانية تأديبية يقودها القبطان حسن باشا الجزائرلي لكسر شوكة

المماليك واسترجاع نفوذ الدولة العثمانية في مصر ، واتصل القنصل البريطاني بالجزائرلي باشا ، ولم تكن للاخير سلطات تجيز له ابرام مثل هذه الاتفاقية ، ثم ما لبثت أن اندلعت الحرب التقليدية بين روسيا والدولة العثمانية التي استدعت الجزائرلي باشا من مصر فغادر القاهرة نهائيا في ٦ تشرين الاول/ اكتوبر ١٧٨٧ .

وكانت الحالة الداخلية في مصر تزداد سوءا لأن الجزائرلي باشا رحل عن مصر دون أن يحسم الموقف ، وترك في القاهرة اميرا مملوكا ضعيفا هو اسماعيل بك . وزحف ابراهيم بك ومراد بك على القاهرة من الصعيد لاستعادة نفوذهما السليب ، واهتز مركز اسماعيل بك ، ولكن الموت أراحه من الموقف الحرج فمات متأثرا باصابته بالطاعون الذي انتشر وقتذاك في مصر واتخذ مظهر الوباء . ودخل ابراهيم بك ومراد بك القاهرة في تموز/ يوليو سنة ١٧٩١ ، وخضعت مصر لحكم ثنائي تولاه هذان الاميران ، واجتازت البلاد فترة رهيبة اضطرب فيها الامن وتعددت المظالم ، وأمعن الاميران في فرض الضرائب الجزافية والاتاوات والقروض الاجبارية ومصادرة الاموال ، وانتشرت الفوضى في طول البلاد وعرضها .

وازاء تدهور الحالة الداخلية في مصر ، قررت الحكومة البريطانية اغلاق قنصليتها العامة في مصر واعفاء بلدوين من منصبه في ١٨ شباط/ فبراير سنة ١٧٩٣ ، ومع ذلك لم تقم السلطات المختصة بابلاغ بلدوين بهذا القرار إلا في تشرين الاول/ سنة ١٧٩٥ (٢٣) ، ولذلك ظل يواصل بذل المساعي حتى نجح في اوائل عام ١٧٩٣ في أن يحصل على موافقة ابراهيم بك ومراد بك على ارسال البريد الانكليزي عبر طريق السويس البري ، ووصلت فعلا رسائل في نيسان/ ابريل ١٧٩٣ . وكان هذا النجاح مقدمة لنجاحه في عقد معاهدة تجارية مع ابراهيم بك ومراد بك في ٢٨ شباط/ فبراير ١٧٩٤ على غرار المعاهدة الفرنسية (تروغيه ـ مراد ١٧٨٥) . وقد آنس بلدوين من المماليك استعدادا طيبا للتعاون مع الانكليز ، لأن الامراء المماليك لمسوا أن المواصلات مع الهند مستمرة في الذهاب والاياب من ناحية ، ولأن المعاهدة الفرنسية قد فشلت في جذب السفن إلى السويس من ناحية اخرى .

وقد قابلت الحكومة البريطانية انباء هذه الاتفاقية بفتور ، لأنها كانت منصرفة قلبا وقالبا إلى صراعها الدامي مع الحكومة الفرنسية منذ سنة ١٧٩٣ ، حين تكوَّن التحالف الدولي الاول ضد الثورة الفرنسية عقب اعدام الملك لويس السادس عشر .

ويمكن أن نختم مرحلة التنافس الدولي من مراحل محاولات انشاء طريق للمواصلات العالمية عبر الاراضي المصرية بأنه لم يكن في الاستطاعة أن تنجح الدبلوماسية الفرنسية أو المحاولات البريطانية في هذا الصدد لعدة اسباب منها :

أولاً: اضطراب الامن في مصر . وقد حدث في ١٩ ايار/ مايو سنة ١٧٧٩ أن هوجمت قافلة انكليزية في سفرها منَ السويس إلى القاهرة ، ونهبت البضائع وجرد المسافرون من ملابسهم وضلوا الطريق وماتوا من الجوع والعطش والاعياء ، ولم ينج منهم سوى واحد بلغ القاهرة في اسوأ حال من الاعياء .

ثانيا : عدم استقرار الحكم في مصر ، إذ كان يتنازع الحكم الفعلي الامراء المماليك ، فإذا عقد اتفاق تجاري مع امير لا يلبث أن يعزل أو يقتل ، ويتطلب الامر بعد ذلك تجديد الاتفاق مع الامير الذي يخلفه . تضاف إلى ذلك المظالم التي دأب البكوات المماليك على ارتكابها وابتزاز الاموال من التجار الاجانب بوجه خاص وارهاقهم بالاتاوات والضرائب والقروض الاجبارية على الرغم من وجود نظام الامتيازات الاجنبية ، الذي لم يكن له ادنى اعتبار امام طغيان وجبروت الامراء المماليك .

ثالثا : معارضة الحكومتين البريطانية والعثمانية للفكرة اساسا . وقد عارضت الحكومة البريطانية الفكرة لأنها كانت تخضع سياستها الشرقية في ميادين التجارة والاستعمار للتوجيهات التي تضعها شركة الهند الشرقية التي تأسست في ٣١ كانون الأول / ديسمبر ١٦٠٠ وكانت هذه الشركة تخشى ظهور منافسة لها في التجارة الشرقية أو متاعب تواجهها أو ضرائب تعسفية تؤديها على البضائع اثناء مرورها بمصر .

أما الحكومة العثمانية فقد عارضت هذه المحاولات لأنها كانت حريصة على حرمان الامراء المماليك في مصر من مصدر غزير للدخل ، يؤدي إلى زيادة قوتهم واستقلالهم بمصر ، كما أنها خشيت أن يكون فتح البحر الاحمر للتجارة ودخول الاوروبيين في مياهه لاستعمار اوروبي مسيحي مقنع لا يلبث أن ينقلب إلى استعمار سافر للاقاليم العثمانية الواقعة على جانبي البحر الاحمر . وكانت الفرمانات السلطانية الصادرة في هذا الصدد تشير إلى أن الاحترام الواجب للاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز ، لا يجيز للسفن غير الاسلامية الملاحة في البحر الاحمر ، لأن بحر السويس

مكرس للحج إلى مكة ، وثغره هو ميناء المدينتين اللتين يشع منهما نور الهدى وشريعة الرسول . . . مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأن السماح لهذه السفن بالملاحة أو مساعدتها خيانة للدين والسلطان والمسلمين قاطبة ، عقابه الخزي في الحياة الدنيا والآخرة .

قناة السويس وشروط محمد علي لإنشائها

حاول قنصل النمسا العام (لوران) أن يبدد مخاوف محمد علي مظهرا له أن تنفيذ مشروع القناة يؤدي إلى دعم مركز أسرته في مصر ، وكانت تسوية عامي ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ قد جعلت حكم مصر وراثيا في أسرة محمد علي . وأضاف القنصل العام إلى ذلك أن جميع الدول الأوروبية تعلق أهمية قصوى على أن تظل القناة بمنأى عن أي نفوذ انفرادي تتمتع به دولة على حساب الدول الاخرى . وأن القناة المقترحة لن تقل أهميتها عن أهمية البوسفور . وقد بسط محمد علي آراءه بصراحة في موضوع القناة أمام محدثه ، وعرض الشروط التي أصر على توافرها قبل البدء في تنفيذ المشروع وقد سجلها لوران في مذكرة مؤرخة في ١٩ أيار/ مايو ١٨٤٤ وأرسلها إلى مترنيخ قال فيها : « إن محمد علي يطلب أن تقدم له الدول ضمانات بأن تكون القناة ملكا لمصر ، وأن يكون لمصر الحق في فرض رسوم على مرور السفن في القناة بحيث تكفي حصيلة هذه الرسوم لتغطية نفقات إنشائها وإدارتها ونفقات الصيانة وكفالة مورد مالي معقول للحكومة المصرية ، واقترح محمد علي أن تقوم النمسا باتصالات مع حكومات الدول الكبرى لتحقيق هذه الضمانات . أما التنفيذ وإدارة القناة وصيانتها واستغلالها فقد رفض محمد علي رفضا قاطعا أي تدخل فيه من الخارج ».

وفي ضوء ما جاء في هذه المذكرة ، عكف مترنيخ على دراسة اسلوب عمل لتنفيذ المشروع . يقوم على عقد اتفاق بين الدول تسجل فيه على نفسها استعدادها لتمويل عمليات إنشاء القناة ، وأن يخصص للدولة العثمانية جزء من إيراد القناة حتى يكون

هذا المورد المالي باعثا للدولة العثمانية على الاهتمام بـالمشروع ، وأن تنـال مصر أيضـا نصيبهـا من أرباح القنـاة ، وأن ينص في الاتفاق عـلى أن تكون القنـاة ملكا لمصـر مع الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية عليها . وكان مترنيخ يرى أن اشراكـالدولة العثمانية بـالقناة أمـر لا غنى عنه ، لأنـه يشجع الـدول الكبرى عـلى أن تنشىء عملا لـه صفة الدوام . والواقع أن تضارب مصـالح الـدول الكبرى حـول المشروع ، كـان الصخرة التي تحطمت عليها محاولاتالنمسا لإنشاء القناة .

وعلى الرغم من الاخفاقالـذي مني به الاب آنفانتا[٢٤] في مصر ، فإنه ظل بعـد عودته إلى أوروبا في مطلع سنة ١٨٣٧ يدعو فرنسا والنمسا وانكلتـرا وغيرهـا لمشـروع القناة البحرية بمختلف وسائل الدعاية . واستطاع في أواخر سنـة ١٨٤٦ تكوين جمعيـة دولية أطلق عليها « جميعة دراسات قناة السويس » وقد نظم آنفانتا اجتماعا في بـاريس في ٢٧ تشـرين/ نـوفمبـر ١٨٤٦ حضـره عــدد من المهنـدسـين والخبـراء ورجــال الاعمـال والاقتصاد والمصـارف ينتمـون إلى شتى الـدول الأوروبيـة ، فكـان من بينهم الفرنسيون والانكليز والالمان والنمساويون . وأراد الابآنفانتا من هذا الحشد المتعـدد الجنسيـات أن يضفي على المشـروع طابعـا دوليا ويبـدد المخاوف التي قـد تساور بعض الدول مثل انكلترا ، إذا رأت أن الجمعية الـوليدة تتكـون من أعضاء ينتمـون إلى دولة واحدة مثل فرنسا . وجعلت باريس مركزا للجمعية واتخذت لها مقـرا في مسكن الاب آنفانتا رقم ٣٤ بشارع النصر .

وفي الاجتماع الأول الذي عقد في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبـر من عام ١٨٤٦ ، ألقى الاب آنفانتا كلمة استعرض فيها الجهود التي بذلها السان سيمونيـان بعد عـودتهم من مصر ، من أجل مشروع القناة ، وعرض على المجتمعين مشروعا لوصـل البحرين تمهيدا لبحثه ومناقشته ، ثم أعطيت الكلمة للمهندس الفرنسي بولتان طالابو (Paultin Talạbot) فقرر أنه سبق أن عقد اجتماعـا خاصـا مع زميليـه لويجي نيجـريللي (Luigi Negrelli) المهنــدس النمسـاوي وروبــرت ستيفنسن (Robert Stivincin) المهنــدس الانكليـزي ، وقد بحث الثـلاثة مشـروع لنيان دي بلفـون وسائـر البحـوث التي سبق إعـدادهـا عن حفـر قنـاة بحـريـة ، وانتهت مـداولاتهم إلى اقتنـاعهم بـإمكـان إنشـاء « بوسفور » أو اتصال مائي بين البحرين عبر صحراء السويس طبقا لمشروع لنيان، ثم أعلن أن البحوث التي تمت حتى ذلك الوقت غير كـافية ، وأنـه لا مناص من استكمال

دراسة المشروع على الطبيعة بزيارة منطقة برزخ السويس كي يحدد أعضاء الجمعية تحديدا دقيقا العمليات المطلوبة لانشاء قناة تستطيع السفن الاستفادة منها في انتقالها من بحر إلى آخر . وقد تم الاتفاق على تقسيم العمل في الجمعية الجديدة بين ثلاث مجموعات حسب جنسية الاعضاء : مجموعة فرنسية وأخرى انكليزية وثالثة نمساوية ، وألا يقل عدد كل مجموعة عن سبعة أعضاء ، ولا يزيد عن عشرة بالاضافة إلى المهندس الذي يرأس كل مجموعة ويمثلها دون أن يسهم في رأسمال الجمعية ، وأن يكتفي بإسهامه بعمله وتجاربه وجهوده الفنية فقط ، وبذلك يتراوح عدد أعضاء الجمعية بين ٢٤ و٣٣ عضو .

أما الدراسات الميدانية فقد تقرر اجراؤ ها على النحو التالي :

ـ تقوم المجموعة النمساوية ورئيسها المهندس نيجريللي بإجراء دراسات على الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط في منطقة خليج بيلوز(Péluse) وقياس عمق الماء في هذه المنطقة توصلا لاختيار أنسب مكان يكون مدخلا للقناة على البحر المتوسط ، وينشأ عنده ميناء تأوي إليه السفن في سهولة وأمان طوال فصول السنة .

ـ تقوم المجموعة الانكليزية ويرأسها المهندس ستيفنسن بإجراء دراسات على ميناء السويس والوقوف على مدى صلاحيته لاستقبال السفن وإمكان تطوير هذا الميناء .

ـ تشرع المجوعة الفرنسية ويرأسها المهندس بولان طالابو في دراسة المنطقة التي سوف تجتازها القناة المقترحة في صحراء بزرح السويس ، وتقوم بمسحها وسبر أغوارها وفحص تربتها وقياس أبعادها .

وبدأت الجمعية بداية طيبة وظفرت بتأييد ومساعدات مالية من عدة هيئات ومؤسسات ي بعض الدول الأوروبية .

كان اهتمام الحكومة الفرنسية بنجاح جمعية الدراسات في مهمتها أمرا طبيعيا ، فقد كانت فرنسا على رأس الدول الداعية إلى شق القناة البحرية ، ولكنها حرصت في هذه المرحلة على ألا تؤ يد الجمعية أو تجمد أعمالها ، واكتفت بتأييد القرارات التي كانت تصدر عن الهيئات الاقليمية في فرنسا تشجيعا لجمعية الدراسات ، وكانت الغرفة التجارية في « ليون » من أولى الهيئات الفرنسية التي سارعت إلى تأييد جمعية الدراسات ، وقررت الاسهام بخمسة آلاف فرنك في إجراء الأبحاث الخاصة

بالمشروع . واعتقدت أن مشروع القناة البحرية سيعود بالنفع الجزيل على فرنسا عامة وعلى مدينة ليون خاصة ، لأن مدينة ليون بموقعها الجغرافي في جنوبي فرنسا ستصبح ممرا للتجارة والمسافرين بين غرب أوروبا والهند . وحذت الغرفة التجارية في مارسيليا حذو زميلتها ، فأيدت جمعية الدراسات وقرنت تأييدها بالتبرع بمبلغ خمسة آلاف فرنك . وقد أرسل رئيس الغرفة خطابا بهذا المعنى إلى الاب آنفانتا وأبلغه أن وزير التجارة الفرنسي قد وافق على قرار الغرفة بالتبرع بذلك المبلغ .

وقد رحبت الحكومة النمساوية بتكوين جمعية الدراسات ، ولكنها نهجت نهج الحكومة الفرنسية فكفت عن أي تدخل رسميّ سافر . وقد أرسل مترنيخ في ٢٧ آذار/ مارس ١٨٤٧ إلى لوران قنصل النمسا العام في مصر يطلب منه تقديم كافة الخدمات التي يحتاج إليها أعضاء المجموعة النمساوية في جمعية الدراسات في أثناء وجودهم في مصر ، كما طلب منه أن يتصرف بكل حذر وتحفظ وأن يكف عن أي تدخل سافر أو الادلاء بتصريحات يظهر منها أن الحكومة النمساوية ضالعة في نشاط جميعة الدراسات . وكان مترنيخ لا يزال عند رأيه في أن القناة البحرية سوف تؤدي للاقتصاد النمساوي اجل الخدمات . وكان البارون دي كوبيك (De Kubeck) من الشخصيات النمساوية التي أيدت جمعية الدراسات قلبا وقالبا . ودارت مكاتبات بينه وبين مترنيخ كانت صدى لهذا التأييد . وكان هذا البارون يشغل وقت تأسيس الجمعية سنة ١٨٤٦ منصب رئيس البلاط النمساوي ثم عين في سنة ١٨٥٥ رئيسا لمجلس الشيوخ . ويقرر بعض الباحثين أن موافقة الحكومة النمساوية على تعيين المهندس نيجريللي في عضوية الجمعية وفي رئاسة المجموعة النمساوية كانت مظهرا للاهتمام العميق الذي كانت تبديه الامبراطورية النمساوية بمشروع قناة السويس ، فقد كان يشغل منصب مفتش عام السكك الحديدية النمساوية . وتمشيا مع سياسة الحذر والتظاهر بعدم التأييد السافر للجمعية اكتفت الحكومة النمساوية بأن باركت الترحيب العميق والتأييد الواسع الذي قوبل به تأسيس جمعية الدراسات ، إذ انضمت إليها بلدية تريست وشركة اللويد البحرية النمساوية . وتقاسمت ألمانيا والنمسا الاصوات العشرة المقررة للمجموعة النمساوية .

أما الحكومة البريطانية فلم تغير معارضتها لمشروع القناة ، إذ كانت تتوجس منه خيفة على مصالحها في الهند وعلى مركزها الدولي ، وكانت تريد الابقاء على الوضع القائم في مصر وقتذاك بخصوص إبقاء الطريق البري طريقا وحيدا للمواصلات

العملية عبر الأراضي المصرية مع تطوير هذا الطريق بإنشاء خط حديدي من الاسكندرية إلى القاهرة فالسويس . وانعكست معارضتها لمشروع القناة على موقفها من جمعية الدراسات . وتعاقبت المذكرات التي بعثت بها وزارة الخارجية البريطانية إلى موراي (Murray) قنصل بريطانيا في مصر منذ شباط/ فبراير ١٨٤٧ تطلب منه بذل مزيد من الضغط على والي محمد علي كي يرفض مشروع القناة ويؤيد مشروع الخط الحديدي ، كما طالبته بتوضيح أخطار المشروع الأول على مصر ومزايا المشروع الثاني للبلاد المصرية ، وتحريض الوالي على الوقوف في وجه جمعية الدراسات حتى لا تنجح في تحقيق أهدافها . ومما يذكر أن المهندس روبرت ستيفنسن قد تعرض لحملة تهكم وسخرية لاذعة من بعض الافراد الانكليز بسبب قبوله عضوية جمعية الدراسات . وكان على رأس هؤلاء الانكليز الضابط « واجورن » الذي كان يشرف على طريق السويس البري ، وقد أعرب له عن استيائه لاشتراك مهندس انكليزي إلى جانب مهندسين فرنسيين ونمساويين في دراسة مشروع القناة . ولما علمت انكلترا بالدراسات الميدانية التي تمارسها في مصر جمعية الدراسات ، بذلت مساعيها الدبلوماسية في الاستانة لاحباط مشروع القناة .

كانت الحكومة العثمانية تخشى أن يؤدي حفر القناة إلى ضياع بعض الولايات العثمانية منها وبخاصة الممتلكات الواقعة في منطقة البحر الأحمر . وخشيت أيضا زيادة ثروة مصر مما يشجع ولاة مصر من أسرة محمد علي باشا على خوض جولة جديدة ضد الدولة العثمانية ابتغاء الاستقلال التام .

ولذلك كانت الدولة تشترط مرابطة قوات عثمانية في منطقة القناة وعند مدخليها على البحرين المتوسط والأحمر ، كما طالبت بعدم استخدام الاجانب في تنفيذ المشروع ، وأن تؤول إليها إيرادات القناة ، وعلى ذلك ، فقد كان موقف الحكومة العثمانية هو موقف تخوف وتحفظ وحرص على الاستفادة ماليا من القناة .

أما الحكومة المصرية فقد كانت تعتقد اعتقادا راسخا أن مشروع القناة لن يدخل في مرحلة التنفيذ العملي في ذلك الوقت بسبب حدة التنافس الدولي بين فرنسا وانكلترا وعنف التيارات الدولية المتضاربة التي تحف بالمشروع من يمين ويسار . واعتقد محمد علي أن جمعية دراسات قناة السويس إنما هي محاولة من المحاولات المكررة التي

بذلتها السياسة الدولية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ابتغاء تنفيذ مشروع القناة .

وخرج محمد علي من تقديره للموقف الدولي بأنه ليست هناك بادرة أمل ترتجى من جمعية الدراسات في تحقيق أهدافها ، ولكنه آثر أن يسمح للبعثات الفنية التي قررت الجمعية إيفادها إلى مصر لاجراء دراسات ميدانية بأن تمارس نشاطهاوأن يقدم لها المساعدات . وكان رائده من هذه السياسة ارضاء الرأي العام في فرنسا والنمسا وغيرهما من الدول المؤيدة للمشروع وحرصه على عدم إظهار نفسه بمظهر الحاكم الرجعي الذي يعرقل تنفيذ مشروع حضاري عظيم .

عين محمد سعيد واليا على مصر في تموز (يوليو) ١٨٥٤ عقب مصرع ابن أخيه عباس الأول . وفور علم صديقه الفرنسي فرديناند دي ليسبس بذلك أرسل برقية يهنئه فيها بتوليه الحكم ويطلب إليه تحديد موعد يحضر فيه من فرنسا للمباركة شخصيا . فقد كانت تربطه بمحمد سعيد صلة صداقة وثيقة ترجع إلى أكثر من عشرين سنة خلت حين قدم دي ليسبس إلى مصر في سنة ١٨٣٢ منقولا إليها من تونس في وظيفة نائب قنصل ، وامتدت إقامته في مصر سنين عديدة ، ثم أخذ ينتقل في مناصب السلكين القنصلي والدبلوماسي حتى انتهى به المطاف وزيرا مفوضا لفرنسا في روما سنة ١٨٤٨ ، وهناك نسبت إليه أمور أحيل على أثرها إلى الاستيداع في سنة ١٨٤٩ ، فلجأ إلى السيدة دي لا مال (De La Malle) والدة زوجته ، وكانت لها ضيعة في الريف الفرنسي أشرف على استغلالها . وبينما كان يعيش هذه الحياة الهادئة الرتيبة جاءته الأنباء بتولي محمد سعيد حكم مصر فأسرع بالكتابة إليه مهنئا على النحو الذي سبقت الاشارة إليه ، وجاءه الرد من محمد سعيد بأن يحضر في مستهل شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ عقب عودة الوالي من الاستانة بعد الزيارة التقليدية التي يقوم بها لسلطان الدولة العثمانية صاحب السيادة على مصر . ويلاحظ أن دي ليسبس تجنب أن يشير في خطابه إلى مشروع القناة ، إذ كان مطمحه أن يتلقى الدعوة من الوالي لزيارته في مصر .

كانت هذه الصداقة الوثيقة بين الرجلين واحدة من الحلقتين اللتين ربطتا بين دي ليسبس ومشروع القناة . أما الحلقة الثانية ، فهي صلته المبكرة بالمشروع ، وكانت صدى لعدة مؤتمرات(٢٥) .

ولما نضجت الفكرة في ذهن دي ليسبس ، خطا خطوة عملية في سبيل تحقيق مشروع القناة ، فوضع مذكرة عن مشروعه ، وبعث بها سنة ١٨٥٢ إلى صديقه رويسنايدرز (Ruyssenders) قنصل هولندا العام في مصر ، وطلب إليه أن يعرضها على عباس الأول والي مصر ، ويبين له مزايا المشروع ، حتى إذا آنس منه قبولا ، سارع إلى السفر إلى مصر لاتخاذ الخطوات اللازمة للسير بالمشروع إلى نهايته . ولكن عباسا لم يلق بالا للمشروع الذي كان يناهض مشروع الخط الحديدي من الاسكندرية إلى القاهرة ، الذي بدا تنفيذه في أواخر عام ١٨٥١ ، وكان مقررا أن يمد فيها بعد إلى السويس . فتلقى دي ليسبس ردا من رويسنايدرز بأنه ليس هناك أمل في حمل عباس على قبول مشروع القناة ، وأشار عليه أن يتريث قليلا حتى تتاح له ظروف مواتية .

إزاء هذا الرفض ، اتجه دي ليسبس بمساعيه نحو الاستانة ، واستعان بصديق له من رجال الاعمال هو بنوا فولد (Benoit Fould) كان يعتزم السفر إليها ليعرض على الباب العالي مشروع إنشاء بنك عقاري في العاصمة ، فعهد إليه دي ليسبس أن يعرض كذلك مشروع القناة ، إلا أن حظ (Benoit) في الاستانة لم يكن بأحسن من حظ رويسنايدرز في القاهرة ، إذ رفض الباب العالي المشروع فعكف دي ليسبس منتظراً إلى أن أتته فرصة ذهبية باعتلاء محمد سعيد ولاية مصر .

بلغ دي ليسبس الاسكندرية في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ وكان في استقباله حافظ باشا ناظر البحرية المصرية ورويسنايدرز قنصل هولندا العام في مصر ، وأكرم الوالي وفادته ، وأقام ضيفا مكرما في قصر أفرده له محمد سعيد على ضفاف ترعة المحمودية في ضاحية محرم بك ، وتعددت المقابلات بين الصديقين الحميمين ، تارة في قصر رأس التين وتارة في قصر القباري . ودارت الأحاديث بينهما وكانت ودية للغاية . وكان دي ليسبس يلتزم الصمت حيال موضوع القناة وآثر انتظار فرصة مواتية للتكلم عن المشروع . وكان محمد سعيد يتأهب للسفر إلى القاهرة بالطريق الصحراوي فدعا صديقه دي ليسبس لمرافقته في رحلته عبر الصحراء إلى القاهرة .

وفي اليوم الرابع من بدء الرحلة ـ أي في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ والركب لا يزال في جوف الصحراء ، عرض دي ليسبس على صديقه الوالي محمد سعيد مشروع حفر قناة السويس وزينه له في قلبه ، وتحاشى أن يخوض في تفاصيل

المشروع ، واكتفى بإبراز المزايا البراقة لهذا المشروع . فنال موافقته في نفس الجلسة إذ قال له الوالي :

« إنني مقتنع بمشروعك ، وسوف نبحث وسائل تنفيذه فيما تبقى من أيام الرحلة . ويمكنك أن تعتبر المسألة مُنتهية ، وتستطيع أن تعتمد علي ». وطلب منه أن يقدم له مذكرة في هذا الموضوع ، فقدمها له في نفس اليوم .

وفي صباح ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) أقيم حفل كبير في مصر ، حضره أعضاء السلك القنصلي في القاهرة ، وكبار موظفي الحكومة والاعيان لتقديم التهاني إلى الوالي محمد سعيد على تثبيت السلطان إياه في منصبه واليا على مصر وسلامة وصوله إلى العاصمة المصرية . وبعد أن تقبل التهاني أعلن الوالي رسميا أمام هذا الحشد أنه قد صحت عزيمته على تنفيذ مشروع القناة ، وأنه عهد إلى دي ليسبس بتكوين شركة تتولى حفر القناة واستغلالها ، وأن يسهم في تأسيس الشركة أصحاب رؤ وس أموال ينتمون إلى جميع الدول . ثم التفت الوالي إلى دي ليسبس قائلا : هذه هي الخطة . أليس كذلك ؟ فأضاف دي ليسبس مزيدا من التفصيلات على الأسس التي يقوم عليها المشروع ، وأكد للحاضرين أن جميع الدول ستدعى إلى الاشتراك فيه .

وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ ، أصدر محمد سعيد عقد امتياز لتأسيس شركة تتولى حفر واستغلال قناة السويس البحرية . ويطلق عليه العقد الأول تمييزا له عن عقد الامتياز الثاني الذي صدر بعد ذلك في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٦ . ويقع عقد الامتياز الأول في اثنتي عشرة مادة ، وقد نصت هذه المواد على ما يلي :

١ ـ تأسيس الشركة العالمية لقناة السويس البحرية .

٢ ـ يعين مدير الشركة دائما بمعرفة الحكومة المصرية ويكون اختياره بقدر المستطاع من بين المساهمين الذين لهم أكبر نصيب فيها .

٣ ـ مدة امتياز الشركة ٩٩ سنة تبدأ من تاريخ افتتاح القناة .

٤ ـ يتم تنفيذ الأعمال على نفقة الشركة وحدها ، وتمنح بدون مقابل جميع ما يلزمها من الاراضي التي ليست ملكا للافراد . أما التحصينات العسكرية التي ترى الحكومة المصرية إقامتها في منطقة القناة ، فلا تكون على نفقة الشركة .

٥ ـ تتقاضى الحكومة المصرية ١٥ ٪ من صافي أرباح الشركة .

٦ ـ يجبي مندوبو الشركة بالاتفاق مع والي مصر تعريفة رسوم مرور السفن في القناة ، وتكون هذه التعريفة متساوية دائما لجميع الدول .

٧ ـ هذه المادة وثيقة الصلة بالمادة الرابعة وكلتاهما تتصلان بموضوع الاراضي الشاسعة التي تقرر منحها للشركة .

٨ ـ تخويل الشركة في أن تبيع مياه النيل للفلاحين .

٩ ـ يحق للشركة أن تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة في الاملاك العامة جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمباني التابعة لها مع اعفائها من الرسوم ، كما أنها تتمتع بحق الاعفاء الجمركي على جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج لاستغلال امتيازها .

١٠ ـ عند انتهاء الامتياز (٩٩ سنة) تحل الحكومة المصرية محل الشركة وتنتفع بكافة حقوقها دون تحفظ وتستولي على القناة البحرية وجميع المنشآت التابعة لها ، ويحدد مقدار التعويض الذي يمنح للشركة في مقابل تنازلها عن المهمات والاشياء المنقولة باتفاق ودي أو بطريق التحكيم .

١١ ـ يقوم مدير الشركة بعرض قانون نظام الشركة على والي مصر ويجب أن يحوز موافقته ، ولا بد من موافقة الوالي على أي تعديل قد يدخل على نظام الشركة مستقبلا .

١٢ ـ تضمنت هذه المادة وعدا من الوالي بأن يقدم هو وجميع رجال حكومته كل مساعدة إلى الشركة من أجل تسهيل العمل بهذا الترخيص واستغلاله .

وإذا نظرنا نظرة عابرة لهذا الامتياز ، يتبين لنا أنه انطوى على امتيازات عظيمة ظفرت بها الشركة . ويؤكد البعض أن سعيداً قد مهر هذا العقد بخاتمه دون أن يقوم أحد من الخبراء القانونيين أو الماليين في الحكومة المصرية بدراسة مواد هذا العقد ، بل يقرر فريق آخر من الباحثين أن هذا العقد كان من وضع وصياغة دي ليسبس نفسه .

أما مكاسب مصر من عقد الامتياز يمكن حصرها بما يلي :

ـ تقرير حق الحكومة المصرية في اقامة تحصينات عسكرية على نفقتها الخاصة في منطقة القناة .

ـ تقرير نسبة مئوية من صافي أرباح الشركة تؤول الى الحكومة المصرية سنوياً . ويصرف النظر عما يثيره البعض من أن الـ ١٥٪ نسبة ضئيلة ، فانها كانت تشكل ايراداً ضخماً للحكومة لو بقي هذا الحق في حوزة مصر .

ـ احتفظ هذا العقد بحق الحكومة المصرية في شراء عدد من أسهم الشركة لم يحدد ، وذلك عند طرح الأسهم للاكتتاب العام ، فإن ملكية الحكومة المصرية لعدد من الأسهم يتيح لها مزيداً من التأثير على الشركة في الاجتماعات العامة لحملة الاسهم ، واعفاء الحكومة المصرية من أي ضمان من جانبها تقدمه لتنفيذ مشروع القناة أو لقيام الشركة بمهمتها .

ـ تقرير حق الحكومة في تعيين مدير الشركة وفي اقرار قانون الشركة واعتماد قائمة اسماء الاعضاء المؤسسين واقرار أي تعديل ترى الشركة ادخاله على قانونها مستقبلاً .

ـ حلول الحكومة المصرية محل الشركة عند انتهاء أجل الامتياز (٩٩ سنة) ، والنص على أنها تنفع بكافة حقوق الشركة دون تحفظ ، وعلى أن تستولي على القناة البحرية وجميع المنشآت التابعة لها وعلى أن يكون التعويض الذي تدفعه الحكومة للشركة مقابل تنازلها عن مهماتها وأدواتها المنقولة[٢٦] .

أما بشأن الأراضي التي منحت للشركة بدون مقابل بمقتضى عقد الامتياز فيلاحظ أنها تمثل خطراً شديداً على كيان البلاد ومستقبلها السياسي . ولكي تتوضح أبعاد هذا الخطر نذكر أولاً أن هذه الأراضي كانت تشكل ثلاث مجموعات هي :

١ ـ الأراضي الممنوحة للشركة لانشاء قناة السويس البحرية وما يتبعها من مبان لادارتها وصيانتها واستغلالها .

٢ ـ الأراضي الممنوحة لانشاء ترعة الماء العذب التي تخرج من النيل واقامة مؤسساتها .

٣ ـ الأراضي الممنوحة بقصد الاستغلال الزراعي والامتيازات التي تقررت لها

مثل الاعفاء الضريبي على الأراضي وتخويل الشركة الحق في بيع ماء النيل للفلاحين إذا رغبوا في ري اراضيهم . ولا بد أنهم كانوا سيرغبون في ذلك ، وإلا أصبحت أراضيهم غير ذات زرع ، وما إلى ذلك من امتيازات وضمانات .

وكان مكمن الخطورة أن هذه المساحات الشاسعة من الأراضي كانت ستتحول حتماً بمضي الوقت الى مستعمرات فرنسية داخل الاقليم المصري ولا تخضع لسلطة الحكومة المصرية . ويقيم في هذه المستعمرات فرنسيون وتزدحم بأفواج كثيفة العدد من الاجانب المتعطلين والمنحرفين ومن اليهم .

وعند الانتهاء من توقيع هذا الاتفاق ، بعث دي ليسبس خطابا الى ساباتية قنصل فرنسا العام ارفقه بصورة من عقد الامتياز ، وطلب اليه أن يرفع هذه الصورة الى الحكومة الفرنسية ، وأن يبلغها أن دي ليسبس عند وصوله إلى باريس سيعرض شخصياً على نابليون الثالث[٢٧] امبراطور فرنسا وسائل تنفيذ المشروع ونتائجه . ويدل ارسال هذا الخطاب على أن دي ليسبس قد أدرك منذ الساعات الأولى أن الجهة التي يلتمس منها العون والتأييد هي فرنسا وامبراطورها بوجه خاص .

نشطت اتصالات قناصل الدول في مصر بحكوماتهم عقب صدور عقد الامتياز ، فأرسل دي هوبر (de huber) قنصل النمسا العام في مصر رسالة مؤرخة في ٢ كانون الأول (دسمبر) ١٨٥٤ إلى كونت بول (C.Buol) وزير الخارجية النمسوية يبلغه بالوضع الجديد الذي أخذه مشروع القناة ، وأوضح له أن دي ليسبس يضفي على المشروع صفة عالمية تجنبا لمعارضة انكلترا ، وأن محمد سعيد باشا يعتزم بذل مساع سياسية من أجل الحصول على موافقة السلطان على المشروع ، وأنه يعلق آمالاً كباراً على تأييد ممثل النمسا في الآستانة بهذا الصدد .

أما فريدريك بروس قنصل انكلترا العام في مصر ، فقد وقف موقفاً عدائياً وصريحاً من المشروع منذ أن أصدر الوالي عقد الامتياز الأول . واشتد ضغطه على الوالي من ناحية ، وتتابعت مكاتباته الى لورد كلارندون (L.Clarendon) وزير خارجية انكلترا من ناحية ثانية . وأخذ يحذر الوالي محمد سعيد من المضي في تنفيذ المشروع ، ويصور له أخطاره على مصر . ومن ثم اخذ أيضاً يزين للوالي فوائد الخط الحديدي كبديل لمشروع القناة ، واقترح عليه مد الخط الحديدي من القاهرة الى السويس استكمالاً للاتصال بين البحرين المتوسط والأحمر .

على صعيد جمعية دراسات قناة السويس فقد سارع دي ليسبس في نفس اليوم الذي صدر فيه عقد الامتياز الأول ، بارسال مذكرة الى أرلس ديفور (Arles Dufour) أحد الأعضاء البارزين في الجمعية يزف اليه بشرى النجاح الذي حققه ، وأرفق بالمذكرة صورة من مذكرة ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ التي قدمها الى الوالي وصورة من عقد الامتياز الصادر في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ ، ونصح بأن يقوم Arles بالاتصالات والاجراءات التي يراها مناسبة ، وفي مقدمتها مقابلة الامبراطور نابليون الثالث والاتفاق مع البارون دي روتشيلد وغيره من رجال المال .

وقد وصلت هذه المذكرة في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٤ الى Arles فأبلغها الى سائر اعضاء جمعية الدراسات ، فعمتهم الغبطة لهذا النجاح الخاطف الذي أحرزه دي ليسبس ولما ذهبت عنهم فرحة المفاجأة تدارس الاعضاء النمساويون والألمان الموقف دراسة هادئة وخلصوا إلى أن عقد الامتياز جاء حافلاً بالامتيازات للشركة ، ولكنهم أخذوا على هذا العقد أنه قد صدر لشخص فرنسي بدلاً من أن يصدر لهيئة ذات طابع دولي مثل جمعية دراسات قناة السويس ، الأمر الذي يجعل المشروع يبدو كأنه مشروع فرنسي ، مما يجعل الحكومة الانكليزية تزداد عنفاً في معارضتها له . واقترحوا علاجاً لهذا الموقف تحويل عقد الامتياز الى جمعية دراسات قناة السويس بدلاً من دي ليسبس في مقابل دفع مبلغ ضخم لدى ليسبس ، وعرضوا عليه الفكرة فرفضها في أيار (مايو) ١٨٥٥ رفضاً باتاً بعد أن تكشفت له أبعاد الموقف ، وأدرك أن في استطاعته المضي قدماً بمفرده في تنفيذ المشروع واقصاء جمعية الدراسات عنه والانفراد به . وأخذت مظاهر الانشقاق بين دي ليسبس والسان سيمونيان من أعضاء الجمعية تزداد وضوحاً في الأفق السياسي وتترك بصماتها على موقف الحكومة النمساوية من المشروع .

كان صدور عقد الامتياز في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ نذيراً بحدوث هزات عنيفة في العلاقات الدولية وبخاصة بين انكلترا وفرنسا ، إذ كانت الأولى تعارض مشروع قناة السويس معارضة محمومة ، بينما كانت الثانية تؤيده تأييداً ساخناً . ووقفت النمسا واسبانيا وهولندا الى جانب فرنسا ، وتأرجح الباب العالي في موقفه خشية اغضاب احدى الدولتين البحريتين الكبيرتين على حساب الأخرى . وظل محمد سعيد باشا والي مصر يواكب السياسة الفرنسية ويختص مشروع القناة ويعلق

آمالاً كباراً على مساعدة فرنسا له في موقفه من المشروع في مقابل تحقيق مصالح عائلية له . ولقد كان من النتائج الاولى لصدور عقد الامتياز تعميق الانقسام في الرأي تجاه مشروع القناة بين انكلترا وفرنسا ، وأدى هذا الانقسام الى صراع دبلوماسي كان مظهراً للتنافس الاستعماري الذي طغى على العلاقات الدولية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين .

بلغ دي ليسبس الأستانة في ١٠ شباط (فبراير) ١٨٥٥ يحمل خطابات توصية من سعيد باشا الى مصطفى رشيد باشا الصدر الأعظم والى يوسف كامل باشا رئيس المجلس الأعلى للاحكام العدلية ، وقد طلب سعيد باشا الى الصدر الأعظم أن يساعد دي ليسبس في الظفر بموافقة السلطان على مشروع القناة ، لأن سعيد كان يعتبره مشروعاً خيرياً له منافع كثيرة بالنسبة لمصر وسلبياً من الأضرار سواء أكان ذلك في الحاضر أم في المستقبل . ولكن دي ليسبس اصطدم في الاستانة بمعارضة قوية لمشروع القناة من السفارة البريطانية في الأستانة ، إذ كان على رأسها دبلوماسي خطير هو السفير سير ستراتفورد دي رد كليف (Sir Strattord de red Cliffe) وكان منصب السفير البريطاني في الأستانة وقتذاك من المناصب الرئيسية في وزارة الخارجية البريطانية حيث تختار له اقدر الدبلوماسيين . وكان هذا السفير يتمتع منذ سنة ١٨٤٢ بنفوذ شخصي لا مثيل له في تاريخ السفارات ، وتعمل له دوائر القصر السلطاني والباب العالي حساباً كبيراً ، حتى كان يلقب باسم السلطان ستراتفورد . وكان التزام السفير البريطاني في الأستانة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها . وقد كان لتدخله الأثر الأكبر في انضمام انكلترا وفرنسا الى الدولة العثمانية في حرب القرم لصد الزحف الروسي على الأراضي العثمانية .

رأى السفير البريطاني في مشروع دي ليسبس نقضاً للسياسة البريطانية في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط(٢٨) وتهديداً خطيراً للممتلكات البريطانية فيما وراء البحار . فعارض المشروع وطلب من الصدر الاعظم عدم اصدار تصديق السلطان على عقد الامتياز ، وقد اتخذ السفير هذا الموقف ولم يكن قد تلقى تعليمات رسمية من حكومته في هذا الصدد .

دارت اتصالات دبلوماسية في باريس للتخفيف من حدة الصراع الدبلوماسي بين فرنسا وانكلترا حول مشروع القناة ، وحاولت الحكومة البريطانية أن تظهر

للحكومة الفرنسية أن معارضتها لهذا المشروع لا تنبثق عن روح عدائية لفرنسا . وفي حديث دار في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٥ بين دريون دي لويس (Drouyn de louis) وزير الخارجية الفرنسية وبين لورد كولي (L.Cowley) السفير البريطاني في باريس صرح الأخير بقوله ان حكومته لا تنوي أن تجعل معارضتها لمشروع القناة تتجاوز حدود اللياقة ، وانها في هذه المعارضة ليست مدفوعة بروح معادية لمصالح فرنسا . ورد وزير الخارجية الفرنسية فقال انه ليست لدى الحكومة الفرنسية مآرب سياسية في مشروع القناة ، وانها تنظر اليه على أنه مسألة خاصة ، فإن دي ليسبس قد ذهب إلى مصر بصفته الشخصية واتصل بالوالي محمد سعيد باشا وحصل منه على عقد الامتياز دون أن يكون للحكومة الفرنسية دخل في هذه الاتصالات من قريب أو من بعيد .

وكان من الطبيعي ألا تأخذ لندن بهذا الاقتراح الفرنسي لأنها كانت تدرك تماماً أن محمد سعيد باشا يغمره حماس دافق فتنفيذ المشروع ، وإذا ترك هذا الوالي وشأنه أصبح حفر القناة أمراً وشيكاً . ولهذا اعتمدت الحكومة الانكليزية رأياً آخر في أسلوب العمل الدبلوماسي . فقد رأت أن تركز في الآستانة معارضتها لمشروع القناة بدلاً من أن تلقي بثقلها في القاهرة أو في باريس . واستندت في هذا الرأي إلى حقيقة استقتها من عقد الامتياز الذي يحمله دي ليسبس . كان لا بد من الحصول على تصديق السلطان على هذا العقد قبل البدء في حفر القناة ، ولن يصدر هذا التصديق إلا في الآستانة . وكان هذا هو المنفذ الذي تسلك منه الدبلوماسية البريطانية فتمارس ضغطها على الباب العالي حتى يرفض أو على الأقل يمتنع عن اصدار التصديق المطلوب كوسيلة فعالة لوأد المشروع .

رأينا مما سبق ، أن مشروع قناة السويس كان عملية تجارية مغرية لمصر ، وهو ما يفسر حماس الوالي محمد سعيد ثم الوالي اسماعيل من بعده للمشروع . وإنما جاءت الكوارث من ضعف مصر السياسي ومن تبعيتها للباب العالي ، ومن دسائس انكلترا وتخطيطها لاحتلال مصر ولاضعافها ريثما يتم ذلك الاحتلال ومن قلة خبرة الحكام وتمرس مصر في طبيعة الاستثمار الرأسمالي ، فهي لم تألف حتى عصر محمد علي إلا نوعاً واحداً من الاستثمار هو الاستثمار الزراعي . أما نظام الاحتكار الذي اقام عليه محمد علي نظامه الصناعي والتجاري ، فقد كان أشبه شيء بقطاع عام اختلط فيه

البناء بالعنف ، حيث لم يكن هناك سبيل لقياس حساب الأرباح والخسائر ، أكانت من العنف أم من البناء .

وهكذا دفعت انكلترا تركيا الى الامتناع عن التصديق على فرمانات سعيد الخاصة بمشروع قناة السويس ، وقامت بحملة تشكيك دولية في الأسواق المالية للتشكيك في سلامة المشروع وايهام المولين بأنه مشروع خيالي . ورغم كل هذه الصعاب، مضى سعيد ردي ليسبس قدماً لتحقيق مشروع القناة . وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر)١٨٥٨ عرض ودي ليسبس أسهم شركة قناة السويس للاكتتاب العام في فرنسا وخارجها ، فأقبل الناس على شرائها ونجح الاكتتاب نجاحاً عظيماً فى فرنسا وحدها فبيعت اكثر الأسهم المطروحة في أقل من شهر ، وتألفت الشركة في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٨ وكان رأسمالها التأسيسي مكوناً من ٤٠٠,٠٠٠ سهم مجموع قيمتها ٨ ملايين جنيه استرليني بواقع ٢٠ جنيهاً استرلينياً للسهم (بالفرنكات ٢٠٠ مليون فرنك بواقع ٥٠٠ فرنك للسهم الواحد) . وقد اكتتب سعيد باشا لمصر بعدد ١٧٧,٦٤٢ سهماً دفع جزءاً من ثمنها وقسط الباقي على سنوات(٢٩) . وكان نصيب الفرنسيين من الأسهم ٢٠٧,٠٠٠ سهم (٥٢٪ من مجموع رأس المال) .

اتيحت لدي ليسبس فرصة لقاء السفير البريطاني في أثناء مأدبة عشاء أقيمت في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٥٥ في دار السفارة البريطانية ، وكان دي ليسبس مدعواً اليها وانتحى بمضيفه جانباً وفاتحة في موضوع القناة . وأظهر السفير البريطاني رحابة صدر أمام ضيفه واستمع اليه ملياً ، وقال اسفير انه يود أن يقف على مزيد من التفصيلات عن الموضوع على الرغم من أن رأيه لم يتغير بصدده لأن تنفيذ مثل هذا المشروع يتسغرق وقتاً طويلاً جداً ، كما أن حالة الحرب القائمة بين الدولة العثمانية وانكلترا وفرنسا من جهة ، وبين روسيا من جهة أخرى ، لا تسمح اطلاقاً ببحث هذا المشروع . فأكد دي ليسبس أنه يؤمن ايماناً عميقاً بأنه سوف يتم حفر القناة خلال السنوات القليلة التالية ، وأنه من العبث الاصرار على معارضة مشروع له مزايا عديدة ويجد تأييداً قوياً في انحاء العالم .

ولم يقتنع دي ليسبس بهذا الحديث ، فأرسل في ٢٦ شباط (فبراير) ١٨٥٥ مذكرة إلى السفير البريطاني أرفق بها صوراً من الوثائق الخاصة بموضوع القناة ، وأبدى أمله في ألّا يصادف المشروع تلك المعارضة التي لقيها حتى الأن ، وبخاصة أن محمد

سعيد باشا والي مصر قد ذكر له في رسالة بتاريخ ١٧ شباط (فبراير) ١٨٥٥ أنه حتى هذا التاريخ لم يتقدم قنصل بريطانيا العام في مصر بأي اعتراض باسم حكومته على مشروع القناة . ومضى دي ليسبس يقول في مذكرته « ولا شك أنكم تقدرون أهمية الارتباط الوثيق بين بلدينا ذلك الارتباط الذي يشرفني أن أكون أحد أنصاره المخلصين . . . كما أن سيادتكم لا تحبون أن يقال ان انكلترا - التي أعلنت أنها لم تخض الحرب ضد روسيا إلا من أجل الحضارة وحرية البحار واستقلال أوروبا والمحافظة على كيان الدولة العثمانية وهيبتها - تأتي لتحمل بمفردها لواء المعارضة لمشروع يستهدف قبل كل شيء تحقيق هذه المبادىء » .

وأرسل دي ليسبس مذكرة جديدة مؤرخة في ٢٨ شباط (فبراير) ١٨٥٥ إلى السفير البريطاني ، وقد ساق فيها حججاً جديدة ابتغاء زحزحة السفير عن موقف المعارضة لمشروع القناة . وكانت هذه الحجج سياسية بحتة زعم دي ليسبس أن حفر القناة سيضع نهاية للتنافس الاستعماري بين انكلترا وفرنسا على امتلاك مصر ، ويؤدي إلى دعم العلاقات الودية بين الدولتين الكبيرتين من أجل السلام والحضارة .

استغل دي ليسبس الحالة النفسية الثائرة التي سيطرت على سعيد باشا فدفعه إلى الموافقة على قرارات عملية تمهيدية تقربه من مرحلة تنفيذ المشروع . وقد زين دي ليسبس هذه القرارات لصديقه محمد سعيد ووصفها له بأنها « الأعمال الأولية التي يجب أن تساعد على نجاح مشروعك الكبير » . ولا جدال في أن دي ليسبس كان انتهازياً ، وقد برزت فيه هذه النزعة الانتهازية بروزاً واضحاً في شتى مراحل تاريخ القناة التي عاصرها . واجتمعت في دي ليسبس الى جانب هذه الانتهازية عقلية متفتحة وذكاء لماح وتجارب عميقة واسعة . ومن هذه العناصر تكونت شخصيته وكانت ذات تأثير قوي على محمد سعيد باشا .

وصادف عند وصول دي ليسبس إلى باريس أن طرأ تعديل جوهري على أسلوب العمل الدبلوماسي للحكومة الانكليزية . وقد سبق أن رأينا أن هذه الحكومة كانت قد اكتفت بالمعارضة غير الرسمية التي حمل لواءها لورد ستراتفورد دي ردكليف سفيرها في الآستانة ، وأحجمت عن ارسال تعليمات رسمية تحدد موقفها المعارض لمشروع القناة على الرغم من الحاح السفير البريطاني في طلب هذه التعليمات كي يواجه بها رجال الباب العالي . ولما حدث التغيير الوزاري في الآستانة تشجع بنديتي القائم بأعمال

السفارة الفرنسية وطالب الباب العالي باصدار موافقة السلطان على عقد الامتياز ، واستند الى أن الحكومة الانكليزية قد سحبت معارضتها لمشروع القناة ، وهو قول اثبتت الأحداث أنه زعم باطل ، كما استند الى أن محمد سعيد باشا قد استجاب لرغبة الباب العالي فأرسل مذكرة تتضمن الايضاحات التي طلبها . وقد خشي السفير البريطاني ازاء تطور الأحداث في الأستانة أن يضعف رجال الباب العالي أمام الضغط الفرنسي ويعملوا على استصدار تصديق السلطان . ورأت الحكومة الانكليزية أن تطور وسائلها في معارضة المشروع وذلك باجراء مباحثات في باريس أو في لندن مع الحكومة الفرنسية ، فنقل لورد كاولي (Cowley) السفير البريطاني في باريس وجهة نظر حكومته شفوياً الى كونت ولوسكي (Wlosky) وزير خارجية فرنسا ، فقال ان الحكومة الانكليزية لديها اعتراضات على مشروع القناة ، وهذه الاعتراضات لها من قوة الحجة ما تتضاءل أمامها أية اسانيد تسوقها حكومة دولة أخرى تؤيد المشروع ، والحكومة الانكليزية تعتقد اعتقاداً راسخاً أن حفر القناة أمر في حكم الاستحالة. وخلص السفير من قوله الى مناشدة الحكومة الفرنسية ألا تعمل ـ بتأييد المشروع ـ على هدم صرح التفاهم القائم بين حكومة باريس ولندن . وأجاب الكونت ولوسكي وزير الخارجية الفرنسية بأن بلاده تنظر الى القناة على أنها مشروع مفيد وممكن تنفيذه ومرغوب فيه ، ولكنها رغبة منها في ارضاء الحكومة الانكليزية فإن الحكومة الفرنسية تقترح أن يمتنع ممثلو الدولتين في الأستانة عن التدخل لدى الباب العالي سواء لتأييد المشروع أو الاعتراض عليه ، وأن تترك الحكومتان البت في هذا المشروع للسلطان أو الوالي أو كلاهما . وتحت تأثير نفوذ فرنسي على أي نحو من الانحاء فوجئت لندن بصدور تصديق السلطان على عقد الامتياز والشروع في حفر القناة . كما وأن المرور عبر الأراضي المصرية أمر يهم انكلترا اكثر مما يهم فرنسا .

وأخيراً رأت الحكومة الانكليزية أن تحدد موقفها بصفة رسمية من مشروع قناة السويس ، فوضع لورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا مذكرة مؤرخة في ١٨ حزيران (يونيو) ١٨٥٥ وأرسلها الى لورد كولي السفير البريطاني في باريس فقدمها الى الحكومة الفرنسية . وقد استعرضت المذكرة الأسانيد التي تعتمد عليها الحكومة الانكليزية في معارضتها للمشروع وكانت ثلاثة أسانيد :

أولاً : استحالة حفر القناة في منطقة برزخ السويس بسبب الظروف الطبيعية في

هذه المنطقة ، وإذا أمكن شق القناة فإن تكاليف حفرها ستكون باهظة بحيث لا تجعل منها مشروعاً تجارياً مربحاً .

ثانياً : إن تنفيذ المشروع يستغرق وقتاً طويلاً يؤدي إلى تأخير أو تعطيل أو ايقاف الخط الحديدي من الاسكندرية الى القاهرة فالسويس ، وهو أمر يضر بالمصالح البريطانية .

ثالثاً : إن مشروع القناة مشروع فرنسي يقوم على عداء سياسي لانكلترا وهو يرمي إلى فصل مصر عن تركيا وصولاً الى بسط السيطرة الفرنسية على هذه الولاية العثمانية الهامة وقطع طريق الاتصال السهل والسريع بين انكلترا والهند .

عندما اغلقت جميع الأبواب أمام دي ليسبس ، غادر باريس سريعاً إلى لندن في صيف ١٨٥٥ يحدوه أمل كبير في نجاح خاطف يظفر به في اقناع رئيس الوزراء ووزير الخارجية وغيرهما من رجالات انكلترا بالفوائد المحققة التي تجنيها بلادهم من حفر قناة السويس . ونجح في مقابلة لورد بالمرستون (L.Palmerston) رئيس وزراء انكلترا ، وكان من غلاة الاستعمار البريطاني ، وخشي أن يؤدي حفر القناة الى حدوث انقلاب في المواصلات العالمية البحرية تفقد معه انكلترا تفوقها البحري والحربي في البحار والمحيطات . ويقول دي ليسبس عنه انه كان وزيراً للحربية البريطانية أيام حروب نابليون الأول . وعلى الرغم من مضي قرابة نصف قرن فإنه كان لا يزال يعيش بنفس العقلية ويشعر بعدم الاطمئنان الى فرنسا وإلى نواياها . وقد أخفق دي ليسبس في أن يزحزحه عن موقفه المناوىء للمشروع .

وكما فشل دي ليسبس مع رئيس الوزارة البريطانية أخفق أيضاً مع لورد كلارندون وزير الخارجية الذي ساق له نفس الحجج ، ووضع أمام دي ليسبس هذا السؤال!إذا كانت انكلترا ستكون أكثر الدول افادة من قناة السويس كما يقرر دي ليسبس ، فلماذا يلح هذا الالحاح على تنفيذ المشروع طالما كانت انكلترا زاهدة في تنفيذه ؟ وخرج وزير الخارجية من سؤاله إلى أن هناك هدفاً سياسياً يكمن وراء الغيرة المحمومة التي تبديها فرنسا نحو المشروع . وأكد الوزير أن حفر القناة أمر يتعارض مع مصلحة الدولة العثمانية ومصلحة انكلترا . وأتيح لدي ليسبس اثناء اقامته في انكلترا أن يقابل أيضاً عدداً كبيراً من الشخصيات الانكليزية ولكن دون جدوى .

وفي ٢٥ نيسان (ابريـل) ١٨٥٩ بدأ العمـل في حفر القنـاة ، وفي احتفال كبـير ضرب دي ليسبس أول معول في أرض القناة من ناحية بور سعيد . فثارت ثائرة الانكليز وسعت انكلترا لدى البـاب العالي للتـدخل لـوقف العمل . كـما سعت لحمل سلطان تركيا على خلع الوالي محمد سعيد ، ورابط الأسطول الانكليزي في مينـاء الاسكندريـة في حزيران (يونيو) ١٨٥٩ . وكانت فرنسا وقتئذ مشغولة بحربها مع ايطاليا والنمسا ، فخـاف محمد سعيـد من العواقب وكلف وزيـر خارجيتـه شـريف بـاشـا أن يكتب إلى دي ليسبس بايقاف العمل . ولكن فرنسا بعد خروجها منتصرة من الحرب بصلح فيللا فـرانكا (Villa Franca) عـادت لتأييـد المشروع ، وبعـد أن نجحت انكلتـرا في اقنـاع الباب العالي بأن يوفد مختار بل وزير مالية تركيا الى مصر بأمر إلى سعيد بإيقاف أعمـال الحفـر في برزخ السـويس ، تدخـل نابليـون الثالث لـدى تركيـا فأبـطل هـذا الأمـر . واستمرت اعمال الحفر حتى بلغت القناة بحيرة التمساح عنـد وفاة محمـد سعيد في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٣ ، كما تم حفر جزء من ترعة الماء العذب من رأس الوادي الى الاسماعيلية حتى ذلك التاريخ ، فأتم اسماعيل ما بدأه سعيد .

وحين تولى اسمـاعيل عـرش مصر في ١٣ كـانون الثـاني (ينايـر) ١٨٦٣ كانت أعمال الحفر في القناة قد تمت حتى بحيرة التمساح بالاضافـة الى قناة المـاء العذب بـين رأس الوادي والاسماعيلية وهي نحو نصف ترعة الاسماعيلية . هذا ما ورثه اسماعيل عن سعيـد من مشروع القنـاة . وورث أيضاً عقـد امتياز قنـاة السويس (٣٠ تشـرين الثاني نوفمبر ١٨٥٤) وعقد شروط استغلالها (٥ كانون الثاني ينـاير ١٨٥٦) ومـذكرة العمالة (٢٠ تموز يوليو ١٨٥٦) وما اشتملت عليـه من قيود تكبـل مصر . كـما ورث دينـا على مصـر تركـه سعيد واختلف المؤرخـون في تقديـره بين ٣ و١٠ مـلايين جنيـه استرليني . وقد أجمع الكل على أن الوالي محمد سعيد هو الذي فتح باب الاستدانة من بنوك أوروبا وفتح باب الاستدانة باصدار اذونات الخزانة .

وجـاء في تقـريـر لجنـة كيف (Cave Commision) التي شكلت في عـام ١٨٧٦ لدراسة أحوال مصر المالية ما يلي :

« في عام ١٨٦٢ عقد الوالي محمد سعيد باشا أول قرض . وكـان المبلغ الاسمي للقـرض ٣,٢٨٢,٨٠٠ جنيه استـرليني يستوفى عـلى مدى ثـلاثين سنـة . وكان سعـر الفائدة ٧٪ وقيمـة خدمـة الدين ١٪ وليست لـدينا تفصيـلات عن المبلغ الذي تسلمـه

فعلاً » وقد ردد هذا الكلام فيها بعد اللورد كـرومر في كتـابه « مصـر الحديثـة ١٩٠٨ » حيث قال :

«في عام ١٨٦٣ عندما مات سعيد باشا بلغ دين مصر العام ٣,٢٩٣,٠٠٠ جنيه استرليني » .

المشرق العربي في ظل الامبراطورية العثمانية

٥٠٠ سنة انحطاط :

بلغت بغداد ذروة المجد ما بين أواسط القرن الثاني وأواسط القرن الثالث الهجري ، ثم ما لبث أن أخذ الضعف يزحف على أطراف الامبراطورية ويهددها من داخلها ، حيث بدأت الأطراف تتقلص وتنفصل إلى إمارات ودويلات صغيرة ، وشرعت عاصمة الخلافة تتأرجح بين القوة والضعف ، والصوت العربي يعلو تارة ويخفت أخرى ، والسلطة تنتقل بين حين وآخر من يد الخليفة إلى موالي الفرس ، ومن موالي الفرس إلى الخليفة ومنه إلى موالي الترك ، ومنهم إلى غيرهم . وقد بلغ ضعف الخليفة منتهاه أيام البويهيين . واسترجع الخليفة بعض مكانته حين انتقل زمام السلطان إلى يد السلجوقيين ، ثم ما لبث أن أفلت من يده إلى السلجوقيين أنفسهم وعادت تارة أخرى أيام المسترشد والداخل والمقتضي وبلغت الذروة أيام الخليفة الناصر لدين الله الذي قضى على سلطان السلاجقة قضاء تاما ، وأعاد هذا الخليفة الذكي لبغداد بعضاً من مجدها ، وكادت أيام العباسيين الزاهرة تعود إلى زهوها لولا تربص المصائب بهذه الدولة ، فقد نشأت في هذه الفترة من الزمن دولة للتتار في أواسط آسيا بزعامة رئيسهم جنكيزخان ، وكانت الدولة العباسية قد أخذت تتأرجح بين القوة تارة والضعف تارة أخرى ، وازداد الضعف أيام ولي الأمر الخليفة المستعصم حيث كثرت الفتن والقلاقل وتولي الموالي والمماليك على سياسة البلاط ، وطلعت رؤوس الناقمين ، منهم وقلت موارد الدولة وصرف المستعصم جنده لقلة الموارد واقتصاداً

للنفقات ، في هذه الفترة كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الاسلامية ، وعلى عاصمة الخلافة . وهكذا زحف هولاكو بجيش لا يبقي ولا يذر ، وقد محى في طريقه جماعة الباطنيين والاسماعيليين الذين اتعبوا الدولة العباسية (الحشاشين) وتقدمت جيوشه إلى بغداد لتصفية عقيدة التوحيد والاسلام والاتيان على حضارة العرب . وقد دمر هولاكو بغداد وقضى على أهم ثروة ثقافية في التاريخ هي مكتبة بغداد لدرجة أن نهر دجلة انحرف في مجراه من كثرة ما ألقي فيه من الكتب ، إضافة إلى ملايين الكتب التي أحرقت .

ودخلت بغداد فى سيطرة المغول ، وصار العراق عاصمة الامبراطورية العباسية جزءاً من امبراطوريتهم الممتدة من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً ، وبذلك وقعت البلاد العربية ، وأجزاء من الامبراطورية العباسية تحت حكم المغول والترك والتركمان والفرس ، وقسمت بلاد العراق وفارس والجزيرة إلى حدود سوريا غرباً وقد تناول على حكمها المغول والترك والفرس والتركمان . وكانت قبيلة تركية قد جاءت من أواسط آسيا وحطت رحالها في آسيا الصغرى وصارت إمارة من الامارات التابعة للدولة السلجوقية ، ثم أخذت تشتد وموقعها الجغرافي يساعدها على ذلك حتى تكونت وكانت الدولة العثمانية . ومما زاد من مكانتها متاخمتها لـلامبراطورية البيزنطية ، أما مصر والشام فكانتا تحت حكم الأتراك والشراكسة المماليك وكانت الأندلس « اسبانيا الآن » تجنح إلى الزوال حيث استعادها الاسبان . فأصبح ما وراء مصر غرباً من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش دويلات صغيرة يحكم بعضها العرب وبعضها الآخر البربر ، وظلت اليمن عربية خالصة بعيدة عن حكم الأعاجم .

وفي اضطراب العراق في المشرق والأندلس في المغرب أخذت مصر الزعامة العربية وشاركتها سوريا ، وكان الأزهر الشريف عاصمة القطرين في الثقافة والفكر والوعي الديني والقومي ، وقد كانت القاهرة ميداناً لتعاليم ابن تيمية الذي ستلعب تعاليمه فيها بعد دوراً في تأسيس المملكة السعودية في الحجاز .

في ظل هذه الظروف الموضوعية والتاريخية ولدت الامبراطورية العثمانية ، وكان أول حادث جليل قامت به هذه الدولة الفتية انقضاضها على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها ، وأخذت تهزمها في كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية واكتسحت شبه جزيرة البلقان ولم يقف العثمانيون إلا على أبواب فيينا .

وكان العالم الاسلامي المضطرب ينظر إلى هذه الانتصارات نظرة ملؤها الاحترام والاكبار ، وكان العثمانيون قد أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة حامي العقيدة الاسلامية ، تحت شعار رفعوه وهو محاربة الالحاد في العالم ، وبين هاتين النظرتين اختمرت فكرة التوسع في مخيلة السلطان سليم فتقدم إلى سوريا يريد في طريقه مصر عام ١٥١٦ ، وانتصر السلطان على جيوش الغوري سلطان مصر مروراً بسوريا والأردن ولبنان وفلسطين حيث ارغم الخليفة العباسي على النزول عن الخلافة لآل عثمان وبذلك أسدل الستار على آخر صوت عربي في القضية الاسلامية .

وأصبح سلطان العثمانيين حامي العقيدة وحامي الحرمين الشريفين وأصبح يخطب باسم الخليفة العثماني في المساجد .

وفي معارك قاسية عنيفة بين العثمانيين والصفويين الذين كانوا يحكمون العراق ضمت الدولة العثمانية العراق إلى أملاكها وصارت بغداد ولاية من ولاياتها ، كما استطاع العثمانيون أن يضموا إليهم بواسطة أساطيلهم تونس وليبيا ، ثم التحقت الجزائر طائعة مختارة دون حرب ، وبذلك أصبح سلطانهم يمتد في بلاد العرب من حدود مراكش غرباً يستمر عند الخليج العربي ويضم إلى ذلك الحجاز ونجد واليمن .

إذن بدأ الفتح العثماني عام ١٥١٦ على النحو التالي ، الأردن ، فلسطين ، لبنان ، سوريا ، مصر ، ليبيا ، السعودية ، العراق ، تونس ، الجزائر ، قطر ، وكانت الدول العربية التي لم تدخلها تركيا هي : عمان ، دولة الامارات ، البحرين ، الكويت ، موريتانيا ، السودان ، الصومال ، جيبوتي ، وكان جبل لبنان أول بلد يأخذ ما يشبه الحكم الذاتي عن الامبراطورية التركية عام ١٦٠٤ ، لصالح الأمراء المعنيين ولكنه سرعان ما عاد إلى حضانة الامبراطورية عام ١٦٣٨ وهي السنة التي انفصل فيها اليمن عن الامبراطورية تحت ظل حكم جديد هو حكم « الزيديين » .

لقد استولى الأتراك على بلاد الحجاز « قبلة المسلمين» في حملتهم الأولى للسيطرة على الأقطار العربية علم ١٥١٧ لكن بعد أكثر من مائة وخمسين عاماً ظهر فيها شاب هو محمد بن عبدالوهاب أحد تلاميذ ابن تيمية الذي رفض بدوره مثل أستاذه كل مظاهر الزيف في الدين والعقيدة، وكل ما أدخل على الدين وهو ليس منه مدركاً سر انهيار الأمة .

لقد وجد التوحيد الذي هو ذخيرة الإسلام الكبرى قد أصبح محاطاً بالأشـواك والأفكار الغريبة عنه ، وتأثر بما تركته المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبئيـة من آثار امتد بها الـزمن وطال حتى تمكنت من النفـوس واستقـرت في قـرارهـا ، بحيث أصبحت عقائد لا يمكن تحـويل النـاس عنها . ورأى الأصنـام والأوثان التي حـطمتها عقيـدة التوحيـد قـد عـادت ثـانيـة فصـدع بهـا . ولهـذه الـدعـوة سمي هـو وأتبـاعـه « بالموحدين » والوهابية نسبة إليه وليست مذهباً جديداً في الإسلام ، وغاية ما في دعوته العودة إلى أصول الإسلام الصحيحة .

وسلك ابن عبدالوهاب سبيل أستاذه في توجيه الناس إلىعقيدة التوحيـد للنهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة وإلى الإيمان الصافي ، وكان قد رأى الناس قد علقوا إيمـانهم وآمالهم عـلى غير الله ، واطمـأنوا إلى المخلوقـات يستشفــون بهـا من أمراضهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم . وأخـذوا يأكلون بعضهم بعضـاً لفساد العقيـدة ، وضعف الإيمان ، فلم يـر بدأً من أن يهـزهم هزاً ولم يجـد شيئـاً يبعث فيهم الحياة الصالحة والعيش الكريم إلا الرجوع إلى عقيدة التوحيد وإلى المبادىء الصحيحة التي جاء بها الإسلام في أوله .

وأضـاف ابن عبدالـوهاب إلى دعـوة التوحيـد دعوة أخـرى قـوامهـا الابـداع في التشريع واطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكـل مقتدر عليـه ، مستوف لشـروطه ، لأن الله وحده هو الذي يحلل ويحرم ، وعـلى ذلك فكـلام المتكلمين في العقـائد وكـلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا ، والحجة الوحيدة هي في القرآن والسنة ومنها نستنبط الأحكام وفيها فطنة العقائد .

تحالف ابن عبدالوهاب مع أمير الـدرعية من آل سعـود عام ١٧٤٧ حيث وجـد هـذا الأمير السعـودي صفاء العقيـدة في دعوة ابن عبـدالوهـاب ، وفي هـذا التحـالف انتشرت الدعوة في قلب الجزيرة .

وبعـد وفاتـه ووفاة حليفـه الأول قبله بثلاثـين سنة أخـذ آل سعود عـلى عاتقهم نشرها وحمايتها وخرجوا بها من القلب إلى الأطراف ينـازعون الخليفـة العثماني سلطانـه ويحاولون إيجاد دولة عربية ذات قـوة ومنعة . لقـد غزوا العـراق واستمروا حتى وصلوا إلى أبواب بغداد ، فاضطر واليها التركي أن يعقـد معهم معاهـدة عام ١٧٩٩ وأعـادوا

الكرة على العراق بعد عامين فدخلوا كربلاء وقاموا بعمل يتنافى مع الفكـرة ، ثم غزوا الحجاز فاستولوا على مكة والمدينة(٣٠) ، وهنا أصيبت دعوتهم بنكسة قوية ، فقد اهـتز العالم الاسلامي واهتز عرش الخلافة في الآستانة لأمرين أولهما أن أتباع ابن عبدالوهاب هـدموا القبـاب وأزالوا مـا على قبـر النبي من الزينـة والحـلي ، فـانتفض المسلمـون في مشارق الأرض ومغاربها ورموا أصحاب هذه الدعوة بالانحراف عن الـدين .وثانيهما خوف الخلافة في الاستانة من هذه الحركة التي تؤذن بقيام دولة عربية تنـاوىء الخلافـة التركية ولذلك سارعت إلى دفن هذه الظاهرة الصّحية في مهدها قبل أن تتسع آفاقها ، فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الـذين شرّعـوا أقلامهم وألسنتهم يؤلفـون الكتب ويخطبون الخـطب على المنـابر ويـرمون اتبـاعها بـالزنـدقة والخـروج على الاسـلام وعلى سلطان الخليفة . واستنجد السلطان العثماني محمود بـواليه في مصـر محمد عـلي وطلب منه أن يسير إلى الحجاز للقضاء على هذه الفرقة والأرجح أن.ما دفع السلطان محمود إلى ذلك هو توريط حاكم مصر القوي في حرب مضنية .

قـاد الحملة عباس الابن الثـاني لمحمد عـلي الـذي مـات بعـد خمس سنـوات في السودان ، على أن يحمـل لقب باشـا وأن يمنحه مبعـوث السلطان هذا اللقب في حفلة تقـام في قلعة القـاهرة التي قتـل فيها محمـد علي كـل زعماء المـماليك(٣١) أثنـاء دعوتهم للاحتفال بالنصر .

وعلم رجـالُ ابن سعود مـا عزم عليـه السلطان فتأهبـوا للحرب وهـزموا الجيش المصري الذي ترك وراءه المؤ ن والذخائر ، لكن ما لبث محمد علي أن أمد ابنـه بجيش آخر هزم ابن سعود .

وفي صيف ١٨١٢ أعـاد أهل نجـد الكرّة واستـولوا عـلى مكة وكـادوا يأخـذون المدينة ، فلما بلغ الأمر محمد علي قام بنفسه على رأس جيش قوي عام ١٨١٣ وهزمهم وبذلك فتح طريق الحج للحجاج ، واستطاعت السلطة العثمانية بواسطة محمد علي أن تخفت أول صوت عربي شديد بدأ محاولة إعادة السلطان إلى العرب .

ولو تم لهذه الحركة سيرها لتغير وجه التاريخ في الشرق الأوسط ، ومع أن قـوتها السياسية قد زالت زمناً ما ، فقد فتحت أفقاً جديـداً للمسلمين في كـافة أنحـاء العالم الاسلامي ، فنكاد لا نجد حركة من حركات الاصلاح ، إلا كان مرجعها لما نـادى به إبن عبدالوهاب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشـرين وهي المرحلة التي

فتحت صفحة جديدة في تاريخ العرب الحديث وسنرى ذلك خلال قيام الثورة العربية الجديدة في الحجاز .

يبقى السبب الأساسي لظهور الوهابية في تلك الفترة ، وبالتالي القضاء عليها والخوف منها ، ويعود ذلك إلى طبيعة ظهور الدولة العثمانية التي حكمت معظم العالم العربي والاسلامي بأسلوب دفع شعوب هذه الدول للعيش في دوامة الانحطاط الفكري والحضاري والابتعاد عن الدين على امتداد ٥٠٠ سنة في وقت كانت فيه أوروبا في بداية عصر نهضتها الحديثة .

فعلى الرغم مما تركت غزوات المغول للبلاد الاسلامية من أعباء وكوارث فإن أثر هذه الغزوات كان عابراً سريع الزوال إذا ما قورن بالأثر الذي خلفته « جماعة العثمانيين » ـ الأتراك ـ الذين اندفعوا إلى أواسط آسيا الصغرى ، متبعين في ذلك سبيل بني عمومتهم السلاجقة الذين حكموا السعودية ما بين ٩٦٩ و١١٧١ والعراق ما بين ١٠٥٥ و١١٩٤[٣٢] ووطد عثمان مؤسس الأسرة أقدام شعبه في الأقطار التي خضعت للسلاطين السلاجقة من قبل وفي أقطار عربية وإسلامية غيرها (من سوريا إلى الدانوب) أو من(أبواب فيينا إلى الخليج العربي ومن بحر قزوين إلى شلال النيل الأول وفي شمال افريقيا ، وأقرت طرابلس الغرب وتونس والجزائر بالولاء للعثمانيين ولكن مراكش ظلت بعيدة عن حكمهم) .

ووفق العثمانيون بالاحتفاظ بسيطرة اسمية على امبراطوريتهم ، ولكن الولايات النائية اتخذت سبيلها بعد وفاة سليمان ابن السلطان سليم المؤسس ، وعلى نحو متعاظم نحو الاستقلال . والواقع أن رغبة الشعب المتعاظمة إلى الاستقلال القومي ، هذه الرغبة التي تجلت خلال القرن التاسع عشر الذي نحن بصدده ومطامع فرنسا وانجلترا الاستعمارية تعاونت على إضعاف العثمانيين حتى أمست سلطتهم على امبراطوريتهم رمزية أو شبه رمزية . ولكن الاجراءات القمعية القاسية التي اتخذها العثمانيون ضد كل اصلاح اجتماعي أو تشريعي أثارت نقمة عارمة في صفوف رعاياهم وهذا سبب رئيسي لظهور الوهابيين .

صحيح أن هذه السياسة القصيرة النظر لم تقض على امبراطوريتهم قضاء عاجلاً ولكنها تعاونت آخر الأمر مع هزيمة تركيا ودول الوسط في الحرب العالمية الأولى

فسببت انهيار دولة نافست يوم كـانت في أوج مجدهـا امبراطـورية الأمـويين العـربية في اتساع الرقعة وترامي الأطراف[٣٣] ولكي نفهم طبيعة الامبراطوريـة العثمانيـة الحقيقية يتعين علينا أن نفهم وندرس بعض العوامل الأساسية التي أثرت في نشوئها وتطورها .

تواجدت في تلك الفترة كثير من القوى الغربية التي كيفت ثقافـة الأتراك ، أعني الأوروبيـين الذين أظلتهم رايـة العثمانيـين والحضـارة البيـزنـطيـة التي اقتبسـوهـا ، والعلاقات التجارية والصلات الدبلوماسية الواسعة ، وكان هناك الاسـلام الذي لعب دوراً حيوياً في تكوين الثقافة التركية ، ولقد كان العثمانيـون شديـدي التعلق بـأهداب السنة ، ولكنهم كانوا إلى جانب تقواهم متزمتين في تفسير الإسـلام ، وهذا سبب آخـر لظهور الوهابية في ذلك الحين بالاضافة إلى هـذين العاملين الـرئيسيين تـركت التقاليـد المحليـة ، والعادات المتبعـة في الاشكال الفنيـة واللغة واصـطناع الحـروف العربيـة في كتابتهم ـ أقول تركت هذه كلها ـ طابعها على الأتراك .

وعلى الرغم من أنه كان خليقاً بهذه العوامل كلها أن تتعاون عـلى اضفاء مسحـة تحررية على الدولة ، فإن الواقع لم يكن كذلك ، ذلك بأن نظام التسلسلية Hierarchic في الحكـومة والـدين ما لبث أن نشأ . والحق أن ممثلي الاسـلام الذين احتلوا المـراكـز العالية كانوا مصفدين بأغلال التقليد فلم يلتفتـوا إلى ضروب الاصـلاح التي احتاجت إليها الدولة حاجـة ماسـة . لقد فسـروا الشريعـة بروح ضيقـة غير متسـامحة . روح لم تُطقْ، مع ارتيـاب عام في الثقـافة الغـربية ومـع عجز « البـاب العالي » السيـاسي . وتعاونت هذه الأمور كلها لتكون صورة صادقة للاسم الذي اطلق عـلى تركيـة « رجل أوروبا المريض » ولعل هذا هو السبب الثالث لظهور الوهابية في الحجاز .

ولم توفق تركيـا إلى استعادة استقـرارها إلا بعـد الحرب العـالمية الأولى، بعـد أن جردت من امبراطوريتها ، ولقد كانت هذه الخطوة التقدمية ثمرة نضال رجل فرد ، هو كمـال أتاتـورك صاحب الفضـل الـذي أعـاد لتركيـا مـركـزاً محترمـاً جـداً في أسـرة الأمم المعـاصرة ، ولكي يحقق أتـاتورك غـرضه ألغى من غـير رحمة ، معـظم التقاليـد القديمة التي علقت تقدم البلاد دهراً طويلاً .

ولتيسـير التعليم ألغى الحرف العـربي واستبدل بـه أبجديـة لاتينيـة ، وإلى هـذا حـررت البلاد من القبضـة الخانقـة التي كانت قـد أخذت بعنقهـا نُتيجـة لاسـاءة فهم الاسلام ، وهذا اعتراف بشرعية وصواب قيام الحركة الوهابية ، حيث جعـل أتاتـورك

التسامح الديني قانون البلد . وباصطناع ضرب من اشتراكية الدولة (state socialism) استطاع الرئيس التركي أن يحقق بعض التقدم في طريق الازدهار وأن يبقى في الوقت نفسه متحرراً كثيراً أو قليلاً من الرساميل الأجنبية وما يصاحبها من سيطرة سياسية .

إن نهوض تركيا الحديثة على أنقاض الامبراطورية العثمانية وإلغاء السلطنة والخلافة في ٣ آذار (مارس) ١٩٢٤ ليمثلان نهاية الامبراطورية الدينية ـ السياسية التي استهلت بالرسول وصحابته .

والواقع أن الروح الاستقلالية التي تغلب على البلدان العربية الاسلامية لم تجز لشعوب هذه البلدان حتى الآن على الأقل أن تقوم بأكثر من خطى بطيئة نحو إعادة إنشاء الامبراطورية العربية ، ولسوف يكون من مهمة المستقبل أن يكشف عن أيما اتجاه نحو تحقيق هذا الشكل من التعاون[٣٤] .

* * *

عندما اجتاحت الجيوش التركية بقيادة سليم الأول الأراضي العربية ساعد الأمير فخرالدين الأول أمير لبنان الحكم الجديد في القضاء على المماليك في لبنان عام ١٥١٦ وتم الانتصار عليهم في معركة مرج دابق ، وقد منح السلطان سليم ، فخرالدين الذي كان أميراً على بعقلين لقب (سلطان البر) وبذلك أصبح لبنان تابعاً للامبراطورية التركية ، ولكن في عام ١٥٧٢ ولد في بعقلين أمير جديد هو فخرالدين الثاني[٣٥] الذي لقب فيما بعد بأمير سوريا فأنشأ جيشاً وتعاقد مع أمراء « تسكانيا » ليقدموا له الخبراء في صناعة المدافع ، ثم قصد إيطاليا بعد اضطراره لمغادرة لبنان ، وعقد مع بعض أمرائها معاهدة لتقديم العون له للاستقلال عن الامبراطورية التركية ، لكنهم خذوله ليعود سراً إلى لبنان وليجتمع بأعوانه وعندما علم السلطان العثماني بأمره عفا عنه نظراً لقوته وقوة أعوانه وعينه والياً على صيدا وصفد ، ثم نابلس وعجلون ، وما لبث فخرالدين بعد أن استعان بالايطاليين أن انتفض على الحكم العثماني لكنه كفرد ضعيف فشل في مقاومة العثمانيين عام ١٦٣٥ واعتقلته الامبراطورية ثم نفي إلى اسطنبول وقتل هناك في الوقت الذي انفصلت فيه اليمن عن الامبراطورية العثمانية نهائياً . وبذلك كان لبنان أول دولة تحصل على حكمها الذاتي من الامبراطورية العثمانية . ولقد بدأت علة الامبراطورية العثمانية تتفاقم قبل افتتاح قناة السويس

وخلالها وبعدها ، وكانت الولايات التابعة لها مريضة بمرضها إلى أن آل الحكم للسلطان عبدالحميد عام ١٨٧٦ .

فقد كان هذا الحاكم ذكياً واسع الحيلة ، مهد لنفسه بتعيين من كان يعتمد عليهم ، وكان جلهم من الرجعيين الذين لم يرضوا عن مواقف الأحرار ، وظهرت آثارهم في تدهور الدولة تدريجياً مما أدى إلى مأساتها في الحرب العالمية الأولى .

بدأ عبدالحميد عمله في تعديل الدستور فأدخل في البند ١١٣ تعديلاً جاء فيه « يحق للحكومة أن تعلن الاحكام العرفية ، وللحضرة السلطانية وحدها الحق أن تخرج من الممالك المحروسة وتبعد عنها من يثبت عليه بواسطة تحقيق الضابطة للسعي لاخلال الأمن في الدولة » .

ولا ندري ما إذا كان مدحت باشا (والي العراق) علم بذلك لأنه كان أول ضحية للتعديل الدستوري ، وفي ظل هذا التعديل كانت البلاد العربية في ظل السلطان عبدالحميد والادارة في الدولة تتبع تقسيماً خاصاً ، تبدأ بالولاية ويديرها والٍ يرتبط مباشرة بمركز الخلافة ، وتقسم الولاية إلى مناطق يختلف عددها باختلاف اتساعها وضيقها وتسمى كل منطقة « سنجقاً » يديره عامل يسمى القائمقام ، فكانت سوريا مقسمة إلى ثلاث ولايات : حلب ودمشق وبيروت وسنجقين وهما القدس وجبل لبنان . وكان العراق مقسماً ألى ثلاث ولايات وهي بغداد والموصل والبصرة . وإلى سنجق واحد هو سنجق ديرالزور . وكان مدحت باشا أول والٍ طبق نظام الولاية في العراق .

أما في قلب الجزيرة العربية فقد كان نفوذ السلطان ضعيفاً ولم تتمكن الدولة من إيجاد تقسيم إداري منظم . فقد كانت إمارة ابن السعود وعاصمتها الرياض وإمارة ابن الرشيد وعاصمتها حائل ، وكانت الامارتان تتنازعان على امتداد النفوذ ، ولم يكن للسلطان نفوذ فعلي إلا في الجزء الواقع على الخليج العربي ومنطقة الاحساء .

ولم يتمكن الأتراك من بسط نفوذهم التام على اليمن رغم إرسال حملتين قويتين أولهما عام ١٨٤٩ والثانية ١٨٧٢ . وقد ظل اليمنيون يلقبون إمامهم وهو الزيدي

المذهب « بأمير المؤمنين » لأنهم يعتقدون أن الخلافة الاسلامية لقريش عامة ولزيدي خاصة ، ويثورون على ولاة الأتراك في الحين بعد الحين ، أي كلما آنسوا ضعفاً في نفوذ السلطان وقوة في أنفسهم .

وبذلك بقيت الجزيرة العربية بعيدة عن تنفيذ نظام إداري على غرار ما في سوريا والعراق .

وفي الحجاز عين لأول مرة وال عام ١٨٤١ وكان السلطان يستمد نفوذه مزدوجاً من هذا الوالي ومن أسرة الاشراف الذين ينتمون بنسبهم إلى النبي ﷺ حيث تقضي التقاليد قيامهم بالأمر في مكة والمدينة . وعندما كان مدحت باشا والياً على العراق استطاع أن يعيد للدولة هيبتها في الخليج فقد كانت الكويت التي تبعد عدة أميال عن البصرة تحكم من أسرة آل الصباح ، ولا يتدخل في شؤونها أحد وكان أهلها يتعاطون التجارة مع شواطىء الهند وفارس وافريقيا ، وكانوا يرفعون أعلاماً خاصة بسفنهم وربما رفعوا علماً هولاندياً أو انجليزياً لغرض من الأغراض . وظل مدحت باشا يقاتلهم حتى استطاع أن يستميلهم بالحسنى فقبلوا رفع العلم العثماني بشرط الاستقلال في إدارتهم وسائر شؤونهم الداخلية فأصبحت الكويت منذ ذلك الحين قسماً إدارياً تابعاً للعراق وعين مدحت شيخها قائمقاماً، وقد عمل مدحت باشا على بسط نفوذ الخلافة على شواطىء الخليج والاحساء ونجد ، فتم له أن يمد هيبة الدولة على الاحساء ويعين متصرفاً في نجد ، وباءت محاولته لضم البحرين بالفشل ، وكان الاضطراب الداخلي في نجد ونزوع المختلفين إلى السلطات التركية في العراق يقوي من نفوذ الدولة . وكادت تتم للدولة العثمانية السلطة على شواطىء الخليج لولا ظهور الانجليز ومخاوفهم من مطامع الدول الغربية الأخرى التي كانت تهدد الهند . وكان الانجليز خصماً عنيداً للدولة ويتحينون الفرص في ضعفها ، ولكي يخلو لهم الجو أحياناً كانوا يعينونها على أعدائها . وكانت أبرز مطامعهم في جزر الخليج وشواطىء البحر الأحمر فلما أحسوا بخطر نابليون في حملة مصر احتلوا جزيرة بريم « ميون » الواقعة في مدخل البحر الأحمر ، وعقدوا اتفاقاً مع إمارة سسقط الواقعة في مدخل الخليج واحتلوا عدن وحضرموت عام ١٨٣٩ وجعلوها من ممتلكات التاج البريطاني وطفقت أيديهم تمتد في الخليج مد الأخطبوط حتى كانت الحرب العالمية الأولى فكان الخليج قاعدة للوثبة لاحتلال العراق(٣٦) .

أما في افريقيا فقد كانت ممتلكات عبدالحميد التي ورثها عن أسلافه تتكون من تونس وليبيا ومصر وكانت الجزائر من ضمن المقاطعات التابعة للدولة ، غير أن فرنسا استولت عليها عام ١٨٣٠ بعد قتال عنيف دام خمسة عشر عاماً وفي عام ١٨٨١ اختطفت فرنسا تونس ، وفي سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر والسودان بحجة ضبط الأمن وحفظ نفوذ السلطان ، وفي عام ١٩١٢ فقدت الدولة ليبيا في حربها مع إيطاليا . وهكذا خرج ساحل افريقيا الشمالية بأجمعه من سلطان الخلافة (وسنفرد لذلك فصلاً خاصاً) .

وكان هذا الاستعمار الذي بدأ يزحف على المغرب والمشرق العربيين يتطلع إلى ضعف الدولة العثمانية وإلى الوصول إلى العراق وسوريا وفلسطين . أما لبنان فقد حصل على ما يشبه الحكم الذاتي للمرة الثانية عام ١٧٩٠ في ظل الحكم الشهابي ثم تحول عام ١٨٦٤ إلى متصرفية جبل لبنان في ظل ولاة تعينهم تركيا يدعون بالمتصرفين ، كما حازت فلسطين على ما يشبه الحكم الذاتي في ظل ولاية ظاهر العمر (١٧٥٠ ـ ١٧٧٥) ثم مصر في ظل حكم علي بك الكبير عام ١٧٦٩[٣٧] .

وأول من تنبه إلى الخطر الاستعماري في العراق وسوريا وفلسطين مدحت باشا إبان ولايته على العراق وسوريا . فقد فتح هذا الرجل عينيه فرأى أمامه مملكة تنوء بالمآسي والمصائب: فقر مدقع ، وبطالة شاملة ، وزراعة سيئة ، وصناعة ضعيفة ، وجهل منتشر ، واستبداد مطلق لا حدود له . واستهتار الولاة بالأمور . . . الخ ، وقد هال مدحت باشا ذلك ، لذلك سارع إلى وضع دستور أساسه الشورى في الحكم تبني فيه الدولة قواعدها السياسية والاقتصادية والادارية والثقافية والعسكرية على أسس متينة تحفظ كيان الدولة وتجعلها تقف على المستوى الذي تقف عليه الدول الراقية . لذلك أخذ يتحين الفرص حتى مكنته فخلع السلطان عبدالعزيز ونصب السلطان مراد الذي لم يتمكن من الحكم لمرضه فاستبدله بعبدالحميد ، فوافق هذا الأخير على إقامة الدستور الذي وضعه مدحت باشا ثم ما لبث أن تمرد وحكم بأمره ، ومدحت في كل مواقف عبدالحميد تلعب به أصابع المستبدين من حاشية الخليفة الذين يريدون المشي في الظلام ويصطادون في الماء العكر ، ورغم ذلك برز مدحت في السياسة والادارة والتنظيم ، وكان لمواقفه شبه الديمقراطية دورها في إيقاظ العقول في الاستانة ، ولتهيئة النفوس للخروج على الظلم والاستبداد ، ولا يسعنا أن نهمل ما قام به هذا الرجل في

بلاد العرب النائية التي أهملتها دار السلطنة ، وتركتها للأقدار تلعب بها ما تشاء حتى جاء مدحت باشا والياً على بغداد ثم والياً على سوريا .

لقد دخل بغداد في العام الذي احتفل فيه العالم بافتتاح قناة السويس ، وكانت لعراق مضطربة والقبائل فيها ثائرة تأبى الخضوع للتجنيد ، وترفض دفع الضرائب ناستبد بها حتى خضعت له ، ووضع خطة لتوزيع الأراضي على القبائل ، وعمل على استيطان العشائر الرحالة ، وأسس مدينتي الناصرة والرمادي ونشر المعرفة بتأسيس المدارس في كل قضاء وأنشأ مطبعة وشكل المجالس البلدية في أهم المدن وأسس المعامل العسكرية ومعملا للنسيج وبنى دوراً للحكومة ، كما بنى المستشفيات ودوراً للعجزة وملجأ للأيتام ، واستغل بئراً للبترول وسهل الانتفاع به . . . الخ وبسط نفوذ الدولة في الاحساء وقطر ونجد وشواطىء الخليج العربي . وما زال يتصل بحاكم الكويت حتى رفع هذا الأخير العلم العثماني فوق أراضيه . . . وفي ظل هذه الاصلاحات بدأت وازدهرت النهضة الفكرية .

أما في سوريا فقد دخلها مدحت باشا عام ١٨٧٨ وقد سبقته شهرته التي ذاعت في البلاد ، فاستقبل استقبالاً عظيماً ليبدأ اصلاحاته على غرار ما قام به في بغداد فأنشأ مدرسة للصنائع وأخرى للفنون وملجأ للايتام ونشر الأمن وفتح الشوارع وبنى القناطر وسهل المواصلات بين المدن والقرى وأنشأ شارع دمشق الكبير وبث روح التآخي بين أهل البلاد على اختلاف مللهم وطبقاتهم فأحبوه وأجمعوا على احترامه وأطلق حرية الفكر فنشط الكتاب والشعراء .

من هنا دخل الشك في الباب العالي فخاف منه ، وأرسل الجواسيس ليحصوا حركاته وكان كلما أرسل مشروعاً لا يصدق عليه الباب العالي إلى أن بلغ فيه الضيق أشده فاستقال لكن الحكومة لم تقبل استقالته بل نقلته إلى ولاية ازمير عام ١٨٨٠ .

لقد أحدث مدحت كما قلنا يقظة فكرية نتجت عنها حركة قومية تدعو لاستقلال العرب عن الخلافة . وكان هذا الصوت الذي ارتفع في أيام مدحت صوتاً عربياً ثالثاً سبقه الصوت الأول في حركة الوهابيين والثاني في دخول إبراهيم باشا إلى سوريا وفلسطين ولبنان . ومن هنا بدأ الناس إظهار عدائهم لتركيا إما بإصدار المناشير أو قرض الشعر أو النثر ضدها ، وحث الناس على التمرد والمطالبة بالحرية والاستقلال .

ومن جملة المناشير التي كانت تنسب إلى جمعية سرية في بيروت (١٨٨٠) جاء في مضمونها مطالبة الدولة بما يلي[٣٨] :

١ ـ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية .
٢ ـ استقلال سوريا ولبنان متحدين .
٣ ـ التخفيف من شأن الجاسوسية التي يبثها عبدالحميد لمقاومة الآراء الحرة .
٤ ـ عدم استخدام الجنود العرب خارج حدود بلادهم .

وقد كانت هذه المطالب نواة قوية لما جاء بعدها على السنة الجمعيات ورجال الأحزاب السياسية والمنتديات . ومن جملة ما نشر وكان له ضجة في البلاد ودوي في دار الخلافة قصيدة جاء مطلعها :

دع مجلس الغيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس
واسل الكؤوس يديرها ... رشأ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطاعم ... والمشارب والملابس
أي النعيم لمن يبيت ... على بساط الذل جالس

وجاء في ختامها :

كم تأملون صلاحهم ... ولهم فساد الطبع مائس
أو ما ترون الحكم في ... أيدي المصادر والمماكس
حال بها طاب التبسم ... للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدماء ... فسفكها للجور حابس

على أن السلطان عبدالحميد بدوره قرب العرب إليه حتى أصبح القصر السلطاني يكاد يكون بيدهم ، وصار الناس يخطبون ودهم . وكان من كبار العرب في ضيافته في الاستانة الشريف حسين بن علي مع زوجته وأولاده الثلاثة علي وعبدالله وفيصل وهي العائلة التي ستلعب دوراً تاريخياً فيما بعد . وقد كسب عبدالحميد الرأي العام العربي والاسلامي نتيجة استضافة هذه العائلة أكثر من خمسة عشر سنة نظراً لانتمائها إلى الذروة في قريش من بيت النبوة ، بالاضافة إلى أن عبدالحميد الذي عرف بالتقوى والورع كان يهدد الغرب بقوة الجهاد المقدس من جهة ومن جهة ثانية يقاوم الأحرار

أمثال مدحت باشا وصحبه الذين كانوا يرمون إلى إيجاد دولة حديثة تقوم على الدستور والشورى .

ومن أبرز ما قام به عبدالحميد لكسب الرأي العام العربي والاسلامي مده الخط الحديدي بين دمشق والحجاز الذي سهل على الحجاج الوصول إلى بيت الله الحرام بأقل كلفة وأقل مشقة . ويرى خصوم السلطان أن هذا الخط لم يكن الدافع إليه الدين وحده ، ولكن هناك أغراض سياسية أولها الدعاية إلى الخليفة وتقوية مركزه وثانيها أنه وسيلة سهلة لنقل جنوده إلى الجزيرة في يسر وسهولة بعدما كانت الحركة الوهابية قد أضاعت هيبة الامبراطورية العثمانية .

وبالنسبة للسياسة الخارجية التي اتبعها عبدالحميد فقد اتجه بكلتيه إلى ألمانيا ، وكانت فاتحة أعماله معها استقدامه بعثة عسكرية لتنظيم جيشه ، فقام الخبراء الألمان في مهمتهم خير قيام وتكونت في السلطنة ثقافة عسكرية ممتازة أخرجت من العرب والترك قادة من الطراز الأول . ولعب هؤلاء أدواراً بارزة فيها بعد ، ثم تلت هذه البعثة بعثات أخرى من البيوت المالية والمصارف الكبرى لاستثمار خيرات البلاد والحصول على الامتيازات خاصة منها الحصول على امتياز الخط الحديدي الذي يصل إلى الخليج العربي ، ذلك الخط الذي كان يهدد مصالح بريطانيا في الهند والشرق الأدنى والذي كان أحد أسباب الحرب العالمية الأولى .

ثم زار قيصر ألمانيا السلطنة رسمياً ثم بيت المقدس ودمشق ، وكانت هذه الزيارة مثار اضطراب وقلق للدول الغربية ذات الأطماع في ميراث الخلافة العثمانية المريضة والمتداعية وكان عبدالحميد يهدف من الزيارة إخافة الطامعين ببلاده بقوتين عظيمتين : قوة الاسلام ، وقوة السند الخارجي : ألمانيا الناشئة .

المغرب العربي في ظل الامبراطورية العثمانية

٥٠٠ سنة انحطاط :

في سنة ١٨٧٦ أصبحت روما عاصمة ايطاليا الموحدة ، وشعر الايطاليون الحديثون لا كنابوليين أو بيروفيين أو صقليين ، بأنهم ورثة ماض مجيد يمكن اثباته بالتوسع العصري . اما المراقبون الأكثر سخرية ، مثل بسمارك فقد رأوا فيهم نسوراً من اكلة الجيف تلزم ميادين القتال لأكل الفضلات . وقد رأى الايطاليون أنهم أقصوا عن مصر بواسطة البريطانيين والفرنسيين حتى الأميركيين[٣٩] وإن الحاجة تدعو إلى دبلوماسي بارع يدافع عن مصالحهم فيها تكهن بوجود البترول على شواطىء البحر الأحمر وداخل حدود الخديوي أيضاً ، وقال إنه كان على قومه أن يحصلوا على امتياز استخراجه قبل زمن طويل .

إن المستوطنين الايطاليين يستطيعون أن يتوغلوا من البحر الأحمر في الحبشة (اثيوبيا) تدريجياً ويستولوا عليها ، فقد سبق أن أسسوا مستعمرة زراعية ايطالية داخل اثيوبيا (الحبشة) في منطقة شبوتل بإذن من النجاشي ، ولكنها لم تنجح لافتقارها إلى الدعم ورجع المستعمرون الفاشلون إلى ايطاليا عن طريق القاهرة . فلو كان هناك سفير قدير معتمد لدى الخديوي لاستقر أولئك المستعمرون في مصر ، ولا ريب أن اسماعيل سيرحب بالايطاليين ليوازن بهم الدولة التي تهدد مصالحه بصورة مؤكدة ، وقد عنى دي لورنزو بهذه الدولة بريطانيا المخيفة .

كان دي لورونزو يعقد الأمل على بعثة ايطالية جغرافية كانت في ذلك الحين في افريقيا . فإذا تضافرت جهود هذه البعثة مع جهود الأسقف الايطالي (الذي كان يحظى باحترام الحاكم المحلي) أمكن الحصول على امتياز ايطالي جديد . ولكن الجغرافي والأسقف كانا غير كافيين ، وكان لا بد من ازسال سفن حربية إلى البحر الأحمر وتعيين سفير نشيط في القاهرة . سيعترض البريطانيون والآخرون ولكن دون جدوى ، وستثبت ايطاليا أنها لا تزال موطن ميكيافيلي، ثم أن شركة رأسمالية تتخذ من نابولي قاعدة لها ، وتلقى دعماً معنوياً من الدولة تستطيع أن توسع شباكها من مصر إلى أبعد حدود الحبشة وبذلك (تحتكر التجارة في الخرطوم وكردفان ودارفور) .

كانت خطط دي لورنزو مصممة بدقة لمصلحة ايطاليا خاصة . على ايطاليا أن تفكر بشيء كبير (لأن النسر لا يصطاد الذباب) . لقد ظهر دور ايطاليا في المناطق الجديدة بالتالي : (أن في الشرق عمالاً ، وما يفتقر إليه هو الذكاء ، أي الصناع المدربون ، وأرباب المهن والرأسماليون . إن لدينا الكثير من الموظفين المتخصصين وفي مقدورنا بمساعدتهم أن نكسب لايطاليا التفوق والمال) . لم يكن دي لورنزو يهتم بالوساوس الانسانية .

عقد في بروكسل مؤتمر جغرافي فشغل الخطباء أنفسهم بالسكان الأصليين وطرق تفكيرهم الشعبية الرائعة ، اما الحبشة فقد انتجت علاوة على حاجات سكانها اليومية المواد الخام اللازمة جداً في الخارج وظلت تربتها الخصبة مهمة من قرون ، ولكنها الآن والفضل للقناة فتحت للايطاليين .

وينتهي كتيب لورنزو بالقاء قليل من البخور على مثاليات القرن التاسع عشر : (إذا أسس أبناء وطننا مستعمرة في وادي النيل وخصوصاً في الحبشة حيث الامتيازات القديمة تمهد طريقها ، فأي مجد جديد لا يعود على وطننا ؟ وأي دافع لا يتوفر لمد الحضارة إلى هذه البلاد النائية البربرية ؟) (٣٩)

وهكذا بدأت ايطاليا تفكر بدورها في وراثة الامبراطورية العثمانية المريضة تماماً كما كان التفكير سائداً في الأوساط الانجليزية والفرنسية ، فعندما سقطت ورقة قناة السويس في أيدي الفرنسيين ومن ثم البريطانيين اتجهت أنظار ايطاليا إلى ليبيا حين استقر مؤسس الطريقة السنوسية السيد محمد علي السنوسي في بنغازي عام ١٨٥١

والسنوسية في بداية أمرها كانت طريقة من الطرق الصوفية التي تنادي بالتقوى والاصلاح والابتعاد بالدين عما استمدت فيه من البدع والخرافات وهي شبيهة إلى حد قليل بالوهابية . فقد وضع مؤسسها نظاماً خاصاً لها يقضي بانشاء الزوايا لتكون مراكز للتعليم والعبادة وكان على رأس كل زاوية شيخ من شيوخ الطريقة يجمع حوله المريدين من الأهالي فيقضي بينهم في قضاياهم ومشكلاتهم ، وكان عليه أن يجمع من الأهالي رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة وينفذ بعض مشروعات العمران المناسبة كحفر الآبار والزراعة وغيرها ، ويرسل الفائض إلى الشيخ الكبير . ولما مات السيد محمد السنوسي خلفه ابنه السيد المهدي السنوسي سنة ١٨٥٩ ، فانتشرت في عهده السنوسية في برقة ، وطرابلس ، وامتدت نحو الصحراء الغربية وفي السودان الغربي ووسط افريقيا . بل كان للسنوسي اتباع ومريدين في مصر وتركيا والهند[٤٠] ولما اشتد ساعد الحركة احست تركيا بخطرها وبدأت تعمل على اخمادها . ولما شعر المهدي السنوسي بذلك انتقل إلى جنوب سيوه الغربي ، ثم غادرها بعد ذلك سنة ١٨٩٤ إلى واحة الكفرة ، وازدادت الحركة السنوسية في الجنوب حتى بلغت أعالي السودان وإصطدموا في الجنوب بالاستعمار الفرنسي اصطداماً حربياً سنة ١٩٠٠ وقد انهزم السنوسيون ومات المهدي السنوسي سنة ١٩٠٢ . وسنرى فيما بعد أن المهدية في السودان قد تأثرت بالسنوسية ومشت على [illegible]

وعاد السنوسيون إلى مقرهم في واحة الكفرة بعد أن تعلموا أساليب القتال الحديثة من اصطدامهم بالفرنسيين ، فلما واجهت ليبيا الغزو الايطالي انضم السنوسيون إلى المجاهدين من الأتراك والوطنيين الذين اعتصموا في الجنوب للكفاح ضد الاحتلال الايطالي الذي اكتفى إذ ذاك بنشر سلطانه على السواحل والمدن الشمالية .

لقد سادت ايطاليا ديكتاتورية محلية عرفت بالفاشستية وجعلت منها نظاماً يحلم علناً باستعادة الامبراطورية الرومانية الوثنية بعد أن أخضع الايطاليون بقسوة (كرمي الثائرين من الطائرات ارهاباً للأجيال القادمة) القبائل السنوسية في برقة حولوا أحلام اليقظة إلى حقيقة باحتلال اثيوبيا المسيحية وهكذا وجد الليبيون أن ايطاليا تمثل الخطر الوحيد ضدهم كما تمثل بريطانيا وفرنسا الخطر نفسه في مصر وبقية الأقطار العربية .

ولم تصل الجيوش العثمانية في المغرب العربي إلى كل من المغرب وموريتانيا التي

كان يحكمها في العصر التركي الاشراف حتى بداية هذا العصر . اما السودان فقد دخلت الجيوش التركية جزءاً بسيطاً من أراضيها وكانت محكومة من القبائل المتفرقة حين ظهرت المهدية فيها وحكمتها بأواخر القرن التاسع عشر .

وكانت الصومال بكل مقاطعاتها قد حكمها الجيش المصري في الربع الأخير من القرن الماضي إلى أن جاءت دول الاستعمار الثلاثة لتقسمها وتحكم كل جزء من أجزائها الأربعة وبعد ذلك تبدأ في هذه البلدان المرحلة الاستعمارية .

لقد كان لصدى الشعار الذي رفعه السلطان عبدالحميد ، وهو محاربة الاستعمار الغربي بالجهاد المقدس أثره البارز في ليبيا حيث ظهرت السنوسية وفي السودان حيث ظهرت المهدية . وقد ثبت أنْ الاسلام يستطيع دون مدافع حديثة أو خطوط برق أن يكون في القرن التاسع عشر قوة لا تقاوم كما كان في القرن السابع الميلادي .

كانت الثورة نتيجة اجتماع رجلين ممتازين ، لا يشبه أحدهما الآخر ولا يشبه كلاهما السلطان كان أولهما محمد أحمد بن السيد عبدالله . ولد في قرية دنقلة في اقليم نوبا السوداني في نحو سنة ١٨٤٤ وكانأبوه رجلاً بسيطاً يعمل في بناء القوارب النهرية ويدّعي أنه سيد من آل البيت .

ومهما يكن أصل أحمد فقد كان أحد أولئك العباقرة المثيرين الذين انجبهم الاسلام بانتظام . ترك أخوته الثلاثة يقومون بالعمل وانصرف إلى المدرسة الاسلامية عندما بدت له الخرطوم في ظل حكامها الأتراك (أو الطبقة المصرية العليا) تحت تأثير مزاجه الصوفي وصومه وتهجده صورة زائفة للاسلام الصحيح . وكي يبتعد عن فسادها انسحب إلى جزيرة « ابا » التي تكسوها الغابات في النيل الأبيض على نحو ١٦٠ ميلاً إلى الجنوب ، وهناك عاش كناسك في كهف .

إن المسلمين لا ينتجون رجالاً مؤثرين فحسب بل يستجيبون لهم أيضاً . انتشرت الشائعات بسرعة عن بركة هذا الولي ، فكانت البواخر الذاهبة من فاشود إلى الخرطوم تقف عند الجزيرة للتزود بالحطب اما ما كان يريده الملاحون فعلاً فهو الجواب عن هذا السؤال : أهذا هو المنتظر ؟ أم نبحث عن آخر ؟

وكان المسلمون منذ القدم ، كالمسيحيين يهتمون كثيراً بالبعث ويدرسون « الأخرويات » وتشتد هذه الدراسة في أسوأ الأيام ترونهم يسألون : متى يأتي البشير

بيوم الدين ، أو يوم الحساب ؟ انتشرت في الاسلام نظريات مختلفة واهتم الشيعة بهذه المسألة اهتماماً خاصاً .

لقد بدا أن الرجل الحالم في « ابا » تتوفر فيه هذه الشروط فاسمه الأول محمد واسمه الثاني أحمد واسم والده عبدالله وهو اسم والد النبي ، ولرسالته بساطة رسالة المسيح ، واتباعه المعروفون بالأنصار كأنصار النبي يؤمنون بالله ويعتقدون أن الحياة الدنيا « متاع الغرور » وأن السعادة بعد الموت . كان يقول إن الحياة في الخرطوم ، المدينة الأوروبية المزيفة إنما هي للكفار ومن أقواله أيضاً : « إن هذه الحياة لعب ، والحياة الأخرى هي الوجود الحقيقي » .

كانت رسالته كنقطة ارتكاز تُخل لرفع العالم . لم يكن للسودانيين شجاعتهم وكبرياؤهم كانوا فقراء واتقياء وقد توفر لهم الآن أساس روحي يحتقرون منه الحكام الفاسقين الملحدين .

وتضاعف الاقبال على رسالة المهدي الدينية بتحالفه مع رجل عمل هو عبدالله ابن السيد محمد الذي كان أول من حارب باسم المهدي ثم خلفه بعد موته في سنة ١٨٨٥ ، والذي عرف في التاريخ بالخليفة ، ولم يكن المهدي يسر لخليفته بحقيقة أمره حتى انتشرت الحركة المهدية بسرعة . وصلت أخبار الحركة المفزعة إلى رؤوف باشا الحاكم العام في الخرطوم فطمأنه العلماء بأنهم سيصدرون فتوى يدحضون بها ادعاءات المهدي . ولكن رؤوف باشا كان ادرى بتاريخه الاسلامي . عرف أن كل مهدي ظهر فيما مضى تبع ظهوره الجهاد . فإذا كان محمد أحمد قد قبل كمهدي كان العنف نتيجة ذلك .

في ١٢ آب (أغسطس) ١٨٨١ أرسل الحاكم العام باخرة مملوءة بالجنود للقبض على المهدي ، واحضاره إلى الخرطوم ، وكم كانت دهشة الجميع حين علموا أن أنصار المهدي قتلوا الجنود أو طردوهم .

وهكذا بدأت الثورة .

خلال أربع سنوات خرج السودان عن سيطرة الأتراك والمصريين وحكامهم الجدد الانكليز وقتل اثنان من كبار موظفي الاستعمار ، هيكس باشا والجنرال غوردون ـ في سبيل حمل عبء الرجل الأبيض في دولة الرجل الأسود .

وكان السودانيون أول من نجح في تحدي قوة الغرب منذ التمـرد في الهند . ودام خلفاء المهدي والخليفة زمناً طويلاً على عكس خلفاء المتمـردين الهنود الـذين لم يدومـوا إلا قليلاً(٤١) .

لقد قلنا إن المغرب هو من الدول العربية التي لم يصلها الحكم العثماني ، لذلك وجدت بريطانيا نفسهـا في منتصف القرن التـاسع عشـر نتيجة لأوضـاعها الاقتصـادية المضـطربة مضـطرة لعقد معـاهدة انجلو ـ مغـربية فتحت أبـواب المغـرب للصـادرات البريطانية(٤٢) على أن لا يجبي عليها المغرب ضرائب تفوق ١٠٪ من قيمتها .

(وحذت حذو بريطانيا بعد ذلك كل من فرنسا واسبانيا) فعلى أثر أزمة أدت إلى انكسـار القوات المغـربية ازاء القـوات الاسبانيـة (١٨٦٠) وبفضل هـذا النصر نـالت اسبانيا فوق حرية التجارة ، اعفاءات ضريبية وحقوق تملك لرعاياها وتنـازلات أرضية وضريبة حرب واحتلال تطوان حتى دفع الضريبة (١٨٦٢) .

وفي ٢٧ آب (أغسطس) ١٨٦٣ وقعت فرنسا مع محمـد الرابـع بن عبدالـرحمن معاهدة تقر بالامتيازات الاقتصادية والضرائبية والقضائية ليس فقط لرعاياهـا بل أيضـاً لمن يتمتعون بالحماية الفرنسية .

هـذه المعاهـدات الجائـرة مست باستقـلال المغرب وبـاقتصـاده وفقـد الملك حق السيـطرة على التشـريع الجمـركي وحق مقـاضـاة الأوروبيـين ، وأعفى بعض رعـايـاه بالذات من الخضوع له بفضل قوانين الحماية .

هذه الأوضاع قوت المصالح والنفوذ الأجنبيين في المغرب . وظلت الدول الأجنبية تقوي مراكزها ونفوذها طول بقية القرن التاسـع عشر وأوائـل القرن العشـرين وسعت إلى تقـوية نفـوذ بيوتـاتها التجـارية ، وإلى تمليـك رعايـاهـا أرضـاً مغـربيـة وإلى زيـادة اعـدادهم . ولم يتمكن المغـرب من الاحتفـاظ بـاستقـلالـه إلا بسبب تنـافس الـدول المستعمرة على السيطرة عليه .

وعمـل الحسن الأول باللعب عـلى التناقضـات مـا بـين الـدول المستعمـرة لكي يستعيد سلطانه على جميع رعاياه ، لذلك طالب بالغاء الامتيازات التي تتمتع بها اسبانيا وفرنسا بسبب السيئـات الحاصلة ، فـأدت مساعيـه إلى عقد مؤتمـر مدريـد في ١٩ آب (أغسطس) ١٨٨٠ الذي اشتركت فيه الـدول الممثلة في المغرب . ولكن المؤتمـر بدلاً

من أن يلغي الامتيازات عممها على جميع المشتكين ، فاعترف لجميع الأوروبيين بحق التملك في المغرب ، وهكذا توسع حقل الاستثمار والاستنزاف في المملكة .

والأزمة في عهد الحسن الأول تصادفت مع أزمة اقتصادية في أوروبا التي كانت بحاجة ملحة لأن توجد أسواقاً جديدة لفائض انتاجها الصناعي وحقولاً جديدة لاستثمار رساميلها ، فعمد الملك الحسن الأول إلى استغلال التناقضات الاستعمارية وبخاصة التنافس الانجلو ـ فرنسي ، بغية المحافظة على استقلاله وكان شديد الغيرة والنشاط فحافظ على النظام في المملكة ، ومنع بالتالي قيام أية حجة خارجية للتدخل المسلح . وعند موته في ١٨٩٤ كان المغرب منهوكاً لا ريب بسبب المؤامرات الخارجية ولكن هيبة المملكة كانت محفوظة ، فتسلم رئيس البلاط ابن موسى ، الذي يقال له « باحمد » وهو رقيق في الأصل ، الوصاية على العرش في انتظار أن يبلغ رشده مولاي عبدالعزيز (١٨٧٨ ـ ١٩٤٣) وبرغم استغلاله للحكم مع عائلته للاثراء المستعجل ، إلا أنه تابع سياسة حسن الأول ومات عام ١٩٠٠ عن بلاد يسودها الأمن وذات خزينة وافرة .

وتسلم عبد العزيز الحكم وهو في سن العشرين فتدهور الموقف لأنه كان ضعيف الارادة مهملاً . فسيطرت عليه الحاشية وجعلت ميوله الاصلاحية تهافتاً رخيصاً على كل ما هو أوروبي وجديد . وأصبح بازاراً فيه ما هب ودب من المنتجات الصناعية والتسلية التي تنتجها أوروبا . وأدت تهافتات الملك (وبعزقة) الأموال إلى اصابة الخزينة العامة بالافلاس . فعمد الملك إلى اصلاح ضرائبي في عام ١٩٠١ فعمت التشريعات الجديدة الزراعة والتربية الحيوانية وقاومها رجال الدين وأصحاب النفوذ الذين كانوا بمنأى عن دفع الضرائب من قبل . واتهموا الملك وتشريعاته بالكفر والالحاد . فحصلت خضات اجتماعية ودينية وشعبية ، وظهر مرابط ـ نسبة إلى المرابطين ـ يدعى أبو حمّار « جمال بن ادريس » يدعو إلى الثورة ضد الملك فسادت الفوضى ورفضت القبائل أن تدفع الضرائب الجديدة بدلاً من العشور والزكاة ، فضعفت هيبة الحكم وأصبح التدخل الأجنبي أسهل . وبالفعل أدت المصاعب المالية إلى تسهيل التدخل الأجنبي ، فلما رفضت القبائل دفع الضرائب عمد الملك إلى القروص الخارجية واقترض عام ١٩٠٣ ـ ٢٢١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك بفائدة ٦٪ من المصارف الفرنسية والانكليزية والاسبانية ، وفي العام التالي اقترض ـ ٦٢,٥٠٠,٠٠٠

فرنك بفائدة ٥٪ من مجموعة مصارف فرنسية وتعهد مولاي عبدالعزيز بأن يعمد إذا احتاج قروضاً جديدة إلى تكليف المجموعة المصرفية الفرنسية بانشاء بنك للدولة المغربية ، ويخضع لايفاء ديونه ، ٦٠٪ من الضرائب البحرية التي يوكل بها موظفاً فرنسياً . وما حدث في المغرب في هذه الفترة مو ما حدث في مصر وتركيا في الفترة نفسها تقريباً وأدى فيا بعد إلى انهيار الدولتين وتبعيتهما ، وهذا ما سيحدث للمغرب كما سنرى .

والواقع أن تاريخ الجزائر المبكر هو إلى حد بعيد عين تاريخ المغرب مع فارق وحيد ، ذلك أن الجزائر لم تخضع قط خضوعاً كاملاً لأية دولة أجنبية إلا في القرن العشرين .

لقد كان للرومان سيطرة على الجزائر اعتبروها جزءاً هاماً من امبراطوريتهم ، وكانت الفترة الممتدة ما بين انسحاب الرومان والاحتلال العربي متميزة بحروب قبلية تخللتها بين الفينة والفينة غزوات فندالية من شبه الجزيرة الالبيرية . وسيطرت قبائل بربرية وعربية مختلفة على مصائر البلاد من القرن السابع إلى القرن السادس عشر عندما قضى العثمانيون على الأسر الوطنية الحاكمة وأحلوا محلها بعض الحكام الأتراك . ومن القرن السابع عشر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ سيطر العثمانيون على الجزائر ، اسمياً ليس غير ، إذ كانت انأى من أن يقوى « الباب العالي » على حكمها حكماً مباشراً .

إن قصة القراصنة في شمال افريقيا ومآتي ستيفين دي كاتور[٤٢] في شواطئها معروفة لا تحتاج إلى اعادة في هذا الكتاب ، ولكن أعمال الفرنسيين في الجزائر هي التي تحتاج إلى تحليل . فقد اتخذت فرنسا من نشاط بعض القراصنة الجزائريين ذريعة لغزو البلاد ، وبعد أن رمى « الداي » ممثل فرنسا بالمذبّة[٤٣] في اثناء مجادلة حامية احتلت القوات الفرنسية البلاد ، وأقامت فيها ادارة خاصة . وقد تميزت المقاومة الجزائرية للفرنسيين بجهاد عبدالقادر الجزائري الذي ظل يحارب الاحتلال حتى أسر ونفي في عام ١٨٤٨ إلى دمشق .

وفي عام ١٨٧٠ قسمت البلاد إلى ثلاث مديريات يمثلها في البرلمان الفرنسي نواب لها ، ولكن الفرنسيين لم يجيزوا إلا للقليل من الجزائريين الوطنيين أن يشاركوا في الانتخابات الجزائرية .

وفي بداية القرن العشرين منح الجزائريون حق الانتخاب ولكن على شرط أن يصبحوا مواطنين فرنسيين وكان معظم السكان غير راغبين في ذلك ، أو غير قادرين عليه لأن « المواطنية » لم تكن تمنح إلا لأولئك الذين كانوا يتمتعون بملكية ما ، والذين كان دخلهم يبلغ قدراً معيناً ، والذين كانوا يحسنون الكلام باللغة الفرنسية ويرغبون في الانضواء تحت لواء القانون الفرنسي . وهذا الشرط الأخير كان هو العائق الرئيسي لأن القانون المدني الفرنسي « والشريعة الاسلامية يتعارضان في مواطن كثيرة . وقد كان طبيعياً أن يستنكف المسلمون عن إضعاف روابطهم الدينية والتخلي عنها »[٤٤] .

وطبع تاريخ تونس المبكر على غرار التاريخ الجزائري ، إلى حد بعيد والمدونات القديمة تظهر أن الفينيقيين انشأوا مستعمرة هامة على الشاطىء التونسي ، ثم تبعهم القرطاجيون والرومانيون والفندال ، وقبل انقضاء القرن السادس عشر أديل للعثمانيين من الحفصيين وهم أعظم الأسر الوطنية المحلية شأناً . ولكن الأتراك عجزوا جرياً على مألوف عاداتهم عن أن يفرضوا على هذه الديار التي فتحوها أكثر من سيطرة اسمية فكان يحكم البلاد باشاوات نصف مستقلين وظل الحال على ذلك حتى القرن الثامن عشر عندما انتخب « الانكشارية » - بايا - وحرروا أنفسهم من السيطرة التركية وهنا أيضاً ظلت القرصنة كشأنها في الجزائر ، تجارة هامة مزدهرة إلى أن قضت عليها الولايات المتحدة الأميركية والدول الأوروبية الكبرى .

وعلى الرغم من وجود فترات من القيادة الحكيمة والادارة الفعالة فإن تاريخ تونس في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان بشكل اجمالي، تاريخ حكومة ضعيفة ونزاع داخلي ، وتلك الحالة لم تكن فرنسا لتطمع في شيء أفضل منها ، فعمدت بموافقة انكلترا - وقد فازت بها - مقابل اطلاقها يد الانكليز في قبرص إلى غزو تونس بدعوى « أن الفوضى الداخلية في تلك البلاد كانت تهدد سلامة الجزائر بالخطر » .

وفي عام ١٨٨٠ وجد « باي » تونس نفسه مكرهاً على قبول الحماية الفرنسية ، وهو وضع أضفيت عليه ، فيما بعد ، الصفة الشرعية بمعاهدتي « باردو » عام ١٨٨١ « والمرسي » عام ١٨٨٣[٤٥] .

إذن لقد دخل الاستعمار كل بلدان المغرب العربي ، وكان نزول الفرنسيين على سواحل مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ وقد نجم عن ضرورات السياسة الداخلية

الفرنسية ، وكان العصر قد تخطى الامبراطوريات الأخرى الخاصة بالقرنين السابع عشر والثامن عشر ، لكن لم يكن أصبح بعد عصر اعادة تكوين الامبراطوريات الكولونيالية الحديثة وتقسيم افريقيا ، وهو ما لن يحصل إلا بعد ذلك بنصف قرن .

كان على العكس عصر طفرة الرأسمالية الليبرالية في أوروبا وكان اكتساب المستعمرات عبئاً أكثر منه مكسباً ، ولا ريب أن ذلك كان جزئياً وراء تردد فرنسا طويلاً في سياستها الجزائرية .

إن التمرد الذي قاده الأمير عبدالقادر الجزائري هو وحده الذي اضطرها إلى مواصلة فتحها . لكن جرى السعي عام ١٨٣٧ وراء مساومة ، بموجبها تعترف فرنسا بسلطة الأمير على الداخل وتكتفي « بالاحتلال الساحلي » ـ الجزائر ، بجاية ، بونة ، وهران ، بليدا ، ميديا ـ .

إن الاستعمار الذي تم تكليف العسكريين به كانت تحركه مع ذلك ديمومته الخاصة به . فالجنرال أوجو بوجو الذي عين حاكماً عام ١٨٤٠ واصل القتال ضد عبدالقادر الذي لم يهزم إلا عام ١٨٤٧ ، ثم هدأت الحرب بعد ذلك ما يناهز ربع قرن لكن بعض المناطق الأخرى لم تستسلم إلا عام ١٨٦٤ و ١٨٧١ ولم يتم الفتح إلا عام ١٨٨٠ بعد نصف قرن من الحرب شبه الدائمة .

في كل حال ظلت فرنسا زمناً طويلاً لا تعرف ماذا ستفعله في الجزائر . تأرجحت بين حلم اقامة محمية أو « مملكة عربية » عميلة ، أو الاستعمار الاستيطاني . هذه السياسة أجبرت الجزائريين على نضال يائس من أجل الحياة ، وهو الذي فسر حدة المعارك . لكن ـ فرنسا ـ لم تنجح في جذب ما يكفي من المعمرين الفرنسيين ، في عصر كان يمتص خلاله التمدين في فرنسا فائض السكان الريفيين وهو فائض خفيف في كل حال بفضل اعادة توزيع واسعة للأرض ، وانشاء ملكيات صغيرة تدريجياً اثر الثورة الفرنسية عام ١٨٦٠ ، تخلى نابليون الثالث عن الاستعمار الاستيطاني وعمل على استحداث سياسة كبرى عرفت باسم سياسة « المملكة العربية » اما الجمهورية الفرنسية الثالثة فعادت عام ١٨٧١ وذلك نهائياً إلى سياسة الاستعمار ، وهو ما سهله الاسكان الفقير للالزاسيين واللورنيين[٤٦]

لقد خدمت التجربة المكتسبة في الجزائر استعمار فرنسا لتونس ومراكش وجرى

الاحتفاظ بهدف الاستعمار حتى مرحلة حديثة جداً . ولكن الهدف العبثي المتمثل بـ « ابادة السكان الأصليين » أصبح في خبر كان . سمحت كذلك صيغة الحماية بتخطي الصعوبات التي كان يخلقها المعمرون في الجزائر . ظلوا في تونس ومراكش اجانب ذوي امتياز ومحميين بالتأكيد . لكن أجانب مع ذلك ، غير قادرين اذن على مواصلة ازعاج سياسة المقيم العام .

إن أحمد باي عام ١٨٣٧ ـ ١٨٥٥ ومحمد باي ١٨٥٥ ـ ١٨٥٩ ومحمد الصادق باي ١٨٥٩ ـ ١٨٨١ والوزير خير الدين ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ قد اعتقدوا أن بامكانهم تجنب الاستعمار عن طريق تحديث البلاد تماماً كما فعل محمد علي وخلفاؤه في مصر . ينبغي أن ننسب لهذه الروح ميثاق عام ١٨٦١ الذي بضمانه للحريات الأساسية ولمساواة الجميع أمام القانون كان عليه أن يؤدي نظرياً إلى الغاء امتيازات الأوروبيين ـ نظام الامتيازات ـ وهو ما نظهر تماماً الهدف القومي الذي كان يتوخاه الاصلاحيون .

لقد أخرت تقلبات التوازن الدولي استعمار مراكش إلى عام ١٩١١ كانت تلك المملكة تعيش منطوية على ذاتها منذ قرون . لم يكن السلطان مولاي عبدالرحمن (١٨٥٩ ـ ١٨٧٣) ومولاي الحسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) يتخيلان في كل حال وسائل دفاع أخرى . لكنهما لم يستطيعا منع الانكليز من الحصول عام ١٨٥٦ على اتفاق تجاري ملائم ، ومؤتمر مدريد من منح الأجانب عام ١٨٨٠ حق اكتساب ملكيات في مراكش لقد حاول خلفهما مولاي عبدالعزيز ، بعد وزارة صاحب القدر باي أحمد (١٨٩٤ـ ١٩٠٠) القيام بعملية تحديث وفق ما كان رائجاً في تلك الفترة. أدت هذه العملية كما في مصر وتونس ، إلى استنفاد الخزينة ، وإلى حدوث اضطرابات ، وأجبرت مولاي عبدالعزيز على الاستدانة عام ١٩٠٤ من البنوك الفرنسية . « وقد استولى أقوى تلك البنوك مصرف باريس وهولندا ، على كامل اقتصاد البلاد بصورة تدريجية » وفي السنة ذاتها أدى الوفاق الحبي إلى تصفية المنافس البريطاني بينما ازال مؤتمر الجزيرة العام ١٩٠٦ المنافس الايطالي ، وفتح اقتصاد البلاد للفرنسيين .

إن مولاي حافظ ، وقد أصبح سلطاناً منذ عام ١٩٠٩ استنجد عام ١٩١١ بالجيش الفرنسي لمواجهة تمرد القبائل ، وذلك قبل أن يتنازل عن السلطة لشقيقه مولاي يوسف . وانتهزت فرنسا الفرصة لاجبار السلطان على توقيع معاهدة حماية عام ١٩١٢ ، بعد أن عوضت على المانيا في الكونغو ، فيما استحوذت اسبانيا على الريف

وعلى منطقة ايفنى ، ووضعت طنجا تحت الادارة الدولية . كان النظام الذي أرساه الماريشال ليوني مشابها كلياً لذلك الذي تمت تجربته في تونس : مقيم عام وحكومة مدراء فرنسيين ، هيئة مراقبين مدنيين ، ومأمورين لشؤون السكان الأصليين ، لكن حتى معادل مجلس كبير أو مفوضيات مالية ، إلا أنه فيما كان احتلال تونس جد سهل ، فإن احتلال مراكش كان عسيراً حيث تفجر الكفاح المسلح مجدداً في الريف بعد الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٢٧ ولم يتم احتلال جنوب مراكش نهائياً إلا عام ١٩٣٤[٤٧] .

العلاقات العربية التركية
١٨٥٠ - ١٩١٤

من المهد إلى اللحد !

بعد أن نجح ابراهيم باشا باحتلال سوريا وفلسطين ولبنان وقسما من الامبراطورية العثمانية ، سعت بريطانيا إلى تأليب الدول الاوروبية على مصر ـ كما سبق القول ـ ولم يعد الخلاف بين السلطان ومحمد علي مسألة عابرة ، بل اصبحت مسألة اوروبية تتحالف على مصر فيها الدول الخمس الكبرى ـ بريطانيا وروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا ولا سيما بعد اندحار الجيش التركي في واقعة (نزيب) وانحياز الاسطول التركي إلى مصر . عند ذلك واجهت مصر قوات متحدة لتحالف اوروبا الكبيرة ، فضربت بيروت في ايلول (سبتمبر) ١٨٤٠ وسقط حصن عكا في ايدي الحلفاء ، وعادت القوات المصرية لكي تنكمش في مصر ، وانقضى الحلم الكبير الذي راود العرب في القرن التاسع عشر بقيام امبراطوريتهم .

وفي هذا الوقت كانت تركيا في بداية مرضها ، وبداية افلاسها ، وفي اوج خلافاتها مع مصر ، إذ سمحت هذه الأخيرة لفرنسا أن تستولي على الجزائر[٤٨] مما ادى فيما بعد أن تتخذ فرنسا بلاد الجزائر قاعدة تزحف منها نحو الشرق إلى تونس ونحو الغرب إلى المغرب ، وهذه الدول باستثناء المغرب كانت خاضعة للحكم العثماني .

ولأن بريطانيا إبان الغزو الفرنسي للجزائر كانت منصرفة إلى مشاكلها الداخلية

سنة ١٨٣٠ ولا سيما حركات الاصلاح النيابي التي كانت تشغل بال الانجليز ، سعت بريطانيا لابرام معاهدة اوروبية ـ تركية عام ١٨٤٠ ليس حبا بتركيا بل ساعدتها لتقلص نفوذ فرنسا في مصر والمغرب العربي ، وبموجب هذه المعاهدة عادت تركيا لتتحرك من جديد ولتحاول استعادة الولايات العربية التي افلتت من قبضتها ما يزيد على عشر سنوات (١٨٣٠ ـ ١٨٤١) وقد جرح كبرياءها ما اورثته كراهية العرب لحكمها ، لذلك رأت أن تقوي نفسها في المشرق العربي ، وتتخذ اسلوبا آخر في الحكم بتدعيم الحكم المباشر وتدعيم الحاميات التي تعسكر في البلاد ، ومراقبة اية حركة استقلالية أو انفصالية لتحطيمها قبل أن تستفحل ، واستخدام الدين كوسيلة لجمع الشعوب العربية تحت لواء السلطان باعتباره خليفة المسلمين ، ومحاولة ابعاد النفوذ الاجنبي أو التدخل الاوروبي ، بل لقد عملت ايضا على استرداد بعض نفوذها في الولايات التي خرجت من يدها ، مع حرصها على ابقاء سيادتها على مصر بعد أن قيدت بقيود تمس استقلالها الداخلي ، فهي في العراق تقضي قضاء مبرما على حكم المماليك ، وتعيد ليبيا إلى حظيرة الدولة ، ولاية عثمانية يحكمها وال تركي ، وتحاول استعادة اليمن وتستولي على منطقة الاحساء [٤٩] .

وقد تجلت السياسة التركية الجديدة باجلى معانيها في سوريا أكثر منها في لبنان ، فالعصبيات الاقطاعية والطائفية المذهبية في سوريا كانت اضعف منها في لبنان ، وقد صدر قانون جديد عام ١٨٦٤ قسّم بلاد الشام إلى ولايتين كبيرتين ولاية سوريا وقاعدتها دمشق وولاية حلب ثم اقامت بعد ذلك ولاية بيروت ، كذلك القدس التي تبعت الباب العالي مباشرة .

وقد لقيت الدولة العثمانية في حكم جبل لبنان صعوبات كثيرة نظرا لما يتمتع به الجبل اللبناني من العصبيات الاقطاعية والطوائف الدينية والمذهبية في نفوذ طاغ في مناطقها ، يضاف إلى ذلك ازدياد النفوذ الفرنسي في الشام إذ أن بلاد الشام كانت ملتقى الدسائس الاجنبية التي كانت تعمل هناك منذ عام ١٨٣٢ لاخراج القوات المصرية . وعندما كانت بريطانيا تدس ضد الحكم المصري هناك حاول وكلاؤها الاتصال بالموارنة فلم يستجيبوا لهم نظرا لحسن العلاقات التي كانت تربطهم بفرنسا . فأضطر الانكليز إلى الاتصال بالدروز أن فرنسا تحرض الموارنة بداعي أنها ستحميهم في حكم الجبل ، وانكلترا تحرض الدروز للغاية نفسها ، ومنذ ذلك الوقت بدأت

الفتن الداخلية تنشب بين الموارنة والدروز وما زالت حتى الان ، وقد كانت فرنسا حينذاك تؤيد الحكم المصري بينما الدول الاوروبية الاخرى تريد الابقاء على الحكم العثماني الذي سينهار بعد حين ، أما بالنسبة للبنان فقد كان الانكليز كما قلنا وبحكم ذلك الزمن يحمون مصالح الدروز والفرنسيون يحمون مصالح الموارنة والروس يحمون مصالح الروم الارثوذكس والنمساويون يحمون مصالح الروم الكاثوليك وفي الحقيقة انهم كانوا يحمون مصالحهم (٥٠) والواقع أن النظام الجديد للمتصرفية ١٨٦١ ونظام ١٨٦٤ قام على الاحتلال والتدخل الاجنبي بعد حرب ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ .

والاحتلال والتدخل الاجنبي اديا إلى احداث ١٨٤١ الدامية في الجبل وتلك الاحداث ادت إلى التقسيم وانشاء القائمقاميتين ، الدولة الدرزية والدولة المارونية عام ١٨٤٢ .

والتقسيم ونظام القائمقاميتين ، في ظل التدخل الاجنبي اديا إلى الحرب الاهلية عام ١٨٦٠ .

وادت حرب ١٨٦٠ إلى الاحتلال الاجنبي من قبل فرنسا للبلاد ، وهذا الاحتلال مع التدخل الاجنبي ايضا اديا إلى بروتوكولات ١٨٦١ و ١٨٦٤ وإلى قيام نظام الطائفية السياسية المدمر للبلاد ونظام ١٨٦٤ والتدخل الاجنبي الانتدابي أديا إلى نظامي عام ١٩٢٠ و١٩٢٦ كما سنرى (٥١) .

ولما عاد الاتراك إلى حكم الشام عمدت الحكومة إلى اضعاف مركز الموارنة واخذ حكامها في الشام يسيرون بالوقيعة بينهم وبين الدروز ، وذلك بسياسة (فرّق تسد) التي اتبعها الفرنسيون والانكليز من قبل . وهكذا انتهز الاوروبيون الفرصة للانقضاض على معقل جديد للامبراطورية العثمانية ـ جبل لبنان ـ وكلفوا فرنسا أن ترسل قوة عسكرية بأسم الدول الاوروبية بحيث لا تزيد مدة احتلالها للبلاد عن ستة أشهر ، وقد حاولت فرنسا أن تمد اجل احتلالها للبلاد ، فتصدت لمعارضتها بريطانيا التي انتصر فيها سلاحها الذي اعطي للدروز وانجح حربهم عسكريا على السلاح الفرنسي الذي ادى فيما بعد إلى تحقيق نجاح سياسي للموارنة وبذلك خرجت فرنسا من لبنان في حزيران (يونيو) ١٨٦١ .

وفي عام ١٨٦٤ عادت الدول الاوروبية إلى التدخل وفرضت على حكومة تركيا

أن تمنح جبل لبنان نظاما اداريا خاصا كان اهم شروطه أن يتولى ادارة المتصرفية متصرف مسيحي تعينه الدولة العلية ويكون تابعا رأسا للسلطان وأن يشكل على قاعدة الطائفية (٥٢) .

وكان المتصرف محكوم بأوامر قناصل الدول الاوروبية ومترجميهم من اللبنانيين ، وكان لقناصل الدول الست الضامنة لنظام جبل لبنان وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا وايطاليا ، الكلمة الاولى والاخيرة (٥٣) ومن هنا بدأ انسلاخ لبنان عن الدولة التركية لتنفرد بحكمه فرنسا بعد ذلك وهي تتابع سياستها في نشر نفوذها عن طريق البعثات التبشيرية والتعليمية . وفي السنوات العشر التي سبقت الحرب الكبرى الاولى مضت فرنسا في دعم نفوذها في سوريا ايضا وخاصة النفوذ الثقافي والاقتصادي ، فقامت شركات فرنسية بمد الخطوط الحديدية واقامة اسلاك البرق والبريد وانشاء الموانىء ، حيث بدا للدول جميعا أن الوية النفوذ الاوروبي في بلاد الشام ـ سوريا ولبنان ـ يجب أن تكون لفرنسا ، وسنرى كيف اثرت هذه الفكرة على مصير لبنان وسوريا بعد الحرب الاولى .

ومقابل النفوذ الفرنسي في مصر ولبنان بالاضافة إلى نفوذها في المغرب العربي ، كان العراق مركز نفوذ بريطانيا وقاعدتها البصرة للتوسع باتجاه بغداد والخليج العربي ، وكانت بريطانيا تدرس عدة مشروعات ترمي إلى اقامة خط مواصلات امبراطوري عبر دجلة والفرات ، لذلك انشأت شركة للملاحة النهرية لتسيير سفن تسير بالبخار ومدت خطوط البرق والبريد وما لبث أن اصبح للانكليز النفوذ الاول في العراق ، وحرصوا على منع أية قوة اجنبية أن يكون لها أي نفوذ في تلك الجهات ، وقد ظهر ذلك جليا عندما اتفق السلطان العثماني مع امبراطور المانيا على مشروع سكة حديد برلين ـ بغداد ـ البصرة .

وعندما اكتشف البترول في منطقة الموصل وكركوك في شمال العراق في اوائل القرن العشرين ، ازداد تمسك الانجليز بأن يكون لهم النفوذ الاوحد في العراق وأن يدفعوا عنه أي نفوذ آخر ، لذلك عندماقامت الحرب العالمية الاولى بادرت بارسال حملة بريطانية استولت على البصرة ثم زحفت شمالا لاحتلال العراق .

أما الجزيرة العربية فقد اختلفت اوضاعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إذ سعى الاتراك بعد خروج القوات المصرية منها سنة ١٨٤٠ إلى تقوية قبضتهم

على مختلف اجزائها ، ولم ينسوا ايضا أن يعملوا على استرداد اليمن .

وكان من السهل على الاتراك أن يستعيدوا سيطرتهم على الحجاز ثم على منطقة جبل شمر التي يحكمها ابن الرشيد وهو الذي احتضنته الحكومة العثمانية ومنحته سلطات واسعة بقصد اقامة قوة تتغلب على آل سعود ، وبقي آل الرشيد في عاصمتهم (حائل) صنائع للحكومة التركية يؤيدونها في محاولاتها التوسع في الجزيرة العربية من الاجزاء التي تحكمها الدولة من قبل وبخاصة نجد ، واستطاعت تركيا أن ترسل حملة من العراق على رأسها مدحت باشا استولت على القطيف قاعدة منطقة الاحساء ، وهكذا اصبحت الاحساء متصرفية عثمانية تحاول الدولة اتخاذها مركزا تمد منه نفوذها نحو المناطق الاخرى ، إلى الخليج العربي ، ولكنها فشلت في مسعاها وظلت الامارات العربية على الخليج العربي كالكويت وعمان بمنأى عن الحكم التركي ، ولم تنجح في اختراق نجد ، فقد عادت الدولة السعودية كأقوى ما تكون في عهد فيصل بن تركي ، ولكن عندما توفي هذا الامير عام ١٨٦٥ عمد ابن الرشيد بتحريض من الاتراك على مهاجمة السعوديين من ابناء فيصل المتنازعين واضطر آل سعود إلى الهجرة إلى الكويت حتى قام الملك عبد العزيز آل سعود باستعادة الملك وتأسيس السعودية . أما اليمن فقد تمكنت الدولة العثمانية من استعادة حكمها على سواحل البحر الاحمر فاستولت سنة ١٨٤٩ على الحديدة وعدة مدن أخرى في تهامة . واقدم قائد الحملة التركي على التقدم إلى صنعاء وعزل الامام المتوكل وعين اماما غيره ، غير أن اليمنيين ما لبثوا أن ثاروا واجبروا القوات التركية على الانسحاب إلى الحديدة واعادوا الامام الشرعي إلى عرشه ، وقد كان من العسير على الدولة أن ترسل قواتها إلى اليمن نظرا لصعوبة المواصلات ووعورة الطريق ولكن عندما تم فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ تمكنت تركيا من ارسال اول حملة بحرية إلى اليمن وعسير في السنة نفسها ، لذلك الحصون التي سبق أن صمدت للاتراك حتى اجلتهم عن البلاد ، وفي عام ١٨٧٢ وصلت اليمن حملة اخرى بقيادة أحمد مختار باشا استنجد بهم الامام علي بن المدي ضد بعض القبائل الثائرة ، عندها انتهز الاتراك الفرصة وسلبوه سلطته ولم يعد له من الامامة سوى الاسم (٥٤) .

ولم يطل المقام بهم إذ واجهوا في عام ١٨٩٠ ثورة ضد حكمهم قادها الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين الذي كان من علماء اليمن في (صعدة) وقد

التفت حوله القبائل الزيدية التي تنزل شمال صنعاء وجنوبها ، وظلت الثورة على امتداد عام كامل حارب الاتراك اثناءها مئات البلدان والقرى وحاولوا أن يتفاهموا مع الامام المنصور محمد ، فابى عليهم أي اتفاق لا يكون اساسه جلاء الاتراك وفي عام ١٩٠٤ توفي هذا الامام المجاهد وخلفه ولده الامام يحيى . وقد عزم الامام الجديد على مواصلة الثورة ضد الاتراك وتمكن فعلا من تحرير اليمن من حكمهم (٥٥) .

ولم تنفجر تركيا من الخارج فقط بل امتد الانفجار إلى داخلها حين انبعثت جمعيات سرية تعمل في الخفاء لا يدري بعضها ببعض ، وتكاد تكون كلها متفقة على ايجاد وسيلة للاصلاح والخلاص من هذه اليد الحديدية والحكم المطلق (عبد الحميد الثاني) ، وتبلورت هذه الجمعيات عن جمعية (الاتحاد والترقي) التي كانت نواتها قد نبتت في جنيف عام ١٨٩١ وكان قوامها فتيان من تبعية الدولة العثمانية المؤلفة من اقوام متعددة وكان العدد السائد فيها على الترتيب التالي : الاتراك ويشكلون الاكثرية ويليهم اليهود ثم تأتي بعد ذلك الاجناس الاخرى ، وقد انضم إليها كبار الساسة والمصلحون والضباط الاحرار من الاتراك . ولم تلبث قليلا حتى اخذت تبدأ عملها بأستمالة قواد الجيش إليها ، فنجحت في كسب ولاء الفرق الموجوده في مقدونيا ، وصارت بيدها قوة لا يستهان بها وشرعوا يعملون على انقاذ كرامة تركيا المريضة من الاهانات التي لحقت بها في حروب البلقان وتدخل الدول في شؤونها ، فاعلنت هذه الفرق الثورة والعصيان وطالبت باعادة الدستور . ثم انضمت إليها الفرق الموجودة في جيش الاناضول وأرسلوا إلى قصر (يلدز) الرسائل يطالبون بعودة الدستور ، واشتدت الحركة حتى انضم إليها النساء والرجال من ابناء الشعب ، فلم ير عبد الحميد بداً من الخضوع لمطالب الشعب في اعادة الدستور . ويروى عنه أنه حين اطل من قصر (يلدز) ورأى الجموع الغفيرة تطالب بالحرية قال كلمته المشهورة (هذه هي الامنية التي عملت لها طول حياتي ،لكن الخونة هم الذين حالوا بيني وبين شعبي)(٥٦) .

قد يكون السلطان صادقا في قوله ، فإن البطانات في جميع ادوارها تحول بين رغبة الحاكم ورغبة الرعية ، لأنه عندما اجتمع البرلمان انقلب على عقبيه وانتقم منه شر انتقام ، وعزز اتفاقه بما بثه من الاراء حول هذه الحركة (الحركة الاتحادية) الخارجة على الدين وعلى ولي الامر ، وكان سلوك (الاتحاد والترقي) من الترك ضد القوميات الاخرى معينا له فهتك فتكته البكر باغتيال عدد كبير من الاحرار والضباط حتى بلغ

من قتلوا منهم ٣٠٠ رجل ، ونهب البرلمان وقتل بعض اعضائه ومن ضمنهم النائب العربي الامير محمد ارسلان . ولكن لم يتم له ذلك فقد جمع الاتحاديون قوتهم واعلنوا الزحف على العاصمة والفوا حكومة ثورية اعلنت سقوط العاصمة . وثار محمود شوكت باشا واحتلها في ٢٤ نيسان (ابريل) عام ١٩٠٩ ، والتأم المجلس وقرر خلع عبد الحميد واجلاس اخيه محمد رشاد على العرش . وبذلك انقضى حكم ملك مستبد وأخذ الاتحاديون زمام الحكم بأيديهم في ظل الدستور [٥٧] .

لقد كانت حالة الدولة سيئة ابان اعلان الدستور وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع ، لأن الدولة العثمانية صارت لا تدفع اذى ولا تزيل شرا ، فأخذوا يفكرون في الامر تفكيرا جديا ، ووضعوا خطط الاصلاح التي يرمون من ورائها إلى الاحتفاظ بكيانهم فلما حدث الانقلاب الدستوري فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحماسة وانضموا إلى الاتراك علما منهم بأنه لم يبق في الدولة اختلاف عنصري .

ولقد لعبت دسائس الغرب المنتظرة بالرجل المريض الراقد على ضفاف البوسفور كما لعبت دورا هائلا في اذكاء الحقد بين الامتين . فإن الاتراك كانوا حكام الامبراطورية ويعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم ، وإن حق العرب في مشاركتهم ما هو إلا منحة ولذلك يغيظهم كل ما يطلبه العرب من حق ، أما العرب فكانوا يعتقدون أن الدولة دولة العقيدة الاسلامية التي تشترك فيها الامثال ، وأن اوروبا الثائرة على الرجل المريض لم تكد الكيد إلا من اجل تحطيم العقيدة واضعاف هذه القوة الثابتة في الشرق والحارسة على طرق المواصلات بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة واسواق عالمية ثرية . وأن هذه الخصوبة وهذه الاستراتيجية في بلاد العرب فمن حق العرب أن يشتركوا اشتراكا فعليا في الحكم والدفاع عن بلادهم . خاصة بعدما ظهر لهم ضعف الدولة التركية في تنظيم شؤونها . هذه كانت نظرة العرب إلى الدولة وعلى اسس هذه النظرية تقدموا في مطالبهم .

ملأت القومية رؤوس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافسا في الدولة ، فوضعوا القوانين لتتريل العرب وانشأوا جمعية (ترك اوجانمي) وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية في ابناء الترك وارجاعهم إلى اصولهم حتى ولو إلى الوثنية الطورونية ومن

ثم التخلص من العقيدة الاسلامية وادماج العناصر التي تتكون منها الامبراطورية في هذه الطورانية المنتظرة ، وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على لجانها الأربع . وتنحصر هذه الوظائف في العناية بالاداب التركية والرجوع إلى اصولها مع الخلاص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة الجديدة ومقاومة كل كاتب تركي لا يرى هذا الرأي . والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدريس الناشئة التاريخ الطوراني ، وافهامهم أن الشعب التركي اعظم شعوب العالم ، اختارته القدرة الالهية لسيادة الامم ، فيجب أن تسود قوميته وتمحي القوميات الاخرى وتدمج فيه . ولتحقيق ذلك يجب أن تؤلف كتب الغرور القومي وتنشر بين الشعوب التركية في انحاء العالم اينما وجدوا ، وربطهم جميعا بعجلة الاتحاديين ، وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية احساسهم بايجاد جيل جديد صحيح الجسم والعقل . واسسوا لهذه الجمعية النوادي وفرعوا لها الفروع وامدوها بالمال لتعنى بوضع كتب التاريخ والتراجم عن اسلافهم الاول : أمثال هولاكو ، وجنكيز خان ، وتيمورلانك وأوغوز، وبدأوا بتنفيذ ذلك بأن غيّر الغلاة فيهم اسماءهم العربية وتسموا باسماء طورانية منتزعة من التاريخ القديم . وزادوا على ذلك بأن ادخلوا هذا التاريخ بالمدارس العالية .

يقول الاستاذ ساطع الحصري : (إن الفكرة القومية عند الاتراك العثمانيين بدأت اولا كحركة لغوية ادبية ثم صارت تظهر في الابحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسة ، وإذا سمينا حركة القومية التركية بالاستتراك جاز لنا أن نقول إن تيارات القومية التركية عند الاتراك العثمانيين بدأت باستتراك اللغة ثم انتقلت إلى استتراك التاريخ وانتهت في اخر الامر إلى استتراك الدولة . ومن الطبيعي أن الاستتراك في اللغة والتاريخ مهد السبيل إلى الاستتراك في السياسة والحكم ، ولكن هذا الاستتراك الاخير بدوره ساعد على اتمام الاستتراك في اللغة والتاريخ مساعدة كبيرة) .

وأما إذا اردنا أن نتبع سير هذه التيارات القومية بشيء من التفصيل وجب علينا أن نستعرض مظاهرها في ثلاثة ادوار متتالية :

(أ) (الدور الذي يمتد من بدء حركة التنظيمات إلى حين حدوث انقلاب الدستور وتأسيس شروطية الحكم حسب تعبير الاتراك عام ١٩٠٨) .

(ب) (الـدور الثاني الـذي يمتد من انقـلاب المشروطيـة العثمانيـة إلى اعـلان الجمهورية التركية) .

(ج) (الدور الذي بدأ باعلان الجمهورية التركية) .

ويقول الحصري : إن الفكرة قد اخذت شكل تيـارات قويـة واضحة في الـدور الثاني وصار القائلون بها يبدلون جهودا متواصلة لتنظيمها من جهة ، ولنشرها من جهة اخرى ، فألفوا الجمعيات واسسوا النوادي واصدروا المجلات ، وانتهـزوا كل الفـرص لنشـرهـا بـين الشبـاب وبـين سـائـر النـاس بـواسـطة المقـالات والـدروس والخـطب والمحاضرات والأغاني والاشعار والروايات . وقد لاقوا في البداية معارضة شـديدة من بعض البيئات لان جماعة من الكتاب والمفكرين كانوا يعارضـون فكرة القـومية التـركية باسم الاسلامية ، لأنهم كانوا يذهبون إلى أن النعرات القومية متنافية لمبـادىء الاسلام بوجه عام .

وجمـاعة اخـرى من الكتاب والمفكـرين يعارضـون فكرة القـومية التـركية بـاسم العثمانية لأنهم كـانوا يعتقـدون أن انتشار هـذه الفكرة يؤدي إلى تفكيـك الروابط التي تربط الإقوام العثمانية وتسبب انقراض السلطنة ، ولكن فكرة القوميـة التركيـة تغلبت على هذه المعارضات جميعها .

ويضرب الحصري مثالا على ذلك من امثلة ظهور الفكرة القومية في ميدان اللغة نقلا عما قاله ضياء باشا الذي كان من رجال عهـد التنظيمـات وزميلا لشـاعر الـوطنية العثمانية نامق كمال . ويقـول ضياء بـاشا : (الـذين يبغون اللغـة العربيـة عليهم أن يذهبوا إلى بلاد العرب ، والذين يبغون اللغة الفارسيـة عليهم أن يرحلوا إلى ايـران ، والذين يبغون اللغـة الافرنجيـة عليهم أن يذهبـوا إلى بلاد الفـرنجة ، فـان كل من لا يدرك هذه الحقيقة فهو جاهل . نحن اتراك فيجب أن تكون لنا لغة تركية)[٥٨] .

كانت هذه الفكرة بمثابـة الاستفزاز لبقيـة الشعوب والعنـاصر التي يـظللها العلم العثماني وخاصة الامة العربية التي تكون الاكثرية العظمى في هذه الدولـة . فقد كـان الهجـوم تحديـا للتاريـخ والعقيدة فلم يصبـر العرب عـلى هذا التحـدي ، بـل اعلنـوا سخطهم وشد بعضهم ازر بعض ، وترابطت الجمعيـات وعقدت العـزم على اصـلاح الحال بأية وسيلة من الوسائل ، فـان بقاء الامـور معلقة يؤدي إلى هـلاك الدولـة التي

يتكون منها العنصران الكبيران العربي والتركي . وكانت الحرب الأولى حدا فاصلا لهذا الصراع .

بدأت الثورة في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ ، واظهرت اوروبا الرسمية خلال ثلاثة اشهر كم كان ترحيبها ضعيفا بالاحياء التركي . وفي ٥ تشرين الاول (اكتوبر) اعلنت بلغاريا التي كانت لا تزال اسميا تابعة للامبراطورية استقلالها التام ، وبعد يومين احتلت النمسا رسميا مقاطعتي البوسنة والهرسنك، وبعد خمسة ايام طلبت كريت الانضمام إلى اليونان .

وحطمت هذه النكسات التي جاءت بعد الثورة مباشرة هيبة جمعية (الاتحاد والترقي) وشجعت التقليديين فقاموا في نيسان (ابريل) بثورة مضادة نجحت في القسطنطينية فظل سكانها وحاميتها مخلصين لعبد الحميد . ولكن جيش سلانيك الذي كان قائده ضابط عربي قمع هذه الثورة وزحف إلى العاصمة خلع عبد الحميد ووضع مكانه اخاه لأبيه باسم السلطان محمد الخامس . أما السلطان المخلوع فكان همه منفى مريح . فوضع في قطار مع حريمه نقلهم إلى سلانيك معقل الثورة .

بقي السلطان الروحي حتى النهاية رمزا للسلطة الثابتة بين مسلمي الامبراطورية ، وإذا تعرض حكام تركيا الديمقراطيون الجدد لزوابع في الداخل والخارج اختل توازنهم ، فظل سيرهم تعصبا أو اختلالاً وبما أن العرب المسلمين كانوا أكثر عددا بنسبة ٣ ـ ٢ تقريبا ، فقد امر الحكام الاتراك الجدد حالا بحل الجمعيات كجمعية الاخوة العثمانية ـ العربية التي الفتها جماعات من غير الاتراك ، وهكذا بدا الاسلام مصدرا للانشقاق أكثر منه رابطا .

وتزايد تصاعد الحوادث فزاد الجمعية حنقا،في ١٩١١ غزا الايطاليون ليبيا اخر ممتلكات العثمانيين في شمال افريقيا ، وفي ١٩١٢ اوقفت دول البلقان ما بينها من مشاحنات وتقدمت نحو ما املت أن يكون ضربة قاضية ، ودعم هجماتها استمرار البرود الاوروبي نحو احلام الجمعية التجددية . كثيرون من الشباب الاتراك تعلموا أن يعتقدوا أن السر في الرقي الغربي هو الرأسمالية المتحررة وعقبها العمل الحر انتظروا أن تساعد اوروبا النظام الجديد في القسطنطينية ، وإذا كانت المساعدة المباشرة كثيرة فقد املوا أن تخفف الشروط التي كانت المالية العثمانية تحلم بموجبها لتسديد قروض

الماضي المتراكمة ، ولكن خاب املهم ، فلم يجدوا مساعدة ولا تساهل . وعلى الصعيد السياسي رفضت بريطانيا السماح للاتراك باستعمال مصر قاعدة لمساعدة ليبيا .

في سنة ١٩١٣ تحولت الجمعية المهزومة المجرحة إلى دكتاتورية ترأس أنور باشا الالمعي الضعيف الرأي حكومة ثلاثية ، العضوان الاخران فيها هما جمال باشا الصارم ، وطلعت باشا المجد ، وكان شعارها الوحدة قائمة على سمو العنصر التركي .

نشأ على اثر ذلك التتريك أو العنصرية التركية ، ولم تكن اقل من العنصرية الالمانية . كما انتعشت العنصرية الالمانية في فيينا حيث اصطدم الالمان بالغرب كذلك استمدت العنصرية التركية من وسط اسيا حيث اصطدمت الشعوب التي تتكلم التركية بروسيا الاخذة بالتوسع ، ومن السلانيك على بحر ايجة وكما كتب هيوستن ستيوارت تشنبرلين ، الذي اصبح انكليزيا ، كتابا مدرسيا عن العنصرية الالمانية كذلك كان اول دعاة التتريك غير اتراك . ومن السخرية أن ثلاثة من دعاة العنصرية التركية المهمين كانوا يهودا اولهم ارثر ليملي ديفيد ، الذي وضع كتاب (نحو) باللغة التركية حوى مقدمة حاول فيها أن يبرهن أن الاتراك هم الذين كونوا جزءا من العنصر القفقازي . والثاني ارمينيوس فابري ، الذي لم يكن صديقا لتيودور هرتزل فحسب ، بل ايضا لعدد من المنفيين الاتراك ، تجول كثيرا في مناطق آسيا الوسطى التي يتكلم اهلها اللغة التركية فأثارت وقائع رحلاته الاهتمام في القسطنطينية وسلانيك ، أما الثالث ، ليون كاهون ، فقد كان روائيا معجبا بجنكيزخان، وهو واضع نظرية تقول : إن العنصر الطوراني الاصل قد سبق قادمين كالسلت ، واليونان ، واللاتين . وقد كان كاهون كفانيري ، متحررا متحمسا .

كانت الافكار التي تشدد على العرق واللغة غريبة عن اتراك الامبراطورية العثمانية الذين يجدون انفسهم تقليديا مسلمين فقط . أما لغتهم فكانت مزيجا من التركية والعربية والفارسية كاللغة الانجليزية الحديثة التي هي مزيج من الانجلوسكسونية واللاتينية والفرنسية . وقد استهوى ذلك أحمد توفيق باشا حفيد يوناني اعتنق الاسلام ايضا . بدأ الاول طريقه للكتابة بلغة تركية بسيطة بدلا من العثمانية المنمقة ، وكي يظهر الفرق ألف قاموسا تركيا ـ عثمانيا . وحاول الثاني في تنقيحه نظرية كاهون أن

يبرهن أن الاتراك كانوا العرق الاصلي الذي جاء منه الاوروبيون جميعا ، ووصف هذا بأنه (توراني ـ آري) .

وتُمثل سياسة التحول إلى الغرب بالنسبة إليه عودة طبيعية إلى الاصل لشعب اصبح مشتبكا لسوء حظه بثقافة الشرق الاوسط السامية . لقد استعار الاتراك (مؤسسات) شعوب اجنبية وانتجوا منها حضارة زائفة بدلا من خلق حضارة لهم بتطوير مؤسساتهم الخاصة .

وكان جو كالب التركي يشير بهذا إلى شعبين اجنبيين هما العرب والفرس . فالاتراك باعتناقهم الاسلام ربطوا انفسهم إلى جهازه الواسع ، تأثروا كثيرا في رحلتهم غربا عبر فارس بثقافة الهضبة الايرانية القوية ، واخذوا من العرب والفرس كثيرا من نحوهم ومفرداتهم . طالب جو كالب بنبذ ما أخذ عن الاجانب والعودة إلى المصادر التركية الصافية .

ولم يتنكر جو كالب للثقافة الاسلامية ولكنه طالب بدراسة للمؤسسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي كي تستطيع الحضارة التركية في نشوئها أن تقتبس ما يفيدها .

ولكن عقولا اقل بهاء اندفعت إلى استنتاجات اكثر قسوة بدلا من النحو الاجنبي والاوزان الاجنبية ارادوا أن يكبتوا الشعوب الاجنبية باعتبارها منحطة أو هدامة .

ان العنصرية التركية التي ابدتها ديكتاتورية تركيا الفتاة اظهرت إرتداداً إلى كثير من اشكال القومية . تبدأ كمحاولة كريمة لخدمة ما هو حسن في مجموعة ما والمحافظة عليه وتنتهي بتأكيد تفوق تلك المجموعة .

اخذ الكثيرون من قادة العثمانيين يتغيرون فبدلا من معاملة العرب والاكراد كاخوة مسلمين تصرف بعضهم كمنحطين مسيطرين . طبعا بقي كثيرون من الاكراد مسلمين طيبين ، وبقي معظم العرب ينظر إلى الاتراك كاعضاء في امبراطورية اسلامية واحدة ، ولكن تولد من الاحتكاك ما يكفي أن يجعل الامبراطورية العثمانية تواجه صراعا نهائيا مع صدوع رأسية في الوحدة الوطنية ، تلك الصدوع التي درسها اولئك الذين يريدون هدم هذه الامبراطورية وقد هدموها بالفعل .

لقد كانت مصدر في هذا كله ملتهية عن تركيا للاهتمام بالكارثة التي خلفها اسماعيل وراءه من كوارث مالية واقتصادية، وفي الوقت الذي اقيل فيه اسماعيل وجاءوا بابنه توفيق كان عمر احمد عرابي ٤١ سنة وهو اول اميرال شركسي فلاح جاء به الخديوي سعيد للخدمة العسكرية عندما كان طالباً في الازهر وهو في الرابعة عشرة من عمره .

وعندما وصل عرابي إلى رتبة بكباشي بدأ يلعب دوره في الجيش ، وقد اندفع ليدافع عن الضباط المصريين عندما فرضت بريطانيا دفع نصف رواتبهم الشهرية بحجة خفض النفقات لتسديد ديون اسماعيل .

اختار عرابي الصدام مع الخديوي توفيق من اجل ذلك ، وحين كان هذا الاخير يقضي اجازته في الاسكندرية ارسل إليه بأنه سيقدم له عريضة بأسم الجيش في قصر عابدين بالقاهرة . وكان توفيق يكره الضباط المصريين من الفلاحين ويعتبر أنهم يستحقون حكم الاجانب ، وعندما جاءت مطالب عرابي لصالح هؤلاء ازداد كرها وغضبا لتمرد عرابي واخذ يستمع إلى نصائح مستشاريه الانجليز لاعتقال عرابي وهو يقدم العريضة ولكن الخديوي لم يستمع إلى نصائح المستشارين ، بل تسلم العريضة التي كان احد بنودها اقالة الوزارة التي يسيطر عليها رجال من طبقة الشركس والاتراك الحاكمة ، وكان من بنودها ايضا زيادة عدد الجيش المصري وزيادة مرتباتهم .

ودعي عرابي إلى قصر النيل ، وكان الخديوي قد وافق مبدئيا على مطالب المصريين كلها . أي وزارة جديدة وبرلمان جديد ، وعودة الضباط المفصولين . ان مصر التي التقت حول هذا المصلح الثائرعرابي ، وبعد ارتياب اولي ، قد غيرتها تجاربها في القرن التاسع عشر . ومع أن المصريين افتقروا إلى اجهزة دستورية يعبرون بها عن ارادتهم إلا أنه توفرت لهم مؤسسة هائلة هي جامعة الأزهر التي درس فيها عرابي والتي ارتبط تاريخها منذ تأسيسها بتاريخ مصر . ولذلك كان الخديوي والانجليز من ورائه يخشون تحرك الازهر إلى جانب عرابي ويفلت الامر من ايديهم .

وبذلك وضع حادث عابدين عرابي في مركز يسيطر منه على مصر ، مع أنه لم يكن ابدا اكثر من وزير للحربية إلا أنه في سنة ويومين كان صاحب القوة الفعلية في مصر .

ووجد السلطان العثماني في تركيا الـذي المته خسـارة تونس بـاحتلال فـرنسا لها اساسا للامل في ظهور مسلم قوي في شمال افريقيا ، ولكنه امل مشوب بالخطر .

لقـد كتب لورد غـرانفيل وزيـر خارجيـة غلادستـون إلى سير ادوارد ، مـا لبث القنصل البريطاني في مصر يشرح له قـواعد السيـاسة البـريطانيـة على ضـوء تصرفـات عرابي :

(يجب قبـل كل شيء المحـافظة عـلى السيادة العثمـانية الاسميـة لأنها إذا كانت اسمية لن تؤثر في مجرى الامور ، وإذا كانت قائمة فانها تهيء لبـريطانيـا ستارة تعمـل من ورائها ، وتبعد ايضا التدخل الاوروبي لكن يجب أن لا تصبح السيادة العثمانية في أي حال فعالة) . شدد غرانفيل على رغبة (الحكومة البـريطانيـة في المحافـظة على تمتـع مصر بدرجـة الاستقلال الاداري التي اكسبتهـا اياهـا فرمـانات السلطان) وهـذا يعني بعبارات اقسى التمتع بالسيطرة الاجنبية على مـاليتها ، وهـذا امر استـطاع السلاطـين العثمانيون مقاومته في وطنهم الأصلي) .

وعندما استمع توفيق إلى الرسالة اشعل معناها الامـل وراء وجهه المتلبـد القانط وتحمس الخديوي لمعاقبة المصريين .

وهنا احتاجت بـريطانيـا كي تتمكن من تحطيم عـرابي إلى مبرر قـوي أو احلاف جريئين ، ولم يكن لـديها أي منهـا .واقترحت فـرنسا أن يستبـدل توفيق بـالامير حليم الاكثر جاذبية . لكن بريـطانيا وجـدت مبررا ضعيفـا حين اتهمت جماعة من الضبـاط الشركس بالتآمر على حياة عرابي ، ولكن ذلك اظهر عرابي على أنه يقود ثورة حقيقـة ، لذا اخذ اعداؤ ه يحاولون حلا بعد اخر . اقترح الخديوي أن تـطلب السلطنة العثمـانية من الانجليز والفرنسيين التدخـل ، وكانت قـد وصلت إلى ميناء الاسكنـدرية في تلك الفترة بواخر انجليزية وفرنسية على متنها ٣٥٠٠ جندي الامر الذي قد يرفـع معنويـات الخديوي ليـدعو احـد الشراكسـة لتأليف وزارة مدنيـة يبعـد عنها عـرابي . وإذا كانت الرشوة قـد فشلت في اقصاء عـرابي فان وجـود الاسطول في المينـاء فشل ايضـا في حمل القصر على اقالة الوزارة بل رفعت شعبية عرابي ، إذ التف حوله المصريون خاصة .

خشي قادة الاسطول في الميـاه الاقليمية أن ينـزل جنوده إلى البـر لاقصاء عـرابي

وحـل الجيش المصري ، بـل ادى ذلك بفـرمان من السلطان إلى تـرقية عـرابي من رتبة بكباشي إلى رتبة باشا .

وجاءت الاوامر بالتدخل العسكري من لندن باسرع وقت ممكن إلا أن فرنسـا لم توافق على ذلك فقررت بريطانيا أن تقوم بـالعمل العسكـري وحدهـا ، وكان اول مـا فعلته بريطانها أنها امرت رعاياها المدنيين بالابتعاد عن الاسكندرية .

لقد كان الجيش المصري مستعدا في كفر الزيات خط الدفاع ضد أي هجوم على القـاهرة . وكـانت السفن الفرنسيـة قد غـادرت الاسكندريـة إلى بور سعيـد ، وكانت السفن البريطانيـة قد خرجت من الميناء لتـأخذ مـواقعها القتـالية حـين اطلقت السفن البريطانية قنبلة على حصن جرى تسليمه حديثاً ، ثم تبع ذلك امـر إلى بقية الاسـطول باطلاق النار على المدفعية المصرية . وكان القتال رهيبا ومرعبا حيث كانت كتل الدخان تحيط بـالسفن . لقد قـاتل المصـريون بحـرا وثبتوا في مـراكزهم عـلى الـرغم من عـدم براعتهم .

ولم يكد قذف القنابل يتوقف حتى كانت الاسكندرية تحتـرق أما بفعـل القذائف أو عمدا ، عندها تراجع الجيش المصري إلى مـوقع دفـاعي جنوبي البحيـرة التي تفصل الاسكندرية عن بقية مصر . بعدها نزل جنود بريطانيون إلى المدينـة لحمايـة الخديـوي الذي كان هناك ونجا من محـاولة قتله من قبـل الجنود المصـريين . ولم يختـرق الانجليز خط الدفاع المصري بل وضعوا خطة للزحف عـلى القاهـرة عبر قنـاة السويس بعـد أن اجبروا الخديوي على اقالة عرابي .

كان عرابي قد جمع حوله رجـال الازهر والاثـرياء الـوطنيين والمثقفـين وكان ينفق اكثر وقته في العبادة والصلاة جماعة مع هؤلاء وعندمـا وجد أن البـريطانيـين يتقدمـون نحو القاهرة قرر اغـلاق قناة السـويس ولكن الانجليز كـانوا اسـرع منه نـظراً لوجـود ثـلاثين ألف جنـدي مقابـل ثلاثـة عشر الف جنـدي مصـري معـظمهم لا يصلحـون للقتال ، ولذلك هزمه البريطانيون في معركة (التل الكبير) .

وبقي عرابي تحت رحمة الانجليز ، أما الخديوي توفيق فقد عاش تحت رحمة ادارة كـرومر للشؤون المصـرية خـلال السنوات البـاقية من القـرن التاسـع عشر والسنـوات السبـع الاولى من القرن العشـرين ، حيث اصبحت مصـر محمية مقنعـة لم يعـد فيهـا

لتوفيق الذي مات عام ١٨٩٢ ولولده عباس حلمي سوى سلطة قليلة . اما مصير عرابي الشخصي فقد اظهر دليلا على النفوذ البريطاني اقل وضوحا ، فقد امر الانجليز بسجنه في وسط القاهرة . لكن شيئا حدث وعرابي في سجنه . فقد قامت ثورة المهدي في السودان بعد أن ذاع اسم عرابي ومواقفه الوطنية مما اعطى الحماس لاشعال ثورات ضد الاجانب ، وقد فتح ذلك فصلا جديدا في قصة المقاومة الوطنية في العالم العربي . وفي هذا الوقت بالذات ارسل السلطان عبد الحميد رسالة إلى عرابي يقول فيها : إن اعمالك منسجمة مع السياسة العثمانية . وقد انقذت هذه الرسالة رأس عرابي الذي كانت تعد له المشنقة الانجليزية في ساحة عابدين . لذا اختار البريطانيون نفيه إلى سيلان مع صحبه .

وكانت تلك هي بداية جديدة لاستعمار من نوع اخر لم تعرفه مصر التي كانت تقود العرب إلى امبراطورية كبرى . أما تركيا وبقية الدول العربية فقد كانوا في مواقع المراقبين فقط .

النهضة العربية والبدايات الإستعمارية

ظهور الوعي القومي والنمو الاقتصادي

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا في ذروة نهضتها ، كانت الامبراطورية العثمانية في مرحلة العد العكسي عندما أثبتت عجزها عن الدفاع عن البلاد العربية بعدما دهمها الغزو النابليوني عام ١٧٩٨ . يومها بدا للمصريين أنه لا بد لهم من التخلص من الحكم العثماني الذي رزحت مصر والعالم العربي تحت وطأته منذ أوائل القرن السادس عشر . وهكذا أصبح انهيار النظام العثماني مقدمة لا مندوحة عنها لنهضة مصر في القرن التاسع عشر وما بعده .

لقد كانت فلسفة العثمانيين في الحكم قائمة على أن تخفف الدولة بقدر ما تستطيع من أعباء الحكم المباشر ، فتترك الرعية يديرون شؤونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها . فإن احتاجوا ـ مثلاً ـ الى شيء من التعليم التمسوه عند بعض العارفين أو « الجاهلين » ، وأمور الزراعة يديرها أهل الفلاحة مع ملتزميهم ، وأمور الصناعة تجري على ما يرسم أهل الحرف في طوائفهم ، والتعليم في المدارس الدينية والمساجد يسير على مألوف ما أعتاده العلماء والمجاورون من الطلاب .

يجري هذا كله دون أن تتدخل الدولة لترسم سياسة معينة لشؤون الزراعة ، أو الصناعة ، أو التعليم ، أو التطبيب ، أو غير ذلك مما تنهض به الدول الحديثة . والدولة العثمانية قانعة ببقاء كلمة السلطان واسمه يذكر على منابرها مقروناً بالدعوة والدعاء له بالبقاء . ونائبه الحاكم في أية دولة أو قطاع يستبد بالناس ، أو يستبد به

القادرون من أصحاب القوة والنفوذ . . . وإلى خزائن القسطنطينية ترسل الأموال في كل عام من الضرائب التي تفرض على الشعب .

وهكذا عاشت الأمة العربية فترة من الزمن امتدت إلى أكثر من أربعة قرون في ظل الانحطاط الادبي والفكري والعلمي لا تعرف من أمور العالم حولها سوى ما يسوقه اليها الحاكم أو السلطان .

ولقد أدى هذا الاسلوب في الحكم الى اهمال مرافق البلاد اهمالاً شائناً ، وذلك لعدم وجود سياسة عامة ترسمها الدولة وتقوم ادارتها على تنفيذها . واستتبع هذا الاسلوب في الحكم أن السلطة العامة ـ سلطة الدولة ـ قد تفتت ، وفسح المجال للعنف والتعصب والاستبداد فتحولت سلطات الدولة الى عصبيات ـ بل عصابات ـ مسلحة ، تسعى كل منها الى أن تقوى على حساب غيرها للاستئثار بأقصى ما تستطيع الاستئثار به من سلطان وجاه ومال ، من عصبيات مملوكية الى زعامات بدوية ، الى عصابات لبعض الملتزمين في الاقاليم .

لذلك كان لا بد من أن ينظم المجتمع نفسه لمواجهة هذه الحالة ، وذلك بأن ينتظم الناس في طوائف وهيئات . ليكونوا بذلك أقدر على تدبير أمورهم ، والدفاع عن مصالحهم ، فأهل الفلاحة يهيمن عليهم نظام الالتزام ، والمشتغلون في الصناعات بالمدن منتظمون في طوائف الحرف ، وأهل العلم من العلماء والمجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها ، والمتصوفة لهم طرقهم ، والاعراب والبدو منتمون الى عشائر معروفة . والحكومة لا تتصل بأحد من هؤلاء إلا عن طريق طائفته ، فهي لا تعرف الفرد إلا مندرجاً في طائفة ، والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه كله وليس بمقدوره الحياة آمناً إلا إذا كان منتمياً إلى طائفة يخضع لنظمها ويحتمي بظلها . وهكذا توزعت الأمة ـ وهذا تعبير حديث ـ بين طوائف مختلفة ، لكل طائفة كيانها وزعامتها وتقاليدها ، وهي تأخذ المنتمين اليها بفنون من النظم والتأديب والتهذيب ، كان لا بد منها في عصر انكمشت فيه وظيفة الدولة وتفتت سلطانها وعزت حماية الفرد .

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفة إلى طائفة أخرى ، فقد جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحاً ، وابن الصانع صانعاً ، وابن المتعلم متعلماً ـ وليس ثمة ما يدعو ابن الريف ـ وحاجته في المأكل مكفولة ـ إلى أن يهجر قريته إلى المدينة ،

فليس في المدينة ما يغريه بذلك ، وابن المدينة لا يستطيع أن يستحيل جنـدياً أو مملوكـاً أو اعرابياً .

إضافة الى ذلك كله صعوبـة المواصـلات بين أجـزاء الوطن الـواحد ، حيث لا طرقات ، سوى معابر الدواب والجمال ، ولذلك انحصر التبادل التجاري الـداخلي في حدود ضيقة فانقسم القطر الى وحـدات اقتصادية شتى ، تكاد كل واحدة منهـا تكفي نفسها بنفسها ، حتى لا تضطر الى الاعتماد على ما يـرد اليها من خـارجها . ومن هنـا نشأت الأسواق المحلية الضيقة في أماكن التجمع السكاني وفي محيط ضيق .

ولم يقتصر الأمر على ضيق الاتصال المـادي بين النـاس ، ولكنه تعـداه إلى ضيق الاتصال الروحي والفكري ، وذلك لفقدان الاسباب والأدوات التي من شـأنها تقريب الناس بعضهم الى بعض وتكوين الرأي العام وصهر أبناء الـطوائف المختلفة في بـوتقة واحدة ، هي القومية المشتركة .

وقد عاشت مصر وهي أكبر دولة عربيـة على هـذه الحال شـأنها شأن غيـرها من الدول العربية دون أن تتعرض الى أية هزات خارجية ، أو نكبـة داخلية من شـأنها أن تثير بين الناس الاهتمام العام وتحفزهم على التفكير المشتـرك والعمل المشتـركة لمـواجهة الحدث الخطير ، وقد استمر الـوضع عـلى هذه الحـال إلى أن بدأ شيء من الصلة بـين مصر والعالم الخارجي ينعقد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر نتيجـة لمشروعـات احياء الطريق المصري القديم للتجارة والنقل بـين الشرق والغـرب ـ نهض السلاطـين العثمانيون يقاومونها ، خشية أن تقع مصر في أيدي الـطامعين ، ولكن سيـاسة العـزلة التي عمل السلاطين على فرضها لم تجنب مصر الغزو الفرنسي ، بل انها بمـا أشاعت في مصر من جهل بحقيقة الأوضاع والقوى العالمية يسرت لهذا الغزو طريق النصر .

في هذه الفترة ، وعشية الغزو النابليوني كـان النظام العثمـاني المملوكي بمصر في بداية انهياره ، وعندما انهزم هذا النـظام أمام الغـزوة الفرنسيـة اهتزت ثقـة المصريـين بالسلطة العثمانية ، وبالتـالي بدأوا يفقـدون ايمانهم بهـا ، خاصـة وأن الغزوة الاجنبيـة بحد ذاتها هي الثانية منذ أيام الحروب الصليبية ، لـذا كانت بمثـابة الانفجـار الكبير ، وفي ظل المقاومة المصرية لها تقاربت طوائف المجتمع من أهل الفلاحة والحـرف والعلم

والبدو . وفي هذا التقارب بزغ فجر جديد من الوعي القومي ، كان هو أيضاً أحد المعاول التي تعاونت على هدم النظام التركي القديم .

وفي السنوات القليلة التي تلت جلاء الفرنسيين ـ بمساعدة الانكليز ـ أظهرت العوامل الجديدة تأثيرها : حاول كل من الفريقين ، العثمانيون والامراء ، أن يسترد ما فقده ، ولكنه لم يستطع ، لأن كلاهما عاد أضعف مما كان عليه مادياً ومعنوياً ، وعجزت العناصر التي كان يتألف منها كل فريق عن أن تتكاتف للدفاع عن كيانها ، فكان انهيارها جميعاً .

ولكن الحق أن الضربة القاضية للنظام العثماني في مصر لم تكن فقط نتيجة لظروف خارجية ، بل لظروف داخلية أيضاً ، أتت من أحد أدوات هذا النظام . فان المصريين في ثورتهم على الباشا العثماني خورشيد في أيار (مايو) ١٨٠٥ لم يختاروا أحد علمائهم ، أو زعمائهم ليكون والياً عليهم ، حتى ولو كان السيد عمر مكرم نفسه زعيم المتصدرين لحركات المقاومة الشعبية في ذلك الحين ، ولكنهم اختاروا لذلك أحد الجند العثمانيين وهو محمد علي باشا الذي أرسلته الدولة العثمانية لاخراج الفرنسيين من مصر ، وقد اختاروه لانهم قدروا فيه الصفات التي كانوا يتطلعون اليها في الحاكم الجديد : حب للعدل ، ورأفة بالرعية وانصاف للمظلوم . وكان عمر مكرم نفسه من أشد المتحمسين لمحمد علي ، ودبر معه الأمر حتى تم ، وهو لا يدري أن حركة ١٨٠٥ لها ما بعدها ، وأنها ستقضي على النظام العثماني منذ اللحظة التي استلم فيه الوالي الالباني الاصل محمد علي الحكم الفعلي (١٨٠٥) في مصر .

ولقد جاءت هذه القفزة النوعية في موعدها لأن مصر قد أصبحت فجأة مسرحاً للحرب الباردة والساخنة بين الفرنسيين والانكليز ، وهي الحرب التي انتهت باخراج الفرنسيين وبقاء الانكليز لمدة عامين (١٨٠١ ـ ١٨٠٣) ، ولم يخرج الانكليز بعد ذلك من مصر إلا بضغط فرنسي سياسي ، وهكذا بدأت عملية المد والجزر ، ليعود الانكليز بعد أربع سنوات الى مصر لاحتلالها (١٨٠٧) ولتبدو مصر عنصراً أساسياً منذ ذلك الحين في السياسة الدولية ، وحتى هذه اللحظة . ولكنه عنصر (سلبي) إذ أن ضعف مصر ، وضعف الدولة صاحبة السيادة على مصر قد أصبح أشد ما يغري الدول الأوروبية المتنافسة على امتلاك هذا الموقع الهام في المواصلات الدولية ، فكان لا بد لمصر محمد علي أن تواجه هذا الواقع الجديد فتستبدل بالضعف قوة ، وذلك بأن

تعمل على تنمية مواردها واحياء الموات من أرضها ، وتنظم قوتها العسكرية حتى لا تصبح مجرد « ولاية » يهددها من وقت لآخر شبح الغزو الاجنبي وتعبىء قواها الروحية فتأخذ بأسباب العلم الحديث والثقافة الحديثة وتعمل على احياء ثقافتها العربية الاسلامية ، وبذلك تصبح مصر عنصراً أساسياً في السياسة الدولية ، وعاملاً فعالاً في الحضارة الانسانية ، وتعرف قدرها في هذا العالم . وقد كانت مصر بالفعل في عهد محمد علي اقوى واهم من بريطانيا وفرنسا في كل المجالات العسكرية والاقتصادية .

وكان على مصر أن تقدر ما عليها من مسؤ وليات تجاه من حولها ،فتعود الصِّلات قوية مع السودان المنتسب الى حضارة وادي النيل ، والذي لم تحكمه الامبراطورية العثمانية إلا من خلال باشوات مصر الاتراك ، وتعود مصر إلى تنظيم شؤ ون الجنوب ، ومن ثم تصل إلى قلب أفريقيا ، الى منطقة البحيرات الاستوائية ، وإلى شرق أفريقيا ، حيث تنتعش مرة أخرى مقومات العروبة والإسلام في كل مكان من أفريقيا وصله المصريون رافعين هذه الراية .

وعلى هذا النحو تحددت الرسالة والبرنامج :

١ ـ نهضة داخلية شاملة تتناول جميع مرافق البلاد الاقتصادية والاجتماعية والادارية والثقافية .

٢ ـ تكوين قوة عسكرية في البر والبحر للدفاع عن البلاد وتنفيذ سياستها الخارجية .

٣ ـ اتخاذ سياسة خارجية نشطة تهدف الى الانسلاخ من السيطرة العثمانية واحياء الشرق العربي .

تلك هي العناصر التي تألفت منها نهضة مصر ، ولعبت فيها بعد بمصيرها ظروف أخرى ، ولا تزال هذه العناصر برنامج عمل لرحلة الكفاح الطويل ، خاصة وأن بداية تلك النهضة سرعان ما ورثتها بريطانيا باحتلالها مصر عام ١٨٨٢ .

وأول ما فعله محمد علي تجنيد الفلاحين المصريين في الجيش ، ودفعهم الى المدارس للتدريب باشراف خبراء فرنسيين ، ثم نظم الخدمات الصحية وتبعتها المستشفيات للمحافظة على صحة الجنود ، ثم أسس المصانع لانتاج المعدات الحربية التي كانت الأولى من نوعها في أفريقيا . كلفت هذه الاصلاحات محمد علي مالاً كثيراً

ولكنه أثبت براعة في الحصول على أموال جديدة براعته في تهيئة جنود جدد .

كانت الزراعة مصدر الثروة الرئيسي في مصر ، وكان المماليك قد قسموا البلد إلى مزارع كبيرة سيئة الادارة ، أما محمد علي فقد وحد كل الأرض الصالحة للري وجعلها ملكاً له ، وجعل الفلاحين عبيد أرض في مزرعة دولة واحدة هائلة . في هذه الأرض نجح في زرع محصول جديد هو القطن ، فحل هذا القطن الطويل الالياف محل القطن القصير الالياف الذي كان يزرع أيام الفراعنة . وأمر محمد علي بزرع تسع أرض مصر الصالحة للزراعة قطناً فارتفعت صادراته من ٦٥٠ رطلاً في سنة ١٨٢٠ إلى ١٨ مليون رطل بعد ثلاث سنوات فقط[٥٩] وبذلك أصبح القطن مصدر دخل مصر الاساسي في القرن التالي وحتى الآن تقريباً . وأوحت هذه الزراعة الجديدة لمحمد علي بضرورة استخدام وسائل حديثة للري والنقل . لذلك بدأ ، وان لم يكمل في حياته ، ببناء قناطر كبيرة على النيل عند عنق الدلتا شمالي القاهرة تجعل الري ممكناً على مدار السنة ، وبعد أن قضى على القراصنة الذين كانوا يهددون حركة النقل في النيل شق قناة سماها المحمودية تكريماً للسلطان العثماني محمود الثاني وصلت الاسكندرية بالنيل ، فأصبح بالامكان شحن المحاصيل الزراعة بعد تحسين الري ـ بالسفن الى أسواق أوروبا عن طريق ميناء موسع جديد في الاسكندرية ، فبدأت الاسكندرية نفسها تستعيد بسرعة أهميتها الضائعة .

إن طاقة محمد علي المبدعة جعلته أغنى من سيده السلطان العثماني وأقوى ، وبذلك أصبح حاكماً مستقلاً بالفعل ، ولكن ليس تماماً . ولهذا عاد السلطان يتمسك بمصر خاصة بعد انسلاخ الولايات الأوروبية من السلطنة الأمر الذي جعلها أكثر تشبثاً بما بقي لها من الولايات الإسلامية ، ومصر في مقدمتها . ورفض السلطان محمود الثاني آنذاك أن يعتبر نهضة مصر مصدراً لقوته بل على العكس ، كان الهدف المباشر للاصلاح في نظره أن تتمكن الحكومة المركزية من أن تهدم كل ما يقوي الحياة في الاقاليم ، لذلك راح السلطان يكيد لمصر بشتى الوسائل ، حتى أنه لم يتورع من التحالف عليها مع الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها انكلترا وروسيا ، حتى استطاع في سنة ١٨٤٠ وقف التوسع المصري ، بل عرقلة النهضة في سيرها .

ولكن النفوذ الاجنبي لم يشأ أن يترك السلطان وحده صاحب الكلمة في مصر ، وهذا النفوذ لم يقدم العون للبلاد لوجه الله ، ولكنه كان يقدمه ممزوجاً بالنفوذ والسيطرة

والاطماع التوسعية . حتى أصبح لزاماً على مصر أن تكون حريصة كل الحرص أن لا تفتح معها باب التدخل الاجنبي ـ وهي في سبيل دعم نهضتها ، ولكنها في النهاية لم تقدر على رد تلك الاطماع ، فانفتح باب التدخل الاجنبي على مصراعيه وكان ـ هو الآخر ـ من أهم (العوامل التي عرقلت نهضة مصر في القرن التاسع عشر وقيدت حريتها في العمل ، حتى أوقعتها في النهاية فريسة للاحتلال البريطاني)

وكانت بريطانيا أكثر من السلطنة العثمانية سعياً لعرقلة النهضة المصرية والتوسع المصري في القرن التاسع عشر . فقد قدرت أن قوة مصر واتساعها في الشرق العربي وأفريقيا ليس في مصلحتها . وهكذا تم ذلك التحالف بين السياسة العثمانية والسياسة الانكليزية لوقف القوة المصرية وتعويق النهضة ، وقد تم لها ذلك في النهاية .

وليست مصر ، كما رأينا ، وكما سنرى هي التي فتحت الأبواب للتدخل الاجنبي في شؤونها بل السياسة العثمانية التي أفسحت باب التدخل في شؤون مصر الناهضة ، وقد شهدت السنوات التالية لسنة ١٨٤٠ فنوناً من التدخل الاجنبي السياسي والعسكري والاقتصادي الذي كان يرمي في النهاية الى تقييد حرية مصر العسكرية والحد من نشاطها الاقتصادي على شكل معين والسيطرة على ماليتها وانتهاك مرافقها ، وزيادة المنشآت الاجنبية فيها من شركات امتيازات ومحاكم مختلطة ورقابة مالية . . . الخ . حتى غدا القرن التاسع عشر ليس عصر النهضة فقط ، وإنما عصر الضغط الاجنبي أيضاً ، وهكذا خطّت السياسة العثمانية بتحالفها مع انكلترا والدول الاخرى مستقبل مصر السياسي ، بل أنها حفرت لمصر بيديها الهوة التي وقعت فيها بعد اثنين وأربعين عاماً (احتلال بريطانيا لمصر ١٨٨٢) .

وبذلك ازداد والي مصر ضعفاً ازاء التدخل الأوروبي ، وانصرف لرد كيد السلطان العثماني ووقف تدخله في شؤون الحكم الداخلي حتى امتلأ تاريخ مصر بين ١٨٤٠ ـ ١٨١ بفنون من التنازع بين ولاة مصر وسلاطين الدولة ووزرائهم .

على أن القوة التي ارتكز عليها محمد علي في حكمه ، وهي قوة شعبية ، ومادية ، وسياسية حملته الى دفع ابنه ابراهيم باشا للسيطرة على بلاد بر الشام وجزءاً من الاناضول الجنوبي (١٨٣١ ـ ١٨٤١) . وقد زرع ابراهيم باشا في هذه الامصار ما سبق لوالده أن زرعه في مصر من ركائز النهضة الحديثة ، فالتطورات العسكرية

والسياسية التي وقعت في لبنان وسوريا ارتدت نهضة الى مصر . وكما سبق القول فإن ابراهيم باشا قد سمح للارساليات الاجنبية بأن تزرع الافكار الغربية في الاجزاء التي احتلها ، ومن ثم أسس اليسوعيون الفرنسيون والبروتستنت الاميركيون المدارس والكليات ـ ومنها الجامعة الاميركية في بيروت ـ ونشرت المطابع المحلية أول مرة كتابات بالعربية والفرنسية والانكليزية .

ولم يحمل ابراهيم باشا الى بر الشام الغزو العسكري والثقافي فقط وقد تحدثنا عن ذلك ـ بل الروابط التجارية والاقتصادية ، والعلاقات الحياتية بين مصر وبر الشام .

لقد كانت مصر ، عام ١٨٣٢ ، العميل التجاري الثاني لبر الشام ، وكانت المبادلات مع مصر تشكل ١٩,٤٨٪ من مجمل تجارة بر الشام الخارجية الى ١٠,٠٥٪[٦٠] .

ويعود ذلك إلى تأثير التوسع الأوروبي على الاقتصاد المصري الذي تعرض خلال هذه الفترة لتغيرات كثيرة بعد أن أرسى محمد علي أسس الصناعة والزراعة في مصر ، ولكن في عام ١٨٨٠ أي قبل عامين من احتلال بريطانيا لمصر استطاعت السيطرة السياسية البريطانية أن تخفض أسعار المنتوجات الزراعية المصرية الرئيسية ومنها : القطن والسكر والشعير والقمح[٦١] وأصبحت هامشية لا تستخدم إلا ٤ أو ٥٪ من السكان القادرين على العمل ، وكانت تقتصر بشكل رئيسي على بعض المنتوجات الخفيفة ، وكانت تخضع في السوق المحلي لمزاحمة أجنبية قوية ، وفي الأسواق الخارجية لاجراءات الحماية[٦٢] .

ففي السنوات السبعين الاخيرة من المرحلة نمت تجارة مصر الخارجية ، فارتفعت الصادرات من مليونين الى ٣٢ مليون ليرة مصرية (أي أكثر من ١٦٠٠٪) بين ١٨٤٠ و١٩١٠ ، اما الواردات فقد ارتفعت من مليون ونصف مليون ليرة مصرية الى ٢٥ مليون (أي أكثر من ١٦٦٠٪) خلال الفترة نفسها[٦٣] .

وقد أحدث النمو السريع لقطاع القطن في الاقتصاد المصري ، منذ أواسط القرن التاسع عشر تدفقاً كبيراً لرؤوس الأموال الاجنبية (خاصة البريطانية والفرنسية) وبما أن بريطانيا كانت تحصل منذ عام ١٨٤٩ على ٤٩٪ من صادرات مصر وتؤمن لها ٤١٪ من وارداتها[٦٤] .

فقد توطدت العلاقات التجارية المصرية ـ الانكليزية بعد « حرب الانفصال » الاميركية بشكل خاص ، لأن انكلترا أرادت أن تخفف من ارتباطها بالولايات المتحدة الاميركية كمورد للقطن . وكان ذلك سبباً لاهتمام بريطانيا بمصر التي انتقلت من الصف الخامس عشر بين ممولي انكلترا بالقطن عام ١٨٥٤ إلى الصف الثالث عام ١٨٦١ . وبعد أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ تزايد انتاج وتصدير القطن بوتيرة سريعة جداً .

فتطور الاقتصاد المصري وحفر قناة السويس أديا الى تدفق مهم لرؤوس الأموال الاجنبية التي استوعبت قسماً كبيراً منها في الدين العمومي المصري .

وقد تشكل هذا الدين من مجموعة قروض عقدها الخديوي اسماعيل لتحويل مشاريع التجهيز الكبرى والري والنقل والمواصلات والخدمات العامة والمدارس ومصانع السكر والمشاركة المصرية في شركة قناة السويس ، ولدفع الخراج للباب العالي . فقد كانت شروط هذه القروض المعقودة مع ممولين أوروبيين مكلفة جداً بالنسبة إلى مصر مما جعلها تخضع للسيطرة المالية ثم السياسية للبلدان الدائنة . وهذا ما أدى الى انهيار مصر وبالتالي استعمارها واستغلال ثرواتها .

بدت رأس مالية القروض ، تلك القوة الخفية بقواعدها في بروكسل وباريس وفرانكفورت ولندن ، واثقة بنفسها وسخية . كانت لا تزال حديثة العهد تتحسس طريقها بحذر . كان المال عمل أسر مترابطة بأحكام ، أتى معظمها من ثلاث أقليات ، أولها قوة وأهمية اليهود الذين تمكنهم الشريعة الموسوية من تعاطي الربا مع غير اليهود . ويضطرهم ضغط هؤلاء الى ممارسة القليل من الأعمال الاخرى .

ومنذ عصر النهضة الأوروبية والصيارفة يخزنون المال ويقرضونه بفائدة ، أو يساعدون المسافرين بكتب اعتماد مسحوبة على فروعهم في الخارج ، أما الشيء الجديد في رأس مالية القروض في القرن التاسع عشر فقد كان تقديمها قروضاً للتنمية الطويلة الاجل مثل بناء سكك الحديد ، وقد زاد نجاح هذه المشاريع ثقتهم بأنفسهم . وفي الوقت نفسه حوّلت أموال التجارة الدولية اهتمامهم عن اميركا وأوروبا الى الشرقين الادنى والأقصى ـ وكانت بريطانيا رائدة هذا التحول في المصالح . وهكذا أصبحت للشرق الاهمية العظمى ، فارتفعت الصادرات الهندية الى بريطانيا من اثنين وعشرين مليون جنيه استرليني إلى اثنين وأربعين مليوناً (١٨٦١ ـ ١٨٦٤) . ومع أن

مصر بلد صغير وقليل السكان بالنسبة الى الهند فقد أصبحت في ١٨٦٥ في المرتبة الثالثة بعد فرنسا والهند كمصدر للمستوردات البريطانية .

لقد كانت رؤوس الأموال الاجنبية تشكل ٩١,٦٪ من مجمل رؤوس الأموال المثمرة في مصر عام ١٩٠٢ عدا الدين إلعمومي وقناة السويس ، وكان أهم المستثمرين فرنسيين يليهم البريطانيون . فالفرنسيون كانوا ناشطين في مجال التسليف العقاري وصناعة السكر ، والبريطانيون في المصارف والنقل والصناعة[٦٥] .

ويمكن تلخيص تطور بنية الاقتصاد المصري بالخصائص التالية :

ـ الاتجاه نحو التخصص في انتاج القطن الذي كان يشكل في نهاية المرحلة أكثر من ٩٠٪ من الصادرات .

ـ سيطرة رؤوس الأموال الاجنبية مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، وكانت تستثمر في النشاطات والتجهيزات المكملة بمعظمها للانتاج (القطن) والتي تخدم التطور الاقتصادي المحيط به (الري ، النقل ، المواصلات ، التسليف الرهني ، قطاع البناء والتجارة) .

ـ تمحورت التجارة الخارجية باكراً حول مركز رئيسي هو بريطانيا التي هي المستورد الأساسي للانتاج القطني والمصدر الأساسي للمنتجات المصنعة .

ومن خلال هذا التصور يمكننا فهم تطور العلاقات التجارية بين مصر وبر الشام في تلك الحقبة ، وهي العلاقات التي كادت تؤدي إلى تنامي نهضة بري الشام ومصر وبلوغها حد التكامل والتنامي[٦٦] .

فالقرن التاسع عشر لم يكن لمصر عصر نهضةٍ فقط ، ولكنه كان في الوقت نفسه عصر الضغط الأوروبي .

الاحتلال البريطاني ، وما تلاه من نكسة ووقف للنهضة وتضييع لاثارها

ومما يلفت النظر أن الاجانب لم يستثمروا رؤوس أموالهم في المشروعات الصناعية ، بل وجهوها الى المشروعات العمرانية الاخرى : كالشركات الزراعية والعقارية والبناء وتنفيذ أعمال الحكومة وعمليات التسليف ، ذلك لأن هذه المشروعات تحقق لرؤوس الأموال الاجنبية أرباحاً تفوق الأرباح المتوقعة من

المشروعات الصناعية ، هذا إلى أن ترويج الصناعة المصرية ليس من مصلحة الاجانب ودولهم في شيء ، لأن هذا الترويج يصبح حائلاً دون غمر السوق المصرية بالمصنوعات الاجنبية .

وبازدياد حدة المنافسة الاجنبية قضي على الكثير من الصناعات المصرية الصغيرة ، وحل الكساد بالاحياء التي كانت الصناعة مزدهرة بها وخاصة في القاهرة ، بينها حالت صعوبات التمويل دون صناعات جديدة[٦٧] .

وهكذا عرف المصريون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ذلك النوع الجديد من الاجانب ، وشتان ما بينهم وبين أجانب القرن الثامن عشر الذين كادوا لا يتعدون في مساكنهم الاحياء الخاصة بهم في القاهرة والاسكندرية والموانىء الاخرى حيث يعيشون على هامش المجتمع المصري .

أما أجانب القرن التاسع عشر وما بعده فقد تنقلوا في المدن الكبيرة والصغيرة ووصلوا إلى القرى ، واتصلوا بمختلف الطبقات ، وأصبحت لهم بمصر مصالح ثابتة ، فأنشأوا لهم المدارس والمستشفيات والصحف وأصبحوا عنصراً هاماً في الحياة اليومية مستفيدين من حالة الأمن التي انتشرت في البلاد حتى أصبحوا في النهاية بمثابة دولة داخل الدولة[٦٨] .

حتى إذا تخبطت الحكومة المصرية في سياستها المالية بالتوسع في سياسة القروض من البيوت الاجنبية فرضت الدول الاجنبية الرقابة المالية على مصر . وقد مهد ذلك للتدخل السياسي فالتدخل العسكري فالاحتلال .

ولم تكن قوة المال وحدها دعامة النهضة المصرية في القرن التاسع عشر ، وإنما قامت الى جانبها دعامة أخرى لا تقل عنها قوة وخطراً، هي قوة العلم .

ولم يكن العلم غريباً عن مصر ، فقد كان طلبه فريضة على أهلها ، وكان أهل العلم في الحضر والريف موضع احترام الناس وتبجيلهم ، تشد اليهم الرحال وتطلب منهم (الاجازة) . . بل كان العلم عند الكثير يطلب لذاته ، وكان أكثر (المعلمين) يبذلونه حسنة لله وزكاة في وقت لم يكن التعليم وظيفة من وظائف الدولة يدبر له المال ووضع النظم وانشاء المعاهد . وانما ترك للافراد والطوائف . وكان الازهر وحده المصدر الرئيسي للتعليم والثقافة في مصر ومنه يستمد المصريون مقومات التفكير .

لهذا عكف الأزهر على تقاليده التي اكتسبها منذ أجيال يستمد منها قوة تعينه على البقاء ورأى في احتفاظه بتلك التقاليد مصدر قوة له وحياة. وبذلك وقف حارساً للتقاليد القائمة على الثقافة الدينية وأنتج لذلك عقلية خاصة كان لها أكبر الاثر في صبغ التفكير والثقافة في مصر صبغة خاصة .

حتى إذا بدأ محمد علي يضع دعائم جديدة لنهضة اقتصادية وحربية جديدة أحتاج إلى من يعنيه للقيام بما تتطلبه هذه النهضة .

وقد قضى محمد علي طوال حكمه يتلمس العمال والاعوان ، تلمسهم في رجال العهد القديم من ترك وألبان ومماليك ، وتلمسهم في من وفد إلى مصر من أرمن ومن أهل الشام والمغرب ومن اليهم ، وتلمسهم في من دعاه إلى مصر من الأوروبيين ، من ايطاليين وفرنسيين وانجليز وغيرهم . ولكن محمد علي كان يدرك أن هؤلاء الاخلاط فيهم الناصح والكفؤ الأمين ، وفيهم الافاق والجاهل ، فاتجه محمد علي وجهة أخرى : وهي ارسال عدد من الشبان ممن حصلوا على قدر من التعليم إلى أوروبا للدراسة في معاهدها حتى إذا عادوا إلى مصر نقلوا إليها (أسرار) النهضة الأوروبية . ولكن هذا كله لا يكفي لاعداد الفنيين الذين تحتاج اليهم نواحي النهضة المختلفة وخاصة الجيش والأسطول . فكان لا بد من اعدادهم في مصر نفسها[٦٩] .

وكانت هذه حقاً خطوة جريئة ، لا تقل خطراً عن تكوين الجيش من المصريين . ولكن الازهر لم يكن يعلم الطب أو الهندسة أو فنون الحرب والصناعة وما اليها من العلوم (الحديثة) . أدرك محمد علي أن من العبث أن يلتمس هؤلاء (الفنيين) في أروقة الأزهر وحول أعمدته ، فقد كانت الهوة سحيقة بين ما يلقى في الازهر وما تتطلبه حاجات الدولة الجديدة . لم يكن أمام محمد علي اذن إلا أحد أمرين :

الأول أن يحول الأزهر والكتاتيب أو بعبارة أخرى التعليم القديم وهو تعليم (ديني) قبل كل شيء إلى النحو الذي يحقق له أغراضه في اعداد أهل البلاد لولاية شؤونهم في الادارة والجيش والمصانع والمدارس والمستشفيات . **والأمر الثاني** أن يترك الأزهر والكتاتيب وينشىء بجانبها مدارس للتعليم (الحديث) على النسق الغربي يعلم فيها أبناء البلاد ليكونوا عماله في حركة الاصلاح وفي القيام على ما شيد من مؤسسات ونظم اقتصادية وحربية .

ظهر لمحمد علي أن التعليم في الازهر لا يمكن أن يحقق أغراضه في اعداد الفنيين وتحويل الازهر بتقاليده مجهود شاق لا تؤمن مغبته : فالتدريس فيه مقصور على علوم اللغة والدين وأساتذته يكادون يجهلون كل ما عداهما ، ولا شك أنهم لن يرتاحوا إذا رأوا غيرهم يناظرهم بعلوم جديدة في معهدهم القديم الذي يعدون أنفسهم (حراساً) على تقاليده .

وقد يكون الدرس الذي تلقاه محمد علي حين حاول تنظيم فرقته القديمة ، (الالبانية) طبقاً للنظم الحربية الأوروبية الحديثة (فثاروا عليه واضطروه إلى انتهاج خطة أخرى تقوم على أساس جديد . وهو ترك الفرق القديمة كفرق غير نظامية وانشاء جيش وطني نظامي جديد) . لعل هذا الدرس كان ماثلاً امام عينيه عندما بدأ يضع نظامه التعليمي الحديث . فخشي اثارة حفيظة العلماء وما يتبع ذلك من تهيج الشعور الديني لدى العامة . لهذا ترك محمد علي التعليم القديم لاصحابه وأنشأ بجانبه نظاماً آخر للتعليم على أسس جديدة على أن يسد هذا النظام حاجته بنفسه ، ففي هذا النظام معاهد للدراسة الابتدائية ثم معاهد للدراسة التجهيزية فالعالية أو الخصوصية وكل مرحلة تعد التلاميذ لما بعدها .

وهكذا قام نظاماً للتعليم الديني والمدني في مصر ، وعاشا جنباً إلى جنب حتى الوقت الحاضر ، ولا زالا يتقاسمان الاشراف على شؤون التربية والتعليم في مصر . وأظهر بذلك محمد علي أنه في مسائل التربية والثقافة ـ وهي بطبيعتها مسائل ذات صلة بالروح لا ينبغي تناولها إلا بقدر كبير من السماحة ، كان محمد علي في هذه المسائل أبعد ما يكون عن روح (الاحتكار) و(الحجر) التي طبقها في المسائل الاقتصادية . فقد ظل التعليم الديني بمعاهده ودراساته ورجاله حراً بعيداً عن رقابة الدولة وسلطانها . واكتفت حكومة محمد علي بأن جمعت بين يديها نظام التعليم الحديث ، وهو التعليم المدني الذي يعد للوظائف وهو التعليم الذي أنشأت معاهده وقامت على شؤونها جميعاً . وفي الوقت ذاته كان حريصاً على أن تكون لغة التعليم في هذه المدارس ـ على اختلاف مراحلها ـ اللغة العربية ولم تعوقه عن ذلك مشقة التعليم باللغة العربية في بعض المدارس الخصوصية ، أو العالية كالطب والهندسة . في وقت كانت تنعقد فيه للمرة الاولى بعد أجيال الصلة بين هذه العلوم واللغة العربية .

كان على المدارس أن تتلمس وسائل مختلفة ، فقد ألحق بالاساتذة الاجانب

معلمون ومترجمون يتلقون دروس هؤلاء الاساتذة بلغاتهم الايطالية أو الفرنسية ، ثم ينقلونها إلى اللغة العربية . ثم يدفعونها إلى مصححين من علماء الازهر ، حتى إذا أخذت شكلها النهائي في اللغة العربية ألقيت إلى الطلاب ثم جمعت كراسات وكتباً . وبذلك احتفظت المدارس الحديثة بصبغتها كمدارس عربية ، وأثرى التعليم (العربي) وانتعشت الثقافة العربية فمهد هذا الوصل حاضر الثقافة العربية بماضيها ، كما مكن لاحتفاظ الأمة المصرية بشخصيتها كأمة عربية اسلامية .

وقد نهضت (المطبعة) لتكمل عمل (المدرسة)، فقامت على طبع العشرات من الكتب في فنون وعلوم مختلفة ، أكثرها باللغة العربية ، ومنها ما كان بالتركية أو الفارسية ، وكانت الحكومة تبيعها بأثمان مخفضة حتى تؤمن لها الانتشار بين القارئين في مصر وسائر البلاد العربية . كما قامت المطبعة بنشر أمهات التراث العربي ، مما أدى إلى إحياء تلك الدراسات وانبثاق ناحية مهمة للنهضة العربية .

لهذا لم يكن الفصل حادا بين معاهد التعليم الديني القديم ومعاهد التعليم المدني الحديث ، وقد عاون الازهر الحكومة كل العون في دعم معاهدها الحديثة : فأمدها بمدرسي اللغة العربية وبنظار مكاتب المبتديات ، والمصححين في المدارس الخصوصية ، وأمدها بكتب الدراسة في اللغة العربية والدين ، بل أن بعض المدارس كالطب والهندسة استحضرت طلابها في السنوات الأولى من بين مجاوري الازهر .

وكذلك أرسلت الحكومة عددا من الطلاب الازهريين لاكمال دراستهم في فرنسا . ومن بين هؤلاء رفاعة رافع الطهطاوي الذي جمع بين الثقافتين الاسلامية والأوروبية ، وعمل على أن يطبع تلامذته في مدرسة الالسن بهذا الطابع . وكون منهم قلم الترجمة بأقسامه الثلاثة : قسم العلوم الطبية وقسم العلوم الرياضية والطبيعية ، وقسم الاجتماعيات ، وقد عملوا على ترجمة عدد كبير من الكتب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، وقامت مطبعة بولاق على طبعها ونشرها .

وهكذا عادت الصلة فانعقدت بين اللغة العربية والعلوم التطبيقية ، وأثبتت اللغة العربية قدرتها على التعبير عن مطالب العلم الحديث . كما انعقدت الصلة بين الثقافتين العربية والأوروبية وأصبحت الثقافة الغربية قوية الإثر في تفكير المصريين وحياتهم الاجتماعية ، وهو أثر سيضطرد نموا على طول القرن التاسع عشر وما بعده .

وقد أصابت النهضة التعليمية أزدهارا ملحوظا بين سنتي ١٨٣٦ و ١٨٤٠ ، إذ

وضعت لوائح التعليم ونظمت المناهج في مراحله المختلفة واستكمل (النظام) التعليمي كيانه ، فكان هناك نحو ٥٠ مدرسة ابتدائية (مبتديات) ومدرستان تجهيزيتان إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية وعدة مدارس خصوصية كالطب البشري والطب البيطري والصيدلة والزراعة والمحاسبة والهندسة والالسن والعمليات (أو الفنون والصنائع) والمكتب العالي بالخانقاه .

ونظمت المدارس الحربية كمدرسة المشاة ومدرسة الفرسان ومدرسة المدفعية والمدرسة البحرية بالاسكندرية .

هذا عدا مدارس خصوصية وحربية أخرى أنشأت لفترات محدودة، كالمدرسة الملكية والادارة الملكية والمساحة والكيمياء والمعادن وأركان الحرب والموسيقى .

حتى إذا كانت تسوية ١٨٤١ لجأت الحكومة إلى سياسة الاقتصاد في تدبير مرافق البلاد وفي مقدمتها الجيش ، فاضطرت إلى الغاء بعض المدارس ، وضم بعضها إلى البعض الآخر : ففي التعليم الابتدائي اقتصر على مدرسة بالقاهرة وأربعة مكاتب بالاقاليم ، وجعلت المدرسة التجهيزية قسما من أقسام الالسن وخفض عدد الطلاب في المدارس الاخرى .

على أن البناء التعليمي ظل ـ مع هذا ـ سليما ، بل أن تحديد عدد الطلاب مكن الدولة من العمل على رفع مستوى التدريس وهيئة التدريس وحياة الطلاب في المدارس ، وتحسين الابنية التي تشغلها المدارس .

وقد ظل الاهتمام بالتعليم يحتل جانبا من اهتمام الدولة على الرغم مما أخذت به من القصد والاعتدال في الانفاق على أثر فك الاحتكارات التي كانت تدر على الحكومة أرباحا كثيرة ، ومن ذلك أنشأت في سنة ١٨٤٣ مدرسة تجريبية ألحقتها بمدرسة المبتديات بالقاهرة لتجريب طرق جديدة في التدريس تمهيدا للتوسع في نشر التعليم الابتدائي بأسهل طريقة وبأقل تكاليف ممكنة ، وفعلا أنشئت بعض المكاتب (الملة) أي (الشعب) .

ولكن هذه النهضة ما لبثت أن توقفت بانتهاء عصر محمد علي وما يلحق به من حكم ابراهيم القصير ، فاتسم عصر عباس وسعيد بالانكماش في النظام التعليمي الحديث ، إلا أن التراث الذي خلفه عصر محمد علي كان من القوة بحيث كون المادة

التي ظل خلفاؤه من بعده يعملون عليها ، ومنها شكلوا ما وضعوا من نظم وأنشأوا من منشآت ، وتظهر هذه الحقيقة أقوى ما تكون في عصر عباس وسعيد ، فلا ترى إلا نشاطا محدودا في دائرة محدودة، هي دائرة المدارس القليلة التي ظلت باقية في ذلك العهد ، والأمر لا يعدو فتح مدرسة مفروزة أو اغلاق مدرسة للهندسة أو إعادة مدرسة أخرى للهندسة وهكذا ، فهو نشاط محلي ضيق الأفق محدود المعالم ، يلوح فيه ما يتميز به ذلك العهد من ضيق الافق وقلة الانتاج .

كان عباس يمثل الارستقراطية التركية بعقليتها (الاستعلائية) على أهل البلاد ، فكان قليل الاحتفال بالعقلية المصرية ، قليل الثقة بها ، راغبا عن بذل المال في سبيلها ، ففي عهده ألغيت المكاتب الابتدائية وجمعت المدارس المدنية في مؤسسة واحدة هي « المهند سخانه » ، كما جمعت المدارس الحربية في مؤسسة واحدة هي المفروزة ، ووضعت للمدارس ميزانية ضئيلة .

أما سعيد فلم يكن من الكفاية واتساع الافق وثبات التوجية وشمول الدرس والقدرة على تألف الأعوان بحيث يستطيع أن يتبنى خطة جديدة فضلا عن رسمها ، فجاءت مشروعاته سقيمة الوضع تعصف بها الاهواء من كل جانب ، وكان أشد اهتماما بمظاهر الاشياء منه بجوهرها ، ومن ذلك أنه فتن ببريق الحضارة الأوروبية أما جوهرها فقد غفل عنه : العلم وانتظام الحاكم وانبعاث القوى الكامنة ، وفي الوقت الذي نرى سعيد يسخى على المدارس والمؤسسات الاجنبية نراه يمنع عن المدارس المصرية النفقة التي تمكنها من البقاء ، وكما كان ينشيء المدارس متعجلا كان يهدمها متعجلا ، أنشأ المدرسة الحربية بالقلعة والهندسة بالقلعة السعيدية (بالقناطر الخيرية) ثم ألغاهما ، وأصبح عدد تلاميذ مدرسة الطب في عهده لا يزيد على ٢٥ تلميذا .

حتى إذا تولى اسماعيل الحكم (١٨٦٣) دبت في النظام التعليمي حياة جديدة ، كانت دعامة قوية للنهضة الشاملة التي شهدتها البلاد في عهده . لولا أن جاءت الازمة المالية - نتيجة لسفهه وتبذيره واختلال الادارة المالية وجشع الدائنين الاجانب ومن ورائهم الدول الاستعمارية الكبرى - مضيعين على مصر ثمرات النهضة القومية ، وأدت إلى تلك النكسة الكبرى ، نكسة الاحتلال .

أعاد اسماعيل إنشاء ديوان المدارس وافتتحت المدارس الابتدائية والتجهيزية بالقاهرة والاسكندرية ونظمت المدارس الحربية وأنشئت مدارس لأركان الحرب

والهندسة ، والادارة لتخريج رجال القانون ، ودار العلوم لتخريج المعلمين ، وتتالى إرسال البعوث العلمية إلى أوروبا . وانتعشت حركة التأليف والترجمة ، وصدرت الصحف الاهلية ، بعد أن كانت الصحافة مقصورة على جريدة (الوقائع المصرية) .

كما أن من أهم التطورات التي حدثت في ذلك العهد تحويل الاساس الذي كانت تقوم عليه الحياة المدرسية ، فإن الناس قد تفتحت نفوسهم للتعليم وصبت إليه أفئدتهم ، فكثر إقبالهم على مدارس الحكومة ، فتحولت من (ثكنات) يجمع فيها الصبية وتقوم الدولة عن أهليهم بكافة ما يتطلبه مقامهم بها من تعليم وكساء وغذاء و(مصروف) إلى معاهد للعلم يتردد عليها الصبية نهارا وينقلبون إلى أهليهم مساء ، بل ويؤدي القادرون منهم إلى الحكومة بعض ما تتكلفه لابنائهم من نفقات التعليم والادوات والكتب المدرسية . ولم يعد التعليم بذلك نشاطا حكوميا فقط ، وإنما أصبحت الامة تشارك فيه باهتمامها وبعض معونتها .

وقد تأثر التعليم في الازهر بالنهضة التعليمية العامة ، فقد بدأ الشعور بالحاجة إلى إصلاح مناهج التعليم بالازهر وطرائقه ، عبر محمد عبده الطالب بالمسجد الاحمدي بطنطا (١٨٦٥) ـ وإن كان قوله لا يخلو من مبالغة المجدد ـ عن ملله من دروس (مشايخ الاحتمالات) وقال أنه (ظل يكنس ذهنه وينظفه بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة) كما راح يلتمس العلوم الحديثة عند من يعرفها ، ثم تأثر الشيخ بدعوة السيد جمال الدين الافغاني الاصلاحية وبطريقته الجديدة في قراءة الكتب القديمة أو الحديثة . وبدأ الشيخ محمد عبده وهو طالب بالازهر ينشر في جريدة « الاهرام » ١٨٧٦ مقالات عالج فيها مسائل خطيرة كاصلاح اللغة العربية والدعوة إلى تدريس العلوم (العصرية) . ومضى بعد ذلك يدعو إلى إصلاح الأزهر حتى جعل منه رسالة حياته .

ونعى رفاعة بك على الازهر إهماله تدريس (العلوم الحكمية والعملية) مع أنها علوم إسلامية نقلها الاجانب إلى لغاتهم عن الكتب العربية كما بدأ التأليف في مجال القومية العربية كما سنرى .

وكان أكثر شيوخ الازهر يؤمنون بضرورة إصلاح الازهر ، فوضع الشيخ مصطفى العمروسي لذلك لائحة (١٨٦٦) لتنظيم أحوال الازهر ، تشمل طلابه وعلماءه والكتب التي تقرأ فيه وامتحان طلابه على نحو يجعل الدراسة أكثر جدية وجدوى . ثم استحدث الشيخ محمد المهدي العباسي قانونا بامتحان المتصدرين

للتدريس (١٨٧٢) أهم خطوة لاصلاح التدريس في الازهر في ذلك العهد ، (صونا للعلم عن الابتذال) .

والنظام التعليمي في عهد اسماعيل لم يعد مقصورا على بضع مدارس ابتدائية وتجهيزية وخصوصية وإنما أصبحت السياسة التعليمية تهدف إلى غاية اسمى من ذلك ، وهي إنشاء نظام قومي للتعليم في مصر يستمد عناصره من كلا النظامين ، الحديث الممثل في مدارس الدولة ، والقديم الممثل في المكاتب الاهلية ، ولهذه الغاية ، صدرت لائحة رجب ١٢٨٤ (١٨٦٨) ، ومضت الحكومة في إصلاح وتنظيم المكاتب الاهلية لولا أن اشتداد الازمة المالية بعد ١٨٧٥ قد غل يد الحكومة عن المضي في هذا السبيل ، وإذا كان عصر اسماعيل قد انتهى ولا تزال هذه الغاية ـ إنشاء نظام قومي للتعليم في مصر ـ بعيدة فإن التجارب التي أجريت والمشروعات والبحوث التي وضعت والاحصاءات التي جمعت والخبرات التي اكتسبت ، كل هذه كانت واضحة الاثر في توضيح معالم الطريق وتمهيده لتلك الغاية السامية .

وقد بذلت أضخم محاولة لتأسيس نظام التعليم القومي في مصر في سنة ١٨٨٠ عندما شكل (قومسيون) لاعادة تنظيم التعليم ، فوضع تقريرا مستفيضا عن تنظيم التعليم الابتدائي ونشره ـ وهو تعليم سواد الشعب ـ على أساس استخدام المكاتب الاهلية بعد تنظيمها وربطها بالنظام العام ، كما أورد مقترحات عملية لرفع مستوى التعليم في المدارس الاخرى .

وما أن بدأ تنفيذ مقترحات القومسيون ، حتى دهم البلاد الاحتلال البريطاني ، فأوقف النهضة التعليمية ، ووضع للتعليم سياسة جديدة قائمة على التضييق والحصر والقصر في الانفاق .

ولقد كانت النهضة الاقتصادية والنهضة التعليمية والثقافية لمصر في القرن التاسع عشر دعامة نهضتها السياسية كما سنرى فيما بعد .

بدأ القرن التاسع عشر ومصر جزء من العالم العثماني الذي كان يسيطر على أكثر أجزاء الشرق الاوسط ، وقد فشلت الحملة الفرنسية (١٨٩٨ ـ ١٨٠١) في سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، وما لبث الفرنسيون أن جلوا وتبعهم الانجليز (١٨٠٣) وحاول العثمانيون أن يستردوا مصر خالصة لهم ، معتمدين على القوات التي قادها إلى

مصر الصدر الاعظم نفسه . وهي ـ من حيث العدد والعدة ـ قوات لم تشهد لها مصر مثيلا من قبل ، وعادوا « يدلون » على المصريين بأنهم خلصوهم من حكم (الكفرة) فلا أقل من أن يسلموا لهم في أغراضهم وأرزاقهم بل وأرواحهم ، ولكن الظروف التي كانت تجتازها مصر في ذلك الوقت كانت أقوى من إرادة العثمانيين ، وما لبث أن ظهر محمد علي فسار في حكم مصر على نهج خاص أدى به إلى الاصطدام بالسلطنة العثمانية ، ومن ثم إلى إضعاف السيطرة العثمانية على مصر ، وإلى إنسلاخها ـ تدريجيا ـ عن الدولة العثمانية ، وتكوين شخصية مصر كدولة مصرية عربية ، والتمهيد بذلك للوضع السياسي والجانب العسكري الحديث لمصر .

تولى محمد علي ولاية مصر في ظروف داخلية ودولية مضطربة ـ وقد أثبتت الاحداث التي سبقت ولايته والتي لحقتها أن مصر قد دخلت ـ طوعا أو كرها ـ في نطاق الخيارات الدولية ، وأن من العبث ردها إلى نطاق العزلة التي كانت قد فرضت عليها ، كما ظهر أن قوة السلطان وحدها لم تعد كافية للدفاع عن مصر ، فالسلطان لم يستطع استرداد مصر من فرنسا إلا بمعونة دولة أوروبية أخرى ، هي انجلترا ، كما وضح أن ضمان الدول الكبرى لسلامة الامبراطورية العثمانية لم يقف حائلا أمام الاطماع الاوروبية ، وهكذا ثبت في يقين المصريين أنه لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم . وذلك ببناء قوة عسكرية حديثة ، تدعمها قوة المال والعلم الحديث . وليس من شك في أن هذا يدعو إلى الاخذ بسياسة مصرية خالصة ، لا تستهدف إلا مصلحة مصر ، وقد تتمشى هذه السياسة المصرية مع السياسة العثمانية إن اتفقت بينهما المصالح ، وكثيرا ما اتفقت ، حين استخدمت السياسة العثمانية القوة المصرية لاخضاع الوهابيين وثوار اليونان ، وقد تنفرد السياسة المصرية بالعمل ، كما حدث عند فتح الاقاليم السودانية ، وقد تتعارض السياستان المصرية والعثمانية ، فيؤدي ذلك إلى تصادم القوتين المصرية والعثمانية ، كما حدث في حروب الشام .

يتضح من هذا أن القوة العسكرية الكبيرة ، التي كونت في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تقتصر على أغراض الدفاع ، وإنما تعدتها إلى إحياء العوامل الكامنة في الملك العثماني القائمة على حقائق الموقع الجغرافي والموارد المادية والمعنوية لشعوبه . وإن ظلت أغراض الدفاع عن مصر نفسها هي الاساس ، فالحق أن الفتوح المصرية في السودان وفي الشام لم يكن الغرض منها سوى تأمين مصر

لنفسها . على أن حركات التوسع هذه لم تأت اعتباطا ، فلم تكن لمجرد ضم أراضي وأقطار ، فلا شك في أن الاتجاه إلى ضم الولايات العربية من الامبراطورية العثمانية تحت حكم واحد مركزه القاهرة أمر له دلالته ، فقد تشبث محمد علي بحكم الولايات العربية ، ففي الجزيرة العربية لم يقنع بفتح الحجاز واستخلاص الحزمين الشريفين من أيدي الوهابيين ، وهي المهمة التي ندبه لها السلطان ، وإنما سعى إلى فتح الجزيرة العربية كلها إلا أقطارا في الجنوب عند مدخل البحر الاحمر وأخرى في الشرق على الخليج العربي ، ولم يمنعه من ضمها إلا تدخل انجلترا . ثم لما واتته الفرصة لضم ولايات الشام تحت حكمه لم يتردد . وبذلك يعود للشرق العربي وحدته السياسية لتقف سدا دون تحقيق الاطماع الاجنبية ، وهكذا اتضحت معالم السياسة الخارجية لمصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يتصور محمد علي مستقبل مصر السياسي كوحدة قائمة بنفسها ، ولكنه رسم ذلك المستقبل على أساس تكوين ملك مصري عربي ينتظم وحدات إقليمية يكمل بعضها بعضا ويشد بعضها ازر بعض في مجالات التعاون العسكري والاقتصادي والثقافي . واعتقد - بحق - أن خلق هذه الكتلة المصرية العربية في ذلك الجزء من الشرق الاوسط - في قلب العالم العثماني - أقوى ضمان للمحافظة على سلامة هذه المنطقة من الاطماع الأوروبية التي بدأت تتجه إليها وتسعى إلى غزوها ، وللاحتفاظ ببلادها خالصة لأهلها ، حتى ينصرفوا إلى تعميرها وتنمية مواردها ، والاتصال بالعالم الخارجي على قدم المساواة ، مستغلين ما خصتهم به الطبيعة من مصادر الرزق والموقع الممتاز . وبذلك يعود إلى هذه المنطقة سابق ازدهارها ومكانتها في ميدان السياسة العالمية والاقتصاد العالمي .

ولكن دون اتمام هذا البناء الكبير تقف عقبات كأداء ، فمصر نفسها وهذه الولايات العربية التي ينتظمها البناء ليست حرة في أمور نفسها ، فكلها ولايات عثمانية ، وهي - بهذه الصفة - محرومة من أن ترسم لنفسها أو تمارس سياسة خارجية خاصة أو تصطنع الاداة لرسم هذه السياسة وتنفيذها ، وخاصة إذا كانت هذه السياسة ترمي إلى قلب ميزان القوى في الشرق الادنى ، وذلك بإقامة ملك عربي كبير في نطاق الامبراطورية العثمانية إن قبل السلطان ووزراؤه الاعتراف به وأفسحوا له مكانا في نطاق الامبراطورية ، أو على رغم من السلطان ووزرائه إن ابوا الأعتراف به وأقاموا العراقيل في سبيله .

ولكن السلطان العثماني ـ محمود الثاني ومن بعده ولده عبد المجيد ـ رأى في هذه السياسة المصرية العربية هدما للملة والدولة، كبر عليهما أن يشهدا انسلاخ هذه الولايات الاسلامية من سيطرتها . وعز عليه أن تستخدم مصر قوتها العسكرية ـ وهي التي ينبغي أن تظل قوة عثمانية لتحقيق السياسة العثمانية والخطط العثمانية وحدها ـ لاضعاف الدولة بدلا من دعم بنائها . فندب السلطان نفسه وسخر موارد بلاده ـ بل أنه حالف خصومه ـ لتحطيم السياسة المصرية والعودة بمصر وبالولايات العربية الاخرى إلى نطاق حكمه المباشر في حظيرة الامبراطورية .

وكانت الدول الاوروبية الكبرى مستعدة للعمل لتأييد السلطان : فقد رأينا كيف دخلت هذه المنطقة في دائرة الاهتمام الاوروبي منذ أواخر القرن الثامن عشر ، لهذا ما لبثت أن شهدت ميلاد هذه القوة الجديدة في هذه المنطقة بكثير من القلق والحذر ، وعلى الرغم من أن هذه الفترة من التاريخ الاوروبي ـ فترة الحروب النابليونية وصلح فينا وعهد المؤتمرات حتى ثورات ١٨٤٨ ـ كانت أحفل عهود التاريخ الاوروبي والاميركي بالثورة والتغيير . على الرغم من هذا أبت القوى الاوروبية الكبرى أن تمتد الثورة والتغيير إلى تلك المنطقة من العالم ، ولم تنشأ أن تنظر إلى حركة مصر (التحررية) في القرن التاسع عشر ، على أنها حركة (قومية) كحركات اليونان والعرب والبلغار ومن إليهم من شعوب البلقان الخاضعين للحكم العثماني ، ومن شأنها إيجاد حالة جديدة في هذه المنطقة ، لم تستعد الدول الكبرى بعد لمواجهتها . وتخشى إن هي واجهتها قبل أن تستعد لها ـ والاستعداد هنا معناه الاتفاق على توزيع مناطق النفوذ كما سيحدث بعد ـ أن يقع النزاع بينها ، فيذهب السلام العالمي الذي حرصت أوروبا على إقامته والمحافظة عليه بعد مؤتمر فينا (١٨١٥) .

وتزعمت انجلترا حركة المقاومة الاوروبية للسياسة المصرية العربية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ووافقها حرص السياسة العثمانية على الاحتفاظ بالحالة الراهنة في تلك المنطقة ، فاتفقت السياستان والقوتان العثمانية والانجليزية على هدم خطط مصر ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها والاحتفاظ بمصر وسائر الولايات العربية في نطاق الامبراطورية العثمانية .

في ظل (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا الاطمئنان إلى سلامة مواصلاتها إلى الهند ، وهذا الاطمئنان كان أهم ما يعني بريطانيا من منطقة الشرق الاوسط في ذلك

الوقت ، في ظل تلك (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا أن تؤسس لها على أطراف العالم العربي العثماني قواعد لسفنها ومراكز رقابة على أبواب البحار الشرقية التي عادت الحياة تدب فيها ، ولكن بريطانيا وجدت في هذه المناطق قوة جديدة ، هي القوة المصرية . والواقع أن بريطانيا لم تستول على عدن (١٨٣٩) ولم تشرع في بسط نفوذها على الامارات والمشيخات الغربية على الخليج العربي إلا بعد معارك خاضتها ضد الدبلوماسية المصرية وسباق مع القوة المصرية التي كانت قد وصلت في تقدمها في الجزيرة العربية إلى الخليج العربي وشرعت في الاتصال بأمرائه وشيوخه العرب ، كما توغلت في اليمن من ناحية أخرى وأشرفت أو كادت على مدخل البحر الاحمر وخليج عدن . وفي هذا السباق مع الدبلوماسية المصرية والقوة المصرية فازت بريطانيا ، وشرعت في بناء ما سمي بعد ذلك (بالمحميات) البريطانية في الاطراف الشرقية والجنوبية من الجزيرة العربية .

وفي ظل (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا أن تضمن فتح موانىء مصر والولايات الأخرى التي ضمنتها ومدنها للتجارة الانجليزية دون قيد أو تعب في وقد بدأت الثورة الصناعية تؤتي ثمارها ، وكان ازدهارها يقتضي أن ينسق التوسع في التصريف والتصدير مع التوسع في الانتاج ، بينما رأت انجلترا في سياسة محمد علي الاقتصادية القائمة على الحجر وتشجيع التوسع في الانتاج الصناعي في مصر قيودا على حرية تصريف منتوجاتها الصناعية في الاسواق المصرية وأسواق البلاد التابعة لمصر .

فعقدت مع السلطان ـ صاحب السيادة على تلك الولايات ـ معاهدة تجارية (معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨) وتجري أحكامها بفتح البلاد العثمانية كافة للتجارة الانجليزية في حرية تامة . ولكن محمد علي رأى في تنفيذ المعاهدة فورا هدما لكيان مصر الاقتصادي والعسكري ، فتباطأ في تنفيذها متعللا بأعذار شتى ، فكان ذلك من أهم العوامل التي دفعت السياسة الانجليزية إلى تأليب مقاومتها للسياسة المصرية حتى وصلت إلى فرض الحصار وإثارة بعض العصبيات الاقليمية في الشام وإنزال الجند على ساحل الشام وتزعم الدول الاوروبية الكبرى في فرض معاهدة لندن ١٨٤٠ على مصر ، وهي المعاهدة التي كانت أساسا للتسوية النهائية التي اتخذت شكل فرمانات أصدرها السلطان لواليه على مصر (١٨٤١) .

وقد جددت تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ وضع مصر السياسي قانونا حتى ١٩٢٣

بتنازل تركيا عن سيادتها على مصر في معاهدة لوزان ، ولكنها حددته فعلا سنة ١٨٨٢ بفرض بريطانيا احتلالها العسكري على مصر :

حقا إن تسوية ١٨٤١ دفعت بالمستقبل السياسي لمصر خطوة إلى الامام في طريق الانسلاخ عن الامبراطورية العثمانية ، إذ جعلت من مصر ولاية (ممتازة) لا يجري عليها الحكم العثماني المباشر ، فلا يتعاقب على ولايتها ولاة ، أو باشوات من رجال الادارة أو العسكرية العثمانية ترسلهم استانبول متى شاءت وتعزلهم متى شاءت فيظل الباشا في ولايته معلقا برضا السلطان أو وزرائه أو حاشيته أو نسائه ، إنما أصبح لمصر ـ أو أقر لمصر ـ إدارة (وطنية) من مديرين ونظار من أبناء البلاد إن من (الاخلاط) الذين استقروا فيها واتخذوها لهم وطنا ، يعاونهم موظفون موزعون على المصالح المختلفة في عاصمة البلاد وفي الاقاليم ، وفوق هذه الادارة الوطنية يقوم الوالي ، وقد قيد حق السلطان في تعيينه وفي عزله ، فهو يختار من أسرة معينة ، هي أسرة محمد علي ، ولا بد أن يكون أرشد أعضاء الاسرة ، وللوالي حقوق معلومة في الاستقلال بالادارة الداخلية لولايته دون تدخل من السلطان ووزرائه . وبذلك أقرت التسوية لمصر قدرا كبيرا من الاستقرار ، ومهدت لها الاساس لتبني عليه ـ إن واتتها الظروف والامكانيات ـ مصر المستقلة .

ولكن شتان بين هذا الوضع الذي فرضته تسوية ١٨٤١ على مصر والوضع الذي كانت تعمل له .وبذلت لتحقيقه ما بذلت من غالي التضحيات، فتسويه ١٨٤١ احتفظت بمصر ولاية عثمانية ، وراحت تؤكد هذا المعنى في كافة نصوصها ، فوالي مصر ليس إلا أحد،وزراء السلطان ، وجيش مصر ليس إلا جزءا من جيش السلطان ، وعلى مصر أن ترسل قدرا معينا من المال في كل سنة إلى خزينة السلطان ، والمعاهدات والاتفاقات التي تعقدها حكومة السلطان تسري على مصر باعتبارها ولاية عثمانية .

وأشد من هذا خطورة على مستقبل مصر أن تسوية ١٨٤١ لم تكن فقط أجزاء داخلية بين السلطان وواليه على مصر ، وإنما كانت ـ في الواقع ـ بمثابة تسوية دولية ، إذ أنها قد بنيت على معاهدة لندن بين انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا . وما لبثت فرنسا أن لحقت الركب الدولي واعترفت بالتسوية . لهذا فإن العلاقات المستقبلية

بين مصر والدولة العثمانية لم تعد أمراً يعني مصر والدولة العثمانية وحدهما ، وإنما أصبحت أمرا يعني الدول الأوروبية الكبرى أيضا . وهي الدول التي أقامت من نفسها وصية على العلاقات المصرية العثمانية حتى لا تخرج أي منهما عن الطريق الذي رسمته التسوية .

إن تسوية ١٨٤٠ لم تمنح مصر الاستقلال ، وهي كذلك لم تعدها ولاية عثمانية عادية . ومن هنا حملت هذه التسوية بذور النزاع والاضطراب في العلاقات المصرية العثمانية في المستقبل : فمصر في عهد الخديويين ـ على ضعفهم وتخاذلهم بالنسبة لشخصية محمد علي الجبارة ـ لم تكن تعمل لبلوغ الاستقلال ، أو على الاقل للاستزادة من حقوق السيادة الداخلية ، ولكن هذا العصر ـ بالنسبة للدولة العثمانية ـ كان عصر (التنظيمات) ، عصر محاولة إحياء القوة العثمانية ، محاولة الدولة تقوية قبضتها على ولاياتها ومنها مصر . فتعمل على العودة بمصر ولاية عادية ، معتمدة على المنافذ التي أوجدتها فرمانات ١٨٤١ . ولكن الدول الأوروبية الكبرى بحكم (الوصاية) التي هيأتها لها تلك التسوية كانت تبادر إلى التدخل كلما حاولت مصر أو تركيا أن تخرجا على الطريق الذي رسم لهما، فترد مصر عن سعيها للاستقلال كلما همت بالسعي ، كما ترد تركيا عن سعيها لهدم الوضع الذي نالته مصر كولاية ممتازة . وبذلك اضطرت كل من مصر وتركيا إلى أن تهرع إلى الدول الاوروبية الكبرى تلتمس عندها النصح أو التأييد كلما ألمت بالعلاقات المصرية العثمانية أزمة من تلك الازمات التي تكررت بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٨٢ . ومن هنا بدأ التدخل البريطاني ـ الفرنسي في شؤون مصر الخاصة .

ولكن الدول الاوروبية الكبرى ـ والعصر عصر التوسع العسكري والمالي والاقتصادي ـ لم تكن مستعدة أن تبذل النصح أو التأييد بدون مقابل ، لهذا كانت تلك الفترة من التاريخ المصري (١٨٤٠ ـ ١٨٨٢) فترة التوسع في الامتيازات الاجنبية ومنح الشركات الاجنبية امتيازات لمختلف الاعمال العامة في مصر ، فترة شق قناة السويس والقروض الاجنبية ، وإنشاء المحاكم المختلطة وغيرها من المؤسسات الاجنبية في مصر . وهكذا خدمت تسوية ١٨٤١ مصالح الدول الكبرى في مصر والشرق الادنى قبل أن تخدم مصالح مصر أو تركيا ، فقد أضعفت التسوية مصر ، فضعفت قوتها العسكرية وقوتها الاقتصادية ، وفرضت عليها سياسة الانكماش ، وأخرجتها من الشرق العربي ، واطمأنت الدول الكبرى على (وصايتها)

على العلاقات المصرية والعثمانيـة ومضت قدمـا في ترويـج معالي (الامبـراطوريـة) في مصر .

وهكذا اضطرت مصـر (الخديـوية) (١٨٤٠ ـ ١٨٨٢) إلى المضي في الـطريق الذي رسمته لها تسوية ١٨٤٠ حتى غايته ، عاجـزة عن تحقيق استقلالهـا إزاء تركيـا ، وعاجزة ـ هي وتركيا ـ عن مـرافقة الاطمـاع الاوروبية في شتى صـورها ، حتى كـانت النهاية المحتومة والمشؤومة لهذا الطريق : الاحتلال البريطاني لمصر .

والحق أن مصـر قد حـاولت ما وسعهـا الجهـد وواتتهـا الـظروف والامكـانيـات أن تتجنب هذه النهاية المشؤومة . وبذلت لذلك جهودا رائعة ، حتى في الوقت الذي تولى أمرها ولاة ضعاف ، من ذلك مقاومة الوالي عباس الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) لسيـاسة الدولة العثمانية في تطبيق التنظيمات في مصر ، وحـرصه عـلى الاحتفاظ بـالحقوق التي كسبتها مصر في فرمانـات ١٨٤١ . ومن ذلك أيضـا حرص خلفـه الوالي محمـد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) على تلك الحقوق . وإن كان كل من الـواليين قـد اضطر في هـذا السبيل إلى السعي لكسب تأييد إحدى الدول الأوروبية الكبرى ، فكان عليه أن يبذل لها الثمن . أخذ عباس جانب السياسة البريطانية ، فأعرض عن مشروع قناة السويس ومنح شركة انجليزية امتياز العمل لمد خط حديدي بـين الاسكندريـة والقاهـرة تمهيدا لمده إلى السويس . ثم جاء سعيد فأخذ جانب السياسة الفرنسية ، ومنح فـرديانـد دى ليسبس امتيـاز حفر القنـاة . وشهد تـاريخ مصـر في عهدهمـا معركـة دبلومـاسيـة بـين السياستين الفرنسية والانجليزية وعملت كـل من الدولتـين في القاهـرة واسطمبـول ، وخرجت مصر من هذه المعركـة التي فرضت عليهـا فرضـا دون أن تكسب شيئا ، بـل خسرت أشياء ، وفي سبيل مقاومة السيطرة العثمانية استبدل ولاة مصر بسيادة السلطان سيطرة القناصل .

ثم جاء وقت ـ هو عصر اسماعيل قبل أن تجرفه موجة استـدانة ومـا صحبها من التخبط المـالي والسيـاسي ـ بـدا فيـه أن مصـر قـد عـادت سيـرتهـا الاولى من البهـاء والعظمة ، حين عادت النهضة العمرانية والثقافية فاستقامت واستردت قوتها العسكرية والاقتصـادية ، ونبـذت سياسـة الانكماش ، فـاصطنعت ـ مـرة أخرى ـ لهـا سيـاسـة خارجية خاصة ، وعادت إلى التوسع ولكن في ميدان جـديد ، فـإن تسويـة ١٨٤١ قد

أخرجت مصر من الشرق العربي وقطعت بذلك ما بين المصريين وسائر العرب دهرا طويلا . ووجهت تاريخ مصر - لفترة طويلة حقا - وجهة (مصرية) فقط إلى أن عادت أمور مصر وسائر البلاد العربية إلى أبنائها أخيرا بعد طول كفاح ، وعاد طريق النهضة العربية يأخذ مساره .

ولكن تسوية ١٨٤١ أبقت لمصر ميدانا آخر : هو ميدان السودان وقد حرصت عليه مصر كل الحرص ، وما لبثت أو وجدت في الميدان الافريقي متنفسا لنشاطها فأوغلت فيه ، وبذلت فيه من ذات نفسها ، حتى سطرت في تاريخه سطورا لا تمحى ولا تزال بعض آثارها ماثلة حتى اليوم . فإذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد لمصر عاملا أساسيا في الشرق الاوسط ، فإن النصف الثاني من ذلك القرن سيشهدها عاملا أساسيا في السياسة الافريقية .

والحق أن سياسة التوسع المصري في أفريقيا في عهد اسماعيل جاءت في وقتها : حركات الزحف الاوروبي كانت قد بدأت من أطراف القارة وسواحلها إلى المناطق الداخلية ، وتكاتف المكتشف الأوروبي والجندي الأوروبي لتنفيذ خطط التوسع العسكري والاقتصاد باقتسام القارة (السوداء) إلى مناطق احتلال أو نفوذ ، وبدا أن السودان نفسه - إن لم تبادر مصر إلى توطيد سيطرتها عليه وحمايته من أطرافه - سيلقى نفس المصير الذي انحدرت إليه أكثر أجزاء القارة لذا عملت مصر أولا على إتمام تكوين الوحدة السودانية ، فضمت نهائيا موانىء البحر الاحمر وخاصة سواكن ومصوع ، وضمت دارفود ، ومديرية خط الاستواء

وبذلك انقذت السودان - حتى اليوم - من عوامل التفكك الداخلي ، وحفظت له مصر وحدته الجغرافية ، كما انقذته من عوامل التربص الخارجي - حتى بعد أن وقع تحت وطأة الحكم الانجليزي في عهد الحكم الثنائي - جنبته المصير الذي انحدرت اليه المستعمرات الافريقية من حوله ، وبذلك شيدت مصر الاساس الذي تقوم عليه (دولة) السودان اليوم .

ولم تقصر مصر جهدها على السودان، فإن الاحداث التي كانت تجري سريعة من حوله كانت جديرة بأن تحفز مصر الى العمل، وبدا الامر سباقاً بين مصر، تساندها قوة الاسلام والعروبة على سواحل البحر الاحمر وشرقي أفريقية وبين زحف الاستعمار الاوروبي. وكانت مصر أينما توجهت تلقاه يقطع عليها الطريق ويثير شتى العقبات،

ويتربّص بها في كل مكان ـ حتى في مصر نفسها ـ وهو يقدر أن الوقت سيجيء بعد قليل ـ فينهار البناء. بناء الامبراطورية المصرية الافريقية، وحينئذٍ يتقدم الاستعمار الاوروبي ليضع يده على الأرث المصري، بعد ان تكون مصر قد بذلت لتمهد له الارض وتضع الاساس.

وصح ما توقعه الاستعمار الاوروبي وعمل له، وصح عجز مصر نفسها عن الخروج من حدود الطريق الذي رسمته لها تسوية ١٨٤١ حتى وصلت الى الهوة التي كان يعدها الاستعمار الأوروبي لها في شتى صورها، وحاولت مصر ان تصطنع لنفسها سياسة خارجية خاصة، وان تستعيد خطط المجد العسكري والتوسع الجغرافي، حاولت مصر ان تظهر للعالم رائدة الحضارة والنور في قلب القارة المظلمة، حاولت مصر هذا كله، وفي سبيل هذه المحاولة، وفي لهفتها على تحقيق املها في ان تكون دولة عظمى في ذلك الركن من الشرق الأوسط، بذلت مصر من مالها ودماء ابنائها، بل ومن كرامتها، فتحملت مظالم الحاكم، واستهتاره وعجز حكومته وتخبطها، كما تحملت تدخل الأجنبي الدخيل واستعلاءه. ولكن الاستعمار الأوروبي في قسوته لم يرَ مصر الناهضة القوية إلا عقبة في طريق زحفه المطرد بل غدت نظرته اليها اليوم أشد وأقسى من نظرته إليها في سنة ١٨٤٠، فهو اليوم عازم على تحطيم البناء والأرث كله.

ولكن من المساهمات التي أسست وأثرت كثيراً مع بداية عصر النهضة ظهور جمعيات ومنتديات وشخصيات كان لها دور القمة في ترسيخ عصر النهضة الذي تدين له الاجيال المتصاعدة في هذا القرن وهي التي ساهمت بثبات الموقف المصري واستمراره وبالتالي في استفادة العالم العربي كله من ذلك، ومن هذه الجمعيات والمنتديات والشخصيات على سبيل المثال لا الحصر:

الجمعية السورية:

أنشئت في بيروت عام ١٨٤٧ بمعونة المبشرين الاميركان لغرض نشر العلوم وترقية الفنون بين أبناء العربية، وقد انضم اليها نخبة من الادباء والعلماء. وتكاد تكون مقصورة على المسيحيين، وظلت هذه الجمعية عاملة الى عام ١٨٥٢ تجتمع مرة في الشهرة. وقد بلغت جلساتها ثلاثاً وخمسين جلسة وقد طبعت مأثورات هذه الجمعية التي تشتمل على الخطب والمقالات، ومنها خطبة للاستاذ فانديك في لذة العلم وفوائده

واخرى لليازجي في علوم العرب، وخطبة في الشرائع الطبيعية لسليم نوفل، واخرى في تعليم النساء لبطرس البستاني، ويروى أن تأسيس هذه الجمعية كان بناء على اقتراح من البستاني واليازجي على المرسلين الاميركان وقد اخذ عنهم اليسوعيون جمعيتهم هذه فأسسوا الجمعية الشرقية على نمط الجمعية السورية وأعضاؤ ها كلهم من المسيحيين، وانحلت هاتان الجمعيتان وتلتها جمعيات اخرى.

الجمعية العلمية السورية :

أنشئت هذه الجمعية عام ١٨٥٧ على غرار الجمعية السورية واقتفت آثارها خطوة خطوة ولكنها اختلفت عنها بأنها كانت تتكون من مسلمين ومسيحيين، وظلت عاملة الى عام ١٨٦٨، واعترفت بها الدولة العثمانية رسمياً، وعقدت اجتماعاً حضره متصرف لبنان واذن لها بنشر أعمالها، وانتظم فيها عدد كبير من جميع المدن السورية ومن رجال السياسة في الاستانة، وكانت مظهراً من مظاهر الوعي القومي التقى فيها الشعور العربي على اختلاف الاديان.

الجمعية الخيرية :

أسسها محمد عارف باشا سنة ١٨٦٧ بمصر لنشر الكتب الناقصة وأنشأ ابراهيم بك المويلحي حينذاك مطبعة أسماها باسم الجمعية لطبع تلك الكتب، وقد طبعت طائفة من الكتب في التاريخ والفقه، منها أسد الغابة والفتح الوهبي، وتاج العروس. وعلى أثر التنازع السياسي بين أفراد الاسرة الخديوية حيث كان محمد عارف يناصر فريقا على آخر، فرّ الى الاستانة وتوفي بها وحُلت الجمعية.

الجمعية الخيرية الاسلامية :

تأسست هذه الجمعية في الاسكندرية عام ١٨٧٨. وكانت علمية أدبية تشوبها روح سياسية اجتماعية وكان الباعث على تأسيسها ما كان يراه المصريون من استئثار الاجانب بمرافق البلاد الاقتصادية وتأخر حال المصريين وكان همها فتح المدارس لتعليم البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم على أن تكون تلك المدارس حرة، وقد فتحت مدرسة وكّلت امرها إلى عبدالله النديم تعاونه لجنة من أعيان الاسكندرية في ادارتها. وكان أعضاء الجمعية يتبادلون الخطب ليلا في الموضوعات العلمية والاجتماعية، وقد وضعت المدرسة رواية تمثيلية اسمها (مصر وطالع التوفيق) ومثلتها بلهجة تنم عن أسف على ما

عليه حال مصر، فأوجس القوم منها خيفة ورأوا فيها مقاومة للتيار الأجنبي، وتربصوا بها حتى إذا ابتدأت ثورة عرابي أقفلوا أبوابها.

ولعبت الصحافة الى جانب هذه الجمعيات دورا بارزا حيث لم يعرف الشرق العربي هذا النوع من بواعث النهوض ومقومات المدينة الحديثة قبل حملة نابليون على مصر، فلما دخل الفرنسيون مصر انشأوا جريدتين تصدران باللغة الفرنسية ونشرة سموها التنبيه ينشر فيها ما يجري من الأمور في ديوان القضايا.

فلما جلا الفرنسيون عن مصر وصار الأمر الى محمد علي أنشأ أول جريدة عربية سميت الوقائع المصرية، وكانت تصدر بادىء الأمر باللغة التركية، ثم بالتركية والعربية، وأخيرا اقتصرت على العربية.

ثم تلتها في الظهور جريدة الأحوال عام ١٨٥٥ لصاحبها رزق الله حسون الحلبي. ولم يزد عمر هذه الجريدة على عام، فقد كانت لهجتها ضد الدولة العثمانية فقررت الدولة اغلاقها والقاء القبض على صاحبها الذي فرّ إلى روسيا.

وصدرت جريدة الأخبار عام ١٨٥٨ لمحررها خليل الخوري في بيروت وانقلبت هذه الجريدة إلى شبه رسمية لأن الحكومة كانت تعطي راتبا لصاحبها.

وفي سنة ١٨٦٠ أصدز أحمد فارس الشدياق جريدة الجوائب في الاستانة، وكانت هذه الجريدة منبرا تتبارى عليه أقلام العرب وأدبائهم. وبعد صدورها بسنة صدرت جريدة في تونس باسم الرائد التونسي. وتوالى صدور الجرائد في البلاد العربية، وتكاد تكون كلها شبه رسمية يشرف عليها الولاة. فقد أنشأ مدحت باشا جريدة الزوراء في بغداد عام ١٨٦٨، وصدرت جريدة سوريا في دمشق عام ١٨٦٥ وجريدة لبنان أصدرها حاكم لبنان عام ١٨٦٧ والفرات في حلب عام ١٨٦٧.

وزادت الحركة الفكرية اتساعا مدهشا، واستلزم ذلك الخوض في شؤون الدولة العامة من حيث الاصلاح والوضع الاجتماعي والسياسي للعناصر التي كانت تتشكل منها الامبراطورية العثمانية، وكانت الجمعيات التبشيرية والبعثات الدبلوماسية في البلاد لا تألو جهدا في اثارة الخواطر وتنبيه الناس على ما هم عليه من الأوضاع الشاذة فاستتبع ذلك ملاحقة السلطات لذوي الرأي وللخارجين على ما تريده لنفسها، واشتد

الضغط على الكتاب وبخاصة المسيحيين فهاجر فريق منهم إلى مصر وكانت موئلا لهم، وشرعوا ينشئون الصحف. وكان أهمها جريدة الأهرام عام ١٨٧٦ في الاسكندرية. فلما حدثت ثورة عرابي واحتل الانجليز مصر عام ١٨٨٢ تحولت الصحف الى القاهرة، وأول جريدة يومية صدرت فيها جريدة الزمان عام ١٨٨٢، ثم أقفلتها الحكومة.

وتأسست جريدة المقطم سنة ١٨٨٨. وفي احتلال الانجليز لمصر انقسمت الصحف على البلاد وعلى نفسها، فمنها ما كان يوالي العثمانيين ويعينهم على الانجليز ومنها ما يوالي فرنسا ويعينها على الانجليز، ومنها ما يوالي الانجليز أنفسهم، وكانت الزمان أسبق الصحف الى موالاة المحتلين. ثم تبعتها المقطم تنطق بلسان بريطانيا فاغتاظ الوطنيون من ذلك وأنشأوا جريدة المؤيد، فكان لظهور هذه الجريدة أثر كبير في النفوس، وكانت ممهدا لظهور الجرائد الوطنية، فكانت مدرسة للروح السامية، وكان كبار الوطنيين يناصرونها. أما جريدة الاهرام فكانت ضالعة مع الفرنسيين. وتتابع ظهور الصحف واختفاؤها.

وصفوة القول إن البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلّة العلماء والمعلمين والسياسيين الذين أيقظوا في كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة في النفوس ودفعوا الأمة الى الحرية والاستقلال والطموح. وكان من نتاج الحركة الفكرية تأسيس الجمعيات العلمية والاندية الادبية وظهور الصحف والمجلات التي أصبحت منابر للأقلام ومبادىء لبث الافكار. ومن ثم تطورت الحال الى تأليف الأحزاب وتكوين الجمعيات السياسية والنوادي التي تهدف في أعمالها إلى الاصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها. فقد كانت الدولة العثمانية قد قاربت على الشيخوخة من جرّاء ما أصابها من النكبات في البلقان وفي البلاد العربية حيث أخذ الطامعون يقضمونها من أطرافها. وشرعت الدول الاوروبية في البلقان تعضدها أوروبا تثير القلاقل للتخلص من الحكم العثماني. بل لقد انفصل فريق منها فعلا عن جسم الدولة، و الدولة تزداد ضعفا يوما بعد يوم والديون تتراكم عاما بعد عام. وناء كاهل المملكة بها حتى صارت لا تقوى على رفع أوزارها.

وكانت فرنسا التي غنمت الجزائر وتونس تعلن على رؤوس الملأ أطماعها في بلاد الشام.

وبريطانيا رابضة على ضفتي القناة في مصر وجاثمة على فم الخليج الفارسي

وباب المندب يهمها ضعف الدولة على أي حال من الأحوال لتستطيع أن تملي على السياسة الدولية ما يحفظ لها طريق الهند.

وإيطاليا ترنو بعين شرهة إلى ليبيا وتعتبرها ملكا من أملاكها وتتربص بمملكة السلطان الدوائر لتثب وثبتها.

وروسيا تثير القلاقل في البلقان، وتود في كل لحظة أن تزيل تركيا من الوجود لتقف أقدامها على ضفاف البوسفور، وقد عزا السياسيون والمصلحون هذا الضعف الى الاستبداد «الحميدي» الذي ذكرنا جانبا منه، ويجدون في ازالة هذا الاستبداد اصلاحا يؤدي إلى قوة الدولة واقامة حاكم عادل يعود بها إلى شبابها الأول، فكان شبان الامبراطورية على اختلاف أجناسهم من عرب وترك وأكراد وأرمن وألبان يرون ضرورة قيام حركة قوية تزيل هذا العرش المستبد بالامر ولكن الايدي الخفية التي كانت تلعب من وراء الستار بلبلت الأفكار وفرقت الميول، فكان من جراء ذلك أن بدأت كل جماعة تفتش لها عن رائد يقودها.

جمعية الاخاء العربي العثماني:

تأسست هذه الجمعية عام ١٩٠٨ عقب اعلان الدستور واسمها يدل على مقصدها، فقد كان العرب يرغبون في معونة الاتراك فألفوا هذه الجمعية رغبة في توحيد العمل مع جمعية الاتحاد والترقي لصيانة الدستور ورفع مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الدولة المنهوكة. ومن ثم اعلاء شأن العرب الذين يكونون الجزء الغالب في الامبراطورية، وكان من حق كل شخص ينتسب الى العرب موطنا ومولدا الاشتراك في هذه الجمعية على شرط أن يكون متصفا بالصفات الحسنة.

وتتلخص أهدافها في إعلاء كلمة العرب عن طريق نشر العلم والمعرفة واستثمار موارد الثروة في بلادهم، ولرفع مستواها المعيشي وتصنيع البلاد واسكان العشائر وتعميم العدل والمساواة بين الرعية ومن ثم التفاهم مع الاتحاديين الذين أخذوا يسيئون الى العرب جهرا وعلانية، وقد أسهم الطلاب العرب في الاستانة في هذه الجمعية، وحملوا على الاتحاديين حملات موفقة. ولم تلبث إلا قليلا حتى ادركها الوهن لشدة مقاومة الاتراك لها وهم أهل الحكم وبيدهم مقاليد الأمور فأقفلوها.

المنتدى الأدبي

كان لاقفال الاتحاديين جمعية الاخاء العربي أثر سيء في نفوس العرب فاندفعوا يتلمسون العمل في طريق آخر لا يناله شر الاتحاديين. فعمدوا إلى السرية والعلنية المقنعة. وكان أول عمل مقنع ظاهره أدبي وباطنه سياسي هو المنتدى الادبي، قام بتأسيسه نخبة من الموظفين والنواب والطلاب والعلماء والكتاب على أن يكون مثابة يأوي إليه المحتاجون من طلاب العرب الذين يؤمون العاصمة لطلب العلم ومكانا يجتمع فيه العرب الموجودون في دار الخلافة ومن يزورها من البلاد العربية. وقد ورث مالية جمعية الاخاء العربي، ثم قام أعضاؤه بتمثيل رواية صلاح الدين الأيوبي فدرت عليهم مالا وفيرا، وفُتِح المنتدى بحفل كبير يليق به. وكان هدفه الظاهر ما ذكرنا وأن يكون أدبيا يعنى بالادب والقاء المحاضرات العلمية، ولذلك أسست فيه مكتبة وقاعة للمحاضرات ودار للضيافة وقد كثر المنتسبون اليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف، وأنشئت له فروع في أنحاء البلاد، وكان ملتقى الوافدين من العرب من البلاد جميعها، وقد أقام هذا المنتدى حفلات كثيرة وطنية حماسية، ولعب دورا مهما إبان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين واستمر في نشاطه الى عام ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة.

الجمعية القحطانية :

جمعية سرية أسست في الاستانة عام ١٩٠٩ وكان من زعمائها الضابط المعروف عزيز علي المصري، وقد كانت واضحة المنهج قوية بمن انتسب اليها حيث عرف عن أعضائها الجرأة والاقدام. وكانت ترمي إلى أن تكون الدولة العالية ذات تاج مزدوج، أي أن السلطان يضع على رأسه في عاصمة الخلافة تاج المملكة العربية اضافة الى تاجه التركي ـ وتتكون المملكة العربية من جميع المقاطعات العربية ولها مجلس نيابي وادارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر، وهو منهج جريء أدرك أصحابه أن الدعوة إلى تحقيقه علنا أمر مستحيل، لأن ذلك ترتعد له فرائص غلاة الترك فاتخذوا السرية لهم سبيلا ـ ووضعوا للاعضاء كلمة سر يتفاهمون بها كما أنهم يختارون الأعضاء بدقة وحذر، وقد بذلوا جهدا لاستمالة ضباط العرب في الجيش التركي اليهم بيد أن زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسها لأن أحد الاعضاء ممن لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية، فخاف الاعضاء على أنفسهم فأهملوها وتركوها تتلاشى من الوجود، وظلت فكرة الجمعية تتردد في ذهن عزيز علي حتى صمم على تأليف أخرى على غرارها

تحل محلها، وتم له ذلك بتأليف جمعية العهد.

جمعية (العربية الفتاة) :

أسسها في باريس فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين. وقد أخذ عملهم في هذه الجمعية سبيل الجد والكتمان والحذر وكانوا لا يضمون اليهم أحدا إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده، وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركي واستقلال البلاد العربية من أي سلطة أجنبية، ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم، انتقل مركزها إلى بيروت. وقد لعبت دورا مهما في الحركة العربية ونمت هذه الجمعية نموا سريعا وبلغ مجموع أعضائها مائتين. ولقد بلغ من حرصهم على العهد وكتمان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثاني المشنقة لشدة ما عذب في سبيل الاعتراف.

جمعية العهد ومقاومة الاتحاديين :

كونها عزيز علي المصري عام ١٩١٣، واقتصر في أعضائها على الضباط العرب، ولما كان عدد العراقيين في الجيش التركي كبيرا صارت كثرة الاعضاء لهم، وكانت هذه الجمعيه شديدة في سريتها شدة جمعية (العربية الفتاة). وقد أُسس لها فرعان: في الموصل وبغداد، وقد بذلت الجمعيتان جهوداً جبارة في سبيل استقلال البلاد العربية، ولم تدر إحداهما بالاخرى، وقد تلاقتا في دمشق عام ١٩١٥ ووحدتا جهودهما لاعداد الثورة.

وكانت أهداف جمعية العهد ترمي الى الاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا، وأن تبقى الخلافة بيد ال عثمان، وأن يكون العرب مع الاتراك في المحافظة على بقاء الاستانة بيدهم، وأن تسعى الجمعية لبث المثل العليا كي تستطيع الأمة الاحتفاظ بكيانها السياسي.

اهتزت جوانب الاستانة من هذه الجمعية، وارتعدت فرائص الاتحاديين منها، فاجمعوا أمرهم عشاء وقرروا ابعاد ضباط العرب من الاستانة وارسالهم إلى المناطق التركية لكي يتخلصوا من شرهم، وكان عددهم يربو على ٤٩٠ ضابطا منهم ٣١٥

منتمـون لجمعية العهـد، وتوليـة القيادة إلى الترك في بلاد العـرب والاسراع في تنفيـذ سياسة التتريك وأن يتولى ذلك أحمد جمال باشا، ومقاومة الحركة الاصلاحية في بيـروت وبـاريس وإلغاء الاحـزاب العربيـة كلها، وإيجـاد شعبة سيـاسية في وزارتي الـداخلية والخارجية لـلاشراف عـلى الشؤ ون العربيـة ومقاومـة كل حـركة تـدعو الى الانفصـال واقصاء العرب الذين هم ضد الحكومة واستمالة غيرهم، وتعزيز حركـة الاتحاديـين في أنحاء البلاد.

وفي يـوم ٩ شباط - فبـراير عـام ١٩١٣ القي القبض عـلى رئيس هـذه الجمعيـة الضابط عزيز علي المصري (حيث وجد الاتحاديون في هـذا الضابط الجـرىء قوة هـائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها، وظنوا أن الجو قد صفا لهم بأبعاد الضباط العرب عن الاستـانة) فـدبروا لـه مكيدة وألقـوا القبض عليه، فلما ذاع الخبـر بين النـاس قام العرب وقعدوا لهذا الأمر، فأبلغ رفاقه الحكومة التركية: (بأن دمـاءنا نحن العـرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطرنا الى اراقتها في سبيل الافراد).

لم تجد محاولات العرب آذانا صاغية عنـد الاتحاديـين وقُدّم عـزيز بتهمـة الخيانـة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الاتحاديين، ذلك أنه سعى لانشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة في ليبيا، وأنه أخذ رشوة من الايـطاليين مقـابل تسليم البـلاد اليهم، وأنه عـدو لرجال الاتحـاد، وما إلى ذلـك من التهم التي كان عـزيز بعيـدا عنها، لقـد عُرف هـذا الضابط الجرىء بقوة الشكيمة والرجولـة. وكان ذكيـا مقدامـا، تخرج هـذا الضابط في مدرسة الاركان بتفوق، وعيّن في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونيـا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي، واشترك بالزحف على العاصمـة في ثورة ١٩٠٨، ولمـا أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمي إلى مقاومة الحركة العربية نفض يده منهـا وأسس هو وزميله الجزائري الجمعيـة القحطانيـة، ثم جمعية العهـد، ولما نشب الخـلاف بينه وبـين الباب العالي، وقد أحرز انتصارا باهرا في ليبيا على الايطاليين بـالرغم من قلة ذات اليـد وقلة العدد والعدة، وكانت معركة تموز - يوليو التي انتصر فيها على الطليان من أكبر المعـارك من الوجهة الحربية ووصفتها بعض صحف الغرب بأنها تشبه معركة (كـان) التي انتصر فيها هانيبال على الرومان. ولما شاع في الأوساط أن رئيس هذه الجمعية قد حكم عليـه بالاعدام بعد هذه الاتهامات والمحـاكمة الخيـالية، ثم تـأكد ذلـك، قامت دنيـا العرب ولم تقعد لهذا الحادث الجلل، وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد، وشكلت

لجنة برئاسة شيخ الأزهر للدفاع عنه وذهبت وفود عديدة إلى اللورد كتشنر في القاهرة ، وتضافرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الاعدام الى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما، كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم في دفع الاخطار واستقر الرأي على المضي في الكفاح إلى النهاية، فقد كانت قضية عزيز قبسا أثار شعلة في النفوس ظلت تلتهب حتى اندلع لهيب الثورة.

حزب اللامركزية :

وفي عام ١٩١٢ تأسس حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة، وبدأت القاهرة تسهم في الحركة العربية إسهاماً فعالاً بعد أن كانت مركزا للقضاء على حركة ابن عبدالرهاب. ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية على يد واليها محمد علي وولديه ابراهيم وطوسون. وقد تأسست لهذا الحزب فروع في سوريا والعراق. وكان هذا الحزب يهدف إلى إقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوحيد الرأي العام العربي الى المطالبة بذلك. وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئا ووقف وجها لوجه أمام الاتحاديين، وقد جاء في المادة الثالثة من نظامه: (ليس الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الاسرار فهو ينشد مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بُنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية).

وفي المادة الرابعة منه(إن الدخول فيه مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر على شرط أن يكون أولا من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، ثانيا غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف، ثالثا غير مشتهر بسوء السيرة، رابعا أن يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب).

الجمعية الاصلاحية في بيروت :

وفي عام ١٩١٢ تأسست الجمعية الاصلاحية في بيروت وأقرت مناهجها في جلستها الثالثة المنعقدة في دار المجلس البلدي بإذن من الحكومة يوم الجمعة الموافق ٣١ كانون الثاني ـ يناير عام ١٩١٣ وقد جاء في مستهل هذا المنهاج :

الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية، ويتألف المنهاج من خمس عشرة مادة جاء في المادة السابعة منه، وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الاجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث، العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الاتية في مركز الولاية: وهي الجندرمة والمالية (ويلحق بها غرفة التجارة) والبريد والبرق والجمرك وتعين أيضا مفتشا أجنبيا عاما لكل لواء من الولاية يخوّل حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء، ويكون مرجعه مستشار مركز الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه، ويعين المجلس العمومي مستشارين من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية للدوائر الاتية وهي: مجلس الولاية العمومي والعدلية والنافعة والمعارف والبلدية والبوليس ويلبس هؤلاء المستشارين الشعار العثماني في أوقات العمل ومدة الاستشارة خمسة عشر عاما يمكن تجديدها.

وجاء في المادة الرابعة عشرة من منهاجها، إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية، وتعتبر أيضا لغة رسمية كاللغة التركية في مجلس النواب والاعيان.

وفي المادة الخامسة عشرة: تخفض الخدمة العسكرية الى سنتين، وتقضى الخدمة أيام السلم في الولاية، وتنزل قيمة البدل النقدي للنظامية الى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة عثمانية.

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من افساح المجال لتدخل الاجانب في شؤون الدولة الداخلية.

وما جاء في المادة الرابعة عشرة نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكرها فرائص الاتحاديين الذين لا يودون سماع كلمة (اللغة العربية) لأنهم سائرون على سياسة تتريك العناصر غير التركية. ويعلمون حق العلم أنهم محكومون بالثقافة العربية الاسلامية وهي لغة القرآن وهم وإن كانوا يحكمون البلاد بالقوة فلا يستطيعون مقاومة هذه الثقافة بسهولة.

أغضب ما جاء في هذا المنهاج رؤوس الاتحاديين فأسرعت الحكومة إلى إغلاق الجمعية فأضربت المدن احتجاجا على هذا الاغلاق.

الى جانب هذه النوادي والمنتديات والنشاطات كانت هناك الوجوه والاسماء اللامعة التي لعبت دورا أساسياً في تكوين عصر النهضة، ومن هؤلاء جمال الدين الافغاني.

لقد ضم القرن التاسع عشر شخصيات مبدعة مثل الافغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) في الوقت الذي كان العالم العربي ميدانا لتزاحم الغرب على اقتسامه. وكان هذا التزاحم واضح الخطوط في ذهنية هذه الشخصيات التي اتخذت من الاسلام منطلقا لدعوتها ، ومن القرآن والتراث الاسلامي معينا لمادتها ، وكان يرمي في هذه الدعوة إلى إيقاظ الشعور لدى ابناء الأمة الاسلامية والسمو بمستواها إلى مستوى الامم الحرة وكان يهيب بها أن تعود إلى أصول العقيدة وصفائها والتخلص من شوائب البدع التي آلت بهم إلى هذا الفتور والضعف .

ومن تلاميذه الشيخ محمد عبده، وظهر في حلب من بيت ديني عبدالرحمن الكواكبي وآخرون.

لقد كان هؤلاء الاعلام أساتذة من الصنف الأول بالاضافة إلى وجود الأزهر الشريف الذي كان منبرا للجميع وكانوا القدوة الصالحة لتلامذة جاءوا من بعدهم في مصر وغيرها من الدول العربية أمثال أساتذتنا في هذا العصر ، أحمد لطفي السيد ، سلامة موسى ، عباس محمود العقاد ، طه حسين ، مصطفى صادق الرافعي ، أحمد حسن الزيات ، عبد الوهاب عزام ، محمد فريد أبو حديد ، يحيى حقي ، محمود تيمور ، ابراهيم عبد القادر المازني . . . الخ . وكان إلى جانب هؤلاء الرواد رواد آخرون من الأدباء والكتاب والشعراء والصحافيين اللبنانيين والسوريين والعراقيين الذين أرسوا دعائم النهضة على كل صعيد فكرياً واقتصادياً وسياسياً وأدبياً ، ويدين هذا الجيل إلى أمثال هؤلاء باستمراريته وتناميه يوماً بعد يوم .

علاقات الشرق والغرب بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

التجارة بوابة الاستعمار الكبيرة :

قبل أن يفتح الأتراك البلاد العربية مرت على العالم العربي أحداث هامة كانت سبباً في الضعف الذي أصاب هذه البلاد ، ومكن الأتراك العثمانيين من أن يقبضوا عليها بيد من حديد .

ولقد جاءت قبل ذلك موجة المغول الذين قضوا على الخلافة العباسية في بغداد (١٢٥٨) وقضوا على الحضارة الزاهرة التي كانت بغداد عروسها ومركزها التاريخي العظيم ، ثم تقدمت جحافل المغول إلى بلاد بر الشام ومصر الخ .

وتعرض المشرق العربي في تلك الحقبة من الزمن لخطر الحروب الصليبية وقد استعان العرب آنذاك بطوائف من المسلمين الأكراد والترك واخلاط من الأجناس التي كونت فيما بعد دولة المماليك في مصر .

ولم يكد الشرق العربي ينتهي من محاربة الصليبيين والمغول حتى دهمه خطر جديد أودى بحياته الاقتصادية وحرمه من أهم مورد كان يعتمد عليه في تدعيم سلطانه ، فقد اكتشف البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر طريق رأس الرجاء الصالح وحرموا العرب من نصيبهم في تجارة الهند والشرق الأقصى ، ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا يسيطرون على بعض اطراف الشرق العربي ويضعون فيها الحاميات ويحاصرون العرب حصاراً عسكرياً واقتصادياً .

وفي أوائل القرن السادس عشر أصبح العالم الاسلامي في غرب آسيا موزعاً بين

ثلاث دول كبرى ، تنازعت فيما بينها زعامة الأسلام وهي الدولة الصفوية الايرانية ، والدولة العثمانية التركية والدولة المملوكية المصرية .

أما الدولة الأولى فقد استطاع مؤسسها اسماعيل الصفوي أن يتجه إلى العراق فيفتحها ويرفع علم الدولة الصفوية على بغداد عام ١٥٠٨ ولما كان أول أهدافه أن يقيم دولة واسعة تدين بالتشيع ، فقد حاول أن يبدأ بالعراق لتكون أول دولة شيعية في العالم العربي ولكن نجاحه لم يكن كاملاً إذ شرع فريق من أهل السنة في العراق الاستغاثة بالعالم العربي والاسلامي .

في هذا الوقت كانت ولادة الدولة العثمانية التي سارعت للاصطدام بالصفويين بقيادة السلطان سليم في معركة (غالديران) عام ١٥١٤ حيث استطاع أن يدخل عاصمتهم تبريز ولم يخرج منها إلا بعد أن اطمأن إلى زوال خطر تلك الدولة ، ولكنه آمن بأن ذلك الخطر لن يزول إلا إذا وضع بينه وبينها سداً يستطيع أن يدعمه ويقويه ويسيطر عليه ، وذلك بأن يستولي على البلاد العربية التي تكسبه إلى جانب المنعة والعزة جاهاً عريضاً وملكاً قد يمكنه من الحصول على لقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وقد تحقق ذلك بعد معركة (مرج دابق) ١٥١٦ التي انتقلت بعدها الخلافة الاسلامية إلى آل عثمان وانعقد للأتراك لواء الزعامة في العالم الاسلامي .

وقد دعم مركزهم ، أن شريف مكة الذي كان يدين بالولاء من قبل لسلطان مصر المملوكي سارع باعلان ولائه للسلطان سليم الأول وأرسل ابنه إلى الأستانة يحمل مفاتيح الكعبة ويعلن للعالم أجمع أن السلطان العثماني حامي حمى الاسلام وخادم الحرمين الشريفين .

وهكذا وقع العالم العربي تحت حكم الأتراك العثمانيين ، فتدهورت أحواله وتأخرت مدنيته وارتمى بين براثن نفر من الباشوات الجهلة ترسلهم القسطنطينية ليحكموا البلاد العربية حكماً لا يحترمون فيه رغبات الشعوب ومصالح المواطنين ، واقترن ذلك كله بضعف الدولة العثمانية ذاتها مما أدى إلى الاطماع الأجنبية في العالم العربي . وقد مهدت الدولة العثمانية للأوروبيين سبيل العدوان على العرب بما وفرته لهم من امتيازات يتمتعون بها على حساب العرب في بلادهم ، فبدأت فرنسا تدعي حماية الرعايا الكاثوليك في الشرق وشرعت روسيا في فرض حمايتها على الرعايا الأرثوذكس . . . الخ .

وظلت الأمة العربية فريسة الأتراك من جهة ، والأطماع الأجنبية من جهة أخرى حتى استهل القرن التاسع عشر وبدأ الشرق العربي يستفيق من سباته الطويل عندما بدأت الدول الأوروبية الكبرى تطرق أبوابه في شدة وعنف . فالسياسة البريطانية كان محورها منذ القرن الثامن عشر يدور حول تأمين الطريق إلى الهند ، والانتفاع بموانىء جزيرة العرب كجدة ومخا وعدن ومنع أية قوة كبرى من التسلط على هذه الطريق وقد تنبهت بريطانيا إلى هذه السياسة منذ بدأ التنافس بينها وبين فرنسا على التسلط على البحر الأحمر والخليج العربي .

ولعل التقرير الذي أرسله الماريشال دي كاستري وزير البحرية الفرنسية إلى الملك لويس السادس عشر قد زاد من خوف بريطانيا وجعلها تحرص على المحافظة على هذين الطريقين بكل ما أوتيت من قوة ودهاء ، فقد قال كاستري في تقريره (إن البحر الأحمر والخليج العربي يشبهان ذراعين مدتهما الطبيعة لكي تصلا الهند بأوروبا)[٧٠]وعندما بدأ الصراع بين انجلترا وفرنسا في الشرق ودارت الحرب بينهما بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر (١٨٩٧) اضطرت انجلترا أن تتجه بسياستها إلى البحر الأحمر الذي كانت توليه أكبر جانب من الأهمية لذلك كانت سياستها مهتمة بانشاء علاقات ودية مع حكام الجزيرة العربية وكانت الشخصية التي تسيطر في تلك الأيام هي شخصية أمير مكة الشريف غالب الذي تضاءلت بجانبه شخصية الوالي العثماني ، فأخذ الانكليز والفرنسيون يخطبون وده ، فحاكم الهند البريطاني يكتب إليه قائلاً :(إننا ندافع عن الاسلام ـ والاسلام سبب مهم من أسباب النزاع بيننا وبين الفرنسيين) ونابليون يكتب إليه قائلاً : « إننا أصدقاء للمسلمين ولدينهم وسنعمل كل ما نستطيعه لارضائكم ولخدمة الدين الاسلامي»[٧١] .

وقد توالت رسائل الحاكم العام للهند على الحكام العرب يحذرهم من نيات نابليون نحو الشرق العربي ويطلب إليهم مد كل معونة للأسطول الانجليزي وخاصة من ناحية المؤ ونة الغذائية ليعمل على طرد العدو « المشترك » من مصر ولم ينس اللورد ولزلي حاكم الهند أن يقول لهم : إن فرنسا هي عدوة السلطان والعرب والانجليز جميعاً[٧٢] .

وقد أوفد مبعوثاً سياسياً هو « بوبهام » لابرام معاهدات بين حكومة الهند والحكام العرب وعلى رأسهم شريف مكة ، وكان على بويهام « أن يثير شعور العرب ضد

الفرنسيين بأن يبصرهم بالخطر الذي يحدق بهم من جراء احتلال الفرنسيين لمصر ، وأنه من الممكن لفرنسا أن تفكر في النزول على شاطىء البحر الأحمر ، فعلى الرؤساء العرب إذن واجب نحو سلامتهم وسلامة بلادهم أن يقدموا كل معاونة للانجليز ويتمسكوا بمحالفتهم طوال مدة الحملة الفرنسية»(٧٣) .

وكان ولزلي يعقد لنجاح تنفيذ سياسته على عدة اعتبارات : منها دهاء بوبهام وسياسته ومعرفته اللغة العربية والهدايا التي حملها إلى الحكام ورؤساء القبائل ومنح العرب بعض الامتيازات واغراهم بالحديث المعسول عن سياسة الاخاء والمساواة والمودة وكاد ينتصر بالفعل انتصاراً سريعاً في مصر خاصة بعد أن دمر الانجليز الأسطول الفرنسي في أبي قير وقد استطاع بوبهام أن يعقد مع الشريف غالب معاهدة تجارية وملاحية على الرغم من أن الشريف كان على اتصال بنابليون الذي وعده بصداقة الفرنسيين ، ولكن انتصار الانجليز جعل الشريف غالب يفضل الانجليز ، وسافر بوبهام بعد ذلك إلى اليمن وعقد حلفاً مع الامام أحمد سنة ١٨٠٢ ، أصبحت بها عدن مفتوحة الأبواب للتجارة البريطانية .

أما طريق الهند الآخر ، طريق الخليج ـ البصرة ـ بغداد ، ومن هناك إلى حلب فاسطنبول ، فقد وجد لوردالفن الذي كان سفيراً لانجلترا في اسطنبول نفسه يسعى لدى حكومة الباب العالي لتعيين مندوب رسمي انجليزي في بغداد وفعلاً تم في سنة ١٨٠٢ تعيين هذا المندوب الذي كانت مهمته مراقبة الخطط الفرنسية . وكان الانجليز يعملون على مد سلطانهم نحو الخليج العربي ومحاربة القرصنة التي كانت تعترض سبيل الملاحة التجارية وتعتدي على مصائد اللؤلؤ حول جزيرة البحرين ، ولذلك فرضوا صداقتهم وأملوا ارادتهم على امام مسقط (سيد سعيد) . ولما فتح عبدالعزيز بن سعود الحسا حاول الانجليز أن يحتموا به لكي ينشئوا معه علاقة ود وصداقة ليضمنوا عدم الاعتداء على السفن الانجليزية في الخليج ، لذا أرسلوا إليه بعثة يرأسها « رينود » وهو أحد الموظفين الذين أقاموا مدة طويلة في البصرة والكويت ، وقد أقلت رينود سفينة بريطانية إلى القطيف ثم ذهب إلى الهفوف في حماية أحد أخوة الأمير السعودي وسار بعد ذلك إلى الدرعية ولكن لم يكن باستطاعة الحكومة السعودية أن تفرض سيطرتها على عصابات القراصنة ، ورأى الانجليز أنه من العبث الاعتماد على الاتفاق مع الأمير السعودي(٧٤) .

وظل الحال كذلك حتى لاح للانجليز خطر جديد هو وصول الجيش المصري إلى الجزيرة العربية وانتشاره في ربوعها المختلفة ووصوله إلى السواحل التي تحرص بريطانيا على ابعاد أية سلطة قوية من السيطرة عليها .

ولكن في عام ١٨٣٥ سمع البريطانيون عن قيام جيش مصري بالتغلغل في أرض اليمن ، ووصول الأسطول المصري إلى مينائي الحديدة ومخا وبذلك أصبح ساحل البحر الأحمر في أيدي المصريين اما في الداخل فقد وصلت القوات المصرية النظامية إلى اقليم تعز عام ١٨٣٧ ولم يكد ينقضي الشهر حتى وصلت كتيبة يرأسها الضابط المصري محمد صادق إلى مشارف عدن(٧٥) وأصبحت على قاب قوسين من احتلال الميناء الذي يعتبره الانجليز « جبل طارق الشرق » وهنا تحركت السياسة البريطانية لمنع هذه الكارثة ، فأخذت بريطانيا تعمل على تثبيت اقدامها في ميناء عدن . وبعد ذلك توالت الانذارات البريطانية إلى مصر بأن أية محاولة ضد عدن ستعتبر موجهة ضد التاج البريطاني وتعامل تبعاً لذلك .

وتدفقت الجيوش المصرية نحو الخليج العربي تحت قيادة خورشيد باشا فدخلت الحسا والقطيف وسيهات والعقير ، وبدأ هذا القائد يتصل بأمير البحرين عبدالله بن أحمد آل خليفة (١٨٣٩) فأخذ البريطانيون يعملون على وقف ذلك الخطر العربي الزاحف على نفوذهم ، وبدأت عملية تبادل الرسائل بين حكومة الهند والقنصل البريطاني المقيم باحدى جزر الخليج العربي ، والقنصل البريطاني في القاهرة ، واللورد بلمرستون وزير الخارجية البريطاني لاتخاذ الوسائل الحاسمة لتحطيم القوة المصرية الجديدة التي تحاول اقامة دولة تجمع العالم العربي كله(٧٦) .

وكانت خطة بلمرستون السياسية ترتكز على أساسين ، مصالح انجلترا في الشرق ، والتوتر الدولي في الغرب فهو يقاوم امتداد نفوذ روسيا نحو الغرب ، ويقاوم امتداد النفوذ المصري نحو الشرق لأن مصالح انجلترا تجعله يفضل أن تظل الطرق الموصلة إلى الهند تحت السيادة العثمانية الضعيفة الواهنة ، لا أن تقع في قبضة مصر القوية أما وقد تزحزحت تركيا عن الطريق الموصلة إلى الهند وانهارت أمام الجيش المصري الناشىء ، فلا يسع بريطانيا أن تترك امبراطورية عربية واسعة تمتد من جبال طوروس إلى اقاصي السودان وتتحكم في الطريقين الهامين الموصلين إلى الهند .

لذلك سعت بريطانيا إلى تأليب الدول الأوروبية على مصر ، ولم يعد الخلاف

بين السلطان التركي ومحمد على مسألة محلية ، بل أصبح مسألة أوروبية ، تتحالف فيها على مصر الدول الخمس الكبرى المعروفة انذاك ولا سيما بعد انـدحار الجيش التركي في واقعة نزيب وانحياز الأسطول إلى مصر ، عندها واجهت مصر قوات متحدة لتحالف أوروبي كبير ، فضُربت بيروت وسقط حصن عكا في أيدي الحلفاء وعادت قوات إبراهيم باشا لتنكمش في مصر .

لقد كان للقبضة العثمانية على الدول العربية حتى القرن التاسع عشر في مصر وبلاد الشام والعراق والحجاز الفضل الأكبر في عدم ظهور الفكرة القومية في هذه البلاد وأن ظهورها لم يكن متوقفاً على تراخي القبضة الحاكمة بقدر ما كان متوقفاً على عناصر أخرى من ترك أمر الحرب للجند غير العرب واختفاء السلاح إلا من أيدي رؤساء العصبيات القبلية وهي بطبيعتها محدودة الأمد والعمل . وعدم قيام زعامة قومية وتربية وطنية ووعي قومي ونضوج فكري . هـذا كله كان يعوز العرب حتى القرن التاسع عشر ، وكان الشعور العام بالانتهاء إلى عالم كبير ، أكبر من الوطن العربي ذاته ، هو العالم الاسلامي العثماني من أهم العوامل التي عرقلت نمو القومية العربية حتى ذلك العصر .

حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، انتقضت العلاقات العربية ـ التركية بفضل عاملين : **الأول** ظهور (الفكرة) العربية أولاً في قطرين من العالم العربي ، في الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ممثله في الدعوة إلى احياء الاسلام في بساطته العربية الأولى وتخليصه من شوائب البدع التي دخل أكثرها على أيدي المسلمين في غير العرب ، وتمثلت في ازدياد نفوذ التصوف . والقطر الآخر هو مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مدعمة بمقومين أساسيين : القوة العسكرية الوطنية واحياء الثقافة العربية ، مع محاولة انشاء ملك سياسي يقوم على سواعد العرب في كلا القطرين **والعامل الثاني**: بدء الضغط الأوروبي على بلدان الشرق العربي ممثلاً في حملة نابليون على مصر والشام .

وقد أحدث هذان العاملان : ظهور الفكرة العربية والضغط الأوروبي أثرهما في تشكيل العلاقات العثمانية العربية على نحو جديد ، فقد أدركت الدولة العثمانية أن أساليبها في حكم ولاياتها لم تؤدِ إلا إلى تعريض هذه الولايات لخطر الاعتداء الأوروبي أو افساح المجال لتقوى العصبيات فيها مما هدد الدولة بأعظم الأخطار . لذلك عزمت

الدولة العثمانية على اصطناع أساليب جديدة في حكم ولاياتها تستهدف تقوية قبضتها على هذه الولايات ، على نحو يكفل لها الدفاع عنها في وجه أي معتد أجنبي أو صاحب عصبية طموح . وعلى هذا النحو سارت الدولة العثمانية في حكم ولاياتها ، بل سعت إلى استرداد ما كانت قد فقدته من الولايات العربية ، فعادت جيوشها تفتح اليمن وتضع حامياتها على أجزاء من الخليج العربي وتطأ في داخل الجزيرة العربية أرضاً لم تطأها من قبل قدم جندي عثماني .

ولقد كان لهذه الأوضاع المحددة التي صبت فيها العلاقات العربية الأوروبية نتائجها الخطيرة على الكيان العربي . فقد تحول الاقتصاد العربي من اقتصاد نقدي نشط متحرك أهم عناصره التجارة والأخذ والعطاء إلى اقتصاد إقطاعي جامد أهم عناصره الزراعة وما تنتج الأرض ، بل أنها كانت زراعة محدودة للإكتفاء الذاتي فقط من الحبوب والأرز ولا تكاد تنتج ما يكفي للتصدير إلا بعض الحبوب (في مصر) والقطن (في سوريا) .

وهكذا أصبح الاقتصاد العربي اقتصاداً محلياً لا تكاد تقوم بينه وبين الاقتصاد الخارجي صلة إلا في أضيق الحدود . وهكذا أيضاً لم يعد التاجر الأوروبي يجد في هذه البلاد ما يجذبه إليها ، منذ استطاع أن يصل مباشرة إلى منابع التجارة الشرقية متنكباً الطرق التجارية العربية ، وهو لا يجد في منتجات الولايات العربية ما يحتاج إليه أشد الحاجة ، فإن أرضها لا تكفي لسد حاجات أهلها ، وما فاض منها تحرم الدولة تصديره إلى ولاياتها، والقدرة الشرائية لدى الغالبية العظمى من الأهالي في الولايات العربية من الضعف بحيث لا تمكن من التوسع في استيراد المواد المصنوعة في البلاد الأوروبية . لهذا كله انحصرت العلاقات التجارية بين أوروبا وبلاد الشرق العربي في نطاق ضيق ، وقل عدد التجار الأوروبيين الذين كانوا يترددون على البلاد العربية أو يقيمون فيها .

إن ظروف الحياة في الولايات العربية في ذلك الوقت لم يكن من شأنها أن تيسر المقام لهؤلاء الأجانب لأن السلطات الحاكمة في هذه الولايات كان أكثرها يجد في الجاليات الأجنبية مصدراً لابتزاز المال ، على الرغم مما كان يتمتع به الأجانب من امتيازات خاصة منحهم اياها السلاطين ، وكثيراً ما تعدت هذه المغارم إلى قناصل الدول أنفسهم ، وقد كانوا تجاراً يديرون شؤون الجالية ، وهم بدورهم يتبعون

الشركة الشرقية إن كانوا الانكليز ، أو غرفة التجارة المرسيلية ، إذ كانوا فرنسيين فشركة الليفان هي التي تعين القناصل الانجليز في مناصبهم وهي التي تعزلهم ، وهي التي تدفع لهم رواتبهم ، فالقنصل يمثل الشركة ومصالحها أكثر مما يمثل حكومتهم ، لأنه في الواقع يمثل مصالح تجارية أكثر مما يمثل مصالح سياسية ، بل لقد بلغ من ذلك أن سفير انجلترا لدى السلطان كانت تعينه أو على الأقل ترشحه ـ شركة الليفان وتدفع له راتبه أو الجانب الأكبر منه ، والقناصل الانجليز في الشرق الأدنى يتبعونه ويتلقون أوامره .

وكذلك كان القناصل الفرنسيون تابعين لغرفة التجارة بمرسيليا ، تدفع لهم الغرفة رواتبهم ويرفعون إليها تقاريرهم ، وهم مسؤولون امام السفير الفرنسي بالقسطنطينية . وكانوا يُختارون من بين التجار وكان يسمح لهم بالاستمرار في مزاولة التجارة ، وتقرر لهم « عوائد » على التجارة من مواطنيهم أو من التجار الآخرين اللذين لا قناصل لهم فيضعون أنفسهم في حماية احدى القنصليات الأوروبية ، وفي بعض الأحيان كان ملك فرنسا يمنح أسرة معينة احدى القنصليات الفرنسية في الشرق ملكاً تاماً لها يتوارثه افرادها ، فكانوا يؤلفون لاستغلالها شركة أو جماعة مساهمة . حتى كانت اصلاحات الوزير كولبير فأصبح القناصل الفرنسيون موظفين ملكيين ، يعينهم الملك بعد أخذ رأي غرفة التجارة بمرسيليا حيث حُرم على القناصل الاشتغال بالتجارة ، كما حرم عليهم جباية أي رسوم من التجارة وقررت لهم مرتبات ثابتة وكان إلى جانب القنصل ترجمان ، وهو يده اليمنى في الاتصال بالسلطات المحلية الحاكمة ، فهو ليس مجرد مترجم وإنما هو شخصية ينظر إليها بعين التقدير والاحترام ، ولا يستغنى عن خدماته لا من جانب القنصل ولا من جانب السلطات المحلية ، وهم في الغالب من أبناء الأسر المسيحية التي اتصل افرادها بالأجانب وتعلموا اللغات الأوروبية ووقفوا على أساليب السلوك الأوروبي وحذقوا فنون الاتصالات والمداخلات في بلاد الشرق .

وإذا كانت العلاقات التجارية بين الشرق العربي وأوروبا في تلك الحقبة المعروفة بحكم القناصل والمترجمين قد حددتها حدود معينة ولم تتجه نحو أهداف التنمية الاقتصادية . كذلك جرت العلاقات السياسية التي قامت بين حكومات الشرق العربي وبعض الدول الأوروبية في تلك الفترة ، فهذه الولايات العربية واقعة تحت السيادة

العثمانية ، فلا تستطيع أن تمارس أية علاقة سياسية خاصة مع دول أجنبية إلا عن طريق الدولة صاحبة السيادة ، وهي محرومة من أي تمثيل سياسي في العواصم الأوروبية ، فأي علاقة ذات صفة سياسية تقوم مباشرة بين احدى هذه الولايات ودولة أخرى أجنبية لا بد أن تجري من وراء ظهر الدولة العثمانية ، ولا يمكن أن تنظر إليها الدولة العثمانية بعين الارتياح ، بل كثيراً ما تكون موجهة ضد الدولة نفسها(٧٧).

والحق أنه بقدر ما كانت الدولة العثمانية حريصة على تحديد العلاقات التجارية أو السياسية بين ولاياتها وأوروبا خوفاً من تغلغل النفوذ الأوروبي ، كان أصحاب العصبيات الثائرة في هذه الولايات من باشوات وبكوات وزعماء حريصين على وصل هذه العلاقات وتنميتها ، لأنهم يرون أن قيام هذه العلاقات يسبغ عليهم صفة خاصة وتضمن الاعتراف بهذا الكيان الذي يعملون على اصطناعه لأنفسهم ولحكمهم كما أنه يمكنهم من دعم كيانهم بما تقدمه لهم الدولة الأوروبية ذات العلاقة بهم من سلاح وعتاد وخبرة فنية ، هذا إلى جانب رواج التجارة وتنشيط الاقتصاد المحلي ، والخروج ببلادهم من نطاق العزلة التي فُرضت عليهم وما يتبع قيام العلاقات الخارجية من ايجاد مصالح متنوعة للأوروبيين في بلادهم تجعل دولهم أكثر اهتماماً بالولايات الشرقية وبمصيرها ، وكل هذا يستخدمه حاكم الولاية أو صاحب العصبية فيها لتقوية مركزه ازاء السلطة العثمانية .

والدول الأوروبية التي تتصل مصالحها بالدولة العثمانية فريقان · الأول يتكون من دول ترى المحافظة على تماسك الدولة بقدر الامكان ، وعلى رأس هذه الدول فرنسا وانجلترا ، وقد قبلت هذه الدول بصفة عامة الوضع الذي اصطنعته الدولة العثمانية لولاياتها ولم تحاول أن تنقضه ، بل رأت في بقاء الدولة على تماسكها ضماناً للسلام في الشرق .

والفريق الثاني دول تود أن ترث المُلك العثماني أو أجزاءً منه تحقيقاً لأهداف حربية أو اقتصادية أو معنوية فكان يهمها أن تثير الاضطراب في الولايات العربية ، ومن وسائلها لتحقيق ذلك أن تؤجج العصبيات الثائرة على الدولة ، وتمد لها يد المساعدة في حدود امكانياتها وظروفها العامة . ومن هذه الدول توسكانا في القرن التاسع عشر وكانت متأثرة بالروح الصليبية التي نشأت أول ما نشأت في ايطاليا

واحتضنتها البابوية ، وهي ترمي قبل كل شيء إلى استرداد البقاع المقدسة من المسلمين .

ومن تلك الدول المعادية للدولة روسيا في القرن الثامن عشر متأثرة بصيبية من نوع آخر ، قوامها التعصب للسلافية واسترداد عاصمة قسطنطين من سلطان العثمانيين .

ومن تلك الدول أيضاً النمسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر واتجاهها أيضاً نحو الاتساع في شبه جزيرة البلقان .

لهذا لم يتح للعلاقات التي قامت بين هذه الدول وبعض بلدان الشرق العربي أن تتطور إلى حركة عامة كبيرة يمتد خطرها بحيث تنقض الوضع الذي استقر عليه الشرق العربي منذ القرن السادس عشر على نحو ما تطورت عليه مثلاً حركة محمد علي في القرن التاسع عشر ، فقد كانت حركات متقطعة مترددة ، غير شرعية (إن صح هذا التعبير هنا) قائمة على مجرد انتهاز الفرصة ، سواء من جانب أصحاب العصبيات المحلية الثائرة أو من جانب الدول الأوروبية التي اتصلت بها ، وكانت ترمي إلى تحقيق أغراض مؤقتة بوقتها ، بل ظل أكثرها محصوراً في نطاق المشروعات : كالمشروعات البابوية والتوسكانية والاسبانية في القرن السابع عشر ، أو اتخذ صفة « اضرب واهرب » كما فعل الروس في القرن الثامن عشر . لهذا لم تتطور إلى خطط انشائية واسعة النطاق ، ولهذا سهل على الدولة القضاء عليها قبل أن تستفحل على نحو ما تطورت إليه علاقة محمد علي بأوروبا ، ولم تمهد ظروف الحياة في الولايات العربية ـ العثمانية حتى القرن التاسع عشر لقيام مصالح أوروبية ثابتة عميقة فيها تنهض الدول الأوروبية سواء الصديق منها أو العدو لحمايتها والدفاع عنها ، وبالتأكيد حيناً أو بالضغط ثم بالتدخل المسلح أحياناً .

والحق أن الدولة العثمانية كانت ساهرة للقضاء على محاولات الاتصال بين العصبيات الثائرة في ولاياتها وبين الدول الأوروبية .

وذلك على نحو ما فعلت في القضاء علي جانبولاد في حلب والمعني في لبنان وظاهر العمر في فلسطين وعلي بك الكبير في مصر والباشوات والمماليك في العراق في القرن التاسع عشر . وهذه الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية لم تشأ ـ أو لم

تتمكن من أن تضع هذه المشروعات موضع التنفيذ ، أو تسير في تنفيذها إلى أبعد مما ذهبت إليه ، حملها على ذلك امران :

الأمر الأول أن هذه الدول ـ وأوروبا بصفة عامة ـ لم تكن لها في الشرق العربي في ذلك الوقت ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر مصالح ثابتة واسعة تخشى عليها وتنهض للدفاع عنها . فالمصالح التجارية الأوروبية في الشرق العربي كانت محدودة جداً .

والأمر الثاني أن الدول الأوروبية الغربية لم يكن لها في ذلك الوقت مطمع حقيقي في امتلاك بلاد الشرق العربي ، فلم يعد في هذه البلاد إذ ذاك ما يجذب إليها الفاتح المستعمر ، الذي انصرف عن الشرق الأدنى منذ تحولت عنه طرق التجارة العالمية إلى التوسع الاستعماري في العالم الجديد في الهند والشرق الأقصى .

ثم أن أوروبا كان لا بد أن تتردد كثيراً قبل أن تفاخر بمنازلة الترك في الشرق العربي حيث قلب الاسلام وروحه . فقد عاشت تركيا حتى القرن الثامن عشر مبعث رعب لأوروبا ، وكذلك بالنسبة لروسيا والنمسا .

هذه العوامل كان من شأنها أن تحول اهتمامات أوروبا السياسية والعسكرية عن بلاد الشرق العربي في خلال القرون الثلاثة الفاصلة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر ، وتحول دون قيام علاقات سياسية بين أوروبا وبلاد الشرق العربي : إلاَّ في أضيق الحدود حين تسعى الدول الأوروبية المعادية للسلطنة لتمد أيديها إلى أصحاب العصبيات الثائرة على الدولة بالمعونة والتأييد حتى تثير على الدولة حرباً داخلية تصرفها عن تكريس كل جهدها للحرب الخارجية .

والحق أن العرب في ظل هذا النوع من العلافات والظروف كانوا هم الخاسرين ، فإن الغرب كان يعمل على تقوية نفسه معتمداً على الوسائل الفنية والتكنولوجيا الحديثة ، منذ بدأ عصر النهضة أو الاحياء وعمت النهضة مختلف المرافق عند الشعوب الأوروبية الغربية في الفكر والأدب والعلم والصناعة وأداة الحرب وتنظيم الحكومة . وكانت طبيعة العلاقات القائمة بين العرب والغرب تحول دون وقوف العرب على حقيقة الأوضاع في العالم الغربي لأنهم كانوا في ذروة الانحطاط الفكري والسياسي والعلمي تحت ظل السيادة العثمانية . بالاضافة إلى ذلك كان المسلمون

حائلاً دون ذلـك ، ويمثلهم في نظر الغـرب إذ ذاك الأتراك العثمـانيون . امـا العروبـة فأصبحت عديمة الأثر في تشكيل السياسة الأوروبية حتى إذا كـان القرن التـاسع عشـر بدأت أقلام بعض رجال السياسة وأهل الأدب تجـري بالحـديث عن العرب والعـروبة وعن امكان توجيه السياسة الأوروبية لبحث مصائل الشرق الأدنى على أساس جديـد ، إلا أنه يمكن القول إن هذا التوجيه للسياسـة الأوروبية لم يكتمـل وينتج إلا في الحـرب العالمية الأولى حينما استخدم الغرب « العروبة » كوسيلة لهـدم الامبراطـورية العثمـانية وترتيب الشرق الأدنى على أساس « قومي » جديد في كنف النفوذ الغربي .

لقد بدأ الاستعمار الغربي بالتعامل مع العرب عندما بدآ الاطـلاع على ثقـافتهم ودراسة اللغة العربية . كانت الأغراض في بدئها أو في ظاهرها ـ ثقافية خالصة للأخـذ بأسباب حضارة جديـدة ، ثم دينية الغـرض منها التبشـير بالـدين المسيحي والرد عـلى مبـادىء الدين الاسـلامي ، ثم اتجهت إلى أهداف سيـاسية واقتصـادية الغـرض منها استغلال ثروة الشرق واستعمار مناطقه وتسهيل المواصلات وربط أجزائه بأوروبـا ربطاً محكـماً يؤمن تحقيـق المقـاصـد . ومن هنـا اتخـذ الاستشـراق وجهـة أخـرى وأصبـح المستشرقون رسلاً لحكامهم فارتبط كثير منهم ارتباطاً وثيقاً برؤساء البعثات السيـاسية . وتألفت الجمعيات التي تبحث في هذه المسائل وتعنى بها وصار الاستشراق موضوعاً مهماً قـائماً بنفسـه يـراد بـه درس اللغـات الشـرقيـة وادابهـا والتعـرف عـلى أحـوال الشـرق الاجتماعية والاقتصـادية بعـد أن كان خـاصاً بـرجال الـدين يراد بـه التبشير فـأسست المكتبات وأنشئت المدارس .

وقد بدأ الفرنسيون ذلك بتأسيس الجمعية الاسيوية في باريس عـام ١٨٢٠ تحت رعاية الدوق دورليان وبرئاسة سلفستر دي ساسي ، وجعلت لها مجلة اسمها «الجريـدة الاسوية » وقد نشرت فصولا قيمة في تـاريخ العـرب ، وبحثت في الشريعـة والمذاهب والنحل وعرفت الغرب بجغرافية العالم العربي .

وتبعهم الانجليز فأنشأوا جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية . ثم تتابعت الـدول تحذو حذوهما فأنشأ الالمان جمعيتهم عـام ١٨٤٤ ومثلهم فعلت اميركـا وروسيا وايـطاليا وبلجيكا وهولاندا والدانمارك . . . الخ ويعـد المستشرق دي سـاسي وتلميذه كـاترمـير طليعة هذه اليقظة ، ولكل منهما تلاميذ تخرجوا على ايديهما .

لقد الف دي ساسي كتابا في النحو العربي واخـر في القراءة العـربية ، جمـع فيه

منتجات من اثار العرب في الشعر والنثر . وله كتاب في تاريخ الجاهلية ، وترجم البردة للبوصيري إلى الفرنسية ، ونشر كتاب كليلة ودمنة ، ومقامات الحريري ، والفية ابن مالك . وعندما توفي سنة ١٨٣٨ حل مكانه تلميذه كاترمير فنشر مقدمة ابن خلدون ومنتخبات امثال الميداني والف في اثار البابليين والسومريين . . . الخ

واظهر الالمان براعة فائقة في بحوثهم ودراساتهم عن الشرق الاسلامي عرفت بالدقة والعمق ، وفي طليعتهم فرايتاغ المتوفى عام ١٨٦١ الذي وضع كتابا عن الجاهلية والاسلام ومعجما في اللغة العربية واللاتينية في اربع مجلدات . . .

هذه الامثال والنماذج وغيرها الكثير الكثير مهدت لمجيء الارساليات التبشيرية إلى بلاد العرب وهي الارساليات التي ذكرنا أن ابراهيم باشا قد ساعدها عندما جاء إلى بلاد الشادم على غرار ما فعله الوالد محمد علي في مصر ، وكان ابراهيم يرمي من وراء ذلك أن يرضع الناشئة العلم والوطنية في آن معا .

وتعتبر مدرسة عينطورة في لبنان اقدم مدارس الارساليات ، فقد انشئت عام ١٧٢٨ واغلقت ثم اعيد فتحها عام ١٨٣٤ . والكلية السورية التي انشئت في بيروت عام ١٨٦٦ وهي بروتستانتية .

ولقد تولد عن هذه الحركة التبشيرية نهضة ادبية وايقاظ سياسي بين عرب بلاد الشام خاصة ضد الدولة العثمانية وصار فريق من هؤلاء يرى أنه لا بد من اصلاح شامل في جميع انحاء الدولة العثمانية تنال منه البلاد العربية استقلالها والانفصال عن الامبراطورية وتكوين دول عربية مستقلة . وفريق اخر من الذين تعلقوا بفرنسا يرون الانفصال والالتجاء إلى حماية دولة اوروبية اجنبية . وكانت فرنسا في طليعة من يدعى لها من الدول في لبنان وفي مصر منذ أن نزلها نابليون عام ١٧٩٨ .

والنموذج ـ أو المفصل الذي امامنا وهو لبنان ـ يعبر عن هذه القفزة فقد كان المسيحيون الموارنة في لبنان مرتبطون بالكرسي الرسولي في روما ، وكان التعليم منتشرا بين صفوفهم بفضل التنافس الشديد بين الكنائس المسيحية التي تركتها البعثات والارساليات والمبشرون. وهذا الامر سهل على بلاد بر الشام ومنها لبنان العيش في ظل نظام سياسي خاص منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى تاريخ الحملة المصرية التي فرضت على حكام لبنان الامراء الشهابيين الذين اعتنقوا بغالبيتهم الدين

المسيحي ، ولكن الانجليز الذين كانوا يقفون بالمرصاد للفرنسيين بالشرق قاموا بـانشاء علاقات ودية مع طائفة دروز المشرق لتحقيق جملة اهداف اولها طرد محمد علي باشا من المنطقة ، ومضايقة الفرنسيين واحراج الاتراك ، وقد نجحت هذه الخطة ـ كما ذكرنا ـ وانتهت إلى تقسيم جبل لبنان إلى قائمقاميتين الاولى مسيحية في الشمال والثانية درزية في الجنوب ، وقد ادى هذا الاجراء إلى زيادة حدة الانقسام والتناحر بين الفئتين الرئيسيتين في البلاد(٧٨) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب الاهلية اللبنانية مستمرة بين المسيحيين والدروز وصل الامير عبد القادر الجزائري إلى منفاه في الشام لينقذ احد عشر الف مسيحي من الموت خلال الحرب .

ويعيد المؤرخون بواعث هذا التصرف النبيل إلى خصال الامير الفروسية واقراره بالجميل للامبراطور نابليون الثالث الذي اعاد إليه الحرية وغمره بالعطايا والنعم . ولا شك ابداً بحقيقة هذه المواقف النبيلة التي حركت الامير لكن هذا التبرير يبدو متسرعا نظرا لطبيعة العلاقات التي كانت قائمة في ذلك الزمن بين الامير والحكومة الفرنسية . لقد استخدم الامير عبد القادر ، لاعادة النظام إلى مدينة الشام اثناء مذابح المسيحيين فيها من الف إلى الف ومئتي مقاتل من اين جاء بهذه الفرقة ومن سلحها ؟

عندما نبحث في المنشأ الاصلي لهؤلاء المقاتلين يتبين لنا بأنهم لم يكونوا من الابطال السابقين في الحروب الجزائرية ولا حتى من احفادهم . فلم يكونوا اذن عربا من مقاطعة وهران حيث اسس الامير في الزمان الغابر سلطنته الواهية ، بل كانوا بغالبيتهم من ضواحي مدينة الجزائر واومال ، وقد كان البعض منهم من منطقة القبائل التي عجز الاميرعن اخضاعها لنفوذه . وهكذا يكون جميع المقاتلين تقريبا من البربر وقد منعتهم تنظيماتهم القروية سابقا من التكيف مع اتجاهات الامير الرامية إلى تحقيق المركزية . لقد أتى هؤلاء المقاتلون إلى سوريا بين سنة ١٨٥٢ و١٨٥٥ ، بحجة الذهاب إلى الحج المقدس في مكة المكرمة ، وقد استقبلهم لدى وصولهم إلى سوريا ابن سالم وكان هذا المعاون السابق لعبد القادر وقد استأجر مزارع في ولاية الشام وهو في صدد البحث عن يد عاملة لتحقيق مشاريعه الاستيطانية فيها(٧٩) . وبذلت السلطات الفرنسية في الجزائر جهدها للحد من هذه الهجرة ، فاتخذت في سنة ١٨٥٥ قرارا يقضي بسحب الجنسية الفرنسية من كل جزائري يتغيب عن البلاد اكثر من ثلاث

سنوات متتالية[٨٠] وذلك لحمل المهاجرين على التفكير بمصيرهم .

وعرفت الجزائر في سنة ١٨٦٠ موجة هجرة جديدة ، احدثها وصول مبعوثين من الشرق . وعزت السلطات اسباب هذه الهجرة في باىء الامر إلى بؤس السكان الذي ازداد سوءا منذ أن باشرت السلطات الفرنسية بمصادرة اكبر عدد ممكن من الاراضي الاميرية لتسليمها إلى المستوطنين الاوروبيين[٨١]. لكن السلطات لاحظت فيما بعد بأن هؤلاء المهاجرين لا ينتمون إلى طبقة السكان البائسة [٨٢] وكان المهاجرون من منطقة القبائل ابرز اعضاء الجماعة (المجالس البلدية التقليدية) وقد غادروا البلاد للاحتجاج على اتجاهات الحكومة الفرنسية الديمقراطية . ونقرأ في احدى قصائد شاعر شعبي ما يلي :

(ستجري انتخابات ، وقد قبل القائد بأن يدلي الفلاحون الفقراء باصواتهم بدل أن يقتصر هذا العمل على الفئات الميسورة وبعض الذين اكتسبوا شهرة بفضل شجاعتهم في الحروب أو بفضل حكمتهم في اسداء المشورة) ويضيف هذا المدافع عن النظام القروي الابدي قائلا :

السعداء هم الذاهبون إلى سوريا .

لقد هاجر الرجل العاقل . . . . .[٧٥]

وقد انتشر بعض المبشرين في الريف لحمل المزارعين الميسورين على بيع ممتلكاتهم للذهاب إلى الشام والاستيطان قرب عبد القادر الذي يقيم فيها . وكان اصحاب هذه الدعوة إلى الهجرة من اعضاء جمعية الرحمانية التي كان جميع اعضائها في ذلك الحين من البربر . وكانت هذه الجمعية التي اسسها مولاي عبد الرحمن . لا تكن أي عطف للقادرية ، الجمعية العربية الكبيرة التي يتزعمها عبد القادر ، عندما استولى الفرنسيون على الجزائر . لكن الايام تغيرت واصبح الامير عبد القادر الذي يبحث عن الفلاحين يستضيف في قصره زعيم الرحمانية بوكوبارين [٨٤] الذي ارسل موفدين نشيطين إلى مقاطعة الجزائر .

إذن انشأ الامير حاشيه له في ضواحي الشام ، يشرف على ادارتها بنفسه وذلك بحجة استصلاح الاراضي التي وهبه اياها السلطان (العثماني) . وقد اوجد لذاته

كيانا مستقلا عن الوالي التركي في الشام الـذي كان يتجنب بحـذر محاولـة التدخـل في شؤ ون الامير .

وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤ ال التالي : هل عرقلت الحكومة الفرنسية هـذه الهجرة من الجزائر إلى الشام ؟

كان الحاكم العام في الجزائر يرتاب من هذه الهجـرة ويتخوف من تصـاعد نفـوذ الامير عبد القادر لدى فئـة من السكان لم تخلص لـه في الماضي . وكـان يشك بـالامير ويتهمـه باعـداد خطة للعـودة إلى الجـزائـر ، ويتسـائـل الحـاكم العـام : ألا يستجيب المسلمون الجزائريون المتحمسون لاسطورة الامـير والمحتفظون دومـا بتعصبهم الديني ، لدعوى إلى الثورة يطلقها الامير ، لكننا نذهل عندما نرى بـأن وزير الحـربية الفـرنسية يأذن باختيار المتطوعين لحاشية الامير الجديدة . ما معنى هذا التغير المفاجىء الذي طرأ على سياسة الحكومة الفرنسية ؟ وتجرأ الحاكم العام في الجـزائر عـلى طرح السؤ ال عـلى الحكومة المركزيـة في باريس ، قـال : (هل يفكـر الامبراطـور بأن عبـد القادر مؤهـل ليلعب دورا ما في الشرق ؟ ففي هذه الحالة علينا أن ندع الهجرة تتبع سيرهـا ، أما إذا كان الجواب بالنفي فيعود إلينا اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع حد لها أي فائدة لنا من اعادة بناء الاسلام ؟ (٨٥) لقد حرص وزير الحربية جيدا على عـدم افشاء سـره ، لكن السلطة المحلية في الجزائر عرفت بأن عليها الآن أن لا تفتش كثيرا حتى تفهم بل عليها أن تقوم بتوفير كل التسهيلات للمهاجرين إلى سوريا(٨٦) .

من الواضح اذن بأن حكومة نابليون الثالث ساعدت على انشاء فرقة من رجـال منطقة القبائل قـوامها من الف إلى ألفٍ ومئتي مقاتـل ، لخدمـة عبد القـادر الذي اتقن ادارتها وتنظيمها . لكن يتبادر إلى ذهننا سؤ ال آخر وهو من سلح هؤ لاء المقاتلين ؟

كـان للامـير موارد شخصيـة كبيرة فـالمساعـدة الماليـة ، وقيمتها ثلاثمئـة ألـف فرنك ، التي تدفعها له سنويا فرنسا ضخمة جدا في ذلك العصر وتوفر له بأن يحيا حياة (امـير كبير) ويشتـري الاملاك ويؤ من قـوت مهاجـريه الجـزائريـين . لكن رغم ذلك يمكننا التسليم بأن عملية ابتياع الف بندقية حربية كانت في ذلك الحين تفوق امكانيات الامير المادية ، كما كان يصعب تحقيق هذه الصفقـة بوجـود ممثلي السلطان (العثمـاني) الـذين كانـوا يشككـون بـه . لكن لانـوس ، قنصـل فـرنسـا في الشـام يكشف هـذا الموضوع .

لما علم قنصل فرنسا في الشام بالاضطرابات التي حدثت في لبنان وفكر باتخاذ التدابير الضرورية للحفاظ على النظام في المدينة في حال تخاذل السلطات العثمانية ، يقول القنصل الفرنسي : (لما علمت بالاخطار التي تهدد الاوروبيين والمسيحيين ، جاءني الامير ليضع نفسه بتصرفي ويؤكد لي تقديم كل العون في ساعة الخطر . وينوي في هذه الحالة جمع الجزائريين المخلصين له وقيادتهم لحماية الحي المسيحي يعلم الامير جيدا بأنه لا يستطيع انقاذ جميع المسيحيين بقلة صغيرة من الرجال لكن يعتقد أن باستطاعته انقاذ عدد كبير منهم من الخطر . سألني الامير إذا كان بوسعه الاعتماد علي لتوفير الاموال اللازمة لتسليح الف رجل بغية تحقيق هذا الهدف فترددت بادىء الامر على تشجيعه لاتخاذ هذا الاجراء المتطرف لأني كنت اعتقد وقتها بعدم وجود خطر حقيقي . اما اليوم فاراني مرغما على تغيير رأيي في الامس بان الخطر الحقيقي هو مقبل ايضا وقد طلبت من الامير أن يقوم بصرف جميع الاموال التي يراها ضرورية لتحقيق هدفه ونصحته ايضا الاحتفاظ بالسر والحذر التام[٨٧].

عرفنا ادن بأن فرنسا هي التي وفرت البنادق للامير عشية مذابح الشام [٨٨] يبقى لنا أن نعرف الدور الذي كانت تنوي الحكومة الفرنسية اسناده لعبد القادر بتسوية مسألة الشرق .

عندما استقر الامير في اسيا الصغرى كان يراقبه مترجم من جيش افريقيا ، عرف كيف يكسب ثقته . لكن هذا العميل استدعي في سنة ١٨٥٥ واوكلت مهمة رقابة الامير إلى قنصل فرنسا في الشام . يعني هذا الاجراء بحد ذاته ثقة كبيرة بالامير لأن القنصلية الفرنسية في الشام كانت عاجزة عن القيام بهذه المهمة .

كما أن ارتفاع المساعدة المالية السنوية للامير من مئتي الف فرنك إلى ثلاثماية الف فرنك لم يتبرر بالقيام بخدمات جديدة ، لم يزود الامير ممثلنا في الشام بمعلومات توازي قيمتها هذا الارتفاع الضخم بالمخصصات .

لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن زيادة المساعدة المالية السنوية كانت فرصة لعبد القادر ليمهد سبيل مهمة سياسية ذات افق كبير [٨٩] . لم يكن واردا في الحساب اسناد حكم المنطقة المسيحية إليه لكن الامير كان يمني نفسه بمملكة تضم المنطقة الاسلامية في سوريا وتمتد حدودها حتى الجزيرة العربية . وسنرى فيما بعد كيف اتضحت هذه الخطة

اثناء الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا . لكن قبل أن نعالج هذا الموضوع علينا أن نعطي الدليل الرئيسي لبرهاننا العسكري .

كان احد احلام الامبراطورية الثانية مهددا بالزوال .

لقد سبق أن ذكرنا أن فرديناند دي‌ليببس استغل صداقته مع الخديوي المصري سعيد لينشىء (شركته العالمية لقناة السويس البحرية) ولينتصر على الصعوبات السياسية الاولى التي اثارتها انكلترا في وجهه . فالسلطان العثماني رفض باسم وحدة اراضي سلطنته ، الاعتراف بالامتياز الذي منحه الخديوي التابع لسلطته ، وامر بايقاف جميع الاعمال بالقناة . فاتجه الخديوي عند ذلك نحو القناصل الاوروبيين طلبا منهم التأييد ضد السلطان ، لكنه فوجىء بموقف قنصل فرنسا سابانيه الذي بدأ بمظهر اعنف خصم للشركة . وخوفا من خلعه اضطر الخديوي سعيد إلى اصدار قرار بسحب العمال من منطقة القناة[٩٠] .

لم تكن معارضة سابانيه ، للمشروع الفرنسي وليدة الحماقة , ولما قررت حكومته نقله بقي في القاهرة وتابع فيها دسائسه مما ترك مجالا كبيرا للشك في تصرفه[٩١]. وقد أدت البلبلة التي خلقها موقف سابانيه ، إلى وضع مشروع فرديناند دي ليسبس في خطر كبير .

كان اذن لفرنسا مصلحة في معارضة محاولات توحيد السلطنة العثمانية وخلق متاعب في وجه السلطان ، تتبرع بتذليلها لقاء تخليه عن حق النقض ضد خديوي مصر ، وستلجأ فرنسا عند الحاجة إلى خلق (دولة ـ حمامة) بين مصر وبر الاناضول تحمل تركيا على التخلي عن كل تدخل مباشر في خليج السويس .

ولتحقيق هذا البرنامج لم يتردد نابليون الثالث ربما بوحي من فرديناند دي ليسبس، من اثارة الثورات والفتن في الدول التابعة للسلطان العثماني .

كانت الدعاية قد بلغت اوجها في سنة ١٨٦٠ ، فتأسست في باريس جريدة عربية باسم بركس باريس[٩٢] وقد كانت تستقي مواردها المالية على الارجح من الاعتمادات السرية ، وترسل إلى سوريا بكميات ضخمة ، ولم تترك الجريدة أي فرصة تمر دون أن تقوم بفضح الفوضى السائدة في السلطنة العثمانية كما أنها كانت تحث السلطان على تغير سياسته ، ووضع حد للانقسامات الدينية ، وقبول المشورة الحسنة

التي تسديها لـه فرنسا . وفي حال تمنع السلطان عن الاخذ بهـذه الاقتراحـات كانت الجريدة تتنبأ له بخراب سلطنته وتجزئتها .

تسلم الامير عبد القادر الجريدة وارسل إلى محررها رشيد الدحداح ، رسالة تهنئة يقـول فيها : (عجيب من كـل ما كتبت في جـريدتـك عن الدول الاسـلامية ، لقـد اعطيت مَشورات حسنة كانت ستلاقي اجابة لو كنت تخاطب احياء) . ويـذكر الامـير بأن النبي محمدا ﷺ تنبأ عن انتصار المسيحيين الذي يتمتعون باربع خصال كبيرة (التسامح عند الانتصار ، والمقـاومة بعـد الانتصار ، والصمـود والقوة اثنـاء الهجوم ، والاحسان إلى الفقراء والضعفاء واليتامى) . ويتابع الامير رسالتـه : (وسأضيف بـأن المسيحيـين يملكـون إلى جـانب هـذه الخصـال العـظيمـة مـوهبـة اعـظم وهي معـرفـة التخلص ، عنـد الحاجـة من ظلم واضطهـاد ملوكهم) (٩٣) . هذا المقـطع الاخير من رسالة امير المؤمنين يشبه إلى حد بعيد تعابير الثوار .

لم يبق على الحكومة الفرنسية سوى اقناع الفرنسيين ، لذلـك ظهرت في بـاريس نشـرة بعنوان (عبـد القادر) امبـراطور البـلاد العربيـة وكانت مـوجهة ضـد السلطنـة العثمانية التي يشكل مفهومها عن سلامة اراضيها ووحدتها مضمونا خـاطئا . وطـالبت النشرة ايضا بخلق (توازن شرقي) يتناغم مع التوازن الاوروبي .

فينبغي أولا تحـرير البـلاد العربيـة ، تقول النشـرة : (يشكل الـدروز والموارنـة والشيعة والنصيريين . . . . الذين يعيشون في سوريا مع اليـونان والكلدانيـين جزءا لا يتجزأ من العائلة العربية الكبرى التي تؤلف شعبا كاملا وواحدا في جميع اجزاء الجزيرة العربية التي تمتـد من البحر المتـوسط إلى المحيط الهندي ومن البحـر الاحمر إلى الخليـج الفرنسي والتي يتراوح عدد السكان فيها من ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة) .

وستنتج النشرة بأنه من الممكن انشاء امبراطورية . وتتابع قـائلة : (لكن يجب ايجاد انسان لقيادة هذه الامبراطورية) ، لماذا لا يكون هذا الانسان الامير هو عبد القادر الذي سيجد لـدى العرب ، حيث داع صيتـه ، كل العنـاصر الكفيلة بـارضاء طمـوحه وشجاعته وتسامحه ، كما أنه علمْ أوروبا ، من خلال مـواقفه الأخيـرة كما تقـول النشرة اعطاء الجزر إلى اليونان ومالطا إلى تونس وطرابلس الغرب إلى فرنسا وجبل طـارق إلى اسبانيا ومصر إلى مصر . وتطالب بشكل خاصْ بالاسراع بشق قناة السـويس والسماح بحريه المرور فيها إلى جميع الأمم(٩٤) .

فهل نستطيع التسليم بأن نابليون الثالث لم يكن له أي دور في هذه المشاريع ؟

لقد وجدت رسالة خطها وزير الحربية بيده مرسلة إلى الجنرال بوفور دو تبول في ٢٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٦٠ . واليكم المقطع الاكثر تعبيرا واثارة فيها يقول وزير الحربية : (هل تظن أن باستطاعة عبد القادر استلام الحكم في سوريا ؟ هل تظن بأن الدول التي لها ممثلين في بيروت تتجه نحو تعيينه ؟ لا افتش الان ما سيجر لنا هذا الاختيار المفترض بالنسبة لممتلكاتنا في افريقيا ، لا اتوقف الان في الحاضر وبكل ما يتعلق بايجاد سلام دائم في سوريا ، بالنسبة لهذا الاتجاه في التفكير يبدو لي بأن عبد القادر هو الرجل المختار بفضل شهرته التي اكتسبها في إلجزائر وشجاعته في الاحداث الاخيرة) [٩٥] وفي الشطر التالي يعترف الوزير بأنه من الافضل اسناد ادارة لبنان إلى شخص مسيحي لكن (. . . إذا استطاع عبد القادر ضبط القبائل العربية المتروكة على فطرتها ، ستجد فيه الحكومة الفرنسية عميلا قويا) . [٩٦] هذا الرأي هو رأي الجنرال ايضا . (. . . . لاكمال تنظيم سوريا ، ارى من الواجب اقامة دولة اسلامية تحل مكان السلطنة العثمانية في كل ولاية الشام الحالية ، ويبدو لي بأن على عبد القادر ، الذي اعطى براهين واضحة جدا عن تفانيه في سبيل الانسانية ، أن يدشن هذا الاتفاق باسم امير الحج)[٩٧].

اهتم نابليون الثالث شخصيا بالقضية [٩٨] وايد الرأي العام الفرنسي هذا المشروع[٩٩].

وبذل الجنرال بوفور جهده للاجتماع بالامير عبد القادر دون اثارة انتباه المبعوث التركي[١٠٠] لكن فؤاد باشا قد كان بارعا كفاية لمنع هذه المقابلة . .

وبالحقيقة كان القائد العربي يشعر جيدا بصعوبة وضعه لأن انكلترا ستعارض بكل تأكيد المشروع . كان الرأي العام الانجليزي يتقبل اثناء الاضطرابات اسناد مهمة اعادة السلام بين الموارنة والدروز إلى الامير عبد القادر لكن بعد أن جاهر الامير بعواطفه تجاه فرنسا تغيرت لهجة الجرائد الانجليزية[١٠١].

وضاعفت الحكومة البريطانية جهودها لنفي الامير إلى منطقة اخرى من سلطنة عبدالحميد[١٠٢]

ومن ناحية اخرى كان عبد القادر الذي دشن عهده كمرشح لتاج بلاد العرب

باستعمال حرسه الخاص لحماية المسيحيين . يشكل بقدرته على التغلب معا على عداء الاتراك وكرم مسلمي المدن له[١٠٣]. وعندما علم الامير بأن الاحتلال الفرنسي لسوريا كان مؤقتا ابدى لا مبالاة تامة بالموضوع . إلا أن الجنرال بوفور كان ملزما باتخاذ موقف ، فكتب إلى وزير الحربية يقول : مهما يكن يبدو لي مستحسنا أن نطالب معا بالاستقلال وبحكم ذاتي للبنان وبسلطة ما لعبد القادر حتى نحتفظ بحق التراجع عن هذا الاقتراح الاخير في حال امتناع الدول الاخرى عن قبوله[١٠٤] .

وكان عبد القادر لبقا جدا ليجني بعض الثمار من مغامرته إذا لم يحصل على السلطة التي اشتهاها .

قامت الحكومة التركية بفرض تعويضات كبيرة على مسلمي الشام لتأديبهم على اعمال النهب والذبح التي اقترفوها . فاحتج عبد القادر باسم جماعته بقوله : لا يمكن معاملة الجزارين على قدم المساواة مع المدافعين عن الضحايا وبفضل تدخل فرنسا اعفيت حاشية الامير من دفع التعويضات فاستفاد عبد القادر من هذا الوضع ليوزع بطاقات اعفاء على كل الذين ادوا له بعض الخدمات أو ابدوا استعدادا لخدمته في المستقبل من مغربيين من تونس أو مراكش أو عرب حواره من ليبيا . .[١٠٥] كان على عبد القادر ان يسرع في زيادة حاشيته لان الاتراك بدأوا فور انسحاب الجنود الفرنسيين بمضايقة شديدة ضد الافريقيين الشماليين مما اضطر الحكومة الفرنسية إلى ترحيل غالبيتهم نحو مواطنهم الاصلية[١٠٦] .

وتحولت اول بادرة نابليونية لاقامة امبراطورية عربية إلى عملة تبادلتها الحكومة الفرنسية مع السلطان العثماني مقابل تسوية الخلافات مع شركة قناة السويس . وكانت السلطات الفرنسية اثناء ذلك قد غمزت من قناتها بأنها تحبذ وضع سوريا تحت الادارة المصرية[١٠٧] فداعب هذا الامر الخديوي سعيد الساذج والمغامر .

ولما وصلت اخبار مذابح الشام إلى مصر وحاول مسلمو الاسكندرية والقاهرة اتباع مثل الدروز قام الخديوي بتطويق هذه المحاولات وامر باعدام المتطرفين حتى يظهر بمظهر بطل النظام والتسامح[١٠٨]

لكن تركيا كانت تشعر بدعم انجلترا القوي لها حتى تحد من مطامحه وقد قامت في شهر تموز (يوليو) بتعيين مبعوث تركي لمراقبة اعمال الادارة المصرية لا سيما

استعمال الموارد العامة . كما ارسل الباب العالي في كانون الأول (ديسمبر)سنة ١٨٦٠ علما وخبرا مبدئيا إلى الخديوي المصري يسأله فيه عن صحة الانباء التي تقول بوجود الالوف من العمال العاملين في القناة(١٠٩). لكن تركيا التي كانت تعاني من ضائقة مالية كبيرة كانت تريد حلا سريعا في القضية السورية وكانت انجلترا مع مساندتها لمطالب تركيا ، تشير عليها باستعمال الحكمة .

بقي الامير عبد القادر في منطقة الشام مخفيا مشاريعه وقد رفضت فرنسا السماح بتجريد حاشيته من السلاح وكانت مسرورة من خلق هذا الوضع الذي يشكل تهديدا دائما للسلطات التركية .

ولا يمكن معرفة مدى البرنامج الذي ارتبط به نابليون الثالث شخصيا من خلال المراسلات الرديئة للسيد لافاليت سفير فرنسا في اسطنبول ، بل هناك برقية مستعجلة ، مرسلة إلى الجنرال ديكرو في ٣٠ نيسان (ابريل) ١٨٦١ ، تبدو اشد تعبيرا ، تقول : « انشاء امبراطورية عربية من مختلف الدول والامارات المستقلة والمستعمرة في الجزيرة العربية ووضعها تحت قيادة عبد القادر الذي يضبط عند الحاجة القادة بواسطة الضمانات المدنية والسياسية للشعوب ، بالنسبة للعرب والأخرين ، تبني قانون مستوحى من قانون نابليون والنظام العشري الفرنسي ، فصل الدين عن الدولة ، عاصمة الامبراطورية السياسية بغداد والعاصمة الدينية مكة . فتح قناة السويس حالا مع حرية المرور لجميع الامم شرط أن تستوحى القوانين من المعاهدات وحرية الملاحة في البحر الاسود(١١٠) » . [يشكل هذا النص تقريبا نسخة طبق الاصل عن النشرة التي ذكرناها سابقا تحت عنوان : عبد القادر امبراطور العرب] لم يلاحق الدبلوماسيون مثل هذه التفاهات لكنهم عرفوا استخدام هذا التهويل لينالوا من السلطان وعدا نهائيا بعدم عرقلة اعمال شركة قناة السويس .

وقبل الباب العالي فعليا في شباط (فبراير) ١٨٦١ السماح بالقيام بالاعمال التمهيدية لشق القناة(١١١) وذلك دون التضحية بمبادئهم . لقد كان عبد القادر حجرا ناجحا في لعبة فرديناند ديليسبس (١١٢) لا تكفي سياسة فرنسا لانشاء امبراطورية عربية لشرح التدخل العسكري الفرنسي في المنطقة المسيحية من سوريا اعرف جيدا بأن الاستياء الذي عم فرنسا من جراء المذابح وغيرة نابليون الثالث الانسانية قد اعتبر حتى الان سببا كافيا لشرح التدخل العسكري الفرنسي . فإذا اردنا اعتماد الوثائق

الدبلوماسية وحدها فمن المستحيل تجاوز هذا الحد من المعلومات .

يكفي القاء نظرة سريعة على الصحف الكاثوليكية في ذلك العصر حتى نرى بأن الاحداث السورية لم تثر اهتمامه ، بل كانت مهتمة بالوضع في ايطاليا وبالخطر المحدق بالدولة البابوية التي تهددها الحركة الوحدوية التي يقودها حزب بيامون . وكانت جريدة (لامي دولاريليجيون) في اوائل تموز (يوليو) تندد بايطاليا وبالحكومات التي ترفض حماية الاب الاقدس ، ولكن في عرضها للمذابح في سوريا كانت الجريدة المذكورة أعلاه، تتبع السياسة التي دشنها نفارين[١١٣] لكن ما يقلق بال الصحيفة في الواقع هو امكانية تدخل روسي يقلب الموقف لصالح الارثوذكس لذلك على فرنسا أن تكون يقظة حتى لا تتخطاها الاحداث فتتضرر مصالح الارساليات الكاثوليكية في سوريا . يكفي برهان بسيط لتبيان عدم اكتراث الكاثوليك بالاحداث السورية .

لما كانت الحكومة الفرنسية تقوم باستعدادات عسكرية (تمهيدا للتدخل هنأتها الجريدة المذكورة اعلاه بسخرية) : فهي مغتبطة لتأخذ من هذا التدخل حجة لتأمين تدخل آخر عزيز عليها وهو الدفاع عن الدولة البابوية ، تقول الجريدة : (نعتقد بأن الدواء الذي تصفه الجريدة لو كونستيتوسيونل Le constitutionnel لسوريا هو جد مفيد لايطاليا ، فنحن مثلها لا نريد احتلالا أو تدخلا بل تأييدا لمساعدة الدول الايطالية للقضاء على الفوضى التي ستجر حتما إلى ضياع ايطاليا إذا لم يلجم هذا المد البربري الجديد)[١١٤] وتردد الدفعة ذاتها جريدة الانيون L'union الكاثوليكية : يجب أن نتدخل في الشرق حتى نظهر بأننا صممنا نهائيا أن نقطع الطريق على الثورة والعنف ، وأن نفهم العالم بأن فرنسا عازمة على التدخل في ايطاليا كما تدخلت في سوريا ، تقول الجريدة : (تشكل احداث الشرق حقبة كبيرة ومؤلمة لكن المأساة في ايطاليا حيث ستفك عقدة غورديوس)[١١٥] ورددة جريدة (لاغازيت دي لا فرانس) الحجة ذاتها تقول : (إذا اعتقدنا بأن التدخل في سوريا كان شرعيا من اجل حماية قضية نبيلة جدا فنحن في خط المنطق ذاته لما نطالب بتدخل فرنسا لانصار نفس السياسة في ايطاليا ولتأديب الذين يسجنون الاساقفة الكاثوليك ويشتمون البابا ويطلقون دوما التهديدات ضد النفوذ الفرنسي في ايطاليا[١١٦] .

بعد انزال الفرنسيين في سوريا اخذ الصحافيون الكاثوليك يفتشون عن

المنافع التي يمكن للديانة المسيحية أن تجنيها من التدخل هذا . تمنى الصحافي ج . دي بارتو انشاء دولة كاثوليكية في سوريا[117] ودعا الصحافي غونتوسان بلان كار إلى تجزئة السلطة العثمانية وتحرير مسيحيي الشرق[118] لكن كتاباتهم كانت مترددة لأنهم يشككون بنوايا الحكومة التي اقدمت على هذا العمل بغية صرف انظار العالم الكاثوليكي عن المشاكل الايطالية التي تعتبر اهم بكثير من الاحداث السورية ، وتجنب تهمة التخاذل عن مساندة مصالح العالم المسيحي بقوة . ولما طلبت الحكومة من المطارنة بأن يحثوا المؤمنين على ارسال مساعدات « لاخوتهم » في لبنان ظن الصحافيون بأن الحكومة تنوي هكذا انقاص المساعدات التي يرسلها « المؤمنون » إلى البابا تلك المساعدات التي كانت تمنحها وزارة الاديان .

اما بالنسبة للاكليروس الفرنسي فقد كان موقفه متحفظا جدا عند اعلان المذابح في سوريا ولم يخطىء الصحافي السانسيموني ، جوردان ، بالاشارة اليه في جريدة (لوبستباكل) بقوله : اهتز الاكليروس حالما وصلت اولى اخبار الحركة الايطالية فتضاعفت الرسائل الدعائية ودوت المنابر بالشتم والتحريض . وها قد مضى الآن شهور واوروبا بأسرها تبكي وتستنكر الآلام والويلات التي نزلت بمسيحيي « سوريا » بيد أنه لم يتحرك أحد ليقول لهم كلمة عطف واحدة[119]. فاعترضت عليه جريدة (لامي دي لا ريلجيون). وفتشت في كتابات الاساقفة عن مقطع يبين اهتمام الاكليروس بمصائب الموارنة منذ بداية الاحداث . لكن النص الوحيد الذي وجدته الجريدة وحملته عاليا كان منشورا دعائيا صادرا عن اسقف اوريان بتاريخ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٥٩ ولا يمت بصلة إلى احداث سوريا بل خطبة رنانة تهاجم الاسلام بصورة عامة[120].

ورأت الصحافة الاكليرية خارج فرنسا بأن هذه الاحداث هي مكيدة من دسائس الامبراطور الفرنسي . واعلنت الجريدة الكاثوليكية النمساوية (أوست دتشي بوست) بأنه لم يحدث لمسيحيي سوريا إلا ما استحقوه كما أن الموارنة كانوا معتدين فبدأوا بالاحداث[121].

وهكذا يبدو واضحا بأن المتدينين لم يتأثروا بمذابح الشام ولم يمارسوا أي ضغط على الحكومة لحملها على وضع اسلحتها في خدمة قضية الموارنة . وقد بدا لهم التدخل

مناورة خبيثة لتحويل انظار الكاثوليك الفرنسيين في الوقت الذي يتابع فيه غاريبلدي ثورته وينشىء البابا جيشا خاصا به بعد أن سئم من مساندة فرنسا له ، ليجرب حظه في ١٨ أيلول - (سبتمبر) في معركة كاستيل فيدراردو .

وكان موقف الصحافة المناهضة للاكليروس مناقضا تمام المناقضة للموقف الذي عرضناه . فمنذ لحظة اعلان الاضطرابات في سوريا بدأت جريدة «الاونيون تاسيونال» و«لوبستاكل» بالتهديد والتهويل. فطلب الصحافي جوردان من الحكومة أن ترسل حالا حملة عسكرية إلى الشرق : « يجب أن نذهب إلى هناك (باسم المناقبية العالمية ، تلك المناقبية التي لا تمت بصله إلى الالكيروس او أي جمعية دينية ، والتي غدت القانون العام والعرف العام لجميع الشعوب المتمدنة »(١٢٢) ، وساند الصحافي غيرو بقوة سياسة القوميات : فيجب حسب قوله : « طرد الاتراك من اوروبا وانشاء دولة عربية » ، وقد وجد الصحافي القوي المندفع تحقيق برنامجه السانسيموني بتأكيده بان دكتاتورا منورا مثل عبد القادر سينشىء (خطوط السكك الحديدية والخطوط الهاتفية والقنوات التي ستقرب اوروبا من الهند والصين واوقيانيا(١٢٣) .

واستفادت جريدة (جورنال دي دابا) . التي كانت اكثر اتزانا من الفرصة لتنصب اشراكا إلى الحزب الكاثوليكي المؤيد للبابا . فاقترح الصحافي سان مارك جيراردين امكانية مطالبة البابا بارسال خمسة عشر الف جندي إلى سوريا حتى يبين للعالم بأن هذه الحملة هي حملة صليبية حقيقية . فاجاب الكاثوليك بارتباك على هذا الاقتراح في جريدة (لاغازيت دي لا فرانس) ، بقولهم بأن الوضع الدبلوماسي في الشرق لا يسمح بتحقيق مشروع من هذا النوع لأن السياسة الانجليزية ستنتصر حتما على رغبة فرنسا بانشاء دولة مسيحية لو استطاع البابا أن يجمع بسهولة اضعاف اضعاف هذا الجيش فلن يشترك في حملة عسكرية تؤدي إلى الاعتراف من جديد بسيادة السلطان التركي على مناطق مهد المسيحية(١٢٤) .

وطرحت في هذا الوقت بالذات قضية تدخل عسكري في الصين ، فسادت البلبلة ذاتها صفوف الصحافيين الكاثوليك الذين ذرفوا الدموع لاخبار استشهاد بعض المرسلين في الشرق الأقصى لكنهم تخوفوا من تدخل عسكري يبعثر جهود المؤمنين وبالتالي يعز بمحاربي روما(١٢٥) .

السانسيمونيون هم اذن الذين دعموا بقوة التدخل العسكري لصالح مسيحي الشرق ، لكن ليس كل السانسيمونيين كانوا من هذا الرأي . لقد لام الشيخ ارلس دي فور ، الذي تخلى لأولاده عن متجره الكبير للحرير ، زميله الصحافي غيرو على الحملة التي قادها الاخير لصالح .القوميات ذلك المبدأ اللامعقول حول الحروب فقال : (من المؤسف أن نرى رجلا من هذا الوزن يتخلى عن خطه وايمانه اللذين يفرضان عليه الدعوة إلى الوحدة في كل شيء وكل مكان وللجميع[١٢٦] . لكن الشيخ مرتاح من موقف الامبراطور الذي ادار ظهره إلى روما وكر الديدان والعقارب)[١٢٧] ويرى ارلس أنه من الممكن حل الصعوبات التي تعترض صناعة النسيج بانشاء التبادل الحر . لكنه يكفي قراءة صحف (مينة لون) لندرك بان الصناعيين وتجار الحرير لا يشاطرونه آماله ويتبنون حلولا اقل سلمية .

نحن في عصر تعاني فيه صناعة النسيج الفرنسية صعوبات كبيرة للتزود بالمواد الاولية . فارتفعت اسعار القطن الخام وجعلت الحرب الاهلية الاميركية وجوده نادرا . وكانت حكومة الامبراطور مهتمة منذ عدة سنوات بتطوير زراعة القطن في المستعمرات الفرنسية وبايجاد مصادر جديدة له لتزويد الصناعة . يبشر الشرق الاقصى من هذه الناحية بآمال جديدة ، وكانت الحملة العسكرية الفرنسية على الصين وتمركز فرنسا في الهند الصينية نتيجة حتمية لهذه الحاجات . وتنطبق الملاحظة ذاتها بخصوص الحرير .

عانت صناعة الحرير ازمة حادة في موسم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤ سببها مرض دودة الحرير الذي اتلف الانتاج الفرنسي في وادي الرون ومنطقة لانغروك . فاضطر أرباب العمل إلى خفض الاجور وفتح مصانع خيرية لاعانة جزء من العاطلين عن العمل . وازدادت حدة الأزمة في سنة ١٨٥٦ فتوقفت ٤/٥ من الانوال العاملة في برونو وظهرت نتائج البؤس والنقمة العامة في الانتخابات لأن الضغط الرسمي في سنة ١٨٥٧ لم يمنع من انتخاب المرشح الجمهوري هانون نائبا عن مدينة ليون إذ نجحت الشرطة التابعة للامبراطور في منع التحالفات العمالية وفرض السيطرة على الشارع فلم يخف الصناعيون على أنفسهم خطورة اندلاع الثورة ، وقد كانوا في نفس الوقت يعانون من انخفاض مقلق في مداخيلهم[١٢٨] .

وكانت مصادر تموين الحرير متوفرة في سنة ١٨٦٠ . إلا أن انتاج مصانع الحرير وإن تضاعف خلال عشر سنوات فقد كان عليه أن يتزايد ثلاث مرات اكثر لولا ارتفاع

اسعار المواد الاولية التي تعرقل نمو المصانع . بلغت وقتئذ قيمة تجارة الحرير ٦٠٠ مُليون فرنك منها ٢٠٠ مليون فرنك للاستهلاك الداخلي و ٤٠٠ مليون فرنك للتصدير . تنتج فرنسا سنويا في احسن الحالات بقيمة ٢٠٠ مليون فرنك من الحرير الخام وقد هبطت قيمة هذا الانتاج إلى ١٤٠ مليون فرنك في موسم ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ وقد استورد الباقي من الصين واليابان والبنغال وايران وايطاليا وتركيا وسوريا[١٢٩] .

كانت اسعار الحرير الخام المستورد من الشرق الاقصى مقبولة الا أن جزءا كبيرا منه يتلف وهو في طريقه إلى فرنسا لأن سماسرة لندن يسيطرون على هذه التجارة ويرفضون توفير أي ضمانة لسلامته اثناء نقله فشكا تجارمدينة ليون أمرهم إلى الحكومة قائلين : (ستبقى الحالة هكذا ما دامت فرنسا مرتبطة بالسوق الانجليزي . لذلك يجب الاسراع بانشاء علاقات مباشرة مع الصين بالقوة إن اقتضى الأمر ، ومع سوريا حيث سينمو الانتاج بعد الهدوء والرساميل المحمية بشكل افضل)[١٣٠] يصعب علينا تحديد كمية القطن والحرير التي كانت تصدرها سوريا إلى فرنسا في ذلك العصر . لأن الاحصاءات وقتئذ كانت موضوعة على أساس الدول المصدرة ولا تنطبق واحدة منها على سوريا التي كانت في ذلك الحين مقاطعة من الامبراطورية العثمانية . لكن يلفت انتباهنا عدد بيوت تربية دود الحرير في لبنان التي كان يستغلها بعض الصناعيين في مدينة ليون من الذين كانوا يملكون مصانع لغزل الحرير في حمانا والقريّة الخ . . .

يأتي هؤلاء الصناعيون بعمال موارنة يدربونهم على نفقتهم الخاصة ويربطونهم بمصانعهم بواسطة تعهد طويل المدى من الصعوبة الكبرى التي تعترض الصناعيين في لبنان ، حيث يكره الشعب العمل المتواصل والدائم ، كانت توفير يد عاملة دائمة لم يشعر ارباب العمل باي صعوبة من هذا القبيل اثناء الحكم التركي للبنان . إذا تنكر احد العمال لتعهده كان المشايخ ، الأمراء أو القائمقاميين منهم يؤمنون (بفضل بعض الهدايا طبعا) جنودا للسكن في بيت الهارب من العمل ولدى هؤلاء الجنود وسائل رهيبة للاقناع[١٣١] . ولما اجتاح الدروز البلاد حلت بالصناعيين خسائر فادحة ، لقد احترقت بيوت تربية دود الحرير وعجزت القرى المهدمة والمهجورة عن تأمين العمال واتلف الكثير من اشجار التوت . فمن المحتمل اذن أن يكون الصناعيون اليونانيون قد طلبوا بالحاح من الحكومة بأن تتدخل لتعيد النظام إلى البلاد وتنهض بالخراب وتطور انتاج الحرير فيها . لا تترك مثل هذه المداخلات لدى السلطات العامة أي أثر لكن

يمكن التعرف عليها من خلال قراءة الجرائد ومراسلات غرف التجارة .

كان أول اهتمام للجنرال بوفور دوتبول ، قائد الحملة العسكرية ، اعادة اللبنانيين إلى العمل . فانشئت لجنة للاغاثة برئاسة فؤاد باشا وكلف عدد من الضباط الفرنسيين . (اشتهر منهم الكابتن موخ) . باعادة بناء البيوت المهدمة ، وفتح المصانع ، وإصلاح الانوال وانشاء المصانع وايجاد العمال الضروريين لها . ولما كان الاتراك لا يملكون قرشا لدفع اجور العمال تولت فرنسا مهمة تسليف الأجور لهم . فعاد الأهالي إلى دير القمر عاصمة الجبل ورمموا الخراب فيها . واستقدمت بدور دودة الحرير للموسم المقبل من تركيا . فارتاح الصناعيون الفرنسيون إلى اعادة بناء البلاد لما علموا في أيار (مايو) ١٨٦١ بانسحاب جنود الاحتلال الفرنسيين . لكن المسيحيين تخوفوا من مذابح جديدة بعد الانسحاب . وتركوا المصانع واغلقوا متاجرهم ولجأوا إلى الجبل تاركين وراءهم دود الحرير يموت . كان من المفترض أن يمر وقت طويل حتى تعود الثقة بالوضع إلى الموارنة[١٣٢] . فلماذا لم يذهب الصناعيون الفرنسيون إلى اخر الشوط ويطلبوا من الحكومة اقامة محمية فرنسية في سوريا ؟ سيقول البعض بأن الظروف الدولية هي التي حددت مدة الاحتلال الفرنسي القصير لسوريا : لقد اشترطت انجلترا ، المنادية بسلامة ووحدة اراضي السلطنة العثمانية والمتخوفة من حركة توسع فرنسي في الشرق . أن يكون الاحتلال محدودا في الزمان والمكان وطلبت من الاتراك أن يسرعوا قدر المستطاع باعادة سلطتهم إلى البلاد حتى تقطع طريق التدخل على الجنود الفرنسيين لكي لا يبقى لديهم أية حجة يثيرونها لاطالة احتلالهم . لكن ربما كان هناك سبب آخر لا يكشفه التاريخ الديبلوماسي ! .

لم تكد الجيوش الفرنسية تطأ الأراضي السورية حتى أبدى الصناعيون استياءهم واعتبر العمال عقودهم السابقة لاغية وحاولوا التحرر من المؤسسات الرأسمالية فأسسوا بدورهم مغازل جديدة والمثال على ذلك كان مصنع «باليا» في حمانا يستخدم فتيات وضعهن تحت رعاية المطران جحا . فاستفاد هذا الحبر من الاحداث ليصبح صناعيا بدوره واستوعب مصنعه الجديد جميع عاملات غزل الحرير في المنطقة . على أثر ذلك هددت الشركات الفرنسية المطران ثم عرضت على العمال أجورا أعلى لكنهم لم يستجيبوا . وهكذا اقفرت مصانعهم فالتجأوا إلى قائد الحملة العسكرية وطلبوا منه أن يرسل جنودا إلى منافسيهم حتى يعود اليهم جميع العمال الذين تنكروا لعقودهم لكن

عهد فيلار ولي . ورفض القائد الفرنسي الاستجابة إلى طلبهم . عندئذ أخذ الصناعيون يتحسرون علنا على الحكم التركي ويطالبون بذهاب الفرنسيين وقد أقر بهذا الوضع لولو أحد متعهدي الدفع في الحملة العسكرية في مذكراته فقال : تناسى بعض اعضاء الجالية الأوروبية بأن فرنسا تفاخر منذ ثمانية قرون بحماية مسيحيي الشرق . فصرحوا علنا بأنهم ضد الموارنة ثم شيعوا اخبارا لا تهدف سوى إلى اظهار الدروز ضحايا اعتداء وقع عليهم فارغموا على الدفاع عن أنفسهم . هذا هو الأسلوب الانجليزي . وقد جعلوا أنفسهم من الدعاة المتحيزين له . .)[١٣٣] لتعش انجلترا ، ربما ليعش الانكشاري ـ ! حتما .

اعتقد الجنرالات بأن لهم رأياً يبدونه في الموضوع لأن ما يهمهم في سوريا ليس الحرير بل سوق للخيول التي ذاعت شهرتها منذ القدم ، أولت الاستراتيجية العسكرية في الامبراطورية الثانية الخيالة اهتماما كبيرا فبعد أن انحطت الخيول ذات الاصل البربري في الجزائر واخفقت أماكن التهجين من التوصل إلى النتائج المرجوة توجهت أنظار مصلحة الخيول نحو الشرق لشراء الخيل خاصة من العراق وسوريا . ولقد ارتبطت بعض البعثات في سنة ١٨١٨ و ١٨٤٩ بعلاقات أعمال مع القبائل الشرقية وجاء في سنة ١٨٥١ الكومندان دي فلوت ، مدير مركز التهجين في ارل ، إلى الموصل في العراق ، وبعد أن عانى صعوبات كبيرة عاد منها ومعه قافلة من الخيول ، عبر أرمينيا فعبر الأناضول فاسطنبول ، إلا أن أعضاء القافلة من الناس والخيول وصلوا فرنسا مرهقين . كان من الواجب اذن ايجاد طريق إلى الشرق تكون اكثر قربا وأمنا . ففي هذه البلدان المنتجة للخيول كانت شركة الهند قد اشترت أجود خيولها وازالت المنافسين . ولم تنجح فرقة الخيالة الفرنسية اثناء حرب الكريمة من شراء حاجاتها إلى الخيول من سوريا فاقترح دي فلوت في سنة ١٨٥٥ تكليف قنصلي فرسي في حلب ودمشق بأن ينشآ علاقات مع البدو ويؤمنا حماية القوافل ويشتريا الخيول ويرسلاها بحرا من مرفأ بيروت . فوجد الجنرال ديما والمستشار أوربان (المحرض على سياسة الامبراطورية العربية) هذا الاقتراح معقولا ، وقد كانا يشيعان معا بأن فرنسا اخطأت بسياستها القائمة على كسب ود المسيحيين وحدهم لأن عرب المشرق بوسعهم أن يؤدوا لنا خدمات تفوق ما يقدمه لنا المسيحيون[١٣٤] أما راندون ، حاكم الجزائر العام في ذلك التاريخ فكان ما زال يأمل بايجاد حل لقضية الخيول عن طريق تطوير أماكن تهجينها في المستعمرات الفرنسية في افريقيا ، لكنه لما أصبح وزيرا للحربية سنة ١٨٦٠

كان قد فقد الأمل الذي راوده يوم كان حاكما عاما للجزائر وحمل فرنسا إلى تأمين سوق الخيول السورية لها وكلف الجنرال ديبرو بشراء الجياد الطيبة من سوريا لارسالها إلى الجزائر[١٣٥] .

ومن بين الأسباب التي حملت الحكومة الفرنسية إلى ارسال حملة عسكرية إلى سوريا يبدو لنا اليوم هذا السبب واهيا إذا نظرنا اليه نظرة انسان عايش الحروب العصرية . لكن الذي اطلع على التقارير العسكرية في سنة ١٨٦٠ يعرف جيدا بأن اكلف الحملات العسكرية كانت ممكنة في ذلك التاريخ لتأمين حاجة مستودعات مدراء مصلحة الخيل الفرنسية . ويشهد كفاية على هذا الواقع تاريخ التوسع الفرنسي في تونس[١٣٦] . لما جاء دور البحث باعادة تنظيم وضع لبنان القانوني ، عمل الوزراء والجنرالات كل ما في وسعهم لاجهاض مشاريع الكاثوليك . لقد تأمل هؤلاء جني افضل المكاسب من هذه الحملة العسكرية التي لم يتمنوها والتي ستؤدي حتما إلى اعادة تنظيم وضع ولاية سوريا القانوني . طلب بطريرك اللاتين في القدس ومندوب الكرسي الرسولي في سوريا من قائد المركب الحربي الذي كان يقله أن يرفع علم الأراضي المقدسة عليه فرفض قائد المركب الانصياع إلى أوامره وقد أيده وزير الحربية الفرنسية[١٣٧] لأن فرنسا كانت ترفض اعطاء سمة الحملة الصليبية لعملية تدخلها العسكري في سوريا وذلك حرصا منها على مراعاة شعور المسلمين ويكفيها تنازلا أن قامت بتكليف كاهن نشيط ، الأب لافيجيري ، لحمل المعونات إلى السكان المتضررين . وحرضت الحكومة على أن لا يستغل المال المرسل إلى سوريا في سبيل الدعاية الكاثوليكية . وعند توزيع التعويضات عن الأضرار التي أحدثها الدروز قاوم القنصل الفرنسي بشدة ادعاءات الارساليات الدينية فكتب يقول : (ستحتج المؤسسات الرهبانية ، من دون شك ، على الأرقام التي اقترحتها للتعويض عليها . لا أنكر قط بأن خسارة بعضها قد تفوق التعويضات المقترحة لكن علي أن أقر باني اهتممت بالشعوب اكثر من اهتمامي بالكنوز المكدسة في البطريركيات . وبما أن أماكن العبادة سترمم بطريقة لائقة حتى تعود إلى عهدها السابق قبل الأحداث ، لا أرى مبررا للاساءة إلى عامة الشعب من أجل اعادة كنوز يصعب التأكد من وجودها قبل الأحداث ، وقد كانت في كل الحالات عديمة الجدوى) ؟

وكانت فرنسا تنوي قبل سحب جنودها ايجاد نظام سياسي للبنان يضمن له عدم

تكرار أعمال العنف على أيدي المسلمين المتطرفين ، لكنها كانت في نفس الوقت ترفض التضحية بهم ، ومجرد فكرة اخضاع البلاد إلى عملاء الكرسي الرسولي . وكانت تتخوف ايضا من أن يؤدي الحسد بين الطوائف والمظالم والدسائس الخارجية إلى اندلاع الفوضى والعنف من جديد . لهذا كانت تعتقد بأن أفضل عمل تقوم به كان اتباع رأي الجنرال بوفور دو تبول الذي يعرف البلاد أفضل من غيره لأنه أمضى فيها سابقا سنتين في خدمة محمد علي .

وكانت تقارير الجنرال كلها تؤدي إلى هذا الاستنتاج الواضح جدا ، إذا أردنا أن يعم البلاد سلام دائم علينا أن نعود بها إلى النظام الذي سبق سنة ١٨٤٠ ، كان يحكم البلاد في ذلك ألوقت الأمراء الشهابيون الذين دام عهدهم مئتي سنة ، وبفضل تسامحهم استطاعوا أن يجنبوا البلاد الحروب الطائفية . وكان خطأ زعيمهم ، الأمير بشير الثاني الكبير الذي خدم المصريين تسع سنوات ، ان استسلم لنفوذ الانجليز فكافأوه بارساله إلى المنفى . ولم تنس عائلته هذا العمل بعد . وفي سنة ١٨٦٠ كان الأمير مجيد ، أحد أحفاد الأمير بشير المذكور زعيما للشهابيين ، فهو شاب في مقتبل العمر ، شهم وهادىء ، قوي وذكي ورث عن سلفه محبة فرنسا وخدمتها . يعاود تنظيم البلاد على أساس مقاطعات جديدة متجانسة ، فيها مزيج الطوائف بعضها مع بعض ، ويكون الأمير حكما في ما بينها ، توضع تحت تصرفه قوة عسكرية كافية لتنفيذ أوامره . كان هذا الأمير في بداية حياته مسيحيا ثم أسلم ثم عاد بعد نفي طويل إلى اعتناق المسيحية من جديد ورأى الجنرال بوفور في هذا التقلب ضمانة ثمينة : (بما أن الأمير مجيد مشككا من الناحية الدينية فسيسود عهده التسامح) .

تبنت الحكومة الفرنسية هذه الخطة واعطت الأوامر إلى ممثليها الدبلوماسيين بتأييد ترشيح الأمير مجيد . لكن هذا الحل لم يرض أنصار البابا لأنهم يرشحون يوسف كرم ، من قدماء خريجي المدارس اليسوعية وقد أجاد فرنسوا لونورمان في جريدة (لامي دي لا ريلجيون) ، (في مديح هذا الشاب وبطل الايمان لكاثوليكي الشجاع) وما عتم أن احتدم الصراع بين الجنرال بوفور دو تبول وحزب الآباء اليسوعيين ، فجمع الجنرال التواقيع على عريضة يطالب فيها شعب لبنان من الدول الأوروبية اعادة وحدة البلاد وتنصيب زعيم الشهابيين قائمقاما عليها إلا أن هذه العريضة لم تؤثر قط على اللجنة الأوروبية المجتمعة في اسطنبول لتحديد نظام جديد للبنان . واتهمت

الارساليات الكاثوليكية من جهتها الأمير مجيد بالعجز التام وسيؤدي تعيينه إلى اندلاع الفوضى . وقامت من ناحية أخرى تنشر شائعات في الجبل بأن الشهابيين اصدقاء أوفياء للدروز وهم على استعداد لتعزيز مصالحهم على ظهر مصالح المسيحيين وقد وقعوا اثناء المذابح عقدا وديا مع زعماء الدروز فحافظوا على املاكهم وبقوا جامدين .

النهاية والبداية

نهاية تركيا وظهور الاستعمار الفعلي مع بداية عصر النهضة :

تعتبر جزيرة « بريم » أو « ميون » من أهم المداخل الرئيسية للمشرق العربي من جهة البحر الأحمر ، فهي الوحيدة من بين عشرين جزيرة التي تتحكم بالمرور بين المحيط الهندي والبحر الأحمر ، لذلك اطلق عليها البحارة عشرات الأسماء منها « باب المندب » (من الندب) أو « بوابة الدموع » لكثرة ما كان يقتل فيها من البحارة .

وقد زارها البحار اليوناني المجهول الاسم ، وذكرها في كتابه (الطواف حول البحر الأحمر) باسم (ديودورس) ، واحتلها البريطانيون لأول مرة عام ١٥١١ حين كانت اليمن في ظل حكم بني طاهر (١٤٥٤ - ١٥١٧) وشيدوا فيها بنايات عسكرية ونصبوا في أعلى قممها صليباً ، لكن الانجليز لم يمكثوا فيها طويلاً لعدم وجود الماء العذب [١٣٨] .

تم عبرها بعد ذلك البرتغاليون لتحطيم الأسطول العثماني واحتلال جدة للانتقام من المقدسات الاسلامية في شبه جزيرة العرب رداً على دحر الصليبيين في فلسطين وبلاد بر الشام ، ولكنهم فشلوا في حملتهم كما فشلوا في احتلال عدن عندما زاروها للمرة الثانية ليجدوا أن حاكمها الأمير مرجان بن عبدالله قد حصنها جيداً [١٣٩] .

في هذا الزمن كانت شبه الجزيرة العربية تمزقها الأطماع والحروب الأهلية

والدولة العثمانية جاثمة على عدد من البلدان العربية وتتطلع إلى الاستيلاء على نجد والحجاز والخليج العربي ، وكانت البرتغال ومن بعدها بريطانيا تنظر بنهم نحو ابتلاع عدد من موانىء الجزيرة العربية لتتمكن بعدئذ من التغلغل إلى داخل البلاد . وعندما ضعفت السلطة في اليمن وأصابها التفكك والتدهور وتفشي الرشوة . . . الخ ، تشجعت بريطانيا واحتلت عدن (١٨٣٩) كما اقتطعت أجزاء واسعة من البلاد الداخلية ، مما جعل العثمانيون يحتلون عدداً من موانىء البحر الأحمر اليمنية . ثم عاودت بريطانيا الكرة مرة أخرى واحتلت جزيرة « بريم » عام ١٨٥٧ لتصبح جزءاً من الامبراطورية البريطانية .

في ذلك الوقت أيضاً كان سعود بن عبدالعزيز بدأ في وادي حنيفة بحمل لواء دعوة التوحيد التي أسسها محمد بن عبدالوهاب . وقد استطاع الامام السعودي ان يجهز المقاتلين والدعاة من أجل دعوة التوحيد القائم على عدم الاشراك بالله والتوحيد للمناطق الممزقة . وتمكن فعلاً من السيطرة على مناطق كثيرة في المدن والقرى والصحراء فشمل نفوذ الدعوة نجد والحجاز وعسير وحضرموت والاحساء والبحرين (هذه الأخيرة لم تكن تابعة للامبراطورية العثمانية) ، كما انتصر الأنصار شمالاً حتى حوران في سورية ومشارف بغداد في العراق[١٤٠] .

وفي عام ١٨٠٠ كان الموحدون ينتشرون بمبدئهم إلى المداخل الغربية لعُمان (بالضم) في جنوب الجزيرة العربية ويتمركزون في (البريمي) التي جعلوها قاعدة لأعمالهم العسكرية والدينية في عُمان ، ومن ثم يتغلغلون عبر الجبال نحو مسقط ، ونحو سواحل الخليج العربي مما أثار انتباه بريطانيا التي خشيت على مصالحها التجارية فبدأت تزرع وتنشر الدعايات وتثير النعرات . ويظهر أن الأمير بدر بن يوسف ، الذي كان من أعضاء الأسرة الحاكمة في عمان ، انحاز إلى الموحدين . لكنه قتل عام ١٨٠٦ وبعد مقتله قام صراع بين الغافرية أهل نجد والهناوية أهل عُمان[١٤١].

ولما وجدت بريطانيا أن نفوذ الموحدين كان لا يزال قائماً في الساحل العربي وأن تجارتها ومصالحها في خطر كبير وضعت خطة للهجوم على إمارات الساحل نفذتها عام ١٨١٩ وبذلك أخضعت الأمراء للجباية البريطانية . وبعد عامين تمكنت من احتلال منطقة جعلان العمانية .

ورغم الضربات التي تلقاها الموحدون في نجد والقصيم والخليج العربي وبعض مناطق عمان لم يفتر نشاطهم العسكري والسياسي والديني ، فعندما طلب الامام غران بن قيس مساعدة الانجليز ضد تويني بن سعيد بن سلطان بادروا لنجدته وأحاطوا بمدينة الدستاق التي كان تويني يحاصرها ثم زحفوا نحو الجنوب الشرقي إلى الشرقية حيث دمروا القصيم والدمام عام ١٨٦٦ كما قاموا بعمليات عسكرية ضد بني جنبة في صور(١٤٢) وبذلك احتلت بريطانيا الشريط الساحلي للجنوب الشرقي من الجزيرة العربية الممتد من باب المندب حتى الخليج العربي ، ومن ثم ربطت الساحل اليمني الشمالي في البحر الأحمر بمعاهدات مفروضة تخضع اليمن للاقتصاد البريطاني .

وفي ظل هذا الواقع الجديد الذي نجت فيه السعودية من الاحتلال البريطاني نجد في شمال الجزيرة العربية السعودية أن الامام فيصل بن تركي قد رجع من منفاه في مصر لاعادة توحيد دولة آل سعود التي ينتمي إليها ، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد بعد كفاح مرير ، لكن وفاته حالت دون إتمام عملية التوحيد ، وعندما خلفه ابنه الأصغر عبدالرحمن أعلن نفسه إماماً تجاه معارضة عنيفة وقوية من أمير حائل محمد بن الرشيد المدعوم من تركيا التي حاولت إغراء الأمير الصغير بالاعتراف بها مقابل الاعتراف به ، ولما رفض حورب بشدة فاضطر إلى الهجرة باتجاه قطر ثم البحرين ثم الكويت حيث استقر مع أسرته في الكويت التي كانت تحكملها أسرة الشيخ مبارك الصباح .

ونتيجة لهذه الظروف تمكن محمد بن الرشيد بمساعدة العثمانيين والانجليز من أن يبسط نفوذه على كثير من نواحي نجد ، وقد أورث هذا المجد لابنه عبدالعزيز بن الرشيد الذي أعلن بدوره عزمه على غزو الكويت حيث خصوم أبيه وخصومه من آل سعود وآل الصباح .

وهنا يبرز دور عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود ، فقد اتفق مع الشيخ مبارك على استرجاع مدينة الرياض التي غزاها بستين رجل واستولى عليها وبعد ذلك استدرج بقواته التي تضاعفت ابن الرشيد إلى الصحراء فهزمه وغنم سلاح جيشه ، وبعد مقتل هذا الأخير اغتنم ابن سعود فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب اندلعت نيرانها بينها وبين ايطاليا في ليبيا ليهاجم الجنود العثمانيين الموجودين في الاحساء . ثم توالت انتصاراته التي توجها عام ١٩٢١ بالقضاء على آل

الرشيد وضم شمر إلى ملكه ، لكن خلافاً وقع بينه وبين الحسين بن علي شريف مكة الذي تنازل عن منصبه لابنه علي وهو الذي سيلعب (الحسين بن علي) دوراً بارزاً في الثورة على الحكم العثماني بمساعدة الانجليز(١٤٣) .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي في هذه الفترة قد سيطرت على الامبراطورية العثمانية حيث لم تعد للسلطان عبدالحميد سوى سلطته الروحية ، وسرعان ما تحولت هذه الجمعية إلى دكتاتورية (١٩٠٨ ـ ١٩١٨) فترأس أنور باشا الألمعي الضعيف الرأي حكومة ثلاثية العضوان الآخران فيها هما جمال باشا الذي لقب بالسفاح وطلعت باشا الذي لقب بالمجد ، وكان شعارها الوحدة قائمة على سمو العنصر التركي . ورغم ذلك بقي معظم العرب ينظر إلى الأتراك كأعضاء في امبراطورية اسلامية واحدة ، ولكن تولد من الاحتكاك ما يكفي أن يجعل الامبراطورية العثمانية تواجه صراعاً نهائياً بدأ يفكك أوصالها ، كما بدأت الدول الغربية تستعد للضربة القاضية

وعلى الخارطة العربية أصبحت ليبيا من ملحقات الاستعمار الايطالي بعدما سبقتها بقية دول المغرب العربي واليمن ودول الخليج العربي ، ومصر ، أما بقية الأقطار العربية فكانت أوضاعها السياسية متباينة ، ففي حين سادت قناعة في العراق بوعود الاتحاديين وضرورة مد يد المساعدة لهم في ظل الهلال العثماني ، سرت في بلاد بر الشام الموجة القومية العربية وضرورة الانفصال عن هذا الهلال ، ولن يتحقق ذلك إلا بإعلان الثورة .

وفي هذا الوقت بالذات كانت بريطانيا على قناعة تامة بضرورة تذكية مثل هذه الثورة سواء انطلقت من سوريا أو لبنان أو فلسطين أو مكة . . ومن هذا المنطلق عملت بريطانيا وفرنسا . فهذه الأخيرة كان قد أصبح لها ثقل كبير في سوريا ولبنان وبفضل الارساليات والمعاهد الفرنسية تكون في هذين البلدين في أواخر القرن التاسع عشر جيل من رواد عصر النهضة . وكان هذا الجيل مثل دعاة القومية التركية آنذاك ، كذلك أصبحت القومية العربية ، غير المعروفة في صحراء العرب عقيدة رجال لبنانيين وسوريين . فقد بدأ اللبنانيون بإصدار الصحف وتأسيس دور للنشر في مصر ، ومنهم من ألف المعاجم والموسوعات باللغة العربية ، ومنهم من توجه إلى السينما والمسرح وإلى قرض الشعر وكتابة القصص والروايات . . . وأعجب كثيرون منهم بما فعله اللورد كرومر في مصر فأرادوا توسيع استقلال لبنان الذي نالوه عام ١٨٦٠ ولو عنى ذلك

تحالفاً مع دولة غربية ضد الاتراك ، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون قد سهل عليهم الانفصال عن امبراطورية لها ارتباط وثيق بالاسلام .

وقد انعكست هذه الصورة في ذهن الاتحاديين الأتراك لذلك سارع أحد أركانهم وهو أحمد جمال باشا إلى دخول دمشق عام ١٩١٤ ، فاستقبل استقبالاً رسمياً ، وأخذ يتقرب إلى الرجال العرب وزعمائهم ، وصارت جريدتا « القبس » «والمؤيد» لساناً له . وفي حفل أدبي أقيم لتكريم الشيخ عبدالعزيز جاويش وقف جمال باشا خطيباً أشاد فيه بالعرب بصورة ملفتة للنظر .

كان جمال باشا أحد غلاة الاتحاديين جريئاً قوياً ، وكان مديراً لفرع الجواسيس في جمعية الاتحاد ، بل كان أفتك أعضائها بعد أن حبك المؤامرة ضد الأرمن ، وقد جاء إلى دمشق بلسان ناعم وحيلة ماكرة فخدع الناس بأقواله ونفذ فيهم فعائله .

اطمأن العرب إليه في دمشق وفتحوا له صدورهم ، وقرب إليه عبدالكريم الخليل أحد زعماء لبنان النابهين ، لكنه ما لبث أن قلب لهم ظهر المجن وأخذ ينفذ خططه فكان أول ما فعله تسريح كتيبة من الضباط العرب في دمشق وعددها ٨٠ شاباً .

وأخذت الشائعات تملأ آذان جمال في قيام حركة عربية ، فملأ الأرجاء بجواسيسه الذين أخذوا يأتونه بكل ما يزيده رعباً وخوفاً ، واستغلت فرنسا وبريطانيا هذه الحال فأخذت تنشر المزيد من الاشاعات للتفريق بين الترك والعرب، وفي الوقت نفسه أدرك أحرار العرب ما تواجهه تركيا من المصاعب ، ورأوا وطنهم في خطر وأنه لا شك سيكون غنيمة للمنتصرين في هذه الحرب ، وأن عليهم أن يوضحوا موقفهم ، غير أنهم بقوا ينتظرون الفرصة المواتية ولم يريدوا أن يفرطوا بدولة الخلافة بين عشية وضحاها ويكونوا طعمة لدولة أخرى ، أي أنهم لا يريدون أن يخرجوا من بين فكي ذئب إلى مخالب أسد . وكان غرضهم الأسمى استقلال بلادهم ، وغرض مثل هذا لا يعد خيانة ، أما الأتراك فكانوا ينظرون إلى العرب نظرة أخرى ، كانوا يرون فيهم الخوارج . في الدولة ، وكانت طلباتهم تقابل على أنها غير شرعية أو مشروعة ، إنها انفصالية ، وإنها لا تحقق إلا رغبات أجنبية ، وهي نظرة خاطئة ترد على ذلك أنهم أخذوا يفكرون في تتريك العرب ، فلا غرو إذا جاءت خططهم مشفوعة بالقسوة

والشدة ـ وكانوا يتخذون الدين سبيلاً لتبرير أفعالهم ، فكانوا يستغلون اسم الخلافة ويرون في مطالب العرب خروجاً على الخلافة ، وعلى الدين ، وبهذه الوسيلة وحدها أخذ جمال باشا يبرر مواقفه .

رأى جمال باشا في دمشق قوة هائلة في المادة والمعنى ، فعمد إلى هدمها ليخلو له الجو فكان مما فعله أن أرسل الفرقة الخامسة والعشرين العربية التي كانت الدعامة الأولى لحزب العهد فأرسلها إلى جبهة خياف سنة ١٩١٥ بناء على طلب من رئيسه أنور باشا ، وأخذ يرسل الوحدات العربية الواحدة تلو الأخرى من سوريا إلى الأناضول ويحل محلها الكتائب التركية ووجد نفسه بعد ذلك قوي الشكيمة شديد البأس لا يخشى أحداً ، والتفت إلى تنفيذ خطته الأخرى وهي القضاء على الروح المعنوية في قتل أحرار العرب ، بعد أن فتح أذنيه للجواسيس .

وفي منتصف عام ١٩١٥ فوجىء الناس بالقبض على عبدالكريم الخليل وعدد كبير من أحرار العرب وغيرهم وإعدامهم .

وقد يكون ما وجده من اتهامات ضد هؤلاء الشهداء تعلقهم بفرنسا وسعي أفراد منهم لجعل سوريا تحت سيطرتها حافزاً قوياً على اجراءاته السريعة . فقد وجد وثيقة موقعة من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيي بيروت من قبل يوسف الهاني وجماعته جاء فيها أنهم يريدون احتلال فرنسا لسوريا واستقلال ولاية بيروت استقلالاً تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ، وإرجاع ولاية بيروت بلبنان الذي يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية .

وجد في هذه الوثيقة انشقاقاً في جسم الدولة ووجد أثراً قوياً في قلوب الناس من وعود الفرنسيين ودسائسهم فلم يتمالك نفسه بل خرج عن طوره وعاد إلى اتحاديته وتركيته وخطط جمعيته الرامية إلى تتريك البلاد فبطش بطشته الكبرى آخذاً البريء والمحق بعمل الباطل ، وبعث بأحرار العرب في آب (أغسطس) عام ١٩١٥ إلى المشانق وقد دهش العالم وبهت العرب حين فتحوا أعينهم على جثث رجالهم في سوريا وهي تتأرجح بين أعواد المشانق .

وفي السادس من آذار (مارس) عام ١٩١٦ بعث إلى كراسي المشانق رعيلاً آخر

من الأحرار العرب يؤلفون واحداً وعشرين شخصاً من أبرز شخصيات العرب في لبنان(١٤٤) .

وأصدر جمال باشا بياناً أوضح فيه أسباب الاعدام وهي أن هؤلاء ينتمون إلى حزب « اللامركزية » وأن غاية هذا الحزب سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة .

وعشية هذه الأحداث ، وأحداث الحرب العالمية الأولى في بدايتها وفي احد أطراف الامبراطورية العثمانية إلى آخر طرف جمعت الفرحة بين السكان جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأعراقهم وشعروا أنهم شعب واحد . [حادثان في شهر واحد أشعلا تلك الزوح الأخوية : افتتاح سكة حديد الحجاز التي ربطت دمشق بالمدينة ، وتعيين الشريف حسين أميراً على مكة] . [فالسكة الحديدية كانت نافعة لأنها مكنت العثمانيين من جنود ومدنيين من الوصول إلى المنطقة العربية من صحراء العرب دون المرور من قناة السويس التي يسيطر عليها الانجليز بالاضافة إلى أنها جعلت الحج أكثر أماناً وأقل كلفة] .

أما تعيين أمير جديد على مكة فقد كان من نوع إرجاع الشيء إلى أصله ، فقد أمضى الشريف حسين خمسة عشر سنة ضيفاً سجيناً عند السلطان عبدالحميد . عاش في القسطنطينية عيشة هدوء وورع مشرفاً على تعليم أكبر أبنائه : علي وعبدالله وفيصل ، وانتخب عبدالله لتمثيل مكة في البرلمان العثماني الجديد ثم نائباً لرئيس البرلمان ، وانتخب فيصل لتمثيل جدة .

في عام ١٩٠٨ وبعد تعيين الحسين شريفاً على مكة بدأت الثورة التي عرفت « بالثورة العربية » والتي كان المخطط الأول لها أهم جنرالات بريطانيا في مصر ايريل كتشنر الذي قتل يوم أعلنت هذه الثورة في شمال اسكتلندا . في أوائل عام ١٩١٤ كان كتشنر مقيماً في الوكالة البريطانية في القاهرة ، وفي أوائل عام ١٩١٤ زار الأمير عبدالله بن الحسين مصر ونزل ضيفاً على الخديوي عباس ، وزار كتشنر في الوكالة رداً على زيارة هذا الأخير له في القصر الخديوي . يومها وجه عبدالله سؤالاً مهماً : ما هو موقف بريطانيا من ثورة عربية ؟ .

كان كتشنر يعرف العالم الاسلامي ، وبدأ كضابط صغير بزيارة فلسطين ، وقاد الجيش المصري ليحتل السودان ، وعمل في الهند فرأى أن الانشقاق العربي قد يكون مفيداً لبريطانيا في ظروف خاصة . لذلك أمر بتقديم يخت بريطاني خاص لنقل عبدالله إلى تركيا ، على أن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا الأمير الصبريح القادم من مكة .

لقد ظهرت القومية التركية في أطراف الامبراطورية ، وكذلك فكر البريطانيون بأن القومية العربية يمكن أن تنبت من أطراف العالم العربي ، غير المعروفة في صحراء العرب ، عقيدة رجال من سوريا ولبنان ، ووفق آمال الشريف حسين الطامح أن يستعمل انشقاق العرب عن تركيا لتحقيق أحلامه ، وقد كانت هذه الأحلام مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة في الحجاز إلى تصورات خيالية هي فرض ضريبة على كل المسلمين في العالم بصفته خليفة عربياً .

وهكذا عملت لمصلحة القومية العربية قوى كبيرة ، وقوى أشد عملت ضدها ، وقد تهيأت لكتشنر من هذا المنطلق تجزئة البلاد العربية لا توحيدها كما كان يعلن رسمياً وعلنياً من قبل البريطانيين ، والبريطانيون الذين كانوا يحكمون من المسلمين أكثر مما يحكم السلطان ، والفرنسيون الذين كانوا يسيطرون على المغرب والجزائر وتونس طالما أرعبهم ما قد يحدث إذا ما أحيا سلطان العثمانيين الجهاد المقدس كما أحيا الخلافة ، فلا أحد يستطيع أن يحكم على قوة تأثير هذه الدعوة أو ضعفها في عالم السيارات والمدافع والطائرات . ولم ينتظر البريطانيون طويلاً . [فعلى حدود مصر الغربية لبى زعيم السنوسيين الذي كان قد حصر الايطاليين الغزاة في الساحل دعوة السلطان العثماني بحماسة واستولى على السلوم] . [وفي السودان استجابت دارفور للدعوة بطريقة مماثلة بعدما أعلنت الامبراطورية الجهاد المقدس ضد الملحدين والكفرة] .

إن المشكلة الخلفية التي أوجدها إعلان الجهاد المقدس أزعجت أبناء الحسين . وكان صعباً على الحسين نفسه أن يستقر على رأي لأنه كان يقبض على الأقل من ثلاث جهات (علاوة على المخصصات العثمانية وما يتقاضاه من بريطانيا لقاء الأتعاب . ظل حتى منتصف ١٩١٥ يتلقى مساعدة مالية من ألمانيا) . أما ابنه علي وهو الأكبر فقد

كان ضعيفاً ، ومريضاً بالسّل فلم يفعـل شيئاً سـوى اتباع قـرار الأسرة . وزيـد الابن الأصغر ، كان لا يزال صغيراً ، وبما أن أمه تركية فلم يكن متحمساً للقضية العربية .

[وبقي اثنان من أبناء الحسين لكل منها رأي مستقل . أحدهما عبدالله ، وكان واضح الرؤ يا يعرف ماذا يريد ، فرأى أن ينتهز العرب الفرصة ويضربوا الأتراك من الخلف . والثـاني فيصل ، ثـالث أبناء الشـريف حسين كـان مديناً بكـل مـا يعـرفـه عن العـالم للقسطنطينية التي كان عضواً في برلمـانها ، ومطلعـاً على مـا جرى في العـالم في العقدين السابقين . رأى أن بريطانيا وفرنسا قد احتلتا مساحـات واسعة من العـالم الاسلامي ، وأن من المزعج جداً أنهما لا تزالان تـريدان المـزيد . لـذلك اقتـرح أن يتجرع العـرب مظالمهم وأن يحاربـوا بإخـلاص إلى جانب إخـوانهم الأتراك المسلمـين ، فإن انتصـروا كافأناهم بتلبية مطالبهم المعقولة ، وقد تتحول الامبراطورية إلى مملكـة مزدوجـة تركيـة وعربية ، وإن خسروا قاتل الشعبان معاً عدوهما المشترك] .

وبـالنسبة إلى فيصـل والمترددين الآخـرين (ومن ضمنهم الكثيرون من الضبـاط العرب المتمردين داخـل الجيش التركي) جـاء التحول إلى الثـورة عام ١٩١٥ . ذلـك بأن جمال باشا السفـاح قد أعـدم أحرار العـرب في سوريـا ولبنان مـا بين عـام ١٩١٥ و١٩١٦ ، وأثارت هذه الأحداث المؤلمة العـرب المتمردين وجعلتهم يكفـون عن اعتبار الأتراك إخوانهم في الدين ، وما كـان فكرة أصبـح قضية تستحق أن يقـاتلوا في سبيلها ويموتوا .

ولكن حتى حين ثارت العـواطف من جهة ، وألحت الحـاجة من جهـة أخرى ، واشتدت المساومة بين العرب والبريطانيين التي تتعلق بالمنطقة التي على البـريطانيـين أن يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة ، وبحدود هذه الدولة .

قرر الشريف حسـين أن يستشير المثقفـين العرب في الشمـال ، أعضاء جمعيتـين سريتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية تسعى كلتاهما للانفصـال عن الأتراك ، كـان مبعوثه إلى دمشق ولده الثالث فيصل .

أصر أبناء بـر الشام عـلى استقلال العـرب في كل المنـطقة التي يكـون المتكلمون بالعربية أكثرية سكانها ، وعينـوا حدودهـا كما يـلي : شمالاً خط يمتـد من مرسـين عبر

جبال طوروس وهضبة الأناضول إلى حدود ايـران ، شرقـاً الحد الـذي كان قـائماً بـين الامبراطورية العثمانية والبحر الأبيض المتوسط . ولم يذكـر شيء عن عدن التي كـانت محمية بريطانية ، ولا عن مصر وشمال افريقيا ، ولا عن اليمن التي كـان لها إمـامها ، ولا عن وسط الصحـراء العربيـة التي كان يتنـازعها ابن الـرشيد المـوالي للأتـراك وابن سعود الذي كان يحاول استرداد أرض الحجاز ، وكانت الدعـوة إلى الوحـدة لو تحققت أول وحدة عربيـة من نوعهـا . وقد وافق القـوميون العـرب على هـذه الوحـدة على أن ترافقها معاهدة دفاعية مـع بريـطانيا كـما وافقت بريـطانيا عليهـا شريـطة أن يكون لهـا الأفضلية الاقتصادية في هذه الدولة الجديدة .

ولقد كان الرجل البريطاني القوي في مصر آنذاك سير هنري مكماهون المسؤول عن محمية مصر وهو الذي كان يرى أن قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمـر لا يزال مستحيـلاً ولذلـك تردد ظـاهريـاً في الموافقـة على الأهـداف الثوريـة البعيدة للقـوميـين العـرب ، ولكن المأزق الحـرج الذي كـانت فيه بـريطانيـا جعل مـا عرف « بـرسـائـل مكماهون » بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً ، تلك الـرسائـل التي منعت بريـطانيا نشـرها عشرات السنين ، في ذلك الوضع الحرج لجأ مكماهون في مخاطبة الحسين إلى عبـارات التبجيل والتكبير كما يلاحظ (أنظر الوثائق) .

وفي ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩١٥ أرسل مكماهون المذكرة التي حـدّدت الشروط التي سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم في اللحظة المناسبة . أوضح أولاً أن تردده الظاهر في بحث مسـألة الحـدود إنما سببه شعـوره بـأن ذلـك البحث لم يحن وقتـه ، لكن بمـا أن الحسين يعدّه أمراً جوهرياً فإنه مفوض من قبل الحكومة البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات .

ثم تم التوصل إلى أن تبدأ هذه الثورة في أوائل عـام ١٩١٦ ، ولكنها بـدأت في منتصفها وجاءت متأخرة لأن جمال باشا السفاح اكتشف أمـرها عـام ١٩١٥ عندمـا بدأ بنقـل الضباط العـرب من الجيش الرابـع في دمشق بعيداً عنهـا ، وكـان معـظم هؤلاء أعضاء في الجمعية العسكرية السّرية التي كانت تعمل للانفصال عن تـركيا ، وأحضـر بدلاً منهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية .

وفي العراق الذي كان مكتب القاهرة مهتماً به وهو ولايـة عثمانيـة أهم للأتـراك من الحجاز . هنا ضيعت الفرصة أيضاً حيث غزا العراق جيش من الهند البريطانيـة ،

وكان يظن أن هذا الوادي الخاوي صالح للفائض من سكان الهند ، ولذلك كان قادة الجيش الغازي غير مضطرين إلى التسرع في عرض الاستقلال على العراقيين ، كما كانوا ينتظرون أن يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة ، أما الواقع فكان نشوب معارك طويلة ضارية .

كان ثمن الثورة بالنسبة للعرب غالياً في المدى الطويل والقصير ، دفعوا جميعاً هذا الثمن مع أن أقل من عشرة بالمئة منهم اشتركوا في الثورة ، حتى أن في الحجاز لم يكن الرأي العام وراء الحسين ، ولكن خروجه مع الأتراك وما تبعه من قرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثماني حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية ، وفتح الطريق في المدى البعيد إلى تركيا التركية . أما في المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالازدراء فشنق من شنق ، وعرّض لبنان الذي كان متعاطفاً مع الغرب إلى مجاعة أردت بربع سكانه .

ولا شك أن الثورة العربية التي انطلقت من الحجاز كانت ذات قيمة للحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وبريطانيا خاصة التي بالغت في فتح جبهة جديدة في بحر مجهول فجاءت الثورة مقوياً حين كانت المعنويات العامة منخفضة . إن نهوض أبناء الصحراء الشجعان لتأييد بريطانيا عوض عن المذابح المستمرة في الجبهه العربية . وهكذا عادت الحرب ساحرة ، وفي وسطها سحر شاب انجليزي خيال معاصريه أكثر من أي شخص آخر . إنه الكابتن لورانس ضابط المخابرات البريطانية الذي كان في نظر قراء الصحف في مطلع هذا العصر ملك الجزيرة العربية المتوّج ، وصانع الملوك ، وجعلته الأسطورة معبوداً من أقصى الصحراء إلى أقصاها وقد كتب في أهم ما نشر له ـ أعمدة الحكمة السبعه ـ : « إنهم يسألونني من أنا ، لأن ثيابي ومظهري عاديان في الصحراء . اشتهرت بأني الحليف الوحيد ، وضاعفت هذه الشهرة بارتداء ثوب من الحرير الأصلي أبيض ناصع ، وكوفية قرمزية وعقال مذهب مكيّين ، وخنجر ذهبي »[١٤٥] .

وجد لورانس الذي أرسلته المخابرات الانجليزية من القاهرة لقيادة الثورة من مكة إلى بر الشام أن الشريف حسين قوي الارادة إلى حد يجعله غير صالح لغرض بريطانيا ، وقد اعترف بعلي ، أكبر أبنائه ، كرجل لا قائد ، بدا له سيداً دمثاً ولكنه كان عليل الجسم وعصبياً ، عالماً بالفقه والدين ومتديناً إلى درجة التعصب . إن وعيه

لتراثه العظيم يجعله غير طموح ونقاوة طبيعته تحول دون رؤ يته الدوافع المصلحية فيمن حوله أو الشك فيها .

وكما صرف النظر عن علي بن الشريف حسين صرفه عن زيد أصغر أبناء الحسين وكان في التاسعة عشرة من عمره . قال عنه إنه كان شاباً خجولاً هادئاً ، نشأ في الحريم مع أمه التركية فلم يتحمس للثورة وللبعث العربي ، ومع ذلك قام بدور بسيط في العمليات العسكرية ، ثم انصرف إلى العمل الديبلوماسي وتزوج من رسامة تركية ، فكانت حياته أهدأ من حياة أخوته .

كان المعقول أن يقع اختيار لورانس على عبدالله ثاني أبناء الحسين الذي كان أول من طرح فكرة الثورة العربية أمام كتشنر ، والوحيد الذي ترك أثراً قوياً في نفوس الغرب . يقول لورانس : « لا بد أنه كان داهية لكن ليس إلى الحد الذي يقنعنا دوماً بإخلاصه . وكان طموحه واضحاً . جعلته الشائعات دماغ أبيه ودماغ الثورة العربية ولكنه بدا ليّناً جداً بالنسبة إلى ذلك . كان هدفه طبعاً كسب الاستقلال للعرب وتأسيس دولة عربية ولكنه قصد أن تكون إدارة هذه الدولة في أسرته » .

ادّعى لورانس أنه أدرك فوراً أن الرجل الذي يبحث عنه إنّما هو فيصل ثالث أبناء الحسين ، وكان في الحادية والثلاثين من عمره ، قال لورانس : « إنه لم يكن مثقفاً ، وقد أراحه ذلك بعدما رأى في أخيه عبدالله من حب الاستطلاع والحيوية ، وأن طبيعته كانت تكره التفكير لأنه يشل حركته في العمل . لكن تكوينه الجسدي كان مثيراً : كان طويلاً ، رشيقاً ونشيطاً ، جميل المشية جداً ، في رأسه وكتفيه هيبة ملكية . طبعاً عرف ذلك ، فكان جزء كبير من تعبيره بالاشارة والإيماء » .

وطالما حيّر قراء لورانس تفضيل لورانس فيصل على أخيه عبدالله مع أن اسمه يظهر ضعفاً . لكن من يعرف غرض لورانس يجد اختياره مقبولاً . ذلك بأنه لم يكن يبحث عن رجل قوي يثير البدو في زحفهم نحو الشمال إلى سوريا ، بل عن رجل مهيب يستطيع هو أن يؤثر فيه . عندها تتزيّن الثورة العربية بلباس الصحراء ، وتكون وجهتها دمشق ، أما غرضها فسيكون مختلفاً عما يتصور العرب الذين يهتفون للحرية[١٤٦] .

هكذا حدّد لورانس ، بعدم اكتراث ، موقفه الحقيقي من الثورة العربي في وثيقة

سريّة كتبت في كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ ولم يرها سوى عدد قليل من المسؤولين . إن ثورة الحسين في الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا : « لأنها تتمشى مع الأهداف الحالية : تحطيم الكتلة الاسلامية ، والتغلب على الامبراطورية العثمانية وتمزيقها . أما الدول التي ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح آلة في يد الألمان . بل أن العرب أقل استقراراً من الأتراك ، فإذا أحسنت معالجتهم ظلوا في حالة تفرق سياسي ، ولآيات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد »[١٤٧] .

وهكذا نجد أن لورانس كان مهتماً ـ حسب مهمته ـ بخلق الدمى والتأثير في العرب ، فجاء عمله في الصحراء ، وبالتالي كتاباته فيما بعد كإيحاء لجيل من « المستشارين » البريطانيين ليتعلموا كيف يحكمون العرب من وراء الستار . وقد أعطى ذلك معنى صحيحاً لخلاصة رأي لورنس في فيصل الذي سيصبح فيما بعد ملكاً : وقائداً ملهماً إذا ما أعطى الفكرة وراء نشاط الثورة العربية صورة قوية .

وجاء الفيصل ومن معه من المحاربين الحجازيين ليستقر في قرية القابون المجاورة لدمشق ، والفيصل يدرك يومها ما يبيته الاتحاديون الأتراك للعرب ، في وقت يدرك فيه أيضاً أنه لا يمكن إشعال فتيل الثورة في ظل حكم جمال باشا وسطوته ، ولذا سارع للاتصال به وإقناعه بإحضار جيش موال للأتراك من الحجاز[١٤٨] فوافق جمال باشا على الفكرة على أن يقود هذا الجيش الفيصل نفسه ، وعاد بالفعل إلى الحجاز ومعه وجهاء من دمشق بعد أن اتصل بأحرار العرب من أعضاء جمعية « الفتاة » و « العهد » ودرس معهم الخطط التي يمكن إعدادها لنجاح الثورة ، وكان فريق منهم يرى أن تقوم في سوريا وأن يكون عناصرها من الدروز والعشائر وأبناء المدن ، ولكن قوة جمال باشا وسلطانه ووجود الحامية التركية وأبعاد الكتائب العربية من سوريا إلى الأناضول حول وجهة فيصل من سوريا إلى الحجاز حيث بدأت أول طلقة فيه .

وبعودة الفيصل إلى حيث جاء ثم تريثه عن العودة أوجس الاتحاديون في تركيا من حكام مكة كما أوجس شريف مكة منهم ، وبدأ سوء التفاهم بين الجانبين في حين أرسل الاتحاديون إلى مكة الوالي التركي وهيب باشا . ليحد من شريف مكة ويقصيه عن مركزه الديني في الحجاز وقد اكتشفت هذه المؤامرة الاتحادية أثر فقدان حقيبة الباشا من مرافقه وعثور أحد أتباع الأمير علي بن الحسين عليها . فلما فضّها واطلع عليها

قدمها إلى أبيه ، وبعد قراءتها قرر إيفاد ابنه فيصل إلى الاستانة ليطلع ولاة الأمور على هذه المؤامرة المبيّتة، والأرجح أن الانجليز هم الذين اطلعوا الحسين على المؤامرة، وواجه فيصل الصدر الأعظم وبين له ما يريده الاتحاديون من التنكيل ، وبعد مداولة ومشاورات قر الرأي على نقل وهيب باشا من الحجاز وتعيين آخر بدله .

أما الشريف حسين فقد ظل خائفاً يترقب ودخل في روعه أن يتخذ للأمر الحيطة ، وبدأ الاتصال برجالات العرب الذين أخذوا يدرسون الموقف عن كثب وينظرون إلى الدولة العثمانية وهي تتردى يوماً بعد يوم ، وإلى الحلفاء كيف بدأت أطماعهم في استعمار البلاد العربية وخاصة بعدما اشتد التزاحم بين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، فقد كانت فرنسا تشك في نوايا بريطانيا ، وزاد هذا الشك عندما أخذ بعض موظفي دار الاعتماد في القاهرة إجازته وقرر أن يقضيها على ظهر جواد ماراً بحيفا باتجاه بيروت وجبل لبنان . وقد فزعت فرنسا لهذا الحادث وطلبت من وزارة الخارجية البريطانية توضيح الأمر ، فأظهرت هذه الأخيرة لها أن القضية لا ترمي إلى غرض سياسي مطلقاً وأن بريطانيا لا تطمع بأي نفوذ سياسي على بلاد الشام ، وزاد الأمر وضوحاً ما جاء في زيارة المسيو موريس باريه عام ١٩١٤ إلى الشام وتحديه علناً بأن احتلال فرنسا لسوريا أمراً لا بد منه وأنه وشيك الوقوع .

وكانت أطماع إيطاليا في اليمن وعسير غير خافية على أحد ، أما بريطانيا فقد جثمت على فم الخليج العربي ، وعقدت معاهدات كثيرة مع زعماء قبائل صغيرة هناك .

وهكذا أخذ العرب يشعرون بأطماع الغرب ضدهم وضد بلادهم فوقعوا حائرين بين أمرين إما الوقوف بجانب الدولة العثمانية لمساعدتها ضد الاستعمار الغربي ، وأما الوثوب عليها . وكان الرأي الأول هو الرأي السائد خاصة بعدما استولت إيطاليا على ليبيا . ولم يكن هؤلاء العرب يدرون بالاتصالات الدائرة بين الحسين والانجليز إلى أن جاء فيصل إلى دمشق وأطلعهم على الأمر قائلاً لهم : بأن بريطانيا وعدت أبيه بقيام دولة عربية كبرى .

لقد جاءت فكرة الاستتراك التي كان يريدها الاتحاديون لشعوب تركيا جميعها متأخرة ، وجاءت في وقت تيقظ فيه العالم وسرت موجات هذه اليقظة في أرجائه

جميعها ، فقد فتح العرب عيونهم ورأوا الاتحاديين وفي ضمائرهم الشر لبلادهم ولمستقبلهم . وعندما استوضحوا الأمر فتك جمال باشا بنخبة من رجالات العرب .

لقد كان هناك وفي آتون الحرب العالمية الأولى معسكران متناطحان : تركيا وألمانيا من جهة وانجلترا والحلفاء من جهة أخرى ، ولم ير العرب بدأ من الانحياز إلى جانب الحلفاء وبعد أن ألقى الشريف حسين كل ثقله للعفو عن الزعماء العرب دون أن يجد أذناً صاغية ، وانطلاقاً من وعود بريطانيا للشريف بدأ الاتصال مع الحلفاء لتبدأ معركة العرب العسكرية ضد تركيا حيث انطلقت نيرانهم على ثكنات الجيش التركي مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة (السبت ١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٦) ، وعزز الشريف حسين هذه الوثبة بمنشور على العالم العربي جاء فيه : « إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوي بين الشعبين رغم المعونة الصادقة التي بذلها العرب في ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام وشنقوا العرب جماعات وفرادى وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها وصادروا الأموال ، ولقد نصحنا فلم ينفع النصح ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضربنا على أيدي الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالاً تاماً ، وأعلنا استقلالاً لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلين الغاية نصر دين الاسلام ، وإعلاء شأن المسلمين ، مستندين في كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف ، ولن يكون لنا مرجع سواه في جميع الأحكام وأصول القضاء»[١٤٩] .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولي على مدن الحجاز الكبرى في أقل من ثلاثة أشهر باستثناء المدينة المنورة التي ظلت محاصرة إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وكان قد وصل إلى الحجاز بعض الضباط العرب الذين هربوا من الجيش التركي فنظموا جيش الثورة بعد أن جاءه السلاح من الحلفاء ، وإن كان الحلفاء قد خافوا منها في البدء ، لكنهم أدركوا باعتراف جمال باشا أن هذه الثورة هي التي حالت دون هجوم تركيا على قناة السويس ، كما حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة العربية ، ولو نجحت هذه الهجمة لانفرط عقد البحر الأحمر . وكتب جمال باشا في مذكراته : « لولا ثورة العرب ما جرأت كتيبة انجليزية في عام كامل أن تطأ ضفة القناة»[١٥٠] .

تقدمت الجيوش العربية تفتّح في أرض الحجاز حتى وصلت إلى العقبة التي

اتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم ومن أبرز قادتها لورانس لتزيل حاميات الأتـراك وتصـطدم بقـواتهم حتى وصلت إلى دمشق في أول تشـرين الأول (اكتـوبـر) ١٩١٨ بعـد أن دخلت معها الجيـوش البريـطانية ثم والت انتصـاراتها فـدخلت حمص وحلب وحماه ، وخلال شهر واحد تم تحـرير سـوريا كلهـا . وكان أول مـا فعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية لأول مرة .

لقد انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة تركيا وألمانيا ، وكانت الثورة العـربية من أولى مسبباتها على أمل أن تكون هذه الثورة نواة لاستقلال بلاد العـرب ولكنهم أصيبوا بخيبـة الأمل وأدركـوا كما أدرك العـالم أجمع أن لا قيمـة لوعـود تطغى عليهـا المـطامـع الاقليمية والسياسية ، وأنه لا حول لشعوب تستند لاظهار حقهـا ونيل استقـلالها عـلى معاهدات تتنـاولها السيـاسة العـالمية بـالتحريف والتبـديل ، حتى والالغـاء إذا اقتضت مصلحة من يعنيهم الأمر .

كانت هناك معاهدات سرية معقـودة بين الـدول الكبرى خصـوصاً مـا تم عقده منها خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٩ يتعلق بهذه البلاد .

لقـد كانت بـريطانيـا وفرنسـا وروسيا قـد توصلت فيـما بينها في آذار (مـارس) ١٩١٥ إلى عقد معاهدة سرية لتقسيم العالم العربي فيما بينها ، وقد خول الاتفاق فرنسا حق مـد نفوذهـا في سوريـا حتى حلب ، وشمالاً إلى مـا وراء هذه الحـدود وصولاً إلى كيليكيا وشمالاً العراق مع قسم من داخل بلاد الأناضول ، وخولت انجلترا[١٥١] حق توسيع منـطقة نفـوذها شـاملة سواحـل فلسطين . وأبـدت انجلترا رغبتهـا بأن يعـامل العرب في داخل سوريا معاملة مبدأها الاستقلال في الشؤ ون الـداخلية ، ولم تعـارض روسيا في ذلك . وتنفيذاً لأحكـام المعاهدة المذكورة عقدت انجلترا وفرنسا معاهـدة في أيار (مايو) عام ١٩٢٦ تضمنت وصفـاً لكيفية تنفيـذ تلك الاتفاقيـة.. غير أن فـرنسا شعرت أثر ذلك بأن لدى الحكومه البريطانية فكرة أرادت تحقيقها في كيليكيـا باحتـلال الاسبكندرون راغبة في ذلك بأن لا تدع للألمان ممراً إلى مصر كما كانت ترغب بأن تتفق مـع الشريـف حسـين تشجيعاً لقيـامه بـالثورة العـربية ، ففتحت بـاب المفاوضـات مع انجلتـرا بغية إلغـاء هذين المـطلبين ، لكنهـا فشلت في حمل انجلتـرا على التخـلي عـلى اتفـاقها مـع الشـريف حسـين ونجحت جـزئيـاً بجعلهـا تتـرك جـانبـاً قضيـة احتـلال

الاسكندرون ولو من أجل مسايرة فرنسا وإرضائها منعاً لنشوب أزمة تعطل سير الحرب .

وكانت الاتفاقية المعروفة « سايكس ـ بيكو » تكملة للاتفاقية السابقة ولكنها موقعة بين بريطانيا وفرنسا في آذار (مارس) ١٩١٦ أكثر وضوحاً فيما يتعلق بتقسيم العالم العربي بعد سلخه عن الامبراطورية العثمانية ، وكانت حصة روسيا القسطنطينية وجزءاً من الأرض على ضفتي البوسفور وقسماً كبيراً من أراضي الأناضول يكون الولايات الأربع للحدود الروسية التركية . وهذا أمر لا يهمنا هنا .

أما البلاد العربية التي ستنسلخ عن الامبراطورية فقد توزعتها الاتفاقية بين فرنسا وبريطانيا بمناطق نفوذ ومناطق استعمار كما هو معروف وقد مزقت بذلك سوريا ولبنان وفلسطين والعراق . جعلت فلسطين منطقة دولية يشترك بالمشورة في تكوينها شريف مكة ، وقسمت البقية الباقية من سوريا ولبنان والعراق مناطق أطلقت على إحداها المنطقة الزرقاء وجعلتها لفرنسا والمنطقة الحمراء وجعلتها لبريطانيا وبينهما منطقة بيضاء مقسمة إلى قسمين (أ ـ ب) على أن تتكون من هاتين المنطقتين الأخريين دولة عربية أو حلف من دول عربية لفرنسا نفوذ كامل في (أ) ولبريطانيا نفود كامل في (ب) ولم يراع في هذا التقسيم تلك الوعود التي أعطيت للحسين ، وللزعماء العرب ، كما لم ينظر إلى وضع طبيعي أو اجتماعي أو سياسي في صالح هذه البلاد بل روعي في ذلك استعمار واستثمار هذه البلاد للحيلولة دون وحدتها في يوم من الأيام[١٥٢] .

على أن الدولتين الحليفتين فرنسا وانجلترا لم تحسبا حساباً للنزاعات الشعبية وخصوصاً فرنسا التي حصلت على القسم الأكبر من البلاد العثمانية ، فما كادت الحرب تنتهي حتى شعرت بتوليد روح المقاومة لدى الأتراك والعرب وظهور النهضة القومية في الدول العربية ، وتقهقر الجيش اليوناني في الأناضول . وكان الانجليز يمدون حليفتهم اليونان بالمساعدة الفعالة مزودين جيوشها بالعتاد والمواد الحربية ، مما جعل فرنسا تشعر برغبة انجلترا ببسط نفوذها داخل البلاد التركية . الأمر الذي يتعارض مع سياستها فعملت على مساعدة تركيا وتشجيعها سراً . وكان من أثر ذلك تقهقر الجيش اليوناني وانسحاب الحلفاء من المضايق ، فتركت فرنسا أثر ذلك كيليكيا لتركيا محتفظة بسوريا على أساس أن الاحتفاظ بسوريا من شأنه حفظ كرامتهم لأنهم يعتقدون أن لهم في

البلاد السورية تقاليد وروابط معنوية تجعلهم يحتفظون بها .

لقد كانت اتفاقية « سايكس - بيكو » من أشد الاتفاقيات السرّية خطراً على كيان البلاد العربية . وكانت من الاتفاقيات التي بقي أمرها مكتوماً حتى ظهور البلاشفة في روسيا وانتقال زمام الأمور في تلك البلاد إليهم فانفضح إذاك أمرها ، ولكن انجلترا أجابت على سيل الأسئلة والاعتراضات والاحتجاجات الصادرة عن المراجع العربية بقولها : « إن هذه المعاهدة كانت قد عقدت حين كانت روسيا مشتبكة في الحرب تأميناً لإيجاد تضامن بين الحلفاء ، ولكنها لم تعدْ سارية المفعول بعد خروج روسيا من الحرب خصوصاً وأن العرب انضموا إلى الحلفاء»[١٥٣] .

إن انجلترا وإن لم تكن متمسكة بهذه الاتفاقية كثيراً ولكنها اضطرت إلى تنفيذ مضمونها بعد التعديلات بشأن الموصل وفلسطين نزولاً عند رغبة الحكومة الفرنسية وإلحاحها إذ أصرّت على التمسك بأحكامها ، .ومما ساعد على ذلك رغبة انجلترا باستخلاص فلسطين بأجمعها لنفسها ، سيما وأن وزير الخارجية اللورد بلفور كان قد وعد باسم الحكومة البريطانية بإعطاء وطن قومي لليهود فيها وهذا لا يتم إلا إذا استولت بريطانيا على فلسطين بأجمعها .

ولقد قال مارك سايكس الموقع على الاتفاقية المشؤومة عند زيارته لدمشق عام **١٩١٩** عندما سئل عن فلسطين وفصلها عن الدول العربية التي وعدت بالاستقلال : « إن نيل فلسطين الاستقلال أصعب من نيل بيض الرّخ » ويقصد دخولها ضمن نطاق البلاد العربية التي وعدت بالاستقلال . وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب : « إن وعود مكماهون لم تتضمن في وقت ما الاشارة بصراحة وجلاء ، إن فلسطين داخلة ضمن البلاد العربية ، لو حدث ذلك لكان معناه إخلال انجلترا بالتزاماتها وتعهداتها »[١٥٤] .

لقد أحدث هذا التصريح آثرا سيئاً أدى إلى عدة استيضاحات وتفسيرات حقوقية ، ولكن في النهاية كان حلم الثورة العربية مجرد هباء ووهم في رؤوس من وثقوا بالبريطانيين والفرنسيين ، وقد أدرك العرب جميعاً وخصوصاً السوريين واللبنانيين أنه لا مفر من العمل بسرعة فرأوا أن أفضل وسيلة لوضع الدول الأجنبية تجاه الأمر الواقع هو إعلان الاستقلال وقد توافد ممثلو البلاد العربية إلى دمشق وكونوا ما سمي

المؤتمر السوري العام . وبدأ هذا المؤتمر بعقد جلساته لبحث هذه الأمور ، ولسماع آراء الأمير فيصل الذي كان لا يزال يتولى القيادة العامة للجيش العربي الذي يحتل المنطقة الشرقية ويعرف دولياً باسم جيش الاحتلال المرتبط بقيادة الجنرال اللنبي . وفي هذه الأثناء استدعي الأمير فيصل لأوروبا للبحث في شؤون البلاد ، وكانت هنالك مباحثات بينه وبين الرئيس الفرنسي كليمنصو تمخضت عن اتفاقية معاهدة عرفت باسم معاهدة فيصل كليمنصو والتي لم يكن بالامكان إبرامها ، وبعودة فيصل إلى سوريا وجد أن هناك توتراً وهياجاً داخل المؤتمر السوري الذي انتهى من نتيجة مباحثاته مقرأ استقلال البلاد وملكية الأمير فيصل ، وأعلن قراره هذا في ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ بعد أن استمع إلى خطاب الأمير الذي أتى لأول مرة على ذكر الوحدة العربية ذاكراً العراق وفلسطين .

نتيجة لذلك تلبد الجو السياسي إثر إعلان الاستقلال ، وعدَّه بعض الساسة البريطانيين خروجاً على تعليمات القيادة العامة الانجليزية التي لم تسمح بتشكيل حكومة مدنية فأسرع اللورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا بالاحتجاج مبيناً أن حكومته لا تعترف لأية هيئة بحق التكلم والبحث بأمر فلسطين والعراق . وتوالت الحوادث صراعاً اثر ذلك ، والفرنسيون دائبون على تعزيز جيوشهم . ولما كان عدد كبير من جنودهم المحاصرة في عينتاب ولكيس وأورفه أراد الجنرال غورو أن يرسل بعض المهمات والعتاد إلى هذه الجيوش عن طريق سكة حديد سوريا فأبت الحكومة السورية السماح بذلك لأن ممثل فرنسا لم يعترف بالحكومة السورية وبالاستقلال المعلن ، ولذا فإن سوريا رأت أن لا تتدخل بالنزاع القائم بين فرنسا والأتراك وأن تظل على الحياد .
وفي هذه الأثناء كانت الدول قد انتهت من المساومات السياسية فأبرم قرار سان ريمو بجعل سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وفلسطين والعراق تحت الانتداب الانجليزي، ولم يكد يعلن هذا القرار حتى عمَّ الاستياء والهياج سائر البلاد العربية، وتلا ذلك قرار الحكومة السورية الدفاع عن البلاد تجاه أي طارىء . عندها دعا الانجليز الملك فيصل للذهاب إلى أوروبا للمفاوضة ولكن الجنرال غورو لم يشأ تسهيل سفره مدعياً بأن هنالك إنذاراً سيقدم له ، وإذا لم يقبل مضمونه فإنه لن يسمح للملك بمغادرة البلاد . والانذار المعني هو ذلك الانذار المؤرخ في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠ الذي تلته حوادث التعبئة ومعركة ميسلون التي انتهت بدخول فرنسا لدمشق ثم باقي

البلاد السورية التي استمرت ربع قرن بعد ذلك .

وقد نجح الفرنسيون في ميسلون بعد أن انضم إلى صفوفهم بقايا فلول المناصرين لتركيا في بلاد الشام ، وكانت فرنسا قد وقعت مع تركيا معاهدة فرنكلين بوبون (١٩٢١) أعطت فرنسا بموجبها لواء الاسكندرون إلى تركيا كثمن لقمع الثورة السورية الجديدة ، وبذلك خسرت سوريا بفضل الفرنسيين جزءاً مهماً من أراضيها .

ربع قرن مرّ على البلاد قاست خلاله الأمرين ولكنها خرجت من التجربة ظافرة بالنتائج التالية :

١ ـ ارتفاع درجة نضجها وإدراكها السياسيين وتعلمها الكياسة واللباقة في الأمور الدولية الخارجية ، وأهم من هذا كله توحيد الكلمة تجاه المصاعب والتضحية في سبيل عزة الوطن .

٢ ـ عزمها على دفع العدوان وإنقاذ البلاد من الانتداب ، وسعيها يداً واحدة للوصول إلى هذه النتيجة باتخاذ جميع التدابير المؤدية إليها ، ومنها كسب ثقة العالم الخارجي ومعالجة المسائل بالحكمة والتؤدة ومعرفة أن الحق يؤخذ بالمثابرة على طلبه وأنه لم يسبق في التاريخ أن نالت أمّة استقلالها عطاء .

٣ ـ أن لا شأن للمذاهب والأديان في حرية البلاد واستقلالها ، إذ أن الدين لله والوطن للجميع . وأن كل محاولة تفرقة تأتي عن هذا الطريق يجب مقابلتها بحزم وشدّة ، وأن العبرة للجنسية وحدها .

٤ ـ أدركت هذه الأمّة أن السعي وراء المادة أمر من شأنه أن يحط من كرامة الفرد والمجموع ولأنه لا سبيل للجمع بين المطامع الفردية والمنافع الشخصية ، وبين العزّة والكرامة القومية والاحتفاظ بالحرية والاستقلال ، وأن التردد في تلبية نداء الواجب يجر الويلات على الأمّة ، وأن تأخير القيام بما يجب عمله الساعة لما بعدها من شأنه إضاعة الفرص فلا يمكن تعويضها أو تلافي ما فات منها .

٥ ـ أن ليس للسياسة مبدأ أو أساس واضحين يصح الركون إليهما أو الاعتماد

عليهما ، كما أنه ليس لوعد قيمة إذا تنازعته المطامع والأهواء . فالمساومة السياسية كانت ولا تزال رائدة الدول المستعمرة منذ القدم . ومن تتبع الحوادث التاريخية منذ عام ١٨٧٠ حتى اليوم يرى أن الجانب الأعظم من المعاهدات المعقودة بقيت مهملة ، وأن المطامع الدولية والمساومة كانت تطغى عليها .

وقد شاءت الظروف السياسية العالمية أن تتطور الأمور لصالح هذه الأمّة التي ضحت كثيراً وتألمت خلال ربع قرن ، قاسى خلاله أبناؤها النفيْ والتشرد والظلم والاستعباد ومصادرة الأملاك ، وحجز الحريات إلى أكبر درجة يتصورها عقل بشري ، فأتاحت لها فرصة التخلص من كابوس الانتداب ، وإعلان استقلالها واستعادة عزّتها وكرامتها وصيانة حقوقها .

ولا شك بأن النهضة الاجتماعية والاقتصادية في البلاد خرجت عن طورها الراكد ، وبدأ النشاط الصناعي يدب فيها حيث رأت أنه لا حياة لشعب ليس له من وضعيته الاجتماعية والاقتصادية خير مستند يقيه شر العوز والالتجاء إلى الأجنبي لتأمين كيانه . وقد أدرك أنه لتأمين هذه الغاية على الأمة أن تتولى القيام بأمرين هامين لتحقيق المطلب الأساسي :

١ ـ توجيه نظر المجتمع وإقناعه بضرورة إحداث حركة فكرية ، وتأسيس روابط ثقافية واجتماعية يكون من شأنها تنمية معنوياته ووضع أسس استقلاله على كيان ثابت متين ، كما وتأسيس الأحزاب الأدبية والسياسية لتكون همزة وصل بين سائر الطبقات . والعمل في الوقت نفسه على الاكثار من دور العلم والثقافة وزيادة عدد المدارس وإيفاد البعثات العلمية والصناعية الفنية . إذ بذلك وحده يمكن إحداث انقلاب فكري اجتماعي يعود على البلاد بالفائدة المثلى ، ويكوّن في جماعاتها ومختلف عناصرها وحدة لا تتجزأ ويحدث بينهم الالفة والاخاء والوفاق ويوقد فيهم الحمية ، فيعملون بإخلاص وصدق نية على إعلاء كلمة الأمن وشأن الوطن وتيسير تكوين منزلة اجتماعية مرموقة تؤخذ بعين الاعتبار من قبل الدول الأجنبية والشعوب العالمية ، فيحق لها إذ ذاك أن تسمع صوتها عالياً ، وأن تستفيد من الظروف العالمية السانحة ، وقد تحقق أن للمؤتمرات والمنتديات الاجتماعية في هذا العصر الأهمية البالغة لنشر دعاية مقبولة صحيحة لكل أمة ترغب في الحياة الحرة . ولذا وجب أن يسعى الكل إلى ذلك تأميناً لحصول الغاية المنشودة .

٢ ـ العمل على إنماء النهضة الاقتصادية وتسيير عجلة الدولاب التجاري على صورة واسعة النطاق وذلك باستثمار موارد البلاد الزراعية والمعدنية وتشجيع الروح الصناعية ، وتأسيس رؤوس الأموال وتحويلها إلى شركات مساهمة تعمل على خلق المعامل والمصانع ، فتستخدم المواد الأولية في البلاد عوضاً عن تصديرها ، وتزيد معدل صادراتها من فائض مواردها ، فيتعادل ميزانها التجاري وتتمكن الأمة هكذا من حفظ ثروتها المادية وعدم تسربها للخارج فتصبح البلاد في مأمن من العجز المالي والضائقة الاقتصادية ويتسنى لها تركيز نقدها على أسس ثابتة لا ارتباطها بالأسواق العالمية .

ومن ثمار هذه التجربة شيوع الثقافة وتوسعها وإنتقالها من بلد إلى آخر بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر .

ففي مرحلة ما بعد الحرب الأهلية اللبنانية وثورة صغار الفلاحين في جبل لبنان على المقاطعجية نزح العديد من الأسر الاقطاعية المسيحية إلى مصر كما هاجر البعض إلى أوروبا وخاصة فرنسا . تعود أسباب الهجرة هذه في الربع الثالث من القرن التاسع عشر بالدرجة الأولى إلى حدثين هامين كان لهما تأثير كبير في تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في جبل لبنان وعلى الطائفة المارونية بشكل خاص .

كان **الحدث الأول** هو نمو قوى اجتماعية على اثر ارتباط الجبل اللبناني تدريجياً بالسوق الرأسمالية العالمية خلال القرن التاسع عشر . فإن التوسع في تربية دود القز وحياكة الحرير ، بالإضافة إلى صناعات أخرى لتلبية حاجات السوق الأوروبية ، أدى إلى نشوء طبقة محلية من التجار الذين وجدوا في النظام الاقطاعي عائقاً عن تطوير تجارتهم . في الوقت نفسه أدى هذا النمط الجديد في الانتاج إلى تفتيت بعض الاقطاعيات إلى ملكيات متوسطة ، وبالتالي إلى نشوء طبقة واسعة من المزارعين المتوسطين يخدمون هذا النمط الانتاجي . بالاضافة إلى ذلك فإن الكنيسة المارونية ، بحكم ملكيتها لجزء لا يستهان به من الأراضي الزراعية ولكون معظم الذين انخرطوا في سلك الرهبانيات انتموا في أصولهم الاجتماعية إلى صغار الفلاحين ، لعبت دوراً اجتماعياً واقتصادياً بالاضافة إلى دورها التثقيفي في نمو هذه الفئات الاجتماعية الجديدة على حساب المقاطعجية إذ أنه من المعروف أن الكنيسة المارونية شجعت على قيام عامية انطلياس وآزرت القوى التي قادت عملية توزيع إقطاعيات عائلة الخازن على

الفلاحين . لهذا فإنه ما إن حلت نهاية الحرب الأهلية تلك حتى كان عدد غير قليل من الأسر الكبيرة كالجمل واليازجي والنقاش وزيدان قد هجرت لبنان حاملة معها ما خف حمله وغلا ثمنه إلى مصر لتبدأ حياة جديدة في مجتمع مستقر إلى حد بعيد ، خاصة بعد الاحتلال البريطاني حيث السلطان والجاه لطبقة الملاكين الكبار الناشئة .

الحدث الثاني هو التحول السياسي والاقتصادي الذي طرأ على الامبراطورية العثمانية على اثر وقوعها اقتصادياً في قبضة الرأسمالية العالمية والدول الأوروبية المتقدمة . فإنه نتيجة لذلك انشغلت الدولة العثمانية في الدفاع عن نفسها بتشديد قبضتها على الولايات العربية التابعة لها ، مما جعل مناخ العمل السياسي والفكري في تلك الأجزاء من الامبراطورية ، وخاصة خلال فترة حكم السلطان عبدالحميد والاتحاديين من بعده ، محفوفاً بالمخاطر . لذلك فإن عدداً من المثقفين المسيحيين اللبنانيين وغيرهم من مفكري المشرق العربي اضطروا إلى الهجرة خارج بلادهم . ولا شك بأن المفكرين المسيحيين في لبنان كانوا قد تأثروا بالثقافات الغربية لاسيما وأن الصلات بين طوائفهم والقوى الأوروبية الكبرى كانت وثيقة للغاية . لهذا فإن صياغاتهم الأيديولوجية جاءت محملة بالمفاهيم الغربية السائدة . على أن الأهم من ذلك هو أن تبني تلك العقائد لم يتم نتيجة الاعجاب بمذاهب الفكر الغربي ، وإنما انعكاس لمصالح وطموحات هذه الفئة من المثقفين في المهجر والقوى الاجتماعية التي كانوا يعبرون عن آرائها .

كان التزام هذه الفئة بالمنهج العلماني في التفكير وسيلة فعالة لاعلان معارضتها الشديدة لفكرة الجامعة الاسلامية التي كان السلطان عبدالحميد يقوم بتشجيعها . أو بالأحرى كانت الدعوة للعلمانية محاولة لتحييد الجهود المبذولة لجعل الجامعة الاسلامية أساساً لانبعاث الأمة الاسلامية لتجاري تطورات العصر الحديث .

إن العلمنة بالنسبة لهؤلاء كانت تعبيراً عن طموح أقلية طائفية في الولايات العربية من الدولة العثمانية ، تحاول إثبات وجودها أمام موجة إسلامية عارمة تهدد بإغراق حقوقها كأقلية طائفية والقضاء على استقلالها الذاتي .

إن نقطة انطلاق من هذا النوع وضعت المفكرين اللبنانيين أمام واحد من اختيارين ، إما أن يطالبوا باستقلالهم الاقليمي على أساس طائفي ، أي أن يدعوا

لنشوء دولة مسيحية في جبل لبنان ، وفي هذه الحالة يكونون قد تنكروا لعلمانيتهم كما قبلوا الانتماء إلى مجتمع الملاكين المتوسطين الذين يرفضونه ، أو أن يحاولوا الانسجام مع منطقهم العلماني ويطالبوا بتنظيم المجتمع على وجه جديد يأخذ بالقومية العربية كأساس له حيث تتمتع الطوائف كلها بحقوق متساوية ويعود الاعتبار للأسر الكبيرة المسيحية والمسلمة ، التي تقف على رأس الهرم الاجتماعي في المنطقة العربية . من هنا تبرز أهمية العروبة بالنسبة للمثقفين اللبنانيين المسيحيين فهي في آن واحد توفر الأمرين التاليين : الرد الحاسم على دعوة الجامعة الإسلامية ، والاطار الفكري الذي يعكس موقفاً معادياً لحركة الفلاحين الصغار والكنيسة المارونية .

إن هذا التيار الفكري القومي الذي نشأ في أواخر القرن التاسع عشر رغم طرحه لعدد من الآراء المشابهة لتلك التي بلورها ساطع الحصري في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، إلا أنها لم تلق تجاوباً يذكر من قبل المفكرين العرب في ذلك الحين ، ولا من أي من الفئات والطبقات الشعبية في الأقاليم العربية . إذ أن هذا التيار لم يمثل سوى ظاهرة لبنانية بحتة الخطر ، تأثيرها على قلة من المفكرين المسيحيين اللبنانيين خارج بلادهم لأسباب تعود إلى تكوينهم الطبقي والثقافي . وأما اعتناقهم لمذاهب فكرية مصدرها الغرب فإن ذلك كان نتيجة اقتناع بأن مثل هذه العقائد تخدم مصالحهم وتطلعاتهم السياسية والاجتماعية .

في حين كان الأثر الذي تركه المثقفون اللبنانيون وتيارهم الفكري على المجتمعات العربية لا يذكر ، كانت هنالك بالمقابل مجموعة أخرى من المفكرين العرب تمارس ضغطاً فكرياً وسياسياً عظيم الفعالية . وكان من أبرز عناصر هذه النخبة المثقفة اعلام النهضة العربية في مطلع القرن العشرين من أمثال عبدالرحمن الكواكبي والشيخ رشيد رضا وعدد لا يستهان به من رجالات بلاد الشام الذين شاركوا في الدعوة للثورة العربية الكبرى أثناء الحرب العالمية الأولى .

وحين نرجع إلى أصول هذه النخبة الاجتماعية والسياسية نجد أن معظم أفرادها كانوا ينتمون إلى طبقة الأعيان ملاكي الأراضي الكبار المقيمين في المدن ، أو إلى أقرانهم ممن عملوا في الادارة العثمانية وتبوأوا مراكز إدارية وسياسية هامة في الولايات العثمانية أو في تركيا إبان عهد السلطان عبدالحميد والاتحاديين من بعده . ولم يكن بروز هذه الفئة على المسرح السياسي حدثاً مفاجئاً ، وإنما حصل نتيجة تطور تدريجي

في بنية المجتمعات العربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والملاحظ أنه على أثر ارتباط الامبراطورية العثمانية بالرأسمالية الغربية وتوالي الحروب المحلية والخارجية التي ابتليت بها ، اضطرت الدولة العثمانية إلى أن تضاعف جهودها لتحديث الادارة وجباية الضرائب بصورة أكثر فعالية . وذلك لكي توفر لنفسها الامكانات المادية التي تساعدها على تحمل أعباء العصر ، ولتواجه الضغوط العسكرية التي تهددها . ومن أهم الاجراءات التي اتخذت لأسباب ضريبية صدور مجموعة قوانين الأراضي العثمانية سنة ١٨٥٨ . ومن أبرز سماتها أنها حاولت تنظيم العلاقة بين الدولة والمزارع ، وبموجبها أحيلت عملية جبي الضرائب مباشرة إلى موظفي الطابو بدلاً من متعهدي الضرائب وأصحاب الاقطاعيات الذين كانوا يقتطعون جزءاً كبيراً من العوائد عن الأراضي . كما أرست تلك القوانين حق الملكية الخاصة للأرض بعد أن كانت ملكية المزارع لأرضه عرضة لانتهاكات الدولة وموظفيها في الأقاليم. بالاضافة إلى ذلك حررت تلك القوانين مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي كانت وقفاً لتصبح ضمن إطار الملكية الخاصة(١٥٥) .

كانت أهم نتائج هذه الاصلاحات الضريبية أن تكونت في ولايات الامبراطورية طبقة صاعدة من الملاكين الكبار عرفوا بالأعيان . ومن العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الملكيات الكبيرة أن المزارعين الصغار خافوا حين صدرت مجموعة قوانين الأراضي من أن يكون تسجيل الأراضي خطوة نحو فرض ضرائب أعلى ، أو إحصاء يمهد لضم الفلاحين بالقوة لصفوف الجيش . لهذا امتنع الفلاحون الصغار عن الادعاء بملكياتهم للأرض فاستفاد بذلك المشايخ والأعيان وأخذوا بالاتفاق مع الفلاحين الصغار يسجلون الأراضي بأسمائهم . بل إن بعض الأعيان لجأوا إلى العنف والارهاب لتحقيق غرضهم(١٥٦) . ومنهم على سبيل المثال لا الحصر عائلتا سلام وسرسق في بيروت اللتان تملكتا أراضي في فلسطين . .

إن طبقة الأعيان هذه ، باكتسابها قاعدة اقتصادية آمنة ، انطلقت لتحقق مكاسب سياسية على حساب السلطة المركزية . وبهذا نشأ تحالف بينها وبين العناصر الاصلاحية الليبرالية في الامبراطورية ، فانبرى عدد من أبنائها للمطالبة بتمثيلها في مؤسسات الدولة . وبالقدر الذي حاول فيه السلطان عبدالحميد تركيز خيوط السلطة

في يده ازداد طموح أعيان العرب السياسي ، حتى وصلت مطالبهم لمستوى الجهر بالدعوة للحكم الذاتي واللامركزية السياسية والادارية في الولايات العربية ضمن نطاق الدولة العثمانية .

إن معظم الدراسات الحديثة للعلاقات العربية التركية تشير إلى أن الأقاليم العربية في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتي(١٥٧) . ولكن محاولة السلطة المركزية إعادة تنظيم هذه العلاقة فيما بعد بشكل يؤدي إلى فقدان هذه الاستقلالية وهيمنة العنصر التركي في أنحاء الامبراطورية أدى إلى مواجهة بين سكان الولايات العربية وقياداتهم المتمثلة بالعائلات الكبيرة ومشايخ العشائر وبين إدارة الدولة المركزية . ولا شك بأن هذا التناقض كان في طبيعة الاجراءات التي اتخذت خلال تلك الفترة . فنحن هنا أمام ظاهرة جدلية . إذ أن السلطة المركزية في محاولتها لتحصيل عائدات مالية أكبر لاصلاح الادارة والجيش وتحديثها أفرزت مجموعة من الاجراءات الاقتصادية والادارية كان من نتائجها تثبيت القاعدة الاقتصادية لطبقة الأعيان وتقوية مراكزهم السياسية في الأقاليم . وبيت القصيد هنا أنه في حين اتخذت هذه الاجراءات لتشديد قبضة الدولة على الولايات ، كانت النتيجة عكسية ، إذ بدلاً من أن تستجيب الأقاليم لسلطة المركز أصبح المركز نفسه في بعض الأحيان أسيراً لمطالب الولايات .

إن هذه الخلفية التاريخية ضرورية لفهم حقيقة الدور السياسي والفكري الذي لعبه المثقفون في المشرق العربي في مطلع القرن العشرين كممثلين لطبقة الأعيان والمشايخ والعائلات شبه الاقطاعية . وقد كان من أوائل هؤلاء المفكرين عبدالرحمن الكواكبي .

إن أهمية عبد الرحمن الكواكبي الفكرية أنه بلور في كتاباته فكرتين أساسيتين تمحورت حولها معظم المفاهيم التي وردت فيما بعد على لسان دعاة القومية العربية في فترة ما قبل الحرب الأولى وخلالها . أولهما جرى التركيز عليها في كتابه « طبائع الاستبداد » . إذ أنه في كتابه هذا لم يكن يبشر بالدعوة إلى الديمقراطية كما فهمها الغرب وإنما شدد بالدرجة الأولى على أهمية اللامركزية الادارية في الدولة العثمانية . بمعنى آخر ، كان قصده في التجريح بالسلطان عبدالحميد والهجوم على

أجهزة الدولة المركزية واتهامها بشتى أنواع الاتهامات ، يعكس مطلباً هاماً للأعيان وهو الحد من سلطات العنصر التركي وتسليم مقاليد الأمور في الولايات العربية إلى قياداتها الاجتماعية الطبيعية من أبناء العائلات الكبيرة .

أضاف الكواكبي إلى موقفه هذا موقفا اخر مكملا له عبر عنه في كتابه « ام القرى » ، حيث ركز على الدور الرئيسي للعنصر العربي في عملية بعث الامبراطورية العثمانية من سباتها العميق ، وحين ادخل الكواكبي مفهوم العروبة بهذا الشكل المتواضع ، لم يكن قصده فصل العرب عن الامبراطورية الاسلامية التي ينتمون إليها ، وإنما كان هدفه الاساسي توجيه الانظار إلى دورهم التاريخي في نشوء الاسلام وانتشاره ، وإلى ضرورة أن يقوموا بمثل هذا الدور مرة أخرى حتى تعود الامبراطورية العثمانية إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار . وفي رأيه أن العرب قوم نشروا راية الاسلام في ارجاء المعمورة ، وكان النبي محمدّ عليه السلام صاحب الدعوة عربيا ، كما نزل القرآن الكريم بلسانهم وبالتالي هم اقدر من غيرهم ، بل المؤهلون دون غيرهم ، أن يعيدوا للاسلام مكانته ونهضته ، ومن وجهة نظر الكواكبي أن الامة الاسلامية لم تعانِ في تاريخها الذل والهوان إلا حين تبوأت مقاليد القيادة فيها عناصر مسلمة غير عربيه . لهذا فان الامور لا يمكن أن تعود إلى نصابها إلا بعودة العرب إلى دورهم القيادي .

لقد تأثرت حياة الكواكبي بالعوامل نفسها التي كانت تعمل في تحديد وجهة التحرك السياسي لطبقة الاعيان في المجتمعات العربية . فقد نشأ في حلب في اسرة عربية معروفة ودرس عددا من اللغات الاوروبية بالاضافة إلى اتقانه للعربية والتركية . انخرط وهو شاب في سلك الصحافة واصدر جريدتين ما لبثت السلطات العثمانية أن امرت بمصادرتها . عرف عنه شغفه بالسياسة وترشح للانتخابات النيابية في البرلمان العثماني الاول سنة ١٨٧٧ . ثم دخل العمل الحكومي حتى اصبح رئيسا لبلدية حلب . إلا أنه طوال فترة عمله السياسي والاداري كان على صدام مستمر مع ولاة حلب الاتراك لما كان يعبر عنه من افكار جريئة . وفي سنة ١٨٩٩ اضطر مع عدد كبير من المثقفين العرب أن يهجروا بلادهم تحت ضغط السلطات العثمانية إلى مصر . وفي القاهرة تقرب من الخديوي عباس حلمي الذي ارسله في مهمات سياسية إلى اليمن والجزيرة العربية . وتوفي في القاهرة فجأة بطريقة يكتنفها بعض الغموض سنة ١٩٠٢

بعد أن كان قد نشر كتابيه المشار اليهما سابقا[١٥٨].

كتب الكواكبي في مطلع القرن العشرين في مرحلة من تاريخ الدولة العثمانية كانت الغلبة فيها لا تزال في يد العناصر الليبرالية الاسلامية التي كانت تحاول جاهدة أن تبقي على وحدة الدولة والتخفيف من تعنت الحكم الفردي . إلا أنه بمرور الوقت بدأت الفكرة القومية في تركيا نفسها تكتسب المزيد من تأييد المثقفين الاتراك . وتعاظم اثر الاتجاهات التي نظرت إلى الامبراطورية لا على اساس الجامعة الدينية ، حيث تتساوى فيها جميع القوميات ، وإنما على أساس أن للعنصر التركي الاولوية على غيره من الشعوب التي انتمت للامبراطورية . وحين استلمت جمعية تركيا الفتاة والاتحاديون سنة ١٩٠٨ الحكم اخذت تطبق بقسوة وشدة سياسة المركزية متخطية بذلك الحقوق التاريخية المكتسبة لشعوب الولايات العربية . كما اخذت السلطة المركزية منذ ذلك الوقت تروج لفكرة التفوق التركي على حساب القوميات الاخرى . كان لهذا التحول السياسي والفكري الخطير اثر في تراكم عوامل الفرقة بين ابناء الاقاليم العربية من ناحية والعنصر التركي من ناحية أخرى ، كما أنه شجع اعيان العرب والعاملين منهم في الادارة العثمانية في أن يفكروا باتخاذ اجراءات تكفل لهم حقوقهم الاجتماعية والسياسية على نطاق واسع . وهكذا بدأت تتشكل من هذه الفئة المتنفذه وابنائها من الشباب المثقف وبعض الموظفين العرب في الادارة والجيش جمعيات سرية تعمل في الخفاء وتتدارس الاوضاع من كل جوانبها وبخاصة علاقة ولاياتهم بالدولة المركزية .

لم يكن هدف هذه الجمعيات في بادىء الامر الدعوة لفصل الاجزاء العربية من الامبراطورية عن اسطنبول ، وإنما كان همها الاول أن تحفظ للعرب حقوقهم ضمن حدود الدولة العثمانية . ولكن اشتداد سيطرة الترك دفعت العرب إلى أن يسمعوا اصواتهم للعالم وأن يتعاونوا مع قوى خارجية سعيا وراء الحفاظ على مصالحهم . وهكذا فان عددا من الاعيان العرب تداعوا لعقد مؤتمر يحددون فيه مطالبهم في ظروف دولية كانت فيها الدول الغربية، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وروسيا تعد الخطط لتقسيم الدولة العثمانية ، وبتشجيع من فرنسا تم عقد المؤتمر في باريس في منتصف ١٩١٣ ، وعرف باسم المؤتمر العربي الاول . حضر المؤتمر عدد من ابناء الجالية العربية المقيمين في فرنسا . كما حضره وفود ممثلة اعيان اهل الشام ومدنها الرئيسية

كدمشق وحلب وبيروت وحماه ونابلس والقدس .

جاء في مستهل خطاب رئيس المؤتمر الصحفي المعروف انذاك عبد الحميد الزهراوي أحد ابناء عائلات حماه ، أن اول من فكر في عقد المؤتمر (شباب مقيمون في باريس مؤقتا وكلهم من أسر محترمة شهيرة في بلاد مختلفة من سوريا) (١٥٩) . واشار إلى أن السبب في ذلك يعود إلى ادراك ابناء الشرق بأن الوقت قد حان كما هو الحال في الغرب لمناقشة حكومتهم في المسائل السياسية والاجتماعية ، خاصة بعد أن تركت المسائل السياسية فترة طويلة للترك ووصل الحال إلى ما هو عليه . واضاف بأنه وجب حينئذ أن يشارك العرب الترك في العمل السياسي . وورد في الدعوة للمؤتمر بأن من واجب العرب مصارحة (الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وأن حياتنا اقدس حق من حقوقنا وأن العرب شركاء في هذه المملكة ، شركاء في الحربية ، شركاء في الادارة ، شركاء في السياسة ، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء انفسهم) .

وفي مقابلة صحفية لاحد اعضاء المؤتمر اشار العضو إلى الخصوصية بقوله (إن لهذا العنصر العربي ميزة بين العناصر الاخرى بوحدة لغته وعاداته ومصالحه وميوله ، وإن هذه الخصائص والصفات احدثت له حقوقا كانت مهملة حتى الساعة . ولذلك قمنا نطالب بصفتنا عثمانيين ، أن نشترك بالادارة العامة وأن نعرض على الحكومة بصفتنا عربا مطالب خاصة بقوميتنا وحالاتنا) . في كلام عضو المؤتمر هذا نجد بداية لتعريف الاسس التي تقوم عليها الامة العربية ، وتعدادا للعناصر المكونة لها . كما نستشف صراحة من كلام عضو آخر ينتمي إلى اعرق العائلات البيروتية في حديثه عن حقوق العرب القومية ، إذ اجاب عن سؤال هل للعرب حق الجماعة بقوله : (إن الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت ، على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات . وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المطمح السياسي . فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة اغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي . فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم على رأي كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة) .

إلا أن اعضاء المؤتمر رغم قناعتهم الاكيدة بهذا الوجود العربي المتميز استمروا

على تعلقهم بالدولة العثمانية . ولكن هذا التعلق لم يكن تعلقا بالرابطة الدينية ، كما كان الحال مع الكواكبي فقد كان نصف اعضاء المؤتمر مسيحيين . وذلك لايمانهم أن ارتقاء العرب لن يتم إلا في نطاق الدولة العثمانية . وفي هذا الصدد اشار احد اعضاء المؤتمر إلى (أن الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية . فنحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لاجل الرابطة الدينية بل رغبة منا في ايجاد موضوع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل يقف في طريقه ، واملا بقيام حكومة رشيدة تكون لنا المشاركة في امورها . والدولة العثمانية هي التي تقدر أن تحقق رغباتنا إذا هي عملت بلوازم الاصلاح الذي نحن مصرون على طلبه) . وقد اكد عضو الوفد البيروتي الشيخ احمد طبارة على ذلك بقوله ، (فنحن قوم ولدتنا امهاتنا عثمانيين ونشأنا عثمانيين ونريد أن نبقى عثمانيين ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلا . .) ولكنه اضاف (فالواجب على حكومة المركز أن تبادر إلى الاصلاح الجدي على قاعدة الاشتراك بالحكم وعلى طريقة اللامركزية كل ولاية بحسب استعدادها وحاجياتها ، فهو خير لها وابقى) .

أن وقائع المؤتمر وكلمات الاعضاء تنقل لنا صورة واضحة عما كان يجول في خواطر ابناء الاعيان وعائلاتهم في ذلك الحين . من الواضح اولا ، أن اتجاها علمانيا بدأ يتسرب إلى اذهانهم من جراء احتكاكهم بالغرب وبأقرانهم من الليبراليين الاتراك رغم استمرار تعلقهم بالدولة العثمانية . .

ومن الواضح ثانيا ، وجود قناعة لديهم بأن العرب يمثلون جماعة متميزة عن غيرها من العناصر القومية . يضاف إلى ذلك ، ثالثا ، تأكيد المؤتمرين على ضرورة المشاركة السياسية بين العرب و الاتراك . هذا وكان من جملة مقررات المؤتمر أن تقوم الدولة باقرار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

لم يكن المؤتمر العربي في باريس التعبير الوحيد لطبقة الاعيان عن طموحاتها السياسية . فقد تكونت في تلك الفترة جمعية العربية الفتاة التي ضمت إلى صفوفها عددا من مشاهير عائلات المشرق العربي وقد شارك بعضهم في المؤتمر العربي . وتشكلت ايضا جمعية العهد التي كان معظم اعضائها من الضباط العراقيين العاملين في الجيش العثماني . وقد قامت هاتان الجمعيتان قبل الحرب العالمية الاولى بنشاطات

واسعة في صفوف الجيش وموظفي الحكومة داعية إلى تصحيح اوضاع الدولة واعلاء شأن العرب فيها . على أنه ما أن اندلعت الحرب حتى تطورت الدعوة باتجاه قطع العلاقات بالترك والعمل على انشاء دولة عربية موحدة . وخلال الحرب اتخذ اعضاء هاتين الجمعيتين الخطوات اللازمة لتوحيد نشاطها وانضموا إلى الثورة العربية في الحجاز ممهدين لذلك بفرار عدد من الضباط إلى مصر للالتحاق بقوات الشريف حسين فيما بعد . وكان من ألمع هؤلاء الضباط الملازم الاول محمد شريف الفاروقي الذي قام بابلاغ الانجليز عن دور الجمعيات العربية السرّية واهدافها . كما اكد لممثلي الحكومة البريطانية في القاهرة تبني تلك الجمعيات للمبادىء الاتية :

١ ـ توضع معاهدة صداقة مع بريطانيا انطلاقا من المصالح المشتركة بين العرب وبريطانيا .

٢ ـ أن يؤسس نظام الحكم في الولايات العربية على مبدأ اللامركزية في الادارة ، وإن يكون لكل من هذه الولايات حكومة خاصة بها تصلح لها على أن تنشأ حكومة مركزية تعتبر مقاماً للخلافة .

٣ ـ أن يكون الشريف حسين امير مكة والحجاز خليفة وسلطانا على الدولة الجديدة .

٤ ـ أن الخليفة رغم كونه يمثل السلطة العليا في الدولة الجديدة ، إلا أن اساسها لن يكون مبنيا على الجامعة الدينية وإنما على الرابطة القومية . فالدول التي تنتمي إلى الرابطة ليست دولاً اسلامية وإنما دول عربية .

٥ ـ أن العرب من المسيحيين والدروز والنصيرية سيكون لهم نفس حقوق الاكثرية المسلمة وأما اليهود فسيكون لهم احكامهم الخاصة[١٦٠] .

ردد الفاروقي في شرحه لاهداف الضباط العرب نفس تلك المطالب التي كان يسعى إلى تحقيقها اعضاء المؤتمر العربي ولكنه اضاف إليها عاملا مهما جديدا ، إذ أنه بوقوع الحرب تخلى عرب المشرق عن مبدأ اصلاح الدولة العثمانية ، واتخذوا عوضا عنه طريق الاستقلال العربي بعيدا عن الاتراك واتجهوا لاقامة دولة عربية موّحدة يكون لها شرف الدعوة للخلافة . مثل هذا التعديل الخطير في رأي أعيان المشرق العربي جاء

نتيجـة لعدد من الامـور كان اكثـرها اثـرا وقوع الحـرب العالميـة . إذ أن هذه الحـرب وضعت العـرب عند مفتـرق طرق فـاما أن يستمـر ارتباطهم بـالدولـة العثمانيـة أو أن ينتهزوا الفرصة ويتعاونـوا مع الـدول الكبرى الاوروبيـة من اجل أن يحققـوا اسقلالهم القومي . ونظرا لأن العرب كانوا حتى قبل وقوع الحرب قد تهيأوا نفسيا وسياسيا لاتخاذ موقف لا يقبل المساومة حـول حقوقهم الاقليميـة ، فان ظـروف الحرب واشتـداد وطأة التـرك عليهم ابانها ادت بهم لأن يحـزموا امـرهم ويصـرفـوا جهـودهم في العمـل عـلى تقويض اركان الدولة العثمانية . [إن تـوجه العـرب اثناء الحـرب لاقامة دولة عـربية مستقلة لم يكن إلا اعترافا منهم بأن ظروف المجتمع الدولي قد تغيرت بشكل حاسم لا يسمح بعودة الدولة العثمانية إلى سابق عهدهـا] . كان تصـرفهم تصرف من يعتـرف بالامر الواقع . وهكذا اسقط العرب بعد نشوب الحرب شعار المشاركة ، وبـذلوا كـل جهودهم لتكوين دولتهم . وبهذا ارتبط مفهوم الجماعة القـومية عنـدهم بمفهوم الـدولة الموحدة . اكتسبت بذلك القومية العربية ابعادها الكـاملة تمامـا كالقـوميات الاوروبيـة حيث اصبح مفهوم الدولة ـ القومية يمثل قوة الدفع الرئيسية للفكر والعمل السياسي في المنطقة العربية .

مرة اخرى لا بد من الاشارة إلى أن التزام الشريعة العليا في المجتمعات العربيـة وقطاع واسع من مثقفي بلاد المشرق العربي بالفكر القومي لم يكن نتيجة اعجاب برأي غـربي له رونق خـاص او ردة فعل للغـزو الاوروبي . بل عـلى العكس فـان الـدلائـل التاريخية في تلك المرحلة تؤكد بأن الدول الاوروبية شجعت العرب ، وخاصة باقتراب اندلاع الحرب العـالمية الاولى ، عـلى الالتزام بـالرابـطة القوميـة والتخلي عن الجـامعة الاسلامية ، على أنه لا بد من الاستدراك بالقول إن دور العـرب اقتصر عـلى التشجيع والمساندة ، ولكن قبول التيار القومي والتحمس له والعمل الدائب على ترجمته إلى واقع تعيشه الامّة العربية جـاء مرتبـطا بتطور الاوضـاع الاقتصاديـة والطمـوحات السيـاسية لطبقة الاعيان الصاعدة في مرحلة كانت الدولـة العثمانيـة فيها تحـاول فرض سيـطرتها عليهـم . وهكـذا فإن العـرب لم يجدوا بـدا من الانتقـال تـدريجيـا من المـطالبـة بتثبيت استقلالهم الذاتي إلى الدعوة إلى اقامة دولتهم القومية . وأما عنصر العلمنـة الذي جـاء ممزوجا مع التيار الفكري القومي ، فقد برز في ذلك الوقت لا حبا بالابتعاد عن الدين أو شغفا بالتشبه بالغرب ، وإنما بحكم الامـر الواقـع الذي لا قـدرة على عكسـه ، ألا وهـو انهيار الدولة العثمانية والرابطة الدينية ابان الحرب وما بعدها حتى اعلان الحكومة

التركية بقيادة مصطفى كمال سنة ١٩٢٤ تخليها عن الخلافة رسميا .

في ظل هذه الظروف ، والمخاض الذي كانت تعانيه الولايات العربية كانت الدول الكبرى ترسم الخطوط العريضة لتقسيم العالم العربي وتوزيعه فيما بينها ، وكان الاهتمام البريطاني ومن بعده الاميركي يتعلق بفلسطين حيث أن بريطانيا كانت تجد لزاما لمصالحها أن تظل قريبة من قناة السويس ومن قواتها في مصر ، ومن هذا المنطلق مَهدت بريطانيا لليهودية العالمية المسرح اللازم لتلعب دورها .

لقد دخلت اليهودية العالمية الحرب العالمية الأولى كما دخلته الكاثوليكية العالمية . وكما اندفع البافاريون لقتال الفرنسيين اخوانهم في المذهب الديني ، كذلك تطوع اليهود للقتال في كل البلاد المتحاربة ومن ضمنها روسيا التي حسنت معاملتها لليهود بعد عام ١٩١٤ بصورة ملحوظة . وإذا كان يهود العالم غير متحدين فان الصهيونية العالمية اختارت ، كالبابا ، حيادا يقظا .

كانت هناك ، كما في كل العلاقات البشرية ، عقبات خفية . فالمعاهدة الالمانية التركية لم تعط اليهود فرصة لذكر فلسطين ، على الاقل ورحى الحرب دائرة . بيد أن مساعي الالمان في القسطنطينية ساعدت على ضمان معاملة للمستوطنين الالمان في فلسطين افضل من تلك التي كان يلقاها اليهود الروس . لذلك تناست إلى حين اللجنة المركزية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية عن فلسطين ، ودعت إلى تأسيس مجتمعات يهودية مستقلة في المناطق المحرره ، رأت فيها منطلقا إلى فلسطين لا تعويضا منها كما اراد هيرتزل في حالة قبرص أو اوغندا . وحين تربح المانيا الحرب ستضغط على تركيا لاقرار الحقوق اليهودية في استيطان فلسطين .

في الوقت نفسه لعب اليهود دورا مغايرا مع الحلفاء حتى إذا انتصر هؤلاء يكون لهم في ذمتهم وعدا ، وبالفعل هزمت المانيا في الحرب وانهارت تركيا . وكما سبق أن ضمنت بريطانيا للعرب الاستقلال في منطقة تضم فلسطين ولكنها لم تنفذ ، وكذلك ذكرت نقاط الرئيس الاميركي ولسون الاربع عشرة (٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩١٧) في النقطة الثانية عشرة ، ما يلي : « أن القوميات الاخرى التي هي الان تحت الحكم التركي يجب أن يضمن لها امن على الحياة لا شك فيه ، وفرصة مطلقة مصونة لتطوير الاستقلال الذاتي » . [وإذا كان تقرير المصير يعني شيئا فقد عنى أن للاكثرية العربية

في فلسطين حق ثابت في تقرير مصير بلدها] . ومن هـذا المنطلق اعـطي اليهود وعـد بلفور .

ولم يكن الغموض في الرسالة ـ الوثيقة التي نفذت فيها بعد نتيجة اهمال أو كتابة بيروقراطية فانه لم تلق كلمات قليلة في التاريخ العناية التي لقيها هذا التصريح .

الواقع أن الصهيونيين كتبوا تصريحهم الخـاص ، وهذا يضفي بعض المـرارة على الجملة الاخيـرة من « الوعـد » إلى مستر لـويس برانـديز ، مستشـار الـرئيس ولسـون الخـاص ، الذي كـان منـذ عـام ١٩١٣ صهيـونيـا نشـطا ، ومنـذ عـام ١٩١٦ رئيسـا للمحكمة العليا . بعد أن وافق برانديز على المسودة قدمها لـورد روتشيلد إلى بلفور في ١٨ حـزيران (يـوليـو) ١٩١٧ . لم تـرد في هـذه المسـودة اشـارة إلى سكـان فلسـطين الاصليـين ، وقـد اعتبـرت فلسـطين « الـوطن القـومي » لا « وطنـا قـوميـا » للشعب اليهـودي ، وقد منحت اليهـود في فلسطين استقـلالا داخليا كـما منحت اليهود حـريـة الهجرة ، وتأسيس شركة استعمار قومية يهوديـة لاستيطان البلد وتنميتـه الاقتصاديـة . لكن بسبب اعتراض بعض اليهود(١٦١) ـ لوسيان رولف ، لكـود مونتيفيـوري ، وسير تيوناتان ، لا بسبب اعتراض العرب ، اعيدت كتابة المسودة .

اقـرت المسودة التي اعيـدت كتابتهـا في اميـركـا ثـانيـة ، وقبلت فيهـا الحكـومـة البريطانية مبدأ اعادة انشاء فلسطين الوطـن القـومي للشعب اليهـودي ، وبذل اقصى الجهد لتحقيق هذا الهدف ، وأن تبحث مع المنظمة الصهيونية الطرق والوسائل اللازمة لذلك . وقـد قاوم سـير ادوين مونتـاج هذه المسـودة باعتيـاره وزيراً للتمـوين الحربي في حكومة الهند البريطانية .

وفي ١٤ تشرين الاول (اوكتوبـر) عام ١٩١٧ ابحـر السير مـونتاج إلى الشـرق ليبـدأ اصلاحـات جديـدة في الوقت الـذي اشتد فيـه الضغط الاميركي عـلى اعصاب بريطانيا ، فصدرت المسودة التي اقرها الرئيس ولسون بالنص الذي تقدم . وقد ادخل اصلاح واحد في اللحظة الاخيرة ، إذ وردت خطأ عبارة « للعنصـر اليهودي » فغيـرت حالا وارجعت إلى « الشعب اليهودي » .

وكـان لنشر التصريح نتائج محرجة لبريطانيا في الشرق الاوسط تمـاما كـما كانت

نتائج نشر معاهدة سايكس ـ بيكـو . وقد حـاول عملاؤ هـا اخفاء الخبـر عن الشريف حسين واولاده .

وحين لفت الالمان في دمشق نظرهم إلى التصريح (كما فعل الروس بـالنسبة إلى اتفاقية سايكس ـ بيكو) بواسطة مبعوثين سرّيين عبثا حاول المسؤ ولون البريـطانيون أن التصريح عنى اقل مما اورد فيـه ، وذلك بـأن اليهود سيسمـح لهم باستيـطان ارض غير مستعملة ، وأن الحقوق السياسية داخلة في الحقوق المدنية والدينية التي حافظ التصريح عليها . ولكن عبارة « الطوائف غير اليهـودية في فلسـطين » كانت اكـثر شيء مؤ سف لأن اساءتها للعرب تشبه تماما أن يقـال عن الانجليز البـروتستنت انهم « الطوائف غـير الرومانية الكاثوليكية في انكلترا»(١٦٢) .

نسفت ثقة العرب بالتفسيرات البريطانية بعد نشر اتفاقية سايكس ـ بيكـو ووعد بلفـور حيث لم يبق لبريـطانيا اصـدقـاء من العـرب بـل عمـلاء فقط . وكـانت اسـرة الشريف حسين متورطة في تأييد بريطانيا إلى حد يمنعها من التراجع ، وإن كان فيصل قد فكر لحظة في قبول شـروط تركيـا لصلح شريف . ولكن العـرب والمسلمين في كـل مكان الذين حذروا اخوانهم قبول الذين احتلوا الجـزائر وتـونس وليبيا والمغـرب ومصر محـررين لهم لم يفعلوا شيئا يـومها ، وإن كـان الشك قـد ساور الاكثـرية السـاحقة من العرب ، وسبب ذلك فيما بعد متـاعب لبريـطانيا أمـا احفاد الحسـين ومؤ يدوه فقـد اظهروا اخفاقا رهيبا .

التفت الحسين إلى الانجليز يستوضحهم الامر فجاءه الرد بمـذكرة وفـزع العرب من وعد بلفور فجاءهم رسول بريطاني بعد سلسلة من الرسائل اكد لهم شفويا أن هذا الوعد لا يمس حقوق العرب السياسية والاقتصـادية . والحقيقـة أن اتفاقيـة سايكس ـ بيكو ووعد بلفور كانتا مدبرتان من وضع السياسـة البريـطانية في الشـرق الادنى ، فقد كان الهجوم الالماني التركي على قناة السويس مدعاة تفكير البريطانيـين حيث انتهوا إلى أن شـواطىء البحـر الاحمـر غـير كـافيـة لحفظ القنـاة ، وأن فلسـطين نقـطة ارتكـاز استـراتيجية ـ حـربية مهمـة للقنـاة ، فـلا بـد من اتخـاذ وسيلة لجعلهـا تحت الحمـايـة البريطانية ، فكانت هذه الوسيلة هي « ادعاء الصهيونية لها » .

وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق في فرنسا اللورد (برتيس) : أن الخطط

المؤدية إلى تكوين دولة يهودية في فلسطين قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراي من جهة اخرى في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩١٥ ، ولكن هذا الاتفاق لم ينشر ، وقد كان ادعاء الصهيونية للوطن القومي وسيلة لابعاد فرنسا التي تدعي أن لها حقا في فلسطين . وبذل اليهود جهودا جبارة اتخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقتنعت به فرنسا في ٩ شباط ـ فبراير عام ١٩١٨ . واقتنعت ايطاليا في ٨ آذار ـ مارس عام ١٩١٨ ، واقتنعت اميركا في ٣١ آب ـ اغسطس عام ١٩١٨ . ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا ودافعوا ودخلوا الحرب ونشروا من الكتب والاقتراحات في الكتاب الابيض وغيره فليعلموا أن الخطة موضوعة عام ١٩١٥ إلى أن خرج الانجليز من الانتداب فسلمت فلسطين إلى اليهود وشردوا العرب في العراء واغتصبت حقوقهم . وقد عضدت بريطانيا وصديقتها اميركا اليهود في تكوين دولتهم ، ونسيتا ما جاء في تصريح ولسون وعهود بريطانيا واعلان حقوق الانسان . وليعلم العرب أن اليهود لن يخرجوا من فلسطين إلا بالقوة ووضع الخطط المحكمة في الاقتصاد والسياسة والتعبئة المدججة) .

على اثر اتفاقية سايكس ـ بيكو وتصريح بلفور تألفت لجنة مكونة من سبعة اعضاء من احرار العرب فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها ويطلبون تحديد ما جرى بين الشريف حسين ومكماهون فجاءهم الرد بما يأتي : ـ

نص العهد البريطاني للسوريين السبعة .

١ ـ أن حكومة جلالة الملك ترغب في أن تكون عامة الشعوب التي تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيها بعد.وعليها الحكومة التي ترغب فيها .

٢ ـ أن بعض البلاد العربية أما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الان وهو استقلال اعترفت به انكلترا اعترافا تاما ، وهذا يكون شأنها ايضا مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الان حتى نهاية الحرب .

٣ ـ أن سائر البلاد العربية هي الان خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء ، فحكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل احياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلبا ناجحا وهي تعد بكل مساعدة لمن يسعى في ازالتها

ومستعدة لأن تنظر في أي خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفي ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذي من اجله حاربت فرنسا وبريطانيا في الشرق وهذا نصّه :

ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق ،تلك الحرب التي اهاجتها مطامع الالمان انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريرا تاما نهائيا ، واقامة حكومات وادارات تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختيارا حرا . ولقد اجمعت فرنسا وانكلترا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سوريا والعراق المنطقتين اللتين ، اتم الحلفاء تحريرهما وفي الاراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلا وليس من غرض لفرنسا وانكلترا أن تنزلا اهالي هذه المناطق إلى الحكم الذي تريدانه ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون انفسهم ، وأن تضمنا عدلا منزها يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية•تلك الاغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة (١٦٣) .

الفصل الثاني

زمن الثورات

من عرابي إلى سعد زغلول :

يقع هيكل جانوس القديم ذو البوابه المقدسة عند الطرف الشمالي الشرقي من السوق الرومانية ، وللإله الذي يؤويه هذا الهيكل عارضان متناقضان أحدهما يواجه الشرق والآخر يواجه الغرب . كان هذا الهيكل يغلق في وجه المتعبدين في أيام السلم ، ولذلك لم يغلق خلال سبعة قرون ونصف قرن قبل ولادة المسيح سوى أربع مرات .

وحتى أوائل هذا العصر كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها فيما كان يعرف بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، وما دعاه الغرب بالشرق الأوسط ، ولكن روح المنطقة كانت لا تزال تبدو في اتجاهين .

ورغم أن بريطانيا خرجت منتصرة في الحرب العالمية الأولى بفضل مساعدة الثورة العربية لها فإنها خرجت ضعيفة وقلقة على قناة السويس شريان حياة امبراطورية كانت الشمس لا تغيب عنها . وكي تحمي الطريق المؤدي إليها بذلت جهدها لوضع فلسطين تحت سيطرتها . وبما أن مصر على الجانب الآخر من القناة فقد كانت بريطانيا لا تستطيع التخلي عنها . لكن عالم ما بعد الحرب عاد ، في الوقت نفسه ، لا يستطيع تقبّل الاستعمار ، لذلك جاء مصطلح « الانتداب » الذى أطلق على المناطق التي استولت عليها بريطانيا وفرنسا عبارة ملطفة للاستعمار ، علماً بأن مصر لم تكن مستعمرة ولا تحت الانتداب ، بل محمية .

كـان قد مضى عـلى الاحتلال البـريطاني لمصـر نحو تسـع سنوات عنـدما ظهـر مصطفى كامل في ميدان الجهاد الوطني سنة ١٨٩٠ . تسع سنوات من اليأس والقنـوط والاستسلام من جانب مصـر ، كما كـانت عهد طغيـان وجبروت من جـانب الاحتلال البريطاني .

فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الاخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت في حالة الأمة المعنوية تأثيراً سيئاً ، لأن اخفاق الثورات في ذاته يبعث اليأس في النفـوس ، هذا إلى أن الخاتمة التي انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هي مظهر بأرز لخيبـة الأمل في الثورات ، إذ أن الثورة قامت من أجل حصول البلاد على حـريتها السيـاسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية ، ثم بفقـدان الاستقلال الـذي كانت تتمتـع به من قبـل ، فقلما يـوجـد من الثـورات مـا انتهت بخيبـة الأمـل مثلما انتهت بـه الثـورة العرابية .

في هذه الأجواء ظهر مصطفى كامل ليبعث في الأمـة روحاً جـديدة أعـطته بحق لقب موحد الحركة الوطنية لاممثلها ونائبها[١٦٤] . .

وفي السنوات التسع شهدت مصر التواء السياسة البريطانية ، ونقضها مواعيدها في الجلاء وشهدت جمود الدول الأوروبية ازاء المسألة المصرية وتركتها بريـطانيا تعبث مـا تشاء باستقلال مصر وحقوقها ، وشهـدت تهدم صـرح الامبراطـورية المصـرية الـواسعة الارجاء التي أسستها في السودان ، وشهدت الغاء الجيش المصري وتأليف جيش هزيـل مكانه قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، وشهدت النفوذ البريطاني يتغلغـل في شؤ ون الحكومة ، وشهدت الغاء الـدستور الـذي نالتـه سنة ١٨٨٢ ، ثم شهـدت فوق ذلـك استسلام رجالات مصر لارادة العميد البريطاني .

كان الخديوي توفيق مذعناً للسيطرة البريـطانية لا يـرد للحاكم البـريطاني اللورد كـرومر طلبـاً ، وقد أضفى عـلى الأداة الحكوميـة روح الاستسـلام لارادة الانجليـز ، واللو رد كرومر هو صاحب الأمر والنهي في كل الشؤ ون .

وكـان الرجـال البـارزون أمـا منـزوين في دواوين الحكـومـة ، متـربصـين عـلى المناصب ، وأما منصرفين لأعمالهم الخاصة ، ومن هؤلاء سعد زغلول الذي تولى قيادة الحركة الوطنية فيما بعد (١٩١٩) ، فقد كان سعد ممن آثر المنصب الحكومي على الحياة

الحرة . تعين سنة ١٨٩٢ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وأقر لزملائه المحامين في حفلة تكريم لـه أنه اختار القضاء « ليستريح بعد العناء »[١٦٥] ففي هذا الوقت بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد في سبيل مصر واستقلالها فأنشأ « اللواء » سنة ١٩٠٠ وكانت مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية الصادقة ، واستمر يناضل في صحف أوروبا وأميركا إلى أن جاءت سنة ١٩٠٤ عندما وقعت العهد المعروف « بالاتفاق التودي » بين فرنسا وانجلترا ، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطاني في مصر ، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر في نفوس كبراء مصر وعظمائها ، ورجالها المعدودين ، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في مسألة الاحتلال ، الانضواء تحت لوائه ، واكتساب رضا الانجليز ، ولكن مصطفى كامل خالفهم واستمر في نضاله ، منادياً بالجلاء . وتجلت وطنيته في روعتها حين عظمت هموم الوطن ، حيث ضاعف جهوده وصمد للعقبات والعراقيل ، وبتأثير وطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة وحب الحرية والاستقلال ، ودرجوا على الأمل والحياة ، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة ، وأهمها تأسيس نادي المدارس العليا سنة ١٩٠٦ إذ اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة ، وتشبعت بتعاليم مصطفى كامل المثقفة من الأمة ، ومن هذه الطبقة سعد زغلول كما سنرى ، ثم جاءت حادثة دنشواي (١٩٠٦) التي مات فيها ضابط بريطاني بفعل ضربة شمس ، وكان ثمن ذلك اعدام أربعة من أهالي القرية وسجن ثمانية منهم ، الأمر الذي أثار الرأي العام العالمي ، وقد جاءت هذه الحادثة كفرصة ليزيد فيها مصطفى كامل حملته على الاحتلال وسياسته نشرت تعاليمه بين صفوف الشعب كافة ، الأمر الذي ساعد على انشاء جريدتين يوميتين (١٩٠٧) أحدهما بالفرنسية (لي ثندار أجبسيان) وأخرى بالانكليزية (ذي أجيبشان استاندارد) تدافعان عن حقوق مصر في العالم الأوروبي إلى جانب (اللواء) في العالم الشرقي .. . ونتيجة لهذا الجهد تأثرت صحته ومات عن ٣٤ سنة عام ١٩٠٨ .

إن الروح التي بعثها مصطفى كامل في مصر هي التي صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية ، وهي التي مهدت السبيل لثورة ١٩١٩ التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية . لقد ذهب الكثيرون مذاهب عدة في مصطفى كامل كرائد للحركة الوطنية المعاصرة حتى أن سجالاً دام عدة أشهر بين الأستاذ عباس محمود العقاد والدكتورة بنت الشاطىء عبر جريدتي « الأخبار »

و « الأهرام » في الستينات ، ولم يتوقف هذا السجال إلا بتدخل الرئيس جمال عبدالناصر .

« إن مصر بعد وفاة مصطفى كامل كانت تذوب شوقاً إلى الثورة » هذه العبارة لكرومر « حاكم » مصر الحقيقي آنذاك . صحيح أن اللورد الانجليزي لم يكن شاعراً ، بل سفاحاً ومع ذلك وجد الوصف الحقيقي لما كانت تعاني منه مصر ، بل والعالم العربي .

مصر التي تذوب شوقاً إلى الثورة كانت تتطلع إلى زعيم يقودها عبر محنتها ليكسر حاجزي الألم والخوف ويمنحها الشعور بالقدرة على فعل شيء ، لكن مصر كانت كعادتها دوماً كائناً بالغ التعقيد في تكوينه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي . . . وكانت مواصفات الزعيم المطلوب هي أيضاً ، وبالضرورة بالغة التعقيد .

مصري صميم جذوره فلاحية مثل جماهير مصر . يرفض الاحتلال . أزهري الانتماء ، عُلماني المعرفة .

. . . وتمضي مصر بصبرها المعروف لتنسج من خيوط الأحداث المتعاقبة الزعيم الذي تريد . . . وكان ذلك النجم الساطع في سماء مصر القاضي العادل سعد زغلول الذي وقف إلى جانب تحرير المرأة مع قاسم أمين الذي أهداه كتابه ، ومع مصطفى كامل في دعوته لاستقلال مصر ، وإلى جانب دعاة انشاء الجامعة المصرية .

لقد كان سعد « مشروع زعيم » يخوض ميدان الاهتمام بكل ما هو عام ، ويجذب نحوه أبصار كل القوى والعناصر التي تتطلع بشكل أو بآخر لخدمة الوطن .

ولم يكن ذلك بعيداً عن ملاحظة اللورد كرومر فقرر أن يلتقط « مشروع الزعيم » ربما في محاولة لاحتوائه وربما في محاولة للاستفادة من نفوذه وشعبيته للتغطية على نتائج جريمة دنشواي . وعلى أية حال كان الاختيار نقطة تحول هامة في تاريخ العلاقات المصرية ـ البريطانية ، ويؤكد ذلك أن « قفزة » سعد زغلول نحو الوزارة كانت اضافة ضرورية لمشروع الزعيم المرتقب . وإذا كانت ممارسات سعد في الوزارة عام ١٩١٢ قد أضعفت عملية صناعة الزعيم كما قال البعض ، فقد كان خروجه منها بداية حقيقية لتكريس زعامته . كانت لاستقالة بداية جديدة وضعت سعد زغلول على عتبات طريق الزعامة الحقة وكرسته وبحق كزعيم لنهضة مصر المستقبل ، لأنه عندما

دخل ميدان الانتخابات حقق نجاحاً كبيراً الهمه أن ثمة قوى يمكن أن تسانده حقاً . . هي قوى الجماهير .

ومن هنا اكتملت ومن خلال معاناة طويلة وتعرجات عدة عملية تكوين وانضاج زعيم يقود الثورة التي كانت مصر تذوب شوقاً إليها .

لقد كان البريطانيون يشعرون بهذا المخاض ومع ذلك شكلت عدة لجان (١٩١٧) لوضع خطط متكاملة تكفل استمرار الاحتلال البريطاني لمصر[١٦٦] ولم يكن هؤلاء ولا حتى سعد نفسه يقدر حقيقة ما تختزن مصر من طاقات ثورية فقد كان يسعى لا لتحريك شعب بلاده للنضال وإنما لوساطة من أميركا لدى بريطانيا .

على أن السؤال المهم هو كيف بدأت أحداث ثورة ١٩١٩ ؟ وما هو دور سعد فيها ؟

لقد انفجرت الثورة من فكرة ارسال وفد مصري إلى مؤتمر الصلح للمطالبة بحقوق مصر . « لقد خطرت ببالنا بعدما صرح الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة بمبادئه الأربعة عشر المشهورة في ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩١٨ . . وقد دفعنا ذلك إلى التكلم في أول الأمر مع المرحوم محمد سعيد باشا فاقترح علينا أن نتكلم فيها مع المرحوم سعدزغلول باشا لشخصيته البارزة في الهيئة الاجتماعية وفي الجمعية التشريعية فاستصوبنا هذا الرأي . . وبعد ذلك لم يبلغنا خبر من سعد باشا ولكن سعيد باشا أبلغنا أنه سمع أن سعد باشا ساع في المشروع واقترح علينا أن نتوجه إلى القاهرة لمقابلته وكان قد بلغنا خبر بأن سعد باشا يريد الانفراد بالمسألة »[١٦٧] . وهناك رأي يقول إن الظروف الموضوعية وطبيعة الموجة الثورية التي كانت توشك أن تجتاح مصر هي التي فرضت سعد وليس الأمير طوسون .

من هنا بدأت أولى خطوات نزع الفتيل من القنبلة الموقوتة بعد أن وقعت الجماهير العرائض لتفويض سعد في السعي لتحقيق الاستقلال . وبذلك صنعت مصر ذلك الزعيم الذي اعتبر من أكثر زعماء مصر الحديثة شعبية ونفوذاً . وقد عزز سعد زعامته باللجوء المباشر والحاسم إلى الجماهير بمطالبته بتوكيلها له . وكان الرد مظاهرات طلابية خرجت وكانت المفجر الفعلي للثورة ، ثم أضرب عمال الترام ، ثم كانت القاهرة كلها في حالة اضراب شامل دام من ١٣ مارس (أذار) وحتى ٢ مايو

(أيار) . . . كانت ثورة لم يتوقعها أحد ، ولم يعدّ لها أحد ، وإنما تفجرت في وجدان شعب بأسره ، شعب يعرف كيف ينضج ثورته على مهل ، دون أن يشعر بها أحد ، ولا حتى زعاماته .

لقد فوّض الشعب سعداً ليكون متحدثاً باسمه لنيل الاستقلال . ولكن هذا لم يعجب البريطانيين الذين سارعوا لاعتقال سعد وارساله مع أعضاء الوفد المفاوض إلى المنفى في مالطا لعدة أسابيع اضطرت بريطانيا نتيجة للضغط الشعبي أن تطلق سراحه ليذهب إلى باريس لتأليب الرأي العام ضد بريطانيا ثم سافر إلى بريطانيا نفسها للتفاوض على عقد معاهدة ، وكانت النتيجة أن اعتقل سعد مرّة أخرى لينفى إلى جزر سيشل ثم إلى جبل طارق ، ولم يطلق سراحه إلا عام ١٩٢٣ فعاد إلى مصر ليتوج زعيماً للبلاد ، وليعمل من خلال المحافل النيابية والوزارية في سبيل استقلال بلاده إلى أعلى المراتب .

وعندما توفي زعيم حزب الوفد سعد وغلول عام ١٩٢٧ توقف قلب مصر كلها عن الخفقان ، وخرجت الجموع حزينة في مواكب جنائزية حار الجميع في تفسير ضخامتها(١٦٨) .

وترثيه جريدة « التايمز » اللندنية قائلة : « ليس بين الثائرين المتطرفين في التاريخ إلا عدد قليل بقيت له عقيدته السياسية في شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكن سعد بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عندما ناهز الستين (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) ، وكأنما كان تقدمه في السن يزيد من حماسة الشباب فيه » .

ويصف صحافي بريطاني يدعى بويل ما كانت عليه مصر وما آلت إليه بعد سعد فيقول : إنه كان في مقهى عام عندما وقعت مشاجرة صرخ أحدهم خلالها قائلاً : « بوليس ، يا بوليس ، . . كرومر ساعدني يا كرومر » ! وكان الرجل قد ضربه أفراد احدى العصابات وإذ ذكر كرومرّ الذي كان حاكماً لمصر تقدم رجل آخر وضربه وقال « قل ، « يا ابن الكلب » ، ساعدني يا سعد ، كرومر مات وحل سعد محله » .

ولم يكن سعد بقوة كرومر غير المقيدة ، ولم يكن جندياً مثل عرابي ولا شاباً متأنقاً كمصطفى كامل بل كان فلاحاً وباشا وابن بلد .

لقد أظهرت الحرب العالمية الأولى وهو بعيد عن الأضواء مدى قوة القومية بين

الشباب المصريين . كانت هزيمة عرابي قد أخضعت معاصريه ، ولكن الجيل الجديد الذي أثاره مصطفى كامل كان يتمتع بحرية التصرف ، ولذا تمكن من أن يرفع ليكون أوسع شهرة من أتاتورك في تركيا . أيده الاقباط والمسلمون ، الأغنياء والفقراء ، أبناء المدن وأبناء الريف ، ولكنه لم يتحكم في مصر بالطريقة التي تحكم بها أتاتورك في الأناضول . فاته ادراك الاستقلال السياسي الكلي الذي سعى له ، وإذا افتقر إلى حرية العمل التي ضمنها أتاتورك باطاحته بالسلطان فالخليفة وطرده اليونان الغزاة ، لم يستطع الاهتمام بالمشكلات العميقة التي طالب بها الشعب المصري وهي :

- جعل الأجرة اليومية ١٥ قرشاً .
- أن تقدم الشركة الملابس للعمال مجاناً .
- يوم العمل ثماني ساعات فقط .
- علاوة غلاء ٢٠٪ .
- منح كل عام راتب شهر[١٦٩] .

وكل ما حققته ثورة سعد جاء نوعاً من الاستقلال المصري ، وبأسرع ما كان منتغراً ، منحة من بريطانيا التي أعلنت من جانب واحد انهاء الحماية والاعتراف بمصر مملكة مستقلة ذات سيادة .

وكان للمانح امتياز استرجاع منحته متى شاء ، فقد أحبطت منحة الاستقلال :

أولاً : تتولى بريطانيا الدفاع عن قناة السويس والاشراف عليها . وقد مكنها ذلك من اطالة احتلالها الجزئي لمصر إلى مدة غير محددة . ذلك بأن الدفاع عن الممر المائي يقتضي وجود جيش بريطاني ، ووجود الجيش يعني استمرار امكان التدخل في الشؤون المصرية .

ثانياً : تعهدت بالدفاع عن مصر ، وبذلك حوّل الجيش المصري إلى كتائب مساعدة للجيش الأجنبي .

ثالثاً : نصبت بريطانيا نفسها حامية للأقليات في مصر . وهذا علاوة على القائها الشك على نوايا مصر الحسنة نحو المسيحيين والأقليات الأخرى يهيىء مبرراً آخر للتدخل .

رابعاً : وهو الشرط الأشد خطراً ، احتفظت بريطانيا لنفسها بالسيطرة على السودان ، المنطقة الجغرافية الواسعة التي تتحكم بمنابع النيل التي دونها تهلك مصر .

قاوم سعد هذه القيود على السيادة المصرية خلال السنوات الخمس (١٩٢٢) التي بقيت من عمره ، ولكن دعم الشعب المصري الحماسي له لم يكف لاحراز النصر . ولا ريب أن « الوفد » ، حزب سعد ، قد فاز في كل انتخاب جرى في البرلمان خلال الحياة البرلمانية التي دامت ثلاثين عاماً منذ عام ١٩٢٢ ، بيد أن بقاء الوفد في الحكم لم يتوقف على الفوز في الانتخابات وحده بل على رغبة القصر والسفارة البريطانية . إن مكالمة تلفونية أحياناً أو همسة كانت تطيح بالوزارة . وفي احدى الحالات دخلت الدبابات البريطانية قصر عابدين وعلى رأسها السفير البريطاني لتجبر الملك على تغيير الوزارة .

لقد أقيم لسعد زغلول بعد موته تمثالان واحد في الاسكندرية يواجه البحر الأبيض المتوسط والآخر في القاهرة أمام نادي الجزيرة وبين مجرى النيل الصغير والكبير ، تطل فيهما من عينيه المنغوليتين كآبة وخيبة أمل . كانت خيبة الأمل شخصية لأن البريطانيين لم يسمحوا بعد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ بعودته إلى رئاسة الوزراء على الرغم من تأييد الأكثرية البرلمانية له ، وكانت وطنيته أيضاً لأنه تكهن بأن اتباعه سيرثون عجزه لا سحره . إن الفضل الذي يصيب الطرف غير المستعمل سيهاجم حزبه ، حزب « الوفد » .

حين تسلم المصريون بعد ذلك مصيرهم بأيديهم ، أهملوا برلمانيي العشرينات ، ورجعوا بأنظارهم إلى الجندي الذي تصدى للخديوي في حادث عابدين الأول . إن عرابياً ثانياً، لا سعد زغلول ثانياً ، يستطيع أن يحرز لمصر استقلالها ويحطم الطبقة الأجنبية التي حكمتها طويلاً ، وأن يفعل ذلك على حساب خبرة ديمقراطية دامت جيلاً ، وكما في حالة عرابي تحت خطر الحرب .

لقد شعر المصريون بعد وفاة سعد أنهم أصيبوا بخيبة أمل أيضاً عبروا عنها بروح النكتة المصرية المخنوقة وهم يتناقلون حتى الآن عن لسان سعد وهو يقول لزوجته في آخر لحظات حياته : « غطّيني يا صفية ما فيش فايدة » .

لولا ثورة ١٩١٩ في مصر لما ثارت الهند . . . هذه العبارة للمهاتما غاندي الذي

قاد ثورة سلمية ضد البريطانيين في الهند .

لكن بذور الوعي القومي في مصر تعود في أصالتها إلى الحملة الفرنسية التي وطئت الأرض عام ١٧٩٨ ، عندما بدأ نابليون في تنفيذ سياسته التي سطرها في منشوره العربي الذي أذاعه بين الشعب ، وجاء فيه : « أنه جاء ليخلصهم من عسف المماليك وظلمهم ، ويعيد إلى السلطان سيادته التي حطمها المماليك ، الذين طالما استبدوا بمصر وخيراتها ، وظلموا أهلها ، وظلموا التجار الفرنسيين . فقد جاءت ساعة الانتقام منهم » .

لكن المصريين وجدوا وأحسوا أن للحملة الفرنسية أهدافاً أبعد من ذلك منها اثارة النعرة الطائفية في المجتمع المصري وايثار الأجانب على غيرهم ، ثم برزت الدوافع الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي ترجمت على الأرض حين أخذ الفرنسيون ينكلون بكل من يعارض سياستهم ويحكمون بالاعدام اضافة إلى فرض الغرامات الباهظة . وعندما أحس الفرنسيون بظهور بوادر الوعي أخذوا في التنكيل بكل من يشتبهون فيه من الأهالي ، ويفرضون الغرامات ويحكمون بالاعدام . ومن هنا بدأت نواة الثورة تكبر بتغذية من صغار المشايخ من مجاوري الأزهر الذين انضم إليهم « فتوات الحرف » حتى نودي بالثورة من مآذن المساجد .

وهكذا كان مجيء الحملة الفرنسية فرصة جعلت المصريين ينتبهون إلى حقوقهم ، لكن بعد خروج الفرنسيين اضطر الانجليز إلى الرحيل من بعدهم إلى أن زال أثر التدخل الأجنبي في تطور الحوادث الداخلية في مصر ، ولكن ظهر عامل جديد كان له أثره في تطورات الحوادث وهو عامل القوة الشعبية الذي برز في زحف عرابي ، وسعد زغلول (ثورة ١٩١٩ وحزب الوفد) وثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، وعلى الصعيد الخارجي الثورة العربية ، وبعد ذلك كله الثورات في كل البلاد العربية وخاصة ثورة العراق عام ١٩٢٠ .

إن أية انطلاقة من حقيقة وواقع ثورة العشرين في العراق تقودنا إلى القول : بأن هذه الثورة هي جزء من « الثورة العربية الكبرى » فضلاً عن كونها جزءاً لا يتجزأ من « الثورات التحررية الوطنية » التي انفجرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، نتيجة طبيعية لـ « أحوال ما بعد الحرب »[١٧٠] .

من هنا تتعانق ثورة مصر وثورة العراق .

ا لجذور التاريخية لثورة مصر تمتد إلى الثورة العرابية ؛ وكذلك فإن جذور الثورة العراقيّة تصل إلى عام ١٩٣٢ حيث نشبت في بغداد نيران ثورة بقيادة عبدالغني جميل التي لم يعطها المؤرخون حقها ، بل وجار البعض عليها حين اعتبرها البعض عصياناً ضد الوالي العثماني[١٧١] والتي قررت أن ينفض أهل العراق أيديهم من الولاة العثمانيين ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وأن يكون لأهل العراق رأيهم في الوالي الذي يتولى أمرهم ، بل وأن يكون من بينهم[١٧٢] وقد استطاع جميل بثورته هذه ، أن يشعل أرض بغداد حمماً تحت أقدام جيش علي رضا باشا والي بغداد حينذاك . (وسرعان ما تحولت بغداد إلى شعلة من النار ففر رجال علي رصا من وجه الشعب الثائر واعتصموا بالقلعة)[١٧٣] وما كانت عوامل فشل هذه الثورة أقوى من دواعي نجاحها ، كان الاخفاق لها بالمرصاد كما طعن قبلاً الثورة العرابية في الصميم .

بالرغم من أن الثورتين المصرية والعراقية كانتا تهدفان إلى ازالة الاحتلال البريطاني ، وبالرغم من اسبقية احتلال مصر لاحتلال العراق بثلث قرن ، إلا أن نوعية الاحتلال تفاوتت بين البلدين . ففي مصر بقي الخديوي ومجلس النظار السلطة السياسية الرسمية الحاكمة في ظل الاحتلال كما ظل ممثل انجلترا في مصر كبقية ممثلي الدول الأجنبية يحمل فقط لقب القنصل العام[١٧٤] والمعتمد البريطاني . في حين أنه ما أن اتمت سلطات الاحتلال السيطرة الكلية على العراق بعد الهدنة الانجليزية ـ التركية في العام ١٩١٨ حتى بدأت بادارته بصورة مباشرة بعد أن كلل احتلالها العسكري والسياسي البلاد بكل ثقلها ووزرها .

وبينما انتهت منافسة فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر (١٩٠٤) كنتيجة لمساومة استعمارية بينها وبين انجلترا على حساب المغرب ومصر حيث تركت انجلترا فرنسا طليقة اليد في المغرب في مقابل أن تكون انجلترا طليقة اليد في مصر[١٧٥] فإن زوال المنافسة لم يتم إلا بعد عام ١٩١٦ ، حيث توصلت الدولتان إلى عقد اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية ، فاحتفظت فرنسا بالسيطرة على ولاية الموصل ، بينما اختصت انجلترا بحكم ولايتي بغداد والبصرة ، إذ أن انجلترا التي تأكدت من طوفان ولاية الموصل على بحيرة من النفط ، استطاعت باحابيلها أن تجمد هذه الاتفاقية حتى مؤتمري سان ريمو في عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، حينما تنازلت فرنسا على حكم ولاية الموصل إلى انجلترا على

أن تعطى ٢٣,٧٥٪ من نفط العراق . بهذه الكيفية تم « الوفاق الودي » بين هاتين الدولتين ، وبهذلك تمت سيطرة انجلترا على العراق ، كما سيطرت من قبل على مصر .

وكما استقطبت الحركة الوطنية حول حزبي البورجوازية . حزب « الأمة » والحزب « الوطني » استقطبت الحركة الوطنية حول حزبي البورجوازية في العراق . حزب « العهد العراقي » وحزب « حرس الاستقلال » اليساريين الثوريين أو المتطرفين كما سموا وقتذاك[١٧٦] . اما في مجال دور الحزبين اليمينيين المصري والعراقي ، فبينما انفرد الأول في قيادة ثورة ١٩١٩ ، بعد تصفية الحزب الثوري ، استطاع الثاني قيادة الثورة في مرحلتي « التحريك والحركة » بمنطقة غربي دجلة من شمال العراق فقط ، وكان ذلك بتأثير من فرعه في الموصل الذي كان أكثر ثورية ويسارية من مركز الحزب في الشام ، ولذا اختلف في سياسة المركز[١٧٧] واضافة لهذا فإن إسهاماته في الثورة لا تنكر .

من ناحية ثانية فإن الحزبين الثوريين المصري والعراقي ، يتشابهان في تلقي ضربات التصفية ، ولكن إن صفي الحزب الأول أو كاد ، فإن الحزب الآخر نجا ، كما استطاع قسم من أعضائه وقيادته الاشتراك في الثورة العسكرية في مناطق مختلفة من العراق ، فضلاً عن دوره القيادي في الثورة السياسية والفكرية قبيل تلقيه سهام التصفية .

مرحلتا « التحريك والحركة » . هاتان المرحلتان تتباينان وتتشابهان . فالتباين - من حيث التسلسل الزمني - في أن الثورة في مرحلة التحريك في مصر تتقابل مع مرحلة الحركة في العراق بينما الثورة في مرحلة الحركة بمصر تتفق مع مرحلة التحريك في العراق ، وسبب عدم التناظر بين مرحلتي التحريك والحركة في الثورتين متأت من وقوع الثورة العسكرية في مصر قبل الثورة السياسية . حيث بدأت الأولى في مارس (آذار) من عام ١٩١٩ ، بينما الثانية لم تبدأ إلا بعد هذه الفترة ، وأثر الثورة العسكرية في الأرياف ، في حين أن الثورة السياسية في العراق سبقت الثورة العسكرية أي لم تقم الثانية إلا بشهر يونيو (حزيران) ١٩٢٠ ، وبعد الأولى بطبيعة الحال .

اما التشابه فناتج عن اختصاص المدن في كلا البلدين بمرحلة التحريك بينما أضحت مرحلة الحركة من نصيب الأرياف .

ويكاد يُفتقد بلد عربي واحد لم يناضل ضد الاستعمار والحصول على الاستقلال ، لكن بعض « المناضلين » كقادة لا كأفراد كان همهم تبديل استعمار قديم باستعمار الجديد ، فشهداء ٦ أيار (مايو) الذين أعدمهم جمال باشا في لبنان عام ١٩٠٦ كانوا بمعظمهم يريدون أن تحل فرنسا مكان تركيا[١٧٨] وحركة رشيد عالي الكيلاني كان الهدف منها احلال النفوذ الالماني مكان النفوذ البريطاني في العراق[١٧٩] وأن الملك عبدالله ملك الأردن الذي ساعده الانجليز للحصول على عرش الأردن بدلاً من عرش العراق قد ساعد الانجليز في محاربة حركة الكيلاني ، كما ساعدهم في صراعهم مع حكومة فيشي في سوريا[١٨٠] وعندما قامت « ثورة » الأمير عبدالكريم الخطابي ، وهي ضد اسبانيا التي كانت تمثل شمال المغرب (١٩٢١ - ١٩٢٦) منحته فرنسا لقب « أمير » وكانت الأسلحة والذخائر تنقل إليه علناً (من الجهات الفرنسية) . وقد سرت فرنسا لقيام الثورة هناك أولاً ، لكن بعد سنة ١٩٢٤ أعانت القوات الفرنسية القوات الاسبانية ، وانتهى الأمر بالخطابي إلى الاستسلام بعد أن أخذت فرنسا تعهداً من اسبانيا بالاستيلاء على كل المغرب[١٨١] وقبل هؤلاء الأمير عبدالقادر الجزائري الذي جاء إلى بلاد الشام لمساعدة فرنسا في تطويق حرب الجبل اللبناني عام ١٨٦٠ كما سبق وذكرنا ، وسنرى أن مرحلة الانقلابات العسكرية في المنطقة قد كان بعضها على هذا النسق بدءاً من انقلاب حسني الزعيم في سوريا .

هناك بالطبع ثورة عز الدين القسام في سوريا وبعد ذلك في فلسطين ، وثورة عمر المختار في ليبيا التي امتدت سنوات وثورة محمد عبدالله حسن في الصومال التي امتدت من ١٨٩٩ إلى عام ١٩٢٠ حيث أمر رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل بقصف معاقل الثورة بالطائرات الحربية ، وثورة محمود حربي في جيبوتي الذي أسقط الفرنسيون طائرته المدنية عام ١٩٤٩[١٨٢] .

ومع ذلك كانت هذه الحركات وقوداً للحالة الانتقالية في الوطن العربي ، بين الخلاص من تركيا وبداية الاستعمار الفعلي الأوروبي مروراً بالحربين العالميتين الأولى والثانية التي انتهى العالم العربي بعد ذلك كله إلى زرع الكيان الصهيوني في فلسطين ، ومن ثم إلى مرحلة الاستقلال الفعلي .

وكان لبنان البلد الأكثر معاناة من ويلات الحرب العالمية الأولى نتيجة للصراع الأوروبي على اجتذابه ومع ذلك كان أول دولة عربية له دستوره الخاص واستقلاله ،

ومن ثم الجلاء الفرنسي عن أرضه . وجاءت الحرب العالمية الثانية والصراع الفرنسي البريطاني على أرضه ليحسم بالاستقلال لصالحه بعد أن أصبح « لبنان الكبير » كما سنرى . وكان الوضع مختلفاً في سوريا التي شهدت الثورة العربية الكبرى التي ساعدت الحلفاء على انتصارهم ، وثورة القسام الأولى ، والثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) في جبل الدروز التي فرضت مجتمعة على الفرنسيين قبول تشكيل « الكتلة الوطنية» برئاسة ابراهيم هنانو وهاشم الأتاسي ، وإن كانت لم توافق إلا على دستور مقيد لسوريا إلا أن « الكتلة » انتزعت معاهدة ١٩٣٦ من باريس وفازت في الانتخابات النيابية بنفس مستوى انتصار « حزب الوفد » في مصر . وكما عطلت بريطانيا مسيرة « الوفد » بزعامة سعد زغلول في مصر ، عطلت فرنسا مسيرة « الكتلة » في سوريا بعد أن رفض البرلمان الفرنسي الموافقة على الانتخابات السورية . وجاءت الحرب العالمية الثانية لتعطل فرنسا الحياة البرلمانية وتعود لتحكم بالبطش رغم أن الجنرال كاترو قد أعلن استقلال سوريا ولبنان عام ١٩٤١ ، ولكن فرنسا لم تعترف باستقلال لبنان إلا عام ١٩٤٣ وباستقلال سوريا عام ١٩٤٦ .

والصورة مختلفة في بقية دول وبلاد بر الشام . فالأردن الذي كان تابعاً لسوريا في عهد الأتراك ، وتعهدته بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، قدم إليه « الأمير » عبدالله شقيق الملك فيصل ليتسلم عرشه بعد أن كان الانجليز قد وعدوه بعرش العراق ، ولكن العرش الجديد الذي رتبه البريطانيون على النسق القائم في لندن فقد كان يحكمه الكولونيل فريدريك بيك ، ومؤسسة الشرطة اليدوية باغوث غلوب باشا ، والمقيم البريطاني هنري كوكس ، وقد تغيرت هيكلية الحكم عندما أمر الملك عبدالله بالاشتراك في مقاومة حركة الكيلاني في العراق ، وحكومة فيشي في دمشق ، وعندما عملت بريطانيا بكل طاقاتها ليكون الملك القائد العام للحرب في فلسطين عام ١٩٤٨ وإن كان القائد الفعلي لهذه الحرب غلوب باشا . ورغم أن الأردن قد نال استقلاله عام ١٩٤٦ إلا أن القيادات القديمة ظلت مكانها .

وكما حدث في الأردن حدث في العراق الذي انتدبت عليه بريطانيا التي استقبلت بثورة ضدها ، لكن الاستفتاء الشعبي عام ١٩٢٠ جاء بفيصل بن الحسين ملكاً عليها بعد أن أخرج من سوريا ليتوج عام ١٩٢١ . وقد كبل البريطانيون العراقيين بمعاهدة عام ١٩٢٢ ، وهي في الحقيقة صورة مزورة للانتداب .

وفي المخطط البريطاني بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو لتقسيم العالم العربي انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين الذي عبر عنه وعد بلفور ووافقت على الوعد فرنسا وايطاليا ، ودخل في صميم صك الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم عام ١٩٢٢ ، وتوج ذلك كله بتعيين مندوب بريطاني هو هربرت صموئيل في فلسطين ، وهو أحد أقطاب الصهيونية . ورغم أن الصحف والمجلات العربية كانت تحذر منذ نهاية القرن الماضي من التخطيط لقيام دولة اسرائيل بما تنشره من وقائع وأحداث وأرقام إلا أن كل شيء قد مضى وما رسم له رغم اضطرابات ١٩٢٩ بسبب قضية حائط البراق ، وثورة القسام (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وحركة مقاومة التقسيم (١٩٣٧ ـ ١٩٤٧) الذي أقرته الأمم المتحدة .

اما بقية العالم العربي فقد كان غارقاً في هموم من نوع آخر مع مستعمريه ، فالملك عبدالعزيز مؤسس السعودية غارق في تحرير شبه الجزيرة العربية من آل الرشيد التي انتهت عام ١٩٣٢ ، وعمان غارقة في حروب داخلية ، تحت مظلة الاستعمار البريطاني ، والكويت واقعة تحت تفاعلات الضغط التركي في محاولة السيطرة على الخليج ، وهي في الوقت نفسه تحت ضغط الوجود البريطاني وكذلك الحال في امارات الخليج . اما البحرين وقطر فكانتا تحت ضغط المظاهرات القومية المطالبة بالخلاص من الاستعمار البريطاني والمعاهدات الثنائية معها . وحال هذه البلاد مع بريطانيا مثل حالة شيوخ القبائل وسلاطين المناطق الواقعة إلى الشرق من عدن ، وعدن مستعمرة بريطانية مثل العراق على كتف الخليج ، اما شمال اليمن ففي ظل حكم الامام يحيى حميدالدين الذي أغلق أبواب اليمن على أهلها كأنه خارج العالم ، وكل ما فعله أن حاول انتزاع اعتراف دول العالم به لا ببلاده ، لذا عقد اتفاقيات صداقة مع العراق والسعودية وأثيوبيا ، وكان أول عقد اتفاقية مع الاتحاد السوفياتي للغرض نفسه عام ١٩٢٨ .

وتبقى الصومال وجيبوتي التي هي أصلاً أرضاً صومالية تاريخياً ، فبعد احتلال ايطاليا للجزء الجنوبي من الصومال واجتياحها لأثيوبيا وارتيريا واعلان موسيليني قيام افريقيا الايطالية الشمالية التفت العالم إلى هذه البلاد ، وبعد هزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية أعطيت هذه الأرض من قبل الأمم المتحدة لبريطانيا لادارتها عام ١٩٤١ وتعطي بريطانيا اقليم أوغادين (الصومال الغربي) لأثيوبيا ، بينما تعيد الأمم المتحدة

لايطاليا عام ١٩٤٩ الصومال لادارته مدة ١٠ سنوات .

لقد كبل الاستعمار الغربي دول المشرق الغربي والمغرب العربي بمعاهدات أو اتفاقات والهدف النهائي من ذلك استعمار هذه البقعة واستغلال خيراتها ، والاستفادة من موقعها الاستراتيجي في طريق التجارة الدولية ، وعوضاً عن أن تفي الدول الغربية بعهودها في توحيد العالم العربي اتفقت فيما بينها على تقاسمها ، فبعد اتفاق فرنسا وبريطانيا دخلت اسبانيا لتحتل منطقة شمال المغرب مقابل اطلاق يد فرنسا في بقية البلاد ، وكذلك تقاسمت بريطانيا ليبيا مع ايطاليا مقابل اطلاق يد فرنسا في موريتانيا التي احتلتها عام ١٩٢٠ وتونس والجزائر ، وقد واجهت هذه الدول مقاومة عنيفة من أبناء البلاد الشرعيين ، ولكن الاستعمار على كافة أشكاله كان يجد الوسائل لقمع هذه الثورات عن طريق عملائه ، أو اثارة النعرات والحساسيات الاجتماعية والطائفية ليغطي تصرفاته ويلهي المجتمعات ببعضها البعض كما حدث في العراق والمغرب والصومال وجيبوتي واليمن بشطريها ولبنان وسوريا والسودان ، ولم تتمكن هذه « الثورات » من التحرر بقوتها الذاتية إلا في الجزائر التي نالت استقلالها عن طريق حرب التحرير الشعبية (١٩٥٦ ـ ١٩٦٢) اشتركت فيها كل البلاد .

لقد انشغلت البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى بازالة أثار ما خلفته تركيا . ثم وجدت هذه الدول نفسها تحت وطأة استعمار من نوع جديد أخطر وأمر من الاستعمار القديم خاصة وأنه رغم استغلال ثروات هذه البلاد عمل على تقسيمها إلى دول في حين كانت الرغبة جامحة في تحقيق الوحدة العربية الشاملة .

وكانت الحرب العالمية الثانية عبئاً جديداً على هذه البلاد ، خاصة في ليبيا ومصر وسوريا ولبنان علماً بأن لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي استفاد من الصراع الفرنسي ـ الانجليزي سواء من هزيمة فرنسا في هذه الحرب وانقسامها بين فيشي وديغولي ، أو من الزحف البريطاني من فلسطين إلى لبنان .

لقد استغل الزعماء اللبنانيون هذه التناقضات ، ودعوا إلى انتخابات لبنانية كانت نتائجها لصالح الموالين للانجليز ، وقد سارع هؤلاء الزعماء لانتخاب رئيس للجمهورية وتشكيل حكومة استقلالية ، إلا أن المندوب السامي البريطاني سارع لاعتقال أركان الدولة وايداعهم السجن ، ولكن الضغوطات المحلية والدولية حالت

دون استمرار عملية الاعتقال ، ونال لبنان استقلاله عام ١٩٤٣ وانسحبت الجيوش الفرنسية منه عام ١٩٤٦ وهو العام الذي نالت فيه سوريا استقلالها .

والعبء الآخر وليس الأخير على العرب العمل الأوروبي - الأميركي على قيام دولة اسرائيل في قلب العالم العربي ، وبهذه النكبة التي فرضت على المنطقة بعد أقل من نصف قرن على تحللهم من تركيا ، وبروز الاستعمار الجديد فوق أرضهم تركزت الاهتمامات في الدول العربية المحيطة بفلسطين على معالجة هذه المعضلة الشائكة التي لو لم توجدها بريطانيا وفرنسا بالصورة العلنية على الأقل لاخترعتها الولايات المتحدة التي بدأ يظهر رأسها بين الرؤوس البارزة في المنطقة بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية .

كانت الولايات المتحدة التي حرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية هي الوجه الجديد للاستعمار البديل ، وقد رتبت لاستعمارها الخطط الجديدة المختلفة عن الأسلوب الأوروبي بعد أن أسهمت بانتصارها في تحطيم دول أوروبية كبرى منها ما كان معادياً في تلك الحرب مثل المانيا وايطاليا ، أو مناصراً لها لكن الهزيمة قد لحقت به مثل فرنسا ، ومنها سن كان مناصراً لها ولكنه خرج ضعيفاً من تلك الحرب مثل بريطانيا .

لقد ساعد الحلفاء صوريا دولة أوروبية مثل فرنسا على أن تقف على قدميها فوق أرضها ، كما ساعدوا بريطانيا على أن تلملم مستعمراتها المنتشرة لتقوية ضعفها الذي ظهر بعد الحرب، ولكن الحليفين القويين اللذين خرجا من الحرب العالمية الثانية منتصرين رسما الخرائط التي بموجبها يمكن أن يرثا المستعمرات الأوروبية القديمة في العالم العربي، وغيره في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية، ويقلما أظافر أوروبا الشرقية والغربية المنتصرة والمهزومة وإلى جانبها اليابان ليرثا العالم أو يتقاسمانه أو يتحاربان في سبيله .

ومن جوانب هذا المخطط إعادة تنظيم عصبة الأمم التي أصبحت فيما بعد الأمم المتحدة والتي قامت بعد تأسيسها في نهاية الحرب بالدور الأول في تصفية الاستعمار الأوروبي لصالح الولايات المتحدة التي وضعت نظام الأمم المتحدة لتسيطر عليه وعليها. وقد استقلت بالفعل معظم الدول العربية والافريقيه نتيجة قرارات الأمم المتحدة وفقا للرغبة والاستراتيجية الاميركية، وكانت قوة القرار للضغط الاميركي وليس لقوة الأمم المتحدة بدليل أن كل القرارات التي وافقت عليها الأمم المتحدة قد

نفذت في حينه، ولم ينفذ أي قرار عارضته الولايات المتحدة فيها بعد.

لقد منحت عصبة الأمم ومن بعدها الأمم المتحدة الدول الاستعمارية حق الانتداب أو الاستعمار بالمعنى العملي للعديد من الدول الاوروبية، ثم سحبت الأمم المتحدة بضغط من الولايات المتحدة البساط من تحت اقدام الدول المستعمرة لتجبرها على اعطاء الاستقلال وكان يفترض أن تنال الدول العربية استقلالها بعد نهاية تلك الحرب، ولكن لا الولايات المتحدة الاميركية ولا الاتحاد السوفياتي كانا قادرين وهما منهكين على استيعاب تلك المستعمرات، ولذلك تدرجت المسألة الاستقلالية في العالم العربي إلى ما بعد نهاية حرب السويس عام ١٩٥٦. بعدما حاولت فرنسا وبريطانيا واسرائيل تركيز اقدامها في العالم العربي بواسطة الحرب ضد مصر، ومن أجل قناة السويس، وعندما شعرت الولايات المتحدة بخطورة اللعبة طلبت سحب الجيوش المتحلقة حول السويس إلى مواقعها بواسطة الأمم المتحدة وبتأييد من الاتحاد السوفياتي لأول مرة وربما لآخر مرة أيضا(١٨٣).

لقد انتدبت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لادارة عدد من الدول العربية ومنها فلسطين، وقد انتهى انتداب العديد من الدول العربية بناء على قرارات الأمم المتحدة باستثناء فلسطين التي خرج منها الانتداب البريطاني ليسلمها إلى الصهيونية العالمية.

كانت الولايات المتحدة الاميركية، حتى وهي تلملم آثار الحرب تعمل على وراثة الاستعمار الغربي، ومن هنا علينا أن نفهم مسار التطورات التي حدثت فوق الخارطة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي بعد دخول العنصر الجديد على المنطقة بأساليبه الجديدة التي أصبحت تركيا وبعض الدول الاوروبية من ضمن هذا المحور.

لقد طورت الولايات المتحدة الاسلوب الاستعماري القديم باللجوء إلى عنصر مهم في الحياة الاجتماعية، وهو الجيوش في هذه الانظمة المنهكة التي كانت ولا تزال تعاني من «أمراض» راسخة في طليعتها القضية الفلسطينية. وما لم تستطع الولايات المتحدة أن تحققه لمصالحها عن طريق قرارات الأمم المتحدة لجأت إلى العسكر ومن أولويات مصالحها خاصة في المواقع الاستراتيجية الهامة بالنسبة إليها، وكانت مصر وفلسطين وسوريا في طليعة اهتماماتها.

التجزئة العربيّة

لعبة الاستعمار

كان الهدف الأساسي للغزو الاستعماري لديار الامبراطورية العثمانية الاستيلاء على تركتها ، والحلول مكانها، ليس بهدف تقويتها أو تقوية بعض عناصرها كما توهم بعض الزعماء العرب ، بل بهدف تصغيرها واضعافها كي لا تتمكن من الوقوف على الاقدام ، ولذلك صنعوا العالم العربي في مشرقه ومغربه على شاكلة قصر من الورق الركيك في العشرينات ولم يأخذوا بعين الاعتبار تطلعات سكان هذه البلاد الأصليين ، وبنتيجة ذلك بات هذا العالم العربي أسير حالة من التمزق الاجتماعي اتخذ شكلا من الحرب الأهلية الفعلية في بلدان مثل لبنان والعراق والسودان واليمن . . .

ويعيش القسم الاكبر من العرب (١٢٥ مليونا) من أصل ٢٠٠ مليون في افريقيا ، وفي مصر اكثرية من المسلمين (٥٠ ـ ٥٥) واقلية من الاقباط (١٠ مليون) ، وجميع دول المغرب العربي خليط من السكان العرب وغير العرب يجمعهم الاسلام .

وتعاظم نمو الاسلام هدد وحدة المغرب الغربي منذ مجيء الاستعمار إلى المنطقة وكذلك السودان ، ومصر . وإن حالة البلدان العربية في المشرق العربي على هذه الصورة ، ولم يكن الأمر كذلك من « العصر التركي » ، ففي العراق على سبيل المثال ، وبتحريض من الانتداب البريطاني قام الآشوريون بحركة انفصالية اخمدت عام

١٩٣٣ ، والقبائل في الفرات بشكل خاص ثارت واخمدت حركتها (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) وكان للأكراد حركات تتصف بالانفصال . وفي العراق قامت حركة انقلابية في العالم العربي على يد بكر صدقي الذي تولى الأمر إلى صيف ١٩٣٧ حين اغتيل هو أيضا ، وكثيرا ما تكررت حركة الاكراد في زمن الانتداب وبعده ، وهذا لم يكن ليحدث من قبل في أي قطر عربي ، وخاصة في العراق .

وقد ورث العالم العربي هذه الامراض الفتاكة بعد استقلاله ، فجميع الدول العربية الآن لديها جيوش قوية ، ولكن لدى هذه الجيوش التجزئة العرقية ، كما هو واضح في لبنان ، وكذلك النقص الكبير في الاستقرار وعملية التقهقر السريع ، وإذا أضفنا الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها هذه البلدان يظهر لنا أن هذه المنطقة هي الآن بنيان هش عاجز في هذه اللحظات عن مواجهة مشكلات بهذه الدقة في هذا العالم الكبير والمضطرب ، فهناك عمليا بعض المجموعات الغنية في مواجهة طبقة واسعة من الفقراء ، متوسط دخل الفرد منهم ٣٥٠ دولارا ، وهذا هو الحال في غالبية بلدان دول المغرب . في مصر مثلا هو اكثر دراماتيكية ، فهناك بعض الناس يموتون جوعا ، ونسبة عالية منهم يعيش بدون عمل وبدون سكن في منطقة هي الاكثر كثافة سكانية في العالم .

انطلاقا من هذا الواقع لا يمكن الحديث عن « قطر عربي » أو « أمة عربية » كمشروع أنجز أو كمشروع قيد الانجاز ، وفي تصورنا اليوم في أية مرحلة من مراحل التاريخ العربي الاسلامي . فلا يمكن أن نعتبر مثلا ، وكما يفعل البعض ، أن الصراع بين العرب والشعوبيين هو صراع بين الأمة العربية والأمم الأخرى .

كذلك لا يمكن اعتبار بعض الحركات الاستقلالية في العهد العثماني التي قادها ولاة وأمراء محليون حركات قومية عربية . إن ما كان يسمى بها هو تركيب التحالفات التي تشكلت منها الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية .

وهي تحالفات تمتد من الارستقراطية التركية إلى الارستقراطيات العربية المحلية وفق هرم اجتماعي يعتمد على ما يلي : السلطان ، الولاة ، الأجهزة السلطوية المحية وهي عبارة عن قبائل أو عائلات قوية تقطع أراضي معينة ، وتكون مهمتها ضبط

الأمن ، تمثيل السلطة المركزية أو الوالي في المناطق ، ادارة أراضي الميري - جمع الضرائب حماية التجارة وطرق المواصلات . . الخ تلك كانت مهمة الأمير في جبل لبنان(١٨٤) وشيوخ القبائل والعائلات في الجزيرة العربية وفي العراق وبعض أنحاء سوريا . ومع شيء من الخصوصية مهمة الثري والباي والباشا في شمال افريقيا . . اذن العوامل التي كانت تسمح باستقلالية عن السلطان العثماني من قبل الأمير المحلي أو الوالي ، أو الباشا هي ذاتها العوامل القديمة التي كانت تسمح بانفصال المناطق أو استقلالها عن بغداد بقيادة ولاة أو عمال أو أسرة حاكمة محلية . وهي عوامل لا تمت بصلة إلى القومية العربية بما هي مشروع سياسي يستهدف بناء دولة عربية موحدة . إن مؤسسات الدولة العثمانية - هي مؤسسات عربية اسلامية موروثة كانت في أساس قيام المنازعات على صعيد القبائل والعائلات والولاة والسلطان أيضاً . وكانت تكسب هذه المنازعات احياناً (كحركة فخر الدين وحركة ظاهر العمر) طابعاً معاديا للاتراك ولكن لا طابعاً عربياً قومياً(١٨٥) .

إن المشروع الوحدوي الذي يذهب باتجاه تكوّن (أمة عربية) واحدة مشروع ابرزته إلى حيز الوجود في وجدان الجماهير العربية وايديولوجية منفذيها المعركة المعادية للاستعمار (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) . ولم يتحدد المشروع وفق هذه الصيغة الا بعد خوض أشكال من النضالات المتعددة بعد الهجمة الاستعمارية التي استهدفت تفتيت الدولة العثمانية ، رفعت في البداية الاسلحة الايدلوجية والسياسية التالية : الوحدة الاسلامية ، الوطن العثماني ، اصلاح الدولة العثمانية وتقويتها . تلك كانت المواقف الايدلوجية والسياسية للقوى الاجتماعية التي شكلت عبر مواقعها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية السياسية مواقع صدام مع العرب والمستعمر . كان ذلك بالذات موقف المسلمين في الشرق العربي من ملاكين وتجار ومجموعات حرفية منتشرة في المدن ذات الطابع التاريخي الاسلامي (دمشق ، طرابلس ، حمص ، حماة ، نابلس . . . الخ) هذا الموقف الذي رأى في التغلغل الاستعماري عبر شتى أشكاله الاقتصادية والثقافية والتكتيكية خطرا على رزق أصحابه واسلامهم (الاسلام هنا بما هو حضارة وقيم وانتماء سياسي واجتماعي) رأى في نفس الوقت في وحدة الدولة العثمانية ملجأ حماية ودفاع ومقاومة (شكيب ارسلان ، ورشيد رضا . . . الخ) .

أما بالنسبة للداخل السوري ، فقد جرب الجنرال غورو تنفيذ مشاريع تقسيمية (تماما كما تحاول اسرائيل الأن) تعتمد على خصوصيات الطوائف الدينية : دولة سنية في دمشق ، دولة علوية في الشمال ، دولة درزية في حوران ، ادارة خاصة في الاسكندرون . . لكن ما لبث هذا المشروع أن فشل أمام الوحدة الاقتصادية للمناطق وكانت هذه الوحدة تفرضها المصالح الاقتصادية الفرنسية نفسها التي تمتد من (قمح) حوران حتى (قطن) شمال سوريا . لكن بقيت دولة لبنان الكبير تحتفظ بدور خاص ، بوابة اقتصادية لسوريا وعازل سياسي لامتداد الحركة القومية العربية كما ارادها الاستعمار الفرنسي .

وفي العراق كان البريطانيون يعدون مؤامره من نوع اخر ، فالعراق بلد لا يضم مجتمعا منسجما يمكن اقناعه بحجة[186] وهذا ما كان يغذيه الانجليز بصورة دائمة .

لقد احتلت بريطانيا عسكريا جنوب العراق عام ١٩١٤ وضمت اليه الموصل عام ١٩١٨ وأثر الثورة العراقية الكبرى عام ١٩١٢ احتوت بريطانيا بعض قيادات الحركة فانشأت في العراق المملكة الهاشمية ونصبت على رأسها الملك فيصل . وبعد سقوط دمشق احتضنت بريطانيا بعض قيادات الحركة العربية الوسطية وكان على رأسها الملك فيصل الأول .

وكان فيصل مؤسس الأسرة المالكة لا يستحق بغضا . لم يحصل على التعليم العالي . وكل ما كان له من مصادر القوة هو مظهره ، ومع ذلك فقد أضعفه ارتداؤه الثياب الغربية ، بيد أن براءته كوفئت بحكم دام اثني عشر عاما إلى أن مات في سويسرا سنة ١٩٣٣ موتا طبيعيا في ظاهره[187] .

وعلى أثر اجتياح الجيش الفرنسي سوريا وخلع الملك فيصل انفصلت رقعة شرق الاردن عن حكومة دمشق العربية ، وتولى ادارتها المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، والف فيها بعض المجالس المحلية لادارة شؤونها ولكن التجربة لم تنجح نظرا للتركيب القبلي في البلاد ، وهيمنة تقاليد البداوة ففكر الانجليز أنه لا بد من اللجوء إلى أسلوب خاص في حكم هذه المنطقة . وقد وجدوا ضالتهم في تنصيب عبد الله بن الحسين اميرا على البلاد وهكذا قامت حكومة يرئسها الأمير عبد الله على قاعدة

بالاستقلال الاداري ويستشرشد برأي المفوض السامي في فلسطين وتتعهد انكلترا بمساعدة هذه الحكومة بما يكفي لنفقات انشاء قوة تستطيع توطيد الأمن .

إن واقع التجزئة الذي انتهت اليه البلاد العربية كان انتاجا لمشاريع الحاقية فرضت بالقوة ، ولكن هذه المشاريع كانت من جهة اخرى ثمرة للتغلغل الاقتصادي والثقافي الاستعماريين في مناطقنا بشكل متفاوت . ومنذ زمن بعيد ، وكان من شأن ذلك أن يخلق تشكيلات اجتماعية مختلفة على صعيد المناطق والطوائف والاقليات وكان هذا بدوره قد خلا لتشديد التبعية للاستعمار . هذه التبعية التي كرست بدورها التجزئة واعطت للدول « الاقطار » توجهات في بناها الاقتصادية ومؤسساتها الثقافية والسياسية مختلفة الواحدة عن الأخرى . . من هنا ازدياد التلاحم بين النصال من أجل التوحيد القومي وكسر أشكال التبعية للاستعمار التي هي في الأساس استمرار التجزئة السياسية وبالتالي استمرار التخلف في كل أشكاله .

هذا الموقف هو في جوهره موقف معاد للاستعمار ، وهو ذا صلة بالموقف العربي الوحدوي ، الذي أخذ بالتبلور في أواخر الحرب العالمية الأولى . كان هناك احساس عفوي سليم نلمسه لدى من مثل هذا الموقف على الصعيد الفكري (جمال الدين الافغاني ، شكيب ارسلان ، رشيد رضا . .) .

إن تناقض العرب مع الهيمنة التركية في اطار الدولة العثمانية هو تناقض ثانوي ، وإن التناقض الرئيسي هو بين الشعوب المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية من جهة والغرب المستعمر من جهة ثانية . اذن من معاداة الاستعمار من مواقع القوى العربية التي أشرنا إليها كانت تبحث عن أيديولوجية تعبوية مناهضة للاستعمار . لكن لما تحول التناقض الثانوي إلى صدام تناحري مع الاتراك في الحرب العالمية الأولى (انقضاض جمال باشا على الزعماء العرب المطالبين بالاصلاح) ولما انكشفت مطامع الدول الاستعمارية في السيطرة عبر المعاهدات السرية (سايكس ـ بيكو . وعد بلفور . .) اتخذ الموقف العربي المعادي للاستعمار الشكل الايديولوجي والسياسي الذي نشأ عن ثورة الشريف حسين بعد انضمام العديد من طلاب الاصلاح العرب اليها . هذا الشكل تجسد تنظيميا وجماهيريا بالمؤتمر السوري الأول وتأسيس أول دولة عربية في سوريا ذات برنامج يطمح إلى تحقيق وحدة المشرق العربي .

وإذا كـان المضمون السيـاسي ، والاقتصادي ، والاجتمـاعي ، الايـديـولـوجي للمشروع الوحدوي (سواء كـان هذا المشـروع الوحـدوي عربيـا أو أسلاميـا) هو في معاداته للاستعمار الغربي ومشاريعـه التقسيمية في الشـرق العربي الاسـلامي في مرحلة الامبريالية ، فانه من الضروري التمييز بين طرحين للمشاريع الوحدويـة والاستقلاليـة التي عرفها تاريخ الشرق العربي من ١٨٦٠ حتى ١٩٢٠ . من الضـروري التمييز بـين الطرح الاستعماري لهذه المشاريع ومن مواقع اجتماعية داخلية مرتبطة اقتصاديا وثقافيا بالاستعمار وبين الطرح الجماهيري المرتكز إلى قوى اجتماعية معادية للاستعمار .

في الواقع أن لا صلة بين المشروعين والموقفين مثلا في الوقت الذي كان يدعو فيه بعض المثقفـين السوريـين واللبنانيـين من ذوي النزعـة الليبراليـة والعلمانيـة في بيروت وباريس والقاهرة إلى التحرر في اطار علاقات واضحة مع الدوائر الاستعمارية (غرف تجـارة وشخصيـات سيـاسيـة ودبلومـاسيـة أوروبيـة) . كـان المثقفـون المسلمـون العرب يتصدون لهذه الأفكار والمشاريع ويعتبرونها اصداء لمشـاريع استعمـارية تعـد في بـاريس أو في لندن . كـان الرد رفض المشـاريع الغـربيـة وإن تستـرت (بـالغـروبـة) والتمسك بوحدة الدولة العثمانية وانصاف العرب في جهازهـا لذلـك من الخطأ اعتبـار الموقف العربي القومي الوحدوي الذي تبلور بعـد الحرب العـالمية الأولى وبـالضبط بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ والذي كان تجسيدا لتطلعات فئات شعبية عربية واسعة في الاستقـلال والتحرر ورفض التسلط والتجزئة . الاستعمارية من الخطأ اعتبار هذا الموقف أنه امتداد لطروحات سابقة قدمها الفكر الليبرالي ـ العلماني في بيروت أو باريس أو القاهرة . إن المؤتمر السوري الأول ـ (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) والـدولة العـربية السـورية التي تمخضت عنه كانا تجسيدا لاماني قوميـة عربيـة تبلورت عبر المعـركة المعـادية لـلاستعمار الغـربي ومشـاريعـه للسيـطرة والتجـزئـة والتقسيم (سـايكس ـ بيكـو ١٩١٦ ، وعـد بلفـور (١٩١٧) ، والاتفـاق الانكليزي ـ الفـرنسي (١٩١٩) هذا في حـين شكل الأوائـل يـومذاك من دعـاة (العروبـة) وبالاستقـلال السوري والمنخـرطين في شبكـة علاقـات استعمارية (اقتصادية وثقافية) أبواقاً للدول الاستعمارية ودعاة للوصّاية الاجنبية سواء كانت بريطانية أو فـرنسية (نجيب عـازوري ، شكري غـانم ، جورج سمنـة . . . . الخ)[١٨٨] .

انطلاقا من هذه الملاحظات العامة ، يصبح فهمنا للوطن العربي هو التالي :

إنه المشروع الايديولوجي السياسي يملك مقوماته التاريخية وعناصر وحدته الاقتصادية والبشرية تبلور في وجدان الجماهير العربية ووعي مثقفيها كرد من جهة على سياسة الاستعمار في السيطرة والتقسيم كبديل لانهيار الدولة العثمانية التي كانت تعتبر سابقا (بالنظر إلى الانتماء الحضاري الاسلامي للجماهير العربية) دولتها الاسلامية .

و (الامتيازات الاجنبية) أول مظهر للتغلغل الاستعماري : من الصعب تعيين الزمن الذي ابتدأت فيه عملية التغلغل الرأسمالي الغربي في البلاد العربية والاسلامية عامة . لكن يمكن مع ذلك الانطلاق من حدث محدد : يمكن اعتبار الامتيازات الاجنبية التي قدمها السلطان سليمان القانوني إلى فرنسوا الأول ملك فرنسا عام ١٥٣٥ بمثابة ظاهرة أولى لهذا التغلغل نتج عن تطبيق هذه الامتيازات هيمنة التجار الأوروبيين داخل الامبراطورية العثمانية لا سيما في المدن التجارية . وكانت هذه الهيمنة تزداد بقدر ما كان يزداد ضعف السلطنة وتفكك مؤسساتها الادارية والاقتصادية والعسكرية وكان أن وصلت بنا النتيجة إلى الحد الذي أصبح فيه تجار الدول الأوروبية يشكلون مع قنصلياتهم جاليات قومية تتمتع بسلطات مستقلة عن السلطة المحلية العثمانية . شكلت هذه الحاليات عمليا دولا داخل الدولة .

ويمكن اعتبار حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ أول محاولة الحاق استعمارية مباشرة لجزء من البلاد العربية كان الهدف الأول الذي سعت اليه الحكومة الفرنسية فتح الطريق إلى الهند لضرب النفوذ البريطاني في مصر والطريق إلى الهند لا بد أن يمر بمصر كما قال نابليون . لكن ما لبث هذا الهدف أن تقلص بعد تدمير الأسطول الفرنسي في (أبي قير) وحل محله أهداف استعمارية مباشرة خاصة بمصر وفلسطين وسوريا فقد قدم نابليون نفسه من جهة مدافعا عن مصلحة مصر القومية ضد المماليك ، ومن جهة أخرى دعا اليهود عند حصاره لعكا لتأسيس وطنهم القديم (في فلسطين فكان ذلك سبقا) في الدعوة لتأسيس الحركة الصهيونية (ناتان فانتشتود) .

ولكن ايضا بعد الحصار الانكليزي الشديد الذي ضرب في البحر المتوسط على القوات الفرنسية في مصر حاولت الحكومة الفرنسية الدخول مع الباب العالي في مفاوضات للصلح (لشراء مصر) وضمان احتكار التجارة فيها أهم هذه الشروط

الـذي بعث بها تليـران إلى القائم بـالأعمـال الفـرنسي في القسـطنـطينيـة (أوائـل آب ١٧٨٧) .

ـ عزل الجزار عن ولاية عكا واعادة التجار الفرنسيين إلى صيدا وعكا والتعويض عليهم .

ـ لا يحق لأية دولة أن يتعاطى رعاياها التجارة في مصر إلا بموافقة فرنسا .

ـ تتعهد الحكومة الفرنسية بأن تدفع للسلطان مبلغاً مقابل هذه الامتيازات .

ـ تتبع السويس ودمياط والاسكندرية إلى ممثلي الحكومة الفرنسية .

ولكن بعد رفض الباب العالي لهذه الشروط وتصلب الموقف الانجليزي وتدهـور الـوضع الـداخلي الفـرنسي وتراجـع نابليـون عن أسوار عكـا ، أصبح وضـع القوات الفرنسية في مصر لا سيما بعد انتقال نابليون إلى فرنسا ـ في حالة انهيـار مادي ومعنـوي شديدين .

بعد فشل هذا المشروع قامت في مصر عام ١٨١٦ في عهد محمـد علي بـاشا أول محاولة بناء رأسماليـة دولية مستقلة وصنـاعية . (فـالدولـة كما يقول مكسيم رودنسون هي : التي شادت الابنية الجديدة ـ ووظفت كـل الاستثمارات وهي التي كـانت تدفـع أجور العمال وتبيع السلع المنتجة . بل إن احتكار الـدولة للصنـاعة امتـد إلى الأعمال اليدوية فكانت هي أيضا تعمل لحساب الباشا الوالي ويقدر عـدد العمال الـذين كانـوا يعملون في خـدمتـه بـأكـثر من سبعـين الفـا (أي مـا قـد يعـادل ٢,٣٪ من عـدد العمال)[١٨٩] .

هذه الوجهة في بناء اقتصاد داخلي متين عن طريق الدولة كان يمتد عبر فتـوحات ابراهيم باشـا لسوريـا بما فيهـا لبنان وفلسـطين وتقيم الـدولة العثمـانية في اطـار بناهـا الاقتصادية والاجتماعية ذاتهـا نموذجـا مختلفا يتخـطى من جهة الجمـود الذي استقـرت عليه اوضاع الدولة الاسلامية منذ قرون ويتخطى من جهة أخـرى ـ وهذا هـو الأهـم ـ المأزق الذي وضعته الدول ـ الصناعية الاستعمـارية أمـام واقع احتمـالات التصنيع في

البلدان التي سيدعونها فيما بعد (بالبلدان المتخلفة) . الجانب الثاني هو الأهم في تجربة محمد علي ، فاذا كان التوسع عبر سوريا للبحث عن امكانات اقتصادية للدولة الجديدة هو ما فجر الصراع بينه وبين الباب العالي ، فان مخاطر التجربة الرائدة على اوروبا الاستعمارية هي التي دفعت بالدول ـ الأوروبية جميعها إلى التكتل ضده وتقليصه وتحجيم دوره عام ١٨٤٠ .

وجاءت المعاهدات التي فرضت على الدولة العثمانية من جانب بريطانيا بمثابة العامل الحاسم في تخريب ما بدا به محمد علي ذلك أنه في عام ١٨٤٠ ـ فرضت معاهدة ١٨٣٨ علي محمد علي فرضها بالمرستون والأسطول البريطاني (واضطر محمد علي أن يعلن ندامته وتوبته النصوح امام معبد حرية التجارة) . وهكذا انتهت تجربة محمد علي باشا إلى الفشل وخضعت مصر للنفوذ الأوروبي ضمن توازن فرنسي ـ انجليزي انتهى بأن حسم عام ١٨٨٢ لصالح بريطانيا .

وفي اطار ذلك احتلت بريطانيا مدن ومناطق الخليج عام ١٨٣٩ ، واحتلت فرنسا الجزائر نتيجة تفردها الذي بدأ عام ١٨٩٠ ، وإن لم تستطع السيطرة على البلاد كلها إلا بعد حربين طويلتين مع حركة الامير عبد القادر حتى استسلم الأمير في عام ١٨٤٧ .

في المشرق العربي وفي سوريا بالذات بدأت تلوح اطماع فرنسا الالحاقية بصورة مبكرة ايضا . في عام ١٨٣٨ القي في مجلس النواب الفرنسي خطاب يصرح فيه بجلاء (للمسألة الشرقية) اخضاع الشرق للدول الأربع الكبرى التي لها مصلحة فيه .

منذ ذلك الحين كانت اطماع فرنسا تنصب بصورة رئيسية على سوريا (بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين) اما الحق (الذي بدأت الدبلوماسية الفرنسية تتحدث عنه ، فقد ارتكز إلى العلاقات البشرية التي انتجتها الامتيازات الاجنبية في سباق تعامل فرنسا مع الطوائف المسيحية ذات الارتباط بكنيسة روما) ذلك أن حق فرنسا في حماية جالياتها من التجار والقناصل والعملاء داخل الامبراطورية العثمانية والذي نصت عليه مختلف الاتفاقات مع الباب العالي طال ايضا الطوائف المسيحية المرتبطة بالكثلكة ـ لا سيما الطوائف المارونية والتراث التاريخي الماروني حافل بالشواهد (إن من باب الوقائع

أو من باب الاشارات ذات الطابع الايديولوجي) .

لقد كان لبنان في ظل حكم المتصرفين ، والواقع أن المتصرف كان بموجب نظامي ١٨٦١ و ١٨٦٤ عثمانيا يعينه (الباب العالي) بناء على اقتراح الدول الست الضامنة للنظام . والمتصرف يتبع الباب العالي ، ومنه يتلقى التعليمات والأوامر . وكان المتصرف حاكما شبه مطلق في الجبل يأمر وينهى ، ويعزل ويعين ويقرر . كان ممثل السلطان ، ظل الله على الأرض[١٩٠] .

الشيخ بشارة الخوري شبهه بالملك الفرنسي الجبار الملك ـ لويس الرابع عشر وروي عن المتصرف مقولة كانت تتردد عن الملك الفرنسي الشهير (أن المتصرف ذهب إلى الصلاة في كنيسة كرسي الابرشية المارونية في المقصف ، في بيت الدين ، فاجتمع في الكنيسة لهذه المناسبة اعيان الموارنة في لبنان وقد يكون شاركهم ايضا غيرهم . وخلال الصلاة كان المتصرف يتوجه إلى الله ، وكنان الحضور يتوجهون إلى المتصرف علهم يحظون منه بالتفاتة) .

وكبار الموظفين وهم اعيان الجبل كما يقول الشيخ بشارة يعيشون على اعصابهم مخافة أن يغضبوا المتصرف فيعزلهم .

ولم يكن المتصرف وحده في الحكم . ولم يكن اللبنانيون هم المشاركون بل (القناصل) وكان اللبنانيون تراجمة للقناصل . وهؤلاء خاصة قناصل الدول الست الضامنة لنظام جبل لبنان ـ وهي بريطانيا ، وفرنسا . وروسيا وبروسيا والنمسا ، وايطاليا يشاركون المتصرف في حكم جبل لبنان . بل منهم من كان يترفع ويشترك عنه في الحكم ترجمانه .

هؤلاء هم حكام لبنان في عهد المتصرفية ، ولعل الذين يحنون إلى عهد المتصرفية يحنون إلى هؤلاء الذين كانوا يجدون بهم مصالح دولهم . ومن خلال ذلك يعملون على مساندة مصالح الطوائف التي كانوا يزعمون حمايتها ، فالانجليز برغم ذلك هم الذين يحمون مصالح الدروز . والفرنسيون يحمون مصالح الموارنة ، والروس يحمون مصالح الروم الأرثوذكس والنمساويون يحمون مصالح الروم الكاثوليك .

لقد قال فيلسوف لبنان[١٩١] أمين الريحاني : (أولئك القناصل العابثون بمقدرات الجبل . اللاعبون لعبة الشطرنج بكرامة زعمائه) .

وكشف الفيلسوف شبلي شميل في مقاله : (اللبنانيون ومحط آمالهم) خلفية التحرك السياسي لابناء لبنان في اتجاه تعديل نظام الجبل إذ (تدل دلالة صريحة على ما في نفوسهم من الملل والتأفف من نظامهم القديم الذي بعد الصبر عليه والرضى به اليوم موتا في النفوس وخورا في الهمم وخمولا في العقول . فالاعتماد فيها على دول أوروبا وعلى الدولة العثمانية . وليس فيها شيء من الاعتماد على النفس) ولأن الدول الاجنبية بلا استثناء (إن لم تكن لها غايات عظيمة من وراء تحقيق مطالب اللبنانيين لا تحرك ساكنا) .

وحث شميل اللبنانيين : (الذين يؤلفون اليوم في جميع الاقطار جامعة لا يستهان بها مالا وذكاء وعلما أن يعرفوا واجبهم نحو وطنهم الصغير والكبير ، ونحو العالم اجمع ، فان من يخدم سواه يخدم نفسه أيضاً) .

وفي مقال : (لبنان ومتصرفوه) رسم شميل صورة مأساوية للجبل تتمثل في مشهدين : مشهد المتصرف الاجنبي واعوانه من اللبنانيين ومشهد الاغتراب .

والواقع أن نظام جبل لبنان لعامي ١٨٦١ و ١٨٦٤ قام على الاحتلال والتدخل الاجنبيين . والاحتلال والتدخل الأجبيين أديا إلى احداث ١٨٤١ . وتلك الأحداث أدت إلى التقسيم وإلى انشاء القائمقاميتين الدرزية والمارونية عام ١٨٤٢ ، والتقسيم ونظام القائمقاميتين في ظل التدخل أديا إلى الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ كما أدت إلى احتلال اجنبي فرنسي للبلاد . وهذا الاحتلال ، مع التدخل الاجنبي ايضا أديا إلى بروتوكولات ١٨٦١ و ١٨٦٤ وإلى قيام نظام الطائفية السياسية المدمر للبلاد . ونظام ١٨٦٤ والتدخل الاجنبي الانتدابي أديا إلى نظامي عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٦ وإلى تركيز المادة ٩٥ من الدستور اللبناني المادة الموقتة المكرسة للطائفية السياسية .

وهكذا كانت ـ كما قلنا ـ الفرصة امام فرنسا للتدخل العسكري في لبنان عام ١٨٦٠ . كانت الأحداث التي امتدت طوال فترة ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ في جبل لبنان قد قدمت للمسيحيين الكاثوليك في سوريا وللموارنة بصورة خاصة (نموذجا فيه حماية فرنسا) إذ حاولت أن تقدم نشاط قناصلها ودبلوماسيها وارسالياتها في الصراع الدرزي

الماروني إن من جهة الدعاية في أوروبا ، أو الدعم في الداخل برهانا على ودها وتفانيها (اتجاه الكاثوليك الشرقيين) . هكذا سهل على فرنسا عام ١٨٦٠ وقد امتدت الاصطدامات الطائفية إلى دمشق (إذ اهاجمت الجماهير المسلمة احياء النصارى والقنصليات الاجنبية ومراكز التبشير) أن تقوم بانزالها العسكري وفي اطار قبول أوروبي متحفظ ـ تحت شعار : (حماية كاثوليك سوريا) لكن وراء الشعار كان ثمة مشروع استعماري اكثر طموحا وراء الحملة العسكرية الفرنسية . لقد اعتقد لويس بونابرت أن مشروع اقامة دولة عربية في سوريا مستقلة عن الباب العالي وتابعة لفرنسا ربما كان ممكن التحقيق .

على كل حال لم يكن الدبلوماسيون العسكريون الفرنسيون الموجلون في الأمر ، أحراراً في اختيارهم لشكل الحكم في سوريا . ذلك أن هذا المشروع الطموح اصطدم بعدد من العوائق ، من جهة لم يكن العرب المسلمون في سوريا مستعدون للتخلي عن الدولة العثمانية ولم تكن بريطانيا من جهة ثانية ولا بقية الدول الأوروبية ترى أن الظرف مؤات لتقسيم الامبراطورية العثمانية .

ومن جهة أخرى كانت فرنسا على كل حال تحاول مهما كان حظ هذا المشروع من النجاح أن تستخدم طرحه كورقة ضاغطة على الباب العالي يتخلى به هذا الاخير عن معارضته لاعمال دي ليسبس .

وهكذا تقلص المشروع الانفصالي الكبير على ارض الواقع ليقتصر على انشاء ادارة مسيحية شبه مستقلة في جبل لبنان ولم تكن ردود الفعل للموارنة عبر استقبالها للحملة الفرنسية بعيدة عن وجهة هذا المشروع أن رسائل الاكليروس الماروني إلى بونابرت ورسائل البطريرك الماروني لقائد الحملة الفرنسية تعبر عن امنية استمرار الحماية الفرنسية للموارنة وتوفير الازدهار لهم .

وبقي على الحملة العسكرية أن تترك الجبل بعد أن أمضت مدة ستة أشهر ـ هذه المدّة التي اتفق عليها بين الدول الاستعمارية العظمى ـ لكن كان يتعين على الدبلوماسية الفرنسية أن تجد الشكل الاداري ـ القانوني المناسب الذي يضمن للمصالح الاقتصادية الفرنسية في الجبل شروط الحماية والازدهار وهذا الشيء المهم على امتداد مصالحها الأخرى في كل انحاء سوريا .

كانت التسوية التي لخصت مواقف شتى الدول الاوروبية وموقف الدولة العثمانية الذي كان ينمو يومذاك نحو تحديث الادارة ومركزتها ، هي بروتوكول ١٨٦١ الذي عدل عام ١٨٦٤ . . والذي بموجبه انشئت متصرفية جبل لبنان وكانت القاعدة الشرعية التي بنيت عليها المتصرفية هي توقيع الدول الأوروبية الست على البروتوكول (الذي دعي بالنظام الأساسي لجبل لبنان) .

شكلت هذه الخطوة وإن اعتبرتها الدولة العثمانية أنها تنتظم في منطق اعادة تنظيم ولاياتها من الناحية الادارية ـ شكلت اطارا نمت في داخله هوية سياسية مارونية ارتكزت إلى عدة عوامل أهمها :

١ ـ الازدهار الأقتصادي النسبي الذي عرفه جبل لبنان بالنسبة للمناطق السورية والمرتكز بدوره على الاستشارات والتوظيفات الفرنسية ، خاصة في زراعة التوت وصناعة الحرير .

٢ ـ التدخل الفرنسي السياسي في كل صغيرة وكبيرة في الجبل بحيث قدمت فرنسا نفسها حامية وضامنة للنظام الأساسي (في وجه كل من يبغي مسه) ، لا سيما في وجه تدخلات الدولة العثمانية عبر ولاة سوريا أو المتصرف .

٣ ـ انتشار المدارس والارساليات الفرنسية في الجبل بحيث خرجت هذه المؤسسات بعد سنوات شرائح اجتماعية متفرنسة (من ابناء المشايخ وابناء البرجوازية المارونية الجبلية الصاعدة) ، شكلت هذه الشرائح عبر انتظامها في اجهزة الادارة الجديدة (طقما سياسيا) أعده لتولي مهمات الحكم في الدولة التي أنشأها الاستعمار الفرنسي عام ١٩٢٠ .

بعد ١٨٦٠ وبالذات في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أشتد التنافس الاستعماري للسيطرة على ما تبقى من مناطق العالم غير الصناعي . وكان أهم ما يميز هذه المرحلة التاريخية حدثان : الأول : البدء بحفر قناة السويس وموافقة الدولة العثمانية أخيرا عن هذا المشروع بفرمان ١٨٦٦ .

والثاني : تضخم الهيمنة المالية الاوروبية على الدولة العثمانية وعلى مصر وبقية ولاياتها العربية وبصورة اخطبوطية لا خلاص منها .

وإلى هذا ، فلقد كان يخامر محمد عهلي بعض المخاوف والهواجس ، فان مصر

التي كانت تحوم حولها المطامع ، سوف تصبح عرضة لمزيد من هذه المطامع إذا شقت على أرضها طريق دولية لم تكن لديها القدرة العسكرية الكافية لحمايتها . وعلى هذا فان محمد علي أوجب على الدول ذات الشأن أن تتعهد تعهدا رسميا وقاطعا بأنها لن تحاول فيما بعد أن تستحوذ على هذه الطريق المائية لتستغلها لمصلحتها الخاصة متناسبة سيادة مصر على هذه الطريق ومصالحها فيها . ولما لم يستطع محمد علي الحصول على هذا التعهد ، فقد استمر الشعب المصري ينعم بالراحة والطمأنينة قرابة عشرين سنة أخرى[١٩٢] .

وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٥٤ ، أخذت هذه الطمأنينة تؤذن بالتصدع . ففي ذلك اليوم أصدر الخديوي محمد سعيد وهو الخلف الثالث لمحمد علي ، مرسوما منح فيه صديقه فرديناند دي ليسبس نائب قنصل فرنسا في الاسكندرية وابن احد قناصلها العامين في القاهرة في عهد محمد علي ، ترخيصا بانشاء شركة تعمل على ربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط بطريق مائية . ولقد كان ذلك أمرا منكرا في نظر بريطانيا التي عمدت إلى ابلاغ حكومات القسطنطينية وباريس والقاهرة بأنها سوف تقاوم هذا المشروع بشدة ، كذلك فقد عمدت إلى بعض المحاولات التهديدية لاضعاف موقف الخديوي ، وبلغ بها الأمر إلى دراسة مخطط لمد خط حديدي مصري ، وكذلك تسيير قناة لربط حيفا بالعقبة مرورا بمرج ابن عامر بحذاء منخفض الغور على طول وادي عربة . وهكذا فان فكرة منافسة قناة السويس وتهديدها عن طريق منفذ العقبة ، تلك الفكرة التي كادت أن تنفذها الولايات المتحدة فيما بعد ، هي في أصلها فكرة بريطانية . وبلغ ببريطانيا أنها فكرت بأن تقيم حول موقع القناة التي ستنشئها ، دولة تحكمها قبائل الدروز المستقلة تحت حمايتها ، والذين لم يكن الاسلام قد بلغ بهم حد الاندماج بمن حولهم . وكانت بريطانيا قد استخدمت هؤلاء الدروز ضد محمد علي وعزمت على استخدامهم ضد مصر والعمل على منحهم كيانا دوليا . . وقد كان محتملا ، لو أن الدولة الدرزية تحققت ، أن لا تقوم دولة اسرائيل فيما بعد . وفي كل حال فان ما يهم بريطانيا العظمى هو أن لا تترك لمصر التي لا تطمئن اليها ، الانفراد بحراسة شبه جزيرة سيناء .

يمكننا من ذلك أن ندرك مدى الوهن والقنوط الذي ألم بهمة فرديناند دي ليسبس أمام هذه المقاومة البريطانية . وقد كان نابليون الثالث نفسه مترددا في

مؤازرته ، كذلك فان الفاتيكان أصم آذانه أمام ندائه . وفي نهاية الأمر فان مصر هي التي انقذت مشروعه . فقد تجاوز الخديوي العقبات التي قذفتها تركيا في طريقه مدفوعة من بريطانيا ، وتجاهل التأنيب الذي وجهته اليه ، فاصدر مرسوما ثانيا بتاريخ ٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٦ أكد فيه المرسوم الاول وأخذ على عاتقه شراء ٤٤ بالمئة من أسهم شركة القناة الجديدة تشجيعا لدى ليسبس ودعما له . ثم أنه تكفل بفرض السخرة على المصريين مما وفر له أكثر من مائة ألف عامل منهم . وكذلك فان الفضل في انقاذ دي ليسبس من المصاعب المالية التي أشرفت به على الافلاس ومن الصد الذي جابهته به المراكز المصرفية الدولية أمام حملات التشكيك والتشهير التي شنتها عليه المصارف وأوساط رجال الأعمال ـ إن الفضل في انقاذه من ذلك كله ، انما يعود فحسب إلى موقف مصر وصمودها ، فهي عدا آلاف العمال الذين وضعتهم بالمجان تحت تصرف متعهدي مشروع القناة ، قد قدمت له مبالغ ضخمة جدا في حساب ذلك العصر ، فان الخديوي الذي كان قد تملك ٤٤ بالمئة من الأسهم التي لم تجد من يشتريها في الأسواق الدولية ، قد منح شركة القناة اضافة إلى ذلك ، مليونا من الفرنكات الذهبية . ولما لم يكن ذلك كافياً ، فقد دفعت الخزانة المصرية فوق هذا ، ثلاثة ملايين ونصف المليون من الجنيهات كتعويض للشركة ، على أثر القرار الذي أصدره نابليون الثالث بموازنة اسعار الصرف . وقصارى القول ، فان مجموع نفقات شق قناة السويس التي بلغت ١٧٣٠٠٠٠٠ جنيهاً ذهبياً ، قد دفعت منها خزانة خديوي مصر ١٦٨٠٠٠٠٠ أي المبلغ كله تقريبا . فاذا اضفنا إلى ذلك اليد العاملة المصرية التي قدمت لهذا المشروع وقضى اصحابها فترة عملهم هذه في ظروف صحية سيئة جدا ، والهلاك المريع الذي تعرضوا له من جراء الكد المضني والتغذية السيئة والوهن الذي رمتهم به الامراض المستوطنة في هذه المنطقة ، لتبين لنا أن الاتاوة التي قدمها شعب وادي النيل إلى هذا المشروع كانت عبئا يصعب تقديره .

ان قناة السويس كانت بحق انجازا من انجازات مصر ، انجازا كان مجيدا بقدر ما كان باهظا ، فالسلطات المصرية تقدر عدد الذين هلكوا في شق القناة بمائة وعشرين الفا ! . . .

هل فازت مصر من ذلك كله بربح معنوي على الاقل ، لقد كان الامر كذلك من الناحية النظرية . ففي مقابل العون الذي قدمته القاهرة ، تخلت الشركة لمصر عن بعض المنشآت ، وعن اعفائها من بعض الرسوم الجمركية ، وقد نص الاتفاق المعقود

في ١٦ شباط (فبراير) سنة ١٨٦٦ في مادته السادسة عشرة على أن الشركة البحرية العالمية لقناة السويس هي شركة مصرية ، فهي بذلك تخضع للقوانين والانظمة العمول بها في مصر . أما في الواقع ، فقد كان الامر يجري على غير ذلك ، لأن ضعف حكومة الخديوي سياسيا وماليا كان يحول بينها وبين الزام الشركة بتطبيق الاتفاقات المعقودة . وعندما احتفل بافتتاح القناة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٩ من خلال مهرجانات بالغة الضخامة والبذخ وبحضور الامبراطور نابليون الثالث والامبراطورة اوجيني كان ظل التعاسة يحوم فوق الخديوي الذي كان فوق ذلك كله مدينا بكل ما يملك ، بينما كانت بريطانيا لا تخفي سخطها على الرغم من أن الملكة فيكتوريا كرمت فرديناند دي ليبس بمنحة وسام الصليب من طبقة نجمة الهند . .

كذلك فقد اشارت حكومة صاحبة الجلالة على السفن البريطانية بعدم المرور في قناة السويس في رحلاتها من الغرب إلى الشرق ، راجية بذلك أن يفشل المشروع ، وتدل الاحصاءات أنه لم يعبر قناة السويس من السفن البريطانية بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٤ إلا عدداً يتراوح بين ٢٠ و٢٥ سفينة في كل عام .

على أن هذا لم يحل دون ارتياح المسافرين والمرتفقين لحسن سير العمل في القناة ، ولشد ما كانت دهشة هؤلاء أن يعلموا أن الرحلة من مرسيليا إلى هونغ كونغ تحتاج إلى زمن يقل ٥٩ يوما عن الزمن الذي تحتاج إليه عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولم يكن هنالك من يحس بالحاجة إلى عقد اتفاقية دولية بشأن القناة وكان واضحا أن سيادة مصر على القناة لم تكن مصدر خطر على احد .

ثم اخذت الحال تسوء حين اتخذت السيادة البريطانية ـ وهي سيادة لا يؤمن جانبها ـ مكانا لها وراء خديوي مصر . ذلك أن بريطانيا العظمى لم تكن لترضى بأن تكون لفرنسا ومصر سيادة مشتركة على القناة ولا أن تكونا هماً المالكتين لاسهمها . وكانت ترقب الفرصة المواتية لتستحوذ هي عليها . وما أن وجد الخديوي اسماعيل نفسه مهددا بالافلاس حتى دفع بها إليها . هنالك مجال كبير للكلام حول الطريقة التي دبرت بها في الخارج هذه التفليسة ، والدوائر المالية في لندن عالمة تمام العلم بما يحيط بها ، وهي تعود في جانب كبير منها إلى العون الذي بذلته الخزانة المصرية لفرديناند دي ليسبس ، ذلك العون الذي كان غير متناسب مع قدرة مصر الحقيقية ، فقصم ظهرها[١٩٣] .

ومهما يكن من امر ، فان دزرائيلي رئيس وزراء المملكة المتحدة اشترى في عام ١٨٧٥ وفي غفلة من فرنسا ، حصة الخديوي من الاسهم بمبلغ اربعة ملايين جنيه (أي ما يساوي مائة مليون من الفرنكات الفرنسية) فاصبحت بريطانيا بذلك تملك ثلث مجموع اصوات مجلس ادارة شركة القناة . كذلك فقد نزل الخديوي للشركة عن حصته من ارباحها التي كانت تقدر بـ ٥ بالمائة منها . وعندما تبين أن كل ما فعله الخديوي لم يكن كافياً لاقالة الموازنة المصرية من عثارها ، فقد أبدت بريطانيا استعدادها للعطف على هذه المعضلة شريطة أن تستحوذ هي على هذه الـ ٥ بالمائة ايضا . وسرعان ما بلغت حصيلة بريطانيا من ذلك اربعة ملايين جنيه وهو المبلغ الذي كانت قد دفعته إلى الخديوي الذي وجد نفسه بذلك قد رد إلى البريطانيين باليد اليسرى ما كان قد اخذه منهم باليمنى ، وتكون بريطانيا بذلك قد استحوذت على ٤٤ بالمئة من اسهم شركة القناة دون مقابل . فكانت عملية ابتزاز بقيت في التاريخ شاهدا على مهارة اصحاب المصارف اللندنية وعلى سذاجة الاسرة المالكة المصرية ، تلك السذاجة التي سوف تودي باستقلال الشعب المصري وبسلامة وطنه . وقد نشرت مجلة العالمين (Les revue des deux mondes) في عددها الصادر بتاريخ الفاتح من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٥ ، مقالا تنبأت فيه بأن هذا النجاح الذي احرزته بريطانيا في هذا الموضوع سيكون مقدمة لاحتلال مصر ، وقد تم هذا الاحتلال فعلا في عام ١٨٨٢ . فلقد ادى استسلام خديوي مصر للبريطانيين إلى ردود فعل وطنية وقومية اقلقت هؤلاء ودفعتهم إلى التدخل . وكان ذلك في سائره رغم ارادة فرنسا ، وفي جزء كبير منه دون علم منها . فلقد كانت سياسة نابليون الثالث وسياسة الجمهورية الثالثة ـ تلك السياسة التي عرف عنها التمسك بهذه المنطقة ـ تعتبر أن مصر حليفة دائمة للنزعة التوسعية الفرنسية . وقد كان عام ١٨٦٩ الذي دشنت فيه قناة السويس بمثابة خاتمة وحصيلة لسياسة فرنسا حيال الشرق الاقصى . فتميز ذلك العام بالاحداث التالية : الاستحواذ على اوبوك على ساحل الصومال عام ١٨٦٢ ، واحتلال سايغون عام ١٨٥٩ ثم جنوب الهند الصينية باكمله عام ١٨٦٧ ، وقبل ذلك فرض الحماية على كمبوديا عام ١٨٦٣ . وفيما بين عامي ١٨٦٦ و ١٨٦٨ اكتشف فرنسيس غارنيه نهر تونكين المسمى صونغ ـ كوي كطريق إلى الصين . فتأكد بذلك ارتباط قدر السويس بقارة اسيا .

كنتيجة لذلك كان من المقدر على مصر أن تندمج كليا في الصراع الدولي

الجديد ، إذ بات بفعل حفر قناة السويس اقرب السبل التي تصل اوروبا بمستعمراتها الافريقية والاسيوية . وراحت كل من هذه الدول تعمل لتمتين نفوذها فيها . . .

ولما صدر الفرمان السلطاني بالموافقة على حفر القناة في ١٩ اذار (مارس) ١٨٦٦ تبدل موقف بريطانيا الرسمي من فرديناند دي ليسبس واخذت تعد العدة للافادة من مشروعه . فكانت اولى مبادراتها تعزيز حاميتها العسكرية في جبل طارق وفي عرض البحر المتوسط ومالطة . وفي هذه الجزيرة انشأت المستودعات والعنابر بغية جعلها محطة تجارية كبرى على طريق الهند من السويس إلى العقبة .

واعتمدت حكومة لندن منذ ذلك الحين سياسة بعيدة الأمد تهدف إلى وضع مصر ، متى حان الوقت، تحت اشرافها المباشر ، فراحت تعمل بما لديها من وسائل واسباب على افقارها واضعافها وتعقيد شؤونها المالية بالديون والمشاريع العقيمة كما اخذت تسعى في الاوساط الدولية للاعتراف لها بكيان مستقل بغية اقصائها عن نفوذ الباب العالي .

وكانت فرنسا ترمي إلى الغاية نفسها وتعمل بالوسائل عينها . . . ووجدت هذه السياسات الاستعمارية في حكم اسماعيل باشا والي مصر واعتماده على القروض الهائلة الخيالية من المصارف الاجنبية ارضا خصبة لنجاحها وقطفت ثمارها .

ودخلت بريطانيا وفرنسا اطرافا مشاركة اساسية في تقرير السياسة المالية لمصر عبر تأسيس صندوق الدين عام ١٨٧٦ الذي يتولى ادارته اجانب تنتدبهم دولتهم .

وامعانا في تكبيل مصر ماليا انشأت فرنسا وبريطانيا (لجنة تحقيق اوروبية عليا) واصبحت لجنة التحقيق هذه هي السلطة الفعلية في مصر . وادت هذه الهيمنة إلى أن يشترك في الحكومة المصرية وزيران اوروبيان عام ١٨٧٨ ، وفي هذا الوقت وقع حدثان قلبا ميزان القوى لصالح بريطانيا :

(١) شراؤها لحصة مصر في اسهم قناة السويس .

(٢) على اثر الحرب الروسية ـ العثمانية عام ١٨٧٨ وانهزام تركيا ، تنازلت تركيا بموجب معاهدة لبريطانيا عن قبرص وذلك لقاء تعهد بريطانيا بالدفاع عن السلطان وحماية امبراطوريته .

وكانت الفرصة امام بريطانيا للتدخل العسكري في مصر ، حين قامت

الانتفاضة الوطنية التي قادها احمد عرابي هذه الانتفاضة بتعبئتها الشعب المصري بجميع طبقاته ضد الاذلال الاستعماري ، ومن اجل الكرامة الوطنية وبقدرتها أن تشارك في السلطة الفعلية عبر تولي احمد عرابي منصب نظارة الحربية شكلت خطرا (فعليا) على النفوذ الاستعماري في البلاد والشرق الاوسط .

وكان على بريطانيا أن تهيىء الجو الاوروبي لقبول انفرادها في احتلال مصر . كانت بريطانيا قد حاولت شراء سكوت فرنسا في غض نظرها عن التوسع الفرنسي في شمال افريقيا وذلك أن الحكومة الفرنسية بعد أن استتب لها الامر في الجزائر شرعت توجه نشاطها التوسعي شطر افريقيا السوداء . . . وكانت تونس تشكل في هذا المخطط جناحا استراتيجيا هاما بعد تنازل تركيا عن قبرص لبريطانيا لاح للحكومة البريطانية بأن ارضاء فرنسا في تلك الظروف الدولية يساعد على تنفيذ مخططاتها السياسية في الشرق فاقترحت عليها سرا احتلال تونس .

وهكذا كان ، ففي ايار (مايو) ١٨٨١ تذرعت حكومة باريس باضطراب الامن على الحدود الجزائرية الشرقية فارسلت جيوشها تحتل تونس ، ثم فرضت على الباي معاهدة الباردوة (١٢ ايار ـ مايو ١٨٨١) واتبعتها بعد سنتين بمعاهدة يعترف فيها بحماية فرنسا على بلاده ويقره بتنظيم هذه الحماية .

اذن اصبح من السهل على بريطانيا أن تهيىء الجو الاوروبي والداخلي لتدخلها العسكري بعد مناورات عديدة استهدفت استعداء الخديوي توفيق للحركة الوطنية وتأليب السلطان عبد الحميد ضدها وكان قد تعاطف في البداية مع احمد عرابي، وتبيان عجز السلطان عن ضبط الوضع في مصر ، تذرعت بريطانيا باصلاح تحصينات كانت قد انشئت بالاسكندرية في عهد محمد علي فابلغت الحكومة البريطانية قائد اسطولها في المتوسط أن يتذرع بهذا العمل ويحتل مصر ، وامرت رعاياها بالجلاء فورا عن القاهرة والاسكندرية . وبدا بتنفيذ المخطط صبيحة ١١ تموز (يوليو) ١٨٨٢ .

كانت المانيا اثر نهضتها الصناعية الجبارة في عهد بسمارك قد دخلت طرفا جديدا قويا معترك التسابق الاستعماري ، ووضع سياسيوها خطة محدودة للتوسع تعتمد لا سياسة الاحتلال والالحاق ، وانما سياسة امبريالية حديثة . تستهدف ربط اسواق واسعة بشبكة متينة من التوظيفات والاستثمارات . هذا التوجه الاستعماري الجديد

والذي يصطدم على الصعيد المنافسة بتوجه الدول الاستعمارية الاخرى نحو الالحاق والتقسيم ، وجد استحسانا لدى السلطان عبد الحميد ، وكان هذا الاخير قد استخدم الاسلام عبر طبقة رجعية من رجال الدين والاقطاع ستارا للسيطرة الاستبدادية على العالم العربي الاسلامي . فوجد في السياسة الالمانية بديلا للسياسة البريطانية التي تخلت الان عن دورها السابق (قبل الحاق قبرص واحتلال مصر ، كانت بريطانيا تلعب دور المدافع عن وحدة الامبراطورية العثمانية في وجه المشاريع الالحاقية للدول الاستعمارية الاخرى) .

غير أن هجمة الاستعمار باتجاه الالحاق والتقسيم ما كان بامكان سياسة عبد الحميد أن تقف في وجهه إلا عبر المراهنة على شكل آخر من اشكال الاستعمار. صحيح أن فرنسا ادركت بعد نجاحات بريطانيا بالاستيلاء على قبرص واحتلال مصر (أن نصيبها من الامبراطورية العثمانية في الشرق العربي بات ضئيلا وأن الظروف ما تزال غير ملائمة لفرض سلطانها المباشر عليه ، لكنها في نفس الوقت اخذت تعمل بمثابرة وجدية لترسيخ وجودها في سوريا تمهيدا لاحتلالها متى حان اجله) . وذلك باتجاه زقاقي يقوم على نشر لغتها وتاريخها واظهار عظمة حضارتها وامجادها واقتصادها . عملت على تنفيذه بأن نالت من الباب العالي امتيازات ذات شأن لتحسين مرافىء الاستانة وازمير وبيروت ومد خطوط حديدية في سوريا .

كذلك فعلت ايطاليا فمنذ اقدمت الحكومة الفرنسية على احتلال تونس سنة ١٨٨١ ، تصدت لها ايطاليا وحاولت انشاء مركز لها في الشرق ، فاقامت قنصليات في معظم المدن العربية واسست فيها المدارس والمستوصفات وكان أن ركزت نشاطها هذا في ليبيا عام ١٩١١ ، إذ اقدمت ايطاليا على احتلال طرابلس الغرب معتمدة على الاتفاقات السرية التي كانت معقودة بينها وبين فرنسا وانكلترا من جهة وبين النمسا والمانيا من جهة اخرى .

كذلك فان سياسة فرنسا الاستعمارية كانت قد بدأت تعطي ثمارها في هذا الوقت . . إن التوسع الثقافي والتوظيفات المالية في جبل لبنان والمدن السورية وبصورة خاصة في الوسط الماروني والتجمعات المسيحية في المدن السورية قد اصبحت كلها في مصلحة السياسة الاستعمارية الفرنسية .

لم تكن العلاقات ما بين الدول الاستعمارية قد استقرت بعد على قاعدة تقسيم نهائية لمناطق النفوذ . فما أن وصلت اصداء تصريح بلفور إلى العواصم الاوروبية حتى تحركت هذه الاخيرة . فسفيرا المانيا وايطاليا يستفسران وزارة الخارجية البريطانية ويطلبان توضيحا عما ستفعله إذا باشرت فرنسا في أي عمل في سوريا ـ مما اضطر بريطانيا أن تقدم التوضيح التالي : إن اعلان بريطانيا عن عدم وجود أي مطمع سياسي لها في سوريا لا يعني الالتزام بالاعتراف بسوريا ولبنان منطقة نفوذ فرنسي .

لقد تركت بريطانيا عبر تصريحات مسؤولها هامشا واسعا يسمح لها بالمناورة على نفوذ فرنسا في مشاركتها في اقتسام الحصص . عندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب المانيا اعلن لويد جورج بحماس كبير : (ها قد دقت ساعة تصفية الحسابات مع تركيا) .

وكان في جعبة الدبلوماسية البريطانية مشاريع معدة لمواجهة الاتراك من الداخل وعرقلة مساعي فرنسا بخصوص (حقوقها) في سوريا . كان كيتشنر المندوب البريطاني السامي في مصر تداعبه فكرة انشاء دولة عربية في سوريا والجزيرة . وكان هذا المشروع من شأنه لو تحقق في اطار النفوذ البريطاني أن يربط مصر بمنطقة الخليج عبر خط مستقيم متواصل ومضمون السلامة من الناحية الاستراتيجية وهذا بالضبط ما كانت تخشاه فرنسا . .

كان مشروع كيتشنر في انشاء الدولة العربية يرتكز إلى عاملين داخليين :

١ ـ الاستياء العام في الاوساط المدنية الاصلاحية في الشرق العربي من سياسة التتريك ومواقف حزب الاتحاد والترقي من مطالب الاصلاحيين العرب .

٢ ـ الصراع حول الصلاحيات والسلطات بين والي الحجاز التركي والشريف حسين .

وتسترت مطامع بريطانيا في المنطقة بعد دخول تركيا الحرب تحت ستار انشاء هذه الدولة . وتبلورت الفكرة في ذهن كيتشنر حين توليه منصب وزارة الحربية فكان اكثر ما يخشاه أن تؤدي الدعوة إلى الجهاد التي اطلقها السلطان إلى اثارة المسلمين من الهند إلى المغرب الاقصى . فازداد اقتناعا (بضرورة قيام ثورة عربية شاملة تشل حركة الجيوش التركية في سوريا والعراق والحجاز وتقطع مفعول النداء إلى الجهاد المقدس من

قبل الخليفة بدعوة معاكسة يقوم بها زعيم ديني عالي الحسب عريق النسب) .

انعكست في مشروع الدولة العربية اتجاهات مختلفة وكمنت وراءها حسابات متضاربة كان العنصر المهيمن فيها والحاسم مصالح بريطانيا . ولا يهم هنا أن ندخل في سجال غير مفيد عن خداع الدبلوماسية البريطانية فالاتجاهات التي دخلت اطرافا في المشروع عبرت عن تناقضات معقدة ، ولم تعرف الحركة القومية ـ ولم يكن بامكانها أن تعرف يومذاك ـ أي منها شكل التناقض الرئيسي وبالتالي لم يكن بامكانها أن تفرز جبهة الاصدقاء عن جبهة الاعداء .

فقيادات الحركة العربية ـ وقد تحكم في نموها إلى حد كبير ظروف العلاقات العربية التركية في الحرب العالمية الاولى ـ عينت لحدود هذه الدولة في اجتماع سري في دمشق عقد مع فيصل ونتج عنه المذكرة التالية :

(اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين ـ اضنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالا ثم على امتداد خط اورفه ـ ماردين ـ مديات ـ جزيرة ابن عمرو ـ العمادية ـ إلى حدود ايران .

جنوبا : المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو) .

غربا : على امتداد البحر الاحمر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط إلى مرسين .

شرقا : على امتداد حدود ايران إلى خليج العرب جنوبا .

الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للاجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية .

عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية .

تلك هي الخطوط العامة للمشروع الذي قدمه الشريف حسين لبريطانيا وهو يمثل تطلعات فئات اجتماعية قوامها الاساسي ملاكون ، حرفيون ، مثقفون ، زعماء قبائل وعشائر في المشرق العربي في بناء دولة مستقلة بعد انهيار الدولة العثمانية .

مهما يكن من امر فان تقرير الامور لم يكن بيد الحركة القومية العربية الوليدة ولا بيد قياداتها ذات المصالح الضيقة والافق الايديولوجي والسياسي الضيق ، إن تقرير الامور كان بيد الامبرياليات الكبرى يومذاك ففي موازاة مراسلات حسين ـ مكماهون كان ثمة محادثات انكليزية ـ فرنسية تقرر مصير المنطقة وترسم بالخطوط الصريحة وإن انعكست هذه الخطوط بصورة خجولة في مراسلات حسين ـ مكماهون خريطة تقسيم مناطق النفوذ الاستعماري للوطن العربي . . .

واستقرت عملية شد الحبال لنيل اكبر جزء من الحصص بين بريطانيا وفرنسا عن مذكرة وقعها مندوبا فرنسا وبريطانيا (سايكس ـ بيكو في ايار (مايو) ١٩١٦) مرفقة بخرائط تقسيم للاجزاء العربية من الامبراطورية العثمانية : تقسم خريطة سايكس ـ بيكو المشرق العربي إلى خمس مناطق :

١ ـ المنطقة الزرقاء وتمتد من رأس الناقورة . جنوبا إلى كليكيا شمالا تحت السيادة الفرنسية .

٢ ـ المنطقة الحمراء وتمتد من البصرة حتى شمالي بغداد وتكون تحت السيادة البريطانية .

٣ ـ المنطقة السمراء وتشمل فلسطين وتكون منطقة دولية حيادية .

٤ ـ المنطقة آ ، تقام فيها دولة عربية ولبريطانيا فيها مركز ممتاز .

٥ ـ المنطقة ب ، تقام فيها دولة عربية ولبريطانيا فيها مركز ممتاز .

في هذا الوقت وحين كانت بريطانيا تعمل على استخدام كل المعطيات وكل تناقضات الوضع العالمي والعربي في مصلحتها ـ كانت الحركة الصهيونية النامية تقدم بدورها لبريطانيا ما ينبغي الاستفادة منه . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ اتصل هربرت صموئيل احد زعماء الصهيونية بادوار غراي وزير خارجية حكومة لندن وحثه على تبني دولة يهودية في فلسطين تكون حليفة (لبريطانيا وعلى مقربة من مصر ومن قناة السويس) ويسعى للحؤول دون قيام دولة عربية مستقلة في سوريا والعراق لأن مستقبل تحقيق الدولة اليهودية يتوقف على مدى قوة جيرانها العرب أو ضعفهم . مال غراي إلى قبول هذا المشروع وتم الاتفاق بينه وبين اللجنة الصهيونية بلندن على ألا تمنح فلسطين استقلالها السياسي قبل أن يدخل عدد من اليهود ، لأنهم كانوا انذاك

قلة ضئيلة ضعيفة لا تتعدى ٤٪ من السكان . بعد سلسلة من مداخلات بريطانيا واللجنة الصهيونية حول مضمون النص الذي يمكن أن يشكل وعدا رسميا من قبل الحكومة البريطانية وضع النص ـ الوعد في ١٧ تشرين الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ولم تكن بريطانيا تبالي كثيرا بردة الفعل العربية . وقد عبر سايكس عن موقف العرب بقوله : (ان رجال الثورة بحاجة اليوم لبريطانيا اكثر مما هي بحاجة إليهم ولا يسعهم بأي حال الاستغناء عن الاموال الطائلة التي تغدقها عليهم . وإن العرب عامة في وضعهم السياسي والاجتماعي لا يشكلون أي خطر في مستقبل قريب على مصالح التاج ـ ناهيك عن الانقسامات القبلية والحزبية والاقليمية المتمسكة فيما بينهم والتي تجعل وحدتهم الفعلية امرا مستبعدا . فانهم لن يقوموا بأي عمل عدائي رصين ضد بريطانيا واليهود غير الاحتجاج الكلامي وسيقبلون ايما تفسير تعطيه حكومة صاحب الجلالة لهذا التصريح) .

وبالفعل كانت الحركة القومية جنينية وبدائية لم تع ابعاد المؤامرة ولا فهمت مقاصد الاستعمار البريطاني فاتفاق سايكس ـ بيكو ، رغم كشفه عام ١٩١٧ من قبل البلاشفة والاستنكار الذي ووجه به ، استطاعت بريطانيا بدبلوماسيتها وعبر علاقتها بقيادة الحركة ـ (الشريف حسين وابنائه) أن تمرره وتحتوي حركة معارضته العربية .

كذلك بالنسبة لاعلان وعد بلفور رغم انه هز الضمير العربي وتعالت الاحتجاجات عبر المسؤولين في دار الاعتماد بمصر ، فان بريطانيا بربطها ماليا وعسكريا قيادة الحركة العربية استطاعت ضبط ردود الفعل وتحويلها إلى سجال قانوني ومسألة مواثيق وعهود . وهكذا راح الصهيونيون ينظمون صفوفهم لوضع تصريح بلفور موضع التنفيذ كان زعماء العرب يصرون على أنه لاغ من الناحية القانونية وما جاوزوا هذا الموقف السلبي .

(وعلى هذا تابعوا ثورتهم على الترك ومضى فيصل في تقدمه مع الجيوش البريطانية نحو الشمال باتجاه دمشق) . بعد انتهاء الحرب بدأت تكشف على أرض الواقع وبالممارسة العينية اهداف الاستعمار في تجزئة وتقسيم المشرق العربي .

فبعد اعلان الهدنة قسمت البلاد إلى ٣ ادارات عسكرية تستمد سلطتها المباشرة من القائد البريطاني الاعلى وعرفت المنطقة باسم (المنطقة الجنوبية من بلاد العدو المحتلة) وهي تشمل فلسطين بأكملها وكانت ادارتها بريطانية . وعرفت الثانية باسم

(المنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة) . وتشمل سوريا الداخلية من ميناء العقبة جنوبا إلى حلب شمالا ، ووضعت تحت ادارة الامير فيصل . وأما الثالثة فعرفت باسم (المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة) وتشمل المنطقة الساحلية في لبنان وسوريا من مصر جنوبا إلى كيليكيا شمالا وكانت ادارتها فرنسية .

ويبدو أن الفرقاء الثلاثة لم يكونوا راضيين كل الرضى عن هذا التقسيم ، فالبريطانيون كانوا غير مرتاحين إلى وجود الفرنسيين في سوريا ولبنان ، وكأن هؤلاء يطمعون باكثر مما نالوا ، أما العرب فلم يروا فيه إلا الخطوة الاولى نحو تقسيم بلادهم إلى مناطق نفوذ حسب الاتفاقات السرية التي عقدت بين الحلفاء اثناء الحرب . ولما احتج فيصل على هذا التدبير هدد الجنرال اللنبي مؤكدا أنه عمل عسكري مؤقت ، وأن مستقبل البلاد سيقرر وفقا لرغبات ابنائها في مؤتمر الصلح .

وفي مؤتمر الصلح كانت الرياح تجري وفق ارادة الكبار ، على قاعدة المصالح التي ترجمتها الاتفاقات السرية (سايكس ـ بيكو ـ ووعد بلفور) وعلى ضوء ميزان القوى العسكرية الجديد . كما استقر اثر حملة اللنبي والذي كان يرجح بشكل واضح كفة بريطانيا . في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تستخدم وجودها العسكري الكثيف في المنطقة لتحصل على مزيد من المكاسب التي تقدمها اتفاقية سايكس ـ بيكو ، كانت فرنسا تحاول تحريك الاتجاهات السياسية اللبنانية ـ السورية المحلية الموالية لفرنسا عبر العرائض والوفود . . . من بينها اتجاه اللجنة المركزية السورية التي كانت تطالب مدعومة من غرفة تجارة ليون ومرسيليا بدولة سوريا موحدة تحت النفوذ الفرنسي واتجاه البطريركية المارونية متحالفة مع البرجوازية المارونية اللتان كانتا تطالبان بتكبير جبل لبنان وفتحه على البحر واعلانه دولة مستقلة تحت الوصاية الفرنسية .

كان هم بريطانيا عبر ضغطها على فرنسا في محادثات مؤتمر الصلح أن تدفع فرنسا للاعتراف بحق بريطانيا في الموصل ، وكانت هذه المنطقة معتبرة بموجب معاهدة سايكس ـ بيكو جزءا من المنطقة العربية . وكان أن ظهر البترول فيها فحرصت بريطانيا في ضمها لمنطقة نفوذها الحمراء . واسفرت المناورات بين الدولتين عن اتفاق عقد في ١٥ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ يقضي بحلول الجيش الفرنسي محل الجيش الانجليزي . . وكان هذا يعني بصراحة أعطاء فرنسا ضوءا احضر لاحتلال المنطقة

الشرقية التي خضعت لفيصل وقامت فيها اول حكومة عربية في المشرق في العصور الحديثة . اثناء مروره في مرسيليا كان الجنرال اللنبي قد اعلن أن الخلاف الفرنسي - الانجليزي لا يعدو سوء تفاهم بسيط ينبغي أن يزول في الوقت الحاضر . إن انتداب فرنسا لسوريا امر نعترف به نحن الانجليز . إن وجودنا في سوريا ليس إلا وجودا عسكريا . . من الناحية السياسية ليس لنا شيء امام فرنسا . إن بريطانيا ستسهل مهمة فرنسا هناك . هذا امر نؤكده لكم كل التأكيد .

هذا التصريح ووجه بترحيب شديد وبحبور عظيم من قبل الاوساط الاقتصادية والدبلوماسية الفرنسية وكانت حملة الجنرال غورو العسكرية تحمل توصيات غرفة التجارة في مرسيليا وليون بشأن المصالح الاقتصادية والسياسية الفرنسية في سوريا . وكان اولى هذه التوجيهات القضاء على حكومة فيصل في دمشق وتصفية جيوب الحركة القومية العربية في اجزاء عديدة من سوريا .

بعد القضاء على بؤر المقاومة العربية في بعض المناطق السورية التي ضمت إلى جبل لبنان (كجبل عامل ومناطق بعلبك) . . صفي اخر مظهر عسكري من مظاهر الحكومة العربية في ميسلون . وكان الجنرال غورو قد عقد صلحا مع الاتراك تنازل فيه عن قيليقيا وتفرغ لتصفية الحركة العربية . بعد سقوط دمشق وضرب حوران وجبال العلويين ، استتب الامر للسلطات العسكرية الفرنسية . وكانت الحكومة الفرنسية قد زودت الجنرال بمبلغ ١٢٠٠ مليون فرنك (لتهدئة) الاوضاع في سوريا ، وبمشاريع تقسيم لسوريا تضمن عملية ضبط وسيطرة . وكانت الحركة المطلبية اللبنانية التي قادها البطريرك الماروني الياس الحويك تشكل احدى قواعد هذا التقسيم . . بالاضافة إلى مطلبه بفتح جبل لبنان على البر وضم البقاع إليه ، اضاف الجنرال غورو إلى جبل لبنان مناطق اسلامية مرتبطة اقتصاديا وحضاريا بالداخل السوري وشمالي فلسطين : عكار - مناطق بعلبك - جبل عامل - (جنوب لبنان) . . . .

إن الواقع العربي بعد قيام اسرائيل ، واستبدال الاستعمار الاوروبي بالاستعمار الاميركي رغم كل الشعارات الوحدوية التي رفعت في سوريا في الخمسينات ، وتبني عبد الناصر التجربة ، والمحاولات المستميته للعقيد القذافي . . . فإنه مهدد بالمزيد من التقسيم والتجزئة ، وهذا ما طرحته اسرائيل وباركته الولايات المتحدة قبل وبعد غزو لبنان عام ١٩٨٢ .

« أن تقسيم لبنان إلى خمس مقاطعات أو دويلات يعطي الصورة المسبقة عما سيحدث في مجمل العالم العربي » .

«أن تجزئة سوريا والعراق إلى مناطق على قاعدة المقاييس العرقية والدينية يجب أن تكون هدفا اوليا بعيد المدى بالنسبة لاسرائيل ، وتتلخص المرحلة الاولى بتدمير القوة العسكرية لهذه الدول .

«إن هالة مصر زعيمة العالم العربي قد ماتت منذ زمن ، ولقد فقدت مصر ٥٠٪ من قواتها بمواجهة اسرائيل وباقي العالم العربي برغم أن باستطاعتها الاستفادة على المدى القصير من استعادتها لسيناء ، لكن هذا الامر لم يغير بشكل رئيسي موازين القوى برغم كونها جسما مركزيا . وقد اصبحت مصر اليوم جثة هامدة خصوصا إذا ما اخذنا بعين الاعتبار المواجهات التي تعنف يوما بعد يوم بين المسلمين والمسيحيين . إن تقسيمها إلى مقاطعات جغرافية واضحة المعالم يجب أن يبقى هدفنا السياسي مع اعتبار عقدة سيناء على الجبهة الغربية .

«وعندما تصبح مصر مشرذمة على هذا النحو ومحرومة من سلطتها المركزية ، تلقى البلدان الباقية مثل ليبيا والسودان والـ [illegible] الاخر الاكثر بعدا ، المصير نفسه من الشرذمة .

«أن اقامة دولة قبطيه في مصر العليا (الصعيد) ودويلات اقليمية اخرى قليلة الاهمية هي مصباح وتطور في التاريخ الحالي الذي تاخر باتفاق السلام ، ولكن لا يمكن تجاهله على المدى البعيد . فان مشكلات الجبهة الغربية هي اقل منها عددا مما في الجبهة الشرقية بغض النظر عن المظاهر»[١٩٤].

كلام اوديت بينون هذا مجرد نموذج لحالة نفسية يسهل تشخيصها ، وهي حالة يعرفها قاموس (لالاند) الفلسفي بصفتها (حالة هذيان معقلن ، منهجي ، تصحبه الهلوسات احيانا وبصورة خاصة هلوسات ، والهذيان الرومنطيقي من غير أن يعني ذلك بالضرورة تراجع القدرة العقلية العامة .

ومن علامات هذه الحالة الاسرائيلية ، التقدير الفائق للنفس ، والشعور الدائم بالاضطهاد ، الشك بالاخر والسعي لالغائه ، والانغلاق على تنظيم ذاتي مقرون

بمهمات فائقة وخاصة ، استثارة سلبية الاخر ، ثم الشكوى فيها واعتبارها مثلا على العظمة التي تستدعي الاضطهاد (١٩٥) .

واوديت بينون يمثل هذه الحالة (الحالة النفسية) بكل تعقيداتها ، فهو يقدم (خطابا) عقلانيا ومتماسكا للوهلة الاولى ، ولكنه مخترق تماما بعوارض هذيانية لا اساس لها .

فهو يبدأ كلامه بالمبالغة بالخطر السوفياتي على العالم كله ، معلنا انهيار كل القيم الاخلاقية ، ناسبا إلى اسرائيل مهمة التصدي الانقاذية ، متخوفا من الضعف الاميركي والغربي عموما الذي يلقي على كاهل تل ابيب مهاما اضافية .

وبما أنه يشعر بالخطر في المنطقة فأنه يرتكب المفارقة التالية : التأكيد على كون المحيط خطرا داهما ، واقتراح أن يكون الرد تبديد هذا المحيط طالما أن هذا التبديد هو بمتناول الدولة العبرية اليوم .

والمفارقة هي بالضبط في المبالغة بحجم الخطر والمبالغة بسهولة الرد (الحاسم) فالرد المقترح تقسيم العالم العربي وتفتيته، وهو امر سهل كما يقول ، يظهر كم أن اسرائيل هي الخطر الحقيقي ، وكم أن شعور الاضطهاد المتحكم بها يمنعها من أن ترى الامر على حقيقته .

عقلية بينون هذه هي عقلية (الغيتو) المنتقل إلى موقع السلطة فهي تجمع بين خوف «الغيتو» وانغلاقه وبين قدرة السلطة وقوتها ، بين غرائز الخاضع للحصار وبطش المشرف على الحصار .

أنها عقلية الخارج من المذابح النازية بعقلية نازية ، أو شبه نازية . ولعل اسرائيل شاهاك (رئيس لجنة حقوق الانسان في اسرائيل)، اجاد عندما علق على طروحات بينون هذه بالقول (يستعيد هذا المشروع ، وبامانة النظريات (الجيو- سياسية) التي كانت رائجة في المانيا بين ١٨٩٠ و١٩٣٣ والتي تبناها ، كما هي هتلر والنازية ووجهت سياستها في اوروبا الشرقية) .

وهكذا لا يتم الخروج من الغيتو إلى عكسه ، بل إلى غيتو اكبر ، إلى من لا يشعر بالامان إلا بتبديد كل ما يحيط به ، من غير أن يضع حدودا لهذا المحيط . فهو تارة العالم العربي ، وتارة العالم الاسلامي ، وتارة المعسكرالاشتراكي كله .

وبما أن اسرائيل شاهاك يقول ، عن حق ، (إن مقال بينون يعبر بصورة دقيقة وتفصيلية عن مشروع الحكم الاسرائيلي الحالي ـ حكم شارون وايتان،) ، وبما أن ناعوم شومسكي (عالم الالسنيات الاميركي الشهير والذي اتهمه الصهاينة (بجلد الذات) لأنه يهودي معارض للصهاينة) يوافق على رأي شاهاك هذا ، وبما أن تجربتنا الملموسة تجعلنا اقرب إلى الاقتناع بأن هذا هو فعلا مشروع اسرائيل في ظل الحكم الحالي . لاجل ذلك لا يجب الاستخفاف ببينون الذي كان بالمناسبة موظفا كبيرا في وزارة الخارجية الاسرائيلية .

كان احدهم يقول (إن اسخف ما قيل عن هتلر هو أنه سخيف) وبغض النظر عن أية مقارنة بين الصهيونية والنازية يجب أن نتجنب وصف هكذا كلام بالسخف . وذلك لسببين على الاقل .

١ ـ من المرجح أن يكون منطق الثلاثي الحاكم في اسرائيل ميالا إلى هكذا وجهة . واخر الصحافيين الغربيين الذين كتبوا عن العملية الاسرائيلية في لبنان (جوزيف غاليا في النوفيل اوبسر فاتور) اكدوا أن الرغبة في اخراج مصر كانت موجودة لدى شارون وأنه كان يريد فعلا الاحتفاظ بقسم من سيناء .

٢ ـ ليس كلام بينون (صاعقة في سماء صافية) . إنه تطوير برنامجي لتيار في الحركة الصهيونية مثله جابوتنسكي استاذ مناحيم بيغن واريل شارون . والذين يعرفون رئيس الوزراء الاسرائيلي يكتبون عنه قائلين (إنه عندما يستفيق من نومه كل يوم يقول لنفسه : ترى لو كان جابوتنسكي حيا اليوم ، ماذا كان فعل ؟ ومن مراجعة سريعة لتوجهات جابوتنسكي نشعر أن كلام بينون الاخير يحاول أن يقول لبيغن ما كان يمكن لاستاذه أن يقوم به لو كان حيا .

وفي السجلات التي عرفتها الحركة الصهيونية (والدياسبور اليهودية) خلال الحرب الاخيرة يتضح أن يهوداً كثيرين من موقع الدفاع عن (الدولة اليهودية) بافق رحب و (ورؤى) . عابوا على (الفريق الحاكم) في تل ابيب تطرفه الذي ، وإن كان يحقق على الامد القريب المصالح الاسرائيلية ، فانه يضربها بالمعنى الاستراتيجي للكلمة . ويكفي أن نتذكر المساهمات المميزة التي قام بها ناحوم غولدمان خلال الاشهر (بل السنوات الاخيرة) لندرك كم أن الحركة الصهيونية انجبت تيارات متباينة ، وكم أن صهاينة كثيرين تخلصوا من (عقلية الغيتو) بطريقة ما في حين بقي كثيرون في

اسرها ، واعتبروها حجر الاساس لبناء قوة عسكرية هائلة محكومة بهذه الخطيئة الاصلية .

نضع كلام بنيون في سياقه كي لا يخطىء احد بمعاملة الرجل بصفته (مهووسا) ومتطرفا . أنه يمثل ، على مستوى اسرائيل عقلية تسود في قطاعات شعبية عديدة (اليهود الشرقيين خاصة) وتمسك بمقاليد الحكم حاليا .

ومن الضروري ربما وصل هذه الطريقة في التفكير بطروحات القوى المسماة في اميركا (باليمين الجديد) .

فتبشير بينون بانهيار النزعة الانسانية ، ومقترحاته الاقتصادية الهادفة إلى الحد من دور الدولة ، ومبالغته في اظهار الخطر السوفياتي وعدوانيته المفرطة . . كل هذه هي عناوين التيار الايديولوجي الذي جاء بريغان إلى السلطة في واشنطن .

لا يقول بينون ، في هذه المواضيع شيئا لم يقله نورمان بودوريتز احد اقطاب اليمين الاميركي المتطرف .

ففي كتابه حول (الخطر السوفياتي) (لا يتجاوز مئة صفحة) الذي قدم ريمون ارون لترجمته الفرنسية قائلا (إنه الكتاب الذي يضعه رونالد ريغان قرب مخدته ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام) في هذا الكتاب يحذر بودوريتز من أن تتحول الولايات المتحدة خلال سنوات إلى (جرم في الفلك السوفياتي) ، ويقترح علاجا لذلك افكارا ليست بعيدة جدا عن افكار اوديد بينون .

وبالمناسبة كان بودوريتز (وهو يهودي نيويوركي تحول من ليبرالي إلى محافظ جدا وكان احد القلة من مثقفي نيويورك الذين ايدوا ريغان) في زيارة لباريس القى خلالها محاضرة في (المؤسسة الفرنسية الدولية) (Ifri) تميزت بهجوم عنيف شنه على الرئيس ريغان بحجة أنه (متساهل) حيال الاتحاد السوفياتي لأنه لم يقدم على قطع كل العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ! وقال بودوريتز إن ريغان اتصل به لأنه قال سابقا كلاما مماثلا ، واضاف (لقد شرفني بالاتصال ؛ لكنه لم يقنعني اطلاقا .

المحاور الرئيسية لهذا الفكر اليميني المتطرف . محافظة اخلاقية وضبط داخلي ، ليبرالية اقتصادية ، عدوانية خارجية ، هذه المحاور تلتقي عند جزع واحد هو النزعة الإرادية الخالصة.

وهـذه النـزعـة هي التي تجعـل اصحـاب هـذا الفكـر يتعـامــون عن الـواقـع الموضوعي ، وعن المصالح التي تتحكم فيه وتسيره ، ليطرحوا متجـاوزين كل ذلـك ، خطا يصر على التعامل مـع المعطيات بصفتها مادة اولى قابلة للتشكيل بسهولة فائقة .

العـالمان العـربي والاسلامي همـا ، عند بينـون ، هذه المـادة الاولى ، المطواعـة واللينـة ، والتي يمكن إعادة تـركيبها وفق المصلحـة الصهيونيـة وبغض النـظر عن إرادة أهلها وقدرتهم على المقاومة .

واللافت للنـظر أن هذا التصـور لوضـع المنطقـة الـذي يحـولنـا إلى (مـوضـوع للتاريخ) واسرائيل إلى (ذات فـاعلـة) لـه ، هو نفسـه الذي ينـطلق من أننا نشكـل خطرا على الدولة العبرية يجب استنهاض القوى لردعه . إي أنه يطور (كذبة) عمـرها عشرات السنين تقول إن العرب هم في مـوقع الهجـوم على اسـرائيل ، مـع العلم بـأن العكس صحيح ، طالما أن الجيش الاسرائيلي استطاع أن ينهي حـروبا بـرمتها في مـدد تتراوح بين الساعات . . والايام !

إعادة الاعتبار للحقيقة القائلة بأن اسرائيل هي التي تمسك زمام المبادرة الهجومية في المنطقة ، وذلك منذ لحظة قيامها ، وأن العرب بهذا المعنى هم المهددون والخائفون ، هو الحـد الأول في النقاش مع الـطروحـات التي يقدمها بنيون والتي تجمع بين الاعتراف بهذه الحقيقة وبين ترويج الكذبة المناقضة لها .

الحـد الثاني في النقاش هو اعلان عدم الرغبه في تجاهل المشاكل الداخلية الكثيـرة التي تعاني منها ، والتي ستستمر مفتوحة على احتمالات خطيرة طالما استمر هذا التراجع المريع في وضع حركة التحرر الوطني العربية .

وإذا كان بينون يتحـدث عن (مشاريـع) اسرائيليـة تطال مستقبـل المنطقـة فإن بوسعنا أن نقول كلاما كثيرا حول الوضع الراهن في لبنـان ، أي الوضـع الذي جـرى فيه اختبار هذه المشاريع .

ففي لبنان ظهرت العيـوب العربيـة كلها ، وكـذلك العيـوب المحلية ، ووصـل التدخل الاسرائيلي إلى عمق لم يصل إليه سابقاً (حتى في العـلاقة مـع مصر وخـاصة في العلاقة مع مصر . .). ومع ذلك فإننا لا نزال في حالة متفارقة احتمال الوقوع في الفخ الاسرائيلي واحتمال النجاح في تجنب دفع الثمن الكامـل لكل مـا جرى وضبط الامـور

عند حد لا يلبي طموحاتنا الوطنية ولكنه يبستمر بعيدا جدا عن الاحلام الجامحة لافكار بينون التي يضعها بيغن ، وشارون ، وشامير ، موضع التطبيق العملي .

ونضيف أيضا أن الصدمة الاسرائيلية للبنان ، كانت أيضا وبدرجة أقل ، صدمة لبنانية لاسرائيل ، وهي صدمة لا بد أن تؤتي لاحقا ثمارها ، ولو المتواضعة . وفي ذلك ما يدل على الامكانات الرحبة للتأثير في ظل أوضاع إقليمية مختلفة ، وبالضبط في ظل أوضاع عربية أفضل قليلا .

لقد خرجت اسرائيل بنصر عسكري من حرب لبنان ، ولكن القدر القليل من الصمود الذي ووجهت به، وهو صمود معزول ضمن العالم العربي، كان كافيا لأن يولد داخلها أزمة عميقة تدفع بانقساماتها كلها إلى السطح وتطلق قوى كثيرة وواسعة معترضة على (حالة الغيتو الابدي والعدواني) التي يريد البعض ضبط اسرائيل ضمنها .

ومن غير أية مراهنة قصيرة النظر ، ومتسرعة على هذه القوى ، ومن غير أي اغفال لواقعنا العربي المزري ، يمكن القول بأن الصورة ليست ، ولن تكون على الأرجح ، كما يرسمها بينون : ليست اسرائيل هذه السكين الصلبة والحادة ، وليس العالم العربي هذا الجسم الرخو ، أو ، على الاقل ، ليست اسرائيل بعد اليوم هذه السكين التي تزداد صلابة ، والعالم العربي هذا الجسم الذي يزداد رخاوة .

كل طرف من الطرفين يكاد يكون وصل إلى القعر ، قعر القوة وقعر الضعف ، وما يقترحه بينون على اسرائيل هو بالضبط ما يمكنه أن يكون (نظرية العمل الصهيوني المتطرف في مرحلة وصول القوة الاسرائيلية التي ذروتها والتراجع العربي إلى مايشبه نهايته) ولكن ذلك ليس خاتمة الصراع .

إنها بداية لمرحلة جديدة تجمع فيها اسرائيل بين قوتها العسكرية وبؤسها الفكري والسياسي (وعزلتها الدولية)، بينما نستمر نحن على بؤسنا العسكري ونملك احتمال الانفتاح على تجديد فكري وسياسي (مجرد احتمال ؟) نمتلك في تجربتنا وتراثنا نواته العقلانية القابلة للتطوير والاغناء .

فلسطين محور السياسة العربية

المؤامرة الكبرى

كانت القضية الفلسطينية محور السياسة العربية ولا تزال ، وقد نبهت الصحف العربية اليقظة العرب والمسؤولين إلى مخاطر التوجه الصهيوني نحو فلسطين منها « المقتطف » عام ١٨٩٨ و« المنار » في السنة نفسها وعام ١٤٠٢ و« الاهرام » عام ١٩٠٨ و« الكرمل » في حيفا منذ أواخر ١٩٠٩ و« المفيد » في بيروت و« القبس » في دمشق . . . (١٩٦) .

لقد نشر من الكتب والكتابات والبيانات والقرارات . . . عن فلسطين ما يفرش أرضها طولا وعرضا أكثر من عشر مرات (المساحة ٢٧,٠٢٤ كلم٢) ، ومع ذلك ظلت هذه القضية تتفاعل لصالح اسرائيل حتى الآن بل خسر العرب فوقها بعض الارض في مصر وسوريا والاردن ولبنان ، كما خسروا مواقع سياسية هامة مثل اعتراف مصر بها وعقد اتفاقتي « كامب ديفيد » معها .

ولد تيودور هيرتزل في بودابست عاصمة هنغاريا لابوين يهوديين ، وكانت هذه البلاد بالاضافة إلى فلسطين محط اهتمامه عندما عمل صحفيا متنقلا يحمل معه فكرة لانشاء دولة لليهود في « بلد بلا شعب لشعب بلا بلد » . ولم يكن هرتزل يحدد بلدا معينا ، بل كان المهم وجود الدولة لا الموقع الجغرافي لكن نائبا بريطانيا يهوديا هو السير

صموئيل مونتاج اصر أمامه على فلسطين ، وفكر في فلسطين أكبر من فلسطين القديمة .

وأول ما فكر بالسلطان العثماني عارضا عليه مساعدة اليهود وأموالهم مقابل فلسطين خاصة وأن الامبراطورية مفلسة فكان الرد : « لا استطيع أن أبيع قدما واحدة من البلد لأنه ليس ملكي بل ملك شعبي وحين تقسم الامبراطورية قد يأخذون فلسطين مقابل لا شيء . لكن لن تقسم إلا على جثثنا لأنني لن اسمح أبدا بتشريحنا أحياء »(١٩٧) .

وسافر هرتزل إلى فلسطين ، فسبب له يهودها كآبة ، كان معظمهم من السفارديم ، نسل اليهود الذين طردهم الملوك الكاثوليك من اسبانيا فلجأوا إلى بلاد الاسلام كما كانوا في الاندلس ببلاد الاسلام . ومع أن القليلين منهم أخذوا الجنسية العثمانية إلا أنهم اندمجوا جميعا في السكان الاصليين . يتكلمون العربية ويأكلون الاطعمة العربية ، ويلبسون الملابس العربية ، ما عدا القليل من الذين جاؤا من أواسط أوروبا في القرن التاسع عشر . كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم ، ويتزاوجون من بعضهم ، ويعملون في الزراعة مثل العرب .

وفي فلسطين قابل هرتزل قيصر ألمانيا وعرض عليه فكرته قال هرتزل : إن فلسطين هي البلد الذي « عاش » فيه اليهود في الماضي وإنها في وضعها الحاضر صالحة للاستعمار . فرد القيصر قائلا : إن الارض بحاجة إلى الماء والظل وهناك متسع للجميع ، لكن لا بد من توفير الماء والظل . قد يكون الاستعمار بالنسبة إلى الأهالي مثلا يحتذى(١٩٨) .

كانت بريطانيا أول من رعى فكر هرتزل في اختياره ، وأكثر من يربح من جنازة تركيا ، لأن فلسطين بالنسبة لبريطانيا تحمي الناحية الشرقية من قناة السويس ، ولذلك فإن « فلسطين يهودية » معتمدة على بريطانيا تكون قوة موازية لاطماع فرنسا وروسيا اللتين لهما عملاء في الشرق الاوسط . فقط وضعت روسيا الارثوذكس تحت رعايتها ، بينها أظهرت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر اهتماما بموارنة لبنان . أما بريطانيا فقد انتصرت لاقلية عميلة، وإن كان لها في مصر أسرة مالكة عميلة .

مع كل هذا التحرك أسرَّ هرتزل إلى صراف يهودي في همبورغ يدعى غوستاف كوهن بأنه يفكر كثيرا بقبرص كنقطة انطلاق فيما بعد لغزو فلسطين ، وربما كمستعمرة إضافية(١٩٩) وكثيرا ما تحدث في كتاباته عن العريش وشبه جزيرة سيناء ، وكتب في مذكراته بعد عودته من مصر إلى فيينا : « حسبت أن مسألة سيناء مؤكدة إلى حد أنني لم أشتر قبرا للاسرة في مقبرة دوبلنغز حيث دفن والدي مؤقتا . والآن اعتبرت الأمر منتهيا ، وذهبت إلى محكمة المقاطعة وحصلت على القبر رقم ٢٨ » .

وفي لندن قال له وزير بريطاني هو جوزيف تشمبرلين : « رأيت لك بلدا يا دكتور هرتزل في رحلاتي الأخيرة . إنها يوغندا . حارة في الساحل ولكن الجو في الداخل ممتاز بالنسبة للأوروبيين » . فلم تعجبه الفكرة لأنه لا يستطيع الدفاع عن شرق أفريقيا كمنطلق إلى فلسطين ، أو على الأقل كملجأ للخلاص وبذلك نرى أنه كان عند هرتزل الاستعداد الواضح بقبول بديل عن فلسطين لكنه لم يقرره لأنه مات عام ١٩٠٤ .

لكن كان لهرتزل تأثيره بعد موته أكثر من تأثيره وهو حي . ففي السنة التي سبقت موته نشرت صحيفة « زناميا » الروسية طوال اسبوعين أول مسودة معروفة « لبروتوكول حكماء صهيون » ذلك الكتاب الذي أصبح من حيث الرواج في الدرجة الأولى ، بعد أن أعيد نشره وترجمته إلى عدة لغات ، فكان هبة قسطنطين القرن العشرين ، وسبقت هذا الكتاب كتابات أدبية فكرتها الأساسية « الاعتقاد أن اليهود » يشكلون هيئة تدميرية متآمرة ، وقد اتخذت هذه الكتب كذريعة فيما بعد ليطلق اليهود أقاويل أبادت الملايين منهم في ألمانيا لأنهم متآمرين والدليل أن مؤلف « البروتوكول » لا يزال مجهولاً .

وباحتلال بريطانيا لفلسطين سهلت هجرة اليهود إليها فقد دخل إليها ٤٨٧,٠٠٠ يهودي بين سنتي ١٩١٩ و١٩٤٨ وفق الاحصاء الرسمي للانتداب ، وبسبب التسهيل الذي حصلوا عليه لاحتلال الاراضي فقد استولوا في الفترة نفسها على (١,٧٧٨,٠٠٠) دونم من الارض ، هذا عدا مساحات أخرى سهل لهم سبل الاستيلاء عليها عن طريق البيع ، وأكثرها ما اعتبره الانتداب من « املاك الدولة »

وتصرفت بـه لمصلحـه القـادمـين من الخـارج ، ومنهـا أراض بـاعهـا فلسـطينيـون ولبنانيون[٢٠٠] .

دخلت القضيـة الفلسطينيـة نظرا لخـطرها في السيـاسة الـدولية ، وبلغت منـابر الهيئات الدولية وكان الانجليز في سياستهم يديرون الحـوادث وفقا لمصـالحهم ، وكانت مواتية في الابقاء على صـداقة العـرب فجاؤا بفكـرة التقسيم الأول على أن يكـون لهم مقاما لدوامهم إلى الابد . فحذر قادة العرب من التقسيم ورفضه لأن في ذلك اعتراف بالصهيونية في فلسطين ، والاذعان للانجليز ، ومن هنا ازداد الخوف العربي من مخـاطر المستقبل على فلسطين ، والمواقع المقدسة فيها ، وقـد اشتعلت النفوس بـالثورة والحقـد على اليهود والانجليز ، واستفحلت النقمة ، وفي الـوقت نفسه كـانت الصهيونيـة تنمو والهجرة تمتد ، وتضيق سبل الرزق على العرب ، وقـد ارتفعت نفقات المعيشـة فبيعت الحاجات والاشياء بأثمان لم يعرفها الناس في زمن الحرب .

ثم حدث تطور آخر في قضيه فلسطين إذ دعت انجلترا إلى مؤتمر في لندن سمته مؤتمـر « المائـدة المستديـرة » وذلك عـام ١٩٣٩ حضره منـدوبون عن الـدول العـربيـة للمشاركة في حل القضية الفلسطينية وكان ذلك نواة فكرة قيام جامعة الدول العربية .

لقد انعقد هذا المؤتمر لاداء تجربة جديدة من تجارب السياسة الانجليزية فلم يجد العرب فيهم إلا أعوانا لليهود فخاب الرجاء بهذا المؤتمر ، وكانت الخيبـة منتظرة وكيف تطلب انصافا ممن هو خصمك وحكمك ! ؟ وانفض المؤتمر برجوع الوفـود العربيـة إلى بلادها لا تحمل في حقائبها غير حبر على ورق والقلوب ملأى بالاسى والحيرة[٢٠١] .

غير أن هذا المؤتمر وإن يكن مخيباً ودليلا على التزام الانجليز جانب اليهود فإنـه أظهر نتائج موضوعية في القضية الفلسطينيـة . ويكاد يكـون هذا الاجتمـاع أول التئام لشمـل العرب في وفـد واحد من أجـل المشكلة الكبرى التي قـامت في عصرنـا وأصاب الحزن من أجلها كل قلب عربي مؤمن بالحرية للشعوب وبتقرير المصير كما كـان صورة جلية للقومية العربية التي تكاتف أهلوها وكأنهم البناء المرصـوص يشد بعضـه بعضا في سبيل فلسطين الدامية المغلوبة لانقاذها من الكارثة المنتظرة(المصدر السابق) .

ورأى الانجليز أمامهم في هذا المؤتمر وفدا من العرب كل واحد من أعضائه قـد

تدرع بثقافة وسياسة لا تنطلي عليها الاحابيل الاستعمارية ، ولم يكد البريطانيون يحتكون بالرأي مع هذا الوفد العربي حتى وجدوا أنفسهم حيال رجال عالمين بخفايا السياسة الأوروبية وأفانين استعمارها ، ولم يكن يسند هذا الوفد العربي أساطيل وجيوش ليكون قويا مؤيدا فيفرض حلولا لقضيته .

وكيف كان الأمر ، فإن الانجليز رأوا في الوفد العربي الماثل أمامهم رجالا ذوي حجج وأدلة استطاعوا أن يفهموهم عن قرب مطالب القومية العربية في حق فلسطين وباطل اليهود . وكان الانجليز قبلئذ قد دعوا مدعيات اليهود وحسبوها حقائق ولم تكن سوى افتراء وبطلان ، جاءهم العرب في ديارهم يردون دعوى اليهود أخذوا بأعين الاعتبار والتمحيص ما سمعوا من العرب وإن كانوا في دخائل أنفسهم وفيما ظهر منهم من المماحكة والتسويف قد غمطوا الحق نصيبه وصبغوه بالباطل والتمويه (المصدر السابق) .

لقد ذهب اليهود في دعواهم بفلسطين إلى أنها ملك لهم كما تنص التوراة ، وأن الشعوب الرومانية والإسلامية التي جاءت إلى فلسطين كانت أيديها مغتصبة للارض التي استعمرتها ، فاليهود يريدون أن يعودوا بالتاريخ أدراجه حتى تخلص لهم فلسطين . وقد أتى على فلسطين حين من الدهر تداولتها فيه أيدي الفاتحين وطبعها كل فاتح بطوابعه فلما جاءها الاسلام كان المسلمون خير فاتحيها ، أخذوها من أيدي البيزنطيين الذين ساموها سوء العذاب فنشروا فيها العدل والرخاء ، وأقبل عليها عمر ابن الخطاب ومعه عبد الرحمن بن عوف بعد أن استقر فيها العرب وأراد عمر أن يرى بعينيه الارض التي بارك الله حولها والمسجد الاقصى . وكان كل ذلك كافيا على طوال السنين أن يطبع تلك الارض بالطابع الاسلامي الراسخ بعد أن خفقت أعلام الجيوش الاسلامية عليها أربعة عشر قرنا من عمر الزمان .

وقد تعود الانجليز عادة مطبعية بعد كل مؤتمر فينشرون كتابا عن موضوعه ومجرياته ، فهم تارة يسمونه الكتاب الاخضر أو الاسود وقد يشرحون فيه ما فاتهم شرحه ، فأصدروا بعد مؤتمر المائدة المستديرة كتابا من هذا القبيل سموه « الكتاب الابيض ». وقد كان في الكتاب موضع للنظر في قضية العرب بفلسطين كما سمعها الانجليز منهم وقد وضعوها تلقاء قضية اليهود (المصدر نفسه) .

وشاءت الظروف الدولية الخاصة بالانجليز أن تكشف لهم عن حقيقة اليهود المخادعين الغادرين الذين أصبحوا يكرهونهم . وتداولت الايام هذه الكراهية فزادت فيها لا سيما حين كان الانجليز يقيدون الهجرة مسايرة للعرب واتباعا لسياستهم الخاصة الاستعمارية بعدما وضح أمرهم (المصدر السابق) .

وأعقب هذه الظروف قيام الحرب العالمية الثانية التي دخلها الانجليز ، وقضت عليهم تعاليم الحرب أن يحترسوا كل الاحتراس من أن تخلق لهم قضية فلسطين مشاكل داخلية .

وكانت البلاد الفلسطينية ابان ذلك كارثة لهم ، العرب يكرهونهم لأنهم سبب بلائهم بما نقضوا من المواثيق التي قطعوها على أنفسهم للحسين أثناء الحرب العالمية الأولى ، واليهود بأقوالهم كارهين متربصين إذ لم يجدوهم منجزين كل الانجاز لما قطعوا على أنفسهم من الوعود في إعطائهم أرض فلسطين كما يشاؤ ون ، وعاشت فلسطين في الحرب العالمية الثانية في قلق دائم كلا الفريقين العرب واليهود آخذ حذره من الآخر لا يجد الفرصة مواتية للاحتكاك والتناحر ، وكانت هذه الحرب كافية لتظهر الانجليز على سوء نياتهم التي أضمروها لهم . وأخذ اليهود أواخر هذه الحرب يقومون بأعمال عدوانية ينزلونها بالانجليز أنفسهم مما أدهشهم في أن يقلب لهم اليهود ظهر المجن ، فاضطرت السلطات إلى ضرب حصار ليلي على المدن اليهودية والمستعمرات المنبثة منهم في بقاع فلسطين ، وفي ذلك الوقت تسرب يهوديان أرهابيان إلى مصر فقتلا في ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٤ اللورد موين وزير الدولة للشرق الاوسط المقيم بالقاهرة ، واستمرت هذه الحال الارهابية بفلسطين حتى تضخمت خلال عام ١٩٤٥ . (المصدر نفسه) .

وكانت السياسة الانجليزية التي توحي بها لندن ملتزمة جانب اليهود على الرغم من أفاعيلهم وشكاوى قادتهم وساستهم الموجودين في فلسطين من اليهود ، وقد كان المندوب السامي البريطاني قد أرسل تقريرا إلى لندن في شهر أيار (مايو) ١٩٤٧ يقول فيه معرضا بسياسة لندن :

« إن الطائفة اليهودية ترفض التعاون معنا لقمع الارهاب ولو سمح للجيش

باستعمال السلاح لمات الارهاب اليهودي في ساعات ولكن لندن لم تفكر بذلك»[٢٠٢].

وكان رجال الامن من الانجليز إذا أمسكوا يهوديا من الارهابيين أو المجرمين السياسيين حبسوه في حجرة وثيرة ولم يمنعوا عنه شيئا من الطعام والشراب ، وإذا صادروا عربيا أذاقوه أمر أنواع السجن وعاملوه مهما كان ذنبه خفيفا معاملتهم للمجرمين السفاحين .

وحدثت مفاجآت القضية الفلسطينية منذ تقاوى هتلر وأخذت جيوشه في الحرب العالمية الثانية تكتسح البلاد الأوروبية الواحدة تلو الأخرى ، ومنذ احتلت فرنسا وأشرفت عالجزر البريطانية على السقوط وهددها الأشهر الطوال بالغزو تغير الموقف في فلسطين ، بل غيره ، أمر آخر لا يقل خطرا عن الحرب نفسها ذلك أن هتلر « قام بحملة شعواء على العنصر اليهودي في أوروبا متبعا نظرية عرقية في تصفية الدم الألماني ». وتخليصه من اليهود ، وسادت النزعة الجرمانية فأخذت الالوف المؤلفة من اليهود تفزع إلى الهجرة أو ترمي بها في معسكرات الاعتقال وقد بلغ من إنزال العقوبات بهم أن « أجبرت النازية كبراء اليهود على كنس الشوارع ». وقد اتصل خبر ذلك كله بفلسطين ودب الرعب في قلوب اليهود فيها ، فلم تغمض أعينهم خوفا من بغتات الحرب فنامت شوكتهم قليلا وانتعش عرب فلسطين لأمر قادم ينقذهم من المستعمر والغاصب وذلك « من الحالات النفسية للشعوب فهي إذا أرهقها باغ وهد كيانها باتت ترتقب الخلاص على أية يد توصلها إلى حقها المسلوب». المصدر[٢٠٢].

وحل باليهود الفزع الأكبر حين ظهر القائد الألماني رومل في شمال أفريقيا فاحتل الذيار المغربية والطرابلسية ، وقبيل « معركة المعلمين » التي غيرت وجه العالم أجمع ، حزم اليهود أمرهم في الشرق ليفروا إلى البلاد الأميركية أو يلجأوا إلى الجزر البعيدة . وقد شهدت مصر ، إذ كانت أقرب البلاد العربية إلى موقعة العلمين ما حل باليهود من نزعة راعدة ، وظهر الماريشال مونتغومري بمظهر بطل خارق المواهب وكتب على يديه كسب معركة العلمين التي كانت سبب اندحار الألمان وملاحقتهم بالخسائر حتى أبواب برلين ، وكتب للجيش الانجليزي الظفر الكبير فعاد اليهود إلى الانتعاش والتأميل وعاشوا من جديد بعد أن لاح لهم الهلاك . وقد تكشفت هذه الحرب عن نتائج سود أضرت بمصالح العرب ، فإن اضطهاد اليهود في أوروبا فتح باب الهجرة إلى فلسطين

على مصراعيه لهم وكثر عددهم فيها كثرة مفزعة . (المصدر[٢٠٢]) .

وكان كسب أميركا الحرب حاملا الرضاء والغبطة لقلوب الصهيونيين في فلسطين وفي البلاد الاميركية وجر ذلك نتيجة أفدح وهي ميل الصهيونيين إلى الاميركيين وأخذ هؤلاء بنصرة اليهود وتأييدهم .

أما الانجليز فخرجوا من الحرب منهوكي القوى كأنهم أمة في الدرجة الرابعة بعد أن كانوا قبل هذه الحرب في الدرجة الأولى فتخلوا عن قضية فلسطين لتفتح أميركا صدرها وتعانق اليهود أصدقاءها الجدد في الشرق . وبذلك كانت الساعد الأول لهم قبل الانجليز .

وأظهر اليهود ابان الحرب الثانية دهاء عرفوا بمثله فبدوا للانجليز مستضعفين وطلبوا حمايتهم بتزويدهم بالسلاح ، فزودهم الانجليز بعتاد حربي كثير ليكونوا إلى صفهم حين تصل الحرب إليهم في الشرق العربي .

وتلد الحروب أهوالا لم تكن بالحسبان فإذا حزب جديد من العصابات اليهودية ينشأ في فلسطين للهدم والاغتيال والتقتيل فتظهر للوجود عصابات (الهاجانا) و (شتيرن) التي كان أعضاؤها من الشباب اليهودي المتحفز المغامر و (ارنجون زفاي ليومي) وصبت هذه العصابات نقمتها وحممها على العرب والانجليز معا (ظاهريا) .

وبات العرب يعجبون لتصاريف الزمن يرون أن ما كان بين اليهود والانجليز مماثل لما كان بين سنمار وصاحب القصر الممرد ، فقد جازى اليهود الانجليز « جزاء سنمار » .

وكانت (الوكالة اليهودية) منذ انشئت تنظم لاسرائيل أساليب الهجرة وهي متمتعة بالرعاية البريطانية ، وملخص دستورها يجيء في هذه العبارة : (اسداء النصح والتعاون مع السلطات البريطانية في ميادين الادارة والاقتصاد والاجتماع وسائر الأمور التي لها علاقة بإنشاء الوطن القومي لليهود) .

وقد قامت هذه الوكالة بتمثيل مسرحي في حياتها الباطنة والظاهرة ، فتارة كانت

تظهر للعرب أسباب التقريب بينهم وبين اليهود وآونة تدس سمومها في كل حل مطروح على بساط البحث وتشكو من أعمال العصابات ، وهي ذاتها التي كانت تزودهم بالتشجيع وتبذل ما تستطيع من أساليب الترغيب ليهود العالم لكي يجيئوا إلى فلسطين حتى زاد عددهم في سنة ١٩٤٥ زيادة كبيرة .

ولم يكن من الطبيعي ولا من المتفق مع الوضع الدولي أن تبقى فلسطين على ما هي عليه بعد الحرب العالمية الثانية ، ففتحت الابواب للهجرة إليها والعرب مكتوفي الايدي وفي نفوسهم غليان شديد ، وكان لا بد إذن من وقوع حدث أما الحرب بين العرب واليهود أو ما يقاربها وأدرك الانجليز مغبة الأمور ، فدعوا - تداركا للاصطدام - إلى تقسيم البلاد الفلسطينية إلى دولتين : عربية ويهودية وقد قررت الجمعية العمومية بإنجلترا هذا التقسيم في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧ .

لم يكن هذا الحل بجانب العرب ، وكان الانجليز قد اعتزموا إنهاء عهد الانتداب على فلسطين بعد أن رأوا العرب في الشرق الأدنى قد هبوا من كل جانب مطالبين بالحرية والاستقلال ، فهذه سورية تستقل بحكمها ويخرج الفرنسيون منها وكذلك الحال في لبنان ومصر متحفزة لاحداث وطنية كبرى ، وهي أقرب البلاد من الجنوب إلى فلسطين .

وكان الانجليز سببا في إفلات القضية الفلسطينية من أيديهم بما مكنوا لليهود من أسباب القوة وخرجوا من فلسطين ماكرين ليفسحوا المجال لتصادم العرب واليهود فكانت الحرب الفلسطينية العربية ، وكانت المحنة الكبرى للجيوش التي شاركت في الجهاد .

من الطبيعي أن تحصل النكبة لأن الذي قاد حرب فلسطين ووزع الأدوار فيها هم الانجليز بقيادة غلوب باشا الذي كان القائد العسكري لتلك الحرب تحت زعامة الملك عبد الله الذي قاد تلك الحرب سياسيا . فالاردن كانت تحت القبضة البريطانية مثل مصر تماما التي أعطت جيشها بأوامر من الملك وبإيحاء من الانجليز أسلحة فاسدة ، أما جيش الانقاذ فقد أشرفت جامعة الدول العربية على تأسيسه وتمويله وتسليحه ، وهي الجامعة التي أسسها البريطانيون أنفسهم ، أما سوريا ولبنان فقد كانا مجرد دولتين وليدتين لم يكونا جيشا بالمعنى الحقيقي .

فبريطانيا التي عرفت كيف تؤقت تخليها عن الانتداب تركت ما استطاعته من السلاح بأيدي اليهود، وقادت بنفسها الحرب ضدهم. لقد كانت العاطفة الدينية والقومية قوية عند المقاتلين، لكن هؤلاء دخلوا في حرب هذه المرة وليس في ثورة أو انتفاضة أو إضراب، وبقدر ما كان اليهود على قلتهم منظمين كان العرب على كثرتهم موزعين بين جيش الانقاذ وجيوش نظامية ومتطوعين من الدول العربية (الجهاد المقدس والوحدات المحلية المستقلة) لا تنسيق بينهم قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ ولا بعد هذا التاريخ. وإضافة إلى ما قيل عن الدور البريطاني في الحرب قيل أكثر منه عن قائد جيش الانقاذ فوزي القاوقجي «المحب للمال والظهور والمغالاة في التقارير التي كان يرفعها إلى اللجنة العسكرية . وعدم صلاحيته للقيادة[٢٠٣] ووصلت التهم إلى الطعن بوطنيته وإخلاصه القومي حسب ما سجلته منشورات المكتب العربي في برلين عام ١٩٤٣ ، وبلغ الأمر أقصاه حيث يعتبره مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني «رجلا يعمل في خدمة المخابرات البريطانية منذ أن اشترك في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٨»[٢٠٤]

لقد كانت بقية الدول العربية تحت نير الاستعمار لا تستطيع حراكا، والحركة القومية في المشرق الى جانب ذلك تعرضت إلى سلسلة من النكسات والهزائم قبل الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٣٨ طردت فرنسا رجال الكتلة الوطنية في سوريا من الحكم بعد أن كانت وقعت معهم معاهدة الاستقلال.

وفي أواخر صيف ١٩٣٩ كان الكفاح الفلسطيني المسلح يتعرض لضغوط كبيرة مع الحرب الثانية . وفي أواخر ١٩٤١ سحق الحكم القومي في العراق واحتلت بريطانيا بغداد وأعادت الأمير عبد الاله ونوري السعيد الى الحكم . وفي عام ١٩٤٥ هزم المحور وخرجت الى الوجود قوتان عالميتان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي فيها بدأت دول الاستعمار الغربي القديم مرحلة الهبوط رغم انتصاراتها في تلك الحرب .

وكانت الحرب العالمية الثانية احدى أهم نقاط التحول الكبرى في تاريخ الإنسانية في هذا القرن خاصة . ورغم هزيمتها في هذه الحرب عادت فرنسا إلى احتلال اقطار المغرب العربي وحاولت إخضاعها من جديد بالمذابح الوحشية والحملات

الارهابية لقطع الطريق على الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال.

وعمدت بريطانيا إلى إحكام سيطرتها في المشرق الغربي من خلال قواتها العسكرية من حدود ايران شرقا حتى اواسط ليبيا غربا، ومن خلال معاهداتها التي عقدت مع الانظمة التي جاءت بها هي أصلا في العراق ومصر والأردن والخليج والشواطىء الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية. أما فلسطين فقد كانت نتائج الحرب سيئة عليها إذ استطاعت أن تسدد ضربات قوية للحركة القومية فيها وتدعم الصهيونية.

كانت سوريا ولبنان وحدهما قد حصلتا على الاستقلال غير المشروط، لكن المؤامرات البريطانية لم تبتعد عنهما بهدف الحلول مكان فرنسا المنهزمة.

في هذه الفترة كانت الحركة الوطنية في تونس والمغرب والجزائر وليبيا تعيد النظر في أوضاعها السياسية والتنظيمية، وكانت الأحزاب والمنظمات الوطنية في مصر «الوفد» و«الاخوان المسلمين» و«الشيوعيون» والمجموعات اليسارية، وفي العراق «الشيوعيون» و« حزب الاستقلال » و« الحزب الديمقراطي » تناضل لالغاء المعاهدات التي فرضتها بريطانيا، والتي سعت لتجديدها بعد الحرب. وكانت القوى التقدمية في سوريا تسعى لحماية الاستقلال. اما في فلسطين فلم تكن القوى الوطنية قد استعادث قدرتها على النهوض وكانت قيادتها مضطهدة ومحاصرة من قبل البريطانيين والصهيونيين والرجعيين العرب ولكن هذه القيادة وخاصة مفتي فلسطين، تميزت برفضها للتسويات وكانت تسعى وتعد للكفاح المسلح منذ عام ١٩٤٦ عن طريق شراء الاسلحة والتدريب في سوريا، رغم افتقار هذه القيادة للوضوح النظري والقدرة على التنظيم الجماهيري، وحذرها المفرط من المنظمات التقدمية والنقابية وذلك بحكم تكوينها الاجتماعي المحافظ(٢٠٥).

في هذا الوقت كانت القوى السياسية في الغرب تتنافس على اكتساب ود الحركة الصهيونية التي نقلت مقر قياداتها إلى نيويورك بدلا من لندن ، وكان الاتحاد السوفياتي منهمكا في اعادة تعمير ما هدمته الحرب وتركيز الأوضاع الجديدة في أوروبا الشرقية ، وكانت الصين تعيش المرحلة الحاسمة من الحرب الاهلية الطويلة الدائرة على امتداد قرابة ربع قرن بين الحزب الشيوعي و« اللومنتانغ » في حين كانت البلدان المستعمرة تكافح لنيل استقلالها وحريتها .

ومن نتائج الحرب العالمية الثانية الاتفاق الدولي على استبدال «عصبة الأمم» بالأمم المتحدة وفق قوانين خاصة كانت السيطرة واضحة عليها ومنذ البداية للولايات المتحدة وعن طريقها وبواسطة الضغط الاميركي والحركة الصهيونية احيلت قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة لتقرير مصيرها، وسرعان ما شكلت لجنة تحقيق من ١١ مندوبا لدراسة المسألة(٢٠٦).

إزاء هذا اجتمعت الجامعة العربية في عاليه بلبنان لدراسة ما يجب اتخاذه من إجراءات خاصة بعد أن تبلورت ملامح المؤامرة من توصيات اللجنة الدولية. والغريب أن المؤتمر العربي قد اجتمع في غياب ممثلي فلسطين، ومن وراء ظهر حركتها الوطنية، لكن مفتي فلسطين جاء سرا من القاهرة إلى بيروت ليؤكد إصراره على تمثيل عرب فلسطين في الاجتماع، واستطاع رياض الصلح، ولكن مجلس الجامعة رفض معظم مقترحاته وفي طليعتها إعلان قيام حكومة عربية تتكلم باسم عرب فلسطين.

وكانت قرارات مجلس الجامعة «تأليف لجنة عسكرية من ممثلي الدول العربية لدرس القضية الفلسطينية من الناحية العسكرية ومعاونة أهل فلسطين في الدفاع عن أنفسهم وكيانهم وذلك بالاشراف على ادارة العمل وتنظيمه وصرف الأموال التي تخصصها الدول العربية لمعاونة أهل فلسطين(٢٠٧). وتشكلت اللجنة برئاسة اللواء اسماعيل صفوت (العراق) وعضوية العقيد محمود الهندي (سوريا) والمقدم الركن شوكت شقير (لبنان) وصبحي الخضرا (فلسطين). ولم ترسل مصر والأردن واليمن والسعودية أحدا من رجالها العسكريين ليمثلوها في اللجنة(٢٠٨) ورأت وزارة الدفاع العراقية في غياب هؤلاء ما «يدل على عدم اهتمامات الحكومات المذكورة بالناحية العسكرية، وإن شئت فقل على حذرها من أن تتقيد بالتزامات عسكرية لا ترغب فيها»(٢٠٩)

وقدمت اللجنة تقريرها الأول، وقد تضمن تأكيدا في قسمه الأول - الصهيونيون - على أن العدو في فلسطين «منظمات وتشكيلات سياسية وعسكرية وإدارية على درجة قصوى من النظام والاحكام وفي وسعها أن تنقلب فورا الى حكومة صهيونية لها كل ما تحتاج إليه من الوسائل والوسائط اللازمة للحكم» وأن لديهم «قوة كبيرة من الرجال والسلاح والعتاد في الوقت الحاضر» وقدرها التقرير بـ ٦٥ - ٧٥ الف

مقاتل، وكذلك فإن لديهم إمكانية تجنيد قوى احتياطية كبيرة «فيما إذا اعلنوا النفير العام» وشدد التقرير على خطورة مصير عرب فلسطين وخاصة منهم اولئك الذين يقطنون المناطق التي يشكل اليهود فيها الاكثرية، وأكد التقرير إلى احتمال اللجوء إلى عملية «القتل الجماعي» وهم بالتالي مهددون «بالفناء» نظرا لخشية الصهاينة من «بقاء عرب فلسطين وراء ظهرهم خاصة وان لهم تجارب وخبرات قتالية ضد بريطانيا والصهاينة طيلة سنوات الاحتلال والانتداب» ولهذا طالبت اللجنة بوجوب المباشرة بتسليح الفلسطينيين وتدريبهم وتنظيمهم.

لقد كان الرأي يومذاك أنه « يجب أن يترك للفلسطينيين أنفسهم عبء الدفاع عن بلادهم على أن تزودهم الحكومات العربية بالمال والسلاح والخبراء العسكريين[٢١٠] . ولكن هذه الاقتراحات لقيت اعتراضات من البريطانيين (طبعاً) الذين أخذوا يضغطون من خلال أعوانهم لتغيير مضمون هذه السياسة ، أي عدم تسليح عرب فلسطين وعدم السماح لهم بتحمل عبء المعركة لا حباً بهم وبقصد تجنيبهم مآسي القتال وآلامه ولكن لتحقيق أغراض سياسية معينة . فقد كانت بريطانيا أقدر على التحكم بالأمور في الدول العربية ، ومع حكامها أكثر من الفلسطينيين كشعب . وكانت أيضاً تقاوم هذا الاتجاه بالضغط على الحكومات العربية سفاراتها . ومن خلال الاتصالات التي كان يقوم بها مسؤول المخابرات البريطانية في المنطقة العربية الجنرال كلايتون ـ وكان مقيماً في القاهرة ـ ومن خلال غلوب باشا الذي كان يوجه سياسة الحكم في الأردن ، ومن خلال الجنرال فوكس ـ الخبير بوزارة الدفاع في سوريا ـ والكولونيل ستيرلنغ الذي « أحب » دمشق وأقام فيها ! وغيرهم من انجليز وعرب .

كانت بريطانيا تسعى لتقسيم فلسطين منذ أن أصدرت لجنة بيل الملكية البريطانية توصياتها عام ١٩٣٧ . وقد رفض العرب هذه السياسة واستأنف الفلسطينيون القتال ثانية عام ١٩٣٧ واستمروا حتى عام ١٩٣٩ ، ويومها اضطرت بريطانيا لتجميد هذه السياسة بسبب تطورات الوضع الدولي وتزايد النشاط النازي والفاشي في أوروبا وافريقيا والشرق الأقصى ، ويومها أعلنت الكتاب الأبيض الذي استهدف تهدئة العرب ريثما تنتهي أزمة الصراع ، في حين بقيت عملياً تساند المشاريع الصهيونية في الهجرة والتسلح .

بالنسبة للعرب كان هناك تياران يمكن تلخيص أبرز ملامحهما كما يلي :

الأول: وكان يرى أن يقبل العرب بتسوية سياسية يتفق عليها مع بريطانيا، وتقضي أساساً بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ، وذلك انطلاقاً من « عدم قدرة العَرب على مواجهة الانجليز والقبول بالحلول الواقعية . . . ولأن العرب يستطيعون الوقوف أمام مشاريع بريطانيا والصهيونية ، ولهذا فعلى العرب أن يعملوا وفق سياسة « خذ وطالب » ، وهي السياسة الاستسلامية التي درج أعوان بريطانيا على اتباعها في المنطقة العربية ، وكان هذا التيار يتبنى سياسة بريطانيا ومشاريعها ويرفض فكرة المقاومة ومبدأ الكفاح المسلح وعلى رأس هؤلاء كان يقف أصدقاء الانجليز مثل نوري السعيد والرجعيين الفلسطينيين .

الثاني : وكان يرفض الحل الأول ، ويؤكد على ضرورة اعلان استقلال فلسطين وأن « النظام الوحيد الذي يقبله العرب لفلسطين هو انشاء دولة عربية سيدة ومستقلة . . . وأن عرب فلسطين يؤكدون قطعاً بأنهم لا يعترفون بحق دولة أو دول أجنبية بحرمانهم من حقهم الطبيعي في الاستقلال أو بأن تخضع بلادهم لتدخل الأجانب » . . .[٢١١] وأن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو المقاومة المسلحة والقتال والعبء على الفلسطينيين أنفسهم ، وهم يحصلون على استقلالهم

لقد رفضت الزعامات العربية رأي أصحاب هذا الاتجاه تحت الضغوطات البريطانية التي لها الرأي الأول والأخير، وأبعد الفلسطينيون عن الدفاع عن قضيتهم، وإن كان قد سمح لهم بالمشاركة بالدفاع عنها تحت الوية عربية قادتهم إلى النكبة الأولى ، ولم يفسح للفلسطينيين باستلام زمام أمورهم بأنفسهم إلا عام ١٩٦٥ برغبة من عبدالناصر حين تأسست فتح وجناحها العسكري العاصفة ، وبدأت عملها من مصر وغزة بصورة سرية . .

وصدر قرار تشكيل جيش الانقاذ عن اللجنة العسكرية بموافقة الأمين العام لجامعة الدول العربية عبدالرحمن عزام باعتباره رئيساً للجنة فلسطينية .

عندما تأكد لبريطانيا اصرار العرب على تسليح الفلسطينيين اتخذوا قراراً بمنع بيع العرب السلاح وتساهلوا في توصيل الأسلحة التي استعملت في عهد ابراهيم باشا

والـوهابيـين في نجد التي قـدمتها بعض الـدول العـربيـة التي تعمـدت بعـدم تسـديـد الالتزامات المالية كثمن للأسلحة التي بيعت ، وكان الهدف من ذلك اضعاف قـدرات المقاومة المسلحة أو تقليص جهدها .

وكان الوجه الآخر لمقاومة دعاة محاربة التقسيم هو القبـول الشكلي بـانشاء القـوة العـربية المتحـركة ولكن بعـد تقييدهـا من نـاحيـة الحجم والتسلح وبمحـاولـة التحكم بقيادتها ، وكان القصد من القبـول بهذه القـوة هو أن تلعب دوراً سيـاسياً ، بـالدرجـة الأولى يستهدف تخديـر الجماهـير العربيـة وتغطيـة مسألـة عدم تسليـح عرب فلسـطين واظهار تأكيد المشاركة العربية في حماية عروبة فلسطين .

لقد اعتبر الانجليز وأعوانهم جيش الانقـاذ وسيلة ، أو بالأحـرى شر لا بـد منه لتقليص حجم الكفاح المسلح ، بعد أن تبين لهؤلاء استحالة الوقوف في وجه الجماهير الغاضبة ، وصعوبة تأييدهم قرار التقسيم ومعارضة الدعوة للكفاح المسلح بسبب تلك الحماسة الشعبية الجارفة لمقاومة قيام دولة يهودية في فلسطين .

وكـانت النظرة الثـانية تعتبـر التطوع في جيش الانقـاذ عملاً وطنيـاً ، وقد جـاء المتطوعون من دمشق وحلب (من كل الأحزاب الـوطنية) ومن لبنـان ، وتونس وليبيـا والمغرب والعراق ، والأردن (قبائل الحويطات وبني صخر) ومصر (الاخوان والوفد) وحـاولت هيئة الضبـاط الأحرار بقيـادة جمال عبـدالناصـر الاشتراك في الكفـاح المسلح بعدما استقال عدد كبير من الضباط والجنـود في سوريـا والعراق لـلانضواء في الكفـاح المسلح ، ولكن حكومة النقراشي في مصر وقفت في طـريقها ، ومـع ذلك اشتـرك من الضبـاط الأحرار ابـراهيم كمال الـدين حسين مـع قوات أحمـد عبدالعـزيز ومتـطوعي « الاخوان » في المنطقة الجنوبية .

إن الغـرض من تشكيـل جيش الانقـاذ لم يكن واضحـاً ، وقـد تعـددت الآراء حـوله ، مـا يعتبره العسكـريون تـوفره « أمـراً أساسيـاً جداً » بـل كـانت وراء تشكيله أغـراض متعددة تـراوحت بين تصـور القدرة عـلى استخـدام منـاورات عـرض القـوة العسكـرية لتحقيق أهـداف سياسيـة دون دفع ثمن جـدي ، وبين الانـدفـاع المعنـوي والحمـاسـة العـاطفيـة التي تصـور أصحـابهـا أنهم يمثـل تلك الأوضـاع السيـاسيـة والاجتماعية ، وبمثل هذه الامكانيات الضئيلة كانوا قادرين على تحرير فلسطين وتصفية

مشاريع الاستعمار والصهيونية في بلادنا .

كان كل شيء يشير إلى التشتت في الاتجاه وعدم وضوح الرؤ ية السياسية وغياب الاستراتيجية والبرنامج السياسي ، وقد أدى هذا إلى عدم تحديد العدو من الصديق ، ومن يمكن تحييده ، بالاضافة إلى فقدان الدراسة الموضوعية الشاملة للامكانيات الفعلية وحجم هذه الامكانيات والقدرات وحدودها ، كما تقدر ادراك حقيقة طاقات الخصم وعدم الالمام بامكانية ، وما ولده ذلك من « خلافات بين السياسيين والعسكريين »(٢١٢).

لقد خاض العرب حرب فلسطين (١٩٤٨) في هذه الظروف ، وكانت الحرب في منطق ذلك الزمن عشائرية وحماسية لا قاعدة عسكرية لها ، وبقدر ما كان العدد العربي كبيراً كانت الضحايا كبيرة ازاء « الهجانا » الاسرائيلية المنظمة التي كانت تعرف ماذا تريد ، وليس في صفوفها خونة لا على صعيد المقاتلين ولا القياديين ، ولا أريد أن أدخل في التفاصيل لأسباب عدة . لقد عادت بعض الفرق المقاتلة في فلسطين وهي مهزومة وبعض أفرادها يهتفون « يا فلسطين جينالك » ، وفي النهاية انتصرت الخيانة .

اقيل القاوقجي بعد سقوط الجليل ، ولم يكن اعفاء الرجل الا الخطوة الأولى الهادفة للتخلص من جيشه وكافة مظاهر المرحلة السياسية التي تشير إلى نهاية سياسة الرفض المبدئي لوجود « دولة اسرائيل المزعومة » لتبدأ مرحلة جديدة تقول ضمناً أو علناً بوجوب القبول بالأمر الواقع ، أي الاعتراف الواقعي بوجود دولة اسرائيل ، من خلال عقد الهدنة وتشكيل لجان الهدنة المشتركة والتعايش معها في الأمم المتحدة ولجانها ثم ببدء العرب لتنظيم المقاطعة الاقتصادية وذلك كجزء من تطوير نوعية مقاتلة هذه الدولة المعادية . . . الخ وكلف العقيد أنور بنود ـ من الجيش السوري ـ بقيادة وحدات الانقاذ، وبقيت هذه القوة في جنوب لبنان متمركزة في بنت جبيل وعين ابل وتبنين، ثم انتقلت في آذار (مارس) ١٩٤٩ إلى سوريا . وفي أوائل أيار (مايو) ١٩٤٩ ، وبعد أن بدأت الدول العربية توقع اتفاقات الهدنة الدائمة في رودس ، صدرت الأوامر من الجامعة العربية بتسريح قوات جيش الانقاذ وانهاء مهمتها وجرى بالفعل حلها رسمياً .

وهناك آراء واجتهادات عديدة في تفسير سبب حل جيش الانقاذ . هناك من

يقول إنه حل لتوقف تمويل الجامعة العربية ـ من هؤلاء المقدم شوكت شقير ـ ويرجع سبب التوقف من تمويله إلى أن مصر ـ وهي أكبر الدول العربية والمساهمة الأولى ـ بدأت تقبض يدها على تسديد التزاماتها المالية للانقاذ خاصة بعد أن رأت حالته متدهورة ودوره في المعارك دون المتوقع . وأهم الأسباب ـ هي ردود الفعل السلبية التي كانت تعيشها القيادة السياسية والعسكرية المصرية يومذاك بعد خوضها منفردة جولتين من معارك النقب (الضباط الأحرار) في حين وقفت الأنظمة العربية كلها وقفة المساندة الاعلامية الساخنة . واتخذت موقف الجمود وعدم المساندة العسكرية . فكان أن قويت أصوات العزلة في مصر ، وبدأت سياسة التراجع والانطواء في الساحة العربية ، وطبيعي أن يكون من نتائج ذلك تقليل مشاركتها في أية نشاطات عربية ، وكان الانفاق على جيش الانقاذ أبرز تلك المساهمات والنشاطات المصرية (فتش عن بريطانيا) .

وهناك من يقول إن وراء حل الانقاذ أن القيادة السورية العسكرية والسياسية كانت متخوفة يومذاك من نشاطات بعض كبار الضباط ، وخشيت أن يعمد بعضهم للقيام بحركة عسكرية ضد حكام دمشق ، بايحاء من الملك عبدالله ، والحكم في الأردن ، ولقد جرى اعتقال بعض الضباط ـ أحدهم النقيب وصفي التل ـ في أوائل عام ١٩٤٩ ، ولهذا رحبت دمشق باجراء التعديلات الأساسية في قيادته عند اعادة تنظيم قيادته بعد الانسحاب من الجليل .

اما عن تقييم الانقاذ ففي الحقيقة هناك موقفان ورأيان متعارضان .

الأول ينظر إلى هذا الجيش من زاوية الحماسة لوجوب « تسجيل حوادث وأمجاد تلك الحقبة» التاريخية التي عمل فيها جيش الانقاذ ما لم تعمله بقية الجيوش وأضاع أكثر من نصف موجودة من شهيد وجريح وأتى بتلك البطولات التاريخية . . . إن قيمة كفاح هذا الجيش وتأثيره لا يمكن تقديره إلا عندما يدون تاريخ الكفاح العربي بقلم وضمير منصف فعندها فقط تظهر حقيقة البطولات والتضحيات المتفجرة عن عقيدة عربية وايمان خالص بقدسية الأوطان العربية والتي كان يحملها كل فرد من أفراد هذا الجيش(٢١٣) .

والثاني ينظر إلى الجيش نظرة سلبية إلى أقصى الحدود . وإذا كانت هذه الدراسة قد نقلت آراء السباعي والشريف ، وفيها الكثير من التحامل وافتقاد الروح الموضوعية فإن هناك آخرين تجنوا على الانقاذ وظلموه . فالعارف يرى أن الانقاذ « خيب آمال الأمة العربية فيه . فلم يأت بأي عمل يذكر . لا بل أنه فشل في مهمته فشلاً ذريعاً . . وكيف يرجى الخير من جيش كهذا ، قوامه خليط من الناس ، لا يجمعهم جامع ، ولا يردعهم رادع . وليس لهم مثل أعلى يجاهدون في سبيله صفاً واحداً ويداً واحدة . . . إن رجال جيش الانقاذ اساؤوا للناس أكثر من احسانهم إليهم . . . »[٢١٤] . كذلك تتحامل « جمعية انقاذ فلسطين » في بغداد على هذا الجيش إذ تراه « نجح في ايجاد دعاية واسعة له كما نجح في الحصول على أكثر مساعدات اللجنة العسكرية والذي كان بالامكان أن يقوم بأعمال جليلة الشأن ، بعيدة الأثر ، وأن يحول دون سقوط كثير من المواقع في أيدي اليهود ، إن هذا الجيش كان في كثير من مواقفه وتصرفاته مجانباً للمصلحة الوطنية . . . مما نعتبر أن قيادته مسؤولة عن ذلك . . . »[٢١٥]. ولكن في هذه الأقوال الكثير من الظلم والتجني ، فالانقاذ قاتل كما قاتلت الجيوش العربية ، بل أنه قاتل أحسن وأفضل من قتال بعضها في تلك الفترة ، لهذا لا يمكن أن توجه مثل هذه الاتهامات لمثل هذه الوحدات التي شكلت الانقاذ ، ولعل بعضها أدى واجبه بشكل مثالي ونموذجي ، وما كان بوسعها ولا بوسع غيرها أن يقوم بأفضل مما قامت به بعض وحدات الانقاذ في تلك الظروف .

هل كان الانقاذ جيشاً نظامياً ؟ أم كان مجموعات من المقاتلين غير النظاميين ؟ أم كان عصابات تحرير وطني ؟

يرى القصري أن الجامعة العربية « جمعت بعض المتطوعين وباشرت بتدريبهم وتسليحهم على عجل وشكلت منهم وحدات عسكرية شبه نظامية . وبمدة شهر أرسلت قسماً منهم إلى ميادين القتال . والحقيقة لم يكن لدى هؤلاء المتطوعين الاستعداد الكافي ليقاتلوا كوحدات نظامية أو كوحدات غير نظامية لأن العدو كان مدرباً ومسلحاً يجب أن يقابل بقوة أشد منه »[٢١٦] .

والواقع فإن قوات الانقاذ بحكم تكوينها ونوعية تدريبها وتسليحها كانت في الحقيقة تفتقد الكثير من متطلبات الجيش النظامي . فهي عملياً كانت من حيث

المقاتلين والبناء والتدريب والتسليح والكوادر دون الجيوش النظامية التقليدية بكثير . ولكنها في الوقت نفسه رغم كونها ليست عصابات تحرير وطني إلا أنها أخذت من عصابات التحرير الوطني (وهي عادة نواة جيوش التحرير أو الجيوش الشعبية الثورية) مبرر وجودها ، أي الهدف السياسي الذي جمع أفرادها لحمل السلاح ، أي أن الانقاذ تشكل بقصد تحرير أرض الوطن وانقاذ شعبه من الاستعمار والصهيونية . وعلى هذا فإن قوات الانقاذ كانت قوات شبه نظامية وكان من الممكن أن تتحول بارتفاع مستوى تدريبها وضبطها وتسليحها لتكون كالقوات النظامية ، وكان من الممكن أيضاً ، لو استمر القتال ضد الصهاينة وتوفرت قيادة سياسية عسكرية أكثر تقدماً وتفتحاً ، أن تتحول ، خاصة لو التقت كوادرها مع كوادر الجهاد المقدس ، لتتحول إلى جيش شعبي ثوري .

ولكن السؤال الأهم هو هل فشل الانقاذ ولماذا ؟ وقد يكون في الجواب على هذا التساؤ ل بعض الجواب على سبب الفشل في مواجهة الصهيونية في معاركنا العديدة السابقة .

ما من شك في أن الانقاذ ، كجزء من المواجهة العربية في عام ١٩٤٨ ، قد فشل في تحقيق الهدف الذي تشكل من أجله ، وهو الحيلولة دون قيام اسرائيل . اما أسباب هذا الفشل فيرى المقدم شقير أن « أهمها : ١ ـ عدد المقاتلين اليهود كان أكبر دائماً من العرب ، إذ كانوا يجمعون دائماً على كل جهة يهاجمونها قوات أكبر من القوات العربية . ٢ ـ لديهم قيادة واحدة مقابل قيادات عربية لا تنسيق بينها . . . وفي حالة الانقاذ لم يقم تنسيق مع الجيش السوري . ٣ ـ تسليح اليهود بعد الهدنة الثانية كان متفوقاً على التسليح العربي . ٤ ـ لدى اليهود ايمان واقدام وتنظيم . . . »[٢١٧] .

أما عن رأي العدو في أسباب هزائمنا فإن ايغال الون يعتقد « أن الطاقة العسكرية تعتمد على خمسة عوامل رئيسية هي : ١ ـ قوتها البشرية ، ٢ ـ موقعها الجغرافي الاستراتيجي ، ٣ ـ مواردها الاقتصادية ، ٤ ـ وضعها السياسي ومكانتها في المسرح الدولي ، ٥ ـ نظامها الاجتماعي والسياسي » .

وعند مراجعة حقائق وأرقام الوضع القائم في الوقت الحاضر فإنها تؤكد بوضوح بأن الأقطار العربية تتفوق بشكل قاطع في العوامل الأربعة الأولى ، في حين أن

باستطاعة اسرائيل أن تزعم التفوق في عامل واحد فقط هو : نوع وطبيعة تكوينها الاجتماعي ونظام الحكم والقيم فيها . . . »[٢١٨] . ويعيد آلون تأكيد هذه النقطة حيث يضيف : « لقد كان العامل الوحيد للطاقة العسكرية الذي تفوقت فيه اسرائيل على اعدائها ، من دون شك ، هو نظامها الاجتماعي . فحقيقة كونها ديمقراطية سياسية واجتماعية وسط أنظمة قبلية متخلفة أوتوقراطية أو دكتاتورية كانت في حد ذاتهاميزة لصالحها ، وبتأثيراتها توازنت ، بل وفي بعض الأحيان رجحت على جميع العوامل الأخرى مجتمعة »[٢١٩] . ويعيد آلون هذا التأكيد في مكان آخر ليشير أن الحرب مع العرب « ليست بين جيشين وأمتين بل كانت صداماً بين نظامين اجتماعيين وسياسيين متصارعين . . . وبالاضافة ليست هناك حتى الآن وحدة عربية ، فالدول العربية لم تستطع حتى ألآن أن تعمل مجتمعة وموحدة الصف . . . »[٢٢٠] .

إن الانقاذ رغم الدور الهام الذي لعبه ما كان ليستطيع أن يحصل على نتائج أفضل في نوعيتها في ظل تلك الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة يومذاك . كيف كان الانقاذ يستطيع أن يقاتل وينتصر والأنظمة القائمة كانت بطبيعة تكوينها تخشى القتال الجاد لأنه ينشط حركة التقدم الاجتماعي ويحرك الجماهير وكانت على تلك العلاقة العضوية بالاستعمار ؟ كيف كان الانقاذ يستطيع أن يقاتل وليس في فلسطين وحدة وطنية بل هناك صراعات وتناقضات عميقة محلية وعربية ؟ وهل كان القاوقجي يستطيع أن يحقق شيئاً جدياً والوضع في الأردن على ما كان عليه رغم ايمان قائد الانقاذ العميق «بوجوب الاستفادة من شرق الأردن كقاعدة للحركات في فلسطين إذ كانت هذه هي فكرته القديمة التي ابداها في عام ١٩٢٩ ؟ »[٢٢١] .

إن الأمر الأساسي هو ما ذهب إليه شوكت شقير ولمسه لمساً خفيفاً حين قال في تفسير أسباب هزيمتنا : « لدى اليهود ايمان واقدام وتنظيم » ، وهذا الرأي يلتقي في جوهره مع تشخيص ايغال آلون حين أكد على الأهمية الحاسمة لطبيعة النظام الاجتماعي والسياسي . ذلك أن ما يفتقده الانقاذ في الماضي وما يحتاجه كفاحنا الراهن هو توفر تلك القيادة القادرة على رسم البرنامج السياسي لثورتنا المعادية للامبريالية والصهيونية مع الوسائل القادرة على بناء جبهة وطنية تضم كافة القوى والطبقات الشعبية العازمة على الكفاح المسلح ناظرة إليه من زاوية تاريخية تقوم على أساس أن الشعوب التي تقاتل من أجل مصيرها وأوطانها لا تضع في الميزان مسألة الربح

والخسارة ، إذ أن مثل هذه الحسابات هي سياسة الغزاة ومواقف المعتدين وحساباتهم ، إنما تنظر إلى الكفاح المسلح والنضال الدامي من الزاوية التي وقف عندها قادة فيتنام السياسيون والعسكريون برئاسة هوشي منه قبيل اعلان حربهم التحررية الوطنية حين استكثر بعضهم ضخامة الثمن الذي سيدفعه شعبهم ووطنهم فكان السؤال : هل أن وحدة فيتنام وحريتها أهم وأغلى أم الثمن الكبير المطلوب منا دفعه لمقاتلة الاستعمار وتحرير بلادنا ؟ وكان الجواب الفيبت مينة علىٰ لسان هوشي منه لجماهير فيتنام تاريخياً حاسماً وقاطعاً كحد السيف : « إن وحدة فيتنام وحريتها أغلى وأهم بكثير من أي شيء آخر . أعز من أية تضحية وخسارة . امامنا طريق واحد : أن نقاتل ولو كلفنا ذلك أن لا يبقى على وجه وطننا جسر أو معمل أو بيت . . . نقاتل ولو مسح العمران من على وجه ووطننا . . . ولو أعادنا المستعمرون إلى العصر الحجري . . . حريتنا ووحدتنا أهم من أي شيء آخر وليس هناك ما يوازيها » .

ليس هنالك من قضية تصدرت أحداث العالم أكثر من قضية فلسطين فمنذ عام ١٩١٧ ، تاريخ وعد بلفور ، حتى الآن ، وقضية فلسطين تستقطب ، باستمرار ، اهتمام العالم كله . وفي فترة ما بين الحربين العالميتين كانت فلسطين مسرحاً لحركات سياسية . اضطرابات وثورات ، سببتها سياسة الوطن القومي اليهودي . وجاءت إلى فلسطين لجان ملكية بريطانية للتحقيق في أسباب الاضطرابات ، ووضعت تلك اللجان تقاريرها ، ولم تنفذ التوصيات الواردة فيها بسبب الضغط الصهيوني على الرأي العام البريطاني والولايات المتحدة الأميركية خاصة .

عام ١٩٤٦ طلب الرئيس الأميركي ترومان ، تحت ضغط « اللوبي » الصهيوني من بريطانيا فتح باب فلسطين للهجرة اليهودية ، وألح على ادخال مائة ألف مهاجر يهودي .

وحدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه هجرة الخمسة وسبعين ألف مهاجر المقررة في الكتاب الأبيض البريطاني العام ١٩٣٩ ، قد تمت ، ووجب بالتالي اغلاق باب الهجرة ، وفقاً للسياسة المعلنة في الكتاب الأبيض .

ولكي تتخلص بريطانيا من موجباتها ، ولتحميل الولايات المتحدة المسؤولية في أية خطوة تقدم عليها في فلسطين ، اقترحت الحكومة البريطانية تشكيل لجنة انكليزية ـ أميركية لدرس قضية فلسطين وتقديم مقترحات لمعالجتها . وتم تشكيل اللجنة ـ مع أن

اللجان لم تنقذ القضية الفلسطينية ، ورغب العرب في معالجتها ، ولكن الحكومة البريطانية سعت لدى عرب فلسطين ، ومع الدول العربية ، لاستقبال اللجنة .

واقترحت اللجنة ، لعلاج الارهاب اليهودي ، فتح باب الهجرة بمعدل ألف وخمسمائة مهاجر في الشهر . ورفض العرب الاقتراح ، ولكن اللجنة تجاوزت الرفض العربي وسمحت بالمعدل المذكور مدعية أن السماح سيستمر لمدة أربعة أشهر فقط . هي عمل اللجنة المذكورة والواقع أن الهجرة لم تقف في نهاية الأشهر الأربعة

وبعد أربعة أشهر من أعمال اللجنة وتنقلها في الدول العربية أصدرت تقريرها وفيه :

١ ـ أوصت بادخال ١٠٠ ألف مهاجر يهودي جديد ومنه ما طالب به الرئيس ترومان .

٢ ـ هجرة اليهود إلى فلسطين يجب أن لا تتوقف على رضا العرب ، إذ لا مجال لهجرة اليهود إلى غير فلسطين .

٣ ـ طلبت اللجنة من العرب « لبواعث انسانية » أن لا يمانعوا في هجرة اليهود إلى فلسطين .

٤ ـ قالت إن صلة اليهود بفلسطين قديمة ، وإن العرب هم أصحاب فلسطين ، وهم يشكلون الأكثرية العظمى فيها . ومن هذين المنطلقين توصلت إلى المساواة بين الفريقين وإلى رد دعوييهما وقضت بأن لا تكون فلسطين دولةً عربية ولا دولة يهودية ، بل دولة تعمل على التوفيق بين الأماني المشروعة للعرب ولليهود ويجب أن لا تكون الكلمة العليا فيها للأكثرية العددية .

٥ ـ حاولت اللجنة أن تفرق بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين ، ولكنها فشلت .

٦ ـ أوصت بابطال القوانين والأنظمة التي تحد من انتقال الأراضي إلى اليهود .

هذا التقرير جاء منكراً لكل مبادىء الديمقراطية والحق والعدل ، فرفضه العرب رفضاً قاطعاً وكان الرفض اجماعياً في فلسطين وسائر البلدان العربية . وطالب العرب بعقد مؤتمر عربي ـ بريطاني اجتمع في دورتين ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ . وهو المؤتمر الذي

تقدمت فيه بمشروع تقسيمي يبقي الانتداب البريطاني مستمرا ، ويفتح باب الهجرة . ورفض العرض مقابل مشروع عربي يقوم على أساس الغاء الانتداب واعلان استقلال فلسطين . ويشترك في اقامة الاستقلال العرب ، واليهود الحاملون بصورة شرعية ، الجنسية الفلسطينية ، ويمثلون في الحكومة الوطنية بنسبة عددهم .

ومع أن هذا العرض يشبه لدرجة ما السياسة التي اقترحها « الكتاب الأبيض » فإن بريطانيا لم توافق عليه ، وتنصلت من العهود السابقة بداعي أن حكومة أخرى التزمت به .

وعرض البريطانيون مشروعاً آخر يتضمن قبولهم هجرة مائة ألف يهودي خلال سنين ، وأن تصبح فلسطين مستقلة بعد خمس سنوات بشرط أن تستمر الهجرة وأن يتفق العرب واليهود على الدستور . ورفض المشروع الجديد ونقلت بريطانيا القضية إلى الأمم المتحدة (التي سيطرت عليها الولايات المتحدة) بحجة أن بريطانيا فشلت في تطبيق الانتداب لما احتواه من التزامات متعارضة .

لقد وطدت بريطانيا اقدام اليهود في فلسطين سواء برغبتها الحقيقية أو رغماً عنها ، وأصبح الوليد الذي جاءت به شاباً تعهدته بالتسليح والتدريب والاعداد للاستيلاء على البلاد ، في هذا الوقت عرضت بريطانيا التخلي عن مسؤوليتها في فلسطين تاركة البلد للحرب .

ولكنها ألم تترك الهند ، عام ١٩٤٧ في نفس الوضع ؟ وبعدها قبرص ؟

ووصلت القضية إلى الأمم المتحدة (١٩٤٧) وتشكلت لجنة خاصة للتحقيق في القضية الفلسطينية وكان ميل هذه اللجنة إلى اقرار التقسيم الذي صوتت عليه الأمم المتحدة فيها بعد بأكثرية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ وامتناع ١٠ . وهذا ما رفضه العرب فيما بعد وأذن بأحداث جسام بدأت بالمظاهرات والاضرابات وتطورت إلى معارك وحرب دموية اتسمت بالشدة والشراسة . وتدخلت الولايات عبر الأمم المتحدة لايقاف عملية التقسيم ، وإلى اقامة وصاية على فلسطين تخضع لمجلس الوصاية في الأمم المتحدة ، وكان القرار الدولي بعد معارضة اليهود مشروع التقسيم ، وتخلي الأميركيين عن مشروع الوصاية ، وتعيين وسيط يكلف بالعمل على ايجاد تسوية سلمية لقضية فلسطين (الكونت برنادوت) .

وقام الوسيط بوضع شروط تطبيق الهدنة وأبلغها إلى الدول العربية الأربع التي كانت تقاتل في فلسطين ، وكانت هذه الهدنة هي القوة المساعدة لليهود ، إذ استعدوا لاستئناف القتال بعدما وافق العرب على الهدنة (سوريا ، مصر ، الأردن ، لبنان) .

واستؤنفت الحرب بعد أن استكمل اليهود استعدادهم ، وتجاوزوا حدود التقسيم واستولوا على الجليل الغربي واللد والرملة وجزء من المثلث العربي في وسط فلسطين .

ولم يستمر القتال هذه المرة سوى عشرة أيام ، وبدأت الهدنة الثانية ، وكانت هدنة غير مقيدة بزمن . ومع ذلك استمر اليهود بالهجوم واستولوا على بئر السبع ، وبيت جبرين ، وقرى لبنانية ، وفي جنوب فلسطين احتلوا العوجة ، وساروا في اتجاه خليج العقبة واحتلوا أم الرشاش التي أصبحت ايلات ـ احتلوها بعد الهدنة ووقف القتال .

كانت اتفاقيات الهدنة بين مصر واليهود (مصر تحت السلطة البريطانية) ـ لم يذكر اسم اسرائيل في الاتفاقيات ، بل جيء على ذكر الأطراف المتعاقدة ـ وقد عقدت في جزيرة رودس ١٩٤٩ ، والثانية مع لبنان ، والثالثة مع الأردن ، والأخيرة مع سوريا .

وكان الارهاب الصهيوني قد صفّى برنادوت بسبب تصرفاته المتحررة وميله إلى احقاق الحق .

وخسر العرب المعركة ، والأرض ، بل أكثر من الأرض .

وما إن زال الانتداب البريطاني عن فلسطين حتى عمد العرب بالاتفاق مع الجامعة العربية ، إلى انشاء حكومة تشمل صلاحياتها كل الأراضي الفلسطينية (حكومة عموم فلسطين) برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي ، ووزعت الوزارات فيها على عدد من المناضلين الفلسطينية ، وكان مقرها القاهرة . واعترفت بها الدول العربية ، لكن هذه الحكومة لم تفعل شيئاً . وغاب آخر رمز فلسطيني ، كما غابت أكثر فلسطين .

وكان « بروتوكول الاسكندرية » هو أساس ميثاق جامعة الدول العربية الذي وقع في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٥ ، وقد وقعته السعودية واليمن ، ثم وقعت بعد ذلك معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي في ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٥٠ . وأول

مؤتمر قمة كان لنصرة فلسطين في ٢٨ و ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٦ الذي عقد في انشاص قرب القاهرة ، وقد اشتركت فيه الدول المؤسسة على مستوى الرؤساء ومن يمثلهم .

وكان للملك فاروق في هذا المؤتمر موقفاً استعراضياً عندما أمر علناً حرسه الخاص بالسفر إلى فلسطين لمحاربة الصهيونية ، وقد سافر بعضه فعلاً عبر سكة حديد القاهرة ، ولكن لم يكن هذا الحرس مسلحاً ، أو كان ينقل سلاحاً فاسداً .

لقد كان الغرب الأوروبي هو الحاكم الحقيقي في المشرق والمغرب العربيين، وكانت حالة فلسطين هي الأسوأ أو كان يحكمها البريطاني والصهيوني بعد أن جردت حتى من « مظاهر » الحكم الوطني الذي قام في سوريا ولبنان والعراق كان قد استبدل الانتداب البريطاني بمعاهدة مع بريطانيا فيها الكثير من خصائص الانتداب ، والقليل من معالم الحكم الوطني . ومصر بدورها كانت تناضل للحصول على معاهدة تضع حداً للاحتلال البريطاني ، وفي السعودية واليمن الشمالية كانت هناك شبه استقلالية . اما الباقون فكانوا يخضعون للحكم الأجنبي المباشر .

المشرق والمغرب العربي بين الحربين الأولى والثانية

ولادة النزعة القومية العلنية
والتيارات المناهضة لها بين التقوقع والاستقلال

لقد بدأت الحرب العالمية الثانية قبل عشر سنوات من اندلاعها ، وبالتحديد عندما بدأ الركود الاقتصادي في اوروبا بفضل الدولار الاميركي الذي توقف عن الضخ ، وكان اول المتأثرين بذلك الدول الفقيرة التي كانت تنتج محصولات العالم الاساسية ، وإذ كفّت الشركات الاميركية عن شراء هذه المواد الخام ازدادت تلك البلاد فقراً ، وبما أن منتجي المواد الخام لم يستطيعوا استيراد البضائع الجاهزة ، فقد تضررت ايضاً البلاد الصناعية التي تملك المصانع وخطوط الشحن ، وانتشرت البطالة في اوروبا بصورة لم يسبق لها مثيل .

كانت المانيا وإيطاليا في هذه الفترة (١٩٢٩ - ١٩٣٠)تتضحان دكتاتورية محلية مغمورة عرفت بالفاشستية . أما بريطانيا وفرنسا ، الدولتان اللتان خرجتا منتصرتين ومنهوكتين من الحرب العالمّية الأولى فلم يكن بامكانهما مجابهة الفاشستية الجديدة ، فبعد مرور عقدين من الزمن استنفذت بريطانيا طاقتها في الصراع العالمي ، وكذلك فرنسا التي بدأت تعاني المتاعب في شمال افريقيا وسوريا ولبنان ، في هذا الوقت كانت المانيا تستعد للعب دور بارز في خلافة الاستعمار البريطاني والفرنسي في الشرق ، اما المانيا التي كان لها مطامعها في مصر ، فقد وسعت نفوذها باحتلال اثيوبيا واريتريا وليبيا واقتطاع اجزاء من كينيا والصومال لتصبح اجزاء من افريقيا الشمالية الايطالية .

ولم تكن اوروبا متحدة بحضارتها إلا عندما افتتح اسماعيل باشا قناة السويس ، أما عشية الحرب العالمية الثانية فقد كانت تطعن بعضها البعض بالسلاح ، ويتجاذبها صراع الفكر الايديولوجي .

لقد كان الاناضول التركي مشغولاً باعادة ما تهدم من الامبراطورية العثمانية ، وتجميع ما تبقى منها ، لذلك سنجده بعيداً عن الصراع في هذه المرحلة في محاولة منه آن يكون اوروبياً في مظاهره الخارجية علمانياً في موجة الصراع العقائدي .

أما البلاد العربية فقد كانت حافلة باحتدام الصراع السياسي والاجتماعي والفكري بين مختلف القوى الاجتماعية خاصة في سوريا ومصر ولبنان والعراق ، وتبينت بوضوح ابعاد ذلك الصراع ومراميه وكانت مصالح هذه القوى ومواقعها الفكرية والطبقية قد خطت خطوات كبيرة في اتجاه النضج والتبلور في العقود التي سبقت هذه الفترة ، واستلهمت العديد من الخبرات التنظيمية والنضالية في معرض سعيها الحثيث نحو مصالحها ، وتطلعها نحو السلطة السياسية باعتبارها اداة تحقيق المصالح ، وتمكنت كل القوى رغم ضعف امكاناتها في تلك الفترة من تحديد اختياراتها السياسية والاجتماعية وتحديد دائرة الاصدقاء والاعداء .

وقد زاد اهمية هذه الفترة انعكاس محصلة الصراع الدائر ، وانتقال تأثيره ودلالته الفكرية والاجتماعية إلى الجيوش العربية ، لكن هذه الفترة تتميز ايضاً بأنه قد حكم مسيرتها وحدد محاور الحركة السياسية والاجتماعية تناقضان اساسيان ، **أولهما**: التناقض بين مختلف القوى والطبقات الوطنية وبين الاستعمار ، **وثانيهما**: التناقض بين مقتضيات التطور الاقتصادي والاجتماعي وبين سيطرة الاحتكارات الاجنبية المالية والمصرفية التي يدعم نشاطها الوجود الاستعماري وحول هذين التناقضين تحددت ايضاً ابعاد الحركة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا بدأت النزعة القومية بالظهور العلني كحركة متمردة على الوضع الاستعماري تبحث عن زعامات دينية ، ثم تكونت بعد ذلك الايديولوجية القومية وفقاً لصيغ مستوردة وبهدف فهم الذات ، فقام الإسلام بدور الرابط داخل الجبهة المناهضة للاستعمار ، ثم اتجهت هذه النزعة بعد ذلك إلى محاولة سد الفراغ بين

الماضي والحاضر تحت ضغط التحدي الغربي وبهدف استعادة الهوية والتحرر الثقافي ، ولهذا انفردت الايديولوجيات العربية على مختلف انواعها بخصائص معينة ، إذ اصبحت مزيجاً من المفاهيم الإسلامية والمفاهيم القومية . أما الجماهير فقد ظلت متعلقة في وجدانها بالقيم الإسلامية ، وعلى هذا الأساس تحددت شخصية عربية اسلامية اشتراكية مختلفة عن الشخصية الأوروبية .

لقد كان حسن البّنا مؤسس « الاخوان المسلمين » واحداً من اصحاب هذه النزعة ، فقد استطاع هذا المؤمن أن يجعل من دعوته تياراً شعبياً صارخاً في مدة وجيزة من الزمن ، وإن كان الكثيرون قد اتهموه بالفاشستية والتعصب و« الصهيونية » باعتبار ان دعوته للعودة إلى الإسلام كدعوة اليهود للعودة إلى الصهيونية . والوحيدون الذين لم يتأثروا بدعوة البّنا هم الذين تأثروا بالثقافات الاميركية والانجليزية والفرنسية .

وفي لبنان وسوريا وفلسطين والعراق دخلت الشيوعية والفاشستية وبدأت الدعوة اليهما تلاقي بعض النجاح في اوساط الاقليات وخاصة الشيوعية التي بدأ الترويج حولها بأنها ملحدة تتنافى عقيدتها مع الإسلام . ومع ذلك ظهرت الاحزاب الشيوعية بصورة سرية في هذه الدول ، وكانت البداية في الاسكندرية حيث اسس يهودي ومسلم ومسيحي اول حزب شيوعي[٢٢٢] .

اما النزعة الفاشستية فقد ظهرت في لبنان بين صفوف الحزب السوري القومي الذي اسسه انطون سعادة الذي يؤمن تماماً بالقاعدة التي تقول إن القوميين ينشأون من الجماعات ذات الآراء المتطرفة . فقد اسس في اوائل الثلاثينات منظمة سياسية عرفت بالحزب السوري القومي ، وذلك لدفع ايديولوجية سعادة ، اغضب هذا الحزب كل مصلحة يمكن تصورها . أوجد له اتجاهه العلماني الكره في الجامع والكنيسة ، وبالتالي الكنيس اليهودي لأن فلسطين هي جزء من الهلال الخصيب الذي يدعو هذا الحزب إلى وحدته[٢٢٣] .

على أن النزعة القومية التي كانت تبحث عن زعامات دينية في مصر ، لم تكن كذلك في لبنان فقد اجتمع عدد من المثقفين ووضعوا اول كتاب عن القومية العربية ، اطلق عليه فيما بعد اسم « الكتاب الأحمر » ، ولهذا الكتاب الذي يعتبر نقطة تحول في

الحياة القومية العربية قصة لا بد من الاشارة اليها نظراً لاهميتها ، في تلك المرحلة[٢٢٤] .

والقصة تبدأ قبل العام ١٩٣٥ ، حيث كانت الاجيال في ذلك الوقت تتعلم في مدرستين : الكلية العلمانية (الليسية) والجامعة الاميركية في بيروت . فقد اجتمع عدد من الخريجين والاساتذة سراً لوضع مسودة مشروع لدستور العرب القومي ، وكلف بذلك كاظم الصلح وعاونه كل من قسطنطين زريق وفؤاد مفرج ، وهكذا ولد « كتاب القومية العربية » الذي اعتبرته « الحركة العربية السرية » دستورها القومي لمختلف البلدان العربية ، لأنه ممكن التطبيق حسب كل بلد .

وعمدت « الحركة العربية السرية » المؤسسة ، على التغلغل في البلدان العربية واحزابها ، وساهم اعضاؤها في تأسيس احزاب في الأقطار العربية أو القيام بنشاطات في الاندية الثقافية والرياضية ، وهي نشاطات سياسية ، وقد تأسست عدة احزاب عربية بفضل هؤلاء منها « حزب الاستقلال الفلسطيني » (اكرم زعيتر وعجاج نويهض) وحزب الاستقلال المغربي (علال الفاسي) وحزب الاستقلال العراقي (صديق شنشل وفائق السامرائي) وحزب النجادة في لبنان (انيس الصغير) وحزب الشباب الوطني في طرابلس لبنان (وهو فرع للحركة العربية السرية في بيروت) .

وقد أسهمت هذه الاحزاب بارسال المتطوعين والسلاح الى ثورة ١٩٣٦ في فلسطين بواسطة اعضاء الحركة وبالوسائل السرية .

ومع ذلك ظل المجتمع في الشرق الأوسط دون تغيير كبير من العام ١٩٢٩ و١٩٤٨ ولم يكن اي من الدول العربية المعروفة الآن مستقلة سوى المملكة العربية السعودية (١٩٣٢) ولبنان العام ١٩٤٣ وسوريا العام ١٩٤٦ والأردن العام ١٩٤٦ ، اما اليمن الشمالية (الجمهورية العربية اليمنية) فلم تكن مستعمرة ، اما الشعوب العربية الاخرى فقد انخرطت في تيارات واحزاب دينية وقومية لمقاومة المستعمر المحتل ، وقد ظهر ذلك جليا في ثورة الكيلاني بالعراق ، وعز الدين القسام في فلسطين ، وعمر المختار في ليبيا وخلفاء المهدي في السودان ، وعبد الكريم الخطابي ومن بعده علال الفاسي في المغرب ، والشيخ الابراهيمي وابن باديس في الجزائر ، اما

بقية الدول العربية مثل دول الخليج واليمن الجنوبية والصومال وجيبوتي وموريتانيا فقد كانت وطأة الاستعمار عليها صعبة اضافة الى تغيب العلم والابتعاد عن التيار القومي الإسلامي الجارف (باستثناء عدن) .

كان هذا هو الواقع العربي الذي اعطته اوروبا قطبين للجذب والنفور ، واعطت اليهود الذين لم تقتلهم جرحاً لا سابقة له . لقد اشاعت الصهيونية العالمية اسطورة ذبح اليهود في المانيا ، وسواء كانت حقيقة ام دعاية لها غايتها ، فقد ارعب ذلك قسماً منهم ، ومنذ ذلك الحين بدأ عدم استقرار المجتمع العربي الذي سيظل هائجاً ما دام هناك مجتمع يهودي في وسطه .

فعشية الحرب العالمية الاولى كان بارزاً أن احتكار البريطانيين لقناة السويس مهدد باخطار تنبثق من مصر نفسها ، واخطار من جانب تركيا وعلى نحو خاص ، واخطار اصبحت تلوح من جانب دولة جديدة عظمى الحذت تبرز وكأنها سيدة لأوروبا وحامية للشرق ، وهي المانيا في ظل عاهلها غليوم الثاني .

وقد سارعت بعض الشعوب العربية بايحاء من احزاب وهيئات إلى ابداء التعاطف مع المولود الأوروبي الجديد وبصورة علنية وسرية ، وذلك لهدف بسيط للغاية ، وهو الأمل في أن تكون المانيا الصاعدة هي المخلص لهذه الشعوب من المستعمر الجديد الجاثم على صدورهم خاصة مع بداية الحرب العالمية الأولى .

ولكن لم يكن احد منهم يدرك في ذلك الوقت أن المانيا قبل بريطانيا والولايات المتحدة هي التي زرعت فكرة اقامة دولة اسرائيل في فلسطين ، وان غليوم الثاني وليس بلفور أو روزفلت أو ويلسون هو الذي قام بالمهمة . ان ولادة اسرائيل قد احيطت بكثير من التضليل واخفاء الحقائق بما في ذلك « اسطورة المذابح » .

لقد طرح التصور على أساس الاعتبارات الدينية والاخلاقية المتعلقة بالمجتمعات اليهودية في اوروبا ، مع انه في حقيقته قد بني على اسس سياسية واستراتيجية وكان حصيلة لمنطق لم يكن للمشاعر فيه ادنى نصيب . ومع ذلك لم تكن أي من الدول ترى في المجتمعات اليهودية في الشرق أو في أي مكان أخر ورقة سياسية رابحة ، ولكن المانيا وحدها قدرت المساعدة الضخمة التي يمكن أن يقدمها اليهود إلى نفوذها الاستعماري في الشرق[٢٢٥]

وقد تمثل ذلك فيما يأتي: معونة عسكرية في العام ١٨٣٥ إلى السلطان محمود سلطان تركيا ضد محمد علي التابع له والذي كانت تدعمه فرنسا . ومشروع قدمه القائد الالماني مولته لجعل فلسطين مستعمرة المانية ، ثم بدأ بانشاء مستعمرات زراعية المانية منذ العام ١٨٧٠ في حيفا ويافا والقدس تحت ادارة كريستوف هوفمان . وفي عام ١٨٧٨ قرر مؤتمر برلين منح النفوذ الالماني في الشرق دعماً حاسماً ، وقد أيدت بريطانيا هذه السياسة وآزرتها . وكانت روسيا هي الخاسرة الوحيدة ، وبدا هذا التحالف البريطاني - الالماني كأنما انعقد ضدها . ثم نرى المانيا بعد ذلك تتولى تدريب الجيش العثماني ، وتنال امتياز انشاء خط حديد بغداد عام ١٩٠٣ وامتياز التنقيب عن النفط في مناطق بغداد والموصل عام ١٩٠٤ وقد كان للصهيونية في هذا التحالف العظيم بين برلين القسطنطينية المكان المرموق[٢٢٦] .

في عام ١٨٩٨ قام غليوم الثاني برحلته الثانية الى الشرق زار خلالها تركيا وسوريا وفلسطين واستقبل في القدس وفداً صهيونياً على رأسه مؤسس الصهيونية هرتزل ، وقد اكد لهذا الوفد بان «المساعي الصهيونية في فلسطين التي تحترم سيادة حليفته تركيا ، تستطيع ان تعتمد على رعايته الكاملة » .

وقبل هذه الزيارة اتصل هرتزل بالسلطات الالمانية ونشرت في الصحف اليهودية مقالات تدعو إلى تأسيس مستعمرة يهودية في الشرق الأوسط تحت الرعاية الالمانية ، وقد ساعده اثنان من الحلفاء الالمان ، اولهما غراندق بادن الذي قال له هرتزل : « نحتاج الى حام ، والحماية الالمانية يرحب بها اكثر من غيرها » . والثاني هو السفير يولنبرغ الذي قال له :«إن حركتنا موجودة ، وإني لاتوقع أن تؤيدنا احدى الدول الكبرى ، فكرت اولاً في بريطانيا ، وذلك امر طبيعي ، ولكنني اكون اكثر سروراً لو كانت المانيا » .

وفي فلسطين صافح هرتزل القيصر وقال له : إن فلسطين هي البلد الذي عاش فيه اليهود في الماضي وانها في وضعها الحاضر صالحة للاستعمار . فرد القيصر قائلاً : إن الأرض بحاجة إلى الماء والظل . إن المستوطنات التي رأيتها ، والالمانية منها لا تقل عن اليهودية ، تصلح مثلاً لما يمكن عمله في الأرض . هناك متسع للجميع ، ولكن لا بد من توفير الماء والظل . قد يكون الاستعمار بالنسبة للأهالي مثلاً يحتذى » .

لم تكن لدى القيصر اعتراضات على الاستعمار ما دام على هذه الصورة . وحين قال : « هناك متسع للجميع » إنما عنى الالمان واليهود والسكان الاصليين[٢٢٧] .

وكان هرتزل قد ارسل في ١٩ آذار (مارس) ١٨٩٩ برسالة جديدة إلى الصدر الأعظم في تركيا احمد مدحت افندي ، رداً على رسالة ودية كان قد تلقاها منه . قال في رسالته : « لقد كان اليهود وما يزالون وسوف يكونون دائماً افضل اصدقاء لتركيا منذ فتح السلطان سليم ابواب امبراطوريته امام اليهود الذين اضطهدتهم اسبانيا . والفكرة الصهيونية التي لست أنا إلا خادمها المتواضع ، لا تتضمن أي نزعة معادية للدولة العثمانية ، بل أن هذه الحركة على عكس ذلك تماماً ، سوف تسعى لايجاد موارد جديدة لهذه الامبراطورية . أما الأماكن المقدسة فليس هناك من يفكر بمسها ، وكما كنت قلت وكتبت مراراً ، إن هذه الأماكن لم تعد قط ملكاً لديانة معينة أو جنس معين . فإذا نظرتم إلى الأشياء بهذه العين التي هي عين حقيقية ، فلا بد أن تكونوا اصدقاء للصهيونية ما دامت الصهيونية صديقة لتركيا » .

ولم تلق رسائل هرتزل إلى الباب العالي اية اذن صاغية ، في الوقت الذي كانت فيه المانيا تفكر بممتلكات الامبراطورية العثمانية كما كانت الهند بالنسبة لبريطانيا .

وعندما احس الانجليز بخطر اقامة قاعدة المانية في فلسطين تحت غطاء الصهيونية تحركوا للعمل ، فعرضوا على المؤتمر الصهيوني السادس الذي انعقد في بال عام ١٩٠٣ اقامة وطن يهودي في اوغندا ، وبذلوا كل ما في وسعهم لئلا يقوم هذا الوطن اليهودي على تخوم قناة السويس بينما كانت انظار الامبراطورية الالمانية ونزوعها إلى قناة السويس يزداد وضوحاً .

وهكذا فإن المانيا غليوم الثاني ، عندما خسرت معركة القناة ولم تستطع امام تحفظات القسطنطينية أن تحرز إلا نجاحاً ضئيلاً في السيطرة على فلسطين عن طريق المستوطنين الصهيونيين ، اعدت عدتها للانتقام في عام ١٩١٤ ، وكانت خطة هيئة اركان الحرب الامبراطورية الالمانية تقوم على اساس طرد انجلترا من الأراضي العربية الاسيوية التي تسيطر عليها ، وحرمانها من التزود بالمازوت من جنوب العراق ليكون ذلك سبيلاً لشل حركة اسطولها ، ثم اغلاق قناة السويس وباب المندب .

أما الصهيونية التي صنعها غليوم الثاني ، فقد اخذت تبرز في وضح النهار ،،

وتمهد امامها السبيل ويخطب ودها العالم كله . فاركان حرب الامبراطور غليوم جعلت من نفسها محررة ليهود بولندا ، وكانت تصدر لهم بذلك اعلانات مكتوبة بلغتهم الخاصة اليديش . وقام الامبرآطور بنفسه بزيارة معبدهم في لودج كما قام بانشاء الجامعة اليهودية في فيلنا . كذلك اخذ قيصر روسيا بمنح رعاياه من اليهود حريات واسعة جداً . ووافق الرئيس ويلسون على تكريس يوم في الولايات المتحدة باسم « يوم اليهود » . ولم تأل المانيا الامبراطورية جهداً في محاباة المجتمعات اليهودية ذات الارتباط الشديد بالصهيونية ، وهم يهود اوروبا الشرقية بأسرها الذين كانوا يناهضون النظام القيصري الروسي . وكان اثر الثقافة الالمانية يبدو عميقاً حتى في مجتمعات اليهود النازحين إلى اميركا الذين لم يكونوا يخفون تعاطفهم مع الامبراطورية الالمانية اثناء الحرب العالمية الأولى(٢٢٨) .

ومن هنا نلاحظ مدى تسابق الدول الكبرى على كسب ود اليهود عشية الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية كما سنرى ، وذلك بسبب تفاقم خطر قيام حركة صهيونية معادية للحلفاء في العام ١٩١٧ الذي كان عاماً حاسماً في تاريخ الحرب العالمية الأولى . إذ شنت المانيا على الحلفاء حرباً ساحقة في الغواصات قصمت ظهر اساطيلهم ، في الوقت الذي كانت فيه جبهاتهم في اوروبا تتعرض لهزائم منكرة ، ووقعت جيوشهم وشعوبهم تحت وطأة قلق شديد . وعلى الرغم من دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فإن اوروبا المنهوكة اوشكت على التسليم بأن المانيا قوة لا تقهر ، بينما كانت مبادرات السلم تتزايد . واخيراً وقع حدث لم يكن بالحسبان وخلف اثراً خطيراً في العالم كله ، هو ثورة مارس/آذار ١٩١٧ في روسيا التي اسقطت الحكم القيصري . ثم ثورة نوفمبر (تشرين الثاني) التي حملت لينين وتروتسكي إلى السلطة اللذين وقعا مع المانيا في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) هدنة منفردة .

ووقفت المجتمعات اليهودية بحماس إلى جانب النظام الجديد الذي لا يقر التفريق بين الاجناس . ومنذ هذا التاريخ اصبحت المانيا وروسيا الجديدة التي اضحت حليفة لها إلى حد كبير ، تحظيان برضى المجتمعات اليهودية في اوزوبا وخارجها . وفي هذا العام نفسه ١٩١٧ ، كان غليوم الثاني يتهيأ لاصدار بيان يعلن فيه إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وكان يزيد من ضرورة ذلك ، النشاط المحموم الذي بذلته بريطانيا لدى الزعماء العرب حتى نجحت في زج الجزيرة العربية في الحرب ضد

الحاميات الالمانية التركية في بلدان المشرق ، الأمر الذي ساعد البريطانيين بعد احتلال ميناء العقبة بواسطة القوات العربية ـ الانجليزية على جعل منطقة السويس منطقة خاصة بهم .

وما ان تنبه البريطانيو إلى نوايا غليوم الثاني حيال فلسطين حتى اسرعوا باصدار وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، متبنين بذلك ، ولمصلحتهم ، فكرة كانت حتى ذلك الحين تتعارض وسياستهم العامة ، والى جانب ذلك يعاديهم الرأي العام والمجتمعات الغربية . وفي الحقيقة فإن نفراً قليلاً من الاشخاص المرتبطين جميعاً بمصالح بريطانيا وبزعماء الحكم فيها ، كآل روتشيلد ، وهربرت صموئيل ، والاقتصادي دي ليفه ناميه ، وحاييم وايزمن وغيرهم تعاونوا على وضع برنامج صهيوني جدير بمنافسة المشروع الالماني(٢٢٩) .

وفي عام ١٩٣٦ أي بعد مرور عشرين سنة تقريباً ، طلب إلى لويد جورج الذي كان رئيساً لوزراء بريطانيا عام ١٩١٧ ، ان يوضح الظروف التي تبرر تصريح بلفور ، فلم يتردد بالاعتراف بأن الانتهازية المحضة والاخطار المحدقة ببريطانيا ، وضرورات الدعاية هي التي حتمت عليه التورط بوعد كان في ذهنه في ذلك الحين غامضاً تماماً .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، كانت بريطانيا مسيطرة على امبراطورية السويس التي تشمل مصر والسودان وفلسطين والأردن والعراق واليمن الجنوبية (باب المندب) بالاضافة الى دول الخليج العربي ، أي على كل المنافذ المؤدية إلى الشرق وبوابات العبور إلى الغرب ، لذلك سارعت إلى اتخاذ نفس التدابير التي اتخذتها في الحرب العالمية الاولى ، إذ منعت سفن اعدائها من عبور قناة السويس خلافاً لاحكام اتفاقية القسطنطينية التي تأكدت فيما بعد باتفاقية عامة اقرتها عصبة الأمم في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٣١ . وكان أول ما فعله طيران دول المحور رداً على ذلك ان قام بما يقرب من سبعين غارة قصف فيها هذا المجرى المائي وعطله مدة شهرين عن العمل . وبذلك اصبحت مصر خلال الحرب مركزاً من مراكز تحرك جيوش الحلفاء وتموينها ، وعبرت ارضها وموانئها اعداد هائلة من قواتهم . كانت انجلترا تستخدم القناة كقاعدة حربية ، حشدت فيها الامدادات والمؤن والأساطيل الأمر الذي حمل الالمان والايطاليين على مهاجمة مصر ، ولو لم تكن هناك قاعدة بريطانية في القناة لما كانت حملات روميل وغرازياني(٢٣٠) ولقد سجل المصريون كثيراً من مواقف الرفض

والاستنكار ضد هذا الدور الاستراتيجي الذي جر عليهم كثيراً من العبودية والذل . وقام ابناء الشعب ، ومعهم عديد من الشخصيات السياسية يظهرون تعاطفهم مع اولئك الذين كانوا « اعداء لاعدائهم » .

وكما يقول ميكيافيلي : « كلما دخل اجنبي قوي بلداً من البلدان ، اتحد كل اولئك الذين هم اضعف منه في ذلك البلد ، وانضموا الى أول قادم جديد لأنهم يحسون بالحسد حيال اولئك المسيطرين السابقين » . وليس غريباً ان يعرف المصريون هذا الأمر ، وكتاب « الأمير »لميكيافيلي أول كتاب اجنبي ترجم الى العربية في مصر .

من هنا دخل أبناء العالم العربي في الحرب العالمية الثانية وقلوب الكثيرين منهم مع المانيا الهتلرية خاصة في العراق الذي كان يعيش حالة من التمزق بعد وفاة الملك فيصل الأول عام ١٩٣٣ ، فالاشوريون قاموا بحركة اخمدت في بدايتها ، وثارت القبائل في الفرات الأوسط بشكل خاص واخمدت حركتها (١٩٣٥ - ١٩٣٦) وكان للاكراد حركات تتصف بمعارضة الحكومة ، يضاف إلى ذلك إن الجماعات والزعامات السياسية ذات المطامح والاطماع، اخذت تشكل احزاباً سياسية ، تدافع عن الشعب وحقوقه امام ما اعتبره البعض حكماً فردياً أو اجتماعياً ، وكان غازي قد خلف اباه (١٩٣٣) لكنه قتل عشية الحرب العالمية الثانية ، وبعده فيصل مع وصاية للأمير عبد الاله .

وفي سنة ١٩٣٦ قامت أول حركة انقلابية في العالم العربي على يد بكر صدقي في العراق الذي تولى الأمر الى صيف ١٩٣٧ حين اغتيل هو ايضاً . في هذه الفترة افاد العراق من وجود النفط في أرضه . .

في ظل هذه الظروف ساءت العلاقات بين العراق السياسي وبريطانيا بسبب سياسة هذه الاخيرة في فلسطين وازداد النفوذ الالماني بعد انهيار فرنسا (١٩٤٠) وكانت فرصة سانحة للمتعاطفين مع المانيا الزاحفة نحو النصر أن يقوم رشيد عالي الكيلاني « بثورة » ترمي إلى التخلص من بريطانيا التي كانت جيوش هتلر قد احتلت احدى مواقعها الهامة في جزيرة « كريت » . . لكن « الثورة » اجهضت وعادت بريطانيا لتشدد قبضتها على العراق الذي كان الهدف القريب لجيوش هتلر لو نجحت ثورة الكيلاني .

فالعون الذي وعد به هتلر الكيلاني قد اقتصر على تدخل بعض الطائرات ، ولم يلبث البريطانيون أن عادوا فاحتلوا بغداد ، وفر الكيلاني إلى المانيا . إلا أن الجنرال دنتز المفوض السامي الفرنسي في الشرق ، امد العراقيين ببعض الاسلحه إذعاناً منه لأوامر فيشي الذي عمل لحساب الالمان بعد سقوط فرنسا ، وسمح بمرور بعض الطائرات الالمانية فوق دمشق . وكان في ذلك ما يبرر التدخل البريطاني . لقمع الثورة الكيلانية .

ولكن لم يحظ التدبير بموافقة ويفل الذي مضى للمرة العاشرة يصف تبعثر قيادة الشرق الأوسط . ويطالب بالامتناع عن فتح جبهة جديدة لا تدعو اليها الحاجة ، فضاق به تشرشل ذرعاً ، لكن هذا الاخير ظل مصراً على احتلال سوريا ولبنان مع أن مبررات الاحتلال قد زالت بزوال الثورة العراقية .

ووجد ديغول الذي توجه مع جنوده إلى بريطانيا ليحارب مع الحلفاء ، وجد نفسه امام معضلة شائكة شبيهة بالتي واجهها في دكار ، بل لقد كانت من الخطورة والتعقيد بحيث لا يجدي معها اقناع ولا تهويل ، فهناك نزاع يذر قرنه ، وهناك عدوان بريطاني يوجه ضد فرنسا في لبنان وسوريا افيكون من واجب ديغول ان يحول دون وقوعه ؟ ام أن يسهم فيه ؟ او أن يقف منه على الحياد ؟

بذل ديغول جهوداً جبارة لاقرار شرعيته ، ولكن جهوده باءت بالفشل ازاء معارضة الخارجية الانجليزية المبدئية ، فلم تعترف له إلا بصفة واحدة هي زعامة الفرنسيين الاحرار ، لكنه رغم ذلك قرر الدخول في الحرب مع الانجليز في سوريا ولبنان ، وهكذا نشبت في نطاق الحرب العالمية حرب اهلية فرنسية بين الديغوليين والفيشيين المدعومين من الانجليز . وكان هدف ديغول من ذلك الحؤول دون ضياع حقوق فرنسا بانتصار انجليزي صرف .

ولم يكن امر الحفاظ على الانتداب السوري ـ اللبناني وارداً ، وكان ديغول لا يرى مفراً من الغائه بعد الحرب ، إذ جل ما كان يسعى اليه هو أن يحفظ لفرنسا حق التخلي عنه .

في هذه الاثناء كان يمكن ان تثير مأساة الجيش الالماني في روسيا خلال الشتاء الثالث للحرب الانتباه العالمي اكثر مما فعلت ، لولا وجود شاغلين عظيمين : مآثر روميل ، والانتصارات اليابانية .

كان روميل يبدو في رأي الانجليز في بداية العام ١٩٤٢ قائداً منهزماً ، لقد انقذ جيشه بفضل تراجع سريع الى برقة في ليبيا ، إلا انه بات لا يملك إلا الوسائل التي تمكنه من قتال المؤخرات ، وكان التفاؤل يسود جو اركان الشرق الأوسط العامة .

ففي ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ وتحت ستار من سيول المطر الجارفة تراجع روميل الى موقع « مرسي بريقة » القيصر ، واستقر على ابواب طرابلس الغرب ليخوض هناك آخر قتال دفاعي له . وحتى وهو في حالة القتال هذه استطاع روميل أن يصل إلى برقة ، وهدفه الأخير هو احتلال افريقيا الشمالية بكاملها بعد أن تم له النصر ، وقد كان من نتائج ذلك تجميد المخطط الحليف المتعلق بليبيا وتأجيل نزول القوات الانجليزية ـ الاميركية في المغرب والجزائر الى اجل غير مسمى(٢٣١) .

في هذا المنحى كانت مالطا معرضة للخطر ، لتمهد الانتصار السهل لافريقيا الشمالية ، لكن اوامر هتلر بأن تؤخذ مالطا بعد أن يصل روميل إلى السويس أو على الأقل إلى طبرق . وبالفعل وصل إلى طبرق بعد معركة كانت بمثابة الكارثة للانجليز لأنهم خافوا على السويس التي بات بامكان روميل أن يصل اليها خلال ثلاثة ايام . وعبر روميل الحدود المصرية بالفعل تسبقه شهرة خارقة كان المهزومون أول العاملين على خلقها ، إذ كانوا يتحدثون عنه حديثهم عن رجل خارق . أما في مصر التي لم تعلن الحرب ضد المحور عام ١٩٤٥ فقد كان الحياد المبدئي يعيش جنباً الى جنب مع الأحكام العرفية الانجليزية ، فكان روميل قد ملك الطبقات الاجتماعية على اختلافها ، مع البرجوازية القبطية الرفيعة التي تميزت بمقت الانجليز حتى الشذوذ ، إلى طبقة الفلاحين .

وهكذا كان الجميع بانتظاره ، يتكهنون بما ينفقه من الوقت للوصول . أما القائد البريطاني « اوكيلك » فقد تراجع امام زحف روميل إلى مرسي مطروح فلحق به روميل على رأس حفنة من الدبابات وهزمه ، فتقهقر الانجليز نحو « العلمين » وهي نقطة توقف بسيطة على الخط الحديدي على مقربة من الصحراء ، في « منخفض القطارة » وهي عبارة عن فوضى من الرمال المتحركة التي يستحيل اجتيازها .

ويهاجم روميل الخطوط الانجليزية في العلمين في آب (اغسطس) عام ١٩٤٢

على امل ان تكون هذه البداية وأول الطريق إلى السويس ، وقد قال يومها : « الآن ، وإلا فلا » ، وكان ضرورياً أن ينجح الهجوم في اسرع وقت ممكن ، ولذا كان يجب احتلال الاسكندرية في اربعة أيام ، ولكن الانطلاق لم يصب غير نجاح جزئي بسبب حقول الالغام الواسعة امامه ، وكثافة الطيران البريطاني ، الأمر الذي حمل روميل إلى التراجع الفوري نحو الحدود الليبية بانتظار الامدادات العسكرية . وفي هذه المرحلة ظهر مونتغمري الضابط الانجليزي الصارم الذي سيهزم روميل .

وفيما كان مونتغمري يوزع خططه العسكرية على ضباطه بدأ تنفيذ عملية النزول في افريقيا الشمالية الفرنسية من قبل قوات الحلفاء ، ومن هذا المنطلق دخلت الولايات المتحدة إلى المغرب العربي بكل ثقلها العسكري عن طريق الجزائر والمغرب أما تونس فقد اهملت مرحلياً ، بينما كانت معركة العلمين تحسم لصالح البريطانيين لاسباب عديدة أهمها هزيمة المانيا في الساحة الروسية وقطع خطوط الامدادات العسكرية عن روميل .

وبينما كان قادة الحلفاء يجتمعون في الدار البيضاء (روزفلت - تشرشل) ، بغياب ستالين كانت آخر معارك روميل الافريقية في تونس ، لكن الأسباب التي ادت إلى هزيمته في العلمين ادّت إلى هزيمته النهائية في تونس . وهكذا لم يكن مصير تونس ليوقظ لدى دول المحور غير اهتمام عادي . فقد بات الناس يعلمون أن القضية قد بدأت تسلك طريق النهاية . وأن الحرب قد فقدت ، وان الفاشستية تحتضر .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وما خلفته من خسائر مادية جسيمة تغيرت خارطة العالم المعاصر بانتهاء استعمار قديم وولادة استعمار جديد له وجه مختلف تماماً ، وكانت اهم صفاته طرد المستعمر القديم من العالم العربي ، وغيره ليحل مكانه ، اعني الولايات المتحدة الاميركية المنتصر الاكبر في تلك الحرب ، ومن بعده الاتحاد السوفياتي الذي خرج من الحرب منهوك القوى . وكان مؤتمر يالطا بين زعماء الحلفاء المنتصرين تكريساً لذلك كله حيث قسم العالم على شاكلة المنتصرين[٢٣٢] .

وكانت المانيا رأس الحربة في تلك الحرب موضع اتفاق بأن تقسم الى دولتين شرقية وغربية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، ولكن حدث امر مهم قبل

ذلك وهو ان من تبقى من علماء الذرة والصواريخ الالمان قد اعلنوا عن رغبتهم في الذهاب إلى الولايات المتحدة والعمل هناك فما كان من قوات الحلفاء السوفياتية إلا ان اسرعت إلى الممرات والمخابىء الأرضية التي وضعت فيها التقارير والمسودات الخاصة ببرامج بحوث الفضاء فالتقطت كل شيء من الأوراق وارسل إلى موسكو[٢٣٣].

وهكذا استولى الاميركيون على العقول المفكرة التي اخترعت الصواريخ واكتشفت عالم الذرة وتنفيذه واستولى السوفياتيون على المسودات والوثائق الخاصة، وكان ذلك اثمن غنيمة حصل عليها الحلفاء من اعدائهم اضافة الى النصر.

لقد كانت هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية قد قضت على كل احلامها الاستعمارية، تاركة لبريطانيا الساحة لتصول وتجول في سوريا ولبنان والعراق ومصر والسودان والخليج واليمن الجنوبية، وقد سارعت مع بداية الحرب لعمل شيء ما يسترضي العرب، بعد أن تخلت عن عهودها بتحقيق وحدة عربية لهم عشية الحرب العالمية الأولى في حال مناصرتهم لدول الحلفاء، وعوضاً عن أن تفي بعهدها تقاسمت مع فرنسا المنطقة بموجب « اتفاقية سايكس - بيكو »، وها هي تجد نفسها بحاجة للعرب مرة اخرى لمناصرتها على الأقل في الدفاع عن قناة السويس، وقد وجدت سبيلاً إلى ذلك باختراع شيء اسمه « جامعة الدول العربية » فهذا المشروع « المبتكر » قد يغذي فكرة الوحدة العربية - الحلم - لذا سارع رئيس وزراء بريطانيا انطوني ايدن في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٤٠ وجيوش الحلفاء تجتاح العالم دولة دولة، وتقترب من ابواب الشرق . . . إلى اعطاء تصريح جاء فيه : « ان كثيرين من مفكري العرب يرغبون في ان تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة واكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن، وهم يأملون منا المساندة في تحقيق هذه الوحدة . لذلك لا يجوز لنا أن نهمل أي دعوة يوجهها الينا اصدقاؤنا العرب في هذا الصدد، ويبدو لي ان من الطبيعي، وان من الحق، ان تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية والروابط السياسية ايضاً بين الدول العربية، وعليه ستساند حكومة جلالة الملك مساندة تامة اي مشروع تتم الموافقة عليه في هذا الصدد » .

ومن الواضح أن الانجليز كانوا يحاولون امتصاص مشاعر الجماهير العربية التي اشتد حماسها في ذلك الحين مع الانتفاضة الوطنية والقومية لتحقيق آمالها في الوحدة العربية .

وقد جاء في مذكرات اول امين عام للجامعة عبد الرحمن عزام : « صحيح أن فكرة الجامعة خرجت من لندن وصحيح أن الانجليز كانوا يريدونها لتصبح اداة تعمل في خدمة مصالحهم الاستعمارية الا انني احمدالله على اننا نجحنا برغم كل الدسائس والمؤامرات في أن تصبح الجامعة العربية اداة تعمل في خدمة العرب كل العرب » .

لقد كانت المرحلة الأولى في حياة الجامعة متصلة بالنفوذ البريطاني البحت ، ثم جاءت المرحلة الثانية وهي مرحلة التخلص من هذا النفوذ(٢٣٤) ولكن ميثاق هذه الجامعة وما قامت به من انجازات اثبتت على مر السنين انها مؤسسة قد افرغت من مضمونها ، ومن اسمها بدليل أنها لم تحقق أي شيء لا على صعيد الوحدة السياسية أو الثقافية أو الاقتصادية ، ولا على صعيد التنسيق ، ولعل هذا ما ارادته بريطانيا عندما طرحت الفكرة كمشروع ، وعندما صيغ ميثاقها كدستور ، وها هي حتى الآن مجرد « متحف » عربي لا حول له ولا قوة .

لقد كانت اماني الوحدة العربية تصطدم دائما بالمصالح الغربية التي انضمت اليها بعد الحرب العالمية الثانية المصالح الاميركية ، التي كان همها الاول والنهائي تفشيل أي مشروع وحدوي مهما كان شكليا ، ومع ذلك تداعى العرب عام **١٩٤٣** لبحث موضوع جامعة الدول العربية بناء على دعوة مصر ، وحضر اجتماع الاسكندرية سوريا ولبنان والعراق والاردن ، ولم تشترك السعودية واليمن في دور الانعقاد الاول الذي اسفر عنه توقيع ما يسمى « بروتوكول الاسكندرية » وهو اساس ميثاق الجامعة العربية (٢٢ آذار ـ مارس ـ ١٩٤٥) ثم عادت ووقعت عليه بقية الدول العربية .

إن الاسم الرسمي لمنظمة الدول الاميركية وهو « منظمة الوحدة الاميركية » كما أن الاسم الرسمي لمنظمة الدول الافريقية هو « منظمة الوحدة الافريقية » ولا يوجد على هذين الصعيدين لا وحدة ولا من يوحدون ، وهذا هو في الواقع شأن الجامعة العربية التي لا نستطيع أن نذكر لها أية خطوة وحدوية منذ انشائها ، ولا أي عمل تنسيقي وحدوي ، وشأنها في ذلك شأن كل المؤسسات الاقليمية والدولية التي على نسقها .

ومن الطريف أن انشاء الجامعة العربية تمّ قبل انشاء منظمة الأمم المتحدة ببضعة شهور ، وقبل منظمة الدول الاميركية بثلاث سنين وقبل منظمة السوق الاوروبية المشتركة بثلاثة عشر عاما ، وقبل منظمات اخرى عديدة ظهرت في السنوات الأخيرة .

ومن الطريف ايضا أن الولايات المتحدة الاميركية ، رفضت الانضمام إلى ما كان يسمى « عصبة الأمم » لكنها سارعت بعد الحرب العالمية الثانية وفي مؤتمر يالطا إلى تبني منظمة الأمم المتحدة ـ البديلة ـ التي وضعتها على شاكلتها ، وهي المنظمة الدولية التي لم تتمكن حتى الآن من اتخاذ أي قرار لا ترضى عنه الولايات المتحدة سواء على الصعيد العربي ، أو الدولي ، لذلك فان مثل هذه المنظمات لا أثر ولا فعل لها في التاريخ ، وإن كانت دساتيرها تنص على شعارات كبيرة افرغت من محتوياتها مثل فض المنازعات الدولية بالوسائل السلمية ، والامتناع عن التهديد بالقوة أو استخدامها ضد الاستقلال السياسي لأية دولة أو سلامة اقليمها ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة ما . وحل المنازعات الدولية حلاً سلميا على نحو يحول دون تعريض السلام الدولي للخطر (مجلس الأمن) والمحافظة على السلام الدولي أو اعادته إلى نصابه في حالة وقوع تهديد له ، أو اخلال به ، أو وقوع عدوان(٢٣٥) .

ولكن كل هذا لم يطبق على الارض ، الأمر الذي جعل كل مؤسسات الأمم المتحدة التي اخترعتها الولايات المتحدة غير ذات جدوى ، تماما كما هي المؤسسات الاقليمية والدولية المماثلة .

لقد كانت الدول العربية في وضع مؤسف ، ربما لأن أمرها لم يكن بيدها ، وكانت الصورة على هذا الشكل التسجيلي السريع : لقد خرجت القاهرة من الحرب العالمية الثانية مدينة تعج بالخلق ، وبالجند وبالساسة والسياسيين وبالنشاط الاجتماعي ، وباللهو والمجون . كانت سنة ١٩٤٦ حوالي ثلاثة ملايين نسمة ، وكانت عاصمة السياسة وقاعدة الحرب في العالم العربي المشرقي . ففيها كان موطن الثقل للسياسة البريطانية المسيطرة ، وفيها مقر القيادة ، ومقر جامعة الدول العربية ، ومركز الثقل العربي السياسي وفيها أموال العرب واغنياء الحرب .

كانت عاصمة التناقضات . العلم والجهل . الغنى والفقر . الاسراف والجوع . مجتمع النصف بالمئة ، ومجتمع الثروة . كانت اقرب ما تكون إلى الحياة في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية . مثل بيروت في الستينات ومنتصف السبعينات .

كانت مصر حتى عام ١٩٢٢ تحت الانتداب البريطاني الذي اضطر أن يمنحها استقلالا مشروطا وكانت البلاد في ذلك الوقت في ظل ملكية دستورية على رأسها الملك فؤاد الأول ، لكن امتيازات الانجليز بقيت على حالها حتى عام ١٩٣٦ عندما

وقعت معاهدة انجليزية ـ مصرية نصت على انسحاب الجيش البريطاني من قطاع القناة ، والغاء الامتيازات الاجنبية ، وزيادة مساهمة مصر في ادارة السودان الذي كان قد أسس جمعيات واحزاب عديدة منها ما كان يطالب بالاستقلال والاندماج مع مصر ،ومنها ما كان يطالب بالاستقلال الناجز ، ومن هذه الجمعيات « مؤتمر الخريجين » الذي اندمج فيما بعد « بالحزب الوطني الاتحادي » و « حزب الاشقاء » و « حزب الأمة » الوجه السياسي لطائفة « الانصار » و « الحزب الشيوعي » واخيرا « الاخوان المسلمين » .

وكانت ليبيا زاوية المثلث الافريقي ـ المصري ـ السوداني تحت الحكم البريطاني ايضا بعد هزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية بحاجة ماسة إلى حاكم يأتمر بأوامرها ، وكان ادريس السنوسي احد هؤلاء ، لذا سارعت لاستدعائه من مقر اقامته في القاهرة ليؤسس في ليبيا جيشاً (الجيش السنوسي) عام ١٩٤٠ ، والذي استخدمته بريطانيا في حراسة خطوط اتصالات الجيوش البريطانية ، وقد اختارته بريطانيا لأنه[٢٣٦] كما يقول اللورد رينيل في تقريره عن الادارات العسكرية البريطانية في المنطقة عام ١٩٤٨ : « الشخص الوحيد في البلاد الذي تمتع يوما بما يشبه السلطات الدنيوية . فهو قد قدم خدمات عظيمة للادارة العسكرية . كما طاف ستة من اعضاء العائلة السنوسية بارجاء البلاد عام ١٩٤٣ لاثبات مدى العلاقة الوطيدة التي تقوم بين السلطات البريطانية والعائلة السنوسية » .

لكن في ظل حكم الادارة العسكرية البريطانية قامت حركة وطنية نشيطة في كل من طرابلس وبنغازي تمثلت في عديد من الاحزاب في طرابلس وفي « جمعية عمر المختار » في بنغازي ورفعت جميعها شعار الاستقلال .

لقد ذاقت ليبيا الامرين من الحرب العالمية الثانية وكانت النتيجة من ذلك أن احتلت بريطانيا الاجزاء الشمالية من البلاد ، وفرنسا منطقة « الفزان » وظلت الادارتان معا تتنافسان على تقسيم البلاد إلى درجة أن مستقبل ليبيا ظل متأرجحا نتيجة للصراع البريطاني الفرنسي تماما كما حدث في لبنان لكن البلاد تمكنت اخيرا من الحصول على الاستقلال عام ١٩٥١ بعد أن اصدرت الأمم المتحدة قرارا بذلك .

وكما جندت فرنسا سكان افريقيا الغربية للقتال إلى جانبها جندت موريتانيين إلا أنه في الفترة السابقة للحرب ، وبعد سنوات « التهدئة » كان الموريتانيون يقارعون

الفرنسيين ، وفي سنة ١٩٤٦ فصلت موريتانيا عن السنغال ، وبعد ذلك بدأت الاحزاب السياسية في الظهور ، وكان الاتجاهان الرئيسيان هما : الانضمام إلى الاتحاد الفرنسي أو الاستقلال . فقد قام في البلاد « حزب الاتحاد الموريتاني » و « حزب الوفاق الموريتاني » ، وكان لثورة الجزائر التي بدأت آخر عام ١٩٥٤ واستقلال المغرب (١٩٥٦) أثر كبير في تطور العمل السياسي في موريتانيا ، لكن السكان كانوا يتعلمون ويختبرون الاساليب السياسية والحزبية ، لذلك كان هناك تنافس زاده قوة تعدد العناصر السكانية ، خاصة في الجنوب والجنوب الشرقي من البلاد ، كما كانت البلاد تخشى أن تفقد كيانها بسبب وجهات نظر الجيران .

على أن ما جرى في دول المغرب العربي الثلاث : المغرب ، تونس ، الجزائر ، مختلف إلى حد ما إذ اتخذت المقاومة المسلحة النابعة من اعماق القرى والأوساط القبلية ، والمقاومة السياسية التي ظهرت في المدن المحتلة طابعا مختلفا . هذا يعني أن مقاومة المستعمر لم تحتكرها النخبة الحضرية بل قادتها ايضا وبضراوة كبيرة نخبة تقليدية ممثلة في رؤساء القبائل وغيرهم برزوا من اعماق القرى بل ومن المناطق النائية التي تقع على حافة الصحراء(٢٣٧) . بالرغم من التفاوت في درجة نمو كل من هذه الاقطار في اللحظة التي واجهت فيها الغزو الاستعماري إلا أن شعوبها تبدو متشابهة بقدر كبير من حيث تكوينها . فكل من هذه المجتمعات كان يحيا في ظل حكم مركزي غير متوارث ، وإن لم يكن شاملا ، مع ذلك ، كافة المساحة القطرية ، إذ بقيت هناك مناطق هامة في الجنوب لا تخضع للحكم المركزي تحيا فيها القبائل حياة جماعية متكاملة . وعرفت هذه المجتمعات فترات ازدهار وتشكلت في قالب دول ، إلا أنها في اللحظة التي واجهت فيها الغزو الاستعماري كانت قد أخذت في التراجع والتدهور . كان ذلك شأن الجزائر في ١٨٣٠ . أما تونس والمغرب فكان كل منهما قد شرع في حركة انتعاش ولكن دون أن يصل بهما الحد إلى القدرة على الصمود أمام التكالب الامبريالي عليهما وتنافس الدول الاوروبية الكبرى فيما بينها لاقتسام المستعمرات . ويلاحظ ايضا قيام مدن ساحلية في الاقطار الثلاثة من أجل تنشيط التبادل التجاري مع الخارج ، وقد بلغت ذروة ازدهارها في بداية القرن التاسع عشر ، فاجتذبت اليها العديد من العملاء الاجانب ، وهذا يثبت تكوين نخبة تجارية نشطة . كذلك كانت هناك مدن اخرى غير ساحلية تتطلع إلى الاشعاع الثقافي والديني وكان هذا يعني وجود نخبة ثقافية ودينية . واخيرا كانت الزعامات القبلية في المناطق الداخلية قد تبلورت في

شكل من الاقطاع وفي ظهور رؤساء محليين يحتكرون السلطة السياسية والادارية والعسكرية والدينية بمساندة شيوخ القبائل .

وبصفة عامة نجد أنه منذ بداية القرن الحالي كان هناك تنوع في اساليب الكفاح المستخدمة ، ففي الجزائر تزعم حمدان بن خوجة حركة سياسية ضد الاحتلال الفرنسي مثلت موقف النخبة الجزائرية الحضرية ، كذلك اتسمت مقاومة الاحتلال في تونس بالطابع السياسي ، بينما نجد في المغرب توازنا ما بين المقاومة المسلحة التي دامت من ١٩١٢ حتى ١٩٣٦ والمعارضة السياسية .

أما أهم العوامل التي أثرت على مجرى المتطورات السياسية والاجتماعية في هذه المجتمعات منذ بداية هذا القرن فهي : العامل الاستعماري الفرنسي والعامل الامبريالي الدولي والجامعة الاسلامية . ويلاحظ أن هذا العامل الاخير كان له تأثير على فكر النخبة التقليدية الدينية وكذا النخبة الحضرية في منطقة شمال افريقيا ، وكان آتيا من الشرق ـ أو بصفة أدق من العاصمة العثمانية ، حيث كان يحيا العديد من المهاجرين الجزائريين والتونسيين . لهذا عندما وجه السلطان عبد الحميد الثاني في الثمانينات من القرن الماضي نداء لاقامة « الجامعة الاسلامية » كان لهذا النداء صدى عميق في نفوس النخبة في شمال افريقية واتجهت انظارها إلى تركيا ، إذ قوي الأمل في أن يأتي التحرر من الطوق الفرنسي على يد العثمانيين .

من مطلع هذا القرن إلى الحرب العالمية الأولى (١٩٠٠ ـ ١٩١٤) كانت الجزائر قد منحت « الحكم الذاتي » (قانون ١٩ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٠) وكان هذا يعني اطلاق يد المعمرين في ادارة كافة شؤون القطر من مالية واقتصادية واجتماعية كما منحهم القانون حرية التصرف في شؤون العمالات (المحافظات) والبلديات . وكان هذا القانون يناقض سياسة « الاندماج » التي كانت الجمهورية الثالثة قد اتبعتها في الجزائر . ومن جهة اخرى كان هناك « قانون الاهالي » الذي طبق بقسوة على السكان الجزائريين بعد ثورة ١٨٧١ وحرمهم من كافة حقوق الفرد . هذا بالاضافة إلى عبء الضرائب المتعددة والثقيلة على السكان الجزائريين ، واخيرا « المحاكم الرادعة » التي اقامتها السلطات الفرنسية في ١٩٠٢ . كل هذه العوامل كانت لها ردود فعل عميقة على مجرى التحرك السياسي الجزائري ، منها :

ـ مولد صحافة وطنية .

ـ محاولة احياء التراث التاريخي وخاصة العهد الذهبي الجزائري الذي يوافق العصر الوسيط وعصر النهضة الاوروبية[٢٣٨] :

ـ انشاء عدة نواد وجمعيات ثقافية كان لها وظائف متعددة منها : « نادي التوفيقية » و « دارية العلوم الجديدة » و « نادي التقدم » و « نادي الشباب الجزائري » وجمعية الهلال» و « نادي الاتحاد» و « نادي صالح باي » في قسطنطينية و «جمعية الراشدين » . وكان من مهمة هذه النوادي والجمعيات معالجة حالة التدهور المريع الذي اصاب التعليم والذي كاد أن يقضي على الثقافة الوطنية . وكانت النخبة الثقافية الجديدة تعمل على المطالبة بالتوسع في التعليم والاعمال الخيرية من اجل « انقاذ الجزائريين من الانحطاط » .

كذلك تكونت لجنة للدفاع عن مصالح المسلمين وتزعمتها كتلة من المثقفين التقليديين (علماء وبعض المحاربين القدامى وزعماء الدين وبعض الاقطاعيين والمرابطين) . وكانت هذه اللجنة تعد الجماعة السياسية الوحيدة في الجزائر وكانت مطالبها تنصب اساسا على المساواة في التمثيل النيابي مع المعمرين وفي الضرائب والفوائد من الميزانية ، كما كانت تدعو من أجل الجامعة الاسلامية وإلى معارضة « التجنيس » والتجنيد الاجباري ، وتطالب بالغاء قانون الاهالي البغيض وعودة العمل بنظام العدل الاسلامي واحترام التقاليد والعادات الجزائرية ونشر واصلاح وسائل التعليم العربية وحرية الهجرة إلى الشرق الادنى . وكانت تدعو ايضا إلى عدم الالتجاء إلى العنف .

وكانت هناك ايضا « جماعة النخبة » تضم الشباب المتخرج من الجامعات الفرنسية والذين تبنوا افكارا غربية من ثقافة وتعليم واساليب العمل فاخذوا يعملون على تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي . وكان موقف هؤلاء الشباب من فرنسا قائما على التمييز بين فرنسا الديموقراطية وفرنسا الاستبدادية ، وبالتالي دعوة الليبراليين والجمهوريين الفرنسيين إلى معارضة المعمرين المستغلين . وكانت « الجماعة » تعادي العلماء والاعيان والمرابطين وتتهمهم بالرجعية وبعرقلة التقدم كما كانت تشن حملات ضد العادات البالية والخرافات . اما مطالب « الجماعة » فقد كانت تتلخص كالآتي :

١ ـ المساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين

٢ ـ الغاء قانون الاهالي وقوانين استثنائية أخرى .

٣ ـ التمثيل النيابي للجزائريين داخل البرلمان الفرنسي .

٤ ـ المساواة في التعليم والضرائب وفرص العمل مع الفرنسيين .

وصفوة القول ، كانت « جماعة النخبة » تطالب بالتجنيس الكامل وبالاندماج وبتوحيد الجزائر مع فرنسا ولكن مع تمسكها بوضع الجزائري كمسلم(٢٣٩) .

وبصفة عامة كان لحركة « تركيا الفتاة » ولفكرة « الجامعة الاسلامية » تأثير كبير على أذهان النخبة الجزائرية ـ التقليدية والعصرية على السواء . ونظرا لضعف هذه النخبة ، فقد التقطت من الحركتين البرامج الاصلاحية التي رأتها كفيلة بدفع المجتمع الجزائري إلى اليقظة الوطنية .

أما تونس فقد تكونت فيها أثر الاحتلال حركة مقاومة سياسية تحت زعامة الشيخ « حمد السنوسي » الذي شكل وفدا يمثل جميع طبقات الشعب ليسلم الباي عريضة تضمنت رفض صورة الحكم الذي بدأت تمارسه السلطات الفرنسية في البلاد . وقد بادرت هذه الاخيرة بابعاد زعيم الحركة إلى الخارج وباعتقال قادتها . وكان الشيخ السنوسي من علماء جامعة الزيتونة كما كان له نشاط صحفي في مجلة « الرائد » .

وبعد ذلك اتجهت الحركة الوطنية في تونس إلى البرامج الاصلاحية المشتقة من الحركة السلفية . ثم في ١٩٠٥ شهدت هذه الحركة انتعاشا جديدا عندما انضمت اليها جماعة من الطلبة من خريجي مدرسة « الصادقية » ، وقد التقت هذه المجموعة بعد أن اتمت تعليمها العالي في فرنسا حول مؤسس جريدة « الحاضرة » علي أبو شوشة وقادت حركة وطنية دينية ترمي إلى تقوية روابط القطر التونسي بحركة الجامعة الاسلامية وكانت تطالب بتطبيق الدستور التونسي . وكانت الحركة الشابة تتغذى بالافكار التي كانت ترد عليها من مصر والممثلة في دعوة جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ، وكذا الحركة الوطنية التي دعا اليها مصطفى كامل في مصر(٢٤٠) .

وقد واجهت الحركة الوطنية التونسية ايضا مشكلة التجنيس ولكن من زاوية مختلفة : ففي ١٩٠٧ اقنعت السلطات الفرنسية اليهود التونسيين برفض العدلية التونسية والمطالبة بالجنسية الفرنسية ، فاعتبر الوطنيون هذا الاجراء مساسا بسيادة البلاد وبسلطة الباي فقامت المظاهرات قادها « علي باش حمبة » وعندما تمسك اليهود

بهذا المطلب تطورت الحركة إلى مقاطعتهم ماديا وادبيا مما أدى إلى تراجع السلطات وعدم تطبيق إجراء التجنيس .

ثم في ١٩٠٨ تحولت الحركة إلى حزب « تونس الفتاة » وكان الحزب الجديد يستلهم افكاره من حركة « تركيا الفتاة » ثم عندما انضم اليه رجال جماعة « الحاضرة » اصبح يؤيد فكرة الجامعة الاسلامية . والجدير بالذكر أن علي باش حمبه كان أول من دعا إلى توحيد المغرب العربي في ميدان الكفاح ضد المستعمر . وكانت دعوته تتلخص في اثارة الرأي العام ضد الفرنسيين وتأكيد الاعتراف بالخلافة العثمانية وسلطتها على تونس . وفي ١٩١١ انتهزت السلطات الفرنسية « حادثة الجلاز »[٢٤١] . وحلت حزب « تونس الفتاة » و أبعد كل من باش حمبه والثعالبي إلى الخارج حيث انتهى بهما المطاف إلى « الاستانة » ليزاولا هناك نشاطهما لصالح قضيتي المغرب وتونس .

ولقد عبرت مراكش عتبة القرن العشرين وهي غارقة تحت السيطرة الاقتصادية والمالية الاجنبية .

وكان النفوذ الاجنبي متمركزا في « طنجة » حيث جرى تنافس محموم بين القناصل ، وكانت بريطانيا تقف في طليعة هذا السباق . واخذت فرنسا تعمل على ازاحة مزاحميها الاوروبيين على الثروات المغربية . في ١٩٠٢ عقدت اتفاقا مع ايطاليا نص على تنازل هذه الاخيرة عن اطماعها في مراكش مقابل تخلي فرنسا عن أي ادعاء على طرابلس الغرب . وفي ٨ نيسان (ابريل) ١٩٠٤ عقدت فرنسا اتفاقا وديا مع بريطانيا نص على اطلاق يد انجلترا في وادي النيل مقابل الاعتراف البريطاني بنفوذ فرنسا على مراكش . كذلك نصت المادة الثالثة على وضع ادارة الساحل الذي يمتد من مليلية ومرتفعات الضفة الشرقية لنهر السبع تحت اشراف اسبانيا مقابل تأكيد ضمني لمصالح بريطانيا في جبل طارق . ثم في ١٩٠٦ انعقد مؤتمر دولي في « الجزيرة » وفي غياب الحكومة المراكشية ، وقد اسفر المؤتمر عن اتفاق اوروبي حول مصير مراكش أهم ما نص علي : ١ ـ (تأكيد « الحقوق الخاصة» لفرنسا واسبانيا)، ٢ ـ تساوي جميع الدول الموقعة في العمل وفي الحقوق الاقتصادية ، ٣ ـ (تدويل المشكلة المراكشية بوضع مراكش تحت حماية دولية ، ٤ ـ (تأكيد سيادة واستقلال السلطان) .

وقد قاوم شعب مراكش الوجود الاجنبي بشتى الوسائل : في اقصى الجنوب (شنقيط) قامت حركة وطنية تزعمها الشيخ ماء العينين . وبادر السلطان من ناحيته

بتأسيس مجلس للاعيان كنواة للتطور ولصياغة دستور . وفي ١٩١٠ قامت « الشركة المغربية » المؤسسة باموال فرنسية بأعمال ترميمية في ميناء الدار البيضاء فثارت قبائل « الشاويه » مما أدى إلى اشتباكات ، وقامت الحرب بين القبائل والقوات الفرنسية فكانت بداية الغزو المسلح الفرنسي لمراكش . وكان الاسبان قد حصلوا على امتيازات لاستغلال المعادن في الريف من رئيس القبائل « الريسولي » ، ولكن السلطان عبد الحفيظ رفض اعتماد هذه العهود . فأعدت اسبانيا جيشا مكونا من ٤٠ ألف جندي لغزو منطقة « الريف » .

ولكن في أيار (مايو) ١٩١١ اضطر السلطات إلى الاستعانة بالجيوش الفرنسيه لقمع حركة تمرد قامت بها القبائل في الوقت الذي احتلت اسبانيا منطقة « الاحراش » و « القصار » في الشمال . وهنا رأت المانيا في هذا الاجراء الخلالا لمعاهدة الجزيرة فأرسلت باخرة حربية إلى « اغادير » وقامت ازمة دبلوماسية ادت في النهاية إلى اتفاقية ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١ التي نصت على تخلى المانيا عن مطامعها في مراكش مقابل حصولها على جزء من الكونغو الفرنسي وهو توغلاند ، وفي ٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢ اجبر السكان على توقيع معاهدة فاس التي سجلت وضع مراكش تحت الحماية الفرنسية(٢٤٢) .

هكذا سجلت هذه المرحلة احكام يد فرنسا الاستعمارية على منطقة المغرب العربي مع وجود تباين ما في النظام الذي طبق على كل من اقطارها الثلاثة : فالجزائر تحيا في شكل أحد الاقاليم التابعة لفرنسا مع التمتع بحكم ذاتي محلي لصالح المعمرين فقط . اما تونس فهي منذ ١٨٨٤ محمية فرنسية ولكن دستور ١٨٥٦ يمتد سريانه بحكم اتفاقيات الحماية وإن بقي حبرا على ورق . وأخيرا كانت فرنسا قد فرضت على مراكش حمايتها ولكن تم ذلك على أرضية دولية . فقسمت معاهدة فاس القطر المراكشي إلى ثلاث مناطق : الفرنسية والاسبانية وطنجه . وضمنت السلطة التشريعية للسلطان الا أن السلطة التنفيذية الواسعة احتكرتها فرنسا التي اخذت تنظم الأمور في البلاد . لهذا فان الحركة الوطنية المراكشية لم تعترف بمعاهدة فاس وشرعت تطالب بتطبيق معاهدة الجزيرة كما اتجهت إلى تدويل المشكلة المراكشية .

وعند اعلان الحرب العالمية الأولى انتعش الأمل في صفوف المقاومة الوطنية في أن يأتي الخلاص من القيد الاستعماري على يد قوات المحور التركي ـ الالماني ، فنشط

المهاجرون المقيمون في الاستانة لحث الحكومة العثمانية على التحرك من أجل قضيتهم الوطنية . وكانت أولى ثمار هذه الجهود الفتوى التي أصدرها شيخ الاسلام في عاصمة الخلافة (تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤) إلى جميع المسلمين في العالم لكي يقودوا جهاداً مقدساً بجانب الدولة العثمانية . وامتد نشاط هؤلاء اللاجئين إلى عدة عواصم أوروبية بهدف طرح قضاياهم على الرأي العام الدولي وطلب المساعدة . وبذلك انتقلت قضية الاستعمار في منطقة المغرب العربي إلى الساحة الدولية . ويمكن حصر أهم الاتجاهات التي لازمت هذا الانفتاح على الخارج والذي انطلق في بداية الحرب من العاصمة العثمانية كالآتي :

١ ـ حركة الجامعة الاسلامية الممثلة في المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في الاستانة سنة ١٩١٥ والذي شارك فيه وفد من منطقة شمال افريقيا الشيخ العتابي من المغرب وعلى باش حمبه وعبد العزيز الجاويش من تونس وشكيب ارسلان الذيسيقوم بدور هام في الحركة الوطنية لشمال افريقية .

٢ ـ مؤتمر القوميات (١٩١٦) حيث طرح باش حمبه قضيتي الجزائر وتونس مطالبا بالحكم الذاتي وبذلك تخطت الحركة الوطنية مرحلة الدعوة الاسلامية .

٣ ـ التحرك التركي الالماني لصالح القضية الوطنية في شمال افريقيا . فقد كون باش حمبه في برلين هيئة لاستقلال شمال افريقيا (١٩١٥) .

٤ ـ ثورة الحجاز (١٩١٦) التي تسجل تراجع الحكم العثماني وطرد العديد من المهاجرين من مكة لأنهم كانوا يؤيدون تركيا .

٥ ـ الثورة البلشفية (١٩١٧) التي كان لها أثر عميق في نفوس رجال الحركة الوطنية وإن بقوا متحفظين ازاء طابعها الشيوعي .

٦ ـ اعلان مبادىء ويلسون عند نهاية الحرب وخاصة مبدأ تقرير المصير الذي لاقى تأييدا كبيرا في صفوف رجال الحركة .

وإذا كان مؤتمر الصلح قد أهمل قضية المستعمرات واقتصرت جهوده على حق تقرير المصير للشعوب الاوروبية إلا أن التجربة التي خاضتها الحركة السياسية في شمال افريقيا خلال هذه الفترة فتحت لها آفاقا على ما يجري في العالم ونفذت من الشعار الذي احاطت به فرنسا مستعمراتها الثلاث .

نبه انتصار القوميات في اوروبا زعماء الحركة السياسية إلى أهمية حق تقرير المصير ، ومن جهة أخرى أدت الحرب العالمية الأولى إلى تدهور اجتماعي في الاقطار الثلاثة وخاصة في الجزائر حيث ازداد حجم البروليتاريا وأدى هذا إلى ازدياد اليقظة السياسية والوعي الوطني في صفوف هذه الطبقة .

بصفة عامة ، فان الحرب اعطت دفعة قوية للحركة الوطنية . ومن أهم نتائج هذه الحرب اعلان مولد الجمهورية الريفية في المغرب بما لها من حكومة ودستور ١٩٢١ وتأكيد افكار الحركة السلفية في المنطقة .

ويلاحظ أن النخبة المغربية في المنطقة الاسبانية خلال العشرينات كانت اكثر اتصالا بالمشرق العربي وكانت العشرينات ايضا مرحلة انفتاح منطقة المغرب العربي على العالم الخارجي السياسي وتفاعل مع التيارات الفكرية والسياسية الصاعدة في ذلك الوقت ، ومن أهم هذه التيارات الفكر القومي العربي في قالبه المعاصر على الصعيد الاقليمي ، وكان الأمير شكيب ارسلان ورفاقه هم همزة الوصل بين المشرق والمغرب العربيين . اما على الصعيد الدولي فان الشيوعية والاشتراكية كانتا القضية الاولى التي شغلت أوروبا ما بعد الحرب ، وقد نقلها إلى شمال افريقيا حزبان فرنسيان : الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي .

١ ـ **الفكر القومي العربي**: عندما قامت ثورة دمشق (١٩٢٥) كان المفكرون العرب قد وصلوا إلى تطوير أسس الكفاح التحرري من خلال ادراج مفهوم وحدة الوطن العربي كهدف يجب أن يسبق وحدة العالم الاسلامي وضرورة تحقيق الاستقلال الوطني لكل قطر عربي من أجل هذا الهدف . وقد انعكست هذه الاستراتيجية الجديدة على الحركات الوطنية بالمغرب العربي على الصعيد الاقليمي وعلى الصعيد العربي ، وعلى هذا النحو نما تضامن جديد بين الحركات الوطنية من منطلق قطري إلى منطلق اقليمي ثم عربي ، وهو المفهوم الذي تجلى عند قيام ثورة الريف على يد الامير عبد الكريم الخطابي .

وقد تبلور هذا التضامن الاقليمي ايضا في الخارج عندما تكونت في ١٩٢٧ في باريس « جمعية الطلبة المسلمين بشمال افريقيا » التي سرعان ما اصبح لها فروع في كل من الاقطار الثلاثة كما خصصت جزءا كبيرا من نشاطها في اعطاء تعريف واضح عن

«الأمة الشمال ـ افريقية» ومن اجل توحيد العمل بين التنظيمات السياسية في الاقطار الثلاثة .

كذلك تجلى التضامن على الصعيد العربي عند قيام ثورة دمشق (١٩٢٥) فقد عارض المغاربة في ارسال جنود لهم للمحاربة بجوار فرنسا . وكتب المؤرخ « توينبي » في هذا الشأن إن « الحركات الوطنية في مصر وفلسطين وسوريا تجد لها اصداء في تونس والجزائر كما كان نفس الشيء صحيحا بالنسبة للأحداث الوطنية في المغرب وليبيا وتونس » .

٢ ـ الاحزاب الشيوعية والاشتراكية: نبع اهتمام هذه الاحزاب بالحركات الوطنية الشمال ـ افريقية من المؤتمر الأول للكومنترن الذي انعقد في موسكو (٢ ـ ١٩ آذار (مارس) ١٩١٩) ثم من اعلان الحكومة البلشفية رسميا في ١٩٢٠ عن عزمها تشجيع الثورة في الجزائر ، وايضا من بيان اللجنة التنفيذية للكومنترن (٢٠ أيار (مايو) ١٩٢٢) والذي يدعو إلى « تحرير الجزائر وتونس » وإلى اتحاد المناضلين الثوريين في هذين القطرين داخل الحزب الشيوعي الفرنسي . وقد جد هذا الاخير في تكوين حزب شيوعي جزائري كما أجرى اتصالات عديدة مع الامير خالد (حزب الاصلاح) بهدف اقامة تعاون شيوعي ـ اسلامي ولكن نقطة الضعف في الدعوة الشيوعية كانت تكمن في أن الحزب الشيوعي الفرنسي كان يعتبر المشكلة الجزائرية « قضية وطنية فرنسية » .

٣ ـ نجمة شمال افريقيا: تكونت في آذار (مارس) ١٩٢٦ في باريس على يد جماعة من أهالي افريقيا الشمالية ومعظمهم من الجزائر . ولكن المنظمة لم تفلح طوال العشرينات في نقل برامجها إلى الجماهير في شمال افريقيا حتى قررت السلطات الفرنسيه حلها في ١٩٢٩ . ويتلخص برنامج النجمة في ثلاث أفكار . **فكرة وطنية** وهي اعلان الاستقلال الكامل للجزائر ، **وفكرة اشتراكية:** الدعوة إلى تأميم الاراضي والممتلكات الكبيرة التي استولى عليها المعمرون . **وفكرة العروبة:** المناداة بالتعليم العربي واستعادة اللغة العربية . ويلاحظ عدم تركيز البرنامج على فكرة الجامعة الاسلامية ، بل أن موضوع فصل الدين الاسلامي عن الدولة الفرنسية الذي سبق أن نادى به الحزب الاصلاحي ، حمله زعماء النجمة في العشرينات .

أثمر الانفتاح المتزايد لمنطقة شمال افريقيا على العالم الخارجي اتجاها إلى تعميق

تطوير اساليب المقاومة السياسية داخل الاقطار الثلاثة ، وخاصة بعد الاحداث الثلاثة التي جرت في ١٩٣٠ وهي : مقاومة ظهور البربر في المغرب واحتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر وعدول السلطات الفرنسية في تونس عن عقد المؤتمر « الانخاريستي » . وهي احداث ابرزت اهمية التحام الجماهير بالنخبة السياسية ، فقامت احزاب سياسية لتطالب بدعم تمثيل الجماهير الوطنية داخل الاجهزة التي وضعتها السلطات الحاكمة ، وكان هذا يعني أساسا التطلع إلى فتح حوار مع المستعمر . ومن جهة اخرى انتعشت الحركة الثقافية والدينية لتتبلور في نقطة انطلاق جديدة تمثلت في الجزائر في شكل تأسيس « هيئة العلماء » .

ويلاحظ خلال الثلاثينات مزيدا من التركيز بالنسبة للحركة الوطنية على الاحداث الجارية على المسرح السياسي الفرنسي وتفهما أعمق للتطورات التي كانت تجري على الساحة الفرنسية . وفي ذلك الوقت كان رجال الفكر السياسي في المشرق العربي منهمكين في صياغة مفاهيم جديدة مثل العروبة والأمة العربية ، وفي وضع عقيدة جديدة للنضال قائمة على التضامن العربي واكثر تجاوبا مع افكار العصر . اما التضامن الاسلامي (الجامعة الاسلامية) فقد بقي حيا طوال هذه الفترة ولكنه لم يعد يكفي لاحتياجات النضال في الثلاثينات .

واخيرا ، فان انتقال أزمة التضخم العالمية إلى اوروبا في بداية الثلاثينات حثّ الدول الاستعمارية الكبرى على البحث عن اسواق جديدة خارج القارة ، واتجهت في ذلك إلى المستعمرات . وعلى هذا أدت السياسة الفرنسية في المغرب العربي إلى انتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدن لصالح المعمرين . اما فيما يخص الاهالي فان حركة الافقار ، التي ادت اليها سياسة التوسع في الاستيلاء على الأراضي ، ازدادت في القرى والريف ، ولكن الصناعات الجديدة التي أنشئت في المدن كانت قادرة على امتصاص السيل المتدفق من العمالة المحلية على المدن . وهؤلاء البروليتاريون هم الذين شكلوا النواة الاولى للطبقة العاملة والحركة النقابية في المغرب العربي .

وعلى هذا يمكن تحديد صورة النشاط الوطني في المغرب العربي خلال الثلاثينات وحتى عشية الحرب العالمية الثانية بأنه مركب قائم على « سياسة التدرج » في الأهداف ، وأولها فتح حوار مع المستعمر بهدف المطالبة على الأقل باحترام نصوص معاهدات-الحماية والاحتلال التي أبرمت في المانيا . لهذا اتّسم نشاط الحركة الوطنية

خلال هذه الفترة أولاً بتزايد أهمية التحرك الداخلي مع تدرج تكتيكي وإن كان الاستقلال قد بقي الهدف النهائي . إلا أن التركيز الأساسي جرى على الهدف المرحلي الأول وهو الحصول على تمثيل داخل المؤسسات المحلية كنقطة بداية للوصول إلى تمثيل داخل الجمعية الوطنية الفرنسية . وقد أضفى موقف المترقب هذا على الحركة الوطنية صيغة انتهازية وتقليب التحرك التكتيكي القصير المدى على الاستراتيجية البعيدة الأجل ، فأصبحت الرؤيا السياسية مقصورة على المعادلة الفرنسية ـ المغربية وساعد على هذا الاتجاه تولي حكومة الجبهة الشعبية مقاليد الأمور في فرنسا في **١٩٣٦** وكانت تضم أحزاباً يسارية منها الحزب الشيوعي الفرنسي الذي بدأ متعاطفاً مع قضايا شعوب شمال افريقيا . ولكن سقوط الحكومة في آذار (مارس) **١٩٣٨** أطاح بكافة هذه الآمال خاصة بعد أن تبين للوطنيين مدى الفجوة بين الأهداف التي حددتها الحركة الوطنية وبين تطلبات الأحزاب اليسارية داخل الحكومة الشعبية .

وأخيراً ، فإن تركيز الحزكة الوطنية على هدف اقامة حوار مع المستعمر كهدف مرحلي في طريق الاستقلال أدى أيضاً إلى انشقاقات داخل الحركة في كل من الأقطار الثلاثة حول الأساليب المتبعة ، وليس حول الهدف النهائي .

اندلعت الحرب العالمية الثانية في وقت كانت الحركة الوطنية بالمغرب العربي تعاني فيه من التمزق والضعف نتيجة انتهاج قادتها خطاً معتدلاً وتكتيكاً قائماً على الانتهازية ، مركزاً على المطالب المرحلية . ولكن أحداث الحرب انعكست على الحركة الوطنية من خلال تفاعلها بمؤثرات ثلاثة : **المؤشر الأول** هو هزيمة الدولة المستعمرة للمنطقة (فرنسا) بعد شهور قليلة من اعلان الحرب (حزيران) يونيو **١٩٤٠** ، وقد أدى سقوط فرنسا بهذه السهولة غير المتوقعة إلى تعرية الكثير من الحقائق ، منها اختفاء تلك الهالة التي أحاطت بها فرنسا نفسها عن قوة جيشها الذي لا يقهر . **أما المؤشر الثاني** فيتمثل في نزول قوات الحلفاء في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) **١٩٤٢** على أرض المغرب والجزائر ثم تونس أيار (مايو) **١٩٤٣** وكانت أهم قضية طرحها هذا الحادث هو موضوع اشتراك شعوب المنطقة في الحرب بجانب الحلفاءللقضاء على النازية والفاشية . **والمؤشر الثالث** يتمثل في استعادة فرنسا لسيادتها وبالتالي اعادة إحكام قبضتها على الأقطار الثلاثة .

وقد جاء تفاعل الحركة الوطنية بهذه المؤشرات الثلاثة على النحو التالي :

١ -(جرى على أثر هزيمة فرنسا تجديد شامل في الاتجاه التكتيكي في صفوف الحركة الدي بقي متسماً بالانتهازية والترقب ، ولكنه مع مكون جديد هو حق البحث عن تحالفات جديدة وكان هذا يعني مزيداً من الانفتاح على العالم الخارجي) .

٢ -(أثار مولد الميثاق الأطلنطي انتباه قادة الحركة الوطنية إلى ماتضمنه حول حق نقرير المصير لجميع الشعوب المستعمرة ، فأصبحت قضية الاستقلال الوطني في مقدمة المطالب) .

ومع ذلك ، فبالرغم من أن نهاية الحرب سجلت انحسار الاستعمار عن العالم ، آلا أن شعوب المغرب العربي خرجت منها صفر اليدين ، ولم تجن سوى بعض الاجراءات الاصلاحية ، رغم مشاركتها الفعالة في القتال بجانب الحلفاء(٢٤٣) .

ولكن أحداث الحرب العالمية الثانية لم تكن المؤشر الوحيد الذي تفاعل مع الحركة الوطنية في المغرب العربي . ففي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٥ جاء مولد الجامعة العربية ليستقطب انتباه قادة الأحزاب الوطنية .

سجلت نهاية الحرب العالمية الثانية بداية تحول هام جداً في الحركة الوطنية ، إذ تأكد خلال الفترة التي تلتها تراجع النخبة السياسية عن الموقف التكتيكي القصير المدى لطرح قضية المواجهة والمطالبة الصريحة بالاستقلال التام .

وكانت هناك عوامل عديدة ، دولية وأقليمية وداخلية ، دفعت إلى هذا التحول :

١ ـ ظهر في العالم استقطاب ثنائي تقف على قمته دولتان عظيمتان ليس لهما ناريخ استعماري (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) كما أصبح حق تقرير المصير لجميع شعوب العالم مدرجاً ضمن المبادىء العامة التي يتوقف عليها السلام في عالم الغد .

٢ ـ فشل الاستعمار الفرنسي في الحفاظ على مراكزه ولأول مرة في الهند الصينية عندما هُزمت جيوشه في موقعة « ديان بيان فو » (١٩٥٣) فازداد اليقين لدى زعماء الحركة الوطنية بأن منبع قوة فرنسا لا يأتي من داخلها بل يكمن في مستعمراتها .

وقد شهدت هذه المرحلة بصفة عامة اكتساح الأحزاب التي تطرح صراحة قضية الاستقلال للساحة السياسية بالمغرب العربي . في تونس كان حزب الدستور الجديد تحت قيادة الحبيب بورقيبة قد توصل في ٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٥ إلى توقيع اتفاقية

مع فرنسا تمنح تونس حكماً ذاتياً داخلياً . أما المغرب فقد صمد حزب الاستقلال امام ضغوط السلطات الفرنسية ونجح في الحصول على بيان مشترك (محادثات أكس ـ لي ـ بان) فرنسي ـ مغربي ينص على الغاء معاهدة الحماية (١٩١٢) واعتراف الحكومة الفرنسية باستقلال المغرب . أما الجزائر فقد خاضت حرباً وثورة مسلحة لمدة سبع سنوات قبل أن تسفر المفاوضات في ١٨ آذار (مارس) ١٩٦٢ عن « اتفاقيات ايفيان » التي نصت فيها ضمن أشياء أخرى على اقامة دولة جزائرية مستقلة بعد مرحلة انتقالية إلى أن أعلن الجنرال ديغول في ٣ تموز (يوليو) من نفس العام وبعد اجراء استفتاء شعبي استقلال الجزائر .

ويمكن استخلاص بعض الملامح التي اتسم بها مفهوم النخبة السياسية التي خاضت كفاحاً أدى إلى توليها مقاليد الأمور في الأقطار الثلاثة الخاص بالعروبة وبالوحدة العربية :

(أ) تأكد الشعور العميق بالانتماء إلى الأسرة العربية في نفوس شعوب المنطقة وهو شعور لازم جهود النخبة وهي تطالب بالحفاظ على شخصيتها العربية ـ الاسلامية ، كما كان أيضاً الضامن للاستمرارية التاريخية للكيان الشمال ـ افريقي ، إذ ربط بين الماضي المجيد الذي ولّى وبين الأمل في مستقبل يجدد الماضي في صورة عصرية .

ب) حرك الشعور بالانتماء العربي الأمل في أن يؤدي التضامن العربي إلى نتائج ملموسة خاصة منذ قيام جامعة الدول العربية . ولكن المأساة الفلسطينية وحرب ١٩٤٨ التي انتهت بمولد دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي فحد ذلك كثيرا من هذا الأمل كما أظهرت مدى ضعف الأقطار العربية في مواجهة التحرك الصهيوني في الشرق الاوسط وعلى الساحة الدولية . لهذا كله أدرك زعماء الحركة الوطنية حقيقة الدور الذي يمكن أن تقوم به الجامعة العربية وهو المساندة الدبلوسية الفعالة على الساحة الدولية . هذا أيضاً كان رجال الحركة الوطنية يلجأون إلى الجامعة كلما بدا لهم أن «تدويل» القضية كفيل بأن يشكل ضغطاً فعالا على الحكومة الفرنسية . أما جوهر النضال الوطني فقد بقي محصوراً داخل الحدود القطرية التي رسمها الاستعمار لكل من الاقطار الثلاثة .

(جـ) أصفى الاستعمار الفرنسي سمات مميزة على الحياة السياسية الشمال ـ

افريقية ، منها الشعور بالانتماء إلى منطقة نفوذ واحدة وفي مواجهة عدو واحد . ومن هنا قامت فكرة « المغرب الأكبر » . وفي سنة ١٩٥٨ عقدت أحزاب الدول الثلاث مؤتمراً اقليمياً في مدينة طنجة لوضع أسس التعاون فيما بينهم من أجل قيام « المغرب الأكبر الموحد » .

بعد أن حصلت النخبة السياسية على الاستقلال الوطني أصبح عليها أن تحدد لنفسها أهدافاً جديدة تضمن لها المشاركة الفعالة في صنع القرارات السياسية التي تحسم مستقبل الدولة الجديدة . ويجدر هنا ابداء عدد من الملاحظات :

(أ) من وجهة النظر السياسية فإن الاتفاقيات الثلاث التي منحت السيادة الوطنية للدول الثلاث نصت على ابقاء وجود عسكري فرنسي . وبالتالي كان على النخبة العمل على استكمال الاستقلال السياسي .

(ب) من وجهة النظر الاقتصادية كان على النخبة أن تعمل على ادارة اقتصاد وطني ظل تابعاً على نحو شبه كلّي للاقتصاد الفرنسي كما أن نشاط النخبة الاقتصادية كان مقصوراً على جزء هزيل للغاية من القطاع التجاري .

(جـ) من وجهة النظر الادارية ورثت كل من الدول الثلاث جهازاً ادارياً ثقيلاً تفوق تكاليف ادارته امكانيات هذه الدول ، وكان التعامل فيه باللغة الفرنسية .

وبصفة عامة ، فإن ضخامة المشاكل التي طرحت نفسها على المسؤولين السياسيين في الدول الثلاث كانت تتطلب نخبة سياسية وادارية مجهزة بكوادر مؤهلة ، ومدعمة بنخبة اقتصادية قادرة على تولي عملية الدعم للاقتصاد الوطني . وهذا بالذات ما كانت تفتقده الدول الثلاث وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة : فبالمقارنة مع القطر المغربي ذي الطابع القبلي ، والجزائر البروليتارية ، فإن تونس - وهي أصغر الدول الثلاث - هي التي كانت لديها طبقة بورجوازية وإن كانت هذه الأخيرة لم تكن قد تعدت المرحلة التجارية .

وطرحت جميع هذه العوامل على النخبة السياسية تساؤلاً كبيراً : ما هو الطريق الأسلم لخوض المرحلة الأولى بعد الاستقلال ؟ بالنسبة لتونس والمغرب كان حصول هاتين الدولتين على السيادة الوطنية في الخمسينات ، أي في الوقت الذي كانت فيه الحرب الباردة على أشدها ، وقد جعلهما هذا في تردد في الاختيار بين النهج

الاشتراكي ، والطريق الرأسمالي وبالتالي انتهى بهما الأمر إلى تفضيل الطريق التجريبي المرن ، خاصة وأنه كان يتوافق مع ميول البورجوازية التجارية وكذا النخبة السياسية التي تولت الحكم . أما بالنسبة للجزائر فإنها نالت استقلالها في بداية الستينات ، أي في الوقت الذي بدأ فيه المارد الافريقي يستيقظ ، وأصبحت بعض الدول الافريقية مثل غينيا تنادي بالاشتراكية الافريقية ، وكانت نفس الدعوة قائمة ومنتشرة في الوطن العربي ، ولذا كان الخط الاشتراكي يتوافق مع وضع المجتمع الجزائري الذي كان يفتقر إلى بورجوازية وطنية بمعناها الطبقي .

وقد أصبحت أيضاً ، عملية الحفاظ على السلطة ، منذ إعلان الاستقلال ، الشغل الدائم للنخبة السياسية في الدول الثلاث ، ولكن قام الصراع بين الزعامة التي تم تكريسها في المرحلة السابقة وبين القيادات الصاعدة داخل التنظيمات الحزبية ، وكل منهما يرى نفسه أكثر أهلية لتولي مسؤوليات « بناء الاستقلال » .

في المغرب انتصرت الزعامة التقليدية الممثلة في شخص الملك محمد بن يوسف على نحو فرض على البلاد نظاماً ملكياً موروثاً سرعان ما انفرد بالحكم وعلى حساب القيادات الحزبية التي حاولت طوال الستينات بل والسبعينات أيضاً اقرار نظام دستوري يضمن لها المشاركة الفعلية في ادارة شؤون الدولة وصنع القرارات . أما في تونس ، فقد أسفر هذا الصراع عن فوز الزعامة الممثلة في شخص الحبيب بورقيبة على النخبة السياسية ، وبهذا أصبح نظام الحكم التونسي مستقطَباً حول شخصية بورقيبة ودائراً في فلكه . وفي الجزائر دار صراع من نوع آخر ويرجع ذلك إلى تعدد الزعامات التي قادت الثورة الجزائرية وبالتالي انقسمت النخبة السياسية إلى مجموعات تابعة لشخصيات ، وأسفر هذا الصراع خلال الفترة الأولى من الاستقلال عن تغلب هواري بومدين في حزيران (يونيو) ١٩٦٥ على أحمد بن بللا .

وبصفة عامة ، فإن هذه الصراعات أدت إلى الاقلال من التركيز على التنظيمات الحزبية وكان البديل لذلك هو قيام تدريجي لفئة من الكوادر البيروقراطية والفنية ، كانت هي التي تولت بالفعل تسيير شؤون الدولة الجديدة . هذا ما حدث بالفعل في المغرب أخيراً حيث أسفرت نتائج الانتخابات الأخيرة عن فوز « المستقلين » ، كذلك في تونس أصبح الحزب الأوحد يتلون وفقاً لتوجيهات الزعيم بورقيبة ، وبذلك تحول إلى جهاز بيروقراطي وفني . وأخيراً في الجزائر أيضاً ، برزت فئة البيروقراطيين والفنيين

خلال السبعينات ولكن على نحو أصبح يهدد كيان الزعامة السياسية .

إن محاولة معرفة موقف النخبة السياسية في المغرب العربي من العروبة والوحدة العربية تفرض خطوة مسبقة وهي التعرف على مدى ما توصل إليه تطور مفهوم العروبة والوحدة في الوقت الذي نالت فيه الدول الثلاث استقلالها الوطني ثم متابعة مدى توافق هذا التطور مع متطلبات النخبة السياسية خلال الفترة نفسها .

فبالنسبة لتونس والمغرب توافق اعلان الاستقلال مع استقرار صياغة جديدة لمفهوم العروبة والوحدة في الوطن العربي :

١ ـ في ١٩٥٤ كانت « فلسفة الثورة » التي وضعها عبدالناصر قد حددت الدوائر الثلاث (عربية ـ اسلامية ـ افريقية) التي ستشكل منطلقاً جديداً للنضال العربي . وبعد عام من هذا الاعلان عاد الزعيم المصري من مؤتمر باندونج حاملاً في ذهنه مكونات تربط المد الثوري العربي بنضال الشعوب المستعمرة في آسيا وفي افريقيا ضد الامبريالية العالمية . وبالتالي فإن القومية العربية التي ولدت في ثوبها الجديد في منتصف الخمسينات كانت منذ بدايتها على علاقة جدلية بالثورة المصرية .

٢ ـ كان التضامن العربي ، حتى عشية الاستقلال في كل من تونس والمغرب قد تجلى أساساً على الصعيد الدبلوماسي ومن خلال تحركات جامعة الدول العربية على ساحة الأمم المتحدة ومظاهرات جماهيرية في دول المشرق المستقلة تناهز قضيتي تونس والمغرب ويلاحظ هنا :

ـ أن اعلان الاستقلال أكد مدى فعالية الوحدة الوطنية الممثلة في التفاف الجماهير والنخبة حول القضية الوطنية وتجسيد هذه الوحدة في شخصية الزعامة الوطنية التي اكتسحت الساحة السياسية بفضل قدرتها العالية على التعبئة الجماهيرية والتفاوض بثقة مع المستعمر . . وبالطبع تولد لدى النخبة السياسية حرص على الحفاظ على هذا التوازن في القوى السياسية خلال الفترة التالية .

ـ نتيجة لهذه الديناميكية الجديدة كانت النخبة السياسية ترفض أي زعامة من الخارج حتى لو تغنت هذه الأخيرة بشعارات مثل العروبة والوحدة العربية تجد لها صدى في نفوس الجماهير .

هذه العوامل أدت بالزعماء التونسيين والمغاربة إلى تقبل المفاهيم القديمة للعروبة

(التضامن العربي) اما تلك الخاصة بالوحدة العربية فقد تقبلتها ولكن بعد أن أفرغت منها كل ما يمكن أن يؤدي إلى تزعم للتيار الوحدوي من خارج الواقع الوطني . وحتى يتم ذلك أجمعت الزعامات الوطنية على أن الوحدة من مصلحة العرب جميعاً ، ولكنها لن تتحقق مع ذلك في المستقبل القريب . وانفرد كل زعيم برؤ يته الخاصة عن الوحدة العربية كما تباينت الآراء حول مصير القضية الفلسطينية .

ـ نجد في رؤ ية تونس تأكيداً لأولوية المرحلة الوطنية وبناء الدولة الحديثة على يد البورجوازية التونسية الصاعدة . ويمكن استخلاص أهم مكونات هذه الرؤ ية في الآتي : ١ (عدم الاعتراف بالجذور التاريخية للوحدة العربية) . ٢ (الوحدة العربية ليست واجباً أو فريضة دين لأن مثل هذا التصور للوحدة تسيطر عليه العاطفة كما أنه يجافي المنطق) . ٣ (ومع ذلك فإن الوحدة العربية غاية لأنها زيادة في القوة للتغلب على التفاوت الحضاري بين العدو الاسرائيلي المتقدم والشعوب العربية المتخلفة) . ٤ (هناك استحالة قيام وحدة شاملة فوراً ولا بد من قيام وحدات جزئية مرحلية) . ٥ (المبرر الوحيد لقيام وحدة بين الشعوب العربية هو تسهيل عملية النهوض الاجتماعي بين بلدان متفاوتة في درجة التطور لكي تصبح بفضل التضامن والتعاون متكاملة) . ٦ (الوسيلة المثلى للتقدم في طريق الوحدة تكمن في اقامة « أقصى حد ممكن من علاقات التعاون في الميادين التي تسمح بذلك وعلى أساس المصلحة المشتركة واحترام السياسات الوطنية ») .

أما موقف تونس من القضية الفلسطينية فيلاحظ أنه كان نابعاً أساساً عن التجربة التي خاضتها الحركة الوطنية التونسية ، وهي تجربة تجمع بين النضال بالوسائل السياسية والتعبئة المسلحة كما تتسم بالمرونة . وكان هذا الموقف في مضمونه تكراراً لموقف الحركة التونسية من الاستعمار الفرنسي دون الأخذ في ذلك بالفارق بين الملابسات التاريخية التي جرى فيها النضال التونسي وتلك التي لازمت النضال من أجل تحرير فلسطين .

ـ وفي المغرب بلورت الحركة السياسية منذ ١٩٥٦ وحتى احداث الصحراء الغربية في ١٩٧٤ وحدة وطنية في قالب معادلة جديدة . ففي ١٩٥٦ كانت الزعامة ممثلة في قطبين متعادلين التف حولها الشعب وهما : السلطان محمد بن يوسف الذي أصبح يجسد استمرارية الأمة المغربية وصمودها امام محاولات الاستعمار في هدم كيانها

الوطني ، وحزب الاستقلال الذي نجح في انتزاع الاستقلال من الحكومة الفرنسية بفضل قدرته على التعبئة الجماهيرية . أما في عام ١٩٧٤ فإننا نجد أحد القطبين وهو السلطان قد انفرد بينما وقف حزب الاستقلال في مقدمة التنظيمات الجماهيرية . كان هذا التطور يسجل - في تقديرنا - انتصار مفهوم الاستمرارية التاريخية للدولة المغربية على الزعامة الحزبية ، وأن العرش المغربي يستمد شرعيته من الاسلام . هذا المفهوم للدولة المنبعث من التاريخ والدين هو الذي يحدد موقف الملك محمد الخامس وبعده الملك الحسن الثانى من العروبة والوحدة العربية .

كان السلطان محمد بن يوسف يرى في ميثاق الجامعة العربية ومولدها « أحداثاً سعيدة للاسلام وللمغرب » ، أي أن الجامعة العربية تجسد وحدة المسلمين قبل أي شيء آخر . متجاهلاً في ذلك الوحدة العربية .

وبعد الاستقلال مارس الملك محمد الخامس سلطاته السياسية باسم الدين وعلى نحو يعكس نظام الخلافة الاسلامية في ثوب عصري متسمة بروح التسامح . وكما كان الاسلام في الماضي عماد الأمة الاسلامية فإنه بقي في دولة المغرب المستقلة العنصر الأساسي لإلتفاف الشعب حول العرش العلوي ويلاحظ أن نجاح الحركة السلفية في العشرينات في صفوف النخبة التقليدية المغربية مهد الطريق أمام هذا التصور للوحدة الوطنية ، وخاصة أن الايمان بالخرافات الدينية المنتشرة في الأوساط القبلية التي تحيا بعيداً عن العاصمة كانت تحد من ولاء هذه القبائل للحكم المركزي .

ولكن التحرك السياسي الذي تلا المقاومة المسلحة بعد ١٩٣٤ أوجد تفاعلاً فكرياً مع المستعمر أضفى بعض الجوانب العصرية على هذا المفهوم التقليدي للدولة ، كما أن ميثاق حزب الاستقلال منذ مولده في ١٩٤٣ كان يطالب بنظام ملكي دستوري .

اما تصور الملك الحسن الثاني فقد كان أيضاً يرتكز على الشرعية الدينية . لهذا جاء تصوره للوحدة على أنها وحدة للشعوب الاسلامية ، وتأييده للتيار الوحدوي العربي جاء من هذا المنطلق . كذلك كانت مناصرته للقضية الفلسطينية تقتصر على ادانة الكيان الصهيوني الذي استقر على أرض هي جزء من العالم الاسلامي العربي .

أما النخبة السياسية التي تمخضت عنها الحركة الوطنية فإنها لم تلتقط من تيار

القومية العربية سوى مفهوم التضامن العربي الذي خدم قضيتها في الماضي وعزز كيانها الوطني أمام المستعمر ، ولكن مفهوم الوحدة العربيه لم يعد وارداً ضمن اهتمامات المسؤولين المغاربة الذين تولوا شؤون الدولة الجديدة .

ـ وبالنسبة للجزائر المستقلة ، فإن موقفها من العروبة والقومية العربية ناشىء عن تجربة الثورة المسلحة التي خاضتها قبل الاستقلال والتي شهدت فعالية التضامن العربي مع الشعب الجزائري ووصف « الروح العربية والاسلامية للأمة الجزائرية » بأنها هي التي شكلت الحصن المنيع ضد محاولة الاستعمار والقضاء عليها . ومن هذا المنطلق ينظر الميثاق إلى الاسلام على أنه ليس فقط ديناً متسامحاً ، بل أنه يحمل بذور التحرر الاجتماعي ويجسد تطلع الجماهير إلى المساواة ، وبالتالي تعلن الثورة الجزائرية أنها تعيد للاسلام وجهه التقدمي الحقيقي وذلك من خلال فكر سياسي واجتماعي مستمد من الواقع الجزائري . ويتغذى بمبادىء العلم الحديث . أما مفهوم العروبة فإنه أحد المكونات الدينية للأمة الجزائرية ، ولكنه ليس الوحيد لأن التعريف بالعروبة « لا يقلل من شأن هذا المجتمع قبل دخول العرب إلى الجزائر ، وهذا يعني أن الأمة الجزائرية كانت ماثلة قبل أن يأتي إليها العرب ولكنها اكتسبت بوجودهم الطابع العربي الاسلامي » .

ويربط المسؤولون الجزائريون بين النضال العربي من أجل الوحدة والكفاح المناهض للامبريالية ، وهم يرون أن اتساع هذا الكفاح يغذي دينامية القوى السياسية والاجتماعية التي تعمل من أجل تحقيق وحدة المغرب العربي وافريقيا . اما التطلعات إلى الوحدة العربية فإنها ترتكز على منظور تاريخي سليم وتعكس ضرورة تحرير الجماهير ، وتعكس رغبة هذه الجماهير في التقدم . كذلك يؤكد الميثاق الجزائري ضرورة قيام الدولة العربية بوضع اختيارات ايديولوجية وسياسية واقتصادية مشتركة تتوافق مع مصالح الجماهير الشعبية في هذه الدول . وتقع هذه المهمة على عاتق الحزب الطليعي أو على المنظمات الجماهيرية القادرة على استخلاص وتقديم المطالب الجماهيرية التي تدعو إلى تحقيق الوحدة ، وعلى تحديد العراقيل التي يجب التغلب عليها .

أما على مستوى الدول العربية فإن المهمة تتمثل في تنمية المبادلات بينها ووضع مشروعات اقتصادية مشتركة وانتهاج سياسة خارجية متفق عليها والتضامن التام في

النضال ضد الامبريالية ويرى الميثاق أن هذه الأهداف تتوافق مع مصالح الشعوب العربية ، وهي كفيلة بالتالي بأن تؤدي بخطوات ثابتة إلى طريق الوحدة .

ومن خلال ميثاق الجزائر يمكن أن نستخلص أهم مقومات الموقف الجزائري من العروبة والوحدة في بداية عهد الاستقلال كالآتي :

١ ـ (تأكيد انتماء الجزائر إلى الأسرة العربية (اللغة والدين)) .

٢ ـ (موقف نضالي يربط بين نضال الشعوب العربية وكفاح شعوب العالم الثالث ضد الامبريالية) .

٣ ـ (يولي اهتماماً خاصاً بدور التنظيم الطليعي لاستخلاص وتقييم الاختيارات الايديولوجية والسياسية والاقتصادية المشتركة بين الشعوب) .

أما موقف الميثاق الجزائري الجديد (١٩٧٦) فهو يعكس أيضاً ثمرة التجربة التي خاضتها الجزائر على المسرح العربي منذ استقلالها :

١ ـ (الايمان العميق بامكانية تحقيق الوحدة « لأنها أصبحت في عهد التجمعات الكبرى مطلباً مستعجلاً لرقي الشعوب العربية ») .

٢ ـ (صلاحية جامعة الدول العربية لتكون الاطار المناسب للتعاون بين الدول العربية مع مطالبة باعادة النظر في ميثاقها وتجديد هيكلها من أجل زيادة فعاليتها .

٣ ـ (الوحدة العربية هي أولاً وأخيراً وحدة الشعوب وليست مجرد ثمرة لاتفاقيات بين الحكومات أو نتيجة لأوضاع ظرفية مؤقتة) .

ويؤدي هذا المفهوم الديناميكي الجديد للوحدة العربية إلى المسار الوحدوي الأوفق كالآتي :

أولاً ـ ضرورة اجراء تحليل للتجارب التي تمت في هذا الميدان بطريقة موضوعية .

ثانياً ـ على الوطن العربي أن يعمل جاهداً على خلق الظروف الموضوعية لاتمام الوحدة .

ثالثاً ـ على الأقطار العربية العمل على تجاوز بعض الأوضاع الظرفية المؤقتة مثل

الفوارق في السياسات واختلاف التصورات لكل قطر من أجل ارساء أسس موضـوعية لا رجعة فيها .

من هذا المنطلق تندرج القضية الفلسـطينية في نـطاق المفهوم الجـزائري للوحـدة الوطنية وقد صاغ الميثاق هذه العلاقة الجدلية الوثيقة على النحو التالي :

« إن قضية فلسطين تعيش في وجـداننا ويشكـل تحريـرها الشـاغل الأول ، وإن التزامنا التام مع الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى التي احتُلت أراضيها لهو بـالنسبة لنـا أكثر من مجـرد تضامن . إنـه يدخـل في صلب العمل من أجـل تحريـرنـا بالذات . ولهذا فإن التزامنا مطلق يقضي بقبول كل التضحيات بمـا في ذلك التضحيـة بالنفس» .

ضياع فلسطين

أول حرب مكشوفة بين الاستعمار الغربي والعرب

خلال هذه الحقبة النضالية الطويلة في المغرب العربي كانت نزعة القومية العربية في المشرق العربي تبحث عن زعامات مدنية بعيدة عن التيارات الماركسية المتنامية في العالم العربي ، والفاشستية الطائفية الجديدة التي تمثلت بحزب « الكتائب » اللبنانية الذي أسسه الشيخ بيار الجميل ، والذي سيلعب دورا بارزا في حياة لبنان . [وقد تمثل التيار القومي الجارف بقيام حزب البعث الذي أسسه في دمشق ميشال عفلق عام ١٩٤٤ ، ومن أهدافه محاربة النفوذ الفرنسي في سوريا]. وبعد جلاء المستعمر الفرنسي عن البلدين عمل أعضاء الحزب (البعث) علنا ، ودعوا إلى تطبيق بعض الشعارات الاشتراكية مثل تطبيق الاصلاح الزراعي ضد طبقة الملاك الغائبين عن أرضهم ، وتجار دمشق وحلب . كما ظهر في المرحلة الثانية الحزب الاشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني في دمشق عام ١٩٥٠ ، ويقوم برنامجه على تطبيق قوانين الاصلاحات الزراعية والاقتصادية على نطاق واسع ومن التشريعات الاجتماعية الجذرية متجاوزا بذلك شعارات حزب البعث ، وقد نهض هذا الحزب بدعاية قوية في منطقة حماه وجمع حوله المؤيدين من الشباب المثقف والضباط ، وقد أيد الحزب حكومة أديب الشيشكلي (١٩٤٩- ١٩٥٤) وكان يتوقع أنها ستحقق أهداف الحزب ، وعندما لم يتحقق أي شيء على الارض اندمج الحزب الاشتراكي مع حزب البعث (١٩٥٣) ليولد حزب البعث العربي الاشتراكي .

وبعد هذه الفترة تداعى عدد من المثقفين العرب من طلاب الجامعة الأميركية في بيروت ، وأسسوا بزعامة جورج حبش حركة القوميين العرب بشعاراتها الاشتراكية ، وقد استوعبت هذه الحركة اسماء وقيادات من معظم الدول العربية المشرقية إلا أن هذه الحركة ظلت على يمين حزب البعث العربي الاشتراكي إلى أن استوعبتها الناصرية في أوائل الستينات ثم انقسمت على نفسها فلسطينياً وعربياً بعد ظهور الكفاح الفلسطيني المسلح عام ١٩٦٥ .

وسنجد أن حزب البعث الاشتراكي كان أول المطالبين بالوحدة مع مصر عام ١٩٥٨ بعد وصوله إلى الحكم في أكثر من بلد عربي ، وأن القومين العرب قد وصلوا إلى الحكم في جمهورية اليمن الديمقراطية عام ١٩٦٧ .

وعلى جوانب هذين التيارين المتقاربين نسبيا بمبادئهما القومية ولدت أحزاب وتيارات قومية صغيرة ، ودينية ، وعشائرية ترتبط معظمها بأشخاص مؤسسيها وخاصة في لبنان ، إلا أن كل هذه التيارات لم يكن لها أي أثر فاعل نظرا لنمو التيارات الشيوعية في سوريا ولبنان إلى جانب تيار القوميين السوريين إضافة إلى التيارين الاكبر والاقوى وهما البعث والقوميين العرب اضافة إلى الاحزاب الدينية المحدودة .

وتحت مظلة هذه الاحزاب المتصارعة جاء استقلال اللبنانيين والسوريين والاردنيين والعراقيين وطن هذه الاحزاب ومجال انتشارها بالاضافة إلى الفلسطينيين الذي كانوا أهم عناصر استقطابها ، خاصة بعد نكبه ١٩٤٨ ، حيث فشلت كل هذه الاحزاب في لعب أي دور إلا على الصعيد الشخصي في مسار النكبة ، وما آلت إليها فيما بعد .

لقد كان لبنان يعاني الامرين من الاحكام العرفية الفرنسية ، لكن بعد هزيمة فرنسا ، والصراع الفرنسي ـ البريطاني على أرضه جرت انتخابات نيابية عام ١٩٤٣ رفعت إلى رئاسة البلاد الشيخ بشارة الخوري وإلى رئاسة الوزراء رياض الصلح ، وقد ألغى لبنان المواد المتعلقة بالسيادة الفرنسية من دستور لبنان الذي وضع سنة ١٩٢٦ ، واستقل لبنان في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ، وفي آخر يوم من سنة ١٩٤٦ تم جلاء جميع الجيوش الاجنبية عن لبنان .

ومنذ الاستقلال ، ارتكز لبنان ، في نظامه السياسي ، على صيغة الميثاق الوطني ، وفي نظامه الاقتصادي ، على حرية المبادرة الفردية والمبادىء الرأسمالية . وعرف اقتصاديا أزدهارا واسعا . أما سياسيا فقد كان نظامه عرضة لـلاضطرابات المستمرة .

وفي سوريا جرت الامور باتجاه آخر بعد اندلاع الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) حيث تشكلت الكتلة الوطنية ، ولم يوافق المفوض السامي الفرنسي إلا على دستور مقيد . وعلى أثر اضطرابات شاملة جرت مفاوضات بين الكتلة الوطنية وحكومة باريس ووقعت معاهدة ١٩٣٦ التي جرت على أساسها انتخابات عامة فازت فيها الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة ، إلا أن البرلمان الفرنسي لم يصدق عليها . وبإعلان الحرب العالمية الثانية ، عادت فرنسا تحكم البلاد بأساليبها القديمة . ولاسباب تتعلق بمصالحها الاستراتيجية ، تخلت لتركيا عن لواء الاسكندرون السوري . ولم يغير انقسام فرنسا بين حكومة فيشي وحكومة ديغول ـ كما حدث في لبنان ـ من واقع السيطرة الفرنسية على سوريا رغم إعلان الجنرال كاترو استقلال سوريا ولبنان العام ١٩٤١ . واضطرت الحكومة الفرنسية على أثر اضطرابات وحوادث ١٩٤٥ إلى التخلي عن انتدابها لسوريا وإخلاء البلاد في ١٧ نيسان (ابريل) العام ١٩٤٦ ، وأعلن هذا اليوم عيداً وطنيا .

وكانت بغداد وعمان والقدس موضع الاهتمام الأول في سياسة بريطانيا الشرق أوسطية بعد اعلان وعد بلفور ، وإحكام سيطرة البريطانيين على قناة السويس ، وقد جاء وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل إلى القاهرة في آذار (مارس) عام ١٩٢١ ليقرر مصير هذه العواصم الثلاث تحت شعار البحث في مستقبل الشرق الاوسط وكانت فرنسا قد حصلت على نصيبها من غنائم الحرب العالمية الأولى باحتلال سوريا ولبنان ، وأصبحت صحراء العرب تحت حكم الملك عبد العزيز بن سعود بعيدة عن قبضة بريطانيا وإن لم تكن بعيدة عن نفوذها كما كانت الحال في الخليج العربي من مسقط في الشرق إلى مستعمرة عدن في الغرب ، ولم يبق بعد مصر سوى العراق وشرق الاردن وفلسطين .

لقد واجهت بريطانيا عقبتان في سبيل تتويج فيصل ملكا على العراق ، أولهما أن

بعض العراقيين أرسلوا عريضة إلى الملك حسين الأول يطلبون فيها إرسال ولده عبد الله إلى بغداد ، لأنه لا بد من أن يحكم العراق أحد أبناء الحسين ، غير أن البريطانيين فضلوا فيصلا على عبد الله الذي أعطي ملك شرق الاردن (٢٤٤). أما العقبة الثانية فكانت آراء ثلاثة ملايين عراقى إلا أن بريطانيا رتبت الانتخابات بطريقتها وجاء فيصل ملكا على العراق ، حيث كان السفير البريطاني في بغداد هو صاحب السلطة العليا في الابرام أو النقض ، يعين لا المدراء فحسب بل المديرين أيضا(٢٤٥) . .

وتلقى مؤتمر القاهرة الذي اختار فيصلاً لعرش العراق «اخباراً» عن أخيه عبد الله الذي وصل إلى عمان التي كان يسيطر عليها البريطانيون ، وأنه ينوي أن يقود القبائل إلى سوريا في الشمال في محاولة لاعادة الملك فيصل الاول إلى عرشه في سوريا ، وقد بدأ الصدام بين الجنود الهاشميين وبين القوات الفرنسية على الحدود السورية ، الأمر الذي جعل تشرشل الذي « بدا أنه لا يعلم ماذا يحدث » يتوجه إلى القدس حيث أمر باستدعاء عبد الله إليه(٢٤٦) بواسطة لورانس الذي رتب مع حكومته استقبالا لائقا من العرب لعبد الله ، وقد أصغى هذا الاخير بكياسة إلى ما يستطيع أن ينتظر وما لا يستطيع(٢٤٧). وكان عليه ألا يزعج الفرنسيين .

[وبما أن موارد شرق الأردن تفتقر إلى التنمية فهناك حاجة إلى معونة مالية] ويذكر أنه قال لمستر تشرشل :

« إن شعب فلسطين يرفض تصريح بلفور ويصر على المحافظة على طابع فلسطين العربي وإننا لن نوافق على إفناء العرب في سبيل اليهود ».

[كان تشرشل لا رده لطيفاً ومراوغاً] ، أما السير هربرت فقد أصر على أن الوطن القومي اليهودي لا يعني دولة يهودية . بعد هذا « التطمين » عاد عبد الله إلى عمان دون أن يسبب متاعب للبريطانيين ودون أن يتعبوه . أما جيشه العربي فقد اتفق على أن يستخدم عدداً كبيراً من البدو ليوفر لبريطانية قوة احتياطية قيمة ، وأما المتاعب من شعبه فقد لازمته طوال حياته ولم توهن عزيمته .

إن هربرت صموئيل قد تكلم كما قال عبد الله بشيء لا ريب فيه ، ذلك بأنه قال الشيء نفسه في خطاب عام ألقاه في القدس في الحفلة الرسمية التي أقيمت بمناسبة

مولد الملك جورج الخامس :

« دعوني أولا أن أشير إلى سوء الفهم المحزن فيما يتعلق بعبارة تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، التي وردت في تصريح بلفور . أسمعهم يقولون في أماكن كثيرة إن الشعب العربي لن يوافق على أخذ بلده منه ، وأماكنه المقدسة وأراضيه وإعطائها للغرباء ، وأنه لن يوافق على إقامة حكومة يهودية تحكم الاكثرية الاسلامية والمسيحية . يقول الناس إنهم لا يستطيعون أن يفهموا كيف وافقت على هذه السياسة الحكومة البريطانية المشهورة بعدالتها في كل أنحاء العالم . وجوابي هو أن الحكومة البريطانية التي تهتم فعلا بالعدالة قبل كل شيء لم توافق أبدا ولن توافق على مثل هذه السياسة . إنها ليست ما يعنيه تصريح بلفور . وربما كانت ترجمة الكلمات الانجليزية إلى العربية لم تنقل معناها الصحيح . إنها تعني أن اليهود ، الشعب المبعثر في أنحاء العالم والذي تتجه قلوبه نحو فلسطين ، يجب أن يتمكنوا من إيجاد وطن لهم هنا ، وأن بعضهم ضمن الحدود التي يعينها عدد السكان الحاليين ومصالحهم يجب أن يأتي إلى فلسطين كي يساعدوا بمواردهم وجهودهم على تنمية البلد لمنفعة سكانه جميعا » .

وكان أول من ابتكر اصطلاح « الوطن القومي » بدل « الدولة اليهودية » هو ماكس نوردو الكاتب صديق هرتزل وذلك في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل . ومع أن كتاب هرتزل دعى « دولة اليهود » فقد نصح نوردو بعدم استعمال هذا الاصطلاح وقال : « بذلت جهدي في إقناع المطالبين بالدولة اليهودية في فلسطين بأننا قد نجد كلمة تعبر عن كل ما نعنيه لكن نقول ذلك بطريقة نتفادى بها استفزاز الاتراك حكام البلد الذي نريد ، فاقترحت الوطن القومي كمرادف للدولة . كان اصطلاحاً غامضا ولكننا جميعاً فهمنا ما يعنيه ، فإنه بالنسبة إلينا كان يرمز إلى الدولة اليهودية ولا يزال كذلك حتى اليوم » .

ولا داعي إلى تصوير السلطات البريطانية العليا بأنها كانت غافلة عن ستار الصهيونية الدخاني . فقد بحث الموضوع بصراحة في اجتماع في بيت بلفور بلندن في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٢١ ، وكان بين وايزمن وتشرشل ولويد جورج وكان وايزمن مستاء من خطاب سير هربرت في القدس فقد عنى له « نفيا حقيقيا لتصريح بلفور » .

أما تشرشل الذي لم تكن له يد في التصريح وإنما كان يعطف على أهـدافه العـامة فقـد سـأله أن يفسـر ذلك . عنـدها قـرأوايزمن نص الخـطاب الـذي نشـر ، جملة جملة كي يبرهن أنه يناقض التصريح الذي عنى بالنسبة إليه « أكثريـة يهوديـة في نهاية الأمـر وهو الخطاب الذي لا يسمح بتلك الأكثرية »، هز تشرشل رأسه لهذا التفسير لكلمات سـير هربرت التي تتفق مع ما قاله هـو للعرب ، بينـما قال لـويد جـورج وبلفور إنهما قصـدا بالتصريح دوما دولة يهودية في النهاية (المصدر السابق).

وإذا كانت نوايا البريطانين أو الصهيونيين غامضةً فقد كانت إحسـاسات عـرب فلسـطين واضحة حـين أرسل الـرئيس ولسون في ١٩١٩ مبعـوثين لتقـريـر ذلـك هما الدكتور هنري تشرشـل كنغ ومـتر شارلـز كرين ، وكـان كلاهمـا في أوائل الستـين من عمره ومؤهل تماما للمهمة . عمل كنـج مع جمعيـة الشباب المسيحيـين الملحقة بـالبعثة العسكرية الاميركية في أوروبا ، وله عدة دراسات في الكتاب المقدس ، ولـذلك عـرف خليفته معرفـة تامـة ، وكان رئيس كليـة اوبرلـين منذ ١٩٠٢ . أمـا كرين أحـد رجال الأعمـال في شيكاغـو فقد زار الشـرق الأوسط مرارا وكـان عضوا في مجلس أمناء كلية روبرت في اسطنبول .وصادف وصولهما إلى الشرق في الوقت الذي بدأ فيـه اليـونانيـون يغزون الاناضول . أرسلا إلى الرئيس ولسون بـرقية في ١٢ حـزيران (يـونيو) أطلعـاه فيها على ما أحدثه عمله من إثارة عامة للمشاعر . أما فيما يتعلق بالاماكن المقدسة فقد ذكـرا ما يـلي : « إن السكان الأقـدمين هنـا ، من مسلمين ومسيحـين ، يقفون مـوقفا مـوحدا ومعـاديا جـدا لأي هجرة يهـودية واسعـة أو لأي محاولـة لفرض سيـادة يهوديـة عليهم ، ونشك في أن يعتقد أي مسؤ ول بـريطاني أو أميـركي هنا أن بـالامكان تنفيـذ البرنامج الصهيوني إلا بمساعدة جيش كبـير». واتفق الاستاذ ورجـل الأعمال عـلى أن المشكلة الـرئيسية دينيـة ، لأن في فلسطين أمـاكن مقدسـة للمسلمين والمسيحيـين عـلى السـواء . « ووشـك ، مـع أحسن النـوايـا الممكنـة ، أن يبـدو اليهـود للمسيحيـين أو المسلمين حراسا صالحين للأماكن المقدسـة أو قيمين عـلى الأراضي المقدسـة عمومـا . والسبب هو هذا : أن الأمـاكن الأكثر قـداسة في نـظر المسيحيين ـ الخـاصة بـالمسيح ـ والأكثر قداسة في نظر المسلمـين ليست غير مقـدسة في نـظر اليهود فحسب بـل بغيضة أيضا ، لذلك كان من المستحيل ، في هذه الـظروف للمسلمين والمسيحيين أن يشعـروا بالرضى عن وضع هذه الاماكن في أيد يهـودية أو جعـل اليهود قيمـين عليها . وهنـاك

أماكن أخرى يكن لها المسلمون الشعور نفسه . والواقع ، من وجهة النظر هذه ، إذا كانت الأماكن المقدسة للديانات الثلاث جميعاً مقدسة عند المسلمين فقد جعلهم ذلك بصورة طبيعية جدا قيمين عليها مرضيا عنهم أكثر من اليهود ». (المصدر السابق).

وبينما كان رجال السياسة يراوغون والخبراء يجادلون ، كانت في فلسطين حقيقة يهودية، متزايدة ومتغيرة ، فقد اتبع المستوطنون اليهود الاوائل في الثمانينات طريقة الالمان الذين استوطنوا فلسطين في تشغيل العمال العرب في إدارة مزارعهم ، فساهموا في دخل هؤلاء العرب الذين علموهم حقائق أساسية عن الزراعة في فلسطين التي مثلت الحمضيات دورا مهما فيها .

لكن موجة ثانية من المهاجرين اليهود جاءت إلى فلسطين أثر المؤتمر الصهيوني الاول والمذابح في روسيا القيصرية ، فادخل هذا النوع الجديد من المستعمرين فلسفة جديدة : « طريقة العمل اليدوي ». استعمل هذه العبارة هارون ديفيد غوردون الذي وصل إلى فلسطين في ربيع ١٩٠٤ ووجد له عملا بصعوبة في إحدى بيارات البرتقال[١]. وكان غوردون يمجد الكدح تمجيد تلاميذ وليام موريس للحرف اليدوية أو تولستوى (وكان غوردون معجبا به) لارتداء قميص الفلاحين الروس ، واعتقد مارتن بابر أن قلب غوردون جرحه الشعور بأن اليهود « انحرفوا لا عن تقرير المصير السياسي بل عن الكون ، وأن السلوك المتفتح لن يمكنهم من إيجاد مكانهم فيه ثانية ولا يستطيع الانسان أن يشترك في الكون إلا حين يفعل شيئا في المجال الكوني الذي هو مجاله الخاص . كما تدور الكواكب حول محاورها وتتجه الاشجار نحو الشمس . إن ما يليق بالانسان هو العمل في الارض التي ائتمن عليها ، والرجال الذين أرسلتهم اسرائيل الناهضة حديثا للعمل في تراب أرضها يمثلون إعادة اتحادها لا بالارض بل بالكون ». وقد كرر غوردون نفسه الجملة التالية : « فصل الشعب اليهودي كليا عن الطبيعة وحبس ضمن أسوار ألفي عام واعتدنا كل طرائق الحياة ما عدا العمل ، فلا بد من بذل جهد كبير كي يصبح هذا الشعب طبيعيا مرة أخرى ».

لقد اصطدمت فكرة غوردون في العودة إلى الحالة السوية بفلسفة اثنين من الصهيونيين أرادا أيضا أن يصبح اليهود عاديين بتقليد القوميات الاخرى . ولكن هذه

القومية ستفتقر إلى نهضة روحية يهودية معينة كان غوردون قد رآها مبررا للصهيونية .
كتب صموئيل هوغر بيرغمان يقول عنه إنه « رأى الامتحان الحاسم في موقف اليهود من العرب . لم يكف أبدا عن تأكيد أن الارض تخص الشعبين ، وأن الشعب الذي له أعظم الحق في الارض هو الذي يقاسي أكثر في سبيلها » .

ولم يقبل كل اليهود على العمل اليدوي بروح غوردون التولستووية . فقد كان هناك بن غوريون المستوطن الذي جاء من أوروبا الشرقية وعمل في الزراعة فترة غير طويلة ، ثم ما لبث أن تحول إلى الكتابة في صحيفة أحدوت (الوحدة) ، وقال إن ما دفعه إلى الكتابة غضبه على ما رآه في « بيتاتكفا » حيث كان المزارعون اليهود يرفضون تشغيل العمال اليهود ويفضلون عليهم العمال العرب لأنهم يتقاضون أجوراً أقل .
وكان بن غوريون اشتراكيا نشيطا عمل لا من أجل تشغيل العمال اليهود فحسب مهما كانت الكلفة بل من أجل تنظيمهم أيضا على المبادىء الاشتراكية لمنفعتهم لا لمنفعة العرب ، وقد قام بدور رئيسي في تنظيم اتحاد عمال يهود مسلح كان النواة التي نبتت منها « الهاجناه » فالقوات الاسرائيلية المسلحة .

وإذا نمت المستوطنات اليهودية التي لا تشغل سوى العمال اليهود نشأ وضع استعماري جعل المستعمرين بحاجة إلى حماية أنفسهم من الاهالي . [كان ذلك قبل حرب ١٩١٤ ، وازداد الوضع تأزما بعد تصريح بلفور] . وبينما انهمك بن غوريون الواقعي في تأليف مجموعات مسلحة لحماية المستوطنات اليهودية من هجمات الشركس أو الدروز أو العرب ، نظر المفكرون في تلك المستوطنات إلى وضعهم على أساس استعماري في ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٠٩ ألقى مستوطن صهيوني من المؤمنين بهذه الفلسفة ويدعى آرونسون ، محاضرة على المستوطنين الفرنسيين في تونس عن « الاستعمار اليهودي في فلسطين » وصف فيها الصهيونية بأنها « حركة استعمار » شبيهة بالاستعمار الفرنسي في تونس ، وأن المستوطنين اليهود في فلسطين كالفرنسيين في تونس لا يريدون أن يضعوا أنفسهم في مكان الاهالي بل إلى جانبهم ، ولذلك فاستعمارهم مسألة تجاور لا استبدال .

تجاور أم استبدال ؟ لازم هذا السؤال الاساسي الانجليز الذين أرادوا الانتداب في فلسطين مرتبطا بتنفيذ تصريح بلفور ، وحاولوا أن يكونوا منصفين ، حيث تحيز

بعضهم للعرب ، والبعض لليهود ولكن أكثرهم حاولوا ان يوازنوا بين التعهدين اللذين في التصريح ، فوجدوا أنفسهم في وضع مأساوي محزن .

بالنسبة إلى العرب كان لحجج اليهود في « العودة » إلى أرض اسرائيل صدى مزعج : إن الدولتين الكاثوليكيتين المستعمرتين في شمال أفريقيا ، فرنسا وإيطاليا ، كثيرا ما أكدنا أن شمال أفريقيا كان لاتينيا في أحد الايام ويجب أن يعود لاتينيا وعلى هذا الاساس وأعلنت الجزائر مقاطعة فرنسية ومنع تدريس اللغة العربية في المدارس ، واتبع الايطاليون في ليبيا إجراءات قاسية لتحويل العرب إلى طبقة ثانوية من المواطنين . لذلك كان الارجح ألا يرحب العرب بهجرة واسعة النطاق . وبناء على خبرتهم الاخيرة نظروا بتخوف في أفضل الحالات ، وبذعر في أسوئها ، إلى أقلية أدعت بصورة غامضة أن فلسطين وطنها الثابت وشعر العرب أن هذه الاقلية إذا أصبحت أكثرية ـ أو شعرت بقوة كافية ـ طردتهم بالقوة أو حولتهم إلى أقلية ضعيفة .

من جهة أخرى كان اليهود يتكلمون لغات الحضارة الغربية . إن مهاجري العشرينات تعلموا في أوروبا ، وسبقوا العرب في التكنولوجيا ، ولكن العرب باعتراضهم على شعار اليهود « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض »، ومقاومتهم للهجرة وبيع الاراضي كونوا عقبة في سبيل اسرائيل ، لم يستطع اليهود خلال واحد وثلاثين عاما ، من ١٩١٧ إلى ١٩٤٧ ، أن يوسعوا بالشراء ما يملكونه من مجموع أرض فلسطين أكثر من ٢ بالمئة إلى ٧ بالمئة . وبذلك أحرج العرب اليهود فراح هؤلاء يحاولون التغلب على ذلك بالجدل . قالوا إن الفلسطينيين ليسوا شعبا ، وإنهم غير مرتبطين بالارض وبالامكان نقلهم إلى أرض أخرى ، وإن عددهم في فلسطين كان قليلا وقال ليفي اشكول ، رئيس حكومة اسرائيل ، في مقابلة صحافية مع نيويورك في شباط (فبراير) ١٩٦٩ : « من الفلسطينيون ؟ حين جئت إلى هنا كان عددهم ٢٥٠ ألفا معظمهم من العرب والبدو »، مع أن الموسوعة البريطانية في ذلك الحين ذكرت أن عدد سكان فلسطين ٦٥٠ ألفا ، عشرة بالمئة منهم يهود .

لقد جاء اليهود إلى فلسطين تحت مظلة وعد وعهد استعماري غربي . وما إن ترسخت أقدامهم وغابت شمس هذا الاستعمار من المنطقة حتى أطل علينا الاستعمار

الجديد بأساليبه الجديدة التي اتسمت « بالحضارية » من حيث الشكل وبالاستعمار المقنع من حيث الواقع .

دخلت الولايات المتحدة الأميركية إلى الشرق خلال الحرب العالمية الثانية عندما التقى روزفلت وتشرشل في الدار البيضاء عام ١٩٤٣ ، ثم تكررت الزيارة في آخر العام نفسه عندما انضم إلى الاثنين في القاهرة القائد العام للجيوش الصينية شيانغ كاي شيك ، وتعاهدوا على مواصلة الحرب ، كما أعلنوا تخليهم عن أي مطامع في الاستحواذ على أرض أجنبية ، ولكن هذا مجرد « منشور » حربي ، ليس إلا .

ولم يكن الرئيس الأميركي ترومان أقل عطفا على الصهيونية من سلفه روزفلت فقد وقع عام ١٩٤٦ تحت ضغط « اللوبي » الصهيوني على فتح باب فلسطين للهجرة اليهودية ، وألح على إدخال مائة ألف مهاجر يهودي . وقد حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه هجرة الخمسة وسبعين ألف مهاجر التي قررها الكتاب الابيض البريطاني العام ١٩٣٩ . ولتتهرب بريطانيا من هذا المأزق وهي التي كانت قد أقفلت باب الهجرة وفق منصوص كتابها الابيض ، اقترحت تشكيل لجنة انجليزية ـ أميركية لدرس قضية فلسطين ، وتقديم مقترحات لحلها ، وتم ذلك بالفعل ، وارغم العرب على استقبالها بفعل الضغوطات البريطانية .

واقترحت اللجنة ، لعلاج الارهاب اليهودي في فلسطين الذي أخذ يتزايد بعد الحرب العالمية الثانية وانتصار دول المحور ، فتح باب الهجرة بمعدل ألف وخمسماية مهاجر في الشهر . وقد رفض العرب هذا العرض « الغريب »، ومع ذلك تجاوزت اللجنة هذا الرفض وسمحت بمعدل الهجرة المذكورة ، مدعية أن السماح سيستمر إلى أربعة أشهر فقط ، وهي مدة عمل اللجنة المذكورة ، والواقع أن الهجرة لم تتوقف .

وبعد انتهاء اللجنة من مهمتها طلعت بتقريرها البعيد عن النزاهة والعدل ، وفيه :

١ ـ أوصت بإدخال مائة ألف يهودي جديد وهذا ما طالب به الرئيس ترومان .

٢ ـ هجرة اليهود إلى فلسطين لا يجوز أن تتوقف على رضا العرب ، أذ لا مجال

لليهود للهجرة إلى غير فلسطين .

٣ ـ طلبت اللجنة من العرب « لبواعث إنسانيـة »، أن لا يمانعـوا في الهجرة إلى فلسطين .

٤ ـ قالت إن صلة اليهود بفلسطين قديمة ، وإن العرب هم أصحاب فلسطين ، وهم يشكلون الاكثرية العظمى فيها . ومن هـذين المنطلقـين توصلت إلى المسـاواة بين الفـريقين ، وإلى رد دعـوتيهما وقضت بـأن لا تكـون فلسـطين دولـة عـربيـة ولا دولـة يهودية ، بل دولة تعمل على التوفيق بين الاماني الوطنية المشروعة للعرب واليهود . ولا يجوز أن تكون الكلمة النهائية والعليا فيها للاكثرية العددية .

٥ ـ حاولت اللجنة أن تفرق بين العـرب المسلمين والعـرب المسيحيين ، ولكنهـا فشلت في محاولتها وجوبهت بتكتل عربي جامح .

٦ ـ أوصت بإبطال القوانين والانظمة التي تحد من انتقال الاراضي إلى اليهود .

وكل ما فعله العـرب أن اجتمع مجلس الجـامعة العـربية وقـرر مطالبـة بريـطانيا العمل على حل النزاع على أساس الحق والعدل ، وهي الكلمة التي تمسك العرب منذ ذلك التاريخ بمعناها الاخلاقي . وارتأى المجلس أنه في حال تعذر الاتفاق مع بريطانيا يصـار إلى رفـع المـوضـوع إلى الأمم المتحـدة تحت شعـار الحق والعـدل (كـذا) وفقـا لنصـوص ميثاق الامم المتحـدة ، ونظرا لمـا تشكله القضيـة الفلسـطينيـة ، في وضعهـا الانتدابي « اللاعادل » (كذا) من خطر على السلم والامن في المنطقة .

كان الرد البريطاني على هذا الكـلام « الاخلاقي ، النـظري ، العشوائي ، غـير المفهـوم » أن دعت إلى عقد مؤتمـر مع الـدول الاعضاء في جـامعة الـدول العـربيـة ، ومعظم تلك الدول من صنيع بريطانيا نفسهـا حيث تقدمت بـريطانيـا بمشروع فـدرالي تقسيمي يبقي الانتـداب البريـطاني مستمرا ، ويفتـح بـاب الهجـرة . وتقـدم العـرب « شكليا » بمشروع يلغي الانتداب البريطاني ، ويحقق استقلال فلسطين على أساس أن يظل في فلسطين اليهود الاصليون ويمثلون في الحكومة الوطنية بنسبة عددهم . عـلى أن يتضمن الـدستور الجـديد الضمـانات الـدينية والمـدنية لـلاقليات ولـلاديان ولـلاماكن المقدسة .

ومع أن العرض العربي يشبه ما جاء في « الكتاب الابيض البريطاني » فإن بريطانيا لم توافق عليه ، بل تنصلت من العهود السابقة بداعي أن حكومة أخرى (أميركا) التزمت به .

وناور البريطانيون « شكليا » بعرض مشروع يتضمن قبولهم هجرة مائة ألف يهودي خلال سنتين على أن تستمر الهجرة فيما بعد وفقا لقوة الاستيعاب الاقتصادي حسب ما ترى حكومة فلسطين ، وأن تصبح فلسطين دولة مستقلة بعد خمس سنوات من ذلك العرض بشرط اتفاق العرب واليهود على الدستور . وبالفعل رفض العرب العرض . وعندها أعلنت بريطانيا ـ وهذا ما كانت تتوخى الوصول إليه ـ أنها ستحمل القضية الفلسطينية إلى الامم المتحدة .

في هذا الوقت كان المخطط البريطاني ـ الاميركي يرسم لفلسطين بعيدا عن الانظار ، وكانت مدن فلسطين وقراها تعيش في ثورة غضب ضد التوسع الصهيوني ، والاعداد المتزايدة من اليهود التي تصل إلى البلاد ، وكانت السفارات الاجنبية والعربية تستعين بحكوماتها لتأمين حماية البعثات الدبلوماسية في فلسطين نظرا لفلتان الامن ، وقد استمرت هذه الحالة طوال سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها . وفي خضم هذه الفوضى والاضطرابات كانت الوكالة اليهودية « الممثل الشرعي للصهيونية» تسعى بكل ما لديها من إمكانيات لايجاد صيغة للتقارب مع الدول العربية . وقد أجرت حواراً مع مصر على أعلى المستويات للاتفاق مع العرب ، ثم تولت القيام بعملية جس نبض مع لبنان لنقل وجهة نظره إلى الجامعة العربية[٢٤٨] .

ففي مطلع شهر آذار (مارس) ١٩٤٧ اتصل قنصل عام لبنان في القدس شحادة الغصين بأمين عام وزارة الخارجية اللبناني فؤاد عمون طالبا منه استدعاءه إلى بيروت « لأمر هام وخطير » فرد عليه بأن تطورات الاوضاع في القدس بين العرب واليهود تحتم عليه البقاء في مركزه . أما الأمر « الهام والخطير » الذي يشير إليه فبإمكانه الكتابة عنه في رسالة مفصلة إلى وزارة الخارجية .

وهكذا كان . في العاشر من آذار (مارس) ١٩٤٧ ، كتب قنصل لبنان العام في القدس رسالته وعندما وصلت هذه الرسالة تولى وزير الخارجية حميد فرنجية عرض

الامر علي الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح ، وعلى أثرها تقرر بأن لبنان لا يمكنه في أي حال تبني مسؤولية الدفاع عن الطلب الاسرائيلي ، لكنه ينقل الكتاب بحرفيته إلى مجلس الجامعة العربية . وعرض الكتاب ، وقوبل بالرفض وعدم قبول أية مفاوضات مع الصهيونية .

ومن هنا دخلت قضية فلسطين الامم المتحدة ، ولم تخرج منها حتى الان بعد أن عجزت بريطانيا عن ايجاد الحل المناسب ، وتورطت في تحقيق سياسة الوطن القومي اليهودي ، لذا تقدمت بعرض القضية على الإمم المتحدة وذلك في ٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، وقد طلبت كل من سوريا و لبنان ومصر والعراق والسعودية اضافة بند على المشروع البريطاني وهو : « انهاء الانتداب على فلسطين ، واعلان استقلالها » لكن الجمعية العامة التي وافقت على المشروع البريطاني رفضت التعديل العربي .

وهكذا انتقلت كليا من ساحة بريطانيا في ايار (مايو) ١٩٤٧ إلى الامم المتحدة المولود الجديد للولايات المتحدة الاميركية ، والوجه الدولي البديل لعصبة الامم المتحدة ، وتشكلت لجنة للتحقيق في القضية وقد بدأ من عملية تكوينها (استراليا ، كندا ، تشكوسلوفاكيا ، غواتيمالا ، الهند ، ايران ، هولندا ، يوغسلافيا ، السويد ، بيرو ، بوروغواي)، بدا ميلها إلى تحقيق المطالب الصهيونية ، واقرار التقسيم ، وقد تبين ذلك من مشروعين قدمتهما اللجنة :

١ـ مشروع الاكثرية : وقد ايدته كل من كندا ، تشكوسلوفاكيا ، هولندا ، غواتيمالا ، بيرو ، السويد ، بوروغواي ويقضي بانهاء الانتداب البريطاني ، ويقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية و قيام كيان خاص لمدينة القدس وجوارها تقوم على ادارته الامم المتحدة ، وجمع الكل في وحدة اقتصادية .

٢ ـ مشروع الاقلية : وقد ايدته كل من الهند وايران ويوغوسلافيا ، ويقضي بانهاء الانتداب ، و اقامة دولة فيدرالية فلسطينية تم دولتين عربية ويهودية ، على أن تكون القدس عاصمة الدولة الفيدرالية التي يكون لها جنسية فلسطينية واحدة .

لكن العرب رفضوا مشروع التقسيم ، وطلبوا تقديم الموضوع إلى محكمة العدل الدولية ، وطعنوا في حق الامم المتحدة في تقسيم بلد ، ولكن الضغوط الاميركية ـ

الصهيونية وقفت تعارض كل المقترحات العربية ، وتصر على حق الامم المتحدة في تقرير مصير شعب وبلد . وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ صوتت الجمعية العامة للامم المتحدة على قرار التقسيم ، واذن هذا القرار باحداث جسام بدأت بالمظاهرات والاضطرابات وتطورت كما كان منتظرا إلى معارك دموية قاوم العرب خلالها التقسيم بينما سارع اليهود لاعلان دولتهم .

وكانت وسائل العرب للقتال محدودة ، وتدريبهم غير كاف وإن كان ذلك قد غطى على النقص في التدريب وفي التسلح . أما اليهود فقد تدربوا مع الجيش البريطاني وفي التنظيمات العسكرية اليهودية ومعسكرات اوروبا الشرقية والغربية .

كانت المعارك معارك مصير واتسمت منذ البدء بالشدة والشراسة ، وتدخلت الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة لوقف اجراءات التقسيم ، واخضاع فلسطين لمجلس الوصاية في الامم المتحدة ، وتعيين وسيط من قبلها يكلف بالعمل على ايجاد تسوية سلمية ، وهو الكونت فولك برنادوت السويدي .

ولكن كيف صوتت دول هيئة الامم على قرار التقسيم ؟

كانت الولايات المتحدة الذي برز دورها العلني في تبني اسرائيل تدرك أنها بحاجة إلى اغلبية الدول اعضاء هيئة الامم حتى تأخذ اسرائيل شكلها القانوني والشرعي ، وفي سبيل ذلك استخدمت جميع الاساليب الشاذة ، والتي ما تزال وثائقها في هيئة الامم المتحدة ، ففي جلسة ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ لم تستطع الولايات المتحدة والصهيونية العالمية ، الحصول على ثلثي اصوات الجمعية العامة للموافقة على قرار التقسيم ، واستطاعت الولايات المتحدة بسيطرتها إلى تأجيل الجلسة إلى التاسع و العشرين من الشهر نفسه تحت شعار الوصول إلى حل أفضل ، وفي خلال يومين تحركت الويات المتحدة ومارست الوانا من الضغوط والتهديدات ليس لها مثيل في عالم السياسة والدبلوماسية حتى أن وزير الحربية الاميركي انذاك جيمس فورستال شكا مما تعرض له وأعلن : « لقد اتبعت اساليب للضغط واحراج الدول الاخرى من اعضاء الجمعية العامة كانت قريبة جدا من الفضائح » [٢٤٩] .

وسحبت وفود ، وتغيرت وفود ، نتيجة للضغوط الاقتصادية ، وتهديد بسحب

المشروعات الاميركية ، وكانت النتيجة التأثير على ١٣ دولة غيرت وفودها موقفها خلال ايام ثلاثة ، وكان قرار التقسيم باكثرية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت . وبموجب هذا القرار تكون مساحة الدولة العربية ٤٤٧٦ ميلا مربعا ، أيْ ٤٢,٨٨٪ من مساحة كل فلسطين ويقطنها ٧٢٥٠٠٠ الف عربي و١٠٠٠٠ يهودي ، وتكون ملكية الاراضي فيها بنسبة ٢٨٤٧٤٦٩ فدانا للعرب ، و٣٢٨٨٥ فدانا لليهود .

اما الدولة اليهودية فمساحتها ٥٨٩٣ ميلا مربعا أي ٥٦,٤٧٪ ويسكنها ٤٩٨٠٠٠ يهودي و٤٩٧٠٠ عربي ـ بفارق الف يهودي زيادة عن العرب .

وملكية الاراضي فيها بنسبة ٣٤٥٩٦٤ فدانا لليهود من مجموع ٣٦٨٩٤١١ فدانا .

وكما كانت جريمة التقسيم هي الاولى كانت جريمة الاعتراف بذلك من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . . . الخ .

وهكذا انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين ليلة ١٤ ـ ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، واعلن اليهود قيام دولتهم ، أي اسرائيل ، لكن قوات عسكرية من مصر وسوريا ولبنان والاردن سارعت إلى الدخول إلى فلسطين لحماية اهلها الذي كان الارهاب الصهيوني قد اجلاهم عن بعض البلاد ، وتقدمت هذه القوات لتقاتل إلى جانب من كان داخل فلسطين من المناضلين العرب والفلسطينيين ، وعندما رجحت كفة العرب سارع مجلس الامن في ٢٩ ايار (مايو) ١٩٤٨ إلى اقرار وقف اطلاق النار مدة اربعة اسابيع (٢٥٠) .

وكان الوسيط برنادوت قد وضع شروط « الهدنة الاولى » وقف اطلاق النار وبعث بها إلى الحكومات العربية المعنية ، ورفض الجيش السوري والجيش اللبناني وجيش الانقاذ الذي ضم عددا من المجاهدين العرب بوقف اطلاق النار ، بل استمروا حتى احتلوا قرية المالكية وارغموا الجيش الاسرائيلي على التراجع رغم أن الحرب كانت بالسلاح الابيض نظرا لعدم توفر الاسلحة الحديثة ، وعدم صدور الاوامر باستمرار القتال ، بل بتجميده فورا والعودة إلى الاماكن الاصلية .

لقد تداعى العرب المعنيين لاجتماع عقد في عمان ، وكان على رأس الوفد اللبناني رئيس الوزراء رياض الصلح ، وقد حدثت في هذا الاجتماع مناقشات عاصفة

بين الوفود العربية (الاردن سوريا ، لبنان ، مصر) الامر الذي دعا الصلح إلى الانسحاب من الاجتماع غاضبا ، وخرج ليجتمع ببعض العسكريين اللبنانيين ليسألهم : « إن اليهود يطلبون وقف اطلاق النار ، ويبدو أن هناك ضغوطا واضحة للموافقة على ذلك . فما رأيكم انتم كعسكريين ؟ » (٢٥١) .

ورد العسكريون بحماس رافضين الفكرية ، مطالبين باستمرار القتال .

والتقى هذا الموقف مع الموقف السوري الرافض ايضا . فعاد رياض الصلح وابلغ باقي الوفود العربية رفض وقف القتال . فكان الرد : حاربوا وحدكم .

وحيث أن لبنان وسوريا لا يستطيعان الاستمرار منفردين في القتال لأنهما كانا الاضعف عسكريا آنذاك . والجيش المصري والجيش الاردني كانا الاقوى . وكذلك الجيش العراقي الذي كان اقوى الجميع ، ولكن هذه الدول الثلاث رضخت للدول الكبرى آنذاك .

وبعد ذلك التقى وزراء الخارجية العرب في القاهرة ، واعلنوا القبول بوقف اطلاق النار الذي اعطى لاسرائيل الفرصة الذهبية لجلب اسلحة جديدة من تشكوسلوفاكيا والولايات المتحدة وغيرها ، وكانت تلك بداية النكبة الحقيقية .

اغتنم برنادوت هذه الفرصة وقدم إلى الأمم المتحدة ما اسماه « افكار ـ مسائل اقليمية » بعدما اقتنع بأن قرار التقسيم يحتاج إلى تعديل ، وخاصة لجهة عدم الفصل بين عرب آسيا وعرب افريقيا .

وانطوت هذه الافكار على البنود التالية :

١ ـ ضم النقب كله أو جزء منه ـ إلى الاقليم العربي .

٢ ـ ضم الجليل الغربي ـ كله أو جزء منه ـ إلى الاقليم اليهودي .

٣ ـ ضم مدينة القدس إلى الاقليم العربي مع منح الطائفة اليهودية حق الاستقلال في شؤونها البلدية ، ووضع تدابير خاصة لحماية الاماكن الدينية .

٤ ـ النظر في نظام مدينة يافا .

٥ ـ انشاء ميناء حربي في مدينة حيفا تدخل فيه معامل تكرير البترول ومصباته .

٦ ـ انشاء مطار في اللد .

وقبل أن تنتهي هدنة الاسابيع الاربعة سأل برنادوت العرب ما إذا كانوا سيستأنفون القتال ، فقالوا إن استمرار تدفق اللاجئين ، ورفض الاندماج في دولة فلسطينية موحدة ، كل ذلك يحتم علينا القتال من جديد .

واستؤنفت الحرب في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٤٨ بضراوة ، وكان الاسرائيليون قد استكملوا تدريبهم وتسلحهم واستعدادهم ، وتقدموا وتجاوزوا حدود التقسيم واستولوا على الجليل الغربي واللد والرملة وجزء من المثلث العربي في وسط فلسطين . ولم يستمر القتال هذه المرة سوى عشرة ايام لتبدأ الهدنة .

ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم ، يمكن اختصار النزاع العربي ـ الاسرائيلي بالتواريخ والاحداث التالية :

ـ ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، اعلان قيام دولة اسرائيلية .

ـ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ ، بدء الحرب العربية ـ الاسرائيلية .

ـ ٢٠ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، تعيين الكونت برنادوت وسيطا من قبل مجلس الامن الدولي .

ـ ١ ايار (مايو) ١٩٤٩ ، قبول اسرائيل في الامم المتحدة .

ـ ١٣ كانون اول (يناير) ١٩٤٩ ، اعلن بن غوريون القدس عاصمة لاسرائيل .

ـ ٢٩ تشرين اول (اكتوبر) ١٩٥٦ ، بدء الحملة البريطانية الفرنسية ـ الاسرائيلية على مصر في سيناء .

ـ ١ كانون الاول (يناير) ١٩٦٥ ، اول عملية فدائية داخل الارض المحتلة .

ـ ١ ايار (مايو) ١٩٦٧ ، اعلن عبد الناصر اقفال خليج العقبة بوجه السفن الاسرائيلية .

ـ ١ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، تعيين موشي دايان وزير الدفاع .

ـ ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، بدء الحرب الثالثة بين العرب واسرائيل .

ـ ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، يصوت الكنيست على ضم الضفة الغربية ـ القطاع الاردني إلى القدس .

ـ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، صدور قرار مجلس الامن لحل ازمة الشرق الاوسط .

ـ ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ، غارة اسرائيلية على مطار بيروت وتدمير ١٣ طائرة مدنية . والرئيس ديغول يتخذ قراراً بحظر شحن الاسلحة إلى اسرائيل .

ـ ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٦٩ ، بدء حرب الاستنزاف في منطقة قناة السويس .

ـ ٣١ تموز (يوليو) ١٩٦٩ ، تقبل اسرائيل بعد مصر مشروع روجرز للسلام .

ـ ٧ آب (أغسطس) ١٩٧٠ وقف اطلاق النار في السويس .

ـ ٢٥ أيار (مايو) ١٩٧١ ، تعليق مهمة يارنغ .

ـ ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ غارة على شارع فردان في بيروت ومقتل ٣ زعماء فلسطينيين .

ـ ٦ تشرين اول (اوكتوبر) ١٩٧٣ الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة .

ـ ايلول ١٩٧٨ (سبتمبر) اجتياح اسرائيلي لجنوب لبنان .

ـ ٤ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ ، اجتياح اسرائيلي للبنان .

ولن نتوقف كثيرا عند نقاط الاتهامات ، والاتهامات المضادة التي تألفت فيها مجلدات لا تحصى ولا تُعد ويمكن أن تغرق لكثرتها وعددها وغزارة حبرها ، مائة دولة مثل اسرائيل ، ولكن لا بد من التوقف عند نقطة واحدة ، وهي أنه عندما كان الزعماء العرب مجتمعين في القاهرة لبحث قضية وقف اطلاق النار ، اتصل مندوب لبنان في الامم المتحدة الرئيس كميل شمعون بالرئيس رياض الصلح في فندق شيبرد بالقاهرة ليقول له : إن الدول العربية لا يمكن أن تصل إلى غايتها مع الاميركيين بالتهديد لأن الرأي العام لا يقبل هذا الاسلوب . هناك امر واحد تستطيع الدول العربية أن تقوم به للضغط على أميركا ، وذلك باستخدام سلاح النفط [٢٥٢] وقال لي المفكر اللبناني منح الصلح : إن سبب هذا الطلب هو أن خلافات كانت قائمة بين بريطانيا والسعودية

حول بترول واحة البريمي ، لـذا طلبت من شمعون اسـداء هذه النصيحـة لكن هذه النصيحة اعطت نتيجتها بعد حرب ١٩٧٣ .

بعـد الحرب العـربية ـ الاسـرائيلية الاولى عـام ١٩٤٨ كانت هنـاك قرارات من الامم المتحدة تدعو ، بالاضافة إلى وقف اطلاق النار ، إلى الهدنة بـين الجانبـين ، وقد اختيـرت جزيرة رودس كمكان محايد ، وكانت البداية بين مصر واسرائيل .

بدأت المفاوضات في ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ بعـد أن شردت اسـرائيل حوالي مليون فلسطيني ليحل محلهم المهاجرون اليهود ، وكانت تحت اشـراف برنـادوت ورالف بانش ممثل الامم المتحـدة ، وفي أول لقاء ضم الـوفدين كـادت المفاوضـات أن تقطع بسبب تصميم كل وفد على موقفه ولـذا لجأ بـانش إلى اتباع اسلوب المفـاوضات غير المباشرة ، وذلك بالتنقل بين مقر الوفدين إلى أن تـوصل إلى مشـروع اتفاق ، وقـد وافقت مصر على المشروع (٢٥٣) وقد استمرت هذه المفاوضات اربعين يوما بين الاخـذ والرد ، وهي المفاوضات التي اغتال فيها الاسرائيليون برنادوت نظرا لمواقفـه العـادلة والصـريحـة بـالنسبـة لحق العـرب ، وخـاصـة مـا يتعلق بـالنقب العـربي ، وحقـوق الفلسطينيين اللاجئين .

وقد طلب من لبنان أن يكون له التباحث الثاني مـع اسرائيـل فرفض ، ثم عـاد وقبل بعد سلسلة ضغوطات عربية ودولية (٢٥٤) ، وكانت هـذه المباحثـات في الناقـورة اللبنـانية ، ووقعت الهـدنة في ٢٣ آذار (مـارس) ١٩٤٩ ، وقـد تضمنت المبـاحثـات اعترافا بحدود لبنان السياسية .

ثم لحق الاردن بلبنان ، وكانت آخر دولة موقعـة على الهدنة هي سوريـا وخلال المباحثات الاخيرة مع سـوريا حـاولت اسرائيـل انشاء حلف مـع سوريـا يدعمـه لبنان لاقامة « امبراطورية » في الشرق (٢٥٥) ولكن سوريا ولبنـان رفضتا ، ولم يتمكن الحكم السـوري آنذاك من البت بمـوضوع الهـدنة . ولم يتسن لحكـومـة جميل مـردم أن تقـرر مستقبل علاقاتها مع اسرائيل ، إذحـدث انقـلاب عسكري في سـوريا بـرعايـة اميركيـة واضحـة ، وبقيادة حسني الـزعيم الذي تـولى التوقيـع على اتفـاقية الهـدنة وفي منـطقة الحدود وليس تحت المظلة الدولية كما حدث في رودس بين المصريين والإسرائيليين .

وكل ما قامت به الدول العربية باسم جامعتهم انشاء حكومة تشمل صلاحيـاتها

كل الاراضي الفلسطينية ودعيت « حكومة عموم فلسطين » برئاسة احمد حلمي عبد الباقي ، وكان الهدف منها ملء الفراغ الذي حصل بزوال دولة الانتداب ، وكان مقرها في القاهرة ، وعندما حاولت الانتقال إلى غزة وقد انتقلت بالفعل دعت هناك إلى اجتماع مجلس وطني فلسطيني انتخب خلاله المفتي الحاج أمين الحسيني رئيسا لم يرق هذا لبعض الدول العربية ، ولذلك عاد مركز القرار إلى القاهرة وكانت حكومة عموم فلسطين مجرد حكومة شكلية لا صلاحيات لها ولا فاعلية

ومن هنا كان على العرب مختارين أو مجبرين السير على خطى الامم المتحدة ، وشرعة حقوق الانسان (. . .) فوافقوا على سلسلة اقتراحات أدت إلى تشكيل لجنة من مندوبين عن الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا لتعديل وضع مدينة القدس وحدود المنطقتين العربية واليهودية ، وسنرى على امتداد هذا الكتاب أن اسرائيل لم تعترف ولا مرة واحدة لا بالامم المتحدة ولا بقوانينها أو شرعتها ، وأنها كانت ولا تزال تعمل على كسب الوقت لتقوية نفسها بشتى الوسائل .

وكانت من ثمار لجنة التوفيق الجديدة أن دعت إلى اجتماع بين الطرفين يعقد في لوزان ، وقد ذهبت وفود من الدول العربية الاربع ، مصر وسوريا ولبنان والاردن . وقد خرج العرب لاول مرة عن التقليد الذي كانت ترسمه اسرائيل ، وهو أن تتفاوض مع كل دولة على حده ، كما فعلت في الاجتماعات التي مهدت لتوقيع اتفاقات الهدنة ، ولكن العرب في لوزان كانوا وفدا واحد من دول المواجهة الاربع [٢٥٦] .

ولم تكن المفاوضات مباشرة ، ولم نكن ننزل في فندق واحد ، وقد جرت المفاوضات على غرار ما حدث في رودس بين المصريين والاسرائيليين وتحت اشراف الامم المتحدة ، وقد امر بروتوكول لوزان بأن اية اتفاقات لاحقة من اجل السلام يجب أن تجرى على اساس قرار الامم المتحدة للعام ١٩٤٧ ، أي قرار التقسيم .

وفي هذا المجال وثيقة فريدة من نوعها ، قد لايعرفها إلا القلائل وهي أن المستشار السياسي للوفد السوري احمد الشقيري جاء ليقول للوفد اللبناني ، إن الجليل هو امتداد للجنوب اللبناني ، وفيه كثافة سكانية ، ونحن لا يهمنا النقب الخالي ، لذلك اطلب من الوفد اللبناني أن يوافق على أن يربط الجليل إلى الابد بلبنان وفق أي صيغة[٢٥٧] ، وكتب هذا المشروع بخط يده . وكان رد الحكومة اللبنانية : « نحن لا نبحث

في أي شيء من هذا النوع إلا ضمن الجامعه العربية ، وعلنا ، نحن آسفون » .

لقد عانى المفاوض العربي في لوزان الكثير طوال خمسة أشهر ، وكانت هناك مفاوضات سرية في باريس بموافقة من جانب الدول العربية كلها (٢٥٨)، وكان الاسرائيليون ينظرون ، على اساس تحقيق مكاسب ، ولا يزال التباحث مع الاسرائيلي مزعجا لأنه لا يريد أن يصل إلى أي شيء واضح وصريح ابدا (٢٥٩) ، ورغم كل هذه المناورات وقع الاتفاق في ١٢ أيار (مايو) ١٩٤٩ من قبل جميع الاطراف على أن الاسرائيليين رفضوا الموافقة على عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، كما رفضوا عودة من خرجوا من منطقة التقسيم إلى ديارهم ايضا ، ولم تتمكن لجنة التوفيق من التقدم أية خطوة في موضوع القدس .

ولم تكن الهدنة توقيع بين مصر واسرائيل ، وقد وصل المندوبون الاردنيون انفسهم لهذا الغرض . حتى قامت مفرزة اسرائيلية ، على الرغم من اتفاقية وقف اطلاق النار ، فزحفت نحو العقبة في ٢٨ شباط (فبراير) وهاجمت القوة الاردنية المرابطة على الخليج ، واحتلت بتاريخ ١١ آذار (مارس) ١٩٤٩ وبعد تمهيد قصير من القصف ، قرية أم الرشراش الساحلية الصغيرة التي بني في موقعها فيها بعد مرفأ ايلات ، وبذلك اصبح لاسرائيل مدخل على البحرين الابيض والاحمر .

وقد بين ممثلو الوكالة اليهودية انهم يتقدمون إلى الحدود التي عينها قرار التقسيم الصادر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، مع أن هذا القرار ليس قرارا ملزما لأن العرب لم يوقعوا عليه ولم يقبلوا به . أما الحدود الحقيقية لاسرائيل فلا يمكن أن تكون إلا حدود وقف اطلاق النار التي تقع على بعد بضعة كيلو مترات جنوبي بئر السبع . وأما بلدة ايلات الواقعة خلف هذه الحدود فقد كانت بعيدة تماما عن متناول الجيش الاسرائيلي . ومع هذا فقد كان غريبا أن حكومة القاهرة عندما طلبت إلى هيئة الامم المتحدة السماح لها بالعبور خلال أم الرشراش كما كانت تفعل منذ سنوات عديدة لتموين الحامية المجاورة لها ، تلقت جوابا يقول إن منطقة ام الرشراش منذئذ تحت حراسة الامم المتحدة ، وأنه لن يسمح لأية قوة عسكرية بدخولها ولو مرورا عابرا . وما كادت القاهرة تصطدم بهذا الرفض ، حتى تحركت على الفور مفرزة اسرائيلية فاحتلت المنطقة كلها بالقوة .

أن التواطوء الضمني بين الامم المتحدة واسرائيل في هذا الموضوع أمر لا جدل

فيه . وكان وزير الدفاع الاردني قد سلم الدكتور بانش وسيط الامم المتحدة بتاريخ ٢٩ شباط (فبراير) مذكرة احتجاج « ضد محاولة اسرائيل وضع الوفد الاردني امام الامر الواقع ، في اللحظة نفسها التي يتوجه فيها هذا الوفد إلى رودس » . وقد بعث الوسيط الدولي إلى مجلس الامن برقية أكد فيها أن احتلال مواقع أم الرشراش « كان خرقا لنصوص اتفاقية الهدنة » . وكان ذلك دون جدوى ، فقد استقر الاسرائيليون في مواقعهم متمسكين بالامر الواقع .

وأتى رد الفعل من القاهرة قويا حاسما ، إذ قام الجيش المصري ، بالاتفاق مع السلطات السعودية باحتلال جزيرتي تيران والصنافر ، ونصب مدفعيته في رأس القصراني الذي يتسنى له منه السيطرة على الملاحة في الممر المائي الغربي المفتوح باستمرار لمرور السفن . وقد تم الاعلان الرسمي بهذا الاحتلال في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٠ .

ثم صدرت نشرات بتنظيم المرور في مضيق تيران على النحو التالي : (تمنع السفن الحربية الاسرائيلية أو العاملة لحساب اسرائيل من اجتياز المضيق عبر المياه الاقليمية المصرية . وتوقف وتفتش (دون مصادرة) جميع المراكب التجارية التي ترفع العلم الاسرائيلي . ويسمح بالمرور للسفن المحايدة سواء منها التجارية أم العسكرية على أن تكون ملزمة بتقديم المعلومات التي تطلبها منها السلطات المصرية . وقد اعترف بأن هذه الاحكام تدخل في نطاق حقوق الدولة المصرية بموجب رسائل متبادلة بين وزير خارجية مصر وبين السفير البريطاني خلال شهر تموز (يوليو) ١٩٥١ . وفي عام ١٩٥٤ حاولت اسرائيل أن يكون لها حق المرور في قناة السويس وفي مضيق العقبة ، ولكن الاتحاد السوفياتي استخدم حقه في الرفض ضد هذا الطلب في مجلس الامن .

لقد كان تمسك مصر بالنقب العربية ، حقا من حقوقها ، ولولا النقب لما كان لاسرائيل هذا الشأن الذي بلغ ذروته بين تمسكها بطابا بعد توقيع اتفاقيتي « كمب ديفيد » لأن هذه البقعة من الارض المصرية كما تقول الاتفاقيتين هي الوحيدة التي يمكن أن تغذي المفاعلات الذرية في النقب بالمياه العذبة (كيلو متر مربع) .

وكما كانت تحرص بكل قوتها على احتلال ام الرشراش عقب وقف القتال حرصت قبْل ذلك على تمسكها بالنقب ، بل وقبل اعلان استقلال اسرائيل ، وكبار المسؤولين فيها يوجهون الطاقات اليهودية العالمية للانطلاق عبر البحر الاحمر صوب

الكنـوز الدفينـة هناك وكـانوا ينـظرون إلى جنوب فلسـطين خاصـة ، ويـطلقـون اسم « النقب » عـلى مثلث (عسقـلان ـ بئـر السبـع ـ العقبـة) . وبلغ من اهتمـامهم انهم اقتحموا سهوله وجباله ووديانه واغواره بالبعثات الدراسية في جميـع فصول السنـة ، ولم تعقهم الاخـطار التي كانت تهـدد بعثاتهم السـريـة والعلنيـة في ذلـك القفـر المخيف ، فجابوه طولا وعرضا وعمقا، واعدوا خرائطه الدقيقة، وكتبوا عن جغرافيته ومناخه، وعن جباله وسهوله ووديانه ، الـدراسات المـطولة . ومثـل هذه الاعمـال كانت تقـوم بها في المـاضي بعثات تبشيـرية دينيـة تمهد عـادة لاحتلال البـلاد ، أو تـوسيـع رقعـة انتشـار الديانات فيها

وعندما لاحت في الافق بوادر قيام الدولة اليهودية تهالك اقطاب الصهيونيـة على ابواب البيت الابيض لجعل النقب ضمن حدود الدولة المرتقبة ، فكان لهم ما ارادوا ، وولدت الدولة بين مياه روافد نهر الاردن في الشمال ، ومياه البحر الاحمر عـلى شاطىء العقبة في الجنوب . وفي النقب بنت اسرائيل اهم مرفق لضمان مستقبلها وهو المفـاعل الذري الاسرائيلي .

لقد اطلقوا على ذلك الشاطىء المتاخم لميناء العقبة اسم ايلات ، وعندما تحركت هيئة الامم المتحدة بـدافع مصـالح بعض الـدول لسلخ النقب عن الدولـة اليهوديـة ، واقدم وسيطهـا الكونت بـرنادوت عـلى التوصيـة بفصله عن الكيان الصهيـوني لم يتردد اليهود لحظة واحدة في قتله، وتحدى حقيقة قائمـة ، ليطلوا عـلى السويس والبحـر الاحمر وعلى حقول النفط الغنية في شبه الجزيرة العربية .

لقد جاء في ما نشرتـه الصحف اليهوديـة في تشرين الثـاني (نوفمبـر) ١٩٦٥ : (أن الوكالة اليهودية قدمت لاسرائيل منذ تأسيسها مبلغ ١٥٠٠ مليون دولار من اموال الجبايات فقط لبنـاء النقب واعماره بـالمياه والمنشـآت والمستعمرات . واثبت الـواقع أن اعمار النقب كان ومـا زال له الأولوية في جميع برامج الاعمـال القائمـة في اسرائيـل ، وذلك لاعتبارات كثيرة في جدول الاهداف اليهودية اهمها :

١ ـ أن النقب من حيث القيم العسكـرية هـو الحصن المنيـع لحمـايـة (الـدولـة اليهودية) ولتثبيت جذورها في بوابة الشرق العربي .

٢ ـ انه يفصل بين شطري العالم العربي في آسيا وافريقيـا ويمنع عن (اسـرائيل)

خطر الامتداد أو الاتصال البري بينهما .

٣ ـ أن النقب يشكل أفضل (قاعدة انطلاق) استراتيجية في نظرهم ، تطل على قناة السويس والبحر الاحمر والمحيط الهندي ، وعلى الكنوز البكر في شبه جزيرة العرب . . . .

ولقد كانت هذه الاعتبارات وغيرها تجول في خواطر زعماء الحركة الصهيونية قبل أكثر من اربعين عاما عندما تطلعوا بابصارهم إلى مياه الاردن كعنصر من اهم عناصر الحياة للنقب ولعمرانه وللاطماع الكامنة فيه ، ولقد اثبتت هذه الاعتبارات نفسها عام ١٩٦٥ عندما اصبحت المستعمرات اليهودية في النقب تصدّر الفواكه والخضار والزهور المروية بمياه الاردن العربية إلى تل ابيب وإلى ما وراء البحار ايضا .

ومن هنا يجب أن نفهم معنى تمسك اسرائيل بطابا التي نعتقد بأنها لن تخرج منها مطلقا ولو ادى ذلك لحرب جديدة مع مصر .

المصالح الدولية في الشرق الاوسط ، وعلى جناحي آسيا وافريقيا ، مكنت اسرائيل من النقب ، ولكن الواقع يقول إن اسرائيل لا تعتبر نفسها مجرد حارس لتلك المصالح الدولية من حيث القيم والاعتبارات القائمة فيه ، وإنما هي تعتبر النقب الركن الرئيسي الذي لا تقوم بدونه قائمة للدولة اليهودية . وعندما تحدث رئيس الحكومة البريطانية انطوني ايدن في قاعة (غيلد هول) بلندن عام ١٩٥٥ عن بعض الحلول للمشكلة الفلسطينية ومنها اقتراح بفتح ممر عربي بين الاردن وقطاع غزّة ، لم يتورع رئيس الحكومة اليهودية في ذلك الحين عن تحدي بريطانيا بشكل صارخ ، وتناقلت الصحف العالمية ذلك التحدي الذي وجهه بن غوريون إلى بريطانيا العظمى : « نحن القوة الفاصلة في هذه البلاد . وأن السير انطوني ايدن يدرك جيدا أنه لا يمكن تعديل الحدود في اسرائيل قهرا إلا بعد معارك دامية . وما اظن أن الشعب البريطاني يرغب في ارسال جيش بريطاني لخوض هذه المعارك الدامية مع اسرائيل ، ان مقترحات ايدن ترمي إلى سلخ النقب عن اسرائيل لاقامة قواعد بريطانية فيه بدلا من قواعد السويس وأن اسرائيل ستحارب إلى آخر رجل فيها لحماية النقب » .

وفي تلك الفترة نفسها احتفل الجيش اليهودي بالذكرى السنوية لاحتلال مثلث (عسقلان ـ بئر السبع ـ ايلات) ووقف قائد الجيش وكان موشي ديان في ذلك الحين يخطب متطلعا إلى مياه البحر الاحمر التي تتكسر على شاطىء ايلات ويقول : « ان

ايلات بوابة اسرائيل إلى البحر الاحمر والمحيط الهندي . اننا نتطلع نحو الجنوب ولن تمنعنا المدافع المصرية في مداخل الخليج من النفاذ إلى الحبشة وافريقيا وإلى الصين . ان راية ايلات يسندها الجيش اليهودي وأن النقب هو من القيم الاساسية في مستقبل الاجيال اليهودية » .

واثبتت هذه التحديات نفسها في واخر عام ١٩٥٦ عندما اقتحمت الخطوط البحرية اليهودية للتجارة ولصيد الاسماك بين ايلات ورأس الرجاء الصالح .

ثم تكشف جانب من الاهداف اليهودية في قاعدة النقب ، وذلك عندما نشرت جريدة « احيروت » الصهيونية يوم ١٢ ـ ٨ ـ ١٩٥٧ ، طرفا من الاسس التي يقوم عليها الحلف غير المكتوب بين اسرائيل وفرنسا كما وردت على لسان السياسي الفرنسي (جاك شوستيل) الذي كان يقوم بزيارة اسرائيل في ذلك الحين ، على رأس وفد فرنسي . قال شوستيل : « أن الحلف بين فرنسا واسرائيل لا يقوم على مجرد الود المتبادل ، وانما هو ينبع من مقتضيات الوضع القائم في الشرق الاوسط ، ويقوم على حاجات فرنسا واسرائيل معا . إن قضايا الشرق الأوسط تتركز اليوم في ثلاث نقاط اساسية هي :

١ ـ حرية المرور من البحر الابيض المتوسط إلى المحيط الهندي (عبر البحر الاحمر) .

٢ ـ استغلال حرية الاتصال بين القارات الثلاث (اوروبا وآسيا وافريقيا) في شرق البحر الابيض المتوسط .

٣ ـ حقول النفط الغزيرة في المنطقة والوحدة العربية . ولما كانت كنوز البترول دفينة في البلاد العربية فان هناك صلة قوية بين وجود هذه الكنوز وبين الوحدة العربية .

لقد هللت الصحف اليهودية في ذلك الحين لهذا التفسير الفرنسي لحاجات فرنسا واسرائيل معا ، والقضايا المشتركة بينهما في المنطقة ، وبذلك كشف الجانب اليهودي عن الاهداف اليهودية في اعمار النقب وتحويله إلى (قاعدة انطلاق) صوب الجزيرة العربية وما حولها من دنيا العرب .

وجعـل اليهـود للنقب بـوابتـين : الاولى مينـاء (اشـدود) عـلى البحـر الإبيض المتوسط ، وميناء (ايلات) على البحـر الاحمر في الجنـوب . واحتفلوا احتفالا صـارخا بافتتاح الميناءين في الربـع الاخير من عـام ١٩٦٥ : وهناك في اسـرائيل من يقـول بأن ميناء (اشدود) ليس في الـواقع سـوى قاعـدة بحريـة اميركيـة . فقد ذكـرت جريـدة (بليتس) الهندية أن حكام اسرائيل اتفقوا مـع الحكومـة الاميركيـة ومنحوهـا حق بناء قـاعدة بحـرية لـرسـو قـطع الاسـطول الاميـركي السـادس ، وأن رئيس (الحكـومـة اليهودية) حينذاك اشار في تصريح له إلى هذا الاتفاق بقوله : « ان وجود قاعدة بحرية اميركية قريبة من مدينة غزة يفيد اسرائيل في صراعها المحتم مع الدول العربية » .

والهدف من اقامة هاتـين البوابتـين ، كما تـرددت اصداؤه في الصحف اليهـودية منذ عام ١٩٦٢ هو : تهيئة الفرص امامهم لتحـويل النقب نفسـه إلى (ممر دولي) بـين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، فيـما لو فـرضت الاحداث العـالمية عـلى الدول المعنية بهذا الممر الالتفاف بشكل جدي إلى اتخاذ النقب بديلا عن قناة السويس .

واقوال الصحف اليهودية خلال هذا الزمن الطويل توحي بأن حكام (اسرائيل) يطمعون ويعملون على جعل النقب بهذا الشكل أو بغيـره لبترول الشـرق الاوسط كله المتدفق إلى اوروبا ، وبناء قواعد برية وجوية وبحريـة كفيلة بحمايـة هذا الممـر الدولي وحمايته بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي .

لقد كانت اسـرائيل تؤمن كـما كتبت صحفها بـأن مخططات السيـاسات العـالمية تقـوم على خـرائط النفط و آباره وطـرقه . وقـد حاولت قبـل معركـة سينـاء ١٩٥٦ أن تستغل المصالح المشتركة بينها وبين فرنسا وتقنعها باستغلال رؤوس الامـوال الفرنسيـة لمد انبوب ضخم بين ايلات وحيفا يتدفق فيه نفط الشرق الاوسط إلى اوروبا . وحدث هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تضـع مخططا جـديدًا لاسـالة النفط بـين خليج العقبة والبحر الابيض المتوسط بعيدا عن قناة السويس . وكان المخطط البريطاني يقـوم عـلى اساس أن تشتـري بريـطانيا من مصـر القـطاع الصحـراوي في سيناء الممتـد من (طابا) في الجنوب حتى (رفح) في الشمال لتشق فيه قناة تصل ما بين البحـرين تسير فيها السفن ، وتقوم على جانبهـا انابيب ضخمـة يتدفق فيهـا النفط من البحر الابيض المتوسط في طريقه إلى اوروبا .

غير أن حملة السويس عام ١٩٥٦ قضت على هـذا المشروع ، وذكـرت الصحف

اليهودية في ذلك الحين ان اقوى نقد وجه إلى انطوني ايدن في الاجتماعات السرية البريطانية بحرب السويس كان اتهامه بأنه تسبب في موت ذلك المشروع البريطاني . وكان ذلك الاتهام اقوى العوامل في تصفية ايدن من المسرح السياسي .

وفي اعقاب حملة السويس تلقت اسرائيل من رجالها في فرنسا تقارير تحذرها من التفاؤ ل المفرط في أعتمادها على فرنسا في مشروع النقب باعتبار أن الكلمة الفاصلة في نفاذه ليست لفرنسا ، لأن اميركا تعارض قيام المشروع ضمن نطاق النزاع العربي - اليهودي .

ولكن اسرائيل صممت على مد انبوب للنفط عبر النقب ولو على نطاق تجاري ضيق ، وراحت تفاوض البيوتات المالية في اوروبا ، ولما رأت تجاوبا من بعض البيوت المالية اليهودية مضت تحقق المشروع على مراحل ولا يزال قائما حتى الان .

. ان موقع اسرائيل في ما يتعلق بالنقب اليوم ، يوحي بأن الصهاينة يعدّونه اكثر من انبوب نفط ومصنع تكرير . فمنذ قيام اسرائيل وزعماؤ ها يحلمون ويطمعون بتحويل البحر الاحمر إلى (بحيرة يهودية) تتولى قواعد النقب حماية المصالح والمطامح اليهودية فيها . . .

ولم تقتصر هذه الاحلام والمطامح . إلى مجرد احاديث في المحافل اليهودية الخاصة ، وانما تعدّت ذلك إلى الصحف اليهودية نفسها ، وبرز بها الكتاب اليهود منذ عام ١٩٤٥ ، وكان اول الاصوات اليهودية التي ارتفعت منادية بهذه الفكرة صوت (كاتسناسون) محرر جريدة (حيروت) في عددها الصادر في ١٨ - ١ - ١٩٤٥ ، وقد كتب في افتتاحية ذلك العدد من الجريدة يقول :

« ان البلاد الواقعة على سواحل البحر الاحمر غنية بالكنوز وبالمواد الخام ، وان البلاد الافريقية هناك في حاجة الى اسواق وإلى وسيط لتسويق موادها الخام . ونحن نملك اسطولا بحريا ضخما قوامه ٤٠٠ باخرة تعمل في كافة موانىء العالم وسيرتفع عددها في عام ١٩٥٦ إلى ٥٠٠ باخرة . ومن شأن اساطيلنا البحرية والحربية في المستقبل أن تحطم الحصار العربي المفروض علينا وأن تفرض الحصار بدورها على بعض الدول العربية بشكل اقوى مما فرضوه علينا ، وان من شأنها ايضا أن تحول البحر الاحمر إلى بحيرة يهودية » .

وكـان (كاتسنلسـون) يتكلم في ذلك الحين باسم حـزب « حيروت » وبلسـان عشرين نائبا في البرلمان اليهودي ، وقد ارتفع عدد اعضاء هذا الحزب بعد ذلك ، بـل أنـه كان يـردد اصداء الامـاني والاحاديث الجارية حـول هـذا المـوضـوع في المحـافـل والمجتمعات اليهودية . ووقف (ليفي اشكول) رئيس (الحكـومة اليهـودية) في مينـاء ايلات بعد مضي اكثر من عشر سنوات على مقـال جريـدة (حيروت) ، وقف يـدلل على امتداد الفكرة في المحيط اليهودي وذلك عندمـا قام يـوم ٢٣ ـ ٩ ـ ١٩٦٥ بافتتـاح ميناء ايلات الجديد وتدشينه بقوله :

« ان اميركا تفكر باستخدام الذرة في شق ممر بحري جديد عبر القارة الاميـركية يصـل بـين المحيط الاطلسي والمحيط الهـادىء . ولعـل المستقبـل القـريب يخبىء في حاضرنا نحن ايضا مستقبلا زاهرا لايـلات كميناء بحـري عظيم الشـأن يقوم عـلى ممر جديد بين البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي » .

وفي اليوم التالي على افتتاح ميناء ايلات الجـديد ، اقلعت منـه السفينة اليهـودية (غل عوز) ومعناها بالعربية (موجة الجرأة) ، تحمل بعثة يهـودية من العلماء والخبـراء من جامعة تل ابيب ، ووجهتها جزيرة (هـورميل) في خليـج اثيوبيـا في مهمة علميـة استغـرقت خمسة اسـابيع في دراسـة مجاهـل البحر الاحمـر واعماقـه وعـالم الاحيـاء فيـه ومقارنتها بمثلها في المحيط الهندي .

هكذا حددت الصحف اليهودية مهمة تلك البعثة في البحر الاحمر ، وقـالت إنها قـامت بتكليف من الاسطول الاميـركي وعلى نفقتـه وان اجراءات اتخـذت حول سفـر البعثة احيطت بالكتمان ، وقد حظر على الصحف نشرها والخوض فيها .

وليست هذه أول بعثة علمية يهودية تقوم بالدراسات العلمية في البحر الاحمر ولا هي آخر بعثة من نوعها . فقد ذكرت الصحف اليهودية أن بعثـة مماثلة اوفـدت في عام ١٩٦٢ للقيـام بالـدراسات في البحـر الاحمر ، وان بعثـة ثـالثـة تـولت استئنـاف هـذه الدراسات في عام ١٩٦٩ .

قد لا يكون بين هذه البعثات العاملة في البحر الاحمر ، وبـين المطامـع اليهوديـة فيه أية علاقة ذات شأن ، ولكن هناك من الاحياء المعاصرين من كان قبل اربعين سنة مثـلا ، لا يرى ايضـا أية عـلاقة ذات شـأن بين بنـاء مستعمرة تـافهـة في النقب أو في

الجليل بفلسطين ، وبين قيام (دولة يهودية) بهذا المستوى على انقاض فلسطين وشعبها العربي .

غير ان هناك وضعا تواجهه اسرائيل لا يمكن تجاهل علاقته البارزة بالمطامع اليهودية في النقب والبحر الاحمر وشطآنه وما فيها من كنوز وخيرات . . لقد عرضت الحكومة الاميركية على اسرائيل قبل فترة من الزمن مساعدتها في بناء مولد ذرّي في اطراف النقب الغربي يؤمن لها المياه العذبة من البحر ويوفر لها ايضا طاقة ذرّية محركة تستعين بها على صناعات ضخمة في النقب . وقد رحبت إسرائيل بهذه الصفقة واعدت الدراسات اللازمة الخاصة بالمشروع . فإذا تحقق هذا المشروع الضخم لاسرائيل في المستقبل القريب أو البعيد فانه سيمكنها من تسخير هذه الطاقة في شق الممر البحري بين عسقلان وايلات ، والتقدم بهذا الممر خطوة واسعة نحو الاهداف اليهودية الخطيرة في البحر الاحمر .

وجه جديد لعام قديم

استراتيجية المنطقة ومداخلات الدول الكبرى

لقد خرج العرب من الحرب الاولى مع اسرائيل شبه ممزقين، ونتج عن ذلك حالة من الضياع، والمراجعات النقدية الضمنية. فمصر التي كانت ولا تزال الدولة العربية الكبرى والمركز القطبي للاستعمار البريطاني كانت تعيش مخاض الثورة على هامش الصراع الاسلامي التجددي والليبرالي، والاشتراكي، والقومي العربي. والجيل الجديد من ابنائها ضائع في عمليات البحث عن الذات في وقت ضاعت فيه فلسطين من بين ايديهم وهم عزل بلا سلاح شأنهم شأن بقية الدول العربية.

وكانت سوريا القطب المقابل لمصر قد بدأت تعيش دوامات الانقلابات العسكرية الاميركية والانجليزية المضادة. كان الأردن في سكينة وذهول شديدين، أما بقية اعضاء الدول العربية فقد كانوا مستهجنين ظاهرياً لما حدث، رغم أن بعض الحكام كانوا ضليعين بكل ما حدث.

في مثل هذه الاجواء غير الصحية يقوم انقلاب انطون سعادة في لبنان [٢٦٠] ويؤدي بعد فشله الى اعدام الرجل، والرئيس اللبناني الشيخ بشارة الخوري يجدد لرئاسته بينما يغتال رئيس وزارته رياض الصلح في العاصمة الاردنية، ثم يغتال بطريقة اخرى الملك الاردني عبد الله بعد اسبوع من اغتيال الصلح[٢٦١].

الا أن الساحة العربية البعيدة عن محيط فلسطين كانت في مخاض اخر حيث بدأ

تصاعد الثورة الجزائرية، وحيث نجاح انتفاضة يمنية بابعاد الامام يحيى عن السلطة ومجيء الامام يحيى الذي رفع لواء استرداد كل اليمن الى ملكه(٢٦٢) واستقلال ليبيا وتحررها من الاستعمار.

بعد هذا كله لا بد من فهم استراتيجية الدول الكبرى في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية خاصة وان ثلاث دول كبرى (اميركا، الاتحاد السوفياتي، بريطانيا) قد خرجت منتصرة، وان بتفاوت في الفعل والقوة خلافاً لفرنسا التي اشتدت قوتها بعد مؤازرة دول الحلفاء لها في نهاية الحرب بعد الهزيمة التي منيت بها، ومع ذلك سنبدأ بموقف هذه الاخيرة(٢٦٣).

لقد كانت هناك أربعة عوامل أساسية لعبت دوراً كبيراً في التفكير الفرنسي وتطور سياستها بالنسبة لازمة الشرق الأوسط ، وهي عوامل تستمد جميعاً من ثوابت لا تتغير في وضع فرنسا الجغرافي .

العامل الأول: مصالحها في العالم العربي وخاصة في افريقيا ـ العربية وغير العربية. لأنه ليس من دولة غربية لها مصالح باقية في هذه المنطقة كفرنسا. ومواقف الدول ليست نزوات لكنها تنبع مبدئياً من مصالح باقية ومستمرة، فرنسا مستمرة في افريقيا والشرق الأوسط، وقبل اي بلد آخر في لبنان.

العامل الثاني: كون فرنسا هي الدولة الكبرى الشرق اوسطية الاصلية، وكل ما عداها هو دخيل على هذه المنطقة، من اميركا وبريطانيا الى الاتحاد السوفياتي. لذلك فإن التفكير المتوسطي بالنسبة اليها هو جوهري، وذلك بقطع النظر عن مصالحها في الشرق. ولكونها دولة متوسطية فإن كل هذه العوامل تتحكم وتؤثر وتفعل في تطور سياستها.

العامل الثالث: المسألة الشرقية المزمنة والباقية، حتى من قبل القرن السابع عشر، وهي التنافس الكبير بين الدول الكبرى في هذه البقعة من العالم، التي تلتقي وتنصب فيها كل التيارات وكل العوامل، وبالتالي تنافس مع اميركا ومع بريطانيا وغيرهما، هذا التنافس الذي يشحذ تفكيرها شحذاً بحيث تشعر بأنها موضع تحد

للقيام بوظيفة معينة، وهي تحاول جهد استطاعتها الا تسمح لاميركا وبريطانيا بأن تهزم على أياديها.

العامل الرابع: «اهمية اسرائيل»، وذلك من عدة نواح. ان الفكر الغربي اليوم بجميع فروعه، من طب، وعلم، وأدب، وفلسفة واقتصاد، وسياسة، وفن يطغى عليه الفكر اليهودي. والعلماء اليهود، بما في ذلك يهود فرنسا، لهم التأثير الهائل على تسيير سياسات بلدان كثيرة. وبما ان هؤلاء العلماء يميلون ميلاً خاصاً نحو اسرائيل في كل اعمالهم، لذلك فهم يؤثرون كثيراً على الاحداث وفي فرنسا بالذات. واهميتهم العملية اكثر بعشرات الاضعاف من عددهم المعلن في فرنسا (اقل من نصف مليون)، والتأثير السياسي ينبع أولاً من التأثير الفكري والعقلي والعلمي. إن فرنسا مشدودة شرق ـ اوسطيا لوجود اسرائيل التي هي الحجر المغناطيسي الذي يجذبها الى هذه المنطقة.

هذه عوامل دائمة لا تزول. انها العوامل «الثوابت» في السياسة الفرنسية. فلا يمكن تصور زوال مصالح فرنسا في افريقيا والشرق، ولا يمكن زوال متوسطية فرنسا، وبالتالي زوال صلتها الحميمة، تاريخياً وجغرافياً، بالشرق الأوسط، ولا يمكن تصور زوال منافسة فرنسا للدول الكبرى الاخرى في نطاق «المسألة الشرقية» ولا يمكن تصور زوال عناية فرنسا باسرائيل إلّا إذا زالت اسرائيل ذاتها.

أما بالنسبة لبريطانيا، فهناك امور تحرص على الاهتمام بها في رسم سياستها نحو الدول العربية وهي:

أولاً: ما أشرنا اليه عن فرنسا من حيث المنافسة بينها وبين بريطانيا والدول الاخرى في حيز «المسألة الشرقية». والنظر الى الاحصاءات التي تقارن بين مقدار الاستثمارات الرأسمالية البريطانية والفرنسية في منطقة الشرق الاوسط يكشف عن تفوق الاستثمارات الفرنسية على البريطانية. وهذا يلهب سعير هذه المنافسة بين الدولتين الاوروبيتين.

ثانياً: عنصر إسرائيل، ذلك الحجر المغناطيسي الذي يستقطب ويجذب كل سياسة غربية، خاصة وان النفوذ الصهيوني في بريطانيا كبير ومؤثر جداً، فهي واضعة وعد بلفور، وقد حكمت فلسطين لربع قرن أو يزيد، وهي التي قامت بالتمهيد للكثير

من المبادرات الدولية التي حدثت فيها بعد، بما في ذلك قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي اتخذ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧. ان بريطانيا تحتفظ بالدور التاريخي الحاسم في تكوين اسرائيل ونشأتها، والتاريخ لا ينسى، ولا تستطيع بريطانيا التخلص منه. يضاف إلى ذلك المصالح اليهودية في بريطانيا، وتأثير اليهود في اميركا على اليهود المقيمين في بريطانيا والبالغ عددهم حوالي ربع مليون. ففي البرلمان البريطاني أكثر من ستين عضواً، أي بنسبة ١٢ بالمئة من أعضاء البرلمان، بينما نسبة اليهود المئوية لسكان بريطانيا هي نصف في الواحد بالمئة. وعواطف هؤلاء الستين عضواً تتجه بقوة ووضوح نحو اسرائيل.

ثالثاً: المصالح البريطانية في الخليج. وفرنسا لم تكن لديها مصالح بهذا القدر في هذه المنطقة، مع انها قد تقيم مصالح واسعة فيها بعد. وعلى الرغم من ان بريطانيا قد انسحبت من الخليج لكنها لم تنسحب بالشكل الذي ادى الى حذف استثماراتها والى احتلال قوة دولية اخرى مكانها فيه، فالبديل عن بريطانيا اتحاد الامارات وإيران، وهما ليسا من اعداء المصالح البريطانية، ولذلك فإن هذا الانسحاب قد خفف عنها بعض الاعباء واراحها من بعض المسؤوليات والقى بهذه المسؤوليات على كاهل قوى فاعلة اخرى.

إن ما يهم بريطانيا هو الابقاء على مصالحها في الخليج ولقد كانت تهمها قناة السويس عندما كانت لديها «الامبراطورية الهندية» التي زالت من الوجود الان. والبرهان على خسوف أهمية قناة السويس هو ان اقفال هذه القناة لم يؤثر في اوروبا بالشكل الذي كان منتظراً، فالمرور البحري عن طريق رأس الرجاء الصالح أوجد حلاً مداوراً لهذه الازمة. وأكد ان الوصول إلى الخليج ليس وقفاً على قناة السويس بل ان لبريطانيا ولغيرها الطرق والوسائل الاخرى.

وهنا يدخل عنصر هام ضاغط في السياسة البريطانية، وفي السياسات الغربية على العموم، وهو عنصر النفط. هذا موضوع سنبحثه فيما بعد بحد ذاته.

بالاضافة إلى ذلك فهنالك النفوذ الاميركي، وبالقدر الذي تتكل بريطانيا مصيرياً على المظلة النووية الاميركية، لا تستطيع ان تنفض يدها من النفوذ الاميركي بشأن الشرق الأوسط، وهنالك أيضاً علاقات حميمة جداً بين البيوت البريطانية والاميركية، كالمصارف والصناعات والصحف يتداخل فيها النفوذ الصهيوني

ورغم كل ما يقال عن وجود خلافات في المعسكر الغربي ـ وبالطبع خلافات كهذه موجودة وستبقى ـ فهنالك بعض الوقائع الثابتة التي لا تتغير. فمثلاً لم تحاول السياسة البريطانية ابداً، انتقاد السياسة الاميركية في فيتنام، مما يدل على قيام نوع من الارتباطالعضوي بين اميركا وبريطانيا. ثم ان دخول بريطانيا في اوروبا لا يعطل سياستها وتعاملها مع اميركا، لأن النفوذ الاميركي داخل بريطانيا، على جميع المستويات، يبقى بارزاً، مما لا يسمح بانحراف كبير في السياسة البريطانية نحو الشرق الاوسط.

ومن ناحية اخرى فلدى بريطانيا تراث اتصالي عريق هائل مع العرب، فالكتب التي وضعها لورانس والتي وضعت عنه، ودراسات انكليزية غيرها لا حصر لها، عن مصر، وعن العرب، واللغة العربية والادب العربي، والتاريخ العربي، والاسلام، تضاف إلى الاهتمامات التاريخية المتراكمة في الجامعة البريطانية (الكمنولث) التي لا يمكن ان تنسى ـ هذا التراث البريطاني الضخم يرشح للبعث والاحياء من جديد.

ماذا نستنتج من كل ذلك؟

لقد نجم عن تلك الاعتبارات ان استعادت بريطانيا نفوذها في الشرق الاوسط كما تسميه بصورة عامة، اقتصادياً وسياسياً، ولكن ضمن حدود، لأن التشكيك في بريطانيا وبالتراث الذي خلفته من مداخلاتها وسيطرتها السياسية ليس سهل النسيان في وقت قصير. ومع ذلك فقد استعادت بريطانيا قسماً من نفوذها حتى ان البحث اخذ يطرح مجدداً بامكانية شراء مصر والسعودية أسلحة منها.

وباختصار، عادت بريطانيا الى التواجد الفعال في الشرق بعد ثمانية عشر عاماً من طردها من السويس، وباستطاعة بريطانيا ان تكون صاحبة دور جديد إذا ازالت التشكيك العالق بمواقفها، وهذا شيء يحمل التناقض في ظاهره لكنه ليس بالامر المستحيل. فبامكان بريطانيا ان تلعب دوراً محسوساً ولو محدوداً، نظراً لعلاقتها مع أميركا ولخبرتها العريقة في هذه المنطقة، هذه الخبرة التي تجهلها أميركا.

وما نقوله عن فرنسا نقوله عن بريطانيا، فهي الاخرى بدورها لا تستطيع أن تلعب الدور الحاسم في المنطقة. فهي التي وضعت قرار مجلس الامن عام ١٩٦٧، لكنها عجزت عن دفعه الى التطبيق.

أمـا فيما يتعلق بـاحتمال تـزويد مصـر وغيرهـا من الدول العـربية بـالسلاح من بريطانيـا ، فإن مصـر ، أو أية دولـة عربيـة ، إذا انتظرت الحصـول على سـلاح من هنا وهناك لسحق اسرائيل بالحرب ، فانتظارها في غـير محله ، ثم القول بـأن كل مـا لم يكن بالامكان الحصول عليه من روسيا يمكن الحصول عليه من بريطانيا ، او من غيرها هـذا أيضاً حلم يصعب جداً تحقيقه ، إن لم يكن مستحيلاً .

والحقيقة التي لا مناص من مجابهتها هي ان اميـركا ، ايـا كانت دوافعهـا ، وسواء أأعجبتنا سياستها هذه ام لم تعجبنا فهي مصممة حتى الان عـلى ابقاء ميـزان القوى في الشرق الاوسط في صالح اسرائيل او على الاقل بحيث لا تدحر اسرائيـل دحراً يهـدد وجودها .

أما روسيا فقـد بدأت في فتـرة الاربعينات دولـة متحمسة لاسـرائيل ، وهي التي دافعت عنها وهاجمت العرب في الامم المتحدة في السنوات الاولى من قيام اسرائيل .

والاتحـاد السوفيـاتي يخضع سيـاسته واتخـاذ مواقفـه لاعتبارين متـافسين بعضهـما لبعض :

أولاً : الاعتبار القومي : اي مصلحة الاتحاد السوفياتي ، وأمنه ، وزدهاره .

ثانياً : الاعتبار الايديولوجي اي روسيا الفكرة ، الاشتراكية ، الشيوعية ، المادية ، الماركسية ، اللينينيـة ، التي يعتبرهـا البعض أنها «الحقيقة المطلقة» ، ويـريد ان تنتشـر في العالم كله .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، هنالك دائماً ازدواجية في التخـطيط السوفيـاتي العالي ، ويحدث دائماً قيام تضارب بين الاعتبارين . أما إذا لم تشكل هذه الازدواجية اي ضرر ، فتبقى سليمة لكن عندما يبلغ الامر حد الجوهر بالنسبـة لمصلحة روسيـا كدولـة ، فإنها تضع العقيدة جانباً وتسعى للحفاظ على مصلحتها وسلامتها .

فـأهمية العقيـدة الشيوعيـة تخضع لمقتضيـات أمن ومصلحة الـدولة ، ولاستمـرار الحـزب الحـاكم في سـدة الحكم . ومن هنـا يجب فهم خـطوات مـوسكـو وتـطورات سياستها .

واهتمام الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط اهتماماً ايديولوجيا بالدرجة الأولى ،

بل هو اهتمام مصلحي قومي: قائم على خوف الروس من ان يكون او يصبح الشرق الاوسط قاعدة للهجوم العقائدي او السلاحي عليهم. وحتى إذا عدنا إلى القياصرة والى نزعة النفاذ الى المياه الحارة في المتوسط، وجدنا ان حساباتهم استراتيجية في الدرجة الأولى، اي انهم كانوا يخشون من ان تصبح هذه المنطقة قاعدة بيد اوروبا الغربية لتطويق بلادهم.

وفي الحرب العالمية الثانية كان السلاح يدخل الحدود السوفياتية من إيران، أي ان الشرق الاوسط هو احد الطرق المؤدية الى موسكو، إن للغزو أو للعون. لذلك فإن استراتيجية هذه المنطقة تهم الاتحاد السوفياتي بشكل حاسم. فإذا نجحت، على الاقل، في تحييد الشرق الأوسط وجعله غير خاضع للنفوذ الغربي، تشعر بالارتياح، حيث لا يعود من مبرر لنفوذها او نفوذ غيرها في المنطقة.

لقد قدم الاتحاد السوفياتي مساعدات عديدة لاسرائيل في بداية نشأتها. والسبب هو النفوذ الصهيوني الذي بدأ يتعاظم بعد الحرب العالمية الثانية. وتوجد أيضاً أسباب اخرى بعيدة المدى.

لقد شرع الروس بالتغلغل في المنطقة العربية عام ١٩٤٩، وهذا التغلغل بدأ في مصر وقد أعطى ثماره الاولى عام ١٩٥١ عندما سقطت الحكومة المصرية. وأخذت التيارات الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية تستغل الحركات العربية وتستثمرها وتتغلغل فيها، حتى ان المسير الحقيقي لهذه الحركات هو فكر ماركسي شيوعي.

وقد يكون انتشار التفكير الشيوعي كان امراً محتماً في الشرق الأوسط، وذلك لاربعة أسباب:

أولاً: لقوة فكرة العدالة الاجتماعية والاقتصادية بحد ذاتها، ولقوة الحزب الشيوعي الدولي الذي بشر بها، أياً كانت غايته من هذا التبشير.

ثانياً: لافتقار الشرق الاوسط السحيق لهذه العدالة.

ثالثاً: لبروز الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية قوة سياسية دولية هائلة، ولكون هذه الفلسفة الاجتماعية والاقتصادية هي الرسالة «الروحية الاولى» التي تعنيها روسيا في هذا العصر، فلا يعقل الا تحدث هذه الرسالة، مع الزمن من قبل هذه القوة

السياسية العالمية الهائلة، صدى مدوياً في أرجاء الشرق الاوسط، الجار المباشر للاتحاد السوفياتي.

رابعاً: للجفاء إن لم يكن للعداوة، الذي تراكم في نفس شعوب الشرق الأوسط ضد الغرب، بسبب سيطرة الغرب على الشرق الاوسط خلال قرن او يزيد، ولعدم اطلاق رسالة غربية مميزة نحو الشرق بنفس العمق والشمول والتحدي التي تميزت بها رسالة الشيوعية.

وفي بحث أعمق وأشد استفاضة وتدقيقاً في هذا الامر، يجب النظر كذلك في نواح أخرى متعددة، أهمها ناحيتان:

أولاهما: ان العقلية الشرقية أقرب إلى العقلية السوفياتية، من عدة وجوه، منها إلى العقلية الغربية.

والناحية الثانية: ان العقلية الاميركية التي حلت، الى حد بعيد محل العقلية الاوروبية في التعامل مع الشرق الاوسط والتأثير عليه، لم يكن لديها الحصانة والخبرة التي كانت تتمتع بها اوروبا في عصر سيطرتها على هذه المنطقة.

وتحد من بقاء التأثير الماركسي العقائدي في الشرق الاوسط، او من انتشاره وتأصله فيه، عوامل ثلاثة:

أولاً: مقدار تقبل طبيعة العقلية العربية له.
ثانياً: مقدار تقبل الاسلام للعقيدة الماركسية المادية.
ثالثاً: مقدار استعداد الغرب للقبول بهذا الانتشار والتأصل.
هذه كلها تثير أبعاداً لا مجال للخوض فيها هنا.

وفي أية حال، يهم الاتحاد السوفياتي، في الدرجة الاولى كما ذكرنا، مصلحته، والدفاع عن نفسه وأمنه، وتجنيب تحول الشرق الاوسط إلى قاعدة للهجوم عليه. وقد يكون تحييد الشرق الاوسط هو الذي حصل في لقاء القمة الاميركي ـ السوفياتي في موسكو في صيف ١٩٧٢، وهو الذي ثبت في لقاء القمة الاميركي ـ السوفياتي الثاني في واشنطن في صيف ١٩٧٣.

إن التفكير الايديولوجي الداعي إلى نشر العقيدة الشيوعية في منطقة الشرق

الاوسط ليس وارداً إلا وقائياً على صعيد الامن. ولعل ما جرى في مصر من الاستغناء عن خدمات الخبراء السوفيات، وما جرى في السودان من محاولة تصفية الخطر الشيوعي، والعداء الذي تبديه ليبيا للشيوعية، وتطويق النفوذ السوفياتي في سوريا والعراق، فضلاً عن الصعوبات الداخلية التي يعانيها هذا النفوذ، لعل هذه جميعاً أسهمت باقناع السوفيات بأن تحويل الشرق الاوسط الى منطقة تسير في فلكهم، أمر عسير ان لم يكن مستحيلاً، لا سيما وقد وجدوا، من التقارب الذي انجزوه مع اميركا، ان بالامكان الوصول الى نفس النتائج، التي يتوخونها، بطرق اخرى.

أن أميركا ليست عقائدية لتتبنى فلسفة منظمة تسعى الى فرضها على العالم، ولا تؤلف قاموساً عقائدياً ترجع الى مفرداته وتعابيره في معاملتها مع الاخرين، كما تفعل الحركة الشيوعية. تعتمد اميركا الاسلوب العملي، الواقعي، البرغماطيكي، القائم على تبادل المصالح وعلى التفهم المتبادل مع انها بالطبع تعرف كيف تدافع عن نفسها إذا اعتدي عليها وإذا مست مصالحها الحيوية. لذلك فإن نظرتها الى الشرق الاوسط ليست نظره عقائدية في الدرجة الاولى، بل هي نظرة مصلحية، عادية، تقليدية، بالمعنى البسيط المألوف لهذه الكلمات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. تعنى أميركا بالعقائديات في الحال الخاصة فقط عندما تتحول العقائديات الى كره وعداء يمس بمصالحها الجوهرية، اي عندما يؤول فقدان الثقة والاحترام المتبادلين الى استحالة التعامل على أساس الافادة العادلة المتبادلة.

وفي نطاق هذا المفهوم نستطيع تقسيم عناية اميركا بالشرق الاوسط: على ان يكون الشرق الاوسط منطقة أمان من حيث الدفاع عن أوروبا الحليفة. فأميركا لا تخاف من ان يتحول الشرق الاوسط إلى قواعد للهجوم عليها، بعد عنايتها بنصف الكرة الغربي، اي بكندا والعالم اللاتيني، تعنى بغرب اوروبا في المرتبة الثانية، بل يمكن القول بأنه نظراً لأن أميركا اللاتينية تغطي حمايتها والدفاع عنها مبدأ مونرو، فاهتمام أميركا بغرب اوروبا قد يفوق، من الناحية العملية، حتى اهتمامها بأميركا اللاتينية.

وسبب ذلك يعود إلى أمرين أساسيين.

أولاً: العلاقات والوشائج الثقافية والحضارية والاقتصادية والصناعية والسياسية

والتاريخية، المتعددة الاطراف، بينهما وبين غرب اوروبا، تضطرها إلى التأكد الدائب من بقاء اوروبا في مأمن من أي خطر.

ثانياً: ان أي شيء يحدث في أميركا اللاتينية باستطاعة اميركا ان تصلحه او تقي نفسها من شره. دون ان تسمح له بالجنوح الى التطرف. فهي مثلاً، تنظر إلى البرازيل كمركز ثقل أساسي، ولا يهمها كثيراً إذا تمردت كوبا أو التشيلي. لكن هذا الوضع لا ينطبق على اوروبا. فإذا حدث أي تغيير معاد في المانيا، مثلاً، يتعرض الوضع الاوروبي كله الى الخطر ومن هنا كان الاهتمام الاميركي بتماسك وثبات، وأمن غرب اوروبا.

هذا القول يستتبع قولاً آخر، وهو أن البحر الأبيض المتوسط يعتبر بمثابة امتداد للمحيط الاطلسي، ويشكل الجناح الايمن في الاستراتيجية الاميركية للدفاع عن أوروبا، ولذلك فإن هم اميركا في الشرق الاوسط هو ان لا تكون هذه المنطقة قاعدة تهدد امن ومصالح غرب اوروبا.

يهم أميركا، ثانياً اسرائيل، واسرائيل كما نعلم، لها علاقات عضوية مع أميركا. وتنهض هذه العلاقات وتتألف من عنصرين.

أولاً: يعطف معظم اليهود في العالم على إسرائيل، في حين ان العرب ليسوا جزءاً من العالم الغربي. وينتشر اليوم سبعة ملايين يهودي في أميركا على جميع مستويات النشاطات، من فكر وأدب وعلم وفن وفلسفة واعلام وصناعة واقتصاد وسياسة.

ثانياً: إذا اعتبرنا ان هم أميركا الاول في الشرق الاوسط هو، كما ذكرنا، الحفاظ على أمن أوروبا وسلامتها، اتضح لنا تماماً ان اميركا ترحب وتؤيد اي يد تجدها في الشرق الاوسط تساعدها في سبيل هذا الهدف. وإذا كانت إسرائيل، كما هي بالفعل، صديقة أميركا التي يركن إليها في الشرق الاوسط ضد تهديد سلامة اوروبا، فبالطبع تنشىء أميركا وتوطد معها علاقات عضوية. أيا كان سبب هذا التحالف الحميم بين أميركا واسرائيل في سبيل الوقوف في وجه الحل السوفياتي وبالتالي في سبيل حماية اوروبا ضد الالتفاف السوفياتي من شرقي البحر الابيض المتوسط.

وجميع هذه العوامل كان لها أثر، ولو متفاوت القدر والكيف، في التقريب بين اميركا واسرائيل والتبعيد بينها وبين العرب، فالنتيجة التي نحن بصددها تبقى هي

هي. أعني ان سلامة اسرائيل ومناعتها اصبحتا عنصراً جوهرياً في اي حسبان استراتيجي اميركي في الشرق الاوسط.

وإذا كانت العلاقات الدولية لا تنهض على الاحسان والصدقة وعمل الخير بل على مصالح الدول والشعوب، وإذا كانت كلمة «مصلحة» يعني مايوصل إلى الأمن والقوة والرفاهية، والوجود او الفناء، وإذا كان من مصلحة أميركا ان تحارب إذا هددت اوروبا من جهة الشرق الاوسط أو إذا هددت اسرائيل وإذا كان الإتحاد السوفياتي يعرف هذا جيداً فهو لا يريد الاصطدام المسلح مع أميركا على الاطلاق.

فما هي العلاقات المتشابكة المتفاعلة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي بالنسبة للشرق الاوسط؟.

هناك تفاهيم ضمني، واكثر من ضمني، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، يقوم على القناعة بأن أحداً من هذين الجبارين لا يريد ضم اراضي دولة واقعة تحت نفوذ الاخر او تابعة لمنطقة تمتد اليها مصلحته الجوهرية. لذلك فالاهتمام لاميركي السوفياتي المشترك بالشرق الاوسط لا يقوم على التوغل الارضي او الحماية الارضية، كما هي الحال في شرقي اوروبا بالنسبة للاتحاد السوفياتي، وبمعنى آخر في أميركا اللاتينية بالنسبة لاميركا، بل على تحييد المنطقة حتى لا تقع تحت سيطرة الجبار الاخر او تصبح قاعدة للعدوان على احد، همّ الاتحاد السوفياتي ان يؤمن جانبه الغربي، الذي يشمل الشرق الاوسط، كي يتفرغ لجانبه الشرقي الصيني، لانه لا يستطيع الالتفات الى الجانبين، او المحاربة فيهما، في آن واحد، وان استطاع ذلك فلا يرغب فيه. وهمّ أميركا عدم تحويل الشرق الاوسط الى جبهة تهدد أمن الغرب أو أمن اسرائيل ووجودها، وعدم تهديم أو اضعاف مصالح أميركا الحيوية في المنطقة. من هذين الهمينّ الملتقيين ينجم امكان، بل ضرورة، التفاهم الاميركي السوفياتي حول الشرق الاوسط.

وبصرف النظر عما يجري من تطورات، عسكرية او سياسية او اقتصادية، وبصرف النظر عن التسوية او الحل الذي يؤول الى هذه التطورات، هذا إذا آلت إلى شيء، وبصرف النظر عن الاحداث التي تترتب عليها في المستقبل، سواء داخل الدول العربية او خارجها، او في علاقاتها مع بعضها البعض، او في العلاقات الدولية

العامة، فإن هناك مجموعة من الحقائق الثابتة في الصراع العربي الاسرائيلي يجب ان تقال وتسجل.

١ ـ منذ قرار التفسيم سنة ١٩٤٧ ومنذ قيام اسرائيل بالفعل سنة ١٩٤٨، لم تقل روسيا، ولا أميركا ولا أي دولة في أوروبا، بزوالها كدولة. فيظهر ان العالم يريد قيام اسرائيل وبقائها، أياً كانت أسباب هذه الارادة ودوافعها.

٢ ـ السلم يعني التفاوض والاتفاق، والا فالحرب تعني الحرب.

٣ ـ ان فكرة الضغط من قبل روسيا او اوروبا على أميركا، أو من قبل العرب على أميركا، كي تضغط هذه بدورها على إسرائيل كما يشتهي العرب، فكرة محدودة الفعالية تماماً على ما يبدو حتى الآن.

٤ ـ الجواب على التخوف، هل سنزيل إسرائيل، يتوقف الى حد بعيد على النظم والعقلية التي ستقبل على العالم العربي.

٥ ـ يتوقف الدور الذي ستمثله اسرائيل على توازن القوى الفعالة والحاسمة بين العرب واسرائيل، أي على حيوية اسرائيل والحركة الصهيونية وعلى اتصالاتها وجذورها وتأثيرها في العالم، وعلى حيوية الوجود العربي واتصالاته وجذوره وتأثيراته في العالم، وعلى الاخص على الزخم الاسرائيلي وزخم الشعوب المجاورة لاسرائيل، بكل ما يتألف منه هذان الزخمان من عناصر، مادية ومعنوية.

هذا لا يعني ان هذا الدور سيكون متساوي الفعالية في جميع اجزاء الشرق الاوسط، فقد تفعل مصر أكثر في أفريقيا، وقد تفعل اسرائيل أكثر في غرب آسيا.

٦ ـ السؤال هو: كيف يمكن الحد من السيطرة او التأثير الاسرائيلي بحيث لا تمحي ذاتيتنا ونفسيتنا وقيمنا الاساسية الاخيرة من الوجود، أو لا تقلّص الى قدر لا نقبل به؟

٧ ـ يكون هذا بالحيوية المعروفة، في الداخل وفي الخارج، وبمقدار عمق هذه الحيوية وفعاليتها ودهائها وبعد نظرها، وبمقدار ما تكون هناك قوى تريد الا نمحي ذاتياً وكيانياً من الوجود.

٨ ـ يوجد مجال للدبلوماسية اللبنانية، بارفع معاني هذه العبارة، لأن تلعب دوراً

هاماً ولو متواضعاً، في التطورات التاريخية المرتقبة في الشرق الاوسط. فلبنان لـه قول ورسالة في كل ما يجري. فإذا تـرفعنا عن الاشيـاء الصغيرة، من طـائفيات وتـوازنات وإنتفاعات وطموحات شخصيـة، وإذا اجتمع القـادة المسلمون والمسيحيـون، وجلسوا وتأملوا المعطيات والتطورات والامكانات، بجـدية ومحبـة ورفعة نـظر إلى لبنان في حـد ذاتـه، فعندها نتوقـع حدوث العجـائب. إن دور لبنان غـير ما يتصـوره أو يتبجح بـه المخضرمون. ولو عرفـوه بتواضـع وبغير تحـاسد لفـرحوا بـه أيما فـرح. وسيكون حكم التاريخ علينا صارماً جداً، أما لاننا لا نعرّفه، أو لاننا نعرفـه ولا نفرح بـه، أو لاننا لا نريده.

٩ ـ وبالنسبة لسوريا والاردن فهنالك مجـالات مناعـة وصمود ودفـاع عن النفس صادرة من كلا البلدين. أمـّا لاي مدى يمكن للعـالم، أو يقبل العـالم بأن يسـاعدهـا، فهذا بحث آخر.

١٠ ـ أصبح للفلسطينيين إرادة مستقلة إلى حد بعيد عن إرادات الدول العربية. ولذلك لا يمكن بعد الان الوصول إلى تسوية حل او سلم او حرب دون أخذ هذه الارادة بعين الاعتبار.

١١ ـ قـد تلعب المملكة العـربية السعـودية دوراً خـطيراً جـداً في تـطور الشـرق الاوسط وفي بعث القيم الاسلامية الروحية الرفيعة وقد تصبح بالتعاون مع مصر، محور الارتكاز الاستقراري الاول في المنطقة لكن هذا منوط إلى حد بعيد بسياستها النفطية.

١٢ ـ لـدى العراق مشـاكل متعـددة، من المشكلة الكرديـة، إلى علاقتـه بإيـران والخليج، إلى علاقته بتركيا والاتحاد السوفياتي، إلى علاقاته الاقتصادية العالمية.

١٣ ـ أما شمال أفريقيا فستجد نفسها ذات مصير مختلف عن مصيرنـا في المشرق العربي. لذلك فإن حلم الوحدة العربية الشاملة يلعب دوراً حاسماً في انقاذ الموقف.

١٤ ـ وراء كل مفاوضة، مباشرة كانت أو غير مباشرة، يرتفـع السؤال الاساسي الاخير التالي: هل يقبل العرب، ليس فقط بتواجـد اسرائيـل، بل بتعـايشها وتفـاعلها معهم؟ كل شيء يتوقف على الجواب الحقيقي عـلى هذا السؤال. وطـالما يـوجد شـك حول هذا الموضوع، فاسرائيل ستحتاط لامرها بشتى الوسائل، والسلم الحقيقي الدائم يصبح وهماً وسراباً.

١٥ ـ السؤال التاريخي الاخير الذي يرتسم في فلك الشرق الاوسط هو: كيف ستتعايش وتتفاعل الشعوب القاطنة فيه، وكيف ستتعايش وتتفاعل الاديان الابراهيمية الثلاثة التي نشأت واستمرت فيه. اليهودية والمسيحية والاسلام؟

١٦ ـ ينطوي الوضع في الشرق الاوسط على أبعاد متعددة. توجد بالطبع ابعاد دفاعية عسكرية. ثمة أيضاً أحوال ومضاعفات سياسية واجتماعية واقتصادية، تنصب كلها في فعل الحسم والتقرير. توجد أيضاً حركات ثورية تستمد وحيها من الحركات الثورية العالمية وتتعاون معها.

وهكذا يتألف الوضع في الشرق الاوسط من جميع هذه الابعاد، وهي كلها تتداخل بعضها ببعض وتفعل في حسم المصير وتقريره، كل بحسب كيفه وكمه ومرتبته. ولا يجوز تجاهل اي من هذه الابعاد واهماله مهما كانت الظروف والاسباب.

البترول العربي واستراتيجية المستقبل

سلام بيد العرب أو بيد أعدائهم ؟

حافظت أكثر إمارات ومشيخات الخليج على صلاتها ببريطانيا ، ولم يطرأ على تلك العلاقات أي تبدل خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، ولكن بعد اكتشاف البترول في البحرين عاد شاه إيران إلى الادعاء بأن البحرين من أملاكه دون ان يكون لهذا الادعاء اي سند جغرافي أو تاريخي ، وكانت البحرين قبل ظهور البترول القليل فيها العاصمة الثقافية لدول الخليج ، وقد تخرج من مدارسها كما لبنان العديد من أبناء دول المنطقة[٢٦٤] .

ولم تتمكن أية شركةُ من إيجاد النفط في الكويت نتيجة للظروف المناخية ، وكذلك قطر ، وكان أهلها يعملون في صيد اللؤلؤ الذي كان المصدر الوحيد للثروة قبل أن يكتشف البترول ، خلافا لسكان المشيخات الذين عاشوا في فقر على رعاية المواشي ، وتذكية الخلافات بسبب الحدود . وقد عقد شيخ الشارقة معاهدة مع بريطانيا تعطيها حق استعمال خطوط المواصلات بين البصرة وكراتشي (الهند) فاحتلت هذه الامارة بذلك أهمية في نظام مواصلات الامبراطورية البريطانية .

أما مسقط التي كانت تربطها ببريطانيا معاهدة تحالف فقد تنازل سلطانها تيمور عام ١٩٣٢ لابنه سعيد عن حقه في الحكم ، لكن هذه السلطنة المشرفة على مدخل الخليج ، فقدت مكانتها الاستراتيجية الهامة بسبب تعدد المحميات البريطانية ووجود

الاسطول البريطاني في الخليج . وقد مرت فترة اضطرابات قبلية بين مسقط وعمان استمرت حتى السبعينات ، وكان لبريطانيا دورها في هذه الاضطرابات كما سنرى .

لقد كان الوجود البريطاني في المنطقة متواجدا بصورة كلية ، ولكن ما إن دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء حتى تغير مجرى الاحداث ، وطفقت المساعدات الأميركية لروسيا التي انهكتها الحرب تأخذ طريقها عبر إيران ، وكانت هذه بداية حلول أميركا محل بريطانيا في منطقة الخليج ، وسبب التسابق بين الدولتين على التقرب من السعودية(٢٦٥) .

وعندما حل عام ١٩٤٢ كادت بريطانيا تعاني الهزيمة في الصحراء الغربية ، وما زالت تتراجع حتى توقفت أخيرا في منطقة العلمين . ولكن في نهاية عام ١٩٤٣ تغيرت الخارطة وهزم الالمان في العلمين وستالينغراد وتمكنت أميركا من صد هجمات اليابان في منطقة الشرق الأوسط ، كما شلت حركة إيطاليا ، ونزلت القوات الأميركية في شمال أفريقيا . . .. وبهذا كله فقدت منطقة الخليج أهميتها الاستراتيجية بعدما أعلن الرئيس الاميركي روزفلت : « أن جيش الولايات المتحدة سيرفع عن كاهل بريطانيا ، بعد الآن ، مسؤولية نقل المعدات إلى الاتحاد السوفياتي بطريق إيران »(٢٦٦) .

ونتيجة لهذا القرار اتيح للادارة الأميركية أن تحل شيئا فشيئا محل الادارة البريطانية في تلك المنطقة من العالم ، وما هي إلا خمسة عشر يوما حتى تولى الجنرال الأميركي كونوللي قيادة مصالح الحلفاء في الخليج العربي .

ولم تتأثر الامارات العربية بالحرب ، فالبحرين والكويت اللذين بدأ انتاج النفط فيهما كانتا تعيشان حالة من الاسترخاء ، وإن كانت الكويت أقل نعيما بسبب إقفال آبار النفط فيها ، ولذلك بدأ التطلع نحو الأميركيين ، وعدم الأكتراث ببريطانيا .

ومع بداية نهاية النفوذ البريطاني في المنطقة امتدت الأيادي الأميركية إلى إيران بعد أن قفز إلى السلطة اليسار الايراني برئاسة الدكتور مصدق وأعلن تأميم البترول الذي قابلته بريطانيا بالتهديد ، ومن هنا دخل الاميركيون المعركة حتى لا تنحاز إيران إلى الاتحاد السوفياتي إلى أن حسمتها لصالحها بإعادة الشاهنشاهية إلى السلطة .

ولقد تميز العراق من بين دول الخليج بشدة حساسية مركزه الاستراتيجي ، فكان

أول قطر عربي استهدفه الاستعمار البريطاني في الحرب العالمية الأولى ، وقد ركز نفسه في هذا القطر في الحرب العالمية الثانية ضارباً عرض الحائط مصالح العراق الذاتية .

وكانت وزارة نوري السعيد الأولى (١٩٤١) تعمل على التعاون مع بريطانيا على أوسع نطاق ، وكان هدف هذه الحكومة إرضاء بريطانيا فقط ، بما في ذلك فلسطين .

إلا أن الاخفاق رافق سياسة نوري السعيد لأن المد العربي كان عارما ضد سياستها في فلسطين ، ومع ذلك تم لنوري السعيد تأليف وزارته الانشائية الثانية ، وأعلن فور تسلمه الحكم الحرب ضد دول المحوز التي غدت في تراجع ، ثم بدأ يطالب بتحالف العرب مع بريطانيا عبر أحلافها ، ولكن أحدا لم يسجب له .

وكان لاخفاق نوري السعيد المتلاحق وجهوده التي ضاعت سدى ، تأثيره على مركزه السياسي ، وأفلتت أزمة المبادرة من يديه ، فسقطت حكومته سنة ١٩٤٤ والبلاد في حالة يرثى لها فخلفه الباجه جي ، ولكن أعنتها أفلتت من يده أكثر فأكثر .

وفي فترة حكمه شهدت الدول العربية مولد الجامعة ، وبهذا منيت الدعوة التي تبناها نوري السعيد وهو خارج الحكم ، وازدادت متاعب بريطانيا في العراق ، وسقطت حكومة الباجه جي بعد سنة ونصف السنة ، وقد خلفه توفيق السويدي الذي سارع إلى تخفيف القيود على الصحافة وألغى الاحكام العرفية ، وسمح بتشكيل خمسة أحزاب هي : حزب الاستقلال ، حزب الاحرار ، والحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب البعث ، وحزب التحرير الوطني[٢٦٧] .

وكان لهذه الاحزاب السياسية دور كبير في دفع الحركة الوطنية أشواطا بعيدة ، لكنها لم تستمر طويلا لما سببته من مضايقات لبريطانيا . لذا عمدت إلى إسقاط الحكومة بعد مذابح جماعية ، منها مذبحة « مكاورباغي » في « كركوك » ومذابح الخطوط الحديدية ببغداد[٢٦٨] .

وخلفتها حكومة أرشد العمري لتفسح في المجال أمام حكومة « محايدة » برئاسة نوري السعيد الذي كلف بالاشراف على انتخابات نيابية في أوائل عام ١٩٤٧ ، وكانت النتيجة مجيء أنصاره ، وبعد الانتخابات استقالت حكومته ليخلفه تلميذه

صالح جبر الذي سار على نهجه القمعي ، وقد عين وزيرا للخارجية فاضل الجمالي الذي قدم مشروعه الذي اسماه « الدفاع المشترك » تنص على التعاون مع بريطانيا على أرفع مستوى ، وبمعنى آخر زيادة القيود البريطانية المفروضة على العراق بموجب اتفاقية ١٩٣٠ . وقد وقعت المعاهدة الجديدة في مدينة بورتسموث وتعرف المعاهدة باسمه .

إلا أن ردود الفعل لهذه المعاهدة كانت أبعد من تقدير الوزراة الجديدة ، إذ اندفعت القوى الوطنية المعارضة إلى الشارع تدعمها القوى الطلابية والعمالية وقد سقطت جموع كثيرة من القتلى بين المتظاهرين إلى أن اضطر الوصي على العرش الأمير عبد الاله إلى رفض التوقيع على المعاهدة .

وعاد صالح جبر من بريطانيا وقد سبقه تصريحه بالقضاء على العناصر الفوضوية ، وفرض الاحكام العرفية معلنا عن نفسه أنه حجاج القرن العشرين ، ونزل الجيش إلى الشوارع وتصدى له الشعب لتقع « مذبحة الجسر » وليطاح بالحكومة وليجيء بأخرى برئاسة محمد الصدر الذي تميزت فترة حكمه بالنقمة على البريطانيين ناهيك عن مجلس التعيين الذي شكله نوري السعيد ، لكن حكومته لم تستمر ، وخلفتها حكومة مزاحم الباجه جي التي تلتها حكومة جديدة برئاسة نوري السعيد في أوائل عام ١٩٤٩ ليؤلف حزبا اسماه « حزب الاتحاد الدستوري » .

في تلك الفترة الوطنية لعب النفط دوره في جلب الشقاء إلى البلدان العربية ، فكان الحافز لربط العالم العربي بعجلة الاستعمار العالمي الجديد ، لتنال كل دولة حصتها من الانتدابات العسكرية على أراضي العراق وبلاد الشام والخليج العربي ودول المغرب العربي .

ولم تدخر الولايات المتحدة الأميركية وسعاً للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في الاراضي العثمانية لكنها لم تصل إلى نتيجة تذكر في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، ولكنها بعد الحرب حصلت على جزء من البترول العراقي كثمن لحسر النفوذ الالماني في العراق ، على أن بريطانيا كانت قد عرضت على العراقيين واحدا من أمرين أحلاهما مر فإما أن تمنح الدولة العراقية شركتها امتياز التنقيب عن البترول أو استثماره ، وإلّا فالاستقلال العراقي سيكون على كف عفريت . وستعيد بريطانيا ولاية الموصل للدولة التركية التي ما انفكت تطمع في استعادتها .

ولم يستطع ساسة العراق أمام سيف الارهاب هذا سوى التسليم بمطالب البريطانيين والاذعان لسياسة الأمر الواقع .

وفي فترة الحرب العالمية الثانية ، وتبعا للاوضاع السياسية ، تدنى الانتاج العراقي من النفط ، بينما كان الخط البياني للانتاج الايراني يشير إلى التزايد المضطرد(٢٦٩)، ولم يكن في تلك الفترة العصيبة ، في منطقة الخليج أكثر ازدهارا من منطقة الشركة الانجلو ـ إيرانية التي كان انتاجها خير مساعد للحلفاء .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أنه قد تأخر اكتشاف البترول في الساحل الغربي من الخليج (الامارات) ومشيخات الساحل المهادن، وكذلك البترول السعودي المستخرج من الاحساء ، وكان مرد هذا التأخر لعوامل سياسيه بحتة ، منها عدم استقرار الوضع وتركيز الاهتمام البريطاني على البترول الايراني ، ثم العراقي .

وتعود أولى محاولات استكشاف البترول في الشاطىء الغربي إلى النيوزلندي فرانك هولمز الذي وجد أن التشقق الناشىء عن الهبوط الذي يكون فتحة الخليج والبحر الاحمر تحتوي على نفس الطبقة الصخرية الموجودة في ثنايا الجبال ، والتي عثر بها على البترول في إيران(٢٧٠) وقد نجح الرجل في الحصول على الامتياز للتنقيب في إقليم الاحساء ، ولكن شركته لم تستخرج شيئاً.

وفي عام ١٩٣٠ قدم خبراء أميركيون فأطلق الملك عبد العزيز يدهم في التنقيب وجاءت دراستهم مشجعة ، وقد زاد التمسك بالارض السعودية بعد أن تفجر البترول في البحرين ، وقد تفجر في السعودية عام ١٩٣٨ ، وكرت المسبحة .

ولقد أرادت الولايات المتحدة أن تكون الوحيدة في استثمارها للبترول السعودي ، ولذا فقد سعى الرئيس الأميركي روزفلت إلى مقابلة العاهل السعودي عام ١٩٤٥ لدى توقفه في مصر ، وهو عائد من مؤتمر يالطا ، وتم له ما أراد(٢٧١).

ولم يعجب البريطانيين ما آل إليه بترول السعودية بعد أن أصبح بيد أميركا ، وقد كانوا يجهدون ليكون الخليج كله منطقة مقفلة لهم ، لا سيما وقد أشارت آخر الابحاث بأن بترول السعودية يشكل ٤٢ ٪ من البترول العالمي الذي اكتشف حتى ذلك الحين .

وعلى الرغم من أن أميركا هي رأس كتلة الدول الغربية ، وحليفة انكلترا

الكبـرى ، فقد تميـزت الفترة التي امتـدت من عام ١٩٤٥ إلى عـام ١٩٥٠ بـالصـراع المكشوف بين بترول الدولار وبترول الاسترليني وكان لانعكاس هذا الصراع الاثر على الدول العربية المجاورة ، فقد رأت الشركات الأميركيـة أن تصرف ٢٨٠ مليـون دولار لانشاء خط أنابيب للبترول تصل منابعه في الظهران بحـوض الابيض المتوسط عـلى أن تنتهي في صيـدا ، بعد أن عملت نـاقلات النفط الأميـركية عـلى عرقلة نقله عبـر قنـاة السويس ، تشفيا من الحليفة الكبرى .

وهنا تحركت بـريطانيـا لعرقلة المشـروع الأميركي الجـديد ، وسعت لاحبـاطه ، وطفقت تلعب لعبتهـا للاجهـاز على سـوريا (ممـر الانابيب) ودمجهـا بـدولـة « الهـلال الخصيب » الواثقة من سيطرتها عليها إذا ما رأت النور ، والتي ستكون حاجزا لـوصول البترول السعودي إلى البحر المتوسط ، ولكن أميركا كانت أطول باعا ، إذ وقع انقلاب حسني الزعيم الذي بخر مشاريع بريطانيا التي سارعت بدورهـا بتدبـير اغتيال دكتـاتور سوريا الذي ساهم بدوره في تسليم رائد فكـرة الهلال الخصيب انطون سعاده لاعـدامه في لبنان كما سبق أن أشرنا .

وأسفـر الصراع المشكـوف حينا ، والمستـتر أحيانـا عن رجحان كفـة الشركـات الأميـركية التي نجحت عـام ١٩٥٠ بإنشـاء الانابيب البتـرولية التي امتـدت من حقول الاحساء إلى صيدا بخط طوله ١٧٨٣ كلم ولقد حل انتاج السعوديـة في هذه الفتـرة في المرتبة الثالثة من الانتاج العالمي وذلك بعد فنزويلا والكويت .

ويعود تاريخ أولى المحاولات التي جرت لاستخراج البترول في إمارة البحرين إلى عـام ١٩٢٥ إذ تقدم هـولمز بـطلب منحه تصـريحا للتنقيب من شيـخ الامارة ، وفشـل الرجل كما فشل في السعودية فبـاع الامتياز لشـركة أميـركية كـانت تعمل في العـراق وكـانت المشكلة التي تعترض الشـركة الجـديـدة ارتبـاط الامـارة بتعهـدات للحكـومـة البريطانية لا تسمح لغيرها بالتدخل في شؤ ون الامارة ، ناهيك عن المعاهدات المماثلة مـع الكويت وقـطر وإمارات الخليـج المماثلة ، ولـذلك سعت الشـركـات الأميـركيـة للتفاهم مع بريطانيا على تأسيس شركة مشتركة .

وفي عام ١٩٣٨ كانت البحرين في عداد الدول المصدرة للبترول ، وكان لـذلك أثره في تغيير مجرى المنافسة الدولية ، وحافزاً للتهافت على السعودية كما سبق البحث .

وكانت التجربة الاستهلاكية الأولى لحركة التنقيب في الكويت تكاد تمنى بذرائع الفشل ، وقد وقع المحذور بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وتعطلت عملية التنقيب إلى أن عادت من جديد عام ١٩٣٤ ثم تعطلت مرة ثانية بعد نشوب الحروب العالمية الثانية حيث أغلقت الابار المكتشفة حتى عام ١٩٤٥ حيث احتفل بتدشين أول شحنة من البترول الكويتي عام ١٩٤٦ ، وقد ارتفع عدد الابار خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٣ من ٩ أبار إلى ٣١٩ بئرا .

وفي قطر تم التنقيب عن البترول عام ١٩٣٥ لكنه لم يظهر إلا عام ١٩٤٧ ، وقد أعطى الشيخ عبد الله آل ثاني حاكم قطر الامتياز لشركة جديدة للتنقيب عن البترول مما أثار الانجليز ، وتطورت المشكلة إلى معضلة أثيرت أمام المحافل الدولية ، وجاء الحكم لمصلحة قطر .

أما في مسقط وإمارة عمان فقد جرت محاولات لم تثمر عن نتائج سوى عام ١٩٤٩ وظهر البترول في إمارة أبو ظبي عام ١٩٥٨ .

ولقد أثارت أدوار التنقيب عن البترول في الخليج التنافس الاستعماري على أشد ما يكون ، ولا سيما بين الشركات الأميركية والبريطانية ، إذ سعت الولايات المتحدة في النصف الثاني من هذا القرن إلى توطيد نفوذها الاقتصادي في منطقة الخليج ، لتوفر الاحتياطي من البترول فيها ، لئلا تحتكر منابعه في أيدي البريطانيين ، ومن هنا كان منطلق التنافس السياسي لاقتلاع الاستعمار القديم من المنطقة ليحل مكانه الاستعمار الأميركي الجديد ذو الوجه المختلف ، والغاية الواحدة .

من هذا كله نجد مدى أهمية البترول بالنسبة للعالم العربي وللدول الكبرى التي تتصارع عليه في سبيل مصالحها ومنافعها ، فهذا السلاح قوة كبيرة بيد العرب إذا أحسن استعماله ، وكان لبنان أول من أشار إلى استعماله كسلاح ضاغط عشية الحرب العربية الاسرائيلية الأولى كما سبق وأشرنا ، وكان استعماله مجديا بعد حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ عندما أوقف العرب ضخ البترول إلى الدول الأوروبية والولايات المتحدة واليابان ، وقد أظهر هذا السلاح فاعليته من خلال النتائج التي انتهت إليها تلك الحرب ، كما أظهر عطفا كبيرا من شعوب هذه الدول بالنسبة للقضية العربية ، وكذلك عطف شعوب أفريقيا واسيا بمستوى أكبر . وقد أظهر هذا السلاح

التشابك المتزايد بين العالم الصناعي والعالم النامي بما في ذلك العالم البترولي ، وأظهر أنه يؤدي إلى تكييف العلاقة بين العالمين من جديد .

ومع أن هذا التكييف الدولي ، بطبيعة الحال عملية تاريخية مستمرة لا تنتهي ، فإن الطور الذي تمر فيه الآن هو طور حاد ، وبشكله الاستثنائي هذا قد يستغرق وقتا إذا لم يحسن العرب استغلاله . ومن شأن هذا التكييف الشاسع المترامي الاطراف ، المتعدد الجوانب ، البعيد الأغوار ، أن يحدث تحولا كبيرا في مركز العرب العالمي ، وفي علاقاتهم ببعضهم البعض ، وبإسرائيل وبالعالم الأوسع .

الفصل الثالث

الثورة المصرية والتحول التاريخي المعاصر

بداية التغيير

لم تكن ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ وليدة ظروف مصرية أو إقليمية أو أوروبية ، ولا حصيلة صراع داخلي حزبي أو شخصي ، بل حصيلة تراكم من ذلك كله تمازج مع ضرورات التغيير بأي شكل من الاشكال .

فعلى الصعيد المحلي تنامى الفكر الليبرالي في مصر ودخل مرحلة التطبيق بعد نضال دستوري كبير في عهد اسماعيل باشا وثورة شعبية في عهد توفيق باشا ، ثم استمر النضال في عهد الاستعمار البريطاني في سبيل التخلص منه ، ودخل مرحلة التطبيق مرة أخرى بعد الثورة الشعبية الكبرى سنة ١٩١٩ ، ولم ينقطع النضال من أجله حتى قيام ثورة ١٩٥٢ . كما دخل الفكر القومي العربي والفكر الاشتراكي مرحلة التطبيق بتحقيق وحدة مصر وسوريا في العصر الحديث ، وكذلك الفكر الاسلامي الذي لم تتح له فرص الممارسة العملية ولا التطبيق . وقد هزت هذه التيارات الفكر المصري هزا عنيفا ، وأيقظته من رقاد عميق ، وانتفضت بالوعي الاجتماعي في مصر انتفاضة كبرى ، وساعدت على تحويل المجتمع المصري ، وبالتالي العربي بأساسه التحتي وبنائه الفوقي ، إلى مراحل جديدة على طريق التقدم .

وعشية تلك الثورة كان العالم العربي دون استثناء يعيش مرحلة الذروة في معاناته من الاستعمار الغربي التقليدي ، إلى جانب المرحلة الجديدة التي فرضت عليه ضمن حلقات الصراع الدولي . وهي تنافس الاستعمار الأميركي الجديد الخارج من الحرب

العالمية الثانية منتصرا كالعملاق مع الاستعمار القديم ، بعد أن أدرك الاستعمار الجديد مدى أهمية واستراتيجية هذه المنطقة ، ومدى فاعليتها وخطورة دورها ، وهي التي كانت المساعد الأول والرئيسي للحلفاء في الانتصار نظرا لما قدمته هذه المنطقة من الطاقة البترولية الاداة الرئيسية لتلك الحرب .

أما الاتحاد السوفياتي الذي خرج منتصرا بدوره من تلك الحرب فلم يظهر وجهه إلا في أواسط الخمسينات لأنه خرج منهكا من تلك الحرب ، بعد انتصاراته على قياصرة القرن التاسع عشر ، وقد ساعد ذلك دون شك الولايات المتحدة على أن تنفرد بحرية التصرف إزاء الواقع الدولي الراهن .

وكان العالم العربي الذي خرج بدوره « كمولود جديد » بعد استقلاله عن الامبراطورية العثمانية ، ودخوله على الفور في دوامة اللعبة الاستعمارية الغربية الجديدة ، الحربين الأولى والثانية . . شبه مشلول تتقاذفه مصالح الدول الكبرى المستعمرة ـ بالكسر ـ وما كانت تدبره من مؤامرات ودسائس وأدوات حكام بين يديها يتقاذفونها وفق أهوائهم . . . الخ .

ومصر ، بالدرجة الأولى إحدى هذه الادوات وهي أكبر دولة عربية بل كانت الاداة المحركة فوق الساحة العربية

كان جو الكآبة والتوجس يسيطر على البلاد بعد الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى ، وكان « الاخوان المسلمون » قد شاركوا فيها وسقط لهم العديد من الشهداء ، ولم يكن هذا الجو مفاجئا ، فقد كانت له «مقدمات سالفة ، والاساس في كل هذا أن الشعب كان قد نحي عن سلطانه ، حيث كان قصر عابدين (الملك فاروق) مسيطرا أو يكاد بفضل الانجليز ، وكان الدستور قد انتهك انتهاكا خطيرا حتى بدا محترقا ، أو أنه مجرد شعار لحكم اتوقراطي . وقد نشأت على هذا الهامش تيارات جديدة شابة في الشعب استقطبت جانبا كبيرا من الاهالي ، واتخذت صورة التشكيلات العسكرية في الفرسان الخضر لمصر الفتاة ، والفرسان الزرق التي نشأت في صفوف حزب الوفد ، ثم التشكيلات شبه العسكرية التي أنشأها « الاخوان المسلمون » .

وبدا في تلك الفترة أن الجو السياسي في مصر يتجه نحو اتخاذ وسائل

للاصلاح ، وفرض الاراء التي تختلف اختلافا جذريا عن الوسائل والاساليب الدستورية .

وقامت الحركات الجديدة السرية والعلنية على شعارات غامضة وغير محدودة ليس فيها إلا البريق الذي يستهوي الشباب كالقول بإعادة مجد مصر وجعلها دولة قوية ، وإحياء الاسلام وسلطانه ، ومقاومة الفساد ، والتمسك بالطهر الاخلاقي ، وما إلى ذلك من شعارات ، أقرب أن تكون أمنيات منها أن تكون برامج سياسية للعمل ، ثم ما وقع من جمود الاحزاب القائمة دون أن تتطور في المفاهيم والمطالب بما يتفق مع ما تطور إليه العالم بعد الحرب العالمية الثانية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا .

أما أحزاب الاقلية ، وما أكثرها فقد كانت ألعوبة بين يدي القصر « يقصف » بها أحزاب الاكثرية فحزب الوفد « التاريخي » في مصر كان قد تطرق إليه الضعف بالانشقاقات التي وقعت في صفوفه وأدى إلى إضعافه ، واغتيال أبرز أركانه مثل أحمد ماهر وأمين عثمان في زمن لم يكن الاغتيال السياسي معروفا في مصر .

وكان في المقابل تنظيم الاخوان المسلمين الذي صدرت بأساليب رسمية وعلنية وقتل مؤسسة بصورة سبق ذكرها ، وقد استطاع هذا التنظيم أن يجد قاسما مشتركا بينه وبين شباب من الضباط المصريين جاؤا ليرسموا صورة مصر المقبلة بمساعدة الاخوان ، وكان اسم عبد الناصر وعبد الحكيم عامر من أكثر الاسماء بروزا في المفاوضات بهذا الشأن(٢٧٢) .

ولقد كانت مصر عشية الثورة على فوهة بركان ثائر إذ شهدت ولأول مرة في تاريخها الحديث حوادث إلقاء قنابل ، واغتيالات ، وعمليات تخريب ونسف ومجازر شملت معظم أحياء القاهرة ومرافقها لتعيش حياة عصبية اختلطت فيها القيم الوطنية والقومية بالدم والجريمة والتهديد ، وتجاذبتها تيارات مختلفة متعارضة متضادة لا تعرف أيها تدين وأيها تبرىء .

كان السير في الشوارع محفوظا بالخطر والمخاوف ، وكانت الخواطر مبلبلة مضطربة ، والحياة السياسية مبتورة ، سيطر عليها الارهاب والخوف ، وازدادت الحكومة ضعفا حتى بدأ الناس يرددون في الشوارع وفي المجتمعات والاندية عبارة : « هي البلاد ملهاش صاحب » .

وقد توجت هذه الاحداث البارزة التي غيرت وجه تطور المجتمع المصري بحريق القاهرة التي وقف الكثيرون عاجزين عن تفسيرها غير أن الصراع الأميركي البريطاني ، دون أدنى شك هو الذي أدار تلك الاحداث وفق مصلحة كل من الجانبين ، فمنه على ضفتي قناة السويس كان الانجليز يحاربون الأميركيين ويمنعون ناقلات نفطهم من عبور القناة ، ويسقطون حسني الزعيم في سوريا لأنه جاء برغبة أميركية . . . بهدف إفشال الخطط البترولية الأميركية بالاضافة إلى سيطرة الأميركيين على نفط السعودية التي كانت تعتبر منطقة نفوذ بريطانية آنذاك . وسنرى لاحقا أن الأميركيين سيطردون البريطانيين والفرنسيين من المنطقة كلها ليحلوا مكانهم .

إن الشيء الذي حاول المؤرخون المعاصرون طمسه قد يلقي الضوء على هذه المرحلة ، ولعل ذلك كان في شخصية مصطفى النحاس ذلك الزعيم الوفدي الذي ورث أمجاد سعد زغلول ، لقد كان النحاس قبل أن يكون سياسيا ، زعيما شعبيا ، ووطنيا مخلصا في عاطفته ومحبته للناس وصادقا في كفاحه الوطني ضد الاستعمار ورجاله ، وقد صنعت الجماهير هذه الزعامة لأنه كان كلما جاء إلى رئاسة الوزراء يضع الملك في مكانه الدستوري « رمزا يملك ولا يحكم ، والامة مصدر السلطات ، والحق فوق القوة والامة فوق الحكومة » .

نقطة باهرة للنحاس لا يمكن للتاريخ أن يغفلها ، فقد عمل خلال حكومته الأخيرة التي وقعت فيها أحداث عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٢ التي انتهت بالثورة على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ المصرية - البريطانية ومناداة العمال المصريين الذين كانوا يعملون في القاعدة الانجليزية بالقنال لأن ينسحبوا من أعمالهم ويغادروا منطقة القنال إلى القاهرة ، فاستجابوا إلى النداء ، وكان تعدادهم مائة ألف عامل تلقتهم مراكز الاستقبال التي أقيمت لهم بالقاهرة ، حيث جرى إلحاقهم بوظائف حكومية في المصالح والوزارات بجميع أنحاء مصر ، ولم يتعطل منهم أحد .

ولم يستطع فاروق أن يقيل النحاس ، إلا بمؤامرة حريق القاهرة في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ التي دبرها القصر والبوليس السياسي . وبينما كان النحاس يكتب مرسوم إعلان الاحكام العرفية كان الملك يكتب إليه كتاب الاقالة[٢٧٣] .

لقد وقف النحاس أمام البرلمان المصري ليقول كلمته الشهيرة : « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ . ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها » . في ذلك اليوم

(١٥ ـ ١٠ ـ ١٩٥١) هاجر العمال المصريون المعسكرات البريطانية مدفوعين بوطنيتهم باتجاه « مصلحة العمل » بالقاهرة ، ولم يكن التسجيل مقصورا على العمال المشتغلين تحت اشراف الجيش البريطاني في السويس ، بل أنه سمح أيضا بقيد جميع العمال المشتغلين لدى المقاولين الذين يشتغلون لحساب السلطات الحربية داخل المعسكرات ، والمحلات التجارية العديدة المنتشرة في جميع المعسكرات ويديرها تجار لحسابهم الخاص[٢٧٤].

وقبل إلغاء المعاهدة ، وخلالها كانت حركة الفدائيين المصريين تشتد يوما بعد يوم ضد الانجليز في منطقة القناة ، وكانت بعض هذه العمليات بأوامر من الضباط الاحرار وبتسهيلات منهم ، وبالتنسيق مع الاخوان المسلمين[٢٧٥]، الأمر الذي حمل اللك فاروق بعد أن ضاق ذرعا برئيس وزرائه النحاس باشا إلى تعيين حافظ عفيفي رئيسا للديوان الملكي ، وهو المعروف بعلاقاته الوثيقة مع الانجليز ، كما أقدم على تعيين عبد الفتاح عمرو مستشارا للملك وهو المعروف أيضا بميوله للانجليز . وقد أذهل ذلك الحركة الوطنية المصرية بقدر ما أصاب الانجليز من الذهول من حركة الفدائيين النشطة ، وقد عبرت عن ذلك محطة الاذاعة البريطانية -B. B. C- عبر مندوبها باتريك سميث[٢٧٦] الذي قال : « لم تهدأ حدة الهجمات الارهابية التي شنت على القوات البريطانية ومنشآتها بمنطقة قناة السويس خلال الاسبوع ، والحالة تنساق إلى حالة خطرة جدا كما يقول القائد العام للقوات البريطانية في مصر ليفتنانت جنرال ارسكين . وقد رجا المصريون في فترة هدوء بين الجانبين وقف التراشق بالالفاظ على حد قوله وكرر أنه لا يمكن أن يساوم على مسؤوليته في حماية القوات البريطانية في قناة السويس .

وقد تزايدت أعمال العنف بشكل مخيف إلى درجة أن السفارة البريطانية في القاهرة قد سلمت الحكومة المصرية مذكرة تقيم فيها الدليل على أن السلطات المصرية هي التي تدير المقاومة الوطنية في الاسماعيلية والسويس»[٢٧٧]

وفي مطلع شمس اليوم الأول من عام ١٩٥٢ دارت معركة بين الفدائيين والجيش البريطاني بالاسماعيلية دامت ثلاث ساعات ، وكان ذلك مؤشراً خطراً جدا بالنسبة لبريطانيا . ثم تلاه اشتباك أكبر بعد ثلاثة أيام . واشتباك أعم وأشمل بعد اسبوع . . . وهكذا .

لقد كانت البيانات البريطانية تطلق تعبير « الارهابيين » أو « الارهابيين المصريين» على الفدائيين المصريين . وهذا يذكرنا بالبيانات الاسرائيلية ضد الفدائيين الفلسطينيين ، وبأن بريطانيا أورثت كافة التراث الاستعماري في المنطقة العربية إلى اسرائيل .

ومن هنا وإضافة إلى ما ذكرنا ، فإن أصابع الاتهام في حريق القاهرة تشير إلى بريطانيا وقصر عابدين أداتها الرئيسية متمثلا بالاحزاب التي كان شكلها آنذاك . ويبدو غريبا أن يدعو الملك فاروق كبار ضباط الجيش والبوليس إلى مائدة الغداء (بدأ الحريق ١٢ ظهرا) وقد جرت العادة والتقاليد دائما أن تكون الدعوة على العشاء ، ولكن توقيتها للغداء مرتبط تماما بالحريق .

والسؤال الأخير ما هو نصيب حزب « مصر الاشتراكي » أو حزب « مصر الفتاة » في المسؤولية وجماعة « اخوان الحرية » ؟ وهي جماعة ألفها الانجليز لتجنيد المصريين أبان الحرب العالمية الثانية . الواقع الثابت أن جماعة حزب مصر الاشتراكي[٢٧٨] كانت تكتب في جريدة الاشتراكية بمهاجمة الاماكن التي أحرقت بالفعل وبالتحديد . ومن الثابت أن أعضاء هذا الحرب كانوا يقودون الناس في الشوارع وأن كثيراً منهم قد قبض عليه للتحقيق في هذه القضية .

لقد كان هؤلاء مجرد عناصر[٢٧٩] لم يدركوا الابعاد الحقيقية للمؤامرة ، كما كانت السراي مستغلة لكي تلعب دورا معينا في الموقف وتظل المسؤولة الحقيقية والعقل المفكر لسلسلة الاحداث ابتداء من حادثة الفتنة في السويس بين عنصري الامة أو الوساطة الخادعة من جانب نوري السعيد ونجيب الداوي ومذبحة الاسماعيلية ، وهي السلسلة التي توجت بحريق القاهرة : هي المخابرات البريطانية في مصر أولا وقبل كل شيء . وما عدا ذلك من أطراف فهي عوامل مساعدة بما في ذلك القلم السياسي في وزارة الداخلية المصرية .

والجانب الآخر من هذه الصورة أنه كان هناك من يتهم الأميركيين بقطف ثمار ما حدث عشية الثورة المصرية ، بل هناك من اتهم بعض أركانها بالعمالة للأميركيين[٢٨٠] ، وهذا في اعتقادنا صحيح إلى حد ما . فقد انكشفت سياسة الولايات المتحدة الأميركية المعادية للمنطقة العربية للمرة الأولى في معركة تأسيس اسرائيل . ففي تلك المعركة اتضح أنها هي لا ألمانيا القيصرية ولا بريطانيا صاحبة

الدعم الاساسي للحركة الصهيونية وللوكالة اليهودية في فلسطين ولفكرة إنشاء دولة يهودية[٢٨١] فعندما طرح موضوع التقسيم لفلسطين في الامم المتحدة كان موقف الولايات المتحدة هو الموقف الأكثر تطابقا مع وجهة النظر الصهيونية .

المحطة الثانية لانكشاف هذه السياسة كانت حركة حسني الزعيم (١٩٤٩) الانقلابية في سوريا وموقف بريطانيا منها ، والتخوف من الموقف السوري المتصلب في موضوع الصلح مع اسرائيل ، ومنها القضاء على بذرة الفكر التحرري الثوري والوحدوي النامي في سوريا .

رافقت الولايات المتحدة الانقلاب الذي تم في مصر مراهنة على بعض أجنحة الضباط الانقلابيين مثل محمد نجيب وغيره ، وكانت هذه المرافقة تستهدف إقامة نظام حكم في مصر يقوم ببعض الاصلاحات الفوقية التي تمكن النظام القديم من الاستمرار بعدما تبين استحالة استمرار الملكية في مصر . ولعبت في الفترة الأولى ورقة الملكية بلا الملك فاروق وقد عمت الفكرة بحيث يحفظ الملك لأحمد فؤاد ابن فاروق . وعندما لم يتم ذلك لعبت لعبة محمد نجيب شخصيا بل ورقة تسليم الثورة للاحزاب القديمة ومنها حزب « الوفد » في وقت لم تكن هذه الاحزاب تستطيع تسلم هذه الثورة بسبب قوة « الاخوان المسلمين » واليساريين في الشارع . وأرادت بعد ذلك أن تقيم في مصر حكم كولونيلات على طريقة أميركا اللاتينية ، ولكن في « الضباط الاحرار » ضمانات فوتت كل المشاريع الأميركية .

- **أولا** : كون هؤلاء الضباط من بنيات شعبية مصرية صرفه تصعد للمرة الأولى إلى السلطة .

- **ثانيا** : كون هؤلاء أصحاب تجربة في معركة فلسطين .

- **ثالثا** : التفاعل مع البلاد العربية ، ومع الحركة الشعبية فهي التي كانت تنظر إلى مصر دائما كمحور للعمل العربي .

- **رابعا**: صعوبات ومشاكل التعامل مع الرجعيين العرب . رحلة صلاح سالم (أحد الضباط الاحرار) إلى العراق آنذاك .

- **خامسا** : شخصية عبد الناصر الوطنية والعسكرية والثقافية المهيأة لتصدر دور

مصر عبر فكرة الدوائر الثلاث البارزة في كتاب « فلسفة الثورة ».

وكان الحلف الذي قام تلقائيا بين العسكريين والمثقفين الطلائعيين أساس تكوين طبيعة ثورية للحكم المصري معادية لمشاريع الاحلاف التي بدأت تطرح في تلك الفترة ، وكلها تدور حول تطويق الاتحاد السوفياتي ومحاصرته .

إن المشاريع التي هدفت إلى تطويق الاتحاد السوفياتي باسم الدفاع المشترك أو الاحلاف الاسلامية لم تكن لتمر على الشعب العربي لأنها كانت مفضوحة من زاوية صريحة ، وهي أنها كانت تشترط دائما مصالحة اسرائيل والتفاهم مع أميركا ضد الاتحاد السوفياتي ، والجانب الاسرائيلي من هذه المشاريع كان يلقي الضوء على الجانب الاخر بحيث ظهرت المشاريع كما لو أنها محاولة لاقناع الشعب العربي بحقيقتين عدائيتين لمصالحها مرة واحدة ، فحقيقة فرض الصلح عليه ، وتطويقه بقبول الواقع الاسرائيلي ، وحقيقة جره إلى عداء دولة كبرى ليس بينه وبينها خلاف ، ولا هي محتلة لارضه ولا هي ناهبة لبتروله : فأميركا لم تظهر في هذه الاحلاف أي درجة من العدالة ولو الشكلية إذا طالبت الحكومات العربية بأن تحارب عدو أميركا . وفي مقابل ذلك لم تراعها في العداء لاسرائيل .

وكان يمكن للعرب أن ينخدعوا بالنيات الأميركية عن طريق السقوط في أوهام الانحياز لليبرالية والبرلمانية والديمقراطية الأميركية في وجه الاتحاد السوفياتي لو لم تفرض طبيعة الأشياء . تأتي البضاعة الكلامية الأميركية مقرونة بالموقف الانحيازي التام لاسرائيل ، ومحاولة فرض صلح غير عادل على العرب ، فالترابط كان تاما بين الصلح مع اسرائيل الذي تنطوي عليه مشاريع الاحلاف ، وبين العداء للاتحاد السوفياتي ، وهذا ما كان يفضح بشكل مطلق كل التحركات المطلقة في فترة الخمسينات .

لقد كانت هذه هي الصورة العامة للواقع العربي مع بداية الخمسينات . قيام دولة اسرائيل ، هجرة أميركية باتجاه الشرق ، ترقب سوفياتي لما يجري على الارض . . . بدء أفول نجوم الاستعمار الغربي التقليدي عن المنطقة .

لقد عمل الأميركيون على أن يرثوا الاستعمار القديم ، ولكن بوسائل ومظاهر جديدة . كانت الانقلابات العسكرية التي نجحوا بها في أميركا اللاتينية إحدى هذه

المظاهر . ومن هذه الانقلابات ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ المصرية التي كان في واجهتها اللواء محمد نجيب .

لقد اتهم « الاخوان المسلمون » عبد الناصر بأنه أميركي في تلك الفترة ، وكان « الاخوان » يمثلون قوة فاعلة في مصر ، وكان لهم دور البطولة في ثورة ١٩٥٢ . لكن أحداث ١٩٥٦ ، ومعركة السويس قلبت هذه المفاهيم في أذهان الرأي العام العربي عندما أثبت عبد الناصر بأنه مصري قبل أي شيء أخر وقبل تلك الحرب وخلالها وبعد انتصاره فيها .

لقد كان عبد الناصر مطالبا بأشياء كثيرة كزعيم منقذ في العالم العربي المثخن بجراحه ليوقف هذه الامة على قدميها مستفيدا من تجربة محمد علي في بناء مؤسسات الدولة والتصنيع ، وفي الوقت نفسه بتطلع بعيني إبراهيم باشا إلى العالم العربي الذي لم تقم له قائمة إلا وهو موحد مع بلاد بر الشام منذ أقدم العصور بما في ذلك المعارك التي دارت حول فلسطين أو فوق ترابها منذ آلاف السنين حتى حروب صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين ، وقد عرف عبد الناصر ذلك وهو مدرس للتاريخ العسكري في الكلية الحربية المصرية ، ومن هذا المنحىٰ خاض معركة السويس عام ١٩٥٦ ، بعد سنتين من تسلمه السلطة الفعلية في مصر .

لقد كان الصراع على السويس وحولها آنذاك بين الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين الذين كانت لهم مواقع قدم في القناة حتى ذلك التاريخ . ولأول مرة في التاريخ الحديث يتفق الأميركيون والسوفيات الخارجون من الحرب العالمية الثانية منتصرين على مسألة حساسة وهي إنهاء تاريخ الاستعمار الاوروبي في العالم الثالث ، وبالتحديد في المشرق العربي الذي كان تحت قبضة بريطانيا وفرنسا ، ولأول مرة تتفق الاصوات في مجلس الامن الدولي على إنهاء حرب السويس ، وإنسحاب الدول المعتدية الثلاث (بريطانيا ، فرنسا ، اسرائيل) من السويس دون قيد أو شرط ، ودون أن تستخدم الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي حق الفيتو (النقض) .

وكان واضحا أن الولايات المتحدة التي خرجت قوية من الحرب العالمية الثانية لا تريد تدعيم موقف عبد الناصر من تلك الحرب ، كما كان واضحا أن الاتحاد السوفياتي الذي خرج ضعيفا من تلك الحرب لا يريد أيضا تدعيم موقف عبد الناصر بل تخلص كلا الدولتين من النفوذ الغربي في الشرق الذي ابتزه أكثر من نصف قرن وإن كانت

نظرة الولايات المتحدة « لناصر » ، تختلف عن نظرة الاتحاد السوفياتي له « كصديق جديد » طالب بشراء الاسلحة الشرقية لبلاده من الشرق عوضا عن الغرب الذي رفض تمويل بناء السد العالي في مصر .

وكان الاتحاد السوفياتي يريد بأي ثمن العودة إلى ممارسة دوره في العالم البعيد عن الستار الحديدي الذي فرضه عليه الغرب ، ولذا استمات في الوقوف إلى جانب مصر ، أول دولة تفتح أمامه الأبواب الخارجية ليدخل هو من الأبواب المفتوحة إلى العالم العربي .

أول المعارك مع الإستعمار

الحروب المضادة

كانت المناسبة عادية في نهاية عام ١٩٥٥ ، فعبد الناصر سيفتتح معرضا للقوات المسلحة ويلقي خطابا في هذه القوات في نادي الجزيرة بالقاهرة . وكان يومها مهتماً إلى درجة ما بالاقتصاد المحلي بعد بروز نجمه في مؤتمر حركة عدم الانحياز الذي عقد في باندونغ ، لكنه لم يهمل مسألة تسليح مصر ، والوصول إلى هذا الهدف عن أي طريق كان في وقت كانت الدول الكبرى ـ الغربية ـ تمتنع عن تزويد مصر بالنوع الثقيل من الاسلحة . وقد شرح عبد الناصر ولاول مرة بوضوح في نادي الجزيرة قصة منع السلاح عن مصر من قبل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة . وكانت المفاجأة عندما تحدث لاول مرة عن استعداد دول المعسكر الاشتراكي عن تزويد مصر بالاسلحة ، وقال إن مصر وقعت بالفعل اتفاقيات تجارية في تشكوسلوفاكيا من أجل « تموينا بالاسلحة » .

وكان هذا اعلان هو بداية الانقلاب ، بلاغ رقم واحد ، وبداية المعركة العلنية مع مصر من قبل الدول الغربية ، والمعركة السافرة مع بعض أنظمة الدول العربية الدائرة في الفلك الغربي ضد هذه السياسة الجديدة ، والاولى في المنطقة ، وكان موقف مصر : « اننا سنتعاون مع أي شخص أو أي دولة على استعداد للتعاون معنا » . وكانت الاسلحة الشرقية قد ظهرت تحت سماء الشرق ولاول مرة في عرض عسكري شاركت فيه بعض الدول العربية بقوات رمزية بعد أن أعلن عبد الناصر وللمرة الثانية

أنه تم توقيع اتفاق مع المانيا الشرقية والصين وبـولندا والمجـر وبلغاريـا للحصول عـلى الاسلحة الثقيلة مقابل القطن .

ومن هنا بدأت قصة اخرى أكبر أهمية ، وهي تأميم قناة السويس .

ولقد رفضت دول العالم الغربي تمكين مصر من الوقـوف على قـدميها بعـد الثورة بدافع أن هذه الثورة لم ترتهن لهذه الدول أو للولايات المتحـدة خاصـة بعد نجـاحها ، وإن كانت في بدايتها كذلـك ، ولم يكن أمام عبـد الناصـر سوى اتخـاذ هذا المسلك ، بـالاتجاه إلى دول المعسكـر الشرقي . وكـان همه الـوحيد في البـلاد ايقـاف مصـر عـلى قدميها .

لقد كانت اسرائيل في هـذه المرحلة ، ومن ورائهـا الولايـات المتحدة التي ورثت رعايتها الكاملة منذ الآن أو قبل الآن بقليل مهتمـة تمام الاهتمـام بوضـع مصر ، عـلى يقـين كامـل بأن الـطرف العربي الـوحيد القـادر على شن الحـرب ضدهـا هو مصـر ، باعتبارها في ذلك الوقت تمثل ثلث العرب عدديا على الاقل سواء بمفـردها أو بتحـالف عربي تستطيـع وحدهـا اقامتـه . وكانت القيـادات الاسرائيليـة تعتقد أن هـذا الوضـع الخاص لمصر سوف يستمر معها إلى نهاية القرن الحالي على الاقل ، وبعـده ربما تغيـرت الموازين ونشأت في منطقة « الهلال الخصيب وحوله قوة تقـدر على التحـدي بدون دور رئيسي لمصـر وحتى بدون مشـاركتها . وخصـوصا في سـوريـا التي هي امتـداد طبيعي لفلسطين ، والحليف الطبيعي لمصـر في انقاذ فلسـطين من الغزاة كلما تعـرضت لذلـك (نلحظ هـذا الـدور بعـد هـروب مصـر من دورهـا القـومي بتـوقيـع اتفـاقيتي كـامب ديفيد) .

وعلى هذا الاساس كانت مطالب الاستراتيجية الثابتة تجاه مصر ثلاثة :

١ ـ ابقـاء مصر ضعيفـة ، متخلفة ، غـير قادرة عـلى اقامـة البناء الاقتصـادي ـ الـزراعي والصنـاعي المتـطور ـ الـذي لا يمكن أن يغيـره إلا قيـام بنيـان اجتمـاعي متماسك . وأن يظل الانسان المصـري كيانـا متهورا ، مـطحونـا ، عليلا ، غـائبا عن الوجود الحضاري بكل قيمه .

٢ ـ ابقاء مصر معزولة عن بقية العالم العربي ، حتى لا يكون لها أي دور تخوضه لتثبيت أقدامها في المنطقة . وفي هذا كانت اسرائيل تريد أن تظل اهتمامات متجهة إلى

الخرطوم في الجنوب السوداني على أقصى تقدير تحت ضغوط وادي النيل أو أوهام وحدة التاج بين مصر والسودان ، وفي نفس الوقت تبقى صحراء سيناء عازلا يفصل ما بين المشرق العربي في آسيا والمغرب العربي في افريقيا ، وكان لا بد للصحراء العازلة أن تكون فراغا من أي قوة ، ومنذ ذلك الوقت المبكر اتخذت الاستراتيجية الاسرائيلية من صحراء سيناء مقياسا للامن (إذ كانت الصحراء فارغة من مظاهر القوة المصرية فهو الامن) .

٣ ـ ابقاء مصر بعيدة عن حركة التفاعلات العالمية بحيث لا تستطيع ، من جرَّاء هذه التفاعلات ، صنع مركز خاص يعطيها مركزاً اقوى على الحركة والمناورة .

وكان الفضل الاول بالنسبة إلى الاستراتيجية الاسرائيلية أن تظل مصر تحت سيطرة الاحتلال البريطاني .

وكان التفضيل الثاني ـ نسبيا ـ أن تكون مصر في كل الاحوال داخل النفوذ الغربي سواء كانت الغلبة فيه لاوروبا أو انتقل الزمام إلى الولايات المتحدة الاميركية .

والمكروه باستمرار ـ هنا ـ أن تكون لمصر صداقات دولية وبالتحديد مع القوى العظمى البارزة . وفي وقت من الاوقات خشيت اسرائيل من صداقة خاصة بين مصر والولايات المتحدة الاميركية ، ولكنها لم تلبث أن اطمأنت بفهمها أن مثل ذلك ضد حركة التاريخ في المستقبل على الاقل . ثم تحولت خشية اسرائيل إلى صداقة بين مصر والاتحاد السوفياتي . وكانت ترى في المشاكل الكامنة في مثل هذه الصداقة ، وحاولت قدر ما تستطيع استغلال هذه المشاكل الكامنة واللعب على تعقيدها . وحتى سنة ١٩٥٢ ، وحتى برغم اشتراك مصر في حرب فلسطين ، فإن الرياح في مصر كانت تسير على هوى اسرائيل . . . . وفجأة تغيرت اتجاهات الريح .

ولا نظن أن القيادة السياسية والعسكرية العليا في اسرائيل (بن غوريون) قد احست بنذر خطر شديد عندما قامت ثورة ١٩٥٢ في مصر ، فلقد بدا أن ما حدث هو انقلاب عسكري يقوده جنرال تقليدي ، وأن هذا الانقلاب سيجر سلسلة انقلابات اخرى ، ثم أنه ليس هناك « بعد عربي » في اتجاهات هذا الانقلاب . معنى ذلك أنه سوف يرتكز على « الوطنية المصرية » في شكل ساذج من اشكالها والبيانات الصادره عن هذا الانقلاب لا تحمل أية اشارة اجتماعية محددة « وبالتالي فان القائمين به سوف

يتم استيعابهم في اطار الطبقة الحاكمة في مصر ، هذا على فرض أن الانقلابات القادمة في مصر على الطريق ابقيت عليهم ولم تطح بهم»(٢٨٢).

في بداية سنة ١٩٥٣ بدأت الامور في مصر تتضح أكثر امام الاطراف الاخرى المهتمة بالمنطقة ، وبما جرى فيها ، والمحتمل في تطوراتها والممكن .

وكانت القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل أكثر الاطراف اهتماما :

- يظهر جمال عبد الناصر ويتأكد أنه القائد الحقيقي للثورة وعقلها وقلبها .

- جمال عبد الناصر يستعمل الولايات المتحدة في الضغط على بريطانيا لاقناعها بالجلاء عن منطقة قناة السويس في مصر .

- جمال عبد الناصر يظهر في حواره مثيراً مع وزير الخارجية الاميركي جون فوستر دالاس الذي زار مصر في أيار (مايو) ١٩٥٣ ، ودالاس يدعو عبد الناصر إلى الدخول في حلف غربي للدفاع عن الشرق الاوسط ، وعبد الناصر يتحدث عن ميثاق دفاع عربي مستقل عن الغرب .

- جمال عبد الناصر يتفاوض لعقد صفقة سلاح مع الولايات المتحدة ، والصفقة تكاد توقع - أو هكذا قيل - لولا مخابرة هاتفية من رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل للرئيس الاميركي الجديد دوايت أيزنهاور .

واسرائيل تحاول أن تعرف كل شيء عن هذا الرجل الواضح في حياة مصر الجديدة (٢٨٣) وكذلك بريطانيا وانعكس اهتمام اسرائيل وبمساعدة بريطانيا على الاهتمام بمصر بأن امر بن غوريون بتنفيد اول عملية تخريب في مصر لكنها لم تنجح لأن قنبلة حارقة انفجرت في جيب عميل اسرائيلي أمام احدى دور السينما في الاسكندرية ، واعترف وسقطت العملية (٢٨٤) .

وقبل نهاية سنة ١٩٥٤ ، توصل عبد الناصر إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية يضمن جلاء قواتها حلال ثمانية عشر شهرا من منطقة قناة السويس ، لكن سنة ١٩٥٥ كانت حافلة بالنذر . فقد شهدت القاهرة في بدايتها اجتماعا عربيا كبيرا على مستوى رؤساء الوزارات للبحث في قضية الاحلاف العسكرية وللاجابة على سؤالين :

١ ـ العرب كجزء من الدفاع الغربي وفي سلسلة الاحلاف التي تستهدف تطويق الاتحاد السوفياتي ؟

٢ ـ أو العرب ولهم نظام دفاعهم المستقل القائم على قدراتهم الذاتية ، والموجه ضد كل خطر يتهددهم ، ويمس أمنهم ؟

وانهار الاجتماع العربي الكبير ، بعد أن رفض رئيس وزراء العراق نوري السعيد حضوره بل أرسل إليه مبعوثه فاضل الجمالي ، ومع ذلك كلف رئيس وزراء لبنان سامي الصلح بالسفر إلى بغداد لاقناع نوري السعيد بالعدول عن الدخول في سياسة الاحلاف بينما أخذ الجمالي يطوف على الدول العربية ، ومنها لبنان لاقناعها بالدخول في الاحلاف الغربية [٢٨٥] وقد انفرد نوري السعيد بتوقيع اتفاق منفرد مع تركيا قام به حلف بغداد ، واخذ يدعو دول الشرق العربي للانضمام إليه سركزاً بذلك على الدول المحيطة باسرائيل وهي سوريا والاردن ولبنان .

وكان تنفيذ حكم الاعدام باثنين من أبطال عملية التخريب في الاسكندرية صدمة لاسرائيل التي ردت على ذلك بأول غارة لها على مدينة غزة في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ أما ردة الفعل في القاهرة فكانت أن طلب عبد الناصر من سفير الولايات المتحدة فيها جوابا على سؤال هو :

ـ إذا لم تبع لي الولايات المتحدة ما احتاج إليه من السلاح للدفاع عن الامن القومي لمصر فسوف أطلب السلاح من الاتحاد السوفياتي .

وكانت الاستعدادات قائمة آنذاك لعقد أول مؤتمر لمجموعة دول عدم الانحياز في باندونغ بأندونيسيا .

ولم يكن هذا المؤتمر مجرد فرصة تمكن فيها عبد الناصر من اعلان موقف مستقل لمصر ، ولا مناسبة ليربط فيها النضال العربي بحركة التحرر الوطني عموما ، وانما فوق ذلك فقد مهد السبيل لاول اتصال بين مصر والصين . سأل رئيس وزراء الصين شوإن لاي : هل سيعطيك السوفيات السلاح ؟ [٢٨٦] . وكان الجواب نعم . وكانت الصفقة التحول .

وكانت ردة فعل اسرائيل الفورية اعداد خطة لاحتلال غزة أو شرم الشيخ ولكن مجلس الوزراء الاسرائيلي رفضها وطلب بالتفكير فيما هو أكبر من ذلك ، لأن مثل هذا

العمل لا قيمه له ولأن الصراع سوف يستمر ولن يتحقق الامن أو يسقط عبد الناصر .

لقد كان نجم عبد الناصر يتصاعد بقوة بعد هذه الخطوة ، وبعد توقيع معاهدة الجلاء ، ومحاولة اغتياله في الاسكندرية من قبل الاخوان المسلمين (٢٨٧) ، وجاءت عملية تأميم قناة السويس وبالتالي حرب السويس تتويجا لزعامته ليس في مصر بل في الوطن العربي كله . فتأميم القناة عام ١٩٥٦ كان ردا على الدول الغربية والولايات المتحدة على رفض تمويل بناء السد العالي لأن عبد الناصر رفض الدخول في أحلاف عسكرية مع هذه الدول ، بل قاد حملة في المنطقة العربية ضدها .

في شهر آذار (مارس) ١٩٥٢ تقدم اتحاد السفن (الاسكاندنيانيين) ، بناء على نصيحة مكتوبة من وزارة الخارجية الاميركية باقتراح يدعو إلى أن تناط ادارة القناة بهيئة الامم المتحدة ، وهذه أول مرة يجري فيها التعرض علنا على المسرح الدولي لما كان يعتبر حتى ذلك الحين من شأن بريطانيا وحدها ، ولم يكن في الغرب ، من الناحية العملية ، سياسة حرة ، فلقد كانت أميركا مطلقة اليد من هذه الناحية . وكان وضع اميركا غير قابل للمناقشة حتى أن فرنسا التي كانت متورطة حينذاك في الهند الصينية وكذلك في شمال افريقيا ضد حركات التحرر العربية ، كانت لذلك تعتبر الشرق عدوا لها ، لأنها كانت ترى فيه مصدراً لجميع متاعبها في المغرب العربي . وإذ قد كانت فرنسا مرتبطة ـ على كل حال ـ بميثاق الاطلسي ، فلم يكن لها إلا الموافقة على هذه السياسة الرامية إلى اخضاع الشرق والقناة وربطهما كليهما بالمصالح الاسرائيلية وحدها والتي لم تكن في الواقع إلا مصالح الحلف الاطلسي .

وعندما قام الضباط الاحرار في مصر بثورة ١٩٥٢ وأطاحوا بالنظام الملكي ، حاولت واشنطن الافادة من هذا التغيير الجديد ، فمنحتهم ثقتها وكان من المصادفات الغريبة التي كشفت ورقة الحسابات الاميركية أن يوم الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٢ هو اليوم الذي اندلعت فيه الثورة المصرية ، وكان في الوقت ذاته هو اليوم الذي عقدت فيه واشنطن مع تل ابيب اتفاقاً عسكرياً !

وظنت واشنطن أن تقديرها اتى ثماره ، فكشفت عن استراتيجية ضخمة تمتد من اثينا إلى طوكيو لتشمل قارة باكملها وبحرين محيطين . هذه الاستراتيجية كانت ذات تطبيق ومرتكزة إلى حلفين : حلف بغداد وحلف جنوب شرقي آسيا . وكان البحر الاحمر وقناة السويس هما صلة الوصل الجغرافية بين هذين القطبين ، وفي الواقع

فان الاتفاقات المصرية ـ البريطانية التي وقعت في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ قد ابعدت عن القناة اخر أثر لبريطانيا ، ثم اخذت مصر بدءاً من يوم ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وبمقتضى نصوص اتفاق بينها وبين أميركا ومقابل عون مالي ـ اخذت تستقبل المبعوثين الخاصين الاميركيين وتضع تحت تصرفهم جميع المعلومات الضرورية لهم .

وهكذا نرى أن الولايات المتحدة قد لعبت بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٦ لعبتها الكبرى وخسارتها ، وكانت خسارتها بكل تحديد مصر وقناة السويس ، فبعد استعداد اقتصادي ونفسي طويل بدأته منذ عام ١٩٥٠ ، تحت مزاعم رفع الخطر الشيوعي ، اقامت الحلف العسكري المسمى بحلف بغداد بتاريخ ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٥٥ بين العراق وتركيا ثم انضمت إليه بريطانيا وباكستان وايران .

وعلى نحو مماثل ، وقع في مانيلا ، في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٤ حلف الدفاع عن جنوب شرق آسيا الذي يضم الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا والباكستان ، وبينما كان حلف بغداد يعتمد على الاسطول السابع . وكان كذلك مثله يعتبر « سلاحا ضد التخريب » وقد وصفه فوستر دالاس وهو احد صانعيه بأنه « حاجز فعال لا غنى عنه في وجه تدفق الشيوعية على جنوب شرق آسيا والشرق الاقصى » وأشار الجنرال نور ستاد إلى ضرورة الرابط المحكم بين الحلف الاطلسي وحلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا ، فتكون بذلك الكرة الارضية عدا البلدان الشيوعية قد أصبحت من الشرق إلى الغرب ، آمنة في ظل « العدالة » الاميركية .

وكان هناك رجلان يوشكان أن ينسفا هذه المجموعة الشاسعة الرائعة والتي كانت مجردة إلى حد يجعلها تتفق مع الواقع السياسي الذي كان ابعد من أن يخضع للمخطط الرئيسي لطريقي الخير والشر والنور والظلام ، هذان الرجلان هما جمال عبد الناصر في المشرق ، وهوشي منه في الشرق الاقصى . وكانت مصادفة غريبة أن يصبح كلٌ منهما رئيس دولة في العام نفسه ، أي في عام ١٩٥٤ .

وفي الواقع فان اتفاقات جنيف التي وقعها منديس فرانس في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥٤ قد اعترفت لهوشي منه على المستوى الدولي بأنه صاحب الاسم في بلاده، كذلك فأن عبد الناصر الذي خلف محمد نجيب في ١٨ نيسان (ابريل) من العام نفسه كرئيس للشعب المصري .

لقد كان هذان الرجلان يمثلان جيلا مناضلا ، وكان ارتقاؤهما السلطة ايذانا باعتلاء مجتمعات العالم الثالث الفقيرة المسرح السياسي الذي كانت بعض التقاليد العتيقة قد جعلته ، حتى ذلك الحين ، وقفا على افراد كانوا هم انفسهم حصيلة لهذه التقاليد .

أن هذه الثورة التي اندلعت في العالم الثالث ، وانتشرت في شمال افريقيا وعلى الاخص في الجزائر عام ١٩٥٤ والتي عبر عنها مؤتمر « الفقراء » ـ أن هذه الثورة قد القت الذعر في نفوس رجال الاستراتيجية في الغرب الذين لم يترددوا في التنديد بها ووصفها بأنها « من تركة لينين » وبأنها « ظل أحمر » على حد تعبير مجلة الانباء العسكرية الصادرة في باريس . فمنذ ذلك التاريخ أبرزت مصر كأنها صنيعة لموسكو ، واعتبرت قناة السويس كأنها أرض ينبغي تحريرها . فمن يكون أجدر من اسرائيل بهذه المهمة التحريرية ، وهي الشريكة العسكرية للغرب كما أنها قائمة في موقع العمل المطلوب ومهيأة له ؟ لقد عمل الادب السياسي الذي نشر بغزارة في هذه الحقبة والذي كان وسيلة للدعاية أكثر مما كان وسيلة للاعلام الصحيح ـ عمل في الواقع على ابراز الموقف في الشرق على هذا النحو .

ولقد انطلقت حرب السويس عام ١٩٥٦ من هذه النقطة ، ويمكن تفسيرها بهذه الاحداث الثلاثة التي تستند إلى كتلتين عسكريتين هما : حلف بغداد وحلف جنوب شرقي آسيا (وكلاهما ذو جذور أطلسية) ، ثم مؤتمر باندونغ الذي كان ردا عليهما . كذلك يمكن تفسيرها بمساعي الدبلوماسية الاميركية التي قد تبدو غريبة للوهلة الاولى ، مع أنها تسير حثيثا في الاتجاه « التقدمي » لهذه الامة الكبيرة الشغوفة بالتجديد . ومع أن الولايات المتحدة كانت تقود المعركة ضد الاتحاد السوفياتي ، فأنها لم تكن تهمها الدول الاستعمارية وكانت من جميع الوجوه تمتاز عنها بعدم التوافق مع الاحداث . ومع أن بريطانيا وفرنسا كانتا حليفتين لها فأنها لم تكن فحسب تتنكر لقضاياهما ولنظرتها بل ، أنها فوق ذلك كانت تعتبر جوارهما مدعاة لخطر مشين . ألم يلفت فوستر دالاس الانتباه ، نتيجة لتقص أجري حول الشرق الأوسط إلى أن « أغلبية شعوب الشرق الأدنى وجنوبي آسيا مفعمة بعدم الثقة حيال الدول الغربية ، وهذا الشعور يشمل أيضاً الولايات المتحدة بسبب ارتباطها مع فرنسا وبريطانيا في حلف الاطلسي » . أما قناة السويس ، فان الولايات المتحدة وهي حريصة على

التحكم فيها ، وقد كانت أبعدت عنها القوات البريطانية عام ١٩٥٤ ، كانت فضلا عن ذلك ، تأمل بعزم وتصميم على أن تتناول شؤونها مع مصر مباشرة ودون اشراك أي طرف آخر معهما . وقد تم لهما ذلك فعلا في حرب ١٩٥٦ . ويمكن تفسير حملة السويس بأنها آخر محاولة للسياسة الفرنسية والبريطانية وهما تلهثان اعياء ، لاستعادة « ممتلكاتهما » بالقوة ، وأتبع ذلك محاولة أميركية لحيازة القناة بالمال . وقد مشت السياستان في طريق مسدود . مع ظنهما أنهما من هذه الطريق ستحققان تطلعاتهما البعيدة ، أما الاندفاع الاميركي ، فإنه وإن يكن مفتقراً إلى الحكمة فقد كان على الاقل يسير نحو آفاق جديدة .

ومع أن جمال عبد الناصر لم يكن عنده ميل لقبول حلف بغداد ، وأنه أبرم مع تشكوسلوفاكيا اتفاقا لمده بالاسلحة (وكان ذلك بمفاجأة مذهلة لسفارات الدول الغربية حتى قامت تحتج على هذا الاقتحام الشيوعي الاول لبلدان الشرق) ، ومع أن هذا الاتفاق قد أتبعه بتاريخ ٢٠ الاول (اكتوبر) ، رغم هذا كله ، فإن الولايات المتحدة ظلت تأمل بتعامل منفرد مع مصر . وقد شهدت هذه السنة تصميم مصر على المقاومة لتمتد إلى خارج مصر (إذ أبرم ميثاق مصري سعودي يمني بتاريخ ٢١ نيسان) (ابريل)، و(إذ قام ميثاق سوري أردني بتاريخ ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) وكان الموقف بين عبد الناصر والاميركيين يتسم بالروغان التام . كل هذا والصحف الكبرى في اوروبا التي أتعبتها متابعة حذاقة المراوغات الدائرة ، لم تفهم قط ما الذي كان منها يتصل بالغرب وما لم يكن منها كذلك ، فقامت بدافع من الاهواء والتدخلات المتناقضة ، تنشر مقالات كانت حقائق دامغة أكثر مما كانت مجرد اعلام . فصحيفة التايمس اللندنية المعروفة برصانتها البالغة نشرت بتاريخ ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ ما يلي : « إن موسكو يمكن أن تجعل من مصر نقطة ارتكاز متينة لسياسة السوفيات الخارجية . وإن العون الذي تقدمه العربية السعودية يضفي على المغامرات المصرية مذاقا فريدا في مرارته ، ذلك أن السعودية تحمل فكرا مختلفا جدا عن الاهداف التي تنادي بها الثورة المصرية . ومن أجل ذلك ، فأنه من المؤكد أن النفوذ الرئيسي الذي سيهيمن على منطقة الشرق الاوسط سيكون ، إلى حين من الزمن ، هو نفوذ محور مصر السعودية ، ومن ورائه مخطط التدخل السوفياتي والمخاوف التي تبعثها في النفوس مشكلة اسرائيل » . إن جعل الملك سعود عميلا سوفياتيا ، لامر غني عن التعليق .

أما وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو فقد تكلم بلغة أخرى ، ذلك أنه اجتمع إلى الزعيم المصري في مطلع شهر آذار (مارس) ١٩٥٦ ، ثم قدم إلى الدوائر الفرنسية الحاكمة تقريرا نوه به ، لا بالأعتدال الذي يتسم به موقف الحكومة المصرية فحسب ، بل كذلك بالموقف الصلب الذي يقفه الرئيس المصري في مناوأة الشيوعية والسوفيات .

وفي شهر حزيران (يونيو) من العام نفسه ، كانت باريس قلقة جدا من التحركات الاميركية فطلبت ايضاحا من واشنطن حول ذلك ، ولكن واشنطن وقفت موقف الكتمان والتحفظ ، مما دعا كريستيان بينو إلى أن يعلن بعد ذلك ، أمام الجمعية الوطنية الفرنسية قائلا : « إن هذا الموقف يبين لكم بمنتهى الوضوح أن فرنسا لم تكن في هذه الحقبة واثقة من دعم دول الغرب لها » . كذلك فقد حرص الوزير الفرنسي على لفت الانتباه إلى أن قرار الولايات المتحدة بعدم تمويل مشروع السد العالي في أسوان قد أتخذ دون مشورة حلفائها وأن هذا القرار كان موجها ضد حكومتي بريطانيا وفرنسا . وعلى هذا فإن الحكومة الفرنسية لم يكن ينقصها وضوح الرؤ ية ، وإنما كانت تنقصها الشجاعة وحرية التصرف ! . . . لقد كانت على قدر واف من الفطنة بحيث تدرك من كان أكثر طموحا إلى السيطرة على منطقة الشرق الاوسط : أروسيا أم أميركا ! . . . . فلنتحدث على وجه التحديد عن موضوع سد أسوان الذي حاولت أميركا من خلاله أن تتحكم بمستقبل قناة السويس وأن تهيمن عليها بطريق غير مباشرة .

لقد وضع بين يدي حكام مصر الجدد في عام ١٩٥٢ مشروعاً لانشاء السد العالي في أسوان ، علما بأن فكرة انشاء هذا السد تعود إلى عام ١٩٢٤ . ولقد أصبح تنفيذ هذا المشروع أمرا ملحا في عام ١٩٥٢ ، لأن ازدياد السكان في مصر (وهو من الاسباب الحقيقية لقيام الثورة) كان الهم الاول للجمهورية الجديدة . فقد بلغ عدد السكان ٢٤ مليونا . وقدرت نفقات انشاء السد بمليار دولار تسدد خلال عشر سنوات . ولما سعت لاقتراض هذا المبلغ من المصرف الدولي ، تلقت جوابا بأن عليها أن تتفاهم قبل ذلك مع لندن وتل أبيب ، وأن تقيم « نظاما برلمانيا » . ورفضت القاهرة هذا التدخل السياسي ، وتوجهت شطر بعض الهيئات المالية الاجنبية الخاصة ، من المانية وفرنسية وانكليزية ، فردتها هذه الهيئات في النهاية إلى المصرف

الدولي فوقف هذا منها الموقف نفسه الذي وقفته هيئة الديون الفرنسية ـ الانكليزية ، إد طالب بأن يكون له حق الاشراف لا على موازنتها الداخلية فحسب ، بل كذلك على ميزان مدفوعاتها الخارجية ! . . . وأنه لواضح من هذا مثلا أن المصرف كان في استطاعته لو تم له ما أراد ، أن يتدخل في توزيع عائدات قناة السويس . ولقد كان هذا ثمنا باهظا رفضته القاهرة وأخذت تقارن بين هذا القرض الذي تلتمسه ، وبين العون الضخم الذي يقدم إلى اسرائيل دون مقابل والذي يتمثل في : مساعدة مباشرة للموازنة الاسرائيلية تتراواح بين ٣٠ و٥٠ مليون دولار كل عام ، ومساعدة فنية تقدر بـ ٢٠ مليون دولار ، واستثمارات لرؤوس الاموال الاميركيّة تبلغ ٢١٤ مليون دولار ، وتبرعات من الطوائف اليهودية الاميركية تزيد سنوياً على ٣ ملايين دولار (وقد بلغت هذه التبرعات مليون دولار خلال الاشهر الستة الاولى من عام ١٩٥٦) ، يضاف إلى ذلك كله التعويضات التي كانت تدفعها سنويا جمهورية ألمانيا الاتحادية إلى اسرائيل والتي بلغ مجموعها ٣٥٠٠ مليون دولار ! [٢٨٨] .

لقد أغضب الرفض المصري البريطانيين على وجه أخص ، فشنوا حملة صحافية عارضوا فيها مصالح مصر بمصالح السودان وهددوا بمنع ناقلات البترول من المرور في قناة السويس . وتدخلت الدبلوماسية الروسية على الفور ، وعرض شبيلوف على القاهرة مساعدة بلاده الحاسمة في هذا الاستثمار . وكان في تقدير واشنطن أن الدبلوماسية السوفياتية تلعبُ هناك لعبة كاذبة ، فاتخذت قرارا فظا لتحرج القاهرة وتسد أمامها كل السبل ، فرفضت منح القروض المطلوبة لانشاء سد أسوان .

وجاء رد عبد الناصر متناسبا مع التدابير الاميركية ، فبينما كانت الولايات المتحدة تبغي التحكم بالقناة عن طريق تمويل سد أسوان ، قرر عبد الناصر تمويل سد أسوان عن طريق القناة ، فوقف في الاسكندرية بتاريخ ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦ أمام حشد من ٢٥٠ ألفا يعلن باسم الأمة : « تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ، ونقل جميع ممتلكاتها وحقوقها وواجباتها إلى الدولة المصرية » ، على أن يعوض مالكو الاسهم وأصحاب الحصص في التأسيس من خزانة مصر . وقد كشف الرئيس المصري في خطابه عن أن القناة قد أعطت خلال عام ١٩٥٥ دخلا للشركة قدره ١٠٠ مليون دولار لم تصب مصر منها سوى ثلاثة ملايين فقط .

قال الرئيس : « سوف ننشىء السد العالي ونسترد حقوقنا المغتصبة ، لقد قررنا

أن نبني السد وفقا لما نراه ، لقد كانت شركة القناة تأخذ كل عام ٣٥ مليونا من الجنيهات ، فلماذا لا تأخذها مصر ! . . » .

لقد كانت أولى نتائج أميركا اذن ، ضربة أصابت المصالح الفرنسية والبريطانية . وقد نشرت مصر مذكرة تعتبر فيها منطقة القناة كلها منطقة عسكرية . وكانت بريطانيا قد سحبت آخر قواتها بتاريخ ١٨ حزيران (يونيو) فأحست بأنها وقعت فريسة خدعة مزدوجة من قبل مصر ومن قبل واشنطن . وكان حماس الشعب المصري قد بلغ ذروته . فلما عاد الرئيس عبد الناصر إلى القاهرة كان في استقباله هناك ٤٠٠ ألف انسان يتفجرون حماسا . وقد توقف الرئيس قليلا أمام تمثال رمسيس الثاني رمز القوة في مصر القديمة .

لقد كانت صدمة عنيفة لباريس ولندن ، وقامت حكومتاهما تحتجان بشدة ، أما في واشنطن فقد كانت الحال على عكس ذلك تماما ، استبشار ورضى ! . . . وقد اقتصر الأمر آنئذ على اعلان أن « الاستحواذ على منشآت الشركة العالمية لقناة السويس ستكون له عواقب بعيدة الأثر ! . . . » . ولم تقدم إلى القاهرة أية مذكرة احتجاج . وخلال المؤتمر الثلاثي الذي عقد في لندن فيما بين ٢٩ تموز (يوليو) و ٢ آب (اغسطس) تملص المندوب الاميركي مورفي من دعوة الحليفين الكبيرين . وفضلا عن هذا فان واشنطن سمحت لسفنها بدفع رسم المرور بالقناة إلى ادارة القناة الجديدة التي كان يرأسها حلمي بهجت بدوي . وكان الموقف في لندن وباريس متشابها ، فقام السير أنطوني ايدن يطالب بتدويل القناة باعتبارها « أعظم ممر دولي في العالم » (وقد عبر القناة في عام ١٩٥٥ ، ١٤٦٦٦ سفينة مجموع حمولتها ١١٥ مليونا من الاطنان ، كما عبرتها ناقلات للنفط حاملة ٧٠ مليون طن من البترول أي ما يساوي نصف ما تحتاج إليه أوروبا منه[٢٨٩] كذلك فقد قام بينو وغي موليه يعرضان على الجمعية الوطنية الفرنسية المطالبة : « بأن يعهد بادارة القناة ، ولمدة غير محددة ، إلى هيئة دولية تعينها الدول الكبرى » وقامت كلتا الدولتين باستدعاء قواتها الاحتياطية ووضع أساطيلها في حالة تأهب . ومضت الصحف المحافظة كـ (الديلي ميل والأورور) تطالب باعادة احتلال القناة ، وكتبت الفيغارو تقول : « إن أبصار الملايين ترقب (الكولونيل) الصغير المتشدق » . ولكن الصحف المعارضة انبرت تساند مصر ، وقام العمال اليساريون يحرضون حزبهم على التصدي « للحملة (الهستيرية) التي تشن على عبد الناصر » .

وكتبت « الاومانيتة» وهي صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي ملاحظة تتسم بكثير من الفطنة تقول : « إنهم لا يريدون أن يغفروا لمصر رفضها الانضام إلى حلف بغداد العسكري العدواني ، الذي ليس هو إلا فرعاً لحلف الاطلسي في الشرق الأوسط » .

وقد نشر الاتحاد السوفياتي في ٩ آب (اغسطس) ايضاحا جوابيا حول الدعوة التي تلقاها من الدول الكبرى الثلاث لعقد مؤتمر في لندن بتاريخ ١٦ آب (اغسطس) ، شدد به على النقط الاربع التالية : **أولا** إن تأميم مصر لقناة السويس لا علاقة له بمسألة حرية الملاحة : **ثانيا**: إن الولايات المتحدة قد تدخلت وتبوأت موقع الصدارة (وهي ليست من الدول الموقعة على اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨) ومع هذا فإنها لا تدعو إلى هذا المؤتمر الدول التي جاءت خلفا للامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية الهنغارية (وهما من الدول الموقعة على الاتفاقية المذكورة) . **ثالثا**: إن عقد المؤتمر خارج نطاق الامم المتحدة أمر غير طبيعي . **رابعا**: لماذا يراد اخضاع قناة السويس وحدها إلى نظام دولي بينها هنالك ممرات مائية أخرى ذات وضع مماثل لا تخضع لمثل هذا النظام ؟ . . .

ثم لم يكن من اجتماع لندن إلا أنه زاد هذه الوقائع وضوحا . فلقد كان واضحا للجميع أن الغرض من وراء ذلك كله انما هو اخراج جزء من الارض المصرية من تحت سيادة مصر . وكانت الدول الآسيوية ومنها الهند ، تزداد شكا وعدم ثقة بالغرب . وكان العالمون ببواطن الامور يلمحون بين السطور تقاربا روسيا اميركيا غامضا ومشبوها حيال التفاهم الفرنسي الانكليزي . وقد كان الدبلوماسيون الفرنسيون والانكليز يتخبطون في خضم من التناقض ومن عدم القدرة على حل هذه الازمة التي كانوا يخشون عواقبها دون أن يدركوا هذه العواقب بوضوح ، فلجأوا أخيرا إلى اقامة رابطة وهمية بتاريخ ٤ تشرين الأول (اكتوبر) **١٩٥٦** بين الدول المنتفعة ذات المصلحة بهذا الموضوع . وأمست فرنسا وبريطانيا رويدا رويدا، تريان أنهما وحدهما في الساحة ، فلقد تملص من الموضوع ايطاليا والباكستان ودول الشمال واسبانيا والمانيا الاتحادية والبرتغال ، والهند طبعا ، وحتى أثيوبيا ، وإلى حد ما إيران . وكان كل شيء يوح بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أصبحتا سيدتي الموقف لأنهما كانتا تعرفان تماما ماذا تريدان : فأولاهما كانت تبغي أن تنفرد وحدها في التحكم بالقناة ، وأما الثانية فكانت تريد أن تحول دون احتكار القناة من قبل أية دولة ، وكانت كلا الدولتين تؤثر بتصرفاتها في اوروبا والشرق الاقصى ، وكانت حجتهما في

ذلك أن مستقبل القناة انما هو مرتبط بهما .

وخلال صيف عام ١٩٥٦ ، كان التاريخ يسجل انحدار شمس الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية نحو الغرب ، ويفرض العزلة على هاتين الدولتين العظميين، ويجعل من المستحيل بقاء التحالف بينهما ، ذلك التحالف الذي كان إلى عهد قريب قوة مهيمنة على العالم ، أما اليوم فقد أصبح ضعفه باديا للعيان . إن باريس ولندن لم تستخلصا العبرة من الحرب ، وظلتا تظنان أن حكم العالم ما يزال في قبضتيهما كما كان في الايام السعيدة الخالية . وهنالك نتيجة أخرى فرضت نفسها ، ذلك أن اميركا انشأت حلف الاطلسي لمصلحتها هي ، فلم يكن ذلك الحلف ليخدم مصالح الشركاء الآخرين إلا بقدر استعدادهم لطاعة اميركا والسير في ركابها . فالتحالف الفرنسي البريطاني كان اذن قد مات في عام ١٩٥٦ لأنه أصبح لا جدوى منه كذلك فقد انهار التعاون الاطلسي الموهوم لأنه تكشف عن امبريالية اميركية تختفي تحته . وعلى هذا فإن جميع المعطيات الاساسية في سياسة الجنرال ديغول بما فيها القطيعة بينه وبين اسرائيل ، كانت تكمن في أزمة السويس . على أنه ينبغي أن يكون هنالك عقل راجح جدا لكي يستطيع تخليصها من تحت ركام الاحداث المتتابعة الذي يبدو وكأنه لا يمكن اختراقه ، بغية تنسيقها في صورة نظرة سياسية ذات قوة خارقة كما يتوفر من ذلك قدر أكبر من الوعي والانبعاث .

لقد كانت عظمة الماضي لا تزال تهيمن على خيال لندن وباريس ، فلم تجدا مخرجا من الورطة الواقعتين فيها إلا بالحرب ، فدفعهما ذلك إلى التحالف ضد المشاعر القومية المتفجرة في بلدان العالم الثالث ، وكذلك ضد الدولتين العظميين صاحبتي القوى العسكرية الهائلة : روسيا والولايات المتحدة . لقد كان ذلك أمرا عجبا ، وكان أعجب منه ذلك المنطق الغريب الذي جعل العاصمتين الكبيرتين تغريان اسرائيل بالسير في ركابهما في الوقت الذي بات واضحا فيه أن العرب أخذوا يتجمعون لاول مرة في تاريخهم حول مصر وقناة السويس . وانعقد في الرياض مؤتمران عسكريان أحدهما بتاريخ ١٥ ايلول (سبتمبر) والثاني بتاريخ ٢٤ ـ ١٩٥٦ ، اشتركت فيهما الدول العربية كلها عدا العراق الذي بقي في صف المعسكر الغربي ، ومع هذا فإن نوري السعيد اضطر لاعلان حالة الطوارىء هناك لأن التمرد الضمني عم الشعب العراقي بأجمعه مأخوذا باهتمامه بما يجري حول القناة . وهكذا فقد أدى استعداد بريطانيا وفرنسا للحرب إلى تعبئة شعبية كانت يوما بعد يوم تزيد السخط اضطراما في بلدان

العالم الثالث الذي باتت قناة السويس في الصميم من حياته . وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين تدرك ذلك ادراكا تاما .

لماذا رضيت اسرائيل ، وهي انعكاس لارادة الولايات المتحدة في الشرق ، أن تنفصل عن سياسة وزارة الخارجية الاميركية ؛ وتربط نفسها بالمغامرة الخطيرة التي قذفت بنفسهما إليها الدولتان الهرمتان في أوروبا ؟ . . . ولماذا أقدمت هاتان الدولتان على جرها إلى هذه المغامرة ؟ . لقد كانت الخسارة المعنوية مؤكدة وأن الدولتين ستفقدان في هذه المغامرة ثقة العالم العربي الذي كان حانقا كل الحنق على الصهيونية . يمكننا الاجابة على ذلك كله بأن الفرنسيين والبريطانيين كانوا حريصين على الارض الاسرائيلية أكثر من حرصهم على اسرائيل ، وذلك لاستخدامها كقاعدة للمخابرات والتموين والهبوط والحشد لقواتهم المسلحة . أما الاسرائيليون فأنهم كانوا غير قادرين على مقاومة الضغط الذي كانت تمارسه عليهم لندن وباريس (وقد كان في الحقيقة ضغطا شديدا) ، كذلك فإنهم كانوا غارقين في حيرة شديدة ، ولعل موقف بعض الاوساط العسكرية الاميركية قد شجعتهم على المضي في هذه الطريق ، وقد أغرتهم أخيرا الانتصارات الموعودة التي ستتيح لهم وضع الرئيس الاميركي أمام الامر الواقع . أما الولايات المتحدة فقد كانت منهمكة تماما بمرحلة الاعداد لانتخابات الرئاسة فكانت بذلك واقعة تحت وطأة الدعاوة التي تمارسها الطائفة اليهودية الاميركية ، وكان خلو كرسي الرئاسة من « رئيس يتصدى للامور فعلا » في هذه الفترة ، يفسح المجال واسعا لمثل هذه التحركات . كذلك كان من الاسباب التي دفعت الاسرائيليين إلى اتخاذ قرارهم رغبتهم بالانفتاح على البحر الاحمر ، أي بأن يكون لهم منفذ من خلال مضيق تيران يكون متنفسا للمرفأ الذي كانوا يقومون منذ عام ١٩٤٩ بإنشائه في ايلات . وقد كان ذلك اعترافا منهم بأنه لم يكن لهم أدنى حق ـ من الناحية القانونية ـ بالمرور من مضيق تيران ، وأن القانون البحري الدولي لم يكن يجيز لهم ذلك ، وأن الحرب وحدها ستخولهم ما لم يخولهم اياه السلم .

وأنه لمن الانصاف أن نقول إن الوزارة الاسرائيلية لم تستسلم للانقياد إلى هذه النهاية إلا بعد تردد شديد . ولم تكن هذه الوزارة قد أبدت أي رد فعل ضد تأميم قناة السويس ، بل أنها من بعض الوجوه قد أقرت هذا التأميم حاذية بذلك حذو واشنطن . وقد قدرت الاذاعة المصرية هذا الموقف تقدير رضى . وكان الفرنسيون والبريطانيون يخشون من أن يكون هنالك اتفاق سري حول هذا الموضوع . ولكن

الموقف الذي وقفه السوفيات في مؤتمر لندن وكانوا فيه جدا مناصرين للعرب ، شجع فرنسا وبريطانيا على وضع يدهما بيد اسرائيل . وكانت الطائفة اليهودية الاميركية شديدة العداء للشيوعية ، فاعتمد عليها من أجل ذلك في شؤون التمويل وغيره . وأغلب الظن أن اسرائيل قد انتهت إلى المضي في هذه السبيل اذعانا لرأي تلك الطائفة على الرغم من معارضة أولئك الذين كانوا يرون ضرورة التفاهم مع العرب . وكان الدور الذي لعبه فريق الاحرار . وقد عللوا نفوس أبناء الطائفة اليهودية الاميركية بالامل في نصيب واف من أرباح القناة وكذلك في مشاركة في الخطة العامة للتنمية الاقتصادية التي ستقام في المنطقة بعد النصر الذي كانت فرنسا وبريطانيا واثقتين منه ، وأن الولايات المتحدة سوف تجد فيه دون شك ما يلبي رغبتها ، فتفسح المجال واسعا لانطلاق رؤوس الاموال الاميركية .

وهكذا فأن اسرائيل كانت مطمئنة إلى النصر . وكانت تقدر أن اتفاق الهدنة الموقع عام ١٩٤٩ أمر لا يعول عليه ، وأنها هذه المرة ستنجح في توقيع اتفاق سلام يحقق آمالها . ولكنها كانت الكارثة ، لقد كانت بالنسبة لباريس ولندن انقضاء لحقبة ، أما بالنسبة لاسرائيل فقد كانت أشد سوءا ذلك أن الغاء اتفاق هدنة عام ١٩٤٩ ، سوف يطلق شرارة حرب دائمة . إن ذلك لن يؤدي أبداً إلى تقرير مصير ايلات وخليج العقبة ، بل إنه سيعقد الامر إلى حد يجعل نشوب حرب عام ١٩٦٧ أمرا لا بد منه ، وسوف نرى أن هذه الحرب لن تكون أكثر قدرة على تسوية الامور . . . . فلما رأت اسرائيل النتائج المذهلة ، سارعت إلى الانسحاب من التحالف الموقت الذي أبرمته مع باريس ولندن بدافع من الانتهازية الخالصة ، وعادت لترتمي ارتماء تاما تحت وصاية الولايات المتحدة . إن هذا الواقع لم يكن مظنة شك لدى أي من رجال السياسة . وعلى هذا فإنه علينا أن نعود إلى عام ١٩٥٦ لنسجل بالضبط بدء القطيعة بين فرنسا واسرائيل . أما مظاهر الصداقة المزعومة التي ظلوا يلوحون بها بعد ذلك ، فلم تكن إلا ظلالا خادعة ! . . . .

لقد كانت حرب السويس بمثابة الخطوة الحاسمة في تطور السياسة السوفياتية في العالم العربي ـ فأتاحت أمام القاهرة وموسكو فرصا لم تكن أي منهما تتوقعها عندما عقدتا اتفاقية الاسلحة الاولى .

وعلى الرغم من تحذيرات السوفيات فقد خطط الانكليز والفرنسيون لهجوم

ثلاثي انكليزي - فرنسي - اسرائيلي على عبد الناصر عرف باسم « عملية الفرسان » مفادها أن تبدأ اسرائيل بمهاجمة مصر فتتبعها محاولات بريطانية وفرنسية تمثيلية للتوسط ترافقها مطالبة الجانبين بالانسحاب من منطقة القناة لتحتلها بعدئذ القوات الفرنسية والانكليزية « المحايدة » . وبناء على التيقن من أن عبد الناصر سيرفض الجلاء عن أرض مصرية ، فقط خطط البريطانيون والفرنسيون للإستيلاء على القناة بالقوة . وعندئذ يعاد فتح ملف ملكية القناة ، والمفروض أن لا يبقى نظام عبد الناصر في الوجود:هزيمة مصر . وكان من المتوقع أن تكون الولايات المتحدة حينذاك منشغلة بالانتخابات الرئاسية لعام ١٩٥٦، بينما يكون الروس منشغلين كلية بقضية هنغاريا . وعلى الرغم من كل التوقعات المعاكسة فقد جاء رد الفعل الاميركي فوريا وقويا . ونظرا للتوتر الاخلاقي المتواصل في السياسة الاميركية الخارجية إلى حد ما ، فقد وجدت الولايات المتحدة نفسها إلى جانب الاتحاد السوفياتي ضد أهم حليفتين لها في منظمة معاهدة شمال الاطلسي (ناتو) . ونتيجة للضغط الشديد من جانب الرئيس ايزنهاور اضطر انطوني ايدن ، رئيس وزراء بريطانيا ، إلى أن يعلن في وقت متأخر انهاء العملية التي لم يخطط لها على الوجه السليم . وتبين كما لو أن السيناريو كله كان من وضع الاتحاد السوفياتي نفسه لفضح الامبريالية الغربية بأبشع مظاهرها . فكانت النتيجة تكريما للاتحاد السوفياتي في العالم العربي ، وتمزق الناتو ، وتحولت العالم عن القمع الوحشي للثورة الهنغارية .

كانت ورطة روسيا في المراحل الاولى من الغزو محفوفة بالمخاطر ، إذ كان عليها أن تختار بين الوقوف جانبا والتفرج مكتوفة اليدين على استثمارتها وكرامتها والجيش الهنغاري المدرب تدريبا روسيا تذوب وتتلاشى وبين الدخول في مجابهة نووية مع دولتين عضوين في الناتو هما فرنسا وبريطانيا ، وكان رد فعل روسيا اقتداء بالمثل القائل إن التعقل هو أهم من الجرأة ، فإذا بها تسحب بهدوء المستشارين العسكريين السوفيات وبعض القطع الثمينة من العتاد الحربي . وأنقذت موسكو من المذلة بظهور الولايات المتحدة السريع وغير المتوقع كحليف . فما أن اتضح أن الاميركيين سيصرون على انسحاب اسرائيل وبريطانيا وفرنسا وجه الاتحاد السوفياتي دون أن يخشى شيئا انذارات شديدة إلى اسرائيل محذرا اياها من أن وجودها بالذات يهدده إقدامها على غزو مصر ، وأطلق الاتحاد السوفياتي أيضا تهديدات غامضة بهجوم سوفياتي بالصواريخ على بريطانيا وفرنسا . وكان هذا « التهويل الصاروخي » مأمون

العواقب بالنظر إلى الموقف الاميركي ، وأصبح الآن في وسع الاتحاد السوفياتي أن يدعي بملء فمه بأن « إنذاراته » لمصر وبريطانيا واسرائيل قد انقذت مصر من براثن الغزاة الامبرياليين . ومع أن هذه المناورة التجريبية الاولى ربما لعبت دورا صغيرا فقط في القرار الانكلو- فرنسي باجهاض الغزوة ، فإنها لم تعد بأي كسب سياسي عظيم القيمة على الاتحاد السوفياتي في العالم العربي ، بل ربما أنه أثار لدى العرب توقعا بأن الاتحاد السوفياتي على استعداد لأن يستخدم القوة نيابة عنهم .

وبعث رئيس الوزراء السوفياتي نيكولاي بولغانين بالاضافة إلى انذاراته لغزاة مصر كتاباً مفتوحاً إلى الرئيس ايزنهاور يقترح عليه فيه تجهيز حملة سوفياتية - أميركية مشتركة ترسل إلى مصر برعاية الامم المتحدة لطرد الغزاة . وهذا لم يكن مرفوضا لدى واشنطن وحسب بل ومفزعا ، فعمد الرئيس ايزنهاور بهدوء إلى استنفار القيادة الجوية الاستراتيجية .

ومع أنه لم تقم علاقة « سبب ونتيجة » ، فقد تحول الاتحاد السوفياتي فورا في تهديداته عن التدخل العسكري المباشر إلى ارسال متطوعين سوفيات لمساعدة الشعب المصري . ولكن في تلك الاونة كانت الهدنة قد أعلنت وزال الخطر المباشر . أما ما بقي ماثلا في أعين العرب فكان الفارق بين عدم موافقة الاميركيين السلبي على الغزو واستعداد السوفيات الذين طبلوا وزمروا له كثيرا لاراقة الدماء الروسية دفاعا عن مصر .

فالغزو البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي الفاشل بدلا من أن يطيح بعبد الناصر وينسف موطىء القدم الروسية في الشرق الاوسط ، أدى إلى زيادة هيبة عبد الناصر وتعزيز نفوذ الاتحاد السوفياتي في العالم العربي [٢٩٠] .

إن الاحداث الرئيسية في أزمة الشرق الاوسط للعام ١٩٥٦ معروفة جيدا . فالكومة الهائلة من الاخطاء التي ارتكبتها الدول الغربية والافتقار إلى التنسيق السياسي بين الولايات المتحدة وحليفتيها الاوروبيتين الكبيرتين ، واخيرا ذلك النوع غير الملائم اطلاقا من التكتيك الميكيافيلي الذي جربته فرنسا وبريطانيا - كل ذلك أدى إلى هزيمة نكراء للغرب ككل خلال مشكلة السويس ، كما أن ردود الفعل تجاوزت الشرق . ثم إن تخلي البريطانيين عن التزاماتهم الامبريالية الذي كان بمثابة تراجع منتظم ، أصبح الآن اندفاعا تهوريا . وضاعت فرص ايجاد تسوية وسط لقضية الجزائر في أعقاب ظهور

نفاق فرنسا وعجزها في أزمة السويس . وهكذا قضي على الجمهورية الفرنسية .

لقد اصيب الشركاء الثلاثة بالفشل التام منذ أن برزت اسرائيل فجأة وقدمت إلى مجلس الامن مذكرة تتهم فيها مصر بخرق أحكام اتفاقية القسطنطينية الموقعة عام ١٨٨٨ (فاسرائيل لم يكن لها وجود حين وقعت هذه الاتفاقية) وتشكو من الحصار الذي ضرب على سفنها (هذا الحصار لا علاقة له بتأميم القناة بل إنه واقع فعلا منذ عام ١٩٤٨) . وقد قلب هذا التحرك مشكلة قناة السويس رأسا على عقب عن الحال التي كان الغرب قد طرحها على أساسها خلال فصل الصيف : فلم يعد الاتهام منصبا فحسب على تأميم القناة ، بل كذلك على سياسة مصر العامة مع الدول المجاورة لها ، لقد دخلت اسرائيل في مناورة قانونية كان طرفا النزاع الوحيدين فيها هما الدولة المصرية وشركة قناة السويس ، وما كان ينبغي أن يكون فيها من طرف آخر سواهما .

كانت فرنسا وبريطانيا قد حشدتا قواتهما في قبرص . وفي ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) عبأت اسرائيل قواتها . وكانت الظروف الدولية مؤاتية جدا . فكانت الدولتان العظميان تبدوان وكأنهما خارج الحلبة . ومع هذا فقد وجه الرئيس ايزنهاور إلى اسرائيل بتاريخ ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) تحذيرا شديدا ، ولكن بعد فوات الاوان ، ففي هذا اليوم نفسه كانت أركان الحرب الاسرائيلية قد دفعت مدرعاتها لاقتحام المواقع المصرية في الكونتيلا ، كما أنزلت مظلييها في ممر متلا على بعد ٤٠ كيلو مترا من السويس ، كل ذلك دون أدنى انذار . وبدأ سلاح الجو الفرنسي يلعب دورا حذرا في المعركة ، ولكنه فعال وخطير جدا .

وفي ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) وجهت حكومتا لندن وباريس إلى الطرفين المتجاربين (وفي الواقع إلى مصر وحدها) ، انذارا نهائيا بوجوب الانسحاب من على ضفتي القناة ليتاح للقوات الفرنسية والبريطانية احتلال بور سعيد والاسماعيلية والسويس . وفي ٣١ من الشهر نفسه هاجمت سفن الحليفتين الحربية وطيرانهما الاراضي المصرية داعمتين بذلك تقدم القوات الاسرائيلية في سيناء . وسقطت جزيرتا تيران والصنافر ، ثم مواقع مدفعية رأس النصراني ، وأخيرا شرم الشيخ بتاريخ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) وبذلك حققت القوات الاسرائيلية أهدافها . وفي هذه الاثناء احتلت القوات الفرنسية والبريطانية بور سعيد . ولكن الفدائيين السوريين نسفوا خط أنابيب شركة نفط العراق ، فقطعوا بذلك تموين البترول عن أوروبا .

وجاء رد الفعل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي سريعا وحادا . ويبدو أن الولايات المتحدة لم تكن تنتظر إلا هذه الفرصة لتظهر تعاطفها مع العالم العربي ولكي تتدخل في شؤون القناة . ودعيت الدول الثلاث رسميا لشرح موقفها أمام مجلس الامن ، فجنحت لندن وباريس إلى الروغان ، أما أبا ايبان ممثل اسرائيل ، فأوضح أن بلاده لا تطمح إلى «احتلال أرض جديدة ، ولكنها تبتغي تدمير القواعد التي تنطلق منها الفرق المسلحة الموضوعة تحت سلطة (الكولونيل) عبد الناصر الخاصة في صحراء سيناء ، فتقوم بأعمال الاغتيال وتنشر الموت والدمار » . وتمسكت اسرائيل بهذه الحجج التي أصبحت قاعدة ثابتة في سياستها : تلجأ إلى الهجوم مدعية أنها تدافع عن نفسها ، وتشكو من العدوان ، وتظهر دائما بمظهر الضحية ، وتغزو الآخرين بحجة أن الآخرين عازمون على غزوها .

وفي أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ، انعقدت الجمعية العامة للامم المتحدة في دورة غير عادية وقررت وقف اطلاق النار بموافقة ٦٤ صوتا ضد ٥ أصوات (هي فرنسا وبريطانيا واسرائيل وزيلاند الجديدة واوستراليا) . ولم يكن ذلك كافيا لوقف العمليات الحربية إلا من جانب مصر فقط . وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) وجه بولغانين إلى لندن وباريس انذاره الشهير . وأخيرا ، في الساعة ٢٤ من يوم ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) بتوقيت غرينتش تلقت القوات البريطانية والفرنسية أمرا بوقف اطلاق النار . ولم يبق لباريس ولندن وتل أبيب إلا مراجعة الموقف الذي كان طامة كبرى عليهم جميعا . أما بالنسبة لواشنطن وموسكو وبكين فكان ذلك فجرا لعهد جديد . وأما بالنسبة للعرب فقد كان نصرا محفوفا بالخطر لأنه وضعهم وجها لوجه أمام الولايات المتحدة التي ، ان كانت تصطدم في هذه المنطقة بوجود الاتحاد السوفياتي ، فأنها تملك فيها من الخبرة ووسائل العمل أكثر كثيرا مما يملك .

وبقي الفرنسيون والبريطانيون والاسرائيليون متشبثين بالارض التي أحتلوها . وقررت الجمعية العامة بتاريخ ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) (بأكثرية ٦٥ صوتا ضد صوت واحد) ، جلاء قواتهم فورا عن المناطق التي احتلوها ، ولكنهم لم يستجيبوا لهذا القرار . وأقدمت الحكومة الاسرائيلية على خطوة طائشة أفقدتها المزايا الباقية في يدها والتي منحتها اياها هدنة عام ١٩٤٩ ، فأعلن بن غوريون في صباح ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) بأن « حدود عام ١٩٤٩ لم يعد لها وجود » ، وأن « الهدنة مع مصر قد

انتهت وانتهت معها الخطوط التي رسمتها ، وأن ليس في هذا الوجود من يستطيع أن يعيدها إلى ما كانت عليه » ! . . . . وامتنع المندوبون الاسرائيليون في لجنة الهدنة المشتركة ، منذ ذلك التاريخ ، عن حضور اجتماعاتها . وهكذا فإن حكومة اسرائيل ، بمبادرتها إلى الغاء شروط الهدنة عمليا وقانونيا دون أن تحظى بالسلم ، تكون قد جعلت حالة الحرب قائمة على نحو متعمد ومقصود . وتكون النتيجة المباشرة لذلك عودة خليج العقبة إلى ظل حالة الحرب . لقد كان المستند الوحيد الذي لا يخلو من قيمة ، الباقي بيد اسرائيل ، لتبرير دعواها في مضيق تران ، هو قرار مجلس الامن الصادر عام ١٩٥١ ، ذلك القرار الذي يدعو إلى رفع القيود المفروضة على اسرائيل ، لأن هذه القيود لا تتفق مع هدنة دائمة . فمنذ يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ لم يعد لهذا القرار أي معنى ، وتكون اسرائيل قد فقدت أي ضمان دولي لممارستها الملاحة في خليج العقبة ثم عادت اسرائيل فكرست حرمانها من هذا الضمان بموقف عناد جديد ، حين قررت الجمعية العامة للامم المتحدة دعوة الطرفين المتحاربين إلى مراعاة أحكام هدنة عام ١٩٤٩ ، فرفضت اسرائيل بصورة جازمة الاستجابة لذلك ، ولم تقبل بأي ثمن أن تعود إلى لجنة الهدنة المشتركة . وهكذا فإن اسرائيل قد فرضت فرضا حالة الحرب في هذه المنطقة ، وما تزال هذه الحالة قائمة حتى اليوم . . . .

وأصبح المرتكز الدبلوماسي هو قرار هيئة الامم المتحدة المؤرخ في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ بانشاء قوة طوارىء تابعة للامم المتحدة ترابط في مصر للحفاظ على الهدوء « خلال انسحاب القوات الاجنبية منها ، وبعد انسحاب هذه القوات » . ولكن باريس ولندن وتل أبيب أصرت على المكابرة واستمرت في عنادها حيال القاهرة التي استمرت ثابتة في موقفها ، لأن الحلفاء الثلاثة ، قاموا بحملة شديدة ضد موسكو خلال المفاوضات ، رامين من وراء ذلك احداث الفرقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، مما حمل السوفيات على تصعيد دعمهم لمصر . وقد أصر غي موليه وأنطوني ايدن وبن غوريون على أن يضفوا على العمل الذي قاموا به طابع مكافحة الشيوعية ، وظهروا بمظهر قادة منقذين لا بمظهر غزاة ذوي مصالح ، وذكروا أنهم عثروا في سيناء على « كميات هائلة من الاسلحة والعتاد السوفياتي » ، وأعلنوا أن تدخلهم قد كشف الغطاء عن « حقيقة الموقف في الشرق الادنى ، وعن الاخطار التي تتربص به والمطامع السوفياتية فيه » وقامت صحفهم كلها تضرب على الوتر نفسه و « تبين » أن السوفيات ما يزالون ، رغم وقف اطلاق النار ، ينزلون الاسلحة والعتاد في الموانىء السورية ،

وتشير إلى لجوء بعض الطائرات المصرية ذات الاصل السوفياتي إلى المطارات السورية والسعودية ناجية بنفسها من أخطار المعارك .

وسوف نرى أن هذا الاسلوب المنظم في مكافحة الشيوعية سوف يستخدم خلال صيف عام ١٩٦٧ ، لأن تلك على ما يبدو هـي الصيغة التي تصلح لكل زمان ومكان .

وفي ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٦ ، غادر الاراضي المصرية آخر جندي من جنود الحلفاء . وقامت الجماهير بتحطيم تمثال فرديناند دي ليسبس في بور سعيد . ولما يئست اسرائيل من استمرار تشبثها في مواقعها انسحبت من شرم الشيخ وغزة في ٤ آذار (مارس) ١٩٥٧ وقد خسرت في هذه الجولة كل شيء . حقا لقد وجهت الدول الغربية الثلاث ، دون غيرها ، بيانا أفلاطونيا إلى غولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل ، أكدت لها فيه أن مضيق تيران وخليج العقبة يعتبران « في رأي هذه الدول الثلاث » مياها دولية ، وبينت الولايات المتحدة أنها « سوف تتمتع بحقها في هذه المياه » . ثم أضافت هذه الدول بأنها متمسكة بهذا الرأي « حتى يثبت عكسه بقرار صادر عن هيئة قضائية دولية » . إن هذا القول لدليل آخر ـ إذا كان ثمة حاجة لدليل ـ على أن الصفة الدولية لمياه تيران كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة .

ولقد كانت هذه الصفة واهية الى حد جعل قوات الامم المتحدة هي التي ترابط في شرم الشيخ بدلاً من القوات المصرية، فكان وجودها هناك هو وحده الذي أسبغ الصفة الدولية على مضيق تيران، أي انه حرمه مؤقتاً من صفته الاقليمية، فأتاح للسفن الاسرائيلية عبوره. وسيكون نتيجة لذلك أن رحيل قوات الامم المتحدة عن هذا الجزء من الارض سيعيد اليه هويته المصرية وسيخضعه من جديد للنظام الذي كان معمولاً به في عام ١٩٥١. فالعالم كله إذن قد قبل في عام ١٩٥٧ بأن تكون مياه تيران خاضعة لسيادة الدولة التي تملك شواطئها، دون غيرها. وقد اعترف القانون الدولي وجميع المعاهدات والاتفاقات بأن وضع إسرائيل في ايلات لم يكن الا نتيجة لاحتلال عسكري لا تقره وثيقة أو نص. وفضلاً عن هذا، فإن اسرائيل طالبت في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٧ بضم بعض القطع البحرية الى قوات الامم المتحدة لضمان حرية الملاحة في تيران، ولكن الامين العام للامم المتحدة رفض ذلك.

وقد تجاهلت إسرائيل هذه الحقائق القانونية الواضحة، وسلكت مسلك من

يعتبر المؤقت هو الدائم وكأن الأمر الواقع له قوة القانون. فعملت على توسيع ايلات وملاحتها في مضيق تيران مما كان من شأنه عملياً سلب مصر سيادتها على شاطيء شرم الشيخ، بينما كانت هنالك استراتيجية جديدة تتسلل بمكر إلى البحر الاحمر تحت حماية الامم المتحدة، وكانت أميركا هي التي توجه هذه الاستراتيجية، وإسرائيل هي التي تنفذها. وكانت هذه الاستراتيجية تعمل في غموض وخفاء، ولكن تطورها وضروراتها أمست أساساً للنزاع الذي نشب في عام ١٩٦٧.

ولهذا فقد بعث رئيس الولايات المتحدة بكتاب إلى تل أبيب بتاريخ ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٥٧ يؤكد لها فيه أنه «هو» يعتبر تيران ممراً دولياً، وأنه في هذا إنما يعبر عن رأي بلاده. وتشبثت إسرائيل بهذه الوثيقة فيما بعد واعتبرتها اعترافاً دولياً بحرية الملاحة في تيران. علماً بأن هذا النص الذي لم يناقض قط، ولم يجر التحقيق منه قط، ولم تصدق عليه أية سلطة دولية، لا يمكن أن يكون له قوة القانون. وكان أدهى خطراً من ذلك كله أن هذه الرسالة كانت تحمل حاشية من فوستر دالاس يعلن فيها أن الولايات المتحدة ستعتبر كل التغيير في واقع الحال كما كان عليه عام ١٩٥٧ في تيران موجباً للحرب. والقاهرة عندما اتخذت قرارها في عام ١٩٦٧ لم يكن لها علم بهذه الحاشية... وليس بعيداً أن يكون الرئيس جونسون نفسه جاهلاً بأمر هذه الحاشية مما يفسر التردد الذي اتسم به الموقف الاميركي في الايام الاولى، ذلك التردد الذي قضى عليه أبا ابيان خلال رحلته السريعة التي قام بها إلى الولايات المتحدة في ٢٧ أيار (مايو) ١٩٦٧ حيث أطلع الرئيس الاميركي على الرسالة والحاشية المسطورة عليها. وقد أدهش الرئيس جونسون أن يرى إلى أي حد ربط الرئيس ايزنهاور بلاده بالشواطىء الاسرائيلية، فلم يرض هو لنفسه أن يكون أقل حرصاً منه على المضي في هذه السياسة!...

على أن ما كان يبدو لاول وهلة وكأنه حدث عارض، لم يفطن له أحد في خضم هذه التسوية الشاقة لازمة السويس والدور الدبلوماسي الواسع الذي لعبته واشنطن في الشرق الاوسط وعلى الاخص حيال القناة. وقد دارت المفاوضات بين شركة القناة وسلطات القاهرة بشأن موضوع التعويضات برئاسة أوجين بلاك مدير المصرف الدولي للتعمير والانشاء الذي اعتبر حكماً في هذا الموضوع، وبلغت هذه المفاوضات الغاية المرجوة منها في نهاية شهر نيسان (مارس) ١٩٥٨. وقد تعهدت مصر بموجب اتفاق

ملحق وقع في روما بأن تدفع إلى الشركة تعويضاً قدره ٢٨٣٠٠٠٠٠ جنيه مقسطة على سبع سنوات تبتدىء في عام ١٩٥٨ وتنتهي في عام ١٩٦٤. وقد سدت القناة بالجسور العائمة والسفن المغرقة فأغلقت منذ تاريخ ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٦، ثم فتحت للملاحة من جديد بتاريخ ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٧، أي بعد سبعة أشهر ونصف الشهر. وقد أسهمت الولايات المتحدة على نطاق واسع في تنظيفها وفتحها. واستؤنفت حركة المرور فيها على نحو طبيعي وفي ظروف ممتازة رغم التكهنات المفعمة بالتشاؤم التي كانت تنشرها الصحف الفرنسية والبريطانية. وقد بلغ عدد الرحلات البحرية التي تمت عبر القناة في سنة ١٩٦٠ وما بعدها ١٨٧٣٤ رحلة بزيادة تبلغ ألف رحلة عما كانت عليه عام ١٩٥٩. ووصل وزن البضائع التي نقلت خلالها الى ١٦٨٩٠٠٠٠٠ طن كانت منها ١١٧ مليون طن بترولا. وقد وضعت في ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٦، بعد الجلاء عن منطقة السويس، خطة لتنظيم وضع القناة نفسها، وكذلك المنشآت القائمة على ضفتيها، وتجديدها على أحدث أساليب العصر. أما بشأن النظام الضابط لشؤون القناة، فإن الحكومة المصرية وجهت الى داغ همرشولد الامين العام للامم المتحدة، بتاريخ ٢٤ نيسان (مارس) ١٩٥٧ الوثيقة التالية القاضية باستئناف العمل بالقواعد المطبقة منذ عام ١٨٨٨ وهي: ضمان حرية الملاحة للجميع «في حدود احكام اتفاقية القطسطنطينية»، وان تعالج النزاعات وفقاً لمبادىء الامم المتحدة، وحين لا تكون هذه المبادىء كافية، يرجع إلى محكمة لاهاي الدولية، ويعهد بادارة شؤون القناة إلى هيئة مصرية، وتدفع رسوم المرور فيها بالاتفاق مع شركات الملاحة والمنتفعين بها وبأسلوب يتسم بالتعاون، وتتناول الدول المصرية ضريبة تعادل خمسة بالمائة من حصيلة هذه الرسوم باسم عائدات مرور[٢٩١].

وقد ضم مجلس الأمن إلى سجلاته هذه الوثيقة التي جاءت مطابقة لاحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الامم المتحدة، كما أقرتها الدول التي ترتفق بحق المرور في القناة، وهي اليوم المرجع الدولي الوحيد لنظام القناة. ان الحكم الاول من أحكام هذا النظام الذي يضمن حرية الملاحة في القناة لا يخرج عن حدود التحفظ الوارد في اتفاقية القسطنطينية، وهو يحرم من أحكامه اسرائيل، التي لم تكن قد وجدت في ذلك الحين، والتي عملت منذ وجودها على إشاعة الاضطراب في كيان منطقة شرقي البحر المتوسط بأجمعها، كما عملت على خلق وضع فلم يرد لذلك فيها أي نص يتعلق بهذا الوضع.

إن الذي يلفت الانتباه في طريقة تسوية هذه الحرب هو أن الاتفاقات التي

وضعت حداً لها كانت بادية النقص، وكانت كلها متفقة على امر واحد هو ابعاد السيطرة الفرنسية والبريطانية أو بالاحرى كل ما كان باقياً منها. وفيما عدا ذلك، فإن الولايات المتحدة التي خرجت منتصرة، كان يطيب لها أن لا تنظم شيئاً، بل تضع نظاماً مؤقتاً يكون كل حكم فيه، سواء منه ما يتعلق بالمنطقة أم بسياستها، أشبه بركيزة أساسية في البناء الذي كانت تحتفظ لنفسها باقامته فيما بعد(٢٩٢).

لقد كان بوسعهم أن يضعوا نظاماً نهائياً للقناة، ولكنهم لم يفعلوا، وكان بامكانهم مثلاً، أن يعينوا حدوداً لاسرائيل، ولكنهم، عن عمد، تركوها بلا حدود. وكان في قدرتهم أن يتفاهموا بشأن العقبة، ولكنهم آثروا ان تبقى ذريعة يتحركون بسببها ، وقس على ذلك . . . فما وقع لم يكن اذن سوى هدنة مؤقتة وتوقف سريع تلتقط من خلاله الانفاس في هذا السباق الجاري نحو الحرب العالمية الثانية التي لن نكون بريطانيا قادرة على أن تلعب فيها دور الكفة المرجحة الذي طالما لعبته في الماضي بفضل القوة البحرية التي كانت تملكها.

بعد حرب السويس، بلغ نفوذ عبد الناصر ومقامه الذروة في العالم العربي، فقد نجح في تحدي الغرب وخلص الامة العربية من بقايا الاستعمار، وزادت مكانته رفعة بتعامله التجاري مع بلدان الكتلة الشرقية، كما انه توسع في القوات المصرية المسلحة، وتعامل على قدم المساواة مع خروتشوف وتيتو وشوإن لاي ونهرو وغيرهم. وبفضل جهوده اصبحت مصر دولة كبرى في إطار الشرق الاوسط، مع بروزه كزعيم من زعماء دول عدم الانحياز، وزعيم لحركة التحرر الوطني في العالم الثالث.

وبفضل صعود نجم عبد الناصر صعد نجم الاتحاد السوفياتي الى أن أصبح الدولة الاقوى نفوذاً في معظم أنحاء الشرق الاوسط، وهكذا بدأ الاتحاد السوفياتي في حملة ليصل بنفوذه السياسي الى الحد الاقصى في المنطقة. وقد أصاب نجاحاً عظيماً في الانتقاص من الدور الذي لعبته أميركا في حرب ١٩٥٦. وبرز بصفته حامي العالم العربي، وعزز ذلك تحركات الاسطول السادس بعد اعلان مبدأ ايزنهاور لمساعدة العاهل الاردني الملك حسين في الاحتفاظ بعرشه، وكذلك بانزال قوات برمائية أميركية في لبنان بعد قيام شبه حركة ثورية كان هدفها تعزيز عروبة لبنان وعزل الرئيس كميل شمعون بعد اصراره على تجديد مدة رئاسته عام ١٩٥٨ ، وكانت ردة الفعل على ذلك

تقوية الموقف السوفياتي الذي وقف ضد هذا التحرك وامامه العالم العربي الذي استنكر ذلك .

وما زاد الاتحاد السوفياتي قوة ونفوذاً، حتى اعتقد خروتشوف أنه في الامكان توظيف اعتماد مصر على الاتحاد السوفياتي عسكرياً واقتصادياً كعامل ضغط فعال في تطور سياسة مصر الداخلية، ففي بداية عام ١٩٥٨ بذلت المحاولات الاولى لاستعمال الضغط على عبد الناصر ليكف عن ملاحقة الشيوعيين المصريين، بعد أن انتهى وفي مرحلة ما بعد اغتياله من ملاحقة الاخوان المسلمين، رغم ان الاهتمام السوفياتي بمصر ليس ايديولوجيا صرفاً بل سياسياً واقتصادياً، ولم يستجب عبد الناصر لهذه الرغبة لانها شأن مصري وبذلك مشت بقية الانظمة العربية الراديكالية التي كانت تعتبر مصر مثالاً لها في التعامل مع دول الكتلة الشرقية، فقد امتدت هذه السياسة الى سوريا عقب اندماجها مع مصر في الجمهورية العربية المتحدة.

وبذلك تبين للسوفيات أن التعامل مع عبد الناصر يعني ترك الشيوعيين المحليين تحت رحمته، وبذلك ظفر الاتحاد السوفياتي في تحقيق تقدم عسكري واقتصادي ملحوظ في مصر، كما ظفر بكسب سياسي عظيم بموافقته على تمويل وبناء السد العالي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٨، والذي قدرت تكاليفه بـ ٣، ١ بليون دولار[٢٩٣]

وهكذا ترسخت عند السوفيات قناعة بالبقاء في الشرق الاوسط ، وربط سياساتهم الطويلة الأمد باستغلال النزاعين المزمنين اللذين يميزان المنطقة ، أولهما النزاع التاريخي فيما بين العرب أنفسهم بين دول مصر وسوريا والعراق المعادية والذي تطور إلى نزاع بين الدول العربية الراديكالية والملكيات التقليدية المحافظة والموالية للغرب ، والنزاع الثاني هو بين العرب واسرائيل ، وقد وحد جميع الدول العربية إلى درجة ما وكان على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلى مصر وسوريا والاردن .

وقد برر الزمن صبر الروس على عبد الناصر عندما مال نحو اليسار وراح يؤمم قطاعات واسعة في الاقتصاد المصري، وثبت أن جاذبية منافسي مصر وسوريا والعراق، كانت مظهراً عابراً، وبرهن عبد الناصر عن انه اكثر الزعماء العرب قدرة على البقاء وانه الوحيد المؤهل لتزعم الامة العربية، ولم يكن انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ليزعج موسكو، بل ربما كان عاملاً في تحول عبد الناصر الى

جهة اليسار، وبقيت مصر ممراً لامدادات الاسلحة السوفياتية الى الحركات الثورية في كل أنحاء أفريقيا. وأظهرت ثورة اليمن الناصرية عام ١٩٦٢، بمعاونة جنود مصريين، ديناميكية عبد الناصر في المنطقة.

الوحدة والإنفصال

المعركة الكبرى

لقد كانت سوريا بقيادتها السياسية والحزبية تشتعل بالحماس القومي بفعل ضغط الشارع الوطني فيها، وكانت القيادات السياسية بمستوى طموحات الشارع الوطني الذي كان يطالب باستمرار بالوحدة العربية فالمشاعر القومية كانت ملتهبة، وفي ذاكرتها أخر محاولات لابراهيم باشا لتوحيد سوريا ومصر أو لتوحيد بلاد بر الشام مع مصر، اضافة الى التراث المعاصر الذي [illegible] حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا وامتدت أفاقه إلى بقية الدول العربية. وعلى يساره حركة القوميين العرب، والتراث الوطني لبعض زعماء سوريا التاريخيين الذين وصلوا الى السلطة على هوامش حزب البعث بالدرجة الاولى.

وكانت الحركة القومية العربية التي زرعت «شتلتها» الاولى في لبنان ممثلة «بالكتاب الاحمر» كما اسمي قد أخذت بالتفاعل بعد ظهور عبد الناصر في مصر، وتبنيه لهذا التيار الذي أصبح جارفاً، وبديلاً عن كل الطروحات الضيقة، ومن هذا المنعطف التاريخي العام سعى السوريون للوحدة مع مصر على أساس تبني فكرة القومية العربية، والوحدة كعماد أساسي لها.

وكانت القومية، سواء أكانت حقيقة أم خيالاً انذاك هي انصهار عاطفي بين الظاهرة العرقية والوطنية. أو بمعنى آخر انها «أحساس» من جانب مجموعة بشرية بالانتماء الى مجتمع أو أمة ورغبتها في «تعزيز قوة هذه الامة او حريتها او رخائها.

والقومية هي «حالة ذهنية» لاناس يرون في قيام الدولة شكلاً مثالياً للتنظيم السياسي وفي العرقيةمصـدراً لكل طاقة حضارية ابداعية وللرخاء الاقتصادي. وقد انتشر هذا المفهوم للقومية في القرن العشرين على نطاق واسع بين «الشعوب المتطلعة» للاستقلال. أما التجديد والتطور السياسي فلا يمكن، كما يقول الزعماء القوميون، ان يتحققا إلا بالثورةوكـان مرتبطاً برؤى افراد من الامة لهم السلطة وبيدهم السياسات الخارجية لتلك الامة. وهذه الرؤى هي من الضخامة بحيث انهم يمارسون السلطة والسياسات كما لو كانت خاصتهم... وبكثافة عاطفية تفوق تعلقهم العاطفي برغائبهم الفردية (الخاصة) في السلطة.

والقومية ليست بالضرورة مسعى ذاتي للوقاية يقوم به مجتمع وأسلوب قديم للعيش ليضمن استمراريته، بل انها مجهود يبذله المجتمع لاصلاح نفسه وليضمن لنفسه مقاماً مشروعاً من المساواة والكرامة في عالم يتغير بسرعة. أما الاستعمـار فإنه يدمر حتماً الثقة بالنفس عند الذين يفرض عليهم. والقوميون هم أولئك الذين يمتلكون الافكار والادوات والشكل والمؤسسات التي امتلكها مؤقتاً الاستعماريون.

والقومية العربية هي القوة الدافعة وراء التحديات التي تواجه الشعوب العربية في الشرق الاوسط المعاصر، وقد كانت الاستجابة الخلاقة للتأثر المزعزع للغرب على العالم العربي. كما انها أوجدت ديناميكية ثورية في المجتمع العربي جاءت لتصر على ضرورة ان يأخذ هذا المجتمع بيده زمام مصيره. وكان الاحتلال العسكري البريطاني والفرنسي لمعظم انحاء العالم العربي في النصف الاول من هذا القرن، عاملاً حاسماً في نشوء القومية العربية وتطورها. وبما أن القومية تعتمد على ولاء الشعب لتراب موطنه وتقاليده وحكومته الاقليمية، فلا بد من أن تعتمد كذلك على طرد أية قوة اجنبية عدوانية. والقومية العربية من هذه الزوايا أوضحت ان اهدافها الرئيسية هي التحرر من السيطرة الاجنبية والوحدة السياسية والتقدم بالجماهير اجتماعياً واقتصادياً.

وفي خضم هذه الظاهرة العاطفية المتعاظمة، برز جمال عبد الناصر وكأنه صلاح الدين العربي الثاني والروح الدافعة وراء هذه اليقظة للوعي العام. ثم أصبح هذا الزعيم المصري هو المتحدث غير المنازع باسم هذه الحركة الجماهيرية التي حازت ولاء الشعوب في جميع ارجاء العالم.

وبما أن نجاح أية حركة جماهيرية يتوقف على عقيدة شعبية فإن الناصرية ، وهي جوهر القومية ، تنادي بمبادىء متنوعة ولكنها مهمة جميعا . والثورة والاشتراكية والحياد هي العوامل التي تكونت منها الآلة السياسية للعالم العربي والتي تطورت في النهاية لتصبح عملية توحيد يدعو اليها القوميون ويتمسكون بها بقوة وعاطفة. والدعوة الى الثورة والتحرير هما ميل طبيعي موجه ضد الامبريالية الغربية ولتأكيد سيادة العرب على مواردهم وتخليص الاستقلال التام من كل تدخل خارجي. والثورة كما يراها الزعماء القوميون هي وليدة تقصير اجتماعي وسياسي وان «حسنتها الوحيدة» هي انها توفر« الوسيلة للتخلص من المؤسسات الهزلية» وتخلق الامل بتحقيق العدالة الاجتماعية. والدعوة الى التحرير موجهة أيضاً ضد الانظمة « الملكية » و«الاستغلالية» في مختلف انحاء الشرق الاوسط والتي كانت توصف بانها رجعية واقطاعية ودمى في أيدي الدول الغربية. ولكن على الرغم من جاذبية الثورة الناصرية الهائلة فإنها كانت تفتقر إلى مجموعة شاملة ومتماسكة من المبادىء كالمجموعات التي خبرتها بلدان أخرى أكثر من مصر (مثل روسيا والصين وكوبا) .

فالايدولوجية الثورية هي مجرد ثورة على الكيان القائم للانظمة السياسية والاجتماعية الموروثة عن العهود الاستعمارية والغاية الرئيسية للثورة هي، على أية حال، «التجديد وليس الديمقراطية». فكان الزعماء الثوريون يهتمون «بالنتائج المادية وليس بالافكار التجريدية». وتبني الحياد أو عدم الانحياز في السياسات الخارجية هو رد فعل مماثل لعالم منقسم متناحر غارق في التنافس الايديولوجي ويحاول احراز مناطق نفوذ حول الكرة الارضية. والحياد في نظر القوميين العرب هو تلبية لحاجات العرب قبل ان يكون معالجة فلسفية لمشكلاتهم. «وعدم الانحياز» هو وسيلة للمحافظة على استقلال العالم العربي واداة تستعمل بفاعلية، واحياناً بلا شفقة ولا رحمة، في سبيل دعم المصالح العربية. ولم يكن الحياد العربي مبدأ قائماً على أساس مجموعة واضحة المعالم من المسالك، ولا على أساس ايديولوجية حقيقية او على قوة عسكرية، ولم يكن يعني مراعاة نوع واحد مشكوك فيه من المسلكية، بل كان معناه مد اليد الى الشرق يوماً وإلى الغرب يوماً آخر.

وقد اوضح صلاح سالم، الذي كان في يوم من الايام الوزير المصري للثقافة والارشاد القومي، المفهوم العربي لعدم الانحياز واسباب اعتماده بقوله «يمكنكم تسمية

سياستنا الجديدة حياداً أو أي شيء آخر يحلو لكم. فقد تكون لبعض الناس فكرة مختلفة عن الحياد، وما نعنيه هو اعتماد موقف معاد ورفض التعاون بأية وسيلة كانت مع اي شخص يتخذ موقفاً ضد كرامتنا وحريتنا، بينما نود ونتعاون مع من يساعدنا ويؤيدنا (نقلاً عن مالك، ١٩٦٨، ص ٢٢٣)».

واستكمالاً لثالوث الموجات الجديدة، نقول إن الاشتراكية هي العقيدة الاقتصادية الجديدة في الفكر القومي والناصري، ويستند هذا المفهوم الاقتصادي، كما هي الحال مع الثورة والحياد، فقط على أسس غامضة لا على اطار تنظيري بحت. وعلى الرغم من ان الاشتراكية العربية سلمت بنواح بسيطة من الماركسية النظرية فإنها كانت عبارة عن سلسلة من البرامج المرتجلة الرافضة للجهود الاقتصادية والسياسية التقليدية. وبالاضافة الى تأميم جزء من القطاع الخاص وتطبيق بعض الاصلاحات الزراعية وحل مختلف الاحزاب السياسية، فإن الاشتراكية قصرت عن تحويل المجتمع كما فعلت في انحاء اخرى من العالم. فجاءت الاشتراكية بمثابة رمز لعمل لا كتفصيل على الافكار الماركسية أو الرأسمالية. وهي ترمز في بعض النواحي الى «العدالة الاجتماعية الاسلامية التقليدية». فقد كانت تكتيكاً لا استراتيجية، أو انظمة متفرقة لا ايديولوجية متماسكة ، أو أسلوباً عملياً وواقعياً لنظام يقوم على أساس الفساد والاجحاف، بل اسلوباً يفتقر الى التوجيهات الاساسية لمواجهة تحديات التطور والنمو، وفي ١٩٦١، طرح الرئيس عبد الناصر، مؤسس الاشتراكية العربية، مفهومه لهذا الاسلوب. فقد رد على سؤال عن رفضه الطراز الغربي من الديمقراطية والنظام الاقتصادي بقوله:

الديمقراطية تعني اساساً إقامة العدالة الاجتماعية والمساواة للطبقة المقهورة ضد الطبقة الظالمة. وتعني الديمقراطية اساساً ان لا يكون الحكم حكراً للاقطاع ورأس المال الاستغلالي. بل يجب ان يكون لخير الامة بكاملها... والديمقراطية لا يحددها دستور أو برلمان، بل توحيد بازالة الاقطاع والاحتكار ورأس المال المسيطر. ولا تكون هناك حرية ولا ديمقراطية بدون مساواة ولا مساواة مع الاقطاع والاستغلال وسيطرة رأس المال.

وهذا الاختلاط في تفسير عبد الناصر وهذا التمييز بين النظام الاقتصادي (أي

الاشتراكية) واسلوب لنظام حكم (اي الديمقراطية) قد يكون مبعث سخرية في البلدان الاكثر تقدماً. غير ان الاشتراكية والديمقراطية اصبحتا في نظر المستعمرات السابقة زواجاً لا انفصام له اثناء السير على طريق التنمية الصعب والمعقد احياناً. وقال زعماء العالم الثالث ان الطراز الغربي من الديمقراطية ليس قادراً على تحطيم ذاته فحسب في المجتماعات التي ما زالت معزولة ضمن اطار حياتها البدائية بل ويشكل خطراً حقيقياً على الآلة العسكرية التي ترفض بشدة فكرة تعدد الاحزاب السياسية. فمفهوم الحزب الواحد هو اساس السيطرة للعسكريين وضمان لاستمرار وجودهم في كرسي السلطة. وقد كان لهذه المزايا الثورة الكبيرة في الستينات تأثير عميق على السياسات في بلدان الشرق الاوسط، كما انها هددت الاستقرار بل ووجود حكومات مختلفة محافظة وموالية للغرب وضاعفت الحزازات المريرة في الحرب العربية الباردة التي لا نهاية لها.

والان ينبغي تقويم تأثير هذه الاصوات التقدمية في المواقف الداخلية والخارجية للدول الرئيسية في الشرق الاوسط. ومع ان سيطرة قادة مصر وسوريا والعراق اقتصرت على الشؤون الحكومية عند بدء عقد الستينات، فقد صادفوا تأييداً شعبياً وترحيباً شديداً بسياساتهم من القرن الافريقي حتى البحر الاسود. وهكذا فإن العالم العربي كان منقسماً إلى ثلاثة انظمة من السلطة: «المعسكر المحافظ» أو «الملكي»، والمعسكر «المحايد» أو «الجمهوري»، والمعسكر التقدمي أو «الاصلاحي». وبين الامور التي تشارك فيها الخطر الذي يتهددها من الانتفاضات القومية المحلية مع المحافظة في الوقت ذاته على روابط وثيقة بالغرب. وشرعية السلطة والابقاء على الصلاحيات يستند الى حد بعيد على الادعاء بان الاسر المالكة في كل من هذه البلدان تنتسب إلى الرسول محمد، مؤسس الديانة الاسلامية. وسكان هذه البلدان يتأثرون بالدوافع الدينية اكثر منهم بالدوافع السياسية ولا يطالبون سوى بالقليل من التغييرات. وتسودهم عادة مظاهر اجتماعية ـ سياسية اقطاعية.

وتؤيد هذا المعسكر بقوة الكتل «المحايدة» في لبنان والسودان وتونس. ومن الجوامع المشتركة التي تؤلف ما بين هذه الدول وجود نوع من المؤسسات الديمقراطية، والوعي الشعبي الضعيف، والانفتاح على الغرب، والكيانات السياسية المتشابهة. ونظراً لتأثرها بالنفوذ الغربي القوي وانكشافها للاماني القومية، فقد مال الحياديون الى

اتباع المحافظين في مسلكيتهم الدولية (اي حلف بغداد، وحرب لبنان الاهلية، والصراع اليمني الخ..).

ولكن اقوى الكتل كانت الدول «التقدمية» وهي مصر وسوريا والجزائر والعراق. وبسبب موقع الاصلاحيين الجغرافي وقوتهم العسكرية وتفوقهم البشري، فقد لاقوا تأييداً شعبياً عظيماً ، كما أن الشعور الوطني كان قوة كامنة .

ومع ان المنافسة بين هؤلاء الزعماء بلغت درجة حادة احياناً، فقد اشتركوا جميعاً في تصور ظاهرة الوحدة العربية تحمس الجماهير العربية لهذه المفاهيم وتمسكها بها ان فتح الباب امام الاضطرابات في جميع انحاء الشرق الاوسط، كما انه تسبب في سلسلة من الانقلابات نجحت في السودان (١٩٥٨، ١٩٦٩) واليمن (١٩٦٢) وليبيا (١٩٦٩) وفشلت في الاردن والمملكة العربية السعودية ولبنان. ومع كل انقلاب زاد الانقسام اتساعاً وحدة واشتدت المنافسة مع كل قمة عربية ولخص مراقب خبير في المنافسات بين العرب الانقسامات العربية بقوله:

الانقسام هو نتيجة ازمة اجتماعية داخلية وثقافية وسياسية ونفسية

ومعنوية في المجتمع العربي. انها ازمة شرعية وسلطة، ازمة مشاركة وتمثيل، ازمة تعريف جماعي بالذات وعدة اشياء اخرى. ويختلط معَ هذا كله طبعاً عامل كبير من الطموح والانتهازية والانخداع والمصالح المتأصلة من جانب الجماعات المتزعمة القديمة والجديدة .

من هذه الاساسات القومية العربية العريقة انطلقت فكرة قيام الوحدة التي لو اكتملت بين مصر وسوريا لتغيرت خارطة العالم العربي، ولكن الولايات المتحدة التي ورثت الاستعمار الغربي القديم كانت تضع في سلم اولويات الاستراتيجية عدم تحقيق مثل هذا الحلم العربي العريق . وهي أصلاً ضد طموحات عبد الناصر في هذا المجال وكذلك ضد التوجه الوحدوي السوري الذي كان بارزاً بشكل واضح على صعيد الحكم، وبين صفوف الجماهير ، فقد كانت سوريا على امتداد تاريخها المعاصر تنتظر فرصة ما لتحقيق الوحدة ، ومنها ومن لبنان انبعثت الاماني القومية العربية وفيها زمنها تحولت تلك الاماني الى معتقدات سياسية قامت على اسس الفكر السياسي

الحديث المتفتح على القوميات الى ان جاءت الحرب العالمية الاولى، وبدلاً من ان تنال الدول العربية استقلالها الكامل وقعت تحت وطأة الاستعمار الغربي الذي قسم العالم العربي في المشرق والمغرب فيما بينه. لكن لما استقلت سوريا وبدأت تثبت استقلالها بدأت في الوقت نفسه العمل على الاعداد للوحدة مع قطر أو اقطار عربية اخرى. وفي سوريا الاستقلال كانت الوحدة هي الهدف الرئيسي، وقد قال الرئيس شكري القوتلي في احدى مواقفه التاريخية «لن يعلو فوق علم سوريا إلاّ علم الوحدة العربية».

وما أن قامت ثورة مصر حتى اتجهت انظار سوريا اليها، وبدأت التحركات السورية الحزبية والرسمية تتجه نحو القاهرة طلباً للوحدة بأي شكل من الاشكال.

وبدلاً من أن يخرج عبد الناصر من حرب السويس منهوكاً او مهدماً. خرج منها اقوى مما كان بل قربت تلك الحرب بين العرب، كما زكت مركز عبد الناصر في المنطقة كلها، لدرجة أن حلف بغداد توقف عند حدود العراق، وبالاصح عند حدود نوري السعيد.

لقد كسر عبد الناصر الطوق الذي ضربه الغربيون حول المنطقة.

ومن ناحيتها حافظت سوريا على دورها القيادي في دفع الحركة القومية العربية، مثبتة انها قلب العروبة النابض، ومحركها الدائم، وميدانها الفسيح. ومن قلب دمشق «الاموية» شقت رايات العرب طريقها الى الصين، والى الاندلس والى عمق الصحراء الافريقية.

لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت لبني العبّاس بغداد

ورأت دمشق في عبد الناصر استجابة لامانيها، وفي العروبة امتداداً لها، وفي سوريا رئيسها شكري القوتلي والشعب السوري والجيش والاحزاب . . عربية وحدودية(٢٩٤). ولم يكن من ريب أن المبادرة الفاعلة للوحدة أتت من سوريا . إلا أن عبد الناصر لم يوافق إلا مقابل ثلاثة شروط :

الأول : اجراء استفتاء شعبي، في كل من سوريا ومصر ليقول الشعبان في البلدين اراءهما فيها.

الثــاني: توقف النشاط الحزبي في سوريا، على غرار ما جرى في مصر وان تحل الاحزاب السورية نفسها.

ثالثاً: توقف تدخل الجيش في السياسة، وانصراف الضبـاط إلى القيام بـواجبهم العسكري، الا من اراد منهم ان يتعاطى السياسة، فيمكنه الاستقالة من الجيش لينصرف إلى السياسة.

وكان هناك اجماع لدى الجانب السوري على القبول بالبند الاول من الشروط، فالاستفتاء واجب وضرورة ليشارك الشعب في تقرير المصير.

وتردد بعض الحزبيين في الموافقة على الشرط الثاني، ولكن كان لا بد منه فمصر تعيش بلا أحزاب ولا يمكن القبول باحزاب في احد شقي دولة الوحدة، ورفضها في الشق الآخر. وبالنتيجة لم يبق ممانعاً للحل سوى الشيوعيين.

ولم يكن الشرط الثالث مفاجأة العسكريين، بل كانوا ينتظرونه، ففي مصر وبعد استقرار الثورة انخرط بعض الضباط في السياسة، وعاد البعض الآخر الى صفوف الجيش، الى ثكناته. وهكذا قبل العسكريون السوريون بذلك الشرط، ولم يكن من قبل بطبيعة الحال.

وفي ٢٢ شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ أعلن قيام (الجمهورية العربية المتحدة) دولة موحدة عاصمتها القاهرة .

وانتشر الخبر في العالم العربي لتقوم المظاهرات في كل مكان مبتهجة بذلك ، وقد زحف عدد كبير من اللبنانيين إلى دمشق ، كما زحفت جماهير المدن والقرى السورية إلى دمشق لتشارك في أفراح الوحدة .

لقد كان عبد الناصر وعدد من مفكري سوريا ، يتوقعون أن تلاقي الجمهورية العربية المتحدة الصعوبات والعراقيل ، على الصعيد الداخلي ، وعلى الصعيدين العربي والخارجي . فالوحدة اثارت حساسيات داخلية وأثارت تخوفات وخلافات عربية وأثارت عداوات خارجية .

لقد كان خائفا من الخطر الاكبر على الوحدة المصرية ـ السورية في ظل

الجمهورية العربية المتحدة التي دخلت يومها شهرها الخامس ، وكانت فرحته كبيرة عندما وصل إلى دمشق أحد ضباط الثورة العراقية اللواء عبد السلام عارف ليخطب هو وعبد الناصر الذي وصل فجأة إلى دمشق أمام حشد من الجماهير السورية واللبنانية من على شرفة قصر الرئاسة معلنين ولادة دولة عربية تقدمية جديدة شعارها الوحدة الاندماجية مع الجمهورية العربية المتحدة . التي كانت التطبيق العملي الاكثر جدية والاطول عمرا للنزعة الاتحادية العربية .

إن هذه الوحدة لم تنشأ صدفة فورا . بل كانت قد سبقتها عدة معاهدات متعاقبة بين الدولتين العربيتين وهي : معاهدة الدفاع عام ١٩٥٥ ، اتفاق الوحدة الثقافية ١٩٥٧ ، الاتفاقات الاقتصادية الثلاثة المعقودة في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٧ و١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ .

وقد خلفت هذه الخطوات أجواء شعبية في البلدين شكلت بحد ذاتها نوعا من الضغط على القيادات السياسية ، واجبرتها على التوجه إلى القاهرة لاعلان الوحدة لا الاتحاد بين الدولتين على غرار ما كانت عليه الحال بين البلدين قبل عقد واحد من الزمن في عهد محمد علي باشا وابنه ابراهيم الذي احتل كل من سوريا وفلسطين ولبنان وبدأ الاعداد لامبراطورية عربية موحدة مستقلة عن الدولة العثمانية (١٨٣١ - ١٨٤١) .

واعلنت الوحدة من قبل رئيسي الدولتين عبد الناصر وشكري القوتلي ، لم تكن عملا فرديا ومرتجلا من قبلهما بل إنهما كانا المعبرين عن ارادة شعبيهما المصممين والمندفعين ، وبالفعل قد سبق للمجلس النيابي السوري الصادر في ٥ تموز (يوليو) ١٩٥٦ أن قرر بالاجماع تأليف لجنة للتفاوض مع مصر حول امكانية انشاء وحدة سياسية . وبتاريخ لاحق في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ عاد المجلسان النيابيان في سوريا ومصر ، فقررا بنفس الوقت تأهيل حكومتيهما للتفاوض بهذا الشأن . ثم جرى استفتاء بعد عشرين يوما من آعلان الوحدة نال شبه الموافقة الاجماعية وصدق عليه من البرلمانين [٢٩٥] .

والواقع كما جاء في دستور الدولة الجديدة - الجمهورية العربية المتحدة - أنها دولة

موحدة ، ولكن الدولة لم تكن كذلك من الناحية الدستورية ، لأن ما جاء في نص الدستور تضمن بعض المواصفات مما هو خاص بالدولة الاتحادية لا المتحدة ، أو الموحدة [٢٩٦] فقد جاء الدستور في موقع وسطي بين النظامين الاتحادي والموحدة . أما الاسباب التي حدت بقيادة البلدين إلى تسمية الدولة الجديدة بالموحدة ، فكانت الرغبة في ارضاء الجماهير العربية المتعطشة للوحدة ، والذي ما كان ليكتفي بالاتحاد . ولما كان القادة يدركون استحالة الانتقال بالبلدين فورا إلى مرحلة الوحدة الشاملة ، فقد ضمنوا الدستور المواد التي توفر انتقالية اتحادية ، وهكذا ظهر في الدستور ازدواجية الدولة التي ساهمت في الانفصال إلى حد ما عام ١٩٦١ .

لقد كان على المجلس النيابي القومي أن يتألف مناصفة بين ممثلين من المجلس السوري والمصري (المادة ١٣) وتتألف الدولة الجمهورية العربية المتحدة من اقليمين مصري وسوري ، لكل منها مجلس تنفيذي (المادة ٥٨) وأن كل التشريعات التي كانت موجودة في كل من الدولتين قبل اعلان الاتحاد ، كانت لتبقى سارية المفعول (المادة ٦٨). وتحتفظ كل من الدولتين (وقد أصبحا اقليمين) بمعاهداتها السابقة مع الدول الاخرى (المادة ٦٩) ويبقى لكل منهما موازناتها الخاصة إلى جانب موازنة الادارة (المادة ٧١) . وقد قيل إن اقتضاب هذا الدستور المؤنث لم يمكن الباحثين من نسبته إلى احد الفصيلتين الدستوريتين ، الدستورية أو الموحدة . والمرجح أننا لسنا تجاه دولة موحدة بل تجاه اتحاد ذي روابط لينة [٢٩٧] .

أن انهيار الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ يعزى إلى حد كبير إلى هذه النصوص والثغرات في الدستور الذي وضع على عجل . وهذا ما يثبت مرة اخرى قواعد علم السياسة التي استخلصها العلماء عبر العصور . فعلم السياسة ، وإن لم يكن علما دقيقا شبيها بالعلوم الطبيعية ، نظرا لوجود العنصر النفساني المتقلب عند البشر وغير القابل للقياس ، إلا أن الخبرات ومراقبة الاحداث السياسية المتراكمة قد اعطت نتائج مشجعة لا سيما في الولايات المتحدة الاميركية[٢٩٨] .

فعلم السياسة هنا يفيدنا بأن أي اتحاد لا يمكن ايجاده بين دول بقيت منفصلة مدة طويلة . فقبل أن تنتقل إلى مرحلة الاتحاد الفيدرالي ، عليها أن تمر اولا بمرحلة كنفدرالية اتحادية [٢٩٩] .

فإن كانت مصر وسوريا مرتا بنوع من الكونفدرالية اللينة المتمثلة بجامعة الدرل العربية ، فلا يمكنهما أن تقفزا فورا إلى درجة الوحدة الكاملة .

لذا فإن انفصال سوريا عن مصر كان له حسنة فتح عيون القادة العرب امام هذه الحقائق الحتمية وقد برهنت عنها ايضا المحادثات التي سبقت الاعلان الاتحادي سنة ١٩٦٣ بين مصر وسوريا والعراق . ففي اول جلسة من هذه المحادثات اعترف الرئيس جمال عبد الناصر بوجود خصائص اقليمية لكل من الشعبين المصري والسوري وأنه من الخطأ تجاهلها . وأن الأمة العربية لا تستطيع تحمل انفصال اخر[٣٠٠] .

أما الوفد السوري لمفاوضات الوحدة عام ١٩٦٣ فقد عزا سبب الانفصال إلى أن الضباط السوريين قد وضعوا في الصف الثاني ، بينما احتل الضباط المصريون المراكز الحساسة ، وأنه حصل شعور عام بأن المصريين لم يكن لهم ثقة كاملة بالسوريين ، وأنهم لم يكونوا يحترمو ن مشاعرهم وورارئهم ، بل يتجسبسون على اعمالهم[٣٠١] .

فرد الرئيس عبد الناصرعلى ذلك بأن مسؤولية الانفصال تقع على السوريين لأنهم هم الذين طالبوا بالوحدة بينما كان هو يميل إلى الاتحاد . وأن العناصر الرأسمالية والاقطاعية في سوريا هي التي عملت على تحطيم الوحدة ليس كرها بها بل بالاشتراكية التي كانوا يخشون والتي طبقت بشدة في مصر ولم تطبق فى سوريا إلا سطحيا [٣٠٢] .

وقد جاءت هذه المجاذثات لتثبت اسباب الانفصال التي كانت القيادة السورية الجماعية قد صرحت بها يوم حصول الانفصال بالذات ، وهي سياسة عبد الناصر التي اجزعت بقية العرب من الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة ، والغاء الحرية العامة ، وفرض تدابير اشتراكية ارتجلت سابقا في مصر ، وهذا ما ادى إلى افقار الشعب والاقتصاد الوطني ، واخيرا ابدال الضباط السوريين المخلصين في الجيش بضباط مصريين [٣٠٣] .

ونتجية لذلك ، تحققت الوحدة ، ولكن حدثت مشاكل اقتصادية ، واجتماعية وسياسية ، وهذه الامور لم تعها الطليعة المثقفة ولا الاحزاب المثقفة ولا المسؤولين عن تحقيق الوحدة . وقد ادى إلى فشلها بعد ثلاث سنوات من قيامها . لقد كانت الوحدة

التي تحققت قادرة على حل مشاكل على المدى الطويل ولكنها في المدى القصير خلقت مشاكل من نفسها .

لقد اتحدت الدولتان دون أن تحقق وحدة النقد ، وكذلك وحدة القوانين ، والوحدة الاقتصادية ، والوحدة الادارية ، والوحدة العسكرية .

لقد بدأ الصراع في الكواليس عندما عين الرئيس عبد الناصر السيد أكرم الحوراني نائبا للرئيس ، وكان الاعتراض أن الحوراني ليس بعثيا اصيلا ، وأن قيادة الحزب المؤسسة هي التي كانت تدفع للوحدة . . . وسنجد كيف أنها هي التي اجهضتها آنذاك. ثم بدأ الصراع حول الوحدة والاشتراكية، فقد كان هناك فريق يقول بأن الوحدة هي اكثر الحاحا من الاشتراكية ، وبمعنى آخر اكثر ضرورة من الاشتراكية . وأن الوحدة قد تحمي الوجود القومي العربي ، المهدد من الخطر الاستعماري الصهيوني ، بينما الاشتراكية قد تحافظ على تقدم هذا الوجود .

وعندما اممت (الشركة الخماسية) في دمشق وهي أكبر شركة احتكارية انتصر لها الفريق الداعي إلى تقديم الوحدة على الاشتراكية ، وبدأ هذا الفريق بعد الانفصال باموال المتضررين من اصحاب الشركة الاثرياء وقد وجد هؤلاء من يساهم معهم في ذلك من الدول الرجعية انذاك وكان قد ظهر في الاستراتيجية الاميركية خلال حرب السويس عام ١٩٥٦ أن الولايات المتحدة لا يمكن على الاطلاق أن تجاري مبدأ القومية العربية والوحدة العربية وقد تنامى العداء الاميركي لعبد الناصر بعد حرب ١٩٥٦ لأنه رفع هذين الشعارين كهدف اساسي لسياسة مصر العربية .

على الصعيد الشعبي ادت الوحدة إلى تدفق المصريين إلى سوريا في وقت كانت فيه هجرة الايدي العاملة من الارياف السورية إلى المدن كثيفة جدا نظرا لجفاف اصاب سوريا عام ١٩٥٧ ، وكانت سوريا بدورها تصدر هذه الايادي العاملة الرخيصة إلى لبنان الذي كان في مرحلة ازدهار وعمران بدأ مع عهد الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٨ . ونظرا لرخص الايدي العاملة المصرية اصيب الاقليم السوري بانتكاسة اقتصادية .

أما التجار السوريون فقد تدفقوا ببضائعهم ، وخاصة المنسوجات الى الاقليم

المصري لينافسوا هناك المنسوجات المصرية ، بالاضافة إلى اغراق السوق بالمواد الكمالية المستوردة عبر سوريا ولبنان ، وشبه المفقودة في مصر انذاك ، وقد فتح التجار السوريون اسواقا لهم في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والاسماعيلية ، ولا يزال بعضها وخاصة في القاهرة حتى الآن . وقد ادى هذا إلى ارباك الاقتصاد المصري بعدما ارتفعت اصوات التجار المصريين الذين كانوا يستوردون بضائعهم من اسواق غزة . ونتيجة لفتح الاسواق السورية امام الضباط المصريين اخذ هؤلاء يزورون دمشق مع عائلاتهم لشراء حاجياتهم من المواد الكمالية ، وقد اثر ذلك كثيرا على مصانع الادوات المنزلية في حلوان ، وكذلك على صناعة (سيارات نصر)، وكما ادى إلى اقفال مصنع سيارات (رمسيس) فيما بعد .

بالاضافة إلى ذلك استغل دعاة الانفصال من العسكريين الاخطاء الصغيرة والكبيرة التي كان يقع فيها الجنود والضباط المصريون ووظفوها داخل الجيش السوري إلى ابعد الحدود .

لقد لعبت العوامل الشخصية والذاتية ادواراً فاعلة في تحديد الموقف المتخذ من دولة الوحدة وقد يكون الموقف المعلن متباينا مع الموقف المطبق .

سارع العراق والاردن إلى اقامة اتحاد فيدرالي هاشمي بين البلدين دعي (الاتحاد العربي) وكان رئيسه الملك فيصل ملك العراق ، وفي حال غيابه يرأسه ملك الاردن .

على أن الدولتين المنضمتين إلى هذا الاتحاد احتفظت كل منها بشخصيتها المستقلة وبنظام الحكم فيها . وجعل مقر حكومة الاتحاد العربي ستة اشهر في بغداد وستة اشهر في عمان .

وبينما كان الحكم في الجمهورية العربية المتحدة موحدا بين (الاقليمين) وله رأس واحد وعاصمة واحدة ، كان الحكم في الاتحاد العربي (فيدرالياً) له ما يمكن اعتباره رأسان ، وله عاصمتان ، وتنحصر السلطة الاتحادية فيه في الأمور الخارجية والدفاعية والمالية والاقتصادية والثقافية .

وبات واضحا أن ولادة (الاتحاد العربي) كان اول ظهور لتكتل عربي ضد الجمهورية العربية المتحدة مؤيد من دول عربية اخرى ضمنا أو سرا .

أما الدول الاجنبيه ، فمنها من كانت لها علاقة سابقة بالمنطقة كبريطانيا وفرنسا، ولم ترحب بقيام الدولة الجديدة الموحدة القوية، ومنها الدولتان الكبريان وكلاهما لم ترحب. فالولايات المتحدة رأت فيها تعارضا مع سياستها في المنطقة وخطرا على اسرائيل، والاتحاد السوفياتي رأى في إيقاف نشاط الحزب الشيوعي في سوريا، كما في مصر بادرة غير مرغوب فيها.

وعلى العكس تماما. كان موقف دول عدم الانحياز التي رحبت بالوحدة لأنها تمثل رغبات شعبها ولأنها جاءت لتعزز سياسة عدم الانحياز التي سارت عليها دوما الدولتان المتحدتان.

كيف كان الوضع في كل من دولتي الوحدة ؟

لدى قيام الوحدة كانت مصر تمارس نظام الحزب الواحد، بعد أن ألغت نظام الأحزاب واستعاضت عنه في البدء بحزب واحد هو (منظمة التحرير). وفي عام ١٩٥٧ تحولت (منظمة التحرير) إلى ما سمي بـ (الاتحاد القومي)، وهي منظمة شعبية عامة قواعدها في القرى والارياف والمدن، وقمتها في القاهرة عبدالناصر ومعه لجنة تنفيذية مؤلفة من كبار اعوانه. هذا من ناحية التنظيم الشعبي.

اما من ناحية التنظيم البرلماني، فكان محصورا بـ (مجلس الأمة) الذي انتخب في تموز (يوليو) ١٩٥٧ وكان مؤلفا من ٣٥٠ عضوا. و(الاتحاد القومي) استهدف كما جاء في المادة الأولى من دستوره، انشاء المجتمع الاشتراكي الديمقراطي التعاوني، المتحرر من اي استغلال سياسي او اجتماعي أو اقتصادي[٣٠٥].

وظل شعار الاتحاد القومي (المجتمع الاشتراكي الديمقراطي القومي) رائدا للعمل السياسي في مصر حتى عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ حينما تكرس النظام الاشتراكي الكامل.

أما في سوريا، وحتى قيام الوحدة فقد كان الوضع مختلفا. كان هنالك نشاط حزبي قومي، وكان هنالك حزب (البعث) وحزب (الشعب) والحزب (الوطني) والحزب (الشيوعي). وكان هنالك الجيش وكان هنالك رأس المال الوطني. هذه القوى ومعها الجيش، كانت مسيطرة على الحكم.

وعلى إثر قيام الوحدة صدر في ٥ آذار (مارس) ١٩٥٨ (الدستور المؤقت) الذي ينص على قيام مجلس الأمة الموحد مؤلف من ٦٠٠ عضو ٤٠٠ منهم من الاقليم الجنوبي (مصر) و٢٠٠ من الاقليم الشمالي (سوريا).

ويكون هؤلاء جميعا من بين اعضاء الاتحاد القومي الذي امتد إلى سوريا.

ونص الدستور ايضا على تأليف حكومة مركزية لكل الجمهورية تكون قاعدتها القاهرة، عاصمة الجمهورية، وعلى تشكيل مجلس تنفيذي في كل من الاقليمين تكون قاعدته للجنوب في القاهرة وللشمال في دمشق.

وتشكلت الوزارة المركزية الأولى في ٦ آذار (مارس) ١٩٥٨ من ٢٠ مصريا و١٤ سوريا. وعين سوريان هما أكرم الحوراني، وصبري العسلي نائبين لرئيس الجمهورية العربية المتحدة.

ولم تجر الأمور بسهولة منذ البدء. وذلك لاسباب دكرنا بعضها: كانت العقليتان مختلفتين، وكذلك كان نظام الحكم في كلا البلدين. في مصر كان رأس المال مصريا أو أجنبياً، بينما كان في سوريا. سورياً وفي سوريا ساهم رأس المال وأكثر أصحاب رأس المال في العمل الوطني الاستقلالي، ولم يكن الحال تماما كذلك في مصر. فالمصري أكثر انضباطا نحو الحكم من السوري. والسوري أكثر انطلاقا في العمل السباسي الحزبي والفردي من المصري.

والفكرة القومية العربية في سوريا اقوى منها بكثير مما هي في مصر. سوريا عرفت عبدالناصر واندفاعه القومي العربي. السوري، كاللبناني متمرد ورافض، وصعب المراس، ولم يكن المصري، بوجه عام كذلك، فالمصري أساسا ينقاد تجاه الحكم[٣٠٦].

وكانت الوحدة (وحدوية) دامجة عملت على توحيد الانظمة في الاقليمين، وذلك ما زاد في صعوبة الممارسة إن لم تكن اتحادا فيدراليا يبقى لكل اقليم أنظمته.

وكان لذلك سبب، فالرئيس عبدالناصر كان يريد توحيد البلدين ومؤسساتها على جميع المستويات. وكان يريد أن لا يكون هنالك فروقات أو خلافات في الأنظمة أو في التعامل بين الاقليمين. وكان يهدف من وراء ذلك إلى إزالة الروح الاقليمية في كل

من الاقليمين. فظهرت خلال ممارسة الوحدة فروقات في وجهات النظر بين بعض الوزراء من الاقليمين. حتى ظهرت فروقات بين الرئيس عبدالناصر وبعض وزراء البعث، وكان البعث قد حل نفسه، وكان البعثيون يأملون أن يروا في نظام الاتحاد القومي الذي طبق أيضا على سوريا بعضا من افكارهم. وبمعنى آخر، كان البعثيون باعتبارهم من صناع الوحدة، يعتقدون أن آراءهم ومبادئهم صالحة للعمل في داخل الاتحاد القومي - أي أن يوجه الاتحاد القومي على اساس ايديولوجية ناصرية - بعثية.

لم تكن الفكرة القومية العربية راسخة في (الاتحاد القومي) في مصر، رسوخها في حزب البعث، وذلك بسبب الفروقات القائمة بين الشعبين المصري والسوري في موقفيهما من الحركة القومية العربية.

وكانت هناك فروقات في النظرة إلى الشؤون الاقتصادية، وفي التأميم، وفي تنفيذ الاصلاح الزراعي. ووقعت خلافات حول نظام الحكم في الاقليم الشمالي استقال على أثرها البعثيون من الحكومتين القومية والاقليمية[٣٠٧].

وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٦١ صدرت القوانين الاشتراكية التي تأثر بها السوريون أكثر من المصريين إذ أن المصريين كانوا قد اعتادوا عليها منذ قيام الثورة. بينما كانت القوانين جديدة وشديدة بالنسبة للسوريين. وأحدثت ضجة في الاوساط الوطنية السورية.

وفي شهر آب (أغسطس) توحد الحكم في الاقليمين تحت وزارة مركزية واحدة تعمل من أجل (الوحدة والاشتراكية). وتقرر أن تجتمع الوزارة المركزية في دمشق من شباط (فبراير) إلى أيار (مايو) من كل عام وفي مصر في سائر الشهور.

وقام النظام الجديد على مركزية شديدة في التخطيط الاقتصادي وعلى لا مركزية على صعيد التنفيذ. حدث ذلك على الصعيد الداخلي في الجمهورية العربية المتحدة، وعلى الصعيد العربي عمل المتضررون من قيام الجمهورية على زرع بذور الشك حولها، والنقمة عليها.

وحصلت اتصالات مع الداخل. أما على الصعيد الأجنبي الخارجي، كانت

الدول العربية منذ البداية، غير راضية عن قيام الوحدة التي انجبت دولة كبيرة في العالم العربي.

وكانت تلك الدول تخشى على مصالحها في العالم العربي من قيام الدولة العربية الكبيرة. وكانت اسرائيل تقرع طبول الحرب مستثيرة الاستعمارين القديم والحديث، ضد الدولة الجديدة.

وتجمعت عوامل سلبية متعددة تعمل ضد الجمهورية العربية المتحدة. عوامل داخلية، وعوامل عربية ـ وعوامل خارجية.

العوامل الداخلية كانت على صعيد البورجوازية الليبرالية التي ساءها التأميم، والاشتراكية. وعوامل داخلية على صعيد رجال الحكم، بدا منها خلاف عميق في دمشق بين نائب رئيس الجمهورية المشير عبد الحكيم عامر وعبد الحميد السراج، مما اضطر الرئيس عبدالناصر الى دعوتهما إلى القاهرة في ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١. وفي القاهرة استقال السراج في ٢٥ أيلول (سبتمبر) وعاد إلى دمشق.

وفي الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ أي بعد يومين من استقالة السراج. قوة من الجيش العربي الأول في الاقليم الشمالي (السوري) من الجمهورية العربية المتحدة تحتل في الفجر دار الاذاعة في دمشق، وتحاصر مقر القيادة، وتذيع بيانات باسم (اللجنة الثورية العربية العليا للقوات المسلحة) تنتقد فيها الوضع.

ولقد تبادر إلى الاذهان أن مدير الانقلاب هو السراج المستقيل من رئاسة الجمهورية، ويبدو أن توقيت الانقلاب في ذلك التاريخ كان يصلح لمثل هذا الافتراض، ولكن السراج لو كان في السلطة آنذاك لما قام الانقلاب ولا وقع الانفصال في ذلك التاريخ على الاقل.

وخطب الرئيس عبدالناصر في الاذاعة وأعلن أن الجيش سيقضي على هذه الحركة. ويقول إنه يرفض حل الجمهورية العربية المتحدة، وأن اعلام القومية العربية ستبقى خفاقة عالية.

وجرت اتصالات بين الانقلابيين والمشير عبدالحكيم عامر الذي كان في دمشق وكذلك مع القاهرة توصل الطرفان خلالها إلى حل يعيد الوضع إلى نصابه. وقد تبادر للأذهان أن الأمور قد انتهت على هذا الحد وعودة كل شيء إلى طبيعته، ولكن الأمور عادت وانتكست بعد الظهر، وفي اليوم التالي حين صدرت الأوامر إلى الاسطول العربي بالتوجه إلى اللاذقية، وأرسلت قوات من المظليين اليها، عاد الرئيس جمال عبدالناصر فاستدعاها وهي على مشارف اللاذقية، ولم يهبط منها سوى ١٢٠ مظليا.

ولقد تبين أن الحركة في دمشق انفصالية، وقد تشكلت حكومة برئاسة الدكتور مأمون الكزبري، وبادر الاردن إلى الاعتراف بالحكومة الجديدة كذلك اعترفت بها تركيا.

وعندما تأكد عبدالناصر من هوية الانفصاليين الجدد أمر الجيش العربي بعدم إكمال مهمته في اللاذقية حتى يتجنب بذلك حربا بين الانفصاليين السوريين وبين الجيش العربي، علما بأن كل المحافظات السورية باستثناء جزء منها في دمشق كانت الى جانب الوحدة والاستمرار في الجمهورية العربية المتحدة، لذلك خطب عبدالناصر وقال: إن سوريا رفضت الوحدة، وإنه توقف عن ارسال القوات الى سوريا لكي لا يقاتل عربي عربيا.

وكان اليوم المشؤوم، وانفصل البلدان وقامت في سوريا الجمهورية العربية السورية، واحتفظت مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة إلى أن عدّل انور السادات الاسم في أوائل السبعينات بعد موت عبدالناصر وجعله جمهورية مصر العربية.

إن السنوات الماضية قد شهدت تحرر بعض الاقطار العربية من السيطرة الاستعمارية (الجزائر ، اليمن الديمقراطية الشعبية) وتعميق الثورة الوطنية الديمقراطية في أقطار أخرى (مصر ، سورية ، العراق ، الجزائر) وسقوط الملكية الموغلة في التخلف في أقطار أخرى (اليمن ، ليبيا) . وها هي بريطانيا تنسحب من آخر مواقعها في الخليج لتولد امارات متعددة « مستقلة » ، تطالب بمقاعد لها في الجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة .

ولنعترف ايضا أن حديث الوحدة خلال السنوات الماضية قد أخذ يخفت شيئا

فشيئا ، وأن النضال من أجلها ضاع وسط زحمة الاحداث المتلاحقة . وأن الخطوة الوحدوية الوحيدة التي تحققت خلال السنوات العشر الماضية كانت السوق العربية المشتركة التي لا تعدو أن تكون خطوة عاجزة لم تحقق بعد أهدافها الاصلاحية [٣٠٨] .

أن معركة الوحدة والانفصال اسقطت الاشكال التقليدية والبدائية للنضال القومي ، ولكنها لم تقدم البديل الثوري ، ولذلك بدا الانحسار مع الانفصال وظل يزداد اتساعا ، حتى طبع حياتنا بطابعه .

لقد كانت وحدة سورية ومصر نتيجة هبة أو فورة شعبية جماهيرية غير عادية . كانت فورة عارمة حتى أن احد أعضاء الوفد البرلماني المصري الذي زار سورية سنة **١٩٥٧** قال : « لم اكن اتخيل المشاهد التي رأيتها بعيني ، ولم أتصور أن شيئا مما رأيت يمكن أن يحدث » [٣٠٩] . حدثت مثل هذه الفورة القومية في المانيا سنة ١٨٤٨ . وكما حدث في المانيا حدث في بلادنا . إذ قدمت الجماهير تاج الوحدة لقائد اختارته . وقبل قائدنا التاج من ايدي الجماهير ورفضه القائد في المانيا [٣١٠] .

ولكن قبول تاج الوحدة كان يستلزم فهم اسرارها . ولم يكن هذا ممكنا في ظل تلك الظروف . فالوحدة ثورة ، ثورة على الامبريالية وسيطرتها ، وثورة ضد الرجعية ومواقعها . وتحمل هذه المسؤولية يعني الاستعداد لخوض معركة حامية الوطيس ضد هذه وتلك ، واعداد القوى اللازمة لهذه المعركة . وما كان ممكنا أن تعد هذه القوى في ظل عقلية كالعقلية التي قادت معركة الوحدة . ولقد كشف الرئيس عبد الناصر هذه الحقيقة مرة حين قال :

« لا بد لنا أن نذكر أننا لم نضرب من الامام ، وأن وحدتنا لم تضرب من الامام ، وامانينا لم تضرب من الامام . لقد كنا نتصور أن الرجعية العربية سوف تتردد قبل أن تضرب القوى الوطنية في ظهرها وتطعنها ، بينما هي متجهة بكل جهودها إلى حرب مع الاستعمار لا هوادة فيها . . . » .

وما كان ممكنا أن تقود مثل هذه العقلية إلى الانتصار في معركة الوحدة . ومع أن الثورة الشعبية استمرت خلال حكم الوحدة ، داخل اطار الجمهورية المتحدة ، وخارجها ، فقد كانت اداة الوحدة عاجزة وقاصرة. إنها انكفأت في الداخل عن

جماهيرها وانكفأت عن الهجوم في الخارج. وهي لم تخلق اداتها القادرة على حمايتها من جهة، وعلى توسيعها من جهة أخرى.

ولقد اثبتت تجارب الوحدات القومية في القرن التاسع عشر أن الوحدة القومية لا تتم إلا من خلال جيش قومي كبير، قادر على الحسم داخليا، وقادر على الصدام خارجيا (الوحدة القومية الالمانية ، الوحدة القومية الايطالية) . ولقد قادت البرجوازية عملية الوحدة في القرن التاسع عشر ، ضد الاقطاع الداخلي والسيطرة الاجنبية . وكانت تدعمهما في ذلك جماهير البرجوازية الصغيرة والفلاحين والعمال . لأن الوحدة كانت تحدث تحويلا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . ولهذا قال ماركس عن بسمارك : إنه يحقق بعض مهمات الطبقة العاملة .

ووحدتنا نحن من هذا النموذج ، من نموذج وحدات القرن العشرين . وهذا يعني أنها صراع دائم وطويل ضد البرجوازية وبطاناتها وضد الامبريالية العالمية . وصراع من هذا النوع لا تستطيع أن تقوده وأن تخوضه إلا الجماهير.

ولأننا لم نفهم هذه الحقيقة جيدا ، ولم نعها جيدا ، ولم نعمل لتجسيدها كان الانحسار : سقطت الاشكال البدائية والتقليدية للنضال القومي ، ولم يظهر البديل الثوري .

ولقد تجلى هذا الانحسار فيما يلي :

اولا : تراجعت الموجة الناصرية ، وهي اوسع حركة قومية حديثة ، امتدت عفويا من اقاصي الوطن إلى اقاصيه ، وضمت طبقات مختلفة وجماهير واسعة ، جمعت المشرق والمغرب ، ووصلت القاهرة بعدن والخرطوم وبيروت والرباط .

ولقد كان للانفصال ، ولهزيمة حزيران (يونيو) أثرهما الكبير في تحطيم موجة الناصرية . وما كان ممكنا أن تعيش الناصرية بعد حرب حزيران (يونيو) إلا بالتحول إلى الهجوم . وهذا ما كانت عاجزة عنه لقصور تصورها ، ولعجز ادواتها وقيادتها .

ثانيا : انحسر مد الاحزاب القومية التقدمية وكان لانحسارها الاسباب التالية :

أ ـ استطاعت الناصرية أن تعزلها جماهيريا ، من خلال محاولات ضربها وعزلها المختلفة . وكانت هذه المحاولات تتم من خلال الاحتواء تارة ومن خلال التخريب

الداخلي طورا ، ومن خلال العزل والمحاصرة في أحيان اخرى . لقد اعتبرت الناصرية أن مهمتها الاولى هي انهاء الحركات القومية .

ب ـ عجزت هذه الحركات عن أن تتحول من حركات قومية وطنية ديمقراطية عموما ، إلى حركات مؤهلة لتحمل مسؤوليات الثورة الوطنية الديمقراطية بمضمونها الجديد ، على اعتبار أنها مقدمة ثورة قومية اشتراكية (ثورة الوحدة والاشتراكية) .

ج ـ اخذت هذه الحركات تتشرذم ، نتيجة قصورها النظري والتنظيمي ونتيجة العقبات التي تقف في سبيلها ، فدبت فيها الانشقاقات ، واصبحت جماعات متعادية ومتضاربة .

هـ ـ تحولت حركة القوميين العرب إلى جماعات قطرية ، يتنافس بعضها مع بعضها ماركسيا ، وتتمثل في حزب العمل العربي الاشتراكي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من جهة ، وفي عدد من الحركات والجبهات من جهة اخرى (الجبهة الشعبية لتحرير الخليج ، منظمة العمل الشيوعي في لبنان الخ) .

و ـ لم تستطع القطاعات التي وصلت إلى الحكم من هذه الحركات أن تتحول إلى الهجوم قوميا . أن تكون قاعدة ملموسة لوحدة ملموسة .

ولهذا كله كان لا بد من أن تنحسر هذه الحركات القومية ، وأن تتقلص جماهيريتها ، وبالتالي فعاليتها قوميا ، وإن كانت ما زالت تحقق بعض مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية قطريا .

ثالثا : اخذ الاستعمار يلبس جلده الجديد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . واخذ الاستعمار القديم يتحول إلى استعمار حديث . وعنى هذا التحول انسحاب القوات الاستعمارية تدريجيا وانشاء دول وكيانات تضمن مصالح الامبريالية . ولقد شهدت الفترة الواقعة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وسنة ١٩٧١ ميلاد عدد من الدول في الوطن العربي . وكان ميلاد هذه الدول « المستقلة » يقود إلى ما يلي :

أ ـ تخفيف حدة المواجهة مع الاستعمار الخارجي وتحويل التناقضات إلى تناقضات داخلية .

ب ـ خلق واقع اقليمي له طقوسه ومراسيمه واجهزته .

جـ ـ اكساب هذا الواقع شرعية قانونية ، عربيا وعالميا ، وأعطاؤه طابعا وطنيا وتحويله إلى شعور نفسي وواقع يومي .

وكان طبيعيا أن يخلق هذا كله واقعا جديدا صعبا ومعقدا ، يعرقل مسيرة الوحدة ، ويزيد من العقبات التي تقف في سبيلها .

وساعد على ذلك أن ظهور النفط في عدد من الاقطار العربية ، وخاصة الصغيرة منها ، الكويت وقطر والبحرين وابو ظبي الخ . . قد خلق « طبقة واسعة » مرفهة نسبيا ، وتخشى على نعمتها من جوع الملايين الفقيرة .

إن هذا الواقع يؤمن حماية للتجزئة ، ويؤمن للاستعمار الحديث استمرار مصالحه دون مواجهات مباشرة مع الحركة القومية العربية . وهذا يعني أن معركة الوحدة العربية قد تحولت إلى « خرب اهلية » .

رابعا : نشأ اليسار الجديد في الوطن العربي بين شراذم الحركات القومية ، وحركة القوميين العرب اليمينيـة المتخلفة اساسا . وكان لهذه النشأة اثرها السلبي في اليسار الجديد . ذلك أن هذا اليسار نحا في محاولته للتهرب من ماضيه القومي ، منحى اقليميا ، وحاول أن يربط اتجاهه ماركسيا باتجاهه قطريا .

وكان أن اصبحت القطرية هي الواقع الملموس ، واصبحت القضية القومية مجموعة من القضايا القطرية المختلفة . وهكذا وازت قطرية التنظيم قومية الطرح المكيف قطريا . وبهذا يكون اليسار الجديد قد ولد مشوها وعاجزا . إنه لم يستطع أن يدرك مضمون تلاحم القضية القومية والاجتماعية في بلادنا كما أنه لم يدرك استحالة خوض معركة قومية بادوات قطرية ، ولا ادرك اهمية المركزية عند خوض النضال من اجل الوحدة والتحرر السياسي والاقتصادي . هذه المركزية التي كانت اساسا من اسس النضال في سبيل الوحدة في القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان دعاة هذا التيار يتصورون أن المركزية ضد الرؤية العيانية للواقع الملموس ، وأن تحليل الواقع الملموس تقتضي تحليلا قطريا .

خامسا : ولقد استقطبت المقاومة الفلسطينية وعي الجماهير العربية ، واستطاعت أن تنتزعها من بين ايدي الحركات القومية . وهكذا تجسمت المعركة القومية في ذهن الجماهير العربية في معركة تحرير فلسطين . ولكن المقاومة الفلسطينية

التي تخطت الحدود القطرية باستقطاب الجماهير ، وبتخطي الحدود وتجاوز مراسيمها لم تستطع أن تحول الاستقطاب العفوي إلى مشاركة قومية منظمة . وكان هذا ناتجا عن قصور المقاومة الفلسطينية في فهم طبيعة المعركة .

لقد كانت المعركة قومية عربية ، وحاولت القيادات أن تحولها إلى معركة قومية بالاسم ، وقطرية بالممارسة . ولكن القيادات المقاومة ليست مسؤولة وحدها ، فقيادات الحركة القومية والوطنية لم تستطع أن تستفيد من موجة الحماسة العارمة لتحولها إلى مشاركة فعالة ، ولقد تفتت الموجة بين عجز هذه القيادات وتلك .

إن القضية الفلسطينية على رأس مهمات الحركة الوطنية العربية وهي متداخلة بقضية الوحدة ومتشابكة معها ، ولا يمكن فصل قضية منها عن الاخرى . وإذا جاز لنا أن نعبر عن هذا التلاحم باختصار قلنا : إن وحدة النضال العربي هي التي تقود إلى الوحدة وإلى تحرير فلسطين أو إلى تحرير فلسطين والوحدة. فإذا لم يتعمق النضال الفلسطيني عربيا ، وإذا لم يمتد النضال العربي فلسطينيا كانت مأساة لفلسطين وللوحدة . وهذه هي المأساة التي نعيشها الان .

إن المشكلة الاساسية لقضية الوحدة في هذه الايام هي أنها ليست مطروحة طرحا علميا ثوريا اولا ، وليس هنالك من يناضل من اجلها عمليا .

ولقد غابت الوحدة عمليا عن الساحة ، ولن تعود إلا بنظريتها الجديدة وادائها .

وإذا كانت المرحلة الماضية قد انتهت ، فـإن المرحلة الجديدة هي مرحلة الحروب الاهلية القومية ، مرحلة الوحدة التي تتحقق من خلال الثورة العربية وجيشها الشعبي العرمرم .

وما زالت هنالك ظروف عديدة تحتم المعركة القومية وتعطيها ابعادها ، ليس الاستعمار الصهيوني في فلسطين إلا واحدا منها (٣١١) . ومن هذه الظروف : التجزئة ، التخلف ، السيطرة الامبريالية ، التهديد الخارجي من الاحتلال الصهيوني .

وإذا كانت قضية الوحدة هي القضية الضائعة اليوم ، فـإنها لا بد من أن تعود القضية الاساسية لنضال كل الثوريين والتقدميين والوطنيين في المرحلة المقبلة ، لأن النضال في سبيل الوحدة هو النضال الحق في سبيل التحرير الحقيقي .

الخاتمة

لقد توقفت عند حدود عام ١٩٥٦ ، ليس لأن مسار التاريخ العربي المعاصر قد توقف هناك ، بل لانهاء مسيرة مائة عام حافلة بالاحداث الجسام ، وهي المرحلة التي اخترتها لموضوع هذا الكتاب ، وقد تكون الفترة المستجدة اكثر اهمية وخصوبة ومعاناة ، ولكن التاريخ لا يكتب في زمنه لأن حقائقه تظل « معتقلة » لفترة طويلة من الزمن .

كانت تجربة الثورة المصرية وتأميم قناة السويس وقيام الوحدة من الحوافز البارزة لانطلاقة ثورة الجزائر ، ولنمو حركة القومية العربية والتحرر الوطني . ليس في المنطقة العربية بل في دول العالم الثالث ، وقد اعطت هذه التجربة اولى ثمارها في العراق عندما قام تنظيم سري للضباط الاحرار قاد ثورته عام ١٩٥٨ ، وكانت اولى تطلعاته الاندماج بالجمهورية العربية المتحدة على أسس تحقيق الوحدة العربية، لكن الصراع الداخلي بين اعضاء التنظيم حال دون ذلك رغم مباحثات عدة جرت في سبيل الاندماج . إلا أن شيئاً مهماً قد تحقق وهو سقوط حلف بغداد ، وانهيار الاتحاد العربي الهاشمي وفشل الهجمة الاميركية على الأردن ولبنان . . . وبالتالي ترسيخ المبادىء القومية العربية .

إن هذه المرحلة من تاريخنا السياسي من اخصب المراحل ، وربما من اخطرها بالنسبة للمستقبل ففيها انتهى عصر الانحطاط الذي عاشته المنطقة على امتداد خمسمائة سنة ، وكان الاستعمار الغربي الذي جاء ليرث الامبراطورية العثمانية ويقسم العالم

العربي إلى دويلات توزعها فيما بينه محارباً توحيده بكل قوته . ولم يكن التفكير بشق قناة السويس وافتتاحها واستثمارها إلا بابا من الأبواب الكبيرة وذريعة لبقاء هذا الاستعمار في المنطقة إلى الابد ، بل لم يكن لاسرائيل اي وجود في هذه المنطقة لولا قناة السويس ، فهي اقيمت من أجل ذلك ليرتبط وجودها بالمنطقة، وبالدور الذي لايمكن إلا أن تعيش به باعتبارها ركناً من اركان سياسة الدولة الكبرى في المنطقة .

لقد عايش العرب الحربين الأولى والثانية ، وكانت بعض الأراضي العربية مسرحاً لهما ، كما كان بعض الحكام العرب رهينة لدسائس الدول الكبرى ومؤامراتها بهدف الانتصار الحربي ولترسيخ الوجود الاستعماري في المنطقة ، وكانت المؤامرة على فلسطين ثمرة لذلك . ووقعت الحرب العربية الاسرائيلية الأولى في فلسطين نفسها ، لكن الحرب الثانية وقعت على ضفاف قناة السويس . وكذلك الحرب الثالثة والرابعة بحجة أن وجود اسرائيل في المنطقة إنما هو لحماية هذا المرفق الحيوي العالمي .

وفي فترة المائة سنة استقلت الدول العربية ونمت المشاعر القومية والتطلعات الوحدوية ، وظهر البترول كثروة وطاقة في بعض البقاع العربية ليشكل ذلك منعطفاً جديداً في النظرة إلى المنطقة والتعامل معها . ولتظهر قوتان جديدتان إلى جانب الاستعمار الغربي ، ولتدور حروب عسكرية وسياسية فوق هذه الأرض المقدسة وعلى جوانبها اثبتت ولا تزال مدى اهمية هذه المنطقة في الاستراتيجية الدولية . وقد تمكن الاستعمار الاميركي الجديد مع بداية خمسينات هذا العصر من القضاء على الامبراطوريات الاستعمارية القديمة واخراجها من المنطقة لتحل هي محلها إلى جانب الاتحاد السوفياتي الذي دخل على الخط في منتصف الخمسينات ، ومن الباب الكبير .

إن المحطات التي توقفت على رصيفها كثيرة جداً منها ما كان نقاط ارتكاز لثورات ومتغيرات قطفنا محصلتها ، ومنها ما كانت نقاطاً سلبية وانتكاسات لا زلنا نكافح لازالتها .

لقد بدأت هذا العمل سنة ١٩٧٩ ، وحالت سنتان من الاجتياح الاسرائيلي للبنان دون اكماله ، وها انا انتهي منه في مطلع العام ١٩٨٥ تاركاً ورائي محطات اخرى كبيرة اعطت الواقع العربي وجها جديداً ومختلفاً كل الاختلاف عن وجهه القديم ، ويكفي القول انه في كل بلد عربي حدثت متغيرات مختلفة وعلى كل الأصعدة ، وولدت اجيال من المثقفين والمتخصصين والعلماء رغم استمرار الهجمة

الاستعمارية ـ الاسرائيلية على المنطقة .

إن عمر الامبراطوريات والدول مثل عمر الانسان الذي يولد ليصل إلى عمر الشباب الذي قد يطول وقد يقصر ولكن الكهولة والموت لا بد منهما . . . لذلك فإن اسرائيل مهما كان تسلحها فائقاً ، فإنها أيضاً لا تستطيع الآن ـ أن تعيش إلا في ظل الولايات المتحدة الاميركية ، لذا فهي كيان مهدد بالانهيار ومهما طال الزمن . فهي مشروع سياسي فرض على المنطقة التي لا يمكن أن تقبل التعايش معه ، وهو غير قابل للعيش اصلاً ، لأن الاصرار على استقلال المجتمع اليهودي في فلسطين مرده إلى أن اصحاب هذه الفكرة رأوا انه ميسر لهم أن يخلطوا في اذهان المجتمعات بين فكرة الأرض المقدسة والمنافع الاستراتيجية . على أن كل اقلية تربطها بهذه المنطقة من قريب أو بعيد روابط قربى ، تستطيع أن تقوم مقام اليهود في ايفاء هذا الغرض .

إن العالم يمضي ويتطور ويتمخض بالعجائب والمعجزات ، ومن المؤكد أن العالم يعرف كم تمخضت هذه المنطقة وكم انجبت من معجزات عبر امبراطورياتها العديدة . ولا بد أن يأتي جيل من الأجيال العربية ليرفع شعار : ها قد عدنا يا هرتزل !

نجيب صالح
١٩٨٥

المراجع

(١) ستيوارت ، ذزموند ـ تاريخ الشرق الأوسط الحديث ـ دار النهار ـ بيروت ص ٢٩ .

(٢) د. شريف محمد بديع ، د. المحاسني ، زكي . د. عبد الكريم ، احمد عزت ـ دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . ص ٢٥ .

(٣) ستيوارت مرجع سابق ص ٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥) مقال صحيفة ناسيونال ، استشهد به عوير في كتاب « الاتفاق الودي الأول » .

(٦) ديستريا بيير ـ من قناة السويس ال العقبة ـ ترجمة يوسف مزاحم دار العربية للطباعة والنشر ـ ١٩٧٤ ـ ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٧) ستيوارت ص ٤١ ـ مرجع سابق .

(٨) ديستريا ص ٣٦ ـ مرجع سابق .

(٩) ستيوارت ص ٤١ ـ مرجع سابق .

(١٠) جريدة « القبس » التي تصدر في الكويت ١٩٨٢/١/٩ .

(١١) مجلة La revu des deux mondes ـ ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٥ .

(١٢) ستيوارت ـ ص ٦٤ ـ مرجع سابق .

(١٣) الشناوي ، عبد العزيز محمد ـ قناة السويس والتيارات التي احاطت بانشائها . الجزء الثاني ص ١ و٢ .

(١٤) ١٧٦٨ - ١٧٧٣ .

(١٥) كان اسمه كارلو دي روستي .

(١٦) كان اسمه حسن بك شبكة .

(١٧) اسمه بلثاز اسار .

(١٨) من رجال الانجليز ، اقام في الشرق الأوسط قرابة عشرين عاماً .

(١٩) كان اخر ممثل قنصلي في مصر واسمه ريتشارد هاريس .

(٢٠) ظل بولدوين يمارس هذا العمل من ١٧٧٥ الى ١٧٧٩ .

(٢١) قناة السويس .

(٢٢) شناوي ، مرجع سابق ص ٥ .

(٢٣) لم يغادر بولدوين مصر الاعلام ١٧٩٨ .

(٢٤) وصل الى مصر عام ١٨٣٣ وفد فرنسي كبير من جماعة السان سيمونيان .

(٢٥) هذه المؤتمرات هي اربعة .

(٢٦) انظر المادة الثانية .

(٢٧) اهدى نابليون الثالث الوشاح الاكبر الى سعيد باشا .

(٢٨) كانت اوروبا تميز بين الشرق الادنى والشرق الأوسط .

(٢٩) حصة ٩٦٠٠٠ سهم .

(٣٠) راجع ، شريف ، د. محمد بديع ، المحاسني ، د. زكي ، عبد الكريم ، د. احمد زكي دراسات في النهضة العربية الحديثة ص ٢١ . مكتبة الانجلو المصرية .

(٣١) ستيوارت ص ٣١ مرجع سابق .

(٣٢) منشور وزع مع « مجلة العربي » الصادرد في الكويت تحت عنوان تاريخ العالم العربي خلال ١٤ قرناً ـ اول كانون الثاني ١٩٨٢ .

(٣٣) لاندو ، روم ـ الإسلام والعرب ، ترجمة منير بعلبكي ـ ص ١٠٦ ـ دار العلم للملايين .

(٣٤) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣٥) الموسوعة العربية الميسرة ـ ص ١٢٧٧ ـ دار شعب المصرية ومؤسسة فرانكلين .

(٣٦) راجع ، بطريق ، د. عبد الحميد ـ الأمة العربية ص ٧٨ كتب « اخترنا لك » .

(٣٧) منشور مجلة العربي ـ مرجع سابق .

(٣٨) راجع دراسات في النهضة العربية الحديثة ـ مرجع سابق .

(٣٩) راجع دي لورانزو فرنسيسكو ـ ذكرى وضع المستعمرة الحالي في مصر ـ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٦ .

(٤٠) راجع البطريق ـ مرجع سابق ص ١٤٨ .

(٤١) ستيوارت ص ١٣٩ ـ مرجع سابق .

(٤٢) راجع طعمة ، علي ـ المغرب تاريخه ، حضارته ، حقيقته ص ٢١ .

(٤٣) ضابط بحري اميركي ١٧٧٩ ـ ١٨٢٠ .

(٤٤) ستيوارت ص ١٤٠ مرجع سابق .

(٤٥) راجع ، لاندو ، مرجع سابق ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٤٦) المصدر السابق ص ١٦٠ .

(٤٧) راجع امين ، سمير ـ المغرب العربي الحديث ـ ص ١٢٠ دار الحداثة .

(٤٨) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٤٩) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٥٠) البطريق مرجع سابق ص ٧١ .

(٥١) ابو عزالدين ، د. حليم ـ تلك الأيام ـ مذكرات ـ دار الافاق ص ١٣٦٤ ـ ١٣٦٨ .

(٥١) البطريق مرجع سابق ص ٧٣ .

(٥٣) ابو عز الدين ، مرجع سابق ص ١٣٦٥ .

(٥٤) الحوالي الاكوع ، محمد بن علي ـ اليمن الخضراء ص ٢١١ .

(٥٥) المصدر السابق ٣٠٧ .

(٥٦) راجع ، شريف ، د. محمد بديع ، مرجع سابق ص ٩٤ .

(٥٧) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٥٨) النص من المصدر السابق ص ١٠٦ .

(٥٩) ستيوارت مرجع سابق ص ١٨٤ .

(٦٠) المصدر السابق ص ١٨٦ .

(٦١) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٦٢) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٦٣) بطرس ، انطوان ـ مجلة « الباحث » ص ٢٨ .

(٦٤) Z.Y hershlog, introduction to the modern economic history of the m.E.E 1 Brill geiden-1964 P.722-121.

(٦٥) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٦٦) المرجع السابق ص ١٠٧ و١٢٣ .

(٦٧) Moustapha sabry: L'emprire efuptiem sous mouhamed ali et la question d'ouient 1811-1849. Paris 1930 P 84 A.E. Grouchley economic development O.P.cit. P 45.

(٦٩) البطريق ، مرجع سابق ص ٥٦ .

(٧٠) وثيقة رقم ٣٩٩ محفظة ٢٦١ ـ من البكباشي صادق ابراهيم يكن ـ من محفوظات القصر الجمهوري المصري .

(٧١) ايميريت ، مارسيل ـ الأزمة السورية والتوسع الاقتصادي الفرنسي ـ تعريب خليل ابو رجيلي .

(٧٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٧٣) البطريق مرجع سابق ص ٦٩ .

(٧٤) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٧٥) مقال منشور في المجلة التاريخية الفرنسية ـ السنة ١٩٧٦ ـ المجلد ١٠٧ . عدد كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٥٢ .

(٧٦) المصدر السابق .

(٧٧) لاحظ دور المترجمين في عهد المتصرفين .

(٧٨) شريف ، د. محمد بديع ، مرجع سابق ص ٣٣٩ .

(٧٩) راجع وثائق الحكومة العامة في الجزائر ، رسائل الوزير الى الحاكم العام . باريس ٢٦ آذار (مارس ٢٤٢ (٣) .

(٨٠) الوثائق الوطنية F ٨٠ ـ ١٦٩٨ .

(٨١) راجع التقارير السياسية لآذار ونيسان وايار وحزيران ـ ١٨٦٠ .

(٨٢) الأزمة السورية والتوسع الاقتصادي الفرنسي ـ ١٨٦٠ ـ المجلة التاريخية الفرنسية سنة ١٩٧٦ ـ المجلد ١٠٧ .

(٨٣) قصيدة شعبية محفوظة في المكتبة الشعبية .

(٨٤) راجع ، من مرتمري الى قادة الوحدات ، ١٦ حزيران ١٨٦٠ . كان الأمير عبد القادر لا يهمل اي وسيلة تساعده على النفوذ . اعتنق الماسونية ارضاء لبعض اليهود الشرقيين والامبراطور نابليون الثالث ، واصبح سنة ١٨٨٠ سانوسيا (المصدر السابق H ٢١ (١٥٥) الجزائر .

(٨٥) تقرير اورده ماتجري في E ٢٤١ (٣) .

(٨٦) راجع تقرير ماتجري وبيكومال نبذة عن البلدية المشتركة في عين باسم ـ ٢١ ١٧ .

(٨٧) دمشق ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٦٠ .

(٨٨) عندما ارد الاتراك تجريد عبد القادر من السلاح اعترض اوتري ، وذكر بأن هذه الاسلحة اشترتها فرنسا . راجع (وو) دمشق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(٨٩) قال عبد القادر للراهبة لوشي التي انقذها من المذابح : حان لنا الوقت لنرد الجميل الى فرنسا لأننا نأكل خبزها ـ راجع جريدة اما نيسبانوردي كابري ١٢ آب ١٨٦٠ .

(٩٠) راجع دوتري . ج ـ شق قناة السويس ـ باريس ١٩٤٧ .

(٩١) اشتكى القنصل العام الفرنسي الجديد دي بوفال من هذا الموقف في ٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٧١ . راجع (و.و) مصر ص ٢١ .

(٩٢) راجع ادوارد ، ريتشارد ـ سوريا ١٨٤٠ الى ١٨٦٢ ـ باريس سنة ١٨٦٢ ص ١٧١ .

(٩٣) جورنال دي لافون وجريدة جورنال دي وابا ـ ١٤ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(٩٤) راجع باريس ، وانتو ، ١٨٦٠ ، ١٦ صفحة ص ١٣ ـ ١٤ .

(٩٥) راجع الملفات التاريخية في وزارة الحربية ، سجل مراسلات الوزير ، سوريا ، رقم ٣ .

(٩٦) المصدر السابق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(٩٧) الملفات التاريخية في وزارة الحربية ، مرجع سابق ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٠ .

(٩٨) المصدر السابق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(٩٩) يتكلمـون كثيراً عن استعمـال عبد القـدر . راجـع لابـروغـرادي ليـون ٢١ و٢٤ تمـوز ١٨٦٠ .

(١٠٠) الملفات التاريخيـة في وزارة الخارجيـة . مرجـع سابق ، من بـدفور الى اوتـري ، ومن بدفور الى الوزير ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ـ ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) .

(١٠١) هذا رأي جريدة (مورننغ ستار) تموز (يوليو) ٨٦٠

(١٠٢) حسب رأي جريدتي « لوبينبون ناسيونال ولا بردغراي ليون » . في ٣٠ تموز (يوليـو) ١٨٦٠ .

(١٠٣) فهمت القبـائل عبـد القادر عـلى غـير حقيقـة ، وقيـل : ان المكـافـآت التي اسبغتهـا الحكومات الأوروبية عليه كبيرة وكأنه اعتقد المسيحية EE ٣٧ ـ المرجع السابق .

(١٠٤) من يوفو الى وزير الحربية ـ بيروت ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(١٠٥) من اوتري الى وزير الخارجية ـ دمشق ٢٨ حزيران (يونيو) ١٨٦١ .

(١٠٦) راجع الملفات التاريخية في وزارة الحربية ـ مرجع سابق ٢٤ آذار (مارس) ١٨٦١ .

(١٠٧) المصدر السابق ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٠ .

(١٠٨) جريدة « برد غرادي ليون » ـ ١٢ آب (اغسطس) ١٨٦٠ .

(١٠٩) كتب الخديوي سعيد إلى بانا ريتي في اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦١ .

(١١٠) برقية إلى الجنرال ديكرو .

(١١١) برقية من الوّزير إلى الخديوي باريس ١٢ شباط ١٨٦١ (و.و) مصر .

(١١٢) مجلة « ريفي دي دوموندإج آذار (مارس) ، حزيران (يونيو) ١٩٥٠ .

(١١٣) جريدة « لامي دي لاريلجيون » عدد ١٨ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١١٤) المصدر السبق عدد ٢٧ تموز (يوليو) .

(١١٥) جريدة « الايتون » عدد ٩ آب اغسطس ١٨٦٠ .

(١١٦) نقلتها جريدة « لوبروغادي ليون » . عدد ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) .

(١١٧) ٣٠ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١١٨) جريدة « لامي دي لاربلجيون » عدد ١٢ آب (اغسطس) ١٨٦٠

(١١٩) المصدر السابق عدد ٢٢ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١٢٠) المصدر السابق عدد ٢٢ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١٢١) جريدة « لي لوريه دي ليون » ٢١ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١٢٢) المصدر السابق ١٧ آب (اغسطس) ١٨٦٠ .

(١٢٣) المصدر السابق ١٦ آب (اغسطس) ١٨٦٠ .

(١٢٤) المصدر السابق ١٤ آب (اغسطس) ١٨٦٠

(١٢٥) المصدر السابق ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٠ .

(١٢٦) راجع مخطوطات مكتبة الارسينال رقم ٧٦٨٦ - ٧٦٨٧ .

(١٢٧) المصدر السابق ١٨٦٠ .

(١٢٨) راجع تاريخ الحركة الاجتماعية في ليون في عهد الامبراطورية الثانية - اطروحة في الاداب باريس ١٩٣٠

(١٢٩) شهادة ارلس دي فور امام المجلس الاعلى للتجارة نشرتها جريدة « مورلنغ كرونيكل » ٢٣ . تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٠ .

(١٣٠) مجلة « ريفي لوفال سيال » ج - ٥ - لاكروا ، ١٠ تموز (يوليو) ١٨٦٠ .

(١٣١) من القنصل دي لا يسبس الى وزير الخارجية ٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٥٨ .

(١٣٢) المصدر السابق .

(١٣٣) نبيل ، مصطفى - مثلث الخطر - دار الكلمة - بيروت ص ٤٦ .

(١٣٤) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(١٣٥) لقمان ، حمزة علي - معارك حاسمة في تاريخ اليمن ص ١٣٢ - مركز الدراسات اليمنية - صنعاء .

(١٣٦) المصدر السابق ص ٩٦ .

(١٣٧) المصدر السابق ص ١١٧ .

(١٣٨) قلعجي ، قدري ـ الخليج العربي ص ٣١١ دار اكاتب العربي .

(١٣٩) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(١٤٠) لقمان ، حمزة على مرجع سابق ص ١٥١ .

(١٤١) شريف ، د. محمد بديع مرجع سابق ص ٢١٣ .

(١٤٢) المصدر السابق ص ٢١٧ .

(١٤٣) ستيوارت مرجع سابق ص ١٩١ .

(١٤٤) المرجع سابق ص ١٩٤ .

(١٤٥) لورانس ـ اعمدة الحكمة السبعة ـ دار الاداب ص ٢٠٩ .

(١٤٦) ستيوارت مرجع سابق ص ١٩٥ .

(١٤٧) لورانس مرجع سابق ص ٢١٧ .

(١٤٨) شريف ، د . محمد بديع مرجع سابق ص ١١٣ .

(١٤٩) البطريق ، مرجع سابق ص ١٤١ .

(١٥٠) الخوند ، مسعود ـ المعجم التاريخي للبلدان والدول ص ٣٤٠ ـ ١٩٨٢ بيروت .

(١٥١) هنانو ، فوزي ـ الوضع السياسي والاجتماعي لبلدان حوض البحر المتوسط ص ٩ المطبعة العصرية ـ بيروت .

(١٥٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .

(١٥٣) شهدت روسيا خلال الحرب العالمية الاولى ثورتين . اطاح كيرنسكي بالقيصر ، ثم جاء لينين ليتغلب عليه .

(١٥٤) هنانو مرجع سابق ص ١٩ .

(١٥٥) هكر شلاغ ، ز،ي ـ مدخل الى التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط ـ دار الحقيقة ص ٥٥ هامش .

(١٥٦) المصدر السابق ص ٤٨ .

(١٥٧) Z.Seine arab-Turkish relations and the emeregence of arab nationalism, Beirut P12.

(١٥٨) — K.SAL-Rusary, three reformers P. 55-56

(١٥٩) المعلومات من وقائع المؤتمر وكلمات اعضاء الوفود من كتاب « المؤتمر العربي الأول » ـ القاهرة ١٩١٣ .

(١٦٠) ارشيف الخارجية البريطانية .

(١٦١) ستيوارت مرجع سابق ص ٢١٢ .

(١٦٢) المرجع السابق ص ٢١٤ .

(١٦٣) شريف ، د. محمد بديع مرجع سابق ص ١٠٣٨ .

(١٦٤) الرافعي ، عبد الرحمن ـ مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ـ مكتبة النهضة المصرية ص ٢٩ .

(١٦٥) جريدة « المؤيد » ٢٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٢ .

(١٦٦) مذكرات سعد زغلول الخطية ـ كراس ٣٢ ص ١٨٤٢ ـ نقلا عن الرافض مرجع سابق .

(١٦٧) طومسون ، عمر ـ مذكرة بما صدر عنا منذ فجر الحركة الوطنية من ١٩١٨ الى سنة ١٩٢٨ القاهرة ـ ١٩٤٢ ـ ص ٤ .

(١٦٨) السعيد د. رفعت ـ سعد زغلول ـ الاهرام ص ١٣٢ .

(١٦٩) المصدر السابق ص ٩٦ .

(١٧٠) التلعفري ، علي ـ بين ثورة مصر وثورة العراق ـ دراسة في مجلة دراسات عربية ـ ١٩٧٠ تشين الأول (اكتوبر) .

(١٧١) لونكربك ـ اربعة قرون عن تاريخ العراق الحديث ص ٢٨٥ ـ بغداد ١٩٥٤ .

(١٧٢) نوار ، د. عبد العزيز ـ الهلال العدد سنة ١٩٦٥ ـ ثورة ١٨٣٢ في العراق .

(١٧٣) المصدر السابق .

(١٧٤) انيس ، محمد ـ مجلة الكاتب ـ اغسطس ١٩٧٦ العدد ٥٣ ـ ثورة ١٩١٩ .

(١٧٥) المصدر نفسه .

(١٧٦) الحسني ، عبد الرزاق ـ الثورة العراقية الكبرى ص ٤٩ طبعة ثانية ١٩٦٥ .

(١٧٧) القباص ، عبد الله ـ الثوزة العراقية الكبرى ـ ص ٤٩ ـ ١٩٦٣ .

(١٧٨) الخالد ، خلدون ملحق النهار الاسبوعي ١٩٧٠/٥/٤ .

(١٧٩) المعجم التاريخي مصدر سابق .

(١٨٠) المصدر السابق ص ١٥ .

(١٨١) امصدر السابق ص ٤٩٩ .

(١٨٢) المصدر السابق ص ١٩٨ .

(١٨٣) راجع العصر الاسرائيلي للمؤلف دار اقرأ ـ بيروت ١٩٨٣.

(١٨٤) وثيقة قدمت إلى الجامعة العربية كدراسة عن الواقع العربي والتجزئة عام ١٩٧٧ .

(١٨٥) المصدر السابق .

(١٨٦) المعجم التاريخي مرجع سابق .

(١٨٧) ستيوارت مرجع سابق ص ٢٨٦ .

(١٨٨) الوثيقة مرجع سابق .

(١٨٩) ستيوارت ص ٨٦ مرجع سابق .

(١٩٠) ابو عزالدين مرجع سابق .

(١٩١) المرجع السابق .

(١٩٢) الشريف د. محمد بديع مرجع سابق ص ٢١١ .

(١٩٣) باستيريا مرجع سابق ص ٩٧ .

(١٩٤) اوديب بينون ـ صحيفة اليهودية والصهيونية ترجمة جريدة « السفير » اللبنانية ، و« الاهرام الاقتصادي » ونشرت في كتاب يوميات الغزو الاسرائيلي ص ١٠ .

(١٩٥) سماحة ، جوزيف ـ مجلة « الشراع » اللبنانية المجلد الرابع ١٩٨٢ ـ تشرين الأول .

(١٩٦) المعجم التاريخي مرجع سابق ص ٣٤ .

(١٩٧) ستيوارت مرجع سابق ص ١٥٨ .

(١٩٨) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(١٩٩) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٢٠٠) المعجم التاريخي مرجع سابق ص ٣٣٨ .

(٢٠١) شريف ، د. محمد بديع مرجع سابق ص ٣٩١ .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ٣٨٨ .

(٢٠٣) العارف ، عارف ـ النكبة ـ الجزء الثاني ص ٤٦١ المكتبة العربية ، صيدا .

(٢٠٤) الدرّه ، محمود ـ الحرب العراقية ـ البريطانية ١٩٤١ ص ٣٢٦ ـ دار الطبيعة ـ بيروت .

(٢٠٥) الهندي ، هاني ـ جيش الانقاذ ص ١٨ ـ دار القدس ـ بيروت .

(٢٠٦) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢٠٧) الجبوري ، صالح ـ محنة فلسطينية واسرارها السياسية والعسكرية ص ١١١ .

(٢٠٨) العارف مصدر سابق ص ١٦ ـ الجزء الثاني .

(٢٠٩) المصدر السابق ـ حاشية ص ١٦ .

(٢١٠) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢١١) من برقية مفتي فلسطين إلى الأمم المتحدة ـ جريدة « النهار » رقم ٣٨٤٨ ـ ١٩٤٨/٤/١ .

(٢١٢) محنة فلسطين ص ١٣١ .

(٢١٣) القاوقجي : مقاطع من رسالة الى عامر حسك ، منشور في مقدمة كتاب حسك : من مأساة فلسطين ص ١٢ .

(٢١٤) العارف مصدر سابق الجزء الثاني ص ٤٥٩ .

(٢١٥) جمعية انقاذ فلسطين ـ كارثة فلسطين ـ ص ٥٨ .

(٢١٦) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٢١٧) مقابلة مع شوكث شقير في بيروت ـ النهار ـ ١٩٧٣/٣/٢ .

(٢١٨) Alon: The making of israël's army p 62.

(٢١٩) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٢٢٠) المصدر السابق ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢٢١) الهاشمي ، طه ـ مذكرات ١٩١٩ ـ ١٩٤٣ ص ٢٢٩ دار الطيعة .

(٢٢٢) الجوهري جوزيف روزفتال ، والمحامي انطوان مارون ، وحسين العربي .

(٢٢٣) حدد هذا الهلال مرتين ، أولاً في الثلاثينات وكان يمتد من جبال طوروس في الشمال الى قناة السويس في الجنوب . اما التحديد الثاني فقد ضم جزيرة قبرص كنجم في الهلال الذي ينحرف شرقاً ليضم العراق .

(٢٢٤) يعتبر هذا الكتاب سرياً ، وقد حصلت عليه مجلة « الشراع » اللبنانية ونشرته . ٩ / ٥ / ١٩٨٣ .

(٢٢٥) ديستريا مرجع سابق ص ٦١ .

(٢٢٦) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢٢٧) ستيوارت ـ مرجع سابق ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٢٢٨) ديستريا مرجع سابق ص ٧٤ .

(٢٢٩) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢٣٠) القناة لنا ـ صادر عن مجلة « المصور » ١٩٥٨ ص ٥٩ .

(٢٣١) ريمون كارتيه ، الحرب العالمية الثانية ، الجزء الأول ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٢٣٢) المصدر السابق ـ الجزء الثاني ص ٨٢ ـ ٧٣ ـ ٧٣ .

(٢٣٣) المؤلف رحلة القمر ـ ص ٢٢ ـ منشورات مجلة المصارف .

(٢٣٤) اليافي ، د. سليم ، الأمين العام المساعد للجامعة العربية ـ مجلة « الأفكار » العدد ٤ ـ ١٩٨٢/٣/٢٢ .

(٢٣٥) الموسوعة العربية ـ مرجع سابق ص ٢٢٦ .

(٢٣٦) احجري ، سالم الصالحين ـ مجلة دراسات عربية ـ العدد ١٢ ـ ١٩٦٩ ص ٢٢ .

(٢٣٧) الاصفهاني ، نبيه ، مجله المستقبل العربي ١٩٨٠/٤/٤ ـ تطور الحركة السياسية في منطقة المغرب العربي ص ٨٢ .

(٢٣٨) الحفناوي ، محمد سعد الله ـ تعريف الخلف برجال السلف ـ الجزء ص ١٩ .

(٢٣٩) ابو القاسم ، سعد الله ـ الحركة الوطنية الجزائرية ـ دار الأداب ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٢٤٠) الفاسي ـ علال ـ تاريخ الحركات الوطنية في شمال افريقيا .

(٢٤١) في هذا العام احتلت ايطاليا ليبيا ، فاضرب في تونس عمال الترام وقامت مظاهرات ادت الى تصادم بين التونسيين والايطاليين اسفرت عن عدد كبير من القتلى والجرحى .

(٢٤٢) Albert Ayache-Histoire du maroc-Paris-PP69-70.

(٢٤٣) الاصفهاني ، نبيه مرجع سابق ص ٩٠ .

(٢٤٤) ستيوارت مرجع سابق ص ٢٦٢ .

(٢٤٥) المصدر السابق ص ٢٦٦ .

(٢٤٦) المصدر السابق ص ٢٦٧ .

(٢٤٧) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(٢٤٨) مالك ، عادل ـ من ردوس إلى جنيف ـ دار النهار ـ ص ١٠٢ من درشيف السيد محمد علي حمادة .

(٢٤٩) السيد ، جلال ـ فلسطين قضية تحرير ـ مجلة الكاتب العدد ٨١ السنة السابعة ١٩٦٧ ص ١١ .

(٢٥٠) ابو عز الدين ، مرجع سابق ص ٣٠٠ .

(٢٥١) حمادة ، محمد علي ـ مذكرات غير منشورة اعطاني هذا الجزء منها (كانون اول ـ ١٩٨٤) .

(٢٥٢) ندوة صحفية في مجلة « الكفاح العربي » ـ العدد ٣٣٤ ـ و٣٣٥ ، تاريخ ٣ و١٠/١٢/١٩٨٤ ساق الكلام فيها السفير محمد علي حمادة الذي كان حاضراً مؤتمر القاهرة .

(٢٥٣) رياض ، محمود ـ مذكرات محمود رياض ١٩٤٨ ـ ١٩٧٨ ، المؤسسة العربية للدراسات ص ١٥ .

(٢٥٤) ندوة صحافية ، مرجع سابق ص ٨ .

(٢٥٥) المرجع السابق .

(٢٥٦) المرجع السابق .

(٢٥٧) المرجع السابق .

(٢٥٨) المرجع السابق .

(٢٥٩) المرجع السابق .

(٢٦٠) المرجع السابق .

(٢٦١) راجع حسين ، الملك ، مفتي الملك ص ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ورمضان ، د. عبد العظيم مذكرات السياسيين والزعماء في مصر ـ النشاشيبي ص ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٢٦٢) مالك ، عادل مرجع سابق ص ١٥ ـ ثم اتبعها بوثيقة ص ١٦ = المصدر نفسه .

(٢٦٣) المصدر السابق من مقدمة للدكتور شارل مالك ١٩٧٤/١/١٧ .

(٢٦٤) قلغجي ، قدري ـ الخليج العربي دار الكاتب العربي ص ٥١٩ .

(٢٦٥) المصدر السابق ص ٥٢٣ .

(٢٦٦) المصدر السابق ص ٢٥٠ .

(٢٦٧) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٢٦٨) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٢٦٩) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٢٧٠) قلعجي مصدر سابق ص ٢١٦ .

(٢٧١) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٢٧٢) راجع مرديني زهير ـ اللدودان الوفد والاخوان ـ الكتاب بخط اليد ص ٧ . نشرته دار اقرأ عام ١٩٨٤ .

(٢٧٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٢٧٤) انيس د. محمد ـ حريق القاهرة ـ المؤسسة العربية للدراسات ص ١٣ .

(٢٧٥) مرديني ، مرجع سابق ص ٤٩ .

(٢٧٦) انيس ، مرجع سابق ، ص ٨ تاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٥١ .

(٢٧٧) وجه الاتهام الى وزير الداخلية الوفدي فؤاد سراج الدين .

(٢٧٨) انيس ، مرجع سابق ص ٥٤ .

(٢٧٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(٢٨٠) مريديني ، مرجع سابق ص ٩٦ .

(٢٨١) حديث مع المفكر اللبناني منح الصلح (١٩٨٤) . .

(٢٨٢) راجع هيكل ، محمد حسنين ـ قصة السويس ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ص ١٩ .

(٢٨٣) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢٨٤) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٢٨٥) ابو عزالدين ، د. حليم مرجع سابق ص ٤٥٦ .

(٢٨٦) هيكل محمد حسنين مرجع سابق ص ٢٨ .

(٢٨٧) (محمود عبد اللطيف نفذ العملية ولكنها فشلت في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٤) .

(٢٨٨) ديستريا بيير ، مرجع سابق ص ١٢٩ .

(٢٨٩) المصدر السابق ص ١٣١ .

(٢٩٠) شيبان د. انطوان قرار اميركا بالفشل في الشرق الأوسط (١٩٨٤) ص ٧٨ .

(٢٩١) ديستريا بيير ـ مرجع سابق ص ١٤٩ .

(٢٩٢) عادل ، عامر ـ المؤامرة مستمرة ـ القاهرة ١٩٥٧ ص ١١٧ .

(٢٩٣) التايمز النيويوركية في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٨ .

(٢٩٤) ابو عزالدين ، د. حليم مرجع سابق ص ٥٢٦ .

(٢٩٥) غريب د. ميشال التطور الاتحادي العربي ـ بيروت ص ١١٧ .

(٢٩٦) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٢٩٧) المصدر السابق ١٢١ .

(٢٩٨) المصدر السابق ١١٨ .

(٢٩٩) البزاز ، عبد الرحمن ـ الدولة ، الموحدة والدولة الوحدوية ـ مطبعة القلم ، القاهرة ١٩٦٠ . ص ٦٣ .

(٣٠٠) صعب ، د. حسن ، علم السياسة ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٢٥٩ .

(٣٠١) المصدر السابق ص ٢٧١ .

(٣٠٢) محاضر محادثات الوحدة ـ بصراحة ـ القاهرة ـ الاهرام ـ ص ٩ ١٩٦٣ .

(٣٠٣) عنتباوي ، منار مرجع سابق ص ١٨٦ .

(٣٠٤) ندوة حول الوحدة والنكسة ـ دراسات عربية ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ص ١٢٠ .

(٣٠٥) ابو عز الدين ـ مرجع سابق ص ٥٣٠٠ .

(٣٠٦) المرجع السابق ٥٣١ .

(٣٠٧) المرجع السابق ص ٥٣٣ .

(٣٠٨) علوش ، ناجي ـ مجلة دراسات عربية ص ٢ العدد ١٢ ـ ١٩٧١ .

(٣٠٩) شميس ، عبد المنعم ـ ستة ايام في سوريا ص ٤ .

(٣١٠) فريدريك وليم ملك ـ روسيا ـ غرانت وتمبرلي ـ اوروبا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لندن ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٣١١) راجع الرزاز ، منيف ـ الوحدة العربية هل لها من سبيل ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص ٤٣ .

فهرس

الفصل الأول :

الإنهيار الكبير وولادة الاستعمار

الفصل الثاني :

زمن الثورات

الفصل الثالث :

الثورة المصرية والتحول التاريخي المعاصر

للمؤلف

١ ـ الطلاب تمرد وثورة ـ دار العودة ـ ١٩٦٩ .
٢ ـ عبد الناصر الشهيد الحي ـ دار الصياد ـ ١٩٧٠ .
٣ ـ كلمات هزت لبنان ـ طبعة ثانية الدار الشرقية (ايبا) للطباعة والنشر ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠ .
٤ ـ ديغول ـ دار الصياد ـ ١٩٧٢ .
٥ ـ المجلس الوطني الفلسطيني ـ دار الصياد ـ ١٩٧٣ .
٦ ـ القبضة الحديدية ـ الدار الشرقية (ايبا) للطباعة والنشر ـ ١٩٧٣ .
٧ ـ الطلاب والثورة ـ دار الصياد ـ ١٩٧٤ .
٨ ـ كنت في أريتريا ـ الدار الشرقية (ايبا) للطباعة والنشر ـ ١٩٧٧ .
٩ ـ القرن الأفريقي ـ الدار الشرقية (ايبا) للطباعة والنشر ١٩٨٠ .
١٠ ـ كاترين (رواية) ـ دار طي للطباعة والنشر ـ ١٩٨٢ .
١١ ـ سهرة في بيت الكوكو (رواية) ـ دار الكتاب الحديث للطباعة والنشر ١٩٨٣ .
١٢ ـ العصر الإسرائيلي ـ دار إقرأ ـ ١٩٨٣ .
١٣ ـ محمد الفيتوري والمرايا الدائرية ـ الدار العربية للموسوعات ـ ١٩٨٤ .
١٤ ـ عبد الناصر ... قصص وصور ـ دار الوخدة ١٩٨٥ .

تحت الطبع

ـ إخلاص (رواية).
ـ الندامى (رواية).
ـ نوّارة (رواية).